الإحاطة في أخبار غرناطة

لذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب

حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه

محمد عبد الله عنان

المجلد الأول

روجعت على مخطوطات جديدة بالخزائن المغربية

الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الرابعة

١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٣٧٣٤
الترقيم الدولى : 2 - 91 - 5046 - 977

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٣٣٨٢٤٠ - ٣٣٨٢٤٢ - ٠١١/٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حينما عنيت بتحقيق المجلد الأول من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » لابن الخطيب ، وإصداره فى سنة ١٩٥٦ ، كنت أظن أن مهمتى فى تحقيق هذه الموسوعة الأندلسية الجليلة ، ستقف عند هذا الحد ، وأن غيرى من الزملاء الباحثين والمحققين ، سوف يتولى إخراج باقى أجزائه .

ومضت الأعوام ، وشغلت بالعمل فى إتمام موسوعة الأندلس التاريخية ، حتى كملت بعون الله ، منذ بضعة أعوام ، وقمت بعد ذلك بدراسة وافية لحياة ابن الخطيب وآثاره ، صدرت فى مجلد كبير فى سنة ١٩٦٨ . وبقى كتاب الإحاطة خلال هذه الأعوام المتتالية ، حيث كان ، ولم يعن أحد من الباحثين بشأنه .

عندئذ عقدت العزم ، على استئناف العمل ، فى تحقيق هذه الموسوعة العظيمة ، وقمت خصيصا لهذا الغرض بثلاث رحلات دراسية متوالية ، فى اسبانيا والمغرب وتونس ، توفرت خلالها على دراسة سائر مخطوطات كتاب الإحاطة ، الموجودة فى مكتبة الإسكوريال ، ومكتبة أكاديمية التاريخ ، والمكتبة الوطنية بمدريد ، والخزائن المغربية فى الرباط وفاس ، ومخطوط جامع الزيتونة بتونس .

وكتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » كما يسمى فى مخطوطة دار الكتب المصرية ، ومخطوطة جامع الزيتونة بتونس ، أو « الإحاطة بتاريخ غرناطة » أو « الإحاطة فى تاريخ غرناطة » أو « الإحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة » هو بلا ريب أشهر كتب ابن الخطيب وأضخمها وأقيمها .

وهو ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود ، ولكنه عبارة عن موسوعة شاملة لكل ما يتعلق بهذه المدينة الأندلسية التالدة ، من الأخبار والأوصاف والمعالم ،

فهو يتناول وصفها وجغرافيتها، وخططها ، ومواقعها ، وما يحيط بها ، من المروج والجبال ، ثم يتناول تاريخها مذ نزل بها العرب الأوائل ، وأخبار من كان بها ، ومن نزلها أو مر بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلبين ، كما يتضمن خلاصة لتاريخ الدولة النصرية منذ عصر مؤسسها محمد بن يوسف ابن الأحمر حتى عصر المؤلف . وهذا عدا ما يورده المؤلف خلال موسوعته من تراجم فياضة لملوك الدولة النصرية المتعاقبين .

ويورد لنا ابن الخطيب فى كتاب « الإحاطة » ، تراجم طائفة كبيرة من الأعلام والأكابر ، الذين عاشوا فى غرناطة ، أو نزلوا بها ، أو وفدوا عليها فى مختلف عصور التاريخ الأندلسى ، ويفيض فى ذكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران ، ويعنى عناية خاصة بترجمة أكابر العلماء والكتاب والشعراء من معاصريه ، سواء فى الأندلس أو المغرب ، ويورد لنا كثيراً من شعرهم ونثرهم . ويضم كتاب « الإحاطة » من هذه التراجم زهاء الخمسمائة .

ويتناول ابن الخطيب من خلال هذه التراجم ، تاريخ عصره وملوك عصره ، سواء فى الأندلس أو المغرب ، بدقة وإحاطة ، ويصف ما وقع فيه من الأحداث السياسية والعسكرية ، وصف الخبير المطلع ، ورجل الدولة الواقف على دقائق الأمور والعوامل والأسباب .

وهو لا يلتزم فى كتابه الترتيب التاريخى ، للعصور والحوادث والأشخاص ، ولكنه يلتزم الترتيب الأبجدى لأصحاب التراجم ، غير أنه لا يلتزمه بصورة دقيقة.

وقد ذكر لنا ابن الخطيب مصادره فى مقدمته ، وفى سياق كتابه ، وفى مقدمتها ، تواريخ ابن القوطية وبنى الرازى ، والمقتبس لابن حيان ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، والذخيرة لابن بسام ، وتاريخ مالقة لابن عسكر ، والبيان المغرب لابن عذارى المراكشى ، وروض القرطاس لابن أبى زرع الفاسى . ورجع فيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية ، وسير أعيانها ، بالأخص ، إلى تاريخ ابن الصيرفى المسمى « بالأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية » وهو يكثر الاقتباس منه . وأما فيما يتعلق بالتراجم ، فقد رجع ابن الخطيب إلى « علماء إلبيرة » لأبى القاسم الغافقى ، وإلى تاريخ ابن مسعدة ، المسمى « تاريخ قومه » ، وإلى « القدح المعلّى فى التاريخ المحلى » وإلى «الطالع السعيد فى تاريخ

بنى سعيد » لأبى الحسن على بن سعيد الأندلسى ، وإلى كتاب « الحلة السيراء » لابن الأبار ، وكتاب « الصلة » لابن بشكوال ، و« صلة الصلة » لابن الزبير ، و« الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشى . ورجع فيما يتعلق بمعاصريه ،وهم الكثرة الغالبة ، فى كتاب الإحاطة ، من أشياخ وأقران وتلاميذ وغيرهم ، إلى مادة غزيرة ، من الوثائق والمعلومات الخاصة من ذوى الشأن أنفسهم ، أو من أقربائهم ومعارفهم . ورجع فيما يتعلق بسلاطين الدولة النصرية ، ووزرائها وأكابر دولتها ، إلى الوثائق والمخطوطات السلطانية والديوانية .

وينقل ابن الخطيب فى كتاب « الإحاطة » نبذاً من كتبه السابقة ، التى ألفها من قبل ، ومنها كتاب « عائد الصلة » الذى جعله ذيلا لصلة ابن الزبير ، و«طرفة العصر فى دولة بنى نصر » و« اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » و« نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » و« الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » و« التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . وينقل ابن الخطيب فى بعض كتبه من البعض الآخر ، كثيراً من الشذور ، وهذه ظاهرة ملحوظة فى كثير من مؤلفاته .

وأما عن تاريخ تأليف كتاب « الإحاطة » ، فإنه يبدو أن ابن الخطيب قد بدأ فى كتابته أو جمع مواده ، قبل محنته الأولى ، حينما عزل سلطانه ، ونفى معه إلى المغرب ، وذلك فى سنة ٧٦١ هـ ، وأنه استأنف الكتابة فيه ، عقب عودته من منفاه بالمغرب إلى غرناطة فى سنة ٧٦٣هـ . وقد استمر ابن الخطيب فى وزارته الثانية ، متربعاً فى دست الحكم والرياسة ، زهاء عشرة أعوام . وقد كانت هذه الفترة الطويلة التى هى من ألمع فترات حياته ، وأكثرها استقرارا ،وأوفرها نضجاً ، من أخصب فترات إنتاجه ، وفيها وضع كثيراً من كتبه ورسائله ، ودبج كثيراً من النظم والنثر ، وفيها استمر فى كتابة تراجم الإحاطة ، حسبما يبدو ذلك فى كثير من إشاراته ، وأتمه لأول مرة قبل أوائل سنة ٧٦٩ هـ ، وذلك حسبما يبدو مما كتبه ابن الخطيب إلى ابن خلدون فى رسالة مؤرخة فى جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ وفيها يقول له إنه بعث بنسخة من «الإحاطة » إلى المشرق (١) . ويستدل من إشارات كثيرة أيضاً على أن ابن الخطيب استمر يدون

(١) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١) ص ١٢١

وينقح تباعاً فى تراجم الإحاطة ، حتى أوائل سنة ٧٧٢ هـ . وإليك بعض هذه الإشارات :

قال ابن الخطيب فى خاتمة ترجمته لنفسه ، فى نهاية كتاب « الإحاطة » (مخطوط الإسكوريال) : « والحال إلى هذا العهد وهو منتصف عام خمسة وستين وسبعمائة على ما ذكرته » .

ويحدثنا فى نهاية ترجمة ابراهيم بن عبد الله ... بن قاسم النميرى (ابن الحاج) عن أسر ابن الحاج ومحنته فى جمادى الأولى سنة ٧٦٨ هـ .

ويقول لنا فى ترجمة أحمد بن خاتمة الأنصارى شاعر ألمرية ، « وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثانى عشر شعبان سنة سبعين وسبعمائة » .

ويسرد ابن الخطيب تاريخ الغزوات الأندلسية فى عهد مليكه الغنى بالله حتى سنة ٧٦٨ هـ . ثم يقول لنا إن المسلمين استمروا فى غزواتهم حتى وصلوا إلى أحواز إشبيلية فى ربيع الأول سنة ٧٧١ هـ .

وقد شُغل ابن الخطيب بعد ذلك بتأليف كتب جديدة ، تمليها ظروف نزوحه الثانى إلى المغرب ، مثل كتاب « أعمال الأعلام » والرد على خصيمه القاضى أبى الحسن النباهى .

وقد تولى تلميذ ابن الخطيب ، أبو عبد الله الشريشى مؤدب أولاد السلطان الغنى بالله ، نسخ كتاب الإحاطة لأول مرة ، من مسودات أستاذه ، وكان يثق به ويعتمد على معاونته ، فجاءت هذه النسخة الأولى من « الإحاطة » حسبما ، يحدثنا المقرى فى ستة مجلدات ، على أن النسخة الوحيدة المقول بأنها هى النسخة الكاملة ، التى انتهت إلينا من « الإحاطة » ، هى نسخة جامع الزيتونة ، وهى تقع فى ثلاثة مجلدات .

وأورد لنا الأمير ابن الأحمر ، حفيد السلطان الغنى بالله ، فى أصل تأليف كتاب « الإحاطة » رواية خلاصتها أن الأديب الغرناطى أبا عبد الله محمد بن جُزى ، كاتب السلطان أبى الحجاج ، عبر إلى العدوة ، مغضوباً عليه ملتجئاً إلى السلطان أبى عنان سنة ٧٥٣هـ ، فأكرم أبو عنان وفادته ، وطلب إليه أن يضع مؤلفاً عن الأندلس ، فوضع فى ذلك كتابا متقنا جامعا . ولما عبر ابن الخطيب إلى المغرب فى أواخر سنة ٧٥٥ هـ عقب مصرع السلطان أبى الحجاج ، سفيراً عن

سلطانه الغنى بالله ، إلى السلطان أبى عنان ، اطلع على مؤلف ابن جزى المذكور وأعجب بمحتوياته ، وخطر له أن يقوم بوضع كتاب فى « الإحاطة ، بما تيسر من تاريخ غرناطة » . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه فى ترجمته لابن جزى ، الواردة بالجزء الثانى من « الإحاطة » ، إنه اطلع على أجزاء من مؤلف ابن جزى المذكور « تشهد باضطلاعه » ، وأنه أى ابن جزى « قيد بخطه من الأجزاء الحديثة ، والفوايد والأشعار ، ما يفوت الوصف ، ويفوق الحد » . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس ، وألفى الحاجب الكبير أبا النعيم رضوان متربعاً فى منصب الحجابة والوزارة ، وشعر أنه لايستطيع إلى جانبه ، أن يزاول ماكان يطمح إليه من السلطان ، انتهز فرصة هذا الانتباذ ، وعكف على تأليف كتاب « الإحاطة » وأخذ يدون تاريخ المواليد والوفيات والأسماء والألقاب ، ويراجع مختلف المصنفات ، وكان ساعده الأيمن فى ذلك أبوعبد الله الشريشى ، فهو الذى تولى نقل المسودات وترتيبها وتبويبها ، حتى تم الكتاب فى ستة مجلدات . ولما عاد ابن الخطيب إلى الأندلس ، عقب انتهاء محنته الأولى فى سنة ٧٦٣ هـ ، عاد إلى مراجعة كتاب « الإحاطة » والزيادة فيه ، حتى تحقق ماكان يبغيه له من السعة والإحاطة ؛ وتمت نسخته الأولى فى اثنى عشر سفرا (١) .

ولقد قمنا بتحقيق المجلد الأول من « الإحاطة » حسبما ورد فى مقدمة طبعته الأولى ، وفق مخطوطات (الزيتونة — كوديرا) وجاينجوس بمكتبة أكاديمية التاريخ ، ومخطوط دار الكتب المصرية ، ومخطوط رواق المغاربة بالجامع الأزهر ، ولكنا قمنا خلال رحلاتنا إلى المغرب بمراجعته مراجعة جديدة ، على ضوء مخطوط قديم من الإحاطة ، يتضمن الجزء الأول ومعظم الجزء الثانى ، ويحفظ بالخزانة الملكية بالرباط برقم 1840 ، وقد ظفرنا من هذه المراجعة الجديدة بتصحيحات كثيرة قيمة للنص المنشور .

أما المجلد الثانى من الإحاطة ، فقد اتخذ مخطوط جاينجوس أساساً لنصه ، حسبما اتبع فى المجلد الأول ، وتمت مراجعته على المجلد الثانى ، من مخطوط جامع الزيتونة ، وإن كان هذا المخطوط يختلف فى نهايته عن مخطوط جاينجوس ،

(١) نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٦٥٨ و ٦٥٩

ويضم عدداً من التراجم التى لم ترد فى المخطوط الأول ، وكذلك تمت مراجعته على المخطوط المحفوظ بخزانة الرباط الملكية .

وقد وُسمت معظم المخطوطات التى بين أيدينا من كتاب « الإحاطة » بأنها « مختصر الإحاطة » ، وهذا مما يثير أمامنا نقطة دقيقة ، إذ معنى ذلك أنه لم يصل إلينا شىء من كتاب الإحاطة بنصه الكامل . على أن هذا الفرض يتضاءل شيئاً فشيئاً ، متى علمنا أنه بمقارنة كثير من التراجم التى نقلها المقرى فى « نفح الطيب » من كتاب الإحاطة ، ولاسيما تراجم شيوخ ابن الخطيب نفسه ، لم نجد فروقاً كبيرة فى النص أو الحجم ، بينها وبين نظائرها فى المخطوطات التى انتهت إلينا ، والتى نتخذها اليوم أساساً لنشر كتاب « الإحاطة » . ومن جهة أخرى فإنه يبدو من مراجعة التراجم الواردة فى أواخر الجزء الثانى من مخطوط الزيتونة ، بنظائرها الواردة فى مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور ، أن تراجم مخطوط الإسكوريال تتفوق من حيث أحجامها ، فهى أطول وأوفى من نظائرها فى الزيتونة ، وهى فى باب الشعر بالأخص تضم كثيراً من القصائد التى لم ترد فى الزيتونة . وعلى هذا فإنه بالرغم من أن مخطوط الإسكوريال المشار إليه ، يوسم فى صفحة العنوان ، وفى مواضع أخرى منه ، عند اختتام بعض الأبواب ، بأنه « مختصر الإحاطة » — فمثلا يقول لنا الناسخ صراحة ما يأتى عقب نهاية السفر السابع « انتهى ما اختصرته من السفر السابع من كتاب الإحاطة فى تاريخ غرناطة ، يتلوه السفر الثامن من بعده إنشاء الله » (لوحة ١٠٠ من المخطوط) ، ووردت كذلك مثل هذه الإشارة فى نهاية السفر العاشر (لوحة ٣٣٧) ، وكذلك فى نهاية السفر الحادى عشر (لوحة ٤١٧) . بالرغم من ذلك كله ، فإننا نعتقد أن مخطوط الإسكوريال هو أقرب النسخ المخطوطة ، من حيث النصوص والأحجام إلى الأصل المطول ، الذى يقول الناسخ إنه قد نقل منه . ومن ثم فإنه يمكن القول ، بأننا حتى إزاء هذه النسخ التى وسمت فعلا « بمختصر الإحاطة » نملك نصوصاً شبه متكاملة من المؤلف الأصلى ؛ وقد لاتنقصها سوى فقرات يسيرة أو بعض قصائد أو مختارات نثرية قصيرة ، أو تراجم غير هامة .

وقد أوضح لنا الناسخ نفسه فى غير موطن ، من مخطوط الإسكوريال ، صنوف اختصاراته ، فى إغفال بعض القصائد أو إغفال بعض أجزائها ، وحذف

المشيخة أى أسماء العلماء الذين أخذ عنهم المترجم له ، أوحذف بعضها . أما القسم التاريخى من التراجم فيلوح لنا أنه كان أكثر أقسام الكتاب احتفاظاً بنصوصه الأصيلة ، وبعداً عن الحذف أو الاختصار .

ولابد لنا أن نشير هنا إلى السبب الذى يدعونا أن نقوم بنشر كتاب الإحاطة كله من جديد ، فى حين أنه قد نشر منه فى سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) أعنى منذ سبعين عاما جزءان بمدينة القاهرة (عن شركة طبع الكتب العربية) أولهما فى ٣٧٥ صفحة ، والثانى فى ٣١٣ صفحة ، وهو ما يستغرق القطعة المحفوظة بدار الكتب (الجزء الأول من المطبوع) وقسما من الجزء الثانى من مخطوط جامع الزيتونة ، أو بعبارة أخرى ما يستغرق الجزء الأول من نسخة مكتبة الأكاديمية ، ومن الجزء الثانى حتى لوحة ١١٩ ، وما يستغرق من مخطوط جاينجو من معظمه وإلى ما قبل سبع وعشرين لوحة من نهايته .

والسبب واضح ، فإن هذا القسم الذى نشر ملىء بالأخطاء والتحريف ، بصورة تدعو إلى الرثاء، بحيث يقع هذا التحريف فى كل صفحة من صفحاته، بل فى كل سطر من سطوره ، وهذا ما يفقده كثيراً من قيمته ، هذا فضلا عما يتخلله مع شديد الأسف فى أحيان كثيرة ، من صنوف الاختراع والمسخ التى هو براء منها، والزيادات الغريبة، المنقولة من كتب أخرى. وقد نوه العلامة المستشرق زيبولد بهذا النقص والتشويه المؤسف منذ أكثر من خمسين عاما — وأعرب عن أمله فى أن تنشر من الإحاطة نسخة كاملة مصححة[1] وكان بعض أعلام المستشرقين وفى مقدمتهم المرحوم العلامة الأستاذ ليڤى بروڤنسال ، يعتزمون بالفعل العمل لإصدار الإحاطة[2]. ثم أن النص المطبوع نشر على علاته من مخطوط دار الكتب وجزء منقول عن نسخة جامع الزيتونة ، مشحون بالأخطاء ، ولم يقم الناشر بأية مقارنة أو تحقيق للنصوص ، ولم يعن بالأخص بتحقيق الأعلام الأندلسية والإسبانية ، ولم يقرن النص بأية هوامش أوتعليقات تفسيرية . وهذا ما عنينا نحن به كل العناية ، فى نشر هذا النص الجديد ، المحقق والمقارن ، من الإحاطة ، بصورة تتفق مع ما لهذا الأثر الأندلسى النفيس من أهمية ، ومع ما تتطلبه المناهج العلمية الحديثة ، من أساليب البحث والتحقيق المقارن .

---

(١) فى مقاله عن ابن الخطيب فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) الأستاذ بروفنسال فى مقدمته لكتاب الصلة (الرباط ١٩٣٧) .

— ١ —

وفيما يلى استعراض موجز ، لما انتهى إلينا من مخطوطات كتاب الإحاطة فى مختلف الخزائن .

(١) يوجد من الإحاطة نسخة كاملة من ثلاثة مجلدات بمكتبة جامع الزيتونة بتونس ، وكانت تحمل وقت وجودها بالجامع أرقام 3522 , 3523 , 3524 وهى تحمل اليوم بعد نقلها إلى دار الكتب الوطنية (مكتبة العطارين) أرقام 8134 , 8135 , 8136

وقد كان من المتعارف أن هذه النسخة ، هى النسخة الكاملة الوحيدة فى العالم من كتاب الإحاطة . بيد أنه بمقارنة مجموعة التراجم التى يحتويها الجزء الثالث من هذه النسخة ، بمجموعة التراجم التى يحتويها مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور ، وهو يحتوى أيضاً على الأسفار الأخيرة من الإحاطة ، يتضح أن هناك فارقاً كبيراً بين المجموعتين . ذلك أن مجموعة مخطوط الإسكوريال تحتوى على عدد كبير من التراجم التى لم ترد فى مخطوط الزيتونة ؛ هذا إلى أن مخطوط الإسكوريال يضم فى نهايته عند اختتام ابن الخطيب ترجمته لنفسه ، عدداً من رسائله السلطانية وغيرها مما يشغل اثنين وأربعين لوحة كبيرة (لوحة ٤٥٨ — ٥٠١) وهذه لم ترد فى مخطوط الزيتونة ، ويترتب على ذلك أن القول بأن نسخة الزيتونة ، هى نسخة كاملة من كتاب الإحاطة ، هو قول لا يتفق مع الواقع ، لأن نسخة الزيتونة ، ينقصها عشرات من التراجم والرسائل الواردة فى مخطوط الإسكوريال .

ونسخة الزيتونة مكتوبة بخط مغربى وموسومة فى نهايتها (نهاية الجزء الثالث) بأنها كتاب « الإحاطة » ، ومذكور أنه تم الفراغ من نسخها فى الثامن والعشرين من جمادى الثانية عام (1273) . وتحمل الأجزاء الثلاثة كل منها فى أوله صيغة وقف وتحبيس . وقد جاء فى صيغة التحبيس المرقومة على الجزء الأول ما يأتى : «الحمد لله — أشهد مولانا الملك الإمام ، مطاع السيوف والأقلام ، ظل الله الممدود على عباده ، ومنفذ أحكامه فى أرضه وبلاده ، سيدنا على باشا باى ، صاحب المملكة التونسية ، حرس الله بهجته السنية ؛ أنه حبس هذا الكتاب وهو الجزء الأول من الإحاطة فى أخبار غرناطة ، على من له أهلية الانتفاع به بمكتبة الجامع الأعظم بحاضرة تونس ، عمره الله بدوام ذكره ، مشترطاً عدم إخراجه

منها ، وأن يجرى العمل فيه على مقتضى الترتيب المؤرخ بالثانى والعشرين من ربيع الثانى عام اثنين وتسعين الفارط ، الممضى من جناب المقدس المبرور أخيه سيدنا محمد الصادق باشا ، تغمده الله برضوانه ، وأسكنه فسيح جنانه ، قاصداً بذلك وجه الله العظيم ، راجياً ثوابه الجسيم ، أشهدنا أيده الله بذلك ، وهو بأكمل حال ، وحسبما يتضمنه طابعه السعيد أعلاه ، دام فخره وعلاه ، بتاريخ غرة المحرم الحرام عام ثلاثمائة وألف.. » .

ويوجد مثل هذه الصيغة من التحبيس ، على الصفحة الأولى من كل من الجزئين الثانى والثالث ، مع تغيير يسير فى النص ، وبنفس الخط والتاريخ ، وفى أعلا كل منهما ختم الباشا الواقف . وفى أسفله توقيعات الواقف الشهود .

ويحتوى المجلد الأول على ٣٣٥ صفحة كبيرة ، وينتهى بقسم من ترجمة محمد ابن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن فرج بن يوسف بن نصر .

ويحتوى المجلد الثانى على ٢٩٩ صفحة ، ويبدأ ببقية ترجمة السلطان السابق ذكره ، وأول تراجمه محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر ابن قيس الخزرجى . وينتهى بترجمة محمد بن على بن عبد الله اللخمى .

ويحتوى الجزء الثالث على ٣٠٢ صفحة ، ويبدأ بترجمة محمد بن على بن فرج القربليانى ، وينتهى بترجمة يحيى بن ابراهيم بن يحيى البرغواطى ، ومكتوب فى نهايتها : « كمل مختصر الإحاطة » . ثم يلى ذلك ترجمة ابن الخطيب لنفسه .

وإنه ليبدو من مقارنة كتابة الأجزاء الثلاثة ، أن الجزئين الأول والثانى قد كتبا بخط واحد ، وأن الجزء الثالث قد كتب بخط آخر ، والخط فى الحالين مغربى .

ومن الملاحظ أن نسخة جامع الزيتونة هذه ، كثيرة التصحيف والتحريف ، وقد شعر ناسخ الجزء الثالث بذلك فكتب يعتذر فى خاتمة المخطوط ، بأن هذا التصحيف « يرجع بعضه إلى الأصل المكتوب منه هذا ، والبعض زلة قلم ، وهذا بالرغم من كون الأصل المذكور ، مكتوب بخط فى غاية الحسن والإتقان ، وكم رأيت من نسخ من هذا التأليف بديعة الخط ، ومع ذلك لم تسلم من التصحيف » .

(٢) وتحتفظ مكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد B. de la Real Academia de Historia بنسخة كاملة من كتاب الإحاطة تقع فى ثلاثة مجلدات ،

وقد جاء فى المذكرة الخاصة بها، أنها نسخت بمدينة فاس من نسخة مسجد تونس، ونسخة مسجد تونس هذه هى نسخة جامع الزيتونة السالفة الذكر ، وقد قام باستنساخ هذه النسخة، العلامة كوديرا أستاذ اللغة العربية بجامعة مدريد وعضو أكاديمية التاريخ ، وذلك فى أواخر القرن الماضى ، ضمن مجموعة أخرى من الكتب المخطوطة ، قام باستنساخها برسم مكتبة الأكاديمية ، خلال رحلة قام بها فى شمال إفريقية لهذا الغرض ، ولهذا لا نرى بأساً من أن نسمى هذه النسخة بمخطوط كوديرا (١) .

وتحفظ نسخة كوديرا هذه بمكتبة الأكاديمية برقم XXXIV

(٣) وتحتفظ مكتبة أكاديمية التاريخ أيضاً بنسخة أخرى من الإحاطة هى نسخة العلامة المستشرق دون باسكال جاينجوس Gayangos مترجم القسم التاريخى من كتاب « نفح الطيب »(٢) إلى اللغة الإنجليزية وهو من أعظم المستشرقين فى القرن الماضى ، وتحفظ بها برقم CXLII .

وهذه النسخة هى عبارة عن مجلد كبير يحتوى على مائتين وتسعين ورقة أعنى ٥٨٠ صفحة ، وفى كل صفحة ٢١ سطراً ، وقد كتبت بخط أندلسى قديم واضح ، ولا تحمل الصفحة الأولى من المخطوط عنوانا ، ولكنه يبدأ فى الصفحة الثانية على النحو الآتى « بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ، قال الشيخ الأديب البارع أبوعبد الله محمد بن عبد الله الخطيب » ولا يحمل المخطوط فى نهايته تاريخ نسخه بشكل واضح ، ولكن يبدو أنه قديم ، وقد يرجع نسخه إلى أواخر القرن التاسع ، ويعتقد المستشرق بونس بوبجس أنه كتب فى سنة ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م) .

ويضم مخطوط جاينجوس الجزأين الأول والثانى من مطبوع القاهرة القديم ، ويزيد عليهما سبعا وعشرين ورقة أخرى؛ تتضمن بقية التراجم الواردة فى الجزء الثانى من مخطوط الزيتونة، حتى قبل نهايته بترجمة واحدة. وقد اتخذنا مخطوط جاينجوس هذا أساساً لتدوين النص فى الجزئين الأول والثانى حسبما تقدمت الإشارة إليه .

(١) يراجع تقرير الأستاذ كوديرا عن مهمته العلمية فى تونس والجزائر.
Mision Historica en Argelia y Tunez (Madrid 1872. p. 174 & 175)

(٢) وعنوان هذه الترجمة الإنجليزية هو:
History of the Mohamedan Dynasties of Spain (London 1840-1843)

(٤) ويوجد بمكتبة سان لورنزو الملكية بالإسكوريال قطعتان كبيرتان من كتاب الإحاطة تحمل إحداهما رقم ١٦٦٨ من فهرس الغزيرى(١٦٧٣ ديرنبور) وهى أكبر قطعة وصلتنا من« الإحاطة »، وتقع فى إحدى وخمسمائة صفحةكبيرة وقد كتبت بخط أندلسى ، وكتب على صفحة العنوان أنها « السفر الثانى»[1] من « مختصر الإحاطة » وكتب عليها أيضاً « الحمد لله تملكه عبد الله تعالى زيدان أمير المؤمنين بن أحمد المنصور أمير المؤمنين » . وإذاً فقدكان هذا المخطوط ضمن محتويات المكتبة الزيدانية المراكشية التى استولى عليها الإسبان فى عرض البحر سنة ١٦١٤ م ، وضمت إلى مجموعة الإسكوريال الملكية . وتبدأ هذه القطعة بترجمة محمد بن أحمد بن محمد بن خيثمة الحبائى ، وتحتوى على تراجم من حروف الميم والنون ثم الصاد والعين ثم الميم مرة أخرى ، ثم العين فالغين فالفاء حتى حرف الياء،وتختتم بعد ترجمة يحيى بن ابراهيم بن يحيى البرغواطى ، بترجمة ابن الخطيب لنفسه (لوحة ٤٢٥ — ٤٦٠) . ويلى ذلك مختارات كثيرة من شعره ، ثم مختارات من نثره ، وهى عبارة عن بعض الرسائل التى كتبها عن السلطان أبى الحجاج يوسف ، وعن ولده السلطان أبى عبد الله محمد (الغنى بالله) ، ورسالة موجهة إلى الضريح النبوى ، ورسالة إلى ملك تونس ، ورسائل ابن الخطيب إلى ابن مرزوق، وابن خلدون ، وأخيه يحيى ، ثم عدة رسائل شخصية،ورسالة السياسة . ويورد ابن الخطيب بعد ذلك تاريخ مولده . ويستغرق ذلك كله حتى نهاية المخطوط، وهو نهاية كتاب الإحاطة .

وقد ورد فى نهاية المخطوط ، فى اللوحة التى قبل الأخيرة ما يأتى : « قلت هنا انتهى هذا التأليف المسمى بالإحاطة فى تاريخ غرناطة ، على سبيل الاختصار ، وتحصل منه ما أردناه من هذا المقدار . ووهبناه للناظر فيه ، هبة ليست بهبة اعتصار ، بل هى لتحصيله ذات انتصار . ولما لم يمكنه أن يعرف بمحنته ووفاته ، رأيت أنا بعده ، أن أعرف بذلك فى مختصره هذا على مهيعه وعادته ، فأقول » .

وهنا يورد الناسخ قصة مصرع ابن الخطيب ، منقولة من كتاب العبر .

---

(١) ومن الواضح أن المقصود « بالسفر» هنا هو الجزء أو المجلد ، بدليل أن المخطوط يفتتح من حيث التبويب (بالسفر السابع) . ومن المرجح أن النسخة الكاملة من الإحاطة من هذا المخطوط كانت تحتوى على مجلدين كبيرين .

ثم يرد بعد ذلك ، فى خاتمة الكتاب ما يأتى :

« انتهى من السفر الأخير منه حيث عرف بنفسه وبشيوخه ، رحمة الله على الجميع . قلت ، وهنا انتهى ما قصدناه ، وتم بحول الله ما أردناه واستوفيناه ، واستلحقناه ، وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها ، وعمر بالعلماء الأعلام وصالحى الإسلام عمرانها ، وبتاريخ أوائل شهر ربيع الآخر من عام خمسة وتسعين وثمانمائة والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى » .

وفى هذه العبارة الختامية ما يدعو إلى التأمل . ذلك لأن تاريخ الانتهاء من كتابة المخطوط ، وهو ربيع الآخر سنة ٨٩٥ هـ ، يوافق مارس سنة ١٤٩٠ م ، وهى فترة مزعجة فى تاريخ مملكة غرناطة ، إذ كانت الجيوش القشتالية بقيادة الملكين الكاثوليكيين ، فرناندو وإيسابيلا ، تهاجم قواعد الأندلس الأخيرة ، وتسقط هذه القواعد تباعاً فى أيدى النصارى . وكان مصير غرناطة ، يهتز يومئذ فى يد القدر ، وفى هذه الفترة الحرجة كتب مخطوط الإحاطة ، وتدلى عبارة الكاتب « وذلك بغرناطة أقالها الله وصانها » ، بما كان يشعر به أهل غرناطة ، يومئذ ، من ضروب التوجس والجزع على مصير غرناطة ومصايرهم ، وقد سقطت غرناطة بالفعل فى أيدى النصارى بعد ذلك بقليل ، فى يناير سنة ١٤٩٢ ، وانتهت بسقوطها دولة الإسلام فى الأندلس .

وأما القطعة الثانية وهى رقم ١٦٦٩ الغزيرى (١٦٧٤ ديرنبور) فهى صغرى القطعتين ، وتقع فى ١٩٥ صفحة من الحجم الكبير ، ومكتوبة بخط أندلسى واضح ولكنها عتيقة بالية ، وأطرافها متآكلة ، وفيها تراجم من حروف الميم واللام ؛ وتبدأ بترجمه موسى بن عبد الرحمن بن يحيى الحميرى ، وتنتهى بترجمة عبد الواحد بن الخليفة يعقوب بن الخليفة عبد المؤمن بن على ، وهو ما يدل على أن محتوياتها ليست متناسقة من حيث الترتيب الأبجدى . وهذه القطعة هى أقدم قطعة وصلتنا من كتاب الإحاطة إذ أنه حسبما جاء فى نهايتها قد كتبت فى الخامس عشر من رمضان سنة ٨٠٦ هـ ، أعنى بعد وفاة المؤلف بثلاثين عاما فقط . بيد أنه يلوح لنا أنها ليست كبيرة القيمة من الناحية العلمية ، لأن معظم تراجمها موجزة جدا ، وقد لا تعدو الترجمة منها بضعة أسطر ، مما يدل على أنها مختصرات سريعة للتراجم الأصلية .

وتحتفظ مكتبة مدريد الوطنية ، بنسختين مخطوطتين من القطعتين السابقتين

قام بنسخهما فى أواخر القرن الثامن عشر المستشرق الإسبانى خوان آمون دى سان خوان . بيد أنهما مشحونتان بالتصحيف والتحريف .

(٥) وتحتفظ دار الكتب المصرية بقطعة مخطوطة كبيرة من كتاب الإحاطة هى الجزء الأول أومعظم هذا الجزء ، ولاتحمل تاريخاً معينا لكتابتها، ولكن يبدو من قدمها وتآكلها ونوع كتابتها، أنها قديمة، وتحمل رقم ٣٤٨ تاريخ . وقد كانت هذه القطعة ضمن ما رجعنا إليه فى تحقيق الجزء الأول من الإحاطة .

وتحتفظ دار الكتب المصرية كذلك بقطعتين أخريين مصورتين من كتاب الإحاطة، نقلتا عن نسخة مغربية ، تحتوى الأولى على ١٠١ لوحة مزدوجة ،وتضم تراجم من حرفى الميم والنون ، وتحتوى الثانية على ١١١ لوحة مزدوجة ، وتضم تراجم من أحرف الصاد والعين والغين والفاء والقاف والسين والياء بلا ترتيب ، وقد كتبت كلتاهما بخط مغربى جميل . وتحمل القطعة الثانية فى نهايتها مايدل على أن الأمر هنا يتعلق « بمختصر الإحاطة » وأن هذا المختصر قد كتب فى سنة ٩٨٧ هـ ، وتحمل هاتان القطعتان رقم ١٤٢٩ تاريخ .

وقد تبين بعد دراسة محتويات هاتين القطعتين من التراجم ، أن هذه المحتويات ، هى نفس محتويات الجزء الثالث من نسخة جامع الزيتونة ، مما يدل على أن نسخة الزيتونة ، ربما تكون قد نقلت عن هذا الأصل المغربى ، وهوأقدم كثيراً من حيث تاريخ النسخ . ونلاحظ فى نفس الوقت أن هذه المحتويات ، هى نفس محتويات مخطوط خزانة الرباط العامة رقم 2704 ، المذكور بعد ،

وتحتفظ مكتبة الجامع الأزهر بنسخة مخطوطة من الجزء الأول من كتاب الإحاطة حديثة الكتابة .

ويوجد بمكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، مجموعة خطية ، من أوراق متناثرة . من كتاب الإحاطة ، تتكون من مائة وسبعين ورقة من القطع المتوسط ،ومكتوبة بخط مغربى قديم ، وبهوامشها تعليقات واستدراكات بخط المقرى وتوقيعه ، وإلى جانب التوقيع سنة ١٠٢٩هـ . والمظنون أن هذه الأوراق إنما هى بقايا النسخة التى أرسلها ابن الخطيب إلى خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة وقفاً على طلبة العلم .

(٦) أما فى المغرب فقد وقفنا على المخطوطات الآتية من كتاب الإحاطة :
يوجد بالخزانة الملكية بالرباط قطعة كبيرة من الإحاطة تحفظ برقم 1840 وهى

قديمة بالية كثيرة الخروم ، ومن القطع الكبير ، ومكتوبة بخط أندلسى ، ويبدو من محتوياتها أنها تتضمن الجزء الأول من الإحاطة بحجمه المعروف ، وقسما كبيراً من الجزء الثانى يبلغ خمسين ورقة ، وهى مبتورة البداية ، وتبدأ بعد عدة أوراق مخترمة ، بالفصل الذى عنوانه « ذكر ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم التى نزل بها العرب خارج غرناطة وما يتصل بها من العمالة » ، وآخر ترجمة وردت بها هى ترجمة (محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد .. بن القاسم ابن الحسن بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه) ، ونظراً لبتر هذه النسخة من البداية والنهاية ، فليس هناك مايدل على تاريخ كتابتها. بيد أنها ربما كانت من أقدم قطع الإحاطة التى وصلت إلينا ، هذا فضلا عما تمتاز به من سلامة النص وصحته .

ويوجد بخزانة الرباط العامة قطعة من الإحاطة تحفظ برقم 2704 ك (الكتانية) وقد كتب عليها أنها « الجزء الخامس عشر من الإحاطة ، بالتعريف بعلماء غرناطة » ، تقع فى ٤٤٧ صفحة من القطع المتوسط ، ومكتوبة بخط مغربى وتبدأ بترجمة (محمد بن على بن فرج القربليانى) ، وتنتهى بترجمة ابن الخطيب لنفسه ، وتضم تراجم من حرف الميم حتى نزهون بنت القلعى ، ثم تراجم من حرف الصاد فالعين فالغين فالقاف فالكاف ، ثم تعود إلى حرف السين وتنتهى بحرف الياء ، وهى حديثة الكتابة ، ومن المرجح أنها نقلت عن الجزء الثالث من مخطوط جامع الزيتونة ، لأن المطابقة بين محتوياتهما تكاد تكون تامة ، مع خلاف يسير فى بعض تراجم ساقطة أو زائدة .

وفى خزانة القروين الكبرى بفاس ، توجد مجموعة من الأوراق المتناثرة من كتاب الإحاطة عددها ٤٨ ورقة من القطع الصغير ، وتحتوى على نحو خمسة وعشرين ترجمة من المحمدين . ومعظمها تراجم موجزة ، وتحتوى كذلك على بعض رسائل ابن الخطيب . وهى قديمة متآكلة . وقد كتبت فى سنة ٧٦٩ هـ ، أعنى فى حياة المؤلف ، وتحفظ برقم 2589/89

(٧) ويحتفظ المتحف البريطانى بقطعة مخطوطة من الإحاطة (Or. 8674) وصفت على صفحة العنوان بأنها « الجزء الثامن من كتاب الإحاطة » وهى تقع فى ١٩٤ لوحة كبيرة (٣٨٨ صفحة)، ويبدو من ورق المخطوط ومن خطه —

وهو خط مغربى — أنه قديم ، ويحمل فى نهايته تاريخ كتابته يوم الأربعاء الثامن والعشرين من صفر (والسنة غير مقروءة) ، ويبدأ بترجمة (محمد بن على بن فرج القربليانى) ، وينتهى بترجمة ابن الخطيب لنفسه ، وقبيل ترجمة ابن الخطيب وبعد آخر ترجمة ، وهى ترجمة (يحيى بن ابراهيم البرغواطى) فى اللوحة ١٦٥ يختتم بالعبارة الآتية « كل مختصر الإحاطة بحمد الله تعالى وعونه » . وبعد ترجمة ابن الخطيب يختتم بعبارة « كمل كتاب الإحاطة ». وهو يضم تراجم من حرف الميم ثم النون ثم الصاد فالعين فالفاء فالسين ثم الياء ، ومجموعها حسبما يتضح من الفهرس الموجود فى أوله اثنان وستون ترجمة . وترد هذه التراجم كلها ضمن محتويات الجزء الثالث من مخطوط الزيتونة .

كما توجد بالمتحف البريطانى ، قطعة كبيرة من كتاب « مركز الإحاطة » للأديب المصرى بدر الدين البشتكى ، تحتوى على نصفه الأخير ، وهو يضم تراجم مختصرة للكتاب والأدباء والشعراء الذين وردوا بكتاب الإحاطة .

(٨) ويوجد بمكتبة ليدن بهولندة قطعة من الإحاطة تشمل الجزء الثانى منه ، وتحفظ بها برقم 1082

— ٢ —

ابن الخطيب

مؤلف هذا الكتاب

كان القرن الثامن الهجرى فى مملكة غرناطة ، بالنسبة لدولة التفكير والأدب عصر النضج والازدهار ، وفيه ظهرت طائفة من أكابر المفكرين والشعراء ، الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى ، فى أعظم عصوره ، مثل ابن سلبطور الهاشمى ، وابن خاتمة الأنصارى شاعر ألمرية ، والوزير أبوعبد الله بن الحكيم اللخمى ، والوزير أبو الحسن بن الجياب ، وابن جزى ، والوزير ابن الخطيب ، والوزير ابن زمرك ، وأبو سعيد بن لب ، وغيرهم ، ممن حفل بهم هذا العصر ، وزخرت دولة التفكير والأدب بآثارهم ، التى انتهى إلينا منها الكثير .

وكان ابن الخطيب من بين هذا الحشد الحافل ، أعظم شخصية ظهرت بالأندلس فى القرن الثامن ، وكان عبقرية متعددة النواحى ، فهو طبيب

وفيلسوف ، وهو كاتب وشاعر من الطراز الأول . وهو مؤرخ بارع ، وهو أخيراً وزير وسياسى ، ثاقب النظر قوى الإدراك .

كان ابن الخطيب يمثل بعبقريته ، وقوة نفسه ، وأصالة تفكيره ، وروعة بيانه ، وجزالة شعره ، أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى ، من قبل من تلك النماذج العلمية والأدبية الباهرة ، التى يزدان بها تاريخ التفكير الأندلسى. وكان بتعدد جوانبه ، وسعة آفاقه ، أكثر من وزير وسياسى وكاتب وشاعر ، كان مزيجاً من عبقريات متعددة ، بلغ القمة فى كل منها ، ويندر أن تجتمع فى شخص واحد . وكانت غرناطة تلك الأندلس الصغيرة ، أضيق من أن تتسع لمثل عبقرياته ، ومن ثم فإنا نراه خلال حياته المضطربة ، سواء فى المغرب أو الأندلس ، يرتفع حينا إلى الذروة ، وأحيانا ينحدر إلى غمر المحنة ، تلاحقه تلك القوى الخصيمة ، التى تضيق بنبوغه ، وخلاله اللامعة .

وقد دون لنا ابن الخطيب ترجمة نفسه كاملة ، فى نهاية كتاب «الإحاطة » . هذا عدا ما أورده فى سياق الكتاب ، فى مواضع عدة ، عن مراحل خدمته السلطانية[1] ، وقص علينا كثيراً من حوادث حياته الشخصية والسياسية ، فى مختلف كتبه الأخرى ، ولاسيما « نفاضة الجراب » ، الذى يقص علينا فيه ، حوادث إقامته الأولى فى المغرب وسلا ، و« اللمحة البدرية» و« ريحانة الكتاب» الذى يضم كثيراً من رسائله السلطانية، وقد دون له معاصره وصديقه الفيلسوف ابن خلدون ترجمة فى تاريخه الكبير ، ووصف لنا مأساة مصرعه المؤثر[2] .

وهو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد ابن على بن أحمد السلمانى . والسلمانى نسبة إلى سلمان ، وهو حى من مراد من عرب اليمن القحطانية . وقد دخل الأندلس عقب الفتح منهم جماعة من الشام ومنهم سلف لسان الدين . وكان هذا اللقب يغلب عليه ، ولاسيما فى المغرب ، حيث كان يعرف « بابن الخطيب السلمانى» . وأما لسان الدين فيقول لنا ابن الخطيب فى مستهل ترجمته لنفسه فى الإحاطة « إنه يلقب من الألقاب المشرقية بلسان الدين»

---

(١) وردت ترجمة ابن الخطيب لنفسه فى مخطوط الاسكوريال (١٦٧٣ ديرنبور) ص ٤٢٥ حتى نهاية المخطوط ، ونقل المقرى مقتطفات منها فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٤ وما بعدها) .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ — ٣٣٦ و ٣٤١ — ٣٤٢ .

ولم يقل لنا متى وفى أى ظرف أسبغ عليه هذا اللقب . واستقر بنو سلمان سلف ابن الخطيب أولا فى قرطبة ، وقد كانت قرطبة وأحوازها منذ الفتح منزل قبائل الشام الوافدة ، على القطر الجديد . والظاهر أن بنى سلمان كانوا ينتمون إلى الحزب المعارض للبلاط أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس . فلما حدثت واقعة الرّبض المشهورة (ضاحية قرطبة) وثار أهل قرطبة بتحريض حزب الفقهاء المعارض للحكم (سنة ٢٠٢ هـ — ٨١٧ م) واستطاع الحكم أن يمزق الثورة ، وأن ينكل بأهل الربض ، غادر قرطبة كثير من المعارضين من الفقهاء وغيرهم ، وكانت منهم أسرة المترجم . رحلت ، كما يحدثنا ابن الخطيب إلى طليطلة ، واستقرت بها ، زهاء قرن ونصف . ولما شعرت الأسرة فى أواسط القرن الخامس الهجرى بالخطر الذى يحدق بطليطلة ، وأنها غدت مطمع النصارى ، يعدون عدتهم للاستيلاء عليها ، غادرتها إلى مدينة لوشة ، التى غدت فيما بعد مسقط رأس ابن الخطيب .

وقد زار كاتب هذه السطور ، خلال رحلاته الأندلسية ، مدينة لوشة التى يرتبط اسمها بذكريات أندلسية عديدة ، ويرتبط بالأخص بذكريات ابنها العظيم لسان الدين . وتقع لوشة غربى مدينة غرناطة على قيد نحو خمسين كيلومترا منها ، على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية ، وقد كانت أيام الدولة الإسلامية من مدن الأندلس الزاهرة ، وسقطت فى أيدى القشتاليين ، خلال حرب غرناطة الأخيرة ، فى جمادى الأولى سنة ٨٩١ هـ (مايو سنة ١٤٨٦ م) ، بعد دفاع مجيد . أما اليوم فإن لوشة تغدو مدينة إسبانية متوسطة الحجم ، ذات شوارع كبيرة ، وتقوم بعض مبانيها فوق ربوة صخرية عالية . ويقوم البعض الآخر فى منخفض الوادى ، ويخترقها نهر شنيل (فرع الوادى الكبير) من الشمال . ويبلغ سكان لوشة اليوم نحو عشرين ألفا ، وقد كانوا أيام الدولة الإسلامية يبلغون أضعاف هذا العدد .

وتتخذ خطط لوشة شكل صليب . وتقع الكاتدرائية أو الكنيسة العظمى فى وسطها على مقربة من أطلال القصبة الأندلسية القديمة ، وفوق موقع المسجد الجامع ، ولم يبق اليوم فى لوشة من آثارها الأندلسية ، سوى أطلال القصبة أو القلعة ، وما تزال تقوم فى باطنها بقايا بناء يظن أنه كان مسجداً ، وهى عبارة

عن ثلاثة عقود على صفين ، ليست بها أية نقوش أو كتابات ، وقد غدت طللا دراسا يغمره الخراب والعفاء.

وقد طفت بأرجاء لوشة والذكريات تغمر ذهنى ، فألفيتها مدينة مشرقة عامرة ، تتجه أحياؤها من طرفيها إلى الربوة العالية ، وتتجه أحياؤها الوسطى إلى بطن الوادى ، وأحياؤها الجانبية ضيقة المسالك والدروب على الطريقة الأندلسية القديمة ، وشارعها الرئيسى الذى يخترقه الطريق إلى إشبيلية ، طويل فسيح وبه كثير من المتاجر والفنادق والمقاهى .

وكان شبح ابن لوشة العظيم ، ووزيرها العبقرى ابن الخطيب ، يتراءى لى وأنا أجوس خلال دروبها الساحرة ، ولكنى لم أستطع مع الأسف أن أظفر بأية آثار أو معلومات تتعلق بحياته ، أوموقع بيته القديم ، وقد كان استقصاء هذه الآثار والذكريات جل مقصدى .

* * *

ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٧١٣ هـ (١٦ نوفمبر سنة ١٣١٣ م) ونشأ فى بيت علم وفضل وجاه . ويحدثنا ابن الخطيب بأن بيتهم كان يسمى ببنى الوزير ، ثم سموا ببنى الخطيب . وسبب هذه التسمية يرجع إلى عهد جده سعيد ، وهو أول من استوطن من الأسرة مدينة لوشة ، وكان عالما ورعا ، وكان يلقى دروسه ومواعظه تحت أطلال برج يجاور أملاك أسرته ، ويقع على الطريق الممتد من غرناطة إلى إشبيلية مارا بلوشة ، ومن ثم فقد غلب عليه اسم الخطيب ، وأورث هذا اللقب لبنيه ، فعرفوا ببنى الخطيب من ذلك الحين. ويحدثنا ابن الخطيب عن والده عبد الله وكان من أكابر العلماء والخاصة ، ويترجمه لنا فى الإحاطة . وقد ولد سنة ٦٧٢هـ واستقر حينا فى غرناطة ، ثم عاد إلى لوشة مقر بيتهم القديم ، ثم عاد إلى غرناطة مرة أخرى ليلتحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل وهو الذى جلس على عرش غرناطة فى سنة ٧١٣ هـ (١٣١٤م) .

ولما توفى السلطان أبو الوليد اسماعيل قتيلا فى سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) خدم عبد الله من بعده ، ولده السلطان أبا عبد الله محمد، ثم أخاه السلطان أبا الحجاج يوسف أعظم سلاطين غرناطة ، وقد ولى العرش سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٢ م) . وخدم عبد الله فى ديوان الإنشاء ، مع الكاتب والشاعر الكبير الرئيس أبى الحسن بن

الجياب ، وأسبغ عليه لقب الوزارة ، ثم توفى قتيلا مع ولده الأكبر أخى لسان الدين ، فى موقعة طريف الشهيرة(١) التى هزم فيها المسلمون بقيادة السلطان أبى الحسن المرينى عاهل المغرب ، والسلطان أبى الحجاج يوسف أشنع هزيمة، وذلك فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ هـ (أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) وسقطت على أثرها طريف والجزيرة الخضراء فى أيدى النصارى ، وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون فى المغرب والأندلس مثلها منذ بعيد .

ونشأ لسان الدين فى غرناطة التى انتقلت اليها أسرته ، ومع أنه استقر بها منذ حداثته ، فإنه لم ينس قط مسقط رأسه ومرتع طفولته « لوشة » ، فكانت لها فى قلبه دائما منزلة «الأم» ، وكان يتغنى بها فى شعره ، ويسميها «بنت الحضرة» أى بنت غرناطة ، وأحيانا «فتية غرناطة »(٢) . وكانت غرناطة يومئذ أعظم مركز للدراسات الإسلامية ، فى الغرب الإسلامى ، وكانت مجمع جمهرة من أكابر العلماء والأدباء . ودرس اللغة والشريعة والأدب ، على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى عبد الله بن الفخار شيخ النحاة فى عصره ، وأبى القاسم محمد بن على الحسينى السبتى ، والمحدث شمس الدين بن جابر الوادى آشى ، وأبى عبد الله ابن مرزوق فقيه المغرب الكبير ، والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى . وأخذ الأدب والشعر عن الوزير أبى عبد الله بن الحكيم اللخمى ، وعن ذى الوزارتين الرئيس أبى الحسن بن الجياب ، أمام النظم والنثر فى عصره ، وعن أبى سعيد فرج بن لب وغيرهم . ودرس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ أبى زكريا يحيى بن هذيل ، واختص بصحبته(٣) ، وكان الطب والأدب من منثور ومنظوم ، أبرز ما تفوق فيه ابن الخطيب منذ حداثته ، وكان أبوه عبد الله بن الخطيب يشغل يومئذ مركزاً فى القصر فى خدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل يصفه ابن خلدون بأنه « الإشراف على مخازن الطعام » ، ولكنه تقدم فيما

(١) وتسمى هذه الموقعة بالاسبانية موقعة سالا دو ، لوقوعها على ضفاف النهر الصغير المسمى بهذا الاسم ، والذى يصب فى المحيط شمالى مدينة طريف، وقد غنم الاسبان فى تلك الموقعة علمين للسلطان أبى الحسن المرينى ، مازالا يحفظان حتى اليوم بمتحف كنيسة طليطلة العظمى .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٧ ، وكتاب الإحاطة هذا فى ترجمة أسلم بن عبد العزيز .

(٣) ترجم ابن الخطيب لشيوخه فى الإحاطة ، وقد نقل إلينا المقرى هذه التراجم فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٢ وما بعدها .

بعد فى الخدمة السلطانية ، وخدم فى ديوان الإنشاء مع الرئيس أبى الحسن بن الجياب ، وكان بارعا فى النظم والنثر ، ثم توفى قتيلا فى موقعة طريف مع ولده الأكبر فى سنة ٧٤١ هـ حسبما أسلفنا .

وتأثر ابن الخطيب منذ صباه ، بهذا الأفق السلطانى الذى عاش والده فى كنفه ، وتطلع إلى غزوه ، فلما توفى والده سنحت الفرصة المرجوة ، ودعى للخدمة مكان أبيه ، وكان يومئذ فتى فى الثامنة والعشرين من عمره ، وتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبى الحسن بن الجياب وزير السلطان أبى الحجاج وكاتبه الأثير . وتلقى ابن الخطيب ، فى ديوان الإنشاء على يد أستاذه الكاتب الشاعر المبدع ابن الجياب ، أرفع أساليب النظم والنثر فى هذا العصر ، وظهرت براعته فى تدبيج الرسائل السلطانية . ولما توفى ابن الجياب فى الوباء الكبير أو الطاعون الجارف فى شوال سنة ٧٤٩ هـ (يناير سنة ١٣٤٩ م) خلفه ابن الخطيب فى رياسة الكتاب ، ورياسة ديوان الإنشاء ، ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها . وكان كبير الوزراء يومئذ الحاجب أبا النعيم رضوان ، وهو من أصل قشتالى ، وقد سبى صبيا وربى فى القصر السلطانى ، وكان ابن الخطيب يحظى بتقديره وثقته . وهنا تألق نجم ابن الخطيب ، وعظمت منزلته ، وأغدق السلطان عليه عطفه وآثره بثقته ، وجعله كاتب سره ، ولسانه فى المكاتبات السلطانية ، وصدر منها بقلم ابن الخطيب يومئذ ، طائفة من أبدع الرسائل الملوكية ، التى ينعتها ابن خلدون « بالغرائب » لروعتها ، وقد جمع ابن الخطيب الكثير منها فيما بعد فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » . وكذلك نقل إلينا المقرى فى « نفح الطيب » عدة منها(١) .

ويصف لنا ابن الخطيب فى ترجمته فى « الإحاطة » مركزه فى الوزارة يومئذ ، وما حباه به السلطان من الثقة والإيثار فى قوله « فقلدنى السلطان سره ، ولما يستكمل الشباب ، ويجتمع السن ، معززة بالقيادة ، ورسوم الوزارة ، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك ، واستنابنى بدار ملكه ، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه ، وائتمننى على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه » .

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٤٧٠ وما بعدها ، وج ٤ حيث يورد طائفة منها فى عدة مواطن

ولما توفى السلطان يوسف أبو الحجاج قتيلا فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر ١٣٥٤ م) خلفه فى الملك ولده السلطان أبوعبد الله محمد ، الذى لقب فيما بعد بالغنى بالله ، واستمر الحاجب رضوان مضطلعا برياسة الوزارة ، واستمر ابن الخطيب فى منصبه معاوناً له ، وندب للوصاية على الأمراء القصر أبناء السلطان المتوفى . وأرسله السلطان الجديد ، لأول ولايته ، سفيراً عنه إلى السلطان أبى عنان المرينى عاهل المغرب ، على رأس وفد من رجالات الأندلس ، وهو يعرب فى رسالته إليه ، عن أمله فى تجديد أواصر المحبة والوصل ، التى كانت بين أبيه وبين السلطان أبى عنان ، ويستنصره ويطلب عونه ، على مقاومة ملك قشتالة. واستقبل السلطان أبوعنان سفير الأندلس — ابن الخطيب — بترحاب وحفاوة ، وذلك فى الثامن والعشرين من ذى القعدة سنة ٧٥٥ هـ . وأنشد ابن الخطيب بين يديه قصيدة رنانة يقول فيها :

خليفة الله ، ساعد القدر علاك ما لاح فى الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك فى النائبات بدر دجى لنا وفى المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض أندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وغاية الأمـــر أنـــه وطن فى غير عليـــاك مالـــه وطر

فتأثر السلطان لإنشاده أيما تأثر ، ووعد بإجابة سائر مطالبهم . ويصف لنا ابن الخطيب نجاح سفارته فى قوله :

« وكان الانصراف بأفضل مما عاد به سفير من واد أصيل ، وإمداد موهوب ، ومهاد ومهاداة أثيرة ، وقطار مجنوب محمول ، وطعمة مسوغة . وكان الوصول فى وسط محرم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وقد نجح السعى ، وأثمر الجهد ، وصدقت المخيلة » .

واستأثر ابن الخطيب بثقة الغنى بالله ، كما استأثر بثقة أبيه من قبل ، وأسبغ عليه لقب ذى الوزارتين لجمعه بين الكتابة والوزارة ، وهو يجمل لنا عهد خدمته فى تلك الفترة فى قوله : « ولما هلك السلطان (يعنى أبو الحجاج) ضاعف ولده حظوتى ، وأعلى مجلسى ، وقصر المشورة على نصحى . إلى أن كانت عليه الكائنة فاقتدى فى أخوه المتغلب على الأمر ، فسجل الاختصاص وعقد القلادة ، ثم

حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته ، على القبض على فكان ذلك ، وتقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى » .

وهذه الكائنة التى يشير إليها ابن الخطيب، هى الثورة التى نشبت فى غرناطة، فى شهر رمضان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وفقد فيها الغنى بالله ملكه . وتفصيل ذلك أن الأمير اسماعيل أخا السلطان كان معتقلا فى بعض أبراج قلعة الحمراء ، وكانت تؤازره جماعة من الزعماء الناقمين على الغنى بالله ، وفى مقدمتهم صهره الرئيس عبد الله ، وتعمل سراً لإسقاط الغنى بالله ، وإجلاسه فى الملك مكانه . وكانت أمه المقيمة بالقصر ، تؤيد مشاريعه بالسعى والبذل الوفير ، وكان السلطان قد تحول بولده إلى سكنى قصر « جنة العريف» الواقع شمال شرقى قصر الحمراء ، فانتهز المتآمرون ذات مساء فرصة ابتعاده عن دار الملك وهاجموا قلعة الحمراء (٢٨ رمضان سنة ٧٦٠ هـ) ونفذوا إلى دار الحاجب رضوان، وقتلوه بين أهله وولده ، ونادوا باسماعيل أخى السلطان ملكاً مكانه . وشعر محمد « الغنى بالله » بعبث المقاومة ففر إلى وادى آش. وألفى ابن الخطيب نفسه بين عشية وضحاها مسلوب الحظوة والمنصب ، فسعى إلى مصانعة السلطان الجديد ، فاستبقاه فى الوزارة ، ولكن لأسابيع قلائل فقط . ثم ارتاب فى ولائه ، وقبض عليه بتحريض خصومه ، وكان ابن الخطيب يقيم وقتئذ بقصره ، الذى بالحضرة بمدينة الحمراء ، مقر إقامته الرسمية[1] فصدر الأمر بكبسه ، وكبس دوره الأخرى ، ومصادرة سائر أملاكه ومتاعه ، ونفذت هذه الأوامر بغلظة وشناعة، وفقد ابن الخطيب ثروته العريضة فى لمحة . وهو يقص علينا تفاصيل محنته فى الإحاطة فيما يلى :

« وتُقبض على ، ونكث ما أبرم من أمانى ، واعتقلت بحال ترفيه ، وبعد أن كبست المنازل والدور ، واستكثر من الحرس ، وختم على الأعلاق ، وأبرد إلى ما نأى ، فاستؤصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر، ولاربات الأمثال ، فى تبحر الغلة ، وفراهة الحيوان ، وغبطة العقار ، ونظافة الآلات ، ورفعة الثياب، واستجادة العدة ، ووفور الكتب ، إلى الآنية والفرش والماعون ، والزجاج والطيب ، والذخيرة ، والمضارب والأقمشة . واكتسحت

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ٦٢ .

السائمة ، وثيران الحرث ، وظهر الحمولة ، وقوام الفلاحة ، وأذواد الخيل ، فأخذ الجميع البيع ، وتناهبتها الأسواق ، وصاحبها البخس ، ورزأتها الخونة ، وشمل الخاصة والأقارب الطلب ، واستخلصت القرى والجنات[١]، وأعملت الحيل ، ودست الإخافة ، وطوقت الذنوب ،وأمد الله بالصبر ، وأنزل السكينة ، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى ، وتعلقت الآمال به ، وطبقت نكبة مُصحفية[٢] مطلوبها الذات، وسبب إفاتتها المال ، حسبما قلت ، عند إقالة العثرة ، والخلاص من الهفوة »[٣] .

والواقع أن ابن الخطيب كان خلال هذه الأعوام، التى سطع فيها نجمه ، يعيش فى ترف وأبهة ، وبذخ يناسب مركزه الرفيع فى الدولة، وثراءه الطائل، أحياناً بقصره فى الحمراء ، وأحياناً بقصره الفخم الذى أنشأه فى بقعة الحدائق والجنات المسماه « بعين الدمع » بجوار غرناطة ، والتى اشتهرت بجمالها وروعتها ، وكانت يومئذ مسكن الكبراء والسادة ، وقد أورد فى الإحاطة نص أبيات نظمها فى التغنى بجمال « عين الدمع » ، ونقشت فى قبة قصره المذكور .

ولكن محنة ابن الخطيب لم تطل ، وسرعان ما جاء الإنقاذ . وكان مجيئه من الضفة الأخرى من البحر . ذلك أن السلطان المخلوع محمدا الغنى بالله ، كانت تربطه بملك المغرب السلطان أبى سالم ، ولد السلطان أبى الحسن المرينى ، علائق مودة وثيقة ، وكان أبوسالم قد لجأ إلى الغنى بالله حينما تغلب عليه أخوه السلطان أبوعنان ، ونفاه إلى الأندلس ، فأكرم الغنى بالله مثواه ، فلما وقع الإنقلاب بالأندلس ، وفقد الغنى بالله عرشه ، وفرّ منبوذاً إلى وادى آش ، رعى له أبو سالم عهد الصداقة والوفاء ، وأرسل فى الحال إلى غرناطة سفيراً ، هو الشريف أبو القاسم التلمسانى ، يسعى لدى حكومتها الجديدة فى إجازة السلطان المخلوع ، ووزيره المعتقل ابن الخطيب إلى المغرب . ولم يسع السلطان اسماعيل المتغلب على عرش أخيه ، إلا الاستجابة لرغبة سلطان المغرب ، حفظاً لمودة بنى مرين ، واستبقاء لنجدتهم ، ومعاونتهم التى أنقذت الأندلس من عدوان النصارى غير

---

(١) استخلصت أى جعلت من مستخلص السلطان أو الأملاك السلطانية .

(٢) نسبة إلى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى وزير الخليفة الحكم المستنصر بالله ، وقد نكبه المنصور بن أبى عامر وألقاه فى سجن الزهراء حتى مات .

(٣) راجع كتابى لسان الدين بن الخطيب فى ترجمة ابن الخطيب لنفسه ص ٢٨٩ و ٢٩٠ .

مرة ، وهكذا نجح السفير المغربي فى مهمته ، وأفرج عن ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه المخلوع فى وادى آش . وعبر الغنى بالله ووزيره القديم ، ونفر كبير من آله وصحبه ، البحر ، من ثغر مربلة الصغير ، إلى ثغر سبتة ، ثم سافر الركب إلى فاس ، فوصلها فى السادس من المحرم سنة ٧٦١ هـ ، واستقبلهم السلطان أبو سالم أجمل استقبال ، واحتفل بقدومهم ، فى يوم مشهود ، وأنشد ابن الخطيب بين يدى السلطان يومئذ ، قصيدة من أروع قصائده ، يدعوه فيها لنصرة سلطانه وهذا مطلعها :

سلا هل لديهـــا من مخبِّرة ذكر ... وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى داراً على اللوى ... عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى ... بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربى جناحي وكره ... فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك ياخير الملوك على النوى ... لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها ... وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد فانصرم الردى ... ولذنا بذاك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر يُرهب موجــه ... ذكرنا نداك الغمر فاحتقر البحر

ومنها :

وأنت الذى تُدعى إذا دهم الردى ... وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا ... بيالمرين جاءه العــز والنصـــر
وخذ ياإمام الحق بالحق ثأره ... فنى ضمن ما تأتى به العز والأجر

وكان المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون ، وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة فى بلاط فاس ، من شهود ذلك الحفل . وهو يصفه لنا فى تاريخه ، ويقول لنا إن ابن الخطيب ، أبكى سامعيه تأثراً وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه ، إن القوم كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله ، وتسيل منهم العبرات(١). والتقى ابن خلدون

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (المطبوع ١٣١٩ هـ ج ٢ ص ١٣ .

وابن الخطيب فى هذا الحفل لأول مرة . وكان هذا اللقاء بين الرجلين العظيمين ، حادثاً فى حياة كل منهما ، له أثره ونتائجه . وكان كل منهما يسمع عن صاحبه ، ويتوق إلى لقائه ، حتى جمعت بينهما الحوادث . وكانت تجمع بينهما مشابهات عديدة ، أدبية ومادية ، فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ، وكان كلاهما شخصية بارزة ، فى حوادث عصره ، يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلباً بين الظفر والمحنة ، وكان كلاهما وزيراً مطلق السلطان ، ومستشاراً لأمراء عصره ، ومحرضاً لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ، وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة ، التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس ، وقد جمعت بين الرجلين ، فى البداية ، أواصر الحب والصداقة ، والإعجاب المتبادل ، ثم فرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس . وكان كل منهما مع ذلك يحترم صاحبه ويجله ، ويكبر مواهبه وخلاله ، وقد ترجم كل منهما الآخر ، وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ، وتبادلا طائفة من الرسائل الشخصية والسياسية ، تعتبر من أبدع نماذج النثر والترسل فى هذا العصر(١) .

وعاش ابن الخطيب حيناً فى كنف سلطان المغرب ، وهو يقول لنا فى ترجمته مشيراً إلى ذلك « وبالغ ملكه فى برّى ، منزلا رحباً وعيشاً خفضاً ، وإقطاعاً جماً ، وجراية ماوراءها مرمى ، وجعلنى بمجلسه صدراً ، ثم أسعف قصدى فى تهيؤ الخلوة بمدينة سلا ، منوه الصكوك ، مهنأ القرار »(٢). واستقر ابن الخطيب فى ثغر سلا المشرق الجميل ، زهاء عامين ، وهو يدون لنا فى كتابه « نفاضة الجراب » كثيراً من حوادث حياته بسلا ، ويشيد بطيب إقامته فى تلك المدينة الصغيرة الساحرة ، وقد أنجز خلال هذه الحياة الهادئة عدداً من مؤلفاته ، ما بين منثور ومنظوم ، ومنها بعض مؤلفاته التاريخية الهامة مثل كتاب « اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية » وكتاب « رقم الحلل فى نظم الدول » وهذا عدا ما دبجه خلالها من الرسائل السلطانية العديدة ، التى أوردها لنا فى « نفاضة الجراب »(٣)

(١) أورد لنا ابن خلدون فى التعريف عدة من هذه الرسائل . راجع « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » (طبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١) ص ٨٢–٩٣ ، وص ١٠٣–١٢٨ .

(٢) راجع كتابى « لسان الدين بن الخطيب » ص ٢٩٠ .

(٣) راجع كتابى « لسان الدين بن الخطيب » ص ٨٢ — ٨٤ .

وهكذا عاش ابن الخطيب فى سلا زهاء عامين ، عزيز الجانب ، موفور الرزق ، وقد اقتنى بها الدور والرياض ، ووثقت بينه وبين ابن خلدون ، أواصر الصداقة والمحبة ، وتوالت مدائحه للسلطان أبى سالم ، ومنها قصيدة طويلة يهنئ فيها السلطان بفتح تلمسان فى رجب سنة ٧٦١ هذا مطلعها :

أطاع لسانى فى مديحك إحسـانى ... وقد لهجت نفسى بفتح تلمسان
فأطلعتها تفتر عن شنب المـنى ... وتسفر عن وجه من السعد حيانى
كما ابتسم النوار عن أدمع الحيـا ... وجفّ بخد الورد عارض نيسان
كما صفقت ريح الشمال شمولهـا ... فبان ارتياح السكر فى غصن البان(١)

ولبث محمد بن الأحمر (الغنى بالله) ، سلطان الأندلس المخلوع ، من جانبه فى فاس ، يرقب الحوادث ويتطلع إلى استرداد ملكه ، وكان يعول فى تحقيق هذه الغاية أولا ، على معاونة بيدرو الثانى (بطره) ملك قشتالة . تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ، ولكن ملك قشتالة لم يسعفه فى مشروعه ، وآثر أن يعقد الصلح مع سلطان غرناطة الجديد . وفى أثناء ذلك وقع انقلاب فى فاس ، فقد فيه السلطان أبوسالم عرشه ولقى مصرعه ، وذلك فى التاسع عشر من ذى القعدة سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) واستبد بالدولة مدبر الإنقلاب ، الوزير عمر بن عبد الله صهر السلطان القتيل ، وزوج أخته ، فسعى لديه ابن الأحمر ليعاونه على استرداد ملكه ، فاستجاب له الوزير ، ومازال يدبر أمره بمعاونته ، حتى تهيأت له الفرصة بوقوع ثورة جديدة فى غرناطة ، قتل فيها أخوه ومنافسه السلطان اسماعيل ، على يد المتغلب عليه زوج أخته السلطان محمد بن اسماعيل بن فرج . وعندئذ وافق الوزير عمر بن عبد الله أن يقطعه مدينه رندة ، لكى ينزل بها مع صحبه ، ويتخذها مركزاً لتدبير خططه ، وكانت رندة يومئذ من أملاك بنى مرين الأندلسية . وعندئذ جاز محمد إلى الأندلس ، ونزل برندة ، ومعه جماعة من صحبه ، ثم غزوا منها ثغر مالقة ، وتكاثر صحبه . وسار محمد بعد ذلك إلى غرناطة ، واستولى عليها ، وفر منافسه السلطان محمد إلى قشتالة ، مع نفر من

(١) أورد لنا المقرى فى نفح الطيب هذه القصيدة برمتها ، وهى فى نحو مائة وعشرين بيتاً (ج ٣ ص ١٦ – ١٩) .

أصحابه ، واحتمى بملكها ، فلم يغثه بل اعتقله وأصحابه ، وبعث إلى محمد يطلب إليه صكاً بثبوت غدره وخيانته ، فبعث إليه محمد بالصك المطلوب ، بما ارتكبه محمد هذا وصحبه من ضروب الغدر والخيانة ، واستحقاقهم بذلك لحكم الإعدام ، فأمر ملك قشتالة بإعدامهم وفقاً لذلك ، وبعث برءوسهم إلى الغنى بالله ، فطيف بها فى غرناطة . وهكذا استرد محمد ملكه ، وجلس على عرشه ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ ﻫ (١٣٦١ م) .

— ٣ —

وما كاد محمد الغنى بالله يجلس من جديد على عرشه ، حتى كتب إلى وزيره المنفى ابن الخطيب ، رسالة رقيقة مؤرخة فى ٢٤ جمادى الآخرة ، ينعته فيها بأكرم النعوت وأرفعها « الفقيه الوزير الجليل الصدر الأوحد ، المشير ، العالم العلم الكبير ، الرفيع الشهير .. إمام البلغاء ، وصدر الخطباء ، وعلم العلماء ، وكبير الرؤساء .. » يخبره فيها بنجاحه وظفره ، ويطلب إليه العودة لتقلد منصبه[١] فنزل ابن الخطيب عند رغبة مليكه ، وغادر مقامه الهادئ فى سلا ، وجاز إلى الأندلس ، ومعه أسرة السلطان وولده ، ووصل إلى غرناطة فى أواخر شعبان من تلك السنة . وفى الثامن من شهر رمضان أصدر السلطان ظهيراً (مرسوماً) باعادته إلى منصبه « وقلده فيه نجاد الوزارتين وحلاه بحلى الرياستين » .

وهكذا عاد ابن الخطيب إلى سابق مكانته فى الوزارة . ولكنه لم ينعم فى تلك المرة بسابق حظوته ونفوذه ، إذ كان ينافسه فى السلطة عندئذ شيخ الغزاة عثمان بن أبى يحيى[٢]، وكان السلطان يقربه ويشمله بوافر عطفه ، لما قام به من معاونته فى استرداد ملكه . والظاهر أن ابن الخطيب كان يحرص على أن يسترد سلطانه المطلق كاملا ، فنشبت بين الرجلين ، معركة شديدة ، وحقد ابن الخطيب على منافسه ، ومازال يحرض السلطان ، ويحذره من نفوذ عثمان وعصبته ، وينوه له بخطورة أطماعهم ومشاريعهم ، ويذكره بسابق غدرهم ، حتى انتهى السلطان ، إلى التأثر بتحريضه ، ونكب عثمان وصحبه ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٧٦٤ ﻫ ، وبذا خلا الجو لابن الخطيب ، واستعاد سلطانه المطلق ، دون أية مناوأة أو منافسة

(١) راجع هذه الرسالة فى كتابى لسان الدين بن الخطيب ص ٣٣٤ — ٣٣٧ .
(٢) شيخ الغزاة أعنى قائد الجيش العام .

وفى ذلك الحين وفد صديقه ابن خلدون على الأندلس ، بعد أن فقد حظوته ونفوذه فى بلاط فاس ، واضطرته أعاصير السياسة ، والثورات المتوالية ، إلى مغادرة المغرب . وكان ابن خلدون قد أسدى الى السلطان الغنى بالله ، أثناء إقامته بفاس ، كثيراً من الخدمات ، فاستقبله حين مقدمه إلى غرناطة فى أوائل سنة ٧٦٤ هـ استقبالا حافلا ، وأغدق عليه عطفه وصلاته ، وجعله من خاصته ، وبعث به إلى إشبيليه ، سفيراً إلى ملك قشتالة (٧٦٥ هـ) فأدى ابن خلدون سفارته خير أداء . وكذلك استقبله صديقه ابن الخطيب فى البداية بمنتهى الترحاب والمودة . ولكن الظاهر أنه غص بعد ذلك بما ناله ابن خلدون لدى السلطان من حظوة بالغة ، ففترت بينهما العلائق . ثم تبين ابن خلدون إعراض السلطان عنه ، وشعر بأثر ابن الخطيب فى هذا التحول ، فغادر الأندلس وعاد إلى المغرب ، ليخوض غمار حوادثه كرة أخرى (سنة ٧٦٦ هـ) .

ويصف لنا ابن الخطيب سيرته فى الحكم يومئذ فى قوله : « فاستعنت بالله تعالى عليه ، وعاهدت وجهه فيه ، من غير تلبس بخديعة ، ولاتشبث بولاية ، مقتصراً على الكفاية ، حذراً من النقد ، خامل المركب ، معتمداً على المنسأة ، مستمتعاً بخلق النعل ، راضيا بغير النبيه من الثوب ، مشفقاً من موافقة الغرور ، هاجراً للزخرف ، صادعاً بالحق فى أسواق الباطل ، كافاً عن السخال برائن السباع ، مفوتاً للأصول فى سبيل الصدقة . ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية والمدرسة والتربة ، بكر الحسنات بهذه الخطة ، بل بالجزيرة فيما سلف من المدة ، فتأتى بمنة الله تعالى ، من صلاح السلطان ، وعفاف الحاشية ، ونشر الأمن ، وروم الثغور ، وتثمير الجباية ، وانصاف الحماة والمقاتلة ، ومقارعة الملوك المجاورة ، فى إيثار المصلحة الدينية ، والصدع فوق المنابر ، ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة ، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة ، ما الله المجازى عليه ، والمعوض من سهر خلعته على أعطافه ، وكد أعملته من جرائه ، وخطر اقتحمته من أجله ، فهو الذى لا يضيع عمل من عمل ، من ذكر أو أنثى ، سبحانه وتعالى »(١) .

ونحن نلمس فى هذا الشرح ، من جانب ابن الخطيب لسيرته فى الحكم ،

---

(١) راجع كتابى لسان الدين بن الخطيب ص ٢٩١ ، ونفح الطيب ج ٣ ص ٤٢ .

فى تلك الفترة ، نوعاً من الدفاع عن موقفه ، وعن أعماله ، وإنه ليحق لنا أن نتساءل عن بواعث هذا الدفاع ، وربما كان فيما يأتى من أقوال ابن الخطيب ما يوضح هذه البواعث .

يقول ابن الخطيب : «ومع ذلك فلم أعدم ، الإستهداف للشرور ، والإستعراض للمحذور ، والنظر الشزر المنبعث من خزر العيون ، شيمة من ابتلاه الله تعالى بسياسة الدهماء ، ورعاية سخطة أرزاق السماء ، وقتلة الأنبياء ، وعبدة الأهواء ، ممن لايجعل لله تعالى إرادة نافذة ، ولامشيئة سابغة ، ولايقبل معذرة ، ولايجمل فى الطلب ، ولا يتلبس مع الله بأدب . ربنا لاتسلط علينا بذنوبنا من لايرحمنا . والحال إلى هذا العهد وهو أول عام أحد وسبعين وسبعمائة » .

كان ابن الخطيب فيما يبدو من أقواله هدفاً لحملات خصومه ، ولم يكن فيما يبدو متمتعاً بحب الكافة أو الدهماء حسبما ينعتهم . والظاهر أنه كان قد برم يومئذ بالخدمة السلطانية ، وسئم متاعبها ومسئولياتها الفادحة ، ومظاهرها البراقة ، وساورته رغبة فى الزهد والاعتكاف ، وجالت بخاطره رغبة السفر لقضاء فريضة الحج ، وقد التمس ابن الخطيب بالفعل إلى سلطانه أن يحقق رغبته فى ذلك ، هذا إلى أن ابن الخطيب لم يكن بالرغم من حياته المترفة الناعمة يتمتع بصحة طيبة ، تدل على ذلك إشاراته فى مقدمة الإحاطة إلى سوء حالته الصحية[1] ، كما يدل على ذلك ماذكره من إصابته بالأرق المزمن ، فلم يكن ينام من الليل سوى اليسير . وقد سجل ابن الخطيب ذلك فى إحدى رسائله الطبية المسماة « الوصول إلى حفظ الصحة فى الفصول » وأبدى عجبه من أنه وهو طبيب يدون لغيره وسائل العلاج ، لم يستطع معالجة نفسه من هذا الداء .

بل يلوح لنا أن ابن الخطيب ربما ساورته يومئذ ، رغبة فى الهجرة من الأندلس قاطبة ، وقد التمس بالفعل إلى سلطانه إقالته وتمكينه من تحقيق هذه الرغبة ، واشتهر عنه يومئذ هذا العزم ، ونمى ذلك إلى صديقه الشاعر الكبير ابن خاتمة وهو بألمرية ، فكتب إليه رسالة مؤثرة تفيض بلاغة وتقديراً ، يحاول فيها أن يثنيه عن عزمه وأن يقنعه بضرورة البقاء فى وطنه ، ومما جاء فيها فى مخاطبته لابن الخطيب قوله :

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٩٣ .

«إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها، وواسطة سلكها، وطراز فلكها وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص، وتمام زينتها على العموم والخصوص . ثم أنتم مدار أفلاكها وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها، ولسان إحسانها ، وطبيب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها وبه قوام إمارتها، فلديه يحل المشكل، وإليه يلجأ فى الأمر المعضل، فلا غرو أن تتقيد بكم الأسماع والأبصار وتحدق بكم الأذهان والأفكار» . وقد رد عليه ابن الخطيب برسالة بليغة يقول فيها، إنه وقد أشرف على المشيب والكهولة ، قد عاف زخارف الدنيا ومتاعبها، وأنه يضطرم شوقاً إلى زيارة الحرمين وقضاء الفريضة(١) .

والظاهر أيضاً أن ابن الخطيب يريد بهذا التنويه الذى يشير فيه إلى حسن سيرته فى الوزارة ، ومراعاة الحق والعدل فى تصرفاته، أن يدحض أقوال القائلين بأنه جنح يومئذ إلى الاستبداد وسوء المسلك والسيرة . بيد أنه يوجد لدينا من جهة أخرى شهادة صديقه ابن خلدون الذى عاشره وعاش إلى جانبه فى تلك الفترة زهاء عامين ، وهو يصف لنا هذه المرحلة من حياة ابن الخطيب فيما يلى :

«وخلا لابن الخطيب الجو، وغلب على هوى السلطان ، ودفع إليه تدبير المملكة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته ، وانفرد ابن الخطيب بالحل والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشى بابه الخاصة والكافة، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتواقفوا على السعاية فيه»(٢) .

وما تدلى به هذه العبارات الموجزة القوية ، هو أن ابن الخطيب كان فى هذه المرحلة من حياته الوزارية يتمتع بالسلطان المطلق . والواقع أن ابن الخطيب كان عندئذ حاكماً بأمره ، وكان استئثاره بالسلطان والنفوذ على هذا النحو يذكى سخط منافسيه، ويثير من حوله ضراماً من البغض والحسد ، وكان السلطان ثقة منه بوزيره الأكبر ، وبمقدرته وكفايته، يترك له زمام الأمور، ويعرض عن الإصغاء لأعدائه ومنافسيه، ولكنه بدأ فى النهاية يتأثر بسعايتهم، ويرى فى استبداد ابن الخطيب اعتداء

---

(١) أورد ابن الخطيب نص رسالة ابن خاتمة إليه ورده عليها فى كتاب نفاضة الجراب (السفر الثالث مخطوط الرباط لوحات ١٩٠ – ١٩٣) وأوردهما ابن الخطيب مرة أخرى فى ترجمة ابن خاتمة فى الإحاطة ، ونقلهما المقرى فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٥ .

على سلطانه . وشعر ابن الخطيب من جانبه ، بأن سلطانه قد بدأ يتغير عليه ، وأخذ يتوجس شراً من العواقب . وكان فى مقدمة خصومه والساعين فى حقه ، تلميذه ومعاونه فى الوزارة الكاتب والشاعر الكبير ، أبو عبدالله محمد بن يوسف المعروف بابن زَمْرك ، وقاضى الجماعة (قاضى القضاة) بغرناطة أبو الحسن على بن عبد الله النباهى. وكان الأول يتزعم ضد ابن الخطيب الخصومة السياسية، ويتزعم الثانى حملة أشد خطورة ، وهى اتهام ابن الخطيب بالإلحاد، والخروج على أحكام الدين والشريعة ، اعتمادا على بعض ماورد فى كتبه . وبلغت الأمور ذروتها فى أوائل سنة ٧٧٣هـ، وشعر ابن الخطيب بأن السعاية قد أثمرت ، وأنه فقد عطف مليكه ، وأن الخطر يحدق به .والظاهر أنه كان قبل ذلك بقليل ، يتصل سراً بالسلطان عبدالعزيز ابن السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب ، وكان يومئذ يعقد بلاطه فى مدينة تلمسان التى افتتحها من يد بنى عبد الواد (سنة ٧٧٢هـ). وكانت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة قد فترت يومئذ ، وأخذ كل فريق يمالىء خصوم الآخر ويحشدهم لمناوأته . ولما اطمأن ابن الخطيب إلى وعود السلطان عبد العزيز بالحماية والرعاية ، عول على مغادرة الأندلس، واستأذن ابن الأحمر فى تفقد الثغور الغربية فأذن له وسار مع ولده على ، وجماعة من خاصة الفرسان ، إلى الجنوب . فلما وصل إلى جبل طارق ، تلقاه قائدها فى قواته ، وكانت جبل طارق يومئذ ، من أملاك بنى مرين . وكان السلطان عبد العزيز قد أصدر أوامره باستقبال ابن الخطيب ، وتجهيز السفن اللازمة لنقله ، هو ومن معه ، إلى المغرب . ونجحت الخطة، وركب ابن الخطيب ومن معه البحر إلى سبتة . ولكنه قبل أن يغادر جبل طارق ، بعث إلى سلطانه الغنى بالله رسالة مؤثرة يودعه فيها ، ويوضح أسباب تصرفه ، ويطلب إليه المغفرة ، ويؤكد له بقاءه على الود ، ويلتمس رعايته لأسرته وولده ، وتبدأ الرسالة بهذه الأبيات :

بانوا فمن كان باكيا يبكى — هذى ركاب السُّرى بلاشك
فمن ظهور الركاب مُعملة — إلى بطون الربى إلى الفلك
تصدع الشمل مثلما انحدرت — إلى صبوب جواهر السِّلك
من النوى قبل لم أزل حذرا — هذى النوى جل مالك الملك

ثم يقول ابن الخطيب : « مولاى كان الله لكم ، وتولى أمركم ، أسلم عليكم سلام الوداع ، وأدعو الله فى تيسر اللقاء والاجتماع ،من بعد التفرق والانصداع ، وأقرر لديكم أن الإنسان أسير الأقدار ، مسلوب الاختيار ، متقاب فى حكم الخواطر والأفكار ، وأنه لابد لكل أول من آخر ، وأن التفرق لما ازم كل اثنين بموت أو فى حياة ، ولم يكن منه بد ، كان خير أنواعه الواقعة بين الأحباب ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور » .

ثم يقول بعد الإشارة إلى خدماته ، إنه قد غلبته حال شديدة ، هزمت التعشق بالشمل الجميع ، والوطن المليح ، والجاه الكبير ، والسلطان القليل النظير ، وإنه قد عمل بمقتضى قوله « موتوا قبل أن تموتوا » وإنه قد أقدم على أمر صعب المرام « ولكن سهله علىّ أمور ، منها أن الانصراف لما لم يكن منه بد ، لم يتعين على غير هذه الصورة ، إذ كان عندكم من باب المحال . ومنها أن مولاى لو سمح لى فى غرض الانصراف ، لم تكن لى مقدرة على موقف وداعه ، لا والله ، ولكان الموت أسبق إلى ، وكفى بهذه الوسيلة الحسنة ، التى يعرفها وسيلة . ومنها حرصى على أن يظهر صدق دعواى فيما كنت أهتف به . وأظن أنى لا أصدق . ومنها اغتنام المفارقة فى زمن الأمان والهدنة الطويلة ، والاستغناء ، إذ كان الانصراف المفروض ضروريا ، قبيحا فى غير هذه الحال ، ومنها وهو أقوى الأعذار أنى مهما لم أطق هذا الأمر ، أوضاق ذرعى به ، لعجز أو مرض أو خوف طريق ، أو نفاد زاد ، أو شوق غالب ، رجعت رجوع الأب الشفيق إلى الولد البر الرضى ، إذ لم أخلف ورائى مانعا من الرجوع ، من قول قبيح أو فعل ، بل خلفت الوسائل المرعية ، والآثار الخالدة ، والسير الجميلة » .

ثم يقول : « وإن فسح الله فى الأمد ، وقضى الحاجة ، فأملى العودة إلى ولدى وتربتى ، وأن قطع الأجل ، فأرجو أن أكون ممن وقع أجره على الله . فإن كان تصرفى صوابا ، وجاريا على السداد ، فلايلام من أصاب ، وإن كان عن حمق وفساد عقل ، فلا يلام من اختل عقله ، وفسد مزاجه ، بل يعذر ويشفق عليه ويرحم . وإن لم يعط مولاى حقه من العدل ، وجلبت الذنوب ، ونشرت بعدى العيوب ، فحياؤه ، وتناصفه ، ينكر ذلك ، ويستحضر الحسنات ، من التربية

والتعليم ، وخدمة السلف ، وتخليد الآثار ، وتسمية الولد ، وتلقيب السلطان ، والإرشاد إلى الأعمال الصالحة ، والمداخلة والملابسة ، لم يتخلل ذلك قط ، خيانة فى مال ، ولا سر ، ولا غش فى تدبير ، ولا تعلق به عار ، ولا كدره نقص ، ولا حمل عليه خوف منكم ، ولا طمع فيما بيدكم . وإن لم تكن هذه دواعى الرعى والوصلة والإبقاء ، ففيم تكون بين بنى آدم . وأنا رحلت فلا أوصيكم بمال ، فهو أهون متروك ، ولا بولد فهم رجالكم وخدامكم ، وممن يحرص مثلكم ، على الإكثار منهم ، ولا بعيال فهى من مزيات بيتكم وخواص دراكم » .

ويسوق ابن الخطيب بعد ذلك النصح إلى سلطانه ثم يقول : « واعلموا أيضا على جهة النصيحة ، ان ابن الخطيب مشهور فى كل قطر ، وعند كل ملك ، واعتقاده ، وبره ، والسؤال عنه ، وذكره بالجميل ، والإذن فى زيارته ، نجابة منكم وسعة ذرع ودهاء . فإنما كان ابن الخطيب بوطنكم سحابة رحمة نزلت ، ثم أقشعت ، وتركت الأزاهر تفوح ، والمحاسن تلوح »[1] .

تلك هى رسالة الوداع التى وجهها ابن الخطيب إلى مليكه ، وهو يغادر وطنه إلى غير رجعة ، وتلك هى تأكيداته فى تبرئة نفسه ، ونزاهة مقاصده ، وتلك هى عباراته التى تدل على مبلغ اعتزازه بنفسه ، وبرفيع مركزه ومنزلته ، لدى قصور عصره ، وعلى أنه لم يفقد ثقته بنفسه حتى فى أقسى أيام محنته .

وكان عبور ابن الخطيب من جبل طارق إلى العُدوة ، فارًا من وطنه على هذا النحو ، فى غرة جمادى الآخرة سنة ٧٧٢هـ[2] ، وذلك حسبما يخبرنا ابن الخطيب نفسه .

وبعد أن قضى ابن الخطيب وصحبه فترة استجمام قصيرة ، فى سبتة وطنجة ، سار فى صحبه إلى تلمسان ، حيث كان بلاط المغرب ، وهنالك استقبله السلطان عبد العزيز المرينى أجمل استقبال ، وأرسل فى الحال سفيراً إلى غرناطة ، ليسعى

---

(١) أورد لنا ابن خلدون نص هذه الرسالة بأكملها فى كتاب العبر (التعريف) ج ٧ ص ٤٣٧ و٤٣٨ ، كما أوردها فى التعريف والرحلة ص ١٤٧ — ١٥٢ ، وكان ابن الخطيب قد أرسل إليه صورة منها ، ويرى ابن خلدون أنها من أغرب الرسائل وأروعها إجادة وبلاغة .

(٢) كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت) ص ٣١٨ .

فى استقدام أسرة الوزير المنفى ، فأتى بها معززة مكرمة ، وكان ذلك فى أواسط سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١ م) .

— ٤ —

استقر ابن الخطيب فى مقامه الجديد ، بعيداً عن الأهل والوطن ، ولكن ما غمره به السلطان من كرم المثوى ، وعلو المكانة ، وجزيل العطاء والنعمة ، خفف كثيراً من مرارة النفى ، وهكذا شعر ابن الخطيب أنه استرد فى بلاط المغرب مكانته المفقودة ، وكتب إلى صديقه ابن خلدون ، وكان يقيم يومئذ فى بسكرة ، ينبئه بخبره ، ويعتب عليه فيما كان منه بحقه ، حين مقامه بالأندلس فرد عليه ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها حبه وتقديره لصديقه ، ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ، ويهنئه بنجاته[1] .

ولكن فرار ابن الخطيب على هذا النحو ، لم يهدئ من ثورة خصومه ، بل كان بالعكس حجة لديهم تنهض على إدانته ، فيما يرمونه به من التهم ، وقد غصوا لإفلاته ونجاته من مكائدهم ، فضاعفوا سعيهم لملاحقته ، وسحق هيبته ، وتلويث سمعته ، فاتهموه بالزندقة ، والخروج على شريعة الإسلام ، ونسبوا إليه فى ذلك أقوالا ومقالات ، مما جاء فى بعض كتبه ورسائله ، أولوها وفق مقاصدهم ، وزعموا أن منها ما يتضمن طعناً فى النبى ، والقول بالحلول ، ومجاراة مذهب الفلاسفة الملحدين ، وأن كتب ابن الخطيب التاريخية ، وما اشتملت عليه من تراجم الأحياء المعاصرين ، والأموات الأقربين ، وما يتخللها من الطعن المر فى كثير منهم ، هى من قبيل « الغيبة المحرمة » . وكان تلميذ ابن الخطيب وخلفه فى الوزارة ، أبو عبد الله بن زَمرك ، أكبر مروج لهذه الدعاية القوية. وتولى صوغ الإتهام ، عدو ابن الخطيب الألد ، القاضى أبو الحسن النباهى ، وأفتى بوجوب حرق كتبه التى هى موضوع الشُّبه والاتهام . ويقول لنا القاضى أبو الحسن ، إن هذه الكتب وهى مما يرجع إلى العقائد والأخلاق قد تم إحراقها بالفعل ، فى حضرة غرناطة ، فى منتصف عام ٧٧٣ هـ « بمحضر من الفقهاء والمدرسين من العلماء ، وأماثيل الفقهاء ، لما تضمنته الكتب المذكورة

---

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٣٤ — ٤٣٦ .

من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم ، وحققته لديهم »[١] .

وقد وجه القاضى أبو الحسن إلى ابن الخطيب بالمغرب رسالة شديدة ، نقل إلينا المقرى نصها ، وهى بمثابة دعوى اتهام شخصية وشرعية معا ، يعدد فيها أبو الحسن مثالب ابن الخطيب ، وما يسند إليه من تهم الإلحاد والزندقة . وبالرغم من أن هذه الرسالة تحمل طابع التحامل والضغن الشخصى ، فإنها تلقى ضوءاً كبيراً ، على ما كان يرمى به ابن الخطيب ، خلال توليه الحكم ، وعلى بعض الوقائع التى اتخذت سندا لاتهامه ، بالخروج على أحكام الإسلام ، والحكم بعد ذلك بإدانته ونكبته . ويحسن قبل أن نعرض إلى محتويات هذه الرسالة ، أن نقول إن القاضى أبا الحسن النباهى كان فى البداية ، من أنصار ابن الخطيب وأوليائه ، وان ابن الخطيب هو الذى ندبه ، ليكون قاضياً للجماعة ، واستصدر ظهير تعيينه ، أيام توليه الوزارة للغنى بالله ، فى المرة الثانية ، وذلك فى فاتحة عام ٧٦٤ هـ ، وفيه ينعته برفيع النعوت والصفات ، من علم وفضل ونزاهة ، ثم ندبه بعد ذلك ليكون خطيبا للمسجد الجامع[٢] . ولما وضع ابن الخطيب كتاب الإحاطة ، وترجم فيه من ترجم من أكابر معاصريه ، ظفر منه النباهى بأكرم النعوت والخلال ، إذ وصفه بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب ، ناظم ، ناثر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير .. بعيد المدى فى باب النزاهة ، ماضياً غير هيوب .. الخ »[٣] ثم دارت الأيام دورتها وازور نجم ابن الخطيب ، وتقلص سلطانه ونفوذه ، وعندئذ برز النباهى إلى جانب ابن زمرك فى طليعة خصوم ابن الخطيب .

وتتخذ رسالة النباهى صورة رد ، على كتاب شديد أرسله إليه ابن الخطيب من المغرب ، وقائمة اتهام معا ، وفيها ينعى النباهى على ابن الخطيب ، انصرافه

---

(١) أبو الحسن النباهى فى كتاب « تاريخ قضاة الأندلس المعروف بالمرتبة العليا » المنشور بالقاهرة بعناية الأستاذ ليفى بروفنسال سنة ١٩٤٨ ص ٢٠٢ .

(٢) أورد لنا المقرى نص الظهيرين الصادرين بتعيين النباهى فى خطتى القضاة والخطابة (نفح الطيب ج ٣ ص ٧١ و ١٧٤) . وكذلك فى أزهار الرياض (ج ٢ ص ٥) .

(٣) وردت هذه الترجمة فى مخطوط الإحاطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ديرنبور (لوحة ٣٠٢ وما بعدها) ، ونقلها المقرى فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٨٥ و ٣٨٦) .

إلى الأغراض الدنيوية ، وشغفه بالاقتناء والبناء ، ثم ينعى عليه ما ورد فى كتبه التاريخية من سير الأحياء والأموات ، والطعن فى حقهم ،وهو مما يدخل فى باب « الغيبة المحرمة » ، ومخالفة ذلك للدين والعقل ، وأن ما تضمنته بعض مؤلفاته الأخرى من البدع ، والتلاعب بالشريعة ، يجعلها مستحقة للتخريق والتحريق ، وأنه أى النباهى قد نصحه وحذره من ذلك فلم ينتصح ، وآثر الاسماع لأقوال المجاملين والمداهنين . وينكر النباهى على ابن الخطيب ، ما ينوه به فى كتابه ، من قيامه بصالح الأعمال ، ويقول إن ذلك من قبيل المن المذموم . وإنه أى ابن الخطيب ، لم يشارك فى شئ « إلا بأغراض حاصلة ، فى يدكم ، ولأغراض دنيوية خاصة بكم » .

وأما اعتذار ابن الخطيب وتندمه على فراق الأندلس ، فيرى النباهى أنه مناقض ، وأن ما وقع من فراره ، إنما هو غدر بسلطانه . وأن هذا الخروج من الأوطان ، لم تكن تدعو إليه ضرورة غالبة ، ثم يقول « وقد مددتم إلى التمتع بغيرها أعينكم ، ولو لم يكن بهذه الجزيرة الفريدة من الفضيلة ، إلا ما خصت به من بركة الرباط ، ورحمة الجهاد ، لكفاها فخرا ، على ما يجاورها من سائر البلاد » .

وينعى النباهى بعد ذلك على ابن الخطيب ، تدخله فى شئون القضاء ، أيام ولايته إياه ، ويعدد بعض ما ارتكبه ابن الخطيب فى ذلك ، من مخالفات للشرع والدين ، فيقول « فكابدت أيام تلك الولاية النكدة من النكاية ، باستحقاركم للقضايا الشرعية ، وتهاونكم بالأمور الدينية ، ما يعظم الله به الأجر ، وذلك فى جملة مسائل ، منها مسألة ابن الزبير المقتول على الزندقة ، بعد تقضى موجباته ، على كره منكم . ومنها مسألة ابن أبى العيش المثقف فى السجن ، على آرائه المضلة ، التى كان منها دخوله على زوجه ، أثر تطليقه إياها بالثلاث ، وزعمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمره مشافهة بالاستمتاع بها ، فحملتم أحد ناسكم ، تناول إخراجه من الثقاف ، من غير مبالاة بأحد . ومنها أن أحد الفتيان المتعلقين بكم ، توجهت عليه المطالبة بدم قتيل ، وسيق المدعى عليه للذبح بغير سكين ، فما وسعنى بمقتضى الدين إلا حبسه على ما أحكمته السنة ، فأنفتم لذلك وسجنتم الطالب ولىّ الدم ، وسرحتم الفتى المطلوب على الفور . إلى غير ذلك مما

لا يسع الوقت شرحه ، ولا يجمل بى ولا بكم ذكره » .

وأما عن تهمة الإلحاد والطعن فى النبى ، وهى أخطر ما وجه إلى ابن الخطيب من التهم ، فيصوغها النباهى على النحو الآتى فى كلامه لابن الخطيب : « فإنى أخاف عليكم من الإفصاح بالطعن فى الشريعة ورمى علمائها بالمنقصة ، على عادتكم وعادة المستخف ابن هذيل شيخكم[1] منكر علم الجزئيات ، القائل بعدم قدرة الرب ، جل اسمه على جميع الممكنات ، وأنتم قد انتقلتم إلى جوار أناس أعلام فلما تجوز عليهم المغالطات ، فتأسركم شهادة العدول ، التى لا مدفع لكم فيها ، وتقع الفضيحة ، والدين النصيحة . وكذا أحذركم من الوقوع بما لا ينبغى فى الجناب الرفيع ، جناب سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه نقل عنكم فى هذا الباب أشياء منكرة يكبر فى النفوس التكلم بها أنتم تعلمونها ، وهى التى زرعت فى القلوب ما زرعت من بغضكم ، وإيثار بعدكم ، مع استشعار الشفقة والوجل ، من وجه آخر عليكم . ولولا أنكم سافرتم ، قبل تقلص ظل السلطة عنكم ، لكانت الأمة المسلمة ، امتعاضا لدينها ودنياها ، قد برزت بهذه الجهات ، لطلب الحق منكم ، فليس يعلم أنه صدر عن مثلكم ، من خدام الدول ما صدر عنكم ، من العبث بالإبشار والأموال ، وهتك الأعراض ، وإفشاء الأسرار ، وكشف الأستار ، واستعمال المكر والحيل ، والغدر فى غالب الأحوال للشريف والمشروف ، والخادم والمخدوم » .

ثم ينعى النباهى على ابن الخطيب تركه لسلطانه حين كان منفيا بالمغرب ، ثم تهافته عليه حين عاد إلى عرشه ، وما كان منه من الضرب والتفريق ، بين رجال الدولة ، حتى خلا له الجو وتمكن الأمر والنهى . ثم يقول : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم ، ثم وريتم بتفقد ثغر الجزيرة الخضراء مكرا منكم ، فلما بلغتم أرض الجبل ، انحرفتم عن الجادة ، وهربتم بأثقالكم ، الهروب الذى أنكره عليكم من بلغه حديثكم ، أو يبلغه إلى آخر الدهر ، فى العدوتين ، من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر » . ويختم النباهى رسالته بالتنديد ببنى الخطيب ،

---

(١) هو أبوزكريا يحيى بن هذيل الفيلسوف الطبيب والعلامة الغرناطى الكبير ، وقد ذكرناه ضمن شيوخ ابن الخطيب فيما تقدم ، توفى سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٣ م) ، وترجمه ابن الخطيب فى الاحاطة ، ونقل المقرى ترجمته فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٥٥٨) .

ونشأتهم المتواضعة ، وحداثتهم فى المال والنعمة ، وما نالوه من ثراء مغتصب ، ليقول لابن الخطيب إنه لاحق له فى التفاخر ، وهذا أصله ، وأن الاعتداد بملاذ الدنيا ، من ثراء وطعام ولباس ، إنما هو خسة وصغار ، وأن الأولى به أن يكون زاده التقوى للدار الباقية[١] .

وقد رأينا أن نلخص رسالة النباهى وأن نقتبس منها على النحو المتقدم ، إذ هى حسبما قدمنا وثيقة الاتهام ، التى اتخذت فيما بعد ، سنداً لإدانة ابن الخطيب ونكبته . وتاريخ هذه الرسالة هو أواخر جمادى الأولى من عام ٧٧٣ هـ . وقد تلقاها ابن الخطيب عقب وصوله إلى بلاط السلطان عبد العزيز بتلمسان بقليل . وقد رد فيما بعد على سباب أبى الحسن واتهاماته ، بما كتبه عنه فى ترجمته فى كتاب « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » وحمل عليه فيها بشدة . ونعته بأقسى النعوت[٢] ، ثم استأنف حملته عليه فى كتابه «أعمال الأعلام» الذى ألفه للوزير أبى بكر بن غازى القائم بالدولة ، بعد وفاة السلطان عبد العزيز ، وهو آخر كتاب ألفه ابن الخطيب، ونعته فيه « بالجعسوس » أى القزم الدميم ، إذ كان أبو الحسن دميما قصير القامة ، وهذا عدا رسالة خاصة وضعها قبل ذلك فى هجاء أبى الحسن والحملة عليه وسماها « خلع الرَّسن فى التعريف بأحوال أبى الحسن »[٣] .

ومن الغريب المؤلم معاً ، أن ينحدر القاضى النباهى ، فى خصومة ابن الخطيب والحملة عليه ، إلى هذا الحد المثير ، وهو الذى كان من قبل يرتفع فى تقديره إلى أسمى المراتب ، كما تدل على ذلك رسالة وجهها إليه أيام إقامته منفياً بالمغرب وهو بسلا ، وفيها ينعته « بالآية البالغة وقد طمست الأعلام ، والعزة الواضحة ، وقد تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة، وقد ذهب الكرام » . ثم يصفه بأنه بالنسبة إليه « هو الركن الذى مازلت ، أميل على جوانبه ، ولا تزيد الأيام إلا بصيرة

---

(١) أورد المقرى رسالة القاضى أبى الحسن النباهى برمتها فى نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٦–١٧١ وكذا أوردها فى أزهار الرياض ج ١ ص ٢١٢ – ٢٢٤ .

(٢) وردت ترجمة القاضى النباهى فى «كتاب الكتيبة الكامنة » المنشور ببيروت (١٩٦٣) رقم ٥٠ ص ١٤٦ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٧٨ – ٨٠ ، وراجع نفح الطيب ج ٣ ص ٧٥ ، وكذلك مقدمة كتاب تاريخ قضاه الأندلس للنباهى وما بعدها(ص ط) والرسن هو ما كان من الأزمة على الأنف .

فى الإقرار بفضله والإعتداد به » . وذلك أن النباهى كان أيضاً قد فقد منصبه ، من جراء الحوادث التى أودت بسلطان ابن الخطيب ، وعبر البحر منفياً مثله ، وكان يعتمد على الوزير المنفى ، متى انقشعت المحنة ، فى الأخذ بيده ، وإعادته إلى سابق وظائفه[1] .

وعلى أى حال فقد مضى خصوم ابن الخطيب فى غرناطة فى سعيهم لإهلاكه ، ولم يقعدهم بعدُه عن الأندلس ، فبعد أن قضى بإحراق كتبه فى ساحة غرناطة ، سجل القاضى أبو الحسن عليه تهمة الإلحاد والزندقة ، وصادق السلطان على حكمه ، وأرسل القاضى رسله بهذا الحكم ، إلى السلطان عبد العزيز يطالب بتنفيذ حكم الشرع ، فى الوزير الملحد ، وهو الإعدام ، فأنف سلطان المغرب لهذا المسعى ، وعنف رسل الأندلس ، وقال لهم « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه » وردهم خائبين ، وزاد فى إكرام ابن الخطيب ورعايته .

ولما توفى السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل فى شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٤ هـ (أواخر سنة ١٣٧٢ م) خلفه على العرش ولده الطفل السعيد . وغادر بلاط المغرب ، تلمسان الى فاس . وسار ابن الخطيب صحبة الوزير أبى بكر بن غازى القائم بأمر الدولة ، ونزل بفاس فى كنف الوزير ورعايته ، متمتعاً بما كان يتمتع به فى ظل السلطان الراحل ، من المكانة والنفوذ وجزيل الصلات . وطاب عيشه بفاس ، واقتنى كعادته الدور والضياع . واستمر حيناً على مكانته فى الدولة . وحاول ابن الأحمر سلطان الأندلس أن يحمل الوزير ابن غازى على تشريد ابن الخطيب ونفيه ، لما كان يعتقده من أنه كان يحرض السلطان عبدالعزيز ، على غزو الأندلس ، فأبى ابن غازى ، وساءت العلائق بين بلاط فاس وبلاط غرناطة بسرعة ، ودفع ابن الأحمر ، بعض الخوارج من بنى مرين ، إلى محاربة حكومة فاس . وأمدهم بعونه ، وتمخضت الحوادث فى المغرب ، عن انقلاب جديد ، ونادى الثوار بولاية الأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم . وحاول الوزير ابن غازى مقاومة الثوار فلم يفلح ، واقتحم الثوار مدينة فاس ، فأذعن الوزير

---

(١) وردت رسالة النباهى إلى ابن الخطيب فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٨٤ و٣٨٥ .

لمطالبهم ، وقام بخلع الملك الطفل السعيد ، والنزول عن البلد الجديد (الضاحية الملوكية) ، ودخل السلطان أحمد البلد الجديد ، وجلس على العرش ، وذلك فى أوائل المحرم سنة ٧٧٦ هـ[١] .

وكان ابن الخطيب قد لجأ أثناء ذلك إلى البلد الجديد ، وكان التفاهم قد تم بين ابن الأحمر (الغنى بالله) وبين زعماء الفتنة ، بشأن ابن الخطيب ومصيره . فلما وقع الإنقلاب المنشود ، بادر السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب واعتقاله ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه لابن الأحمر ، ولم يدخر وزيره سليمان بن داود ، وقدكان من ألد أعداء ابن الخطيب ، جهدا فى تشديد النكير عليه وتدبير هلاكه . وكان ابن الأحمر يتوق إلى الانتقام من وزيره السابق ، لما أكده له خصومه من غدره ودسائسه ، وتآمره مع السلطان عبد العزيز المرينى على غزو الأندلس ، فبعث وزيره أبا عبد الله بن زمرك ، تلميذ ابن الخطيب ، وخلفه فى الوزارة ، ليعمل على تحقيق هذه الرغبة ، بالتعاون مع حكومة فاس . ووجهت إلى ابن الخطيب التهم القديمة ، التى وجهت إليه فى غرناطة ، وصاغها القاضى أبو الحسن فى قرار اتهامه ، ورأى السلطان أحمد أن يعقد مجلساً خاصاً ، من رجال الدولة وأهل الشورى ، واستدعى ابن الخطيب إليه لمناقشته ، ومواجهته بالتهم المنسوبة إليه ، وأخصها تهمة الإلحاد والزندقة ، استناداً إلى ما ورد فى بعض كتاباته ، ولاسيما بعض آراء وعبارات وردت فى كتابه « روضة التعريف بالحب الشريف »[٢] . وعُزّر ابن الخطيب وعذب أمام الملأ ، وأفتى بعض الفقهاء المتعصبين بقتله ، ودس عليه الوزير سليمان ، بعض الأوغاد من حاشيته ، فطرقوا سجنه ليلا ومعهم بعض الخدم الأندلسيين . الذين جاءوا مع سفراء ابن الأحمر ، وقتلوه خنقاً فى سجنه ، وأخرجوا جثته فى الغد ، ودفنت بالمقبرة الواقعة تجاه باب المحروق ، أحد أبواب فاس القديمة . ثم أخرجت جثته فى اليوم التالى ، وطرحت فوق القبر ، وأضرمت حولها النار ، فاحترق شعر الرأس ،

---

(١) البلد الجديد هى الضاحية الملوكية ، التى أنشأها السلطان أبو يوسف المرينى بجوار فاس فى سنة ٦٧٤ هـ لتكون داراً للملك . واستمرت البلد الجديد طوال أيام بنى مرين قاعدة الملك ومقره ، ومازالت بقاياها قائمة حتى اليوم ، ومنها القصر الملكى المرينى .

(٢) سوف نأتى على ذكر هذا الكتاب عند الكلام على تراث ابن الخطيب .

واسودت البشرة ، ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق ، وتركت هنالك لتثوى الثواء الأخير . ووقعت هذه المأساة الأليمة ، فى ربيع الأول أو ربيع الثانى سنة ٧٧٦ هـ (أغسطس أو سبتمبر ١٣٧٤ م)[١] .

وهكذا ذهب الكاتب والشاعر الكبير ، والمفكر العبقرى ، ضحية الجهالة والتعصب ، والأحقاد السياسية الوضيعة . ويجمل ابن خلدون حوداث هذه المأساة فى قوله فى مقدمته ، يشير إلى صديقه ابن الخطيب ، بأنه هو « الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه » ، ويعلق عليها فى تاريخه بقوله « وكان فى ذلك انتهاء محنته ، وعجب الناس من هذه السفاهة التى جاء بها سليمان ، واعتدوها من هناته ،وعظم النكير منها عليه ، وعلى قومه وأهل دولته »، ثم ينقل إلينا أبياتاً من الشعر نظمها ابن الخطيب فى سجنه ، وكان ينشدها توقعاً لمصيره المحزن :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت ... وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة ... كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما ... وكنا نقوت فها نحن قوت
وكنا شموس سماء العلا ... غَربن فناحت عليها البيوت
فكم خذلت ذا الحسام الظُّبا ... وذو البخت كم جدّلته البخوت
وكم سيق للقبر فى خرقة ... فتى ملئت من كساه التخوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب ... وفات ومن ذا الذى لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له ... فقل يفرح اليوم من لا يموت

هذا ، وما زال قبر ابن الخطيب ، قائماً فى مكانه خارج فاس ، على مقربة من باب المحروق . ويقول مؤرخه المقرى إنه زار قبره مراراً ، أثناء إقامته ، بفاس ، فى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (سنة ١٠١١ — ١٠٢٧ هـ). وقد زرناه نحن كذلك مراراً خلال زياراتنا المتوالية للمغرب . وقد أقامت عليه الحكومة المغربية ضريحاً صغيراً ، ذا واجهة فنية جميلة ، وكتب أعلاه بالخط المغربى (هذا ضريخ العلامة لسان الدين ابن الخطيب) .

---

(١) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ و٣٤٢ .

— ٥ —

كان ابن الخطيب حسبما قلنا فى بداية هذا البحث ، عبقرية متعددة النواحى . والآن فلنحاول أن نعرض إلى نواحى هذه العبقرية ، بشىء من التفصيل . وأول مايبدو لنا من هذه النواحى ، هو ابن الخطيب الكاتب والشاعر ، وهى صفة تغلب على سائر خصائصه الأخرى .

كان ابن الخطيب من أعظم كتاب عصره وشعرائه ، بل هو من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الإطلاق . وقد بلغ فى النظم ، كما بلغ فى النثر ، مرتبة التفوق التى لايدانيه فيها سوى القليل .

وأعظم ما يتميز به شعر ابن الخطيب ونثره ، هو وفرة التنوع والإفتنان ، فى الموضوعات والمعانى . ويرجع ذلك إلى توقد قريحته ، وسعة أفقه ، وإلى حياته المتنوعة ، الفياضة بمختلف الأحداث والمحن .

وقد برز ابن الخطيب بالأخص فى ضرب من النثر ، هو النثر الوزارى والسياسى . وقد ترك لنا ابن الخطيب فى هذا الميدان تراثاً ضخماً ، من المراسيم السلطانية التى صدرت أيام توليه الوزارة ، عن سلاطين غرناطة . ومن الرسائل السياسية والدبلوماسية ، التى كان يكتبها عن لسان سلطانه ، إلى ملوك إسبانيا النصرانية أو سلاطين المغرب ، أو سلاطين مصر ، وفيها يتحدث عن علائق المودة والتحالف ، أو يصف بعض الحوادث التاريخية ، أو يطلق صيحة الجهاد للدفاع عن الأندلس ، أو يلتمس لها الإنجاد والعون من ملوك العدوة ، إلى غير ذلك من الشئون والحوادث ، التى ملأت حياته السياسية ، سواء فى المغرب أو الأندلس .

وانتهى إلينا من هذه الرسائل السلطانية والسياسية ، العدد الجم . وجمع ابن الخطيب منها فى كتابه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » طائفة كبيرة ، يتعلق بعضها بوصف الغزوات والوقائع الحربية ، التى جرت فى جيّان وأبّدة وأحواز إشبيليه ، وحول جبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وغيرها من الحوادث المعاصرة . ومنها رسائل عديدة ، وجهها ابن الخطيب إلى ملوك المغرب عن حوادث الأندلس ، وفى سبيل توثيق التحالف ، وطلب الإنجاد والعون . ونقل المقرى إلينا فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض ، عدداً



ضريح ابن الخطيب خارج مدينة فاس تجاه باب المحروق

كبيراً من المراسيم والرسائل السياسية ، التى كتبها ابن الخطيب ، فى مختلف المناسبات ، كما نقل إلينا الكاتب المصرى أبو العباس القلقشندى ، فى موسوعته (صبح الأعشى) عدداً من الرسائل التى وجهها سلاطين غرناطة ، إلى سلاطين مصر المعاصرين ، مدبجة بقلم ابن الخطيب .

وترك لنا ابن الخطيب عدداً كبيراً ، من الرسائل الأدبية ، ورسائل المودة والصداقة ، التى كان يتبادلها مع شيوخه وأقرانه ، وأصدقائه ، وأكابر معاصريه ، وقد أورد لنا فى الإحاطة كثيراً منها . ونقل إلينا ابن خلدون فى « التعريف » بعضها .

وتمتاز رسائل ابن الخطيب بالأسلوب الرصين المشرق ، واللفظ الجزل المختار . وبالرغم من أن معظمها يجرى على قاعدة السجع ، فإنها على الأغلب خالية من روح التكلف ، الذى يجنى أحياناً على الأسلوب والمعنى . ولابن الخطيب براعة خاصة فى تخير الألفاظ ، وإبراز المعانى ، لايجاريه فيها الكثيرون من أكابر الكتاب .

ولابن الخطيب مقدرة فائقة على تخير أساليب المدح والذم ، ومديحه غالباً من النوع الرفيع الذى لايشوبه التنزل الوضيع ، بل تطبعه على الأغلب نزعة من الإعتزاز والكرامة . ويبدو ذلك فى كثير من تراجم الإحاطة ، وفى كثير من رسائله السلطانية . ونستطيع أن نقدم لمديحه الأدبى مثلا بترجمة صديقه وأستاذه أحمد بن صفوان المالقى فى الإحاطة ، وما كتبه عنه فى « الدرر الفاخرة » ، وهو الديوان الذى جمعه من شعره ، وما ورد فى ترجمته لشيخه أبى البركات بن الحاج البلفيقى ، وفى ترجمة صديقه ابن خاتمة ، شاعر ألمرية الكبير . وأن نقدم مثلا لمديحه السياسى ، بما كتبه عن سلاطين غرناطة المعاصرين ، وما ورد فى ترجمة صديقه وزميله ، الوزير الكبير الحاجب رضوان النصرى . ففى هذه التراجم ، عبارات مختارة ، من أساليب المدح الرفيع ، الذى يفيض اعتزازاً وكرامة ، واتزاناً فى الوصف والتصوير .

بيد أن ابن الخطيب ، يبدى فى نفس الوقت ، فى بعض رسائله المرفوعة إلى حُماته ، سواء من سلاطين غرناطة أو المغرب ، ألوانا من الملق كانت تمليها عليه ، على الأغلب ، ظروف حياته ، ولا سيما حياة المنفى فى المغرب ، حيث كان

يعيش تحت كنف سلاطينه ، مشمولا بحمايتهم ورعايتهم .

وكما أن ابن الخطيب ، يبدى اعتزازه ، فى كثير من المواطن ، بمنزلته السياسية ، فهو كذلك يبالغ فى الإعتزاز بكرامته ومنزلته الأدبية ، ويذهب أحياناً فى ذلك إلى حدود العُجْب والكبر . وهو لايحجم عن أن يذكرنا أحياناً ، بأنه من أعظم شخصيات عصره فى دولة الأدب . وإليك ما يقوله مثلا فى ديباجة كتابه المسمى « بالسحر والشعر » :

« وبعد فانه لما قيض الله منى الآداب مجلى سمائها ، وناشر رممها بعد مماتها ، وصاقل صفحاتها ، وقد محا محاسنها الصدا ، على بعد المدا ، وموضح طريقتها المثلى ، وقد أضحت طرائق قِددا ، والغاشى إلى ضوء نارها ، لعلى أجد على ضوء النار هدى » .

وأما فى الذم ، فان ابن الخطيب ، يلجأ أحياناً إلى الأساليب المضطرمة ، والعبارات القاذفة العنيفة ، ويطلق العنان لضغنه وحقده . ولنا فى ذلك أمثلة كثيرة فى « الإحاطة » ، وأبرزها ماكتبه (نقلا عن كتابه نفاضة الجراب) فى ترجمة السلطان محمد بن اسماعيل بن محمد بن فرج بن نصر المكنى بأبى عبد الله ، وهو السلطان الذى انتزع العرش من اسماعيل بن يوسف ، المتوثب على أخيه ، السلطان محمد الغنى بالله ، فهو يقول لنا مثلا فى وصف السلطان المذكور ما يأتى :

« كان شيطاناً ، ذميم الخلق ، حرفوشاً على عرف المشارقة ، مترامياً للخسائس ، مألفاً للذعرة ، والأجلاف والسوار ، وأولى الريب ، خبيثاً كثير النكر ، منغمساً فى العهن ، كلفاً بالأحداث ، متقلباً عليهم فى الطرق ، خليع الرسن ، ساقط الحشمة ، كثير التبذل ، قواد عصبة كلاب ..إلخ » .

وفى وصف وزيره : « استوزر الوزير المشئوم ، ممده فى الغىّ ، الوغد الجهول المرتاش من السرقة ، الحقود على عباد الله لغير علة ، على سوء العاقبة ، المخالف فى الأدب سنن الشريعة ، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة ، دودة القز ، وبغل طاحونة الغدر ، محمد بن ابراهيم بن أبى الفتح الفهرى ، فانطلقت يده على الإبشار ، ولسانه على الأعراض ، وعينه على النظر الشزر ، وصدره على التأوه والرين ، يلقى الرجل ، كأنه قاتل أبيه ، محدقاً إلى كميه ، يحترش بهما خبيثة ، أو يظن بهما رشوة .. إلخ » .

ونستطيع أيضاً أن نمثل لأساليب ابن الخطيب فى الذم ، بما كتبه فى ترجمتى خصيميه أبى الحسن النباهى وأبى عبد الله بن زمرك ، فى « الكتيبة الكامنة » ، وبما كتبه عن أبى الحسن فى رسالة « خلع الرسن » التى سبقت الإشارة إليها .

ومما يتميز به أسلوب ابن الخطيب ، بنوع خاص ، روحه النقدية العالية ، فهو يبدى فى تناول الشخصيات ، وفى وصفها وتحليلها ، مقدرة فائقة ، لا يكاد يجاريه فيها أحد من كتاب التراجم المسلمين ، اللهم إلا شمس الدين السخاوى المصرى ، صاحب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » فإنه قرينه ومنافسه الحق ، فى تلك الروح النقدية القوية . وابن الخطيب إلى جانب ذلك ، غزير المادة ، فى التنويع والابتكار ، يبدى براعة مدهشة ، فى التنقل فى نواحى الوصف من الأخلاق الشخصية ، إلى المواهب الأدبية والفنية ، إلى الحوادث الجارية ، وهو فى ذلك كله فنان موهوب ، يقدم إلينا تلك الجمهرة الكبيرة ، من العلماء والكتاب والشعراء والوزراء والأمراء ، الذين يضمهم كتاب «الإحاطة» فى صور متباينة ساحرة ، تنم عن فائق مقدرته الأدبية والفنية .

وأما فى الشعر فإن ابن الخطيب يرتفع إلى أسمى المراتب ، ويتميز شعره بالتنوع الكثير . فقد نظم فى شئون السياسة ، وفى المديح ، والغزل ، والزهد، والتصوف ، والمدائح النبوية . وهو يبدى فى قصائده براعة فى ابتكار المعانى وفى صوغ الخيال ، وفى اختيار اللفظ المشرق . وكذلك فقد برع ابن الخطيب فى الزجل ولاسيما على طريقة الشاعر الأندلسى المتصوف أبى الحسن الشسترى ، وقد أورد لنا نماذج من زجله فى السفر الثالث من كتاب « نفاضة الجراب »[(١)]

وكان ابن الخطيب بالأخص من أئمة الموشحات الأندلسية . ومن أشهر ما نظم منها موشحته الدائعة الصيت التى مطلعها :

جادَكَ الغيث إذا الغيث همَى ... يازمان الوصـــل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلـــما ... فى الكرى أو خُلسة المختلس[(٢)]

---

(١) وردت فى مخطوط خزانة الرباط العامة لوحات ٢٠٤ و٢٠٧ و٢١٠

(٢) نقل المقرى هذه الموشحة بأكلها فى نفح الطيب ج ٤ ص ١٩٨ وما بعدها . وكذلك فى أزهار الرياض ج ٢ ص ٢١٣ . وأورد لنا المقرى فى كتابيه المذكورين طائفة كبيرة أخرى من موشحات ابن الخطيب .

ولا محل لأن نورد هنا شيئاً من شعر ابن الخطيب أو نثره ، فسوف يرد الكثير منهما فى هذا الكتاب « الإحاطة » . ومن جهة أخرى فقد أفرد المقرى فى كتابه « نفح الطيب » مجلدين كبيرين ، هما الثالث والرابع ، لابن الخطيب وأخباره ، وشعره ونثره ، ونقل إلينا فيهما من مختلف كتبه ورسائله ، فصولا وشذوراً لا تحصى ، كما نقل إلينا عشرات من قصائده ، وهذا عدا ما نقله من نثره ونظمه فى كتابه « أزهار الرياض » .

ويصف لنا الأمير أبو الوليد اسماعيل بن الأحمر معاصر ابن الخطيب ، خلاله ومواهبه ، فى كتابه « نثير فرائد الجمان فيمن يضمنى وإياهم الزمان » فى تلك العبارات الرنانة : « هو شاعر الدنيا ، وعلم المفرد والثنيا ، وكاتب الأرض ، إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه فى الكتب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقولة ليس بالكهام إذ هو الماضى ، وإلا فانظر كلام الكتّاب الأول من العصبة ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة ، للبراعة ، بالبراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة . وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالإطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية .. » . ثم يشير بعد ذلك إلى قسوته فى الهجاء ، وإلى كونه قد هجا ابن عمه سلطان الأندلس بما لا يليق ويجمل(١) .

ويصف ابن خلدون فى مقدمته ابن الخطيب بأنه « شاعر الأندلس والمغرب فى عصره » وأنه « كان فى اللسان ملكة لا تدرك » . ويقول فى وصف نثره وشعره : « وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه . وبلغ فى الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » . ثم يقول عن رسائله السلطانية : « وصدرت عنه غرائب من الترسل فى مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة »(٢) . ثم يجمل وصفه فى « التعريف » بقوله : « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله فى النظم والنثر ، والمعارف والأدب ، لا يساجل مداه ، ولا يهتدى فيها بمثل هداه »(٣)

(١) أزهار الرياض ج ١ ص ١٩١ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر — المقدمة ص ٥٢٢ و٤٩٦ و ج ٧ ص ٣٣٢

(٣) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ص ١٥٥ .

ولم تمنع المحنة التي نزلت بابن الخطيب وتراثه ، من جراء تدبير خصومه ، من أن يعود إليه اعتباره وتقديره الحق ، بعد انقضاء عصر السلطان الغنى بالله ، الذى توفى فى سنة ٧٩٣ هـ (١٣٩١ م) . وفيما ورد فى نص صيغة الوقف التى كتبت على نسخة كتاب « الإحاطة » التى حبست على المدرسة اليوسفية ، أو جامعة غرناطة بقلم قاضى الجماعة ، الرئيس أبى يحيى بن عاصم ، والتى تحمل تاريخ وقفها وهو سنة ٨٣٩ هـ ، من وصف كتاب الإحاطة ، والتنويه بقيمته وأهميته . ووصف مؤلفه ، والارتفاع بقدره وعبقريته ، ما يدل على أن ذكرى ابن الخطيب ، عادت بعد نصف قرن من مصرعه ، تحتل مكانتها الحقة بين عظماء وطنه ، وعادت كتبه التى طوردت وأحرقت أيام الفتنة والتحامل ، تحتل مكانتها بين نفائس التراث الأندلسى .

• • •

ويشترك النقد الغربى الحديث فى التنويه بمنزلة ابن الخطيب العلمية والأدبية : ويبدى المستشرقون الإسبان بالأخص إجلالهم لمواهبه وخلاله ، وإعجابهم بتفكيره وتراثه ، ويرون فيما خلفه من تاريخ غرناطة ، وجغرافيتها ، وأوصاف حياتها الاجتماعية ، أنفس ما انتهى إلينا فى ذلك من تراث الكتاب المسلمين .

قال المستشرق مورينو نييتو Moreno Nieto ، فى وصف ابن الخطيب وتراثه ما يأتى : « لا يوجد فى تاريخ غرناطة الأدبى ، ما يمكن أن يقارن بهذا الكاتب الخصب ، فقد كانت معارفه العلمية عظيمة ، وقلما حظى أسلوب كاتب مثله . بما حظى به أساوبه ، من البلاغة والرشاقة ، حسبما يقول ابن خلدون ، وقد برع بالأخص فى علم السياسة وفى التاريخ ، وقد شهد حوادث سياسية ، لعب فيها دوراً كبيراً ، وكان مدى أعوام طويلة ، أميناً ومستشاراً للملك قابل خدماته بجحود مطبق .

« وإن تاريخ غرناطة حتى عصره ، ليعرف بالأخص من مؤلفاته ، بطريقة أتم وأكمل ، من أى عصر آخر من تاريخ الأندلس .

« ويعتبر تاريخه للدولة النصرية ، وكتابه « الإحاطة » دائماً بين أعجب آثار الأدب الإسلامى .

« ومنذ وفاة ابن الخطيب يخبو وينهار صرح العلوم فى الأندلس »(١) .

---

(١) نقل إلينا هذه الفقرات المستشرق Pons Boigues فى معجمه Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos arabigo-espanoles (Madrid 1898) p. 347.

ويصف العلامة المستشرق سيمونيت Simonet ، ابن الخطيب « بأمير الأدب الأندلسي الغرناطي »[1]، ويقول لنا إن شهرته وصلت إلى بلاط قشتالة ، وإنه يعرف فى تواريخها بابن خطين Benhatin، ويوصف بأنه « عالم كبير وفيلسوف ومستشار لملك غرناطة » .

ثم يقول « إن ابن الخطيب قد ترك لنا آثاراً كثيرة ، فى النثر والشعر والتاريخ والجغرافيا والرحلات ، والبلاغة والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات والطب والبيطرة،والموسيقى ، والفن الحربى ، والسياسة ، وكلها غنية فى الابتكار والتعمق والرشاقة »[2].

ويخصص العلامة المستشرق كونثالث بالنسيا G. Palencia لابن الخطيب فى كتابه « تاريخ الأدب العربى الإسبانى » ترجمة حسنة يبدؤها بقوله :«إن تاريخ القرن الرابع عشر يبلغ الذروة باسمين عظيمين ، هما ابن الخطيب المؤرخ الأنيق، والسياسي والأديب ، وابن خلدون منشئ فلسفة التاريخ . ثم يقول : « إن سائر الكتاب (فى هذا القرن) تكسف ضوءهم ، شخصية لسان الدين بن الخطيب العظيمة ، وابن لوشة . وقد تعلم فى غرناطة ، وأبدى شغفاً كبيراً بالعلوم الطبية والفلسفية ، التى تلقاها عن الطبيب الشهير يحيى بن هذيل : وقد برع فى الشعر وتربع فوق دست الآداب العربية »[3] .

وأما من ناحية التصنيف الأدبى ، فإن صفة المؤرخ هى الغالبة فى كتابات ابن الخطيب ، فقد وضع أهم كتبه فى التاريخ ، والتاريخ المعاصر بنوع خاص ، ومؤلفاته التاريخية من أقيم المراجع فى تاريخ الأندلس والمغرب ، فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . وكتاب الإحاطة وهو أضخم وأهم مؤلفاته ، هو معقد مجهوده التاريخى ، وقد كتب إلى جانبه عدة مؤلفات تاريخية أخرى هى « اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية » و « رقم الحلل فى نظم الدول » (وهو مكتوب بالنظم)، و « أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام » و«الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة » و « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب »

(1) Pons Boigues : ibid, p. 347.

(2) F. J. Simonet : Descripcion del Reino de Granada sacada de los Autores arabigos (Granada 1872) p. vi.

(3) A. G. Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola, No. 81, p. 179-182

و«التاريخ المحلى فى مساجلة القدح المعلى» و«عائد الصلة ».ونستطيع أيضاً أن نعتبر كتابه « ريحانة الكتاب » وهو من أهم مؤلفاته،مؤلفاً تاريخياً ، لما يحتويه من رسائل تاريخية ، ذات أهمية خاصة .

ومعظم هذه المؤلفات يتعلق بتاريخ العصر الذى عاش فيه ابن الخطيب،وسير الملوك ، وأكابر الوزراء والعلماء والكتاب والشعراء الذين عاصرهم ، أو يقتربون من العصر الذى عاش فيه ، وإن كان منها مثل الإحاطة ، ورقم الحلل ، وأعمال الأعلام ، ما يضم شيئاً من تواريخ العصور السابقة .

وقد كان ابن الخطيب رجل سياسة من الطراز الأول ، وقد استطاع أن يوجه بعزمه وهمته ، سياسة الدولة النصرية ، أعواماً طويلة ، سواء إزاء دول اسبانيا النصرانية ، أو دول المغرب . وتبدو أصالته السياسية ، فى كثير من رسائله ونبوءاته . ولعل أهم ما يؤثر عنه فى ذلك نظراته الصائبة إلى مصير الأندلس ، فقد كان هذا المؤرخ ، الثاقب الذهن ، الذى يقرأ حجب المستقبل ، من عبر الماضى ، والسياسى البعيد النظر ، يرى فى حوادث الأندلس ، شبح المستقبل الرهيب واضحاً ، ويستشف بنافذ بصيرته ، ما وراء الحجب ، من نهاية محتومة لهذا الوطن ، الذى مزقته الأهواء ، وأضنته الفتن . وكان يرى هذا المصير المحزن قبل وقوعه بأكثر من قرن ، ويهيب بقومه ، وإخوانه المسلمين فيما وراء البحر ، أن يبادروا إلى غوثه ونصرته ، وإلى الجهاد فى سبيل الدين والوطن . وله فى ذلك رسائل عديدة مؤثرة ، يوجهها إلى قومه ، ويلفت نظرهم ، إلى الخطر الداهم ، الذى لامحيص من وقوعه ، إذا استمر تنابذهم ،وتواكلهم ، ومنها ما وجه إلى ملوك العدوة ، من بنى مرين ، يستنهض هممهم لنصرة الوطن الأندلسى وإنجاده ، قبل أن يفوت الوقت ، وهى رسائل تمتاز بروعة أسلوبها(١) .

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة ، على شعور ابن الخطيب ، بخطر الفناء الذى ينتظر الأندلس ، ما وجهه فى وصيته إلى أولاده الثلاثة ، عبد الله ومحمد وعلى ، من النصح بعدم الإسراف فى اقتناء العقارات بالأندلس ، إذ يقول لهم « ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن ، القلق المهاد، الذى لايصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه

(١) وردت عدة من هذه الرسائل فى الجزء الثانى من الإحاطة ، ونقل إلينا المقرى كثيراً منها . راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧١ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ٦٤ و٦٦ .

أجمع فى العقار ، فيصبح عرضه للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن يتغلب العدو على بلده ، فى الإفتضاح والافتقار ، ومعوقاً عن الإنتقال ، أمام النوب الثقال ، وإن كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال فى الطلب أولى »(١)

ولابن الخطيب أيضا فصول فى السياسة الملكية ، مما تضمنته رسالة « كتاب الوزارة ومقامة السياسة » يشرح فيها واجب السلطان ، وخلال الوزير الصالح ، وأحوال الجند ، وما يجب لهم من توفير الجراية ، وتعويدهم على حسن الانقياد ، والعمال ووجوب حسن اختيارهم ، بتوفر الكفاية والأمانة ، وفى السياسة المنزلية أو الخاصية ، من السهر على تربية الأولاد ، وأحوال الخدم ، ووجوب أخذهم بحسن الانقياد ، والحُرم وكيف يعاملن . ويورد ابن الخطيب هذه الفصول فى صورة مقامة بطلها الخليفة الرشيد ، وقد أرق ذات ليلة ، فأتى له الندماء بشيخ حكيم ، عابر سبيل ، فأخذ يتلو على الرشيد ، آراءه فى موضوعات السياسة الملكية والخاصية ، وقد كتبت هذه الفصول بأسلوب مسجع ، ولكن جزل رصين(٢) .

— ٦ —

ترك لنا ابن الخطيب ، تراثاً حافلا منوعاً ، ما بين تاريخ ، وأدب ، وسياسة وتصوف ، وطب ، وشعر ، ونثر ، وقد بلغت مؤلفاته زهاء ستين مؤلفا .

وقد انتهى إلينا من هذا التراث أكثره ، ولاسيما المجموعة التاريخية والأدبية ، التى هى فى الواقع لب تراث ابن الخطيب ، والتى تلقى أعظم ضوء على تاريخ الأندلس والمغرب ، فى أواسط القرن الثامن الهجرى

والظاهر أن مؤلفات ابن الخطيب ، التى لم تصل إلينا ، قد هلك معظمها فى محنة إحراق كتبه التى وقعت فى غرناطة فى سنة ٧٧٣ هـ ، وهى من كتب الطب والتصوف والموسيقى ، وأن معظم كتبه التى نجت من تلك المحنة ، قد وصل إلينا عن طريق المغرب . والواقع أن ابن الخطيب قد وضع كثيراً من كتبه أثناء إقامته منفياً بالمغرب ، خلال فترتين ، أولاهما مابين سنتى ٧٦١ وأواسط سنة ٧٦٣ هـ ، والثانية منذ أوائل سنة ٧٧٣ حتى مصرعه فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ .

---

(١) أورد لنا المقرى وصية ابن الخطيب كاملة فى نفح الطيب ج ٤ ص ٧١٨ وما بعدها ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٢) تراجع هذه الرسالة فى نفح الطيب ج ٤ ص ٥٥٨ — ٥٦٥ .

وقد ذكر لنا ابن الخطيب ثبت مؤلفاته خلال ترجمته لنفسه ، فى آخر كتاب الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال الكبيرة لوحة ٤٣٣ و٤٣٤) ، ولكن هذا الثبت لا يتضمن كل كتبه ، لأنه انتهى من كتابة الإحاطة منقحة ، حوالى سنة ٧٧٣ هـ ، وكتب مزيداً من الكتب والرسائل بعد هذا التاريخ ، ونقل إلينا المقرى ثبت كتب ابن الخطيب ، فى مؤلفيه نفح الطيب وأزهار الرياض[1] .

المجموعة التاريخية

١ — كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » وقد تحدثنا فيما تقدم ، عن مادته وتاريخ كتابته ، واستعرضنا ما يوجد من مخطوطاته فى مختلف المكتبات.

٢ — « التاريخ المحلى فى مساجلة القدح المعلى » ، وهو يحتوى على مختصر لتاريخ مملكة غرناطة ، منذ إنشائها على أيدى بنى نصر ، وتراجم أعيانها فى القرن الثامن الهجرى . ويترجم فيه ابن الخطيب لنفسه ولوالده ، ويوجد منه جزء بالمخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو المتضمن لكتاب « معيار الإختيار » ، من تأليف ابن الخطيب أيضاً . ويشغل فى المخطوط من لوحة ٧١ إلى نهايته فى لوحة ١٢٣ ، وينقل ابن الخطيب هذا الكتاب فى الجزء الثانى من كتابه « ريحانة الكتاب » إلى جانب عدة من رسائله الأخرى . وتوجد طائفة من تراجم « التاريخ المحلى » فى المخطوط رقم 1102 بخزانة الرباط العامة ، فى المجموع الذى عنوانه « مجموع مراسلات وتراجم ابن الخطيب » . وقد نقل إلينا المقرى منه كثيرا من التراجم .

وأما « القدح المعلى » الذى يقرن به ابن الخطيب عنوان كتابه المتقدم ، فهو من تأليف ابن سعيد الأندلسى (أبى الحسن على بن موسى المتوفى سنة ٦٦٦ هـ أو ٦٧٢ هـ وفقاً لابن الخطيب) وهو يضم تراجم الأدباء الأندلسيين فى القرن السابع الهجرى .

٣ — « الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » أو « الكتيبة الكامنة فى أهل المائة الثامنة » . ويقول ابن الخطيب فى ديباجته إنه جمع فيه « جملة وافرة ، وكتيبة ظافرة ، ممن لقيناه ببلدنا الذى طوينا جديد العمر فى ظله ، ما بين من تلقينا إفادته ، وأكرمنا وفادته ، وبين من علمنا وخرجنا ،

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٥ وفى أزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠

ورشحنا ودرجنا ، ومن اصطفيناه ، ورعيناه فضلا صنعناه » . وفيه يترجم ابن الخطيب لطائفة من الخطباء والشعراء ، والمقريين ، والفقهاء ، والكتاب المعاصرين له ، ويورد مختارات من شعرهم وأحياناً من نثرهم . وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة بالمغرب منها ثلاث بخزانة الرباط العامة ، ونسختان بالخزانة الملكية ، ونسخة بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، ونسخة بخزانة تطوان العامة ، وتوجد منه أخيراً نسخة بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد(١) .

٤ — « اللمحة البدرية فى الدولة النصرية » ، وهو مختصر لتاريخ بنى نصر ملوك غرناطة ، حتى فاتحة سنة ٧٦٥ هـ ، وهو تاريخ الفراغ من تأليفه ، وذلك حسبما يذكر المؤلف فى خاتمته . وتوجد منه نسخة خطية بالإسكوريال رقم ١٧٧٦ الغزيرى (ضمن المجلد الذى يحتوى على كتاب رقم الحلل) . وتوجد منه بخزانة القرويين بفاس نسختان مخطوطتان . وتوجد نسخة أخرى بخزانة الرباط ، كما توجد نسخة حديثة بالمتحف البريطانى(٢) .

٥ — « رقم الحلل فى نظم الدول » وهو عبارة عن تاريخ منظوم ، للدول الإسلامية ، الخلفاء الأوائل وبنى العباس ، وبنى الأغلب ، والعبيديين ، وبنى أمية بالأندلس ، والطوائف ، والمرابطين والموحدين ، وبنى مرين وبنى نصر ، وشرح هذه القصائد نثراً بقلم ابن الخطيب نفسه . وتوجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الإسكوريال (رقم ١٧٧٦ الغزيرى) تحمل تاريخ الفراغ من كتابتها وهو ٧٦٥ هـ أعنى فى حياة المؤلف . ويوجد منه بالمغرب نسخة بخزانة القرويين بفاس ، وثلاث نسخ بخزانة الرباط العامة ، وثلاث أخرى بالخزانة الملكية . وتوجد منه أيضاً نسخة بالمتحف البريطانى ، كما توجد نسخة حديثة الكتابة بدار الكتب المصرية . وقد نشر جزء من هذا الكتاب بتونس فى سنة ١٣١٦ هـ (١٨٩٨ م) وهو يسمى أحياناً « بالحلل المرقومة » كما هو الشأن فى نسخة مدريد المخطوطة ، المنقولة عن نسخة الإسكوريال ، وقد اختلط الأمر فى ذلك على العلامة المستشرق

---

(١) نشر كتاب « الكتيبة الكامنة » ببيروت سنة ١٩٦٣ .

(٢) نشر كتاب اللمحة البدرية فى القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ (١٩٢٨ م) بعناية المرحوم الأستاذ محب الدين الخطيب .

زيبولد فظن أنهما كتابين مختلفين ، والواقع أنهما اسمان لنفس المؤلف(١).

٦ — « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » . هذا الكتاب من أهم كتب ابن الخطيب ، بل ربما كان أهم كتاب بعد كتاب « الإحاطة » . ووجه أهمية النفاضة ، هو أنه فضلا عن ضخامة حجمه ، يعتبر بالنسبة لابن الخطيب مذكراته الشخصية ، عن فترة من أهم فترات حياته ، هى الفترة التى قضاها فى عزلته فى سلا من رجب سنة ٧٦١ إلى رجب سنة ٧٦٣ هـ ، ثم بعد ذلك منذ عودته إلى الأندلس وتولى الوزارة للمرة الثانية ، حتى ربيع الأول سنة ٧٦٤ هـ . ولم تصلنا من هذا الكتاب نسخة كاملة ، بل وصلنا منه فقط سفراه الثانى والثالث ، وهو ينكون من ثلاثة أسفار حسبما يخبرنا ابن الخطيب نفسه فى نهاية السفر الثانى (نسخة الإسكوريال) ، وحسبما ورد فى نهاية السفر الثالث (نسخة الرباط).

ويوجد من السفر الثانى نسخة وحيدة بمكتبة الإسكوريال تحمل رقم ١٧٥٠ الغزيرى (١٧٧٥ ديرنبور) تتكون من ١٥٩ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط ، ولا تحمل صفحة العنوان عنواناً ، ولكنها تحمل ما يدل على أنه من كتب المكتبة الزيدانية (مكتبة السلطان مولاى زيدان) . وتبدأ بأخبار الرحلة التى قام بها ابن الخطيب فى عمالات المغرب ، وتتضمن أخبار ابن الخطيب وأحواله ، وقت إقامته بسلا ، كما تتضمن عدة رسائل وجهها ابن الخطيب إلى السلطان أبى سالم المرينى ، ورسائل أخرى مختلفة ، وعدة قصائد ، منها قصيدته الشهيرة بتهنئة السلطان أبى سالم بفتح تلمسان . ويذكر لنا ابن الخطيب ما دبجه فى تلك الفترة من كتب ورسائل . وهذه هى محتويات السفر الثانى من نفاضة الجراب(٢)

وأما السفر الثالث من نفاضة الجراب ، فتوجد منه نسخة وحيدة أيضاً ، بخزانة الرباط العامة بالمغرب تحفظ برقم 256 ك (المكتبة الكتانية) ، وهى كذلك لاتحمل عنواناً . وتقع هذه القطعة فى ٢٩٠ صفحة كبيرة . وقد ذكر فى نهايتها ما يأتى « تم السفر الثالث وبتمامه تم جميع الديوان » . ويجرى هذا السفر على نسق « السفر الثانى » . ويحدثنا فيه ابن الخطيب عن مراحل عودته إلى الأندلس ، وعن

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة ابن الخطيب .

(٢) نشر هذا السفر الثانى من نفاضة الجراب (مخطوطة الإسكوريال) بالقاهرة سنة ١٩٦٩ بتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهوانى .

تحركات السلطان أبى عبد الله محمد الغنى بالله ، فى سبيل استرداد عرشه ، مذ نزل برندة . ويتضمن عدة رسائل سلطانية مدبجة بقلم ابن الخطيب ، منها رسالة إلى سلطان مصر، المنصور بن الناصر بن قلاوون، ورسالة أخرى إلى الأمير يلبغا الخاصكى القائم بأمر الدولة فى مصر ، كما يتضمن رسالة ابن خاتمة إلى ابن الخطيب ، وهى التى يحاول فيها أن يثنيه عن عزمه فى مغادرة الأندلس، ورد ابن الخطيب عليه .

وتوجد من هذا السفر الثالث أيضاً ، قطعة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط ولكنها بالية مطموسة الكتابة .

٧ — «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام». وهذا الكتاب هو آخر ما ألفه ابن الخطيب قبل مصرعه ، وقد تركه ناقصاً ، ولم يتح له القدر إكماله ، وقد ألفه للوزير أبى بكر بن غازى عقب وفاة السلطان عبد العزيز المرينى ، وتنصيب ولده الطفل السعيد سلطانا مكانه . فقد أثار خصوم ابن غازى يومئذ حملة شديدة على تولية الطفل ، واتهموا الوزير بإهدار مصالح المسلمين ، فوضع ابن الخطيب كتابه «أعمال الأعلام» ليثبت فيه أن لهذا الحادث نظائر كثيرة فى التاريخ الإسلامى ، وأنه تصرف سليم لايخالف أحكام الدين فى شىء . والكتاب مجهود تاريخى قيم ، ويشتمل على ثلاثة أقسام كبيرة ، الأول تاريخ المشرق ومصر والشام ، والثانى تاريخ الأندلس منذ دولة بنى أمية حتى قيام دولة بنى الأحمر بغرناطة ، وذكر سلاطينها حتى عصر الغنى بالله سلطان المؤلف . والقسم الثالث تاريخ إفريقية والمغرب منذ أيام الأغالبة حتى بداية عصر الموحدين ، وهذا القسم ينقص عما كان ينتويه المؤلف من إكمال الكلام على دولة الموحدين حتى نهايتها .

ويوجد من كتاب أعمال الأعلام عدة نسخ مخطوطة ، منها بالمغرب بالخزانة الملكية نسختان ، ونسختان أخريان بالخزانة العامة بالرباط ، ونسخة بخزانة القرويين بفاس ، كما توجد نسخة تتضمن القسمين الأول والثانى ، بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهى منقولة عن نسخة بالجزائر[١].

(١) نشر المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال القسم الثانى من كتاب أعمال الأعلام وهو يتعلق بتاريخ الجزيرة الأندلسية تحت عنوان «تاريخ اسبانيا الإسلامية» فى مجلد كبير (الرباط سنة ١٩٣٤) =

٨ — « طرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر » وهو تاريخ آخر للدولة النصرية ، وقد أشار إليه ابن الخطيب غير مرة فى كتاب « اللمحة البدرية » وكذلك أشار إليه مراراً فى كتاب « الإحاطة » . ويعتقد العلامة ڤستنفلد خطأً أنه اسم آخر لكتاب « اللمحة البدرية » . ولكنا بمقارنة الفقرات التى يقتبسها ابن الخطيب فى الإحاطة من « طرفة العصر » و « اللمحة البدرية » ، وكذلك بمراجعة كتاب « اللمحة البدرية » حيث يقتبس ابن الخطيب من «طرفة العصر» ، انتهينا إلى أن الكتابين مختلفين ، ولم نعثر على أية نسخة مخطوطة من هذا الكتاب ، فى مختلف المكتبات التى تحتوى على آثار ابن الخطيب .

٩ — « الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم التاج من الجواهر » وفيه يتناول ابن الخطيب تراجم بعض أعلام معاصريه بأسلوب مسجع ، وهو بمثابة تكملة لكتاب « التاج المحلى » . وقد ورد بعد تراجم التاج المحلى فى المخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، ويشغل فيه من لوحة ١١٧ إلى لوحة ١٣٤ ب ، وقد نقل إلينا المقرى منه كثيراً من التراجم والنبذ .

١٠ — « عائد الصلة » . كتبه ابن الخطيب ليكون ذيلا لكتاب «صلة الصلة» لابن الزبير المتوفى سنة ٧٠٨ هـ ، وجمع فيه طائفة من تراجم الأعلام اللاحقين لمن ترجمهم ابن الزبير ،وهو يذكره فى الإحاطة فى ترجمة مؤلف « الصلة » ويقتبس منه كثيراً . ولم نعثر على أية نسخة مخطوطة منه .

١ — « الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة » . أشار ابن الخطيب إلى هذا الكتاب فى كتابه « اللمحة البدرية » (ص٢٧) ونقل عنه فيه نبذة كبيرة ، عن أحوال أهل غرناطة ، ولكنه لم يذكره فى ثبت كتبه التى وردت فى ترجمته فى نهاية الإحاطة ، أو تلك التى ذكرها فى نفاضة الجراب . والحقيقة أننا باستعراض هذا الفصل ، الذى نقله ابن الخطيب فى اللمحة البدرية مما سماه كتاب «الإماطة» وجدنا أنه ليس إلا مختصراً للفصل الذى كتبه فى هذا الموضوع فى كتاب «الإحاطة» ،فإذا كنا لانجد أثراً مستقلا لكتاب «الإماطة » بين تراث ابن الخطيب ، فأرجح الظن أنه اسم آخر لكتاب الإحاطة ، أو أنه مختصر

= وأعيد طبعه ببيروت . ونشر القسم الثالث تحت عنوان « تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط » (الدار البيضاء سنة ١٩٦٤) .

فقط للقسم الأول من كتاب الإحاطة الذى عنوانه (فى حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن) . وعلى أى حال فإننا لم نعثر منه على أية نسخة أو أوراق مخطوطة فى أية مكتبة من المكتبات أو المجموعات الخاصة .

وهناك مؤلف تاريخى ينسب خطأ لابن الخطيب ، وهو كتاب « الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية » ، وقد طبع فى تونس سنة ١٣٣٧ هـ منسوباً لابن الخطيب وصدرت ديباجته بالعبارة الآتية :«قال الشيخ الأديب البارع لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله» . ولكن ينقض ذلك ويقضى ببطلانه ، ما ورد فى ختام الكتاب عند ذكر ولاية السلطان أبى زيد عبد الرحمن المتوكل على الله ، إذ جاء فيه « واستقر بحاضرة مراكش فى شهر المحرم من عام ستة وسبعين وسبعمائة ، وهو إلى هذا العهد الذى ألفت فيه هذا المجموع يوم الخميس الثانى عشر لربيع الأول من عام ثلاث وثمانين وسبعمائة » (ص١٣٦) . ونحن نعرف أن ابن الخطيب توفى فى أوائل سنة ٧٧٦ هـ أى قبل هذا التاريخ بسبعة أعوام ،وإذن فمن الواضح قطعاً أنه ليس مؤلف الكتاب . ومن جهة أخرى ، فإنه توجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط (رقم 3674) ذكر فيها أن الكتاب هو من تأليف أبى العلاء بن سماك العاملى المالقى .

الترسل والأدب والمصنفات الخاصة

١٢ — « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » ، وهو أهم كتب ابن الخطيب ، بعد الإحاطة ، وفيه يفصل ابن الخطيب فى ديباجته محتوياته على النحو الآتى : « تمهيدات من أوائل المصنفات » ، وفى هذا الباب يختار ابن الخطيب نبذاً من مقدمات كتبه ورسائله السابقة ، مثل « بستان الدول » « وجيش التوشيح » و« الإكليل الزاهر» و« الإحاطة » و«كتاب الطب » و« روضة التعريف بالحب الشريف » و« استنزال اللطف الموجود فى أسرار الوجود » . ثم يلى ذلك أبواب التحميدات ، والفتوحات الواقعة ، والمرافعات التابعة ، وكتب الشكر على الهدايا ، وكتب التهانى وغيرها . ثم يلى ذلك طائفة كبيرة من الرسائل السلطانية التى كتبها ابن الخطيب عن سلاطين غرناطة ، والتى وردت عن سلاطين المغرب ، فى أغراض الحرب والسياسة ، وغيرها ، فى باب يسميه « جمهور أغراض السلطانيات » ، ويلى ذلك طائفة أخرى من الرسائل ، التى كتبت فى مخاطبة

الرعية والجهات ، وظهاير الأمراء ، ورسائل إلى الأصدقاء والقضاة . ثم رسائل « فى جمهور الإخوانيات » . ويلى ذلك كتب الدعابات والفكاهات ، ثم المقامات . وهنا ينقل ابن الخطيب إلينا ، بعض كتبه ورسائله السابقة ، مثل خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف — كتاب معيار الإختيار — رسالة السياسة — كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة والسياسة — مفاخرة بين مالقة وسلا .

وتوجد من هذا المؤلف الضخم نسخ مخطوطة عديدة ، أولها نسخة كاملة فى مكتبة الإسكوريال تحمل رقم ١٨٢٥ الغزيرى وتقع فى مجلد كبير ، يتكون من ٢٨١ لوحة كبيرة مزدوجة ، وقد كتبت بخط أندلسى فى شوال سنة ٨٨٠ هـ . وقطعة كبيرة بمكتبة مدريد الوطنية تتكون من ٦٢ لوحة مزدوجة (وتحمل رقم ٥١٨٣) ، كما توجد قطعة أخرى بمكتبة الفاتيكان الرسولية تقع فى ١٢٨ لوحة مزدوجة (وتحمل رقم Borg. 252) . وتوجد منه قطعة مخطوطة أخرى بمكتبة جامعة أوبسالة بالسويد تتكون من ١٤٤ لوحة كبيرة مزدوجة .

وتوجد منه عدة نسخ وقطع مخطوطة بالمغرب ، ومنها سبع نسخ بالخزانة الملكية ، أولها نسخة كاملة تقع فى مجلدين من الحجم المتوسط ، ومكتوبة بخط مغربى وتحمل رقم 2195 . والباقى عبارة عن ست قطع من الريحانة ، مختلفة الأحجام والمحتويات ، وقد كتبت كلها بخط مغربى . كذلك توجد من الريحانة عدة نسخ وقطع مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط ، منها نسخة كاملة تحمل رقم 331ك (الكتانية) وهى عبارة عن مجلد ضخم يتكون من ٦٠٩ صفحة ، من القطع الكبير ، ومكتوبة بخط مغربى ، ونسخة أخرى قديمة وبالية وناقصة من آخرها وتحمل رقم 705 ك ، ونسخة ثالثة ناقصة أيضاً وتحمل رقم 1075 ك ، كما توجد بالخزانة العامة نسختان أخريان كاملتان من الريحانة تحمل أولها رقم 10 ج (مكتبة الجلاوى) وتحمل الثانية رقم D 988 .

ويوجد بخزانة القرويين بفاس قطعتان مخطوطتان من الريحانة . ويوجد كذلك بمكتبة الجزائر الوطنية قطعة كبيرة من الريحانة ، تحتوى على النصف الثانى من الكتاب ، وتحمل رقم 2010 فهرس الدفاتر .

وتوجد منه قطعة كبيرة بدار الكتب التونسية (مجموعة الزيتونة) تحمل رقم 11024 .

ويوجد بدار الكتب المصرية ، قطعتان مخطوطتان من الريحانة ، تحملان رقمى ٤ و ٥ أدب ش .

هذا وقد نشر المستشرق الإسبانى جسبار ريميرو ثلاثاً من رسائل الريحانة السلطانية ، وقرنها بترجمة إسبانية تحت عنوان Correspondencia diplomatica entre Granada y Fes en el Siglo XIV. ونشرت هذه الرسائل الثلاث وترجمتها بمجلة (R. del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino/1912)

١٣ — «كناسة الدكان بعد انتقال السكان» . هذا الكتاب وضعه ابن الخطيب فى بداية إقامته الأولى بسلا ، منفياً بالمغرب ، وهوعبارة عن مجموعة من الرسائل السلطانية ، كتبها ابن الخطيب فى بداية حياته الوزارية ، عن السلطان أبي الحجاج يوسف ، إلى السلطان أبى عنان المرينى ، ملك المغرب ، فى أغراض سياسية وعسكرية مختلفة ، وبعض رسائل أخرى مختلفة . وتوجد منه نسخة وحيدة ، بمكتبة الإسكوريال ، تحفظ برقم ١٧١٢ الغزيرى ، وتقع فى ٦٠ لوحة مزدوجة من القطع المتوسط . وهى مكتوبة بخط أندلسى ، وتحمل صفحاتها الأولى عنوان الكتاب ، ولكنها لا تحمل اسم مؤلفه(١) .

١٤ — «معيار الإختيار فى ذكر المشاهد والديار» أو «فى ذكر المعاهد والآثار» ، وهو وصف نثرى مسجع ، لمدن وبلاد مملكة غرناطة ، ولطائفة من المدن المغربية . ويتألف من فصلين أومجلسين كتبا على طريقة المحاورة . وتوجد منه نسخة بالإسكوريال ضمن مجموعة تحتوى على رسائل أخرى ، وتحفظ برقم ٥٥٤ الغزيرى . وقد ذكر فى نهاية المخطوط أنه كتب فى سنة ٨٧٣ هـ . ويتضمن هذا المخطوط جزءاً من التاج المحلى حسبما تقدم ، وتوجد منه بالمغرب نسخة بمكتبة القرويين بفاس ، ونسخة بمكتبة الرباط العامة ، ضمن مجموعة ، وأخرى بمكتبة الجلاوى .

وقد نشر المستشرق الإسبانى سيمونيت القسم الأول من «معيار الإختيار» وهو المتعلق بمدن غرناطة وترجمه إلى الإسبانية بعنوان Descripcion del

(١) نشر هذا الكتاب بالقاهرة فى سنة ١٩٦٦ بتحقيق الدكتور محمد كمال شبانه ومراجعة الدكتور حسن محمود .

Reino de Granada bajo las Nazaritas (Madrid 1861) ، ونشر المستشرق الألمانى مركوس ميللر جزءاً من المجلس الأول والمجلس الثانى ، فى مجموعة (Beitraege zur Geschichte des Westlichen Araber (Munchen 1866) (ص ٤٥ — ١٠٠) كما نشر الكتاب كله فى فاس سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧) .

١٤ — « مفاخرة بين مالقة وسلا » وهى رسالة مسجعة فى المقارنة بين هذين البلدين . وتوجد منها نسخة بالإسكوريال ضمن المخطوط رقم ٥٥٤ الغزيرى السابق ذكره . وقد نشرها المستشرق ميللر فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه (Beitraege) [1]

١٥ — « خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف » رسالة كتبها ابن الخطيب فى سنة ٧٤٨ هـ ، يصف فيها رحلة قام بها السلطان أبو الحجاج يوسف فى شهر المحرم من هذا العام ، وزار فيها عدة من مدن مملكة غرناطة ، وقد كتبت بأسلوب مسجع جزل . وتوجد منها نسخة بالإسكوريال ضمن المخطوط رقم ٤٧٠ الغزيرى . وقد نشرها المستشرق ميللر فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه (Beitraege)

١٥ — « روضة التعريف بالحب الشريف أو كتاب المحبة » . هذا الكتاب أو هذه الرسالة الضخمة من أهم مؤلفات ابن الخطيب .

وهو مؤلف من نوع خاص . ويعتبر بفكرته وأسلوبه من أقوى نفثات ابن الخطيب النثرية وأبلغها ، وأحفلها بالإفكار الفلسفية الطريفة ، والتشبيهات المبتكرة ، فى موضوع المحبة الروحية والإلهية . وهو يدل فوق ذلك على تضلع ابن الخطيب ، فى التصوف ، ودراسة مختلف المدارس الصوفية . وقد وضعه ابن الخطيب بناء على إشارة مليكه الغنى بالله رداً على ما جاء فى كتاب (ديوان الصبابة) الذى وضعه الأديب المغربى أبو العباس بن حجلة ، نزيل القاهرة : وكان هذا الكتاب الذى يعنى بذكر أخبار العشق والعشاق نثراً وشعراً ، قد ذاع واشتهر أمره ، ووصل إلى الأندلس ، ووقع بين يدى السلطان الغنى بالله ، فأشار على وزيره ابن الخطيب أن يكتب كتاباً فى الرد عليه . فكتب ابن الخطيب كتاب « روضة التعريف بالحب الشريف » ، وذهب فيه فى تصوير المحبة مذهبا

---

(١) نشر الدكتور أحمد مختار العبادى القسم الأول من معيار الإختيار ومفاخرة بين مالقة وسلا ضمن مجموعة سماها « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس » .

جديداً ، فجعل أصل المحبة شجرة ، وجعل النفوس التى تغرس فيها أرضا ، وجعل أغصان الشجرة أقساماً ، وجعل أوراقها ، هى الحكايات التى تحكى ، وأزهارها هى الشعر الذى يقرض ، وجعل ثمرتها هى الوصول إلى الله تعالى . وفرغ ابن الخطيب من تأليف هذا الكتاب فى أوائل سنة ٧٦٩ هـ[١] .

وتوجد من « روضة التعريف » نسختان بالخزانة الملكية بالرباط تحفظان برقمى 789 و 664 . وتوجد منه قطعة بخزانة الرباط العامة ضمن مخطوط قديم . وتوجد منه نسختان أخريان بخزانة القرويين بفاس .

هذا ويستدل من رسالة بعث بها ابن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون مؤرخة فى الثانى من جمادى الأولى سنة ٧٦٩ هـ ، على أن ابن الخطيب قد بعث بنسخة من كتاب « المحبة » ونسخة أخرى من كتاب « الإحاطة » إلى القاهرة ، تحبيساً على طلاب العلم ، وجعل مقرهما خانقاه الصوفية المسماه (سعيد السعدا)[٢] .

١٦ — « استنزال اللطف الموجود فى سر الوجود » وهى رسالة صغيرة فى التصوف . ولم نعثر على نسخ منها فى مختلف المكتبات التى سبق ذكرها .

١٧ — « رسالة فى السياسة » كتبها ابن الخطيب على نمط المقامات ، وأملاها حسبما يقول لنا فى ليلة واحدة ، وجعلها فى صورة قصة بطلها الخليفة الرشيد . وقد سبق أن أشرنا إلى محتوياتها . وتقترن بها رسالة ابن الخطيب الثانية التى عنوانها « كتاب الإشارة إلى أدب الوزارة ».وقد وردت الرسالتان ضمن مجموعة خطية بالإسكوريال تحمل رقم ٥٥٤ ، وهى التى سبقت الإشارة إليها ،(وتشغلان بها من لوحة ٣٤ ب إلى لوحة ٧١ أ). ووردت رسالة السياسة فى نهاية كتاب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال لوحة ٤٩٢ — ٤٩٨) . وتوجد منها أيضا نسخة خطيةأخرى بخزانة الرباط العامة . ونقل إلينا المقرى رسالة السياسة فى نفع الطيب[٣]

١٨ — « مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة » وهى رسالة فى التوثيق تتضمن مناقشات

---

(١) نقل المقرى إلينا فى نفح الطيب مقدمة كتاب المحبة وبعض فصول من محتوياته (ج ٤ ص ٤٧٥ — ٥٠٣) . هذا وقد نشر الكتاب كله بمدينة القاهرة سنة ١٩٦٨ بتحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد عطا ، ونشرت منه طبعة أخرى ببيروت محققة بقلم الأستاذ محمد الكتانى (سنة ١٩٧١) .

(٢) راجع التعريف بابن خلدون ورحلته (١٩٥١) ص ١٢١ .

(٣) نفح الطيب ج ٤ ص ٥٥٨ — ٥٦٦ ، هذا وقد نشرناها نحن على ضوء التحقيق المقارن بكتابنا (لسان الدين بن الخطيب ص ٣٧٦ — ٣٨٨) .

جرت بين ابن الخطيب وبين أهل الطريقة نظماً ونثراً ، والتنبيه على بعض معايبها ويشير ابن الخطيب إليها وإلى سبب وضعها فى الإحاطة ،فى ترجمة ابن القباب . وتوجد من هذه الرسالة نسخة خطية بخزانة الرباط الملكية ، وفى بعض خزائن المغرب الأخرى .

١٩ — « رسالة فى الموسيقى ». وضع ابن الخطيب رسالة فى الموسيقى وفنونها لم تصل إلينا ، ولكنه ذكرها فى ثبت آثاره فى ترجمته ، وذكرها معاصره الأمير إسماعيل بن الأحمر ضمن مؤلفاته(١) .

٢٠ — « بستان الدول ».وهو كتاب فى السياسة والقضاء والحرب، وأهل المهن والحرف ، وطوائف الشعب، تخصص لكل منها شجرة ، وهوكتاب لم يكمل ولم يصل إلينا ، ويقول لنا ابن الخطيب فى الإحاطة إنه كتب منه ثلاثين سفراً ثم عاقته الحوادث عن إتمامه(٢) .

٢١ — « تافه من جم ، ونقطة من يم » وهو مجموعة اختارها ابن الخطيب من رسائل أستاذه ابن الجياب ونثره(٣) ولم يصل هذا المجموع إلينا .

آثار ابن الخطيب المنظومة

ترك لنا ابن الخطيب تراثاً ضخماً منوعاً من النظم الفائق، مابين قصائد سياسية معظمها نداءات مؤثرة لإنجاد الأندلس ، وما بين مدائح وهجاء ، ورثاء وتهانى، وزهد وغير ذلك . وقد انتهى إلينا من هذا التراث الشعرى ما يلى :

٢٢ — الديوان المسمى « الصيّب والجهام والماضى والكهام ». وهوديوان ابن الخطيب . ولم تصل إلينا من هذا الديوان نسخة كاملة ، وهى التى يقول ابن الخطيب فى ترجمته لنفسه ، إنها تقع فى سفرين . ويوجد بخزانة القرويين بفاس مجموعة أوراق تحمل رقم ٧١ خروم، يرجح أنها من هذا الديوان ، وهى تبلغ أربعين ورقة . وتوجد منه قطعة أخرى لدى الشيخ العربى الحريشى من أعيان فاس ، تحمل عنوان الديوان ، وتتضمن القصائد مرتبة على حروف المعجم حتى قافية الراء ، وتقع فى ٩٩ لوحة من القطع المتوسط .

---

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٩٠

(٣) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٩

٢٣ — « الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة » . وهى أرجوزة من ألف بيت فى أصول الفقه ، ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته التى ذكرها فى « نفاضة الجراب » ، وهى تلخيص كتاب « أصول الفقه » لأبى اسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ ﻫ وقد وقفنا أثناء جولاتنا بخزانة القرويين بفاس ، على نسخة خطية قديمة من كتاب « الحلل المرقومة واللمع المنظومة » تحمل رقم ٧٨ خروم ، وهى عبارة عن شرح للأرجوزة المتقدمة التى وضعها ابن الخطيب ، ويقع الشرح المذكور فى ٧٦ لوحة من القطع الصغير .

٢٤ — « السحر والشعر ». هذا الكتاب ليس من تأليف ابن الخطيب، ولكنه من تصنيفه ، وهو عبارة عن مجموعة شعرية اختارها . وقد ذكر ابن الخطيب فى مقدمته أنه لمناسبة ترعرع ولده عبد الله ، قد اغتنم الفرصة واختار له طائفة من القصائد تتعلق بالوصايا والمبادئ . وممن اختار ابن الخطيب من شعرهم من المشارقة ، ابن نباته والصابى ومهيار وأبو العتاهية وابن الرومى والشريف الرضى وغيرهم . ومن المغاربة شعراء المغرب والأندلس ، ابن رشيق والمعتمد بن عباد وابن عمار وابن اللبانة وابن عبدون وابن سهل وابن حمدين وابن صمادح وابن الجياب وغيرهم ، والمختارات موجزة مقلة ، وقد راعى ابن الخطيب فى قسمه الأول نمط الشعر ، وفى قسمه الثانى نمط السحر .

وتوجد من هذا الديوان نسختان بمكتبة الإسكوريال تحمل الأول رقم ٤٥٦ الغزيرى وتقع فى ١٤٤ لوحة متوسطة . وتحمل الثانية رقم ٤٥٥ الغزيرى وهى ناقصة . وتوجد نسخة بخزانة الرباط العامة ، تحمل رقم D 1295 ، كما توجد بخزانة القرويين نسخة أخرى تمت كتابتها فى سنة ٨٨٨ ﻫ .

٢٥ — « جيش التوشيح ». جمع ابن الخطيب وهو من أئمة الموشحات الأندلسية مجموعة مختارة من موشحات أئمة التوشيح بالأندلس ، مثل ابن بقى ، وابن اللبانة ، والأعمى التطيلى ، وابن لبون، وأبى بكر السرقسطى، وابن شرف وغيرهم فى كتاب سماه بالإسم المتقدم . ويوجد من الديوان المذكور نسخة خطية بمكتبة الزيتونة بتونس (الآن دار الكتب الوطنية التونسية) وتقع فى ١١٠ لوحة من القطع المتوسط(١) .

(١) نشر هذا الكتاب بتونس محققاً بعناية الأستاذين هلال ناجى ومحمد ماضور سنة ١٩٦٧ .

ويقول لنا المقرى إن معاصره ومواطنه الكاتب والوزير المغربى عبد العزيز ابن محمد الفشتالى المتوفى سنة ١٠٣١ هـ، ذيل على كتاب ابن الخطيب هذا ، بكتاب سماه « مدد الجيش » ضمنه كثيراً من موشحات المغاربة فى عصره ، إلى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى .

٢٦ — جمع ابن الخطيب مجموعة من شعر أستاذه الرئيس أبى الحسن بن الجياب ، على نحو ما فعل نحو منثوره، وجمع كذلك مجموعة أخرى أيام مقامه بمالقة فى سنة ٧٤٤ هـ ، من شعر أستاذه وصديقه أبى جعفر بن صفوان المالقى أسماها «الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » ، وذلك حسبما يذكر لنا فى ترجمته فى الإحاطة . ولم نعثر على نسخ مخطوطة من هذين المجموعين .

٢٧ — وقد ذكر لنا ابن الخطيب ضمن ثبت مؤلفاته التى وضعها خلال إقامته بسلا ، أنه وضع مؤلفاً شعرياً فى العروض أسماه « كناش منظوم فى عروض الرجز » ، ووضع كذلك أرجوزة فى « فن السياسة » فى نحو سمائة بيت ، عنوانها « تخصيص الرياسة بتلخيص السياسة » .

وهذا كله عدا قصائد ، وموشحات عديدة ، نظمت فى أغراض ومناسبات مختلفة ، ونقل المقرى إلينا كثيراً منها فى كتابيه نفح الطيب،وأزهار الرياض .

الآثار العلمية

٢٨ — « عمل من طب لمن حب » . وهو مؤلف طبي ضخم ، يتناول فيه ابن الخطيب مختلف الأمراض ،ويذكر لنا أسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، ونظام الغذاء الذى يناسبه ، ويتحدث فيه عن مختلف أعضاء الجسم ، وطرق العناية بها . وقد وضع ابن الخطيب هذا الكتاب فى سنة ٧٦١ هـ أثناء إقامته الأولى بفاس ، برسم حاميه وولى نعمته ، السلطان أبى سالم المرينى . وهو يشيد فى ديباجته بذكر السلطان أبى سالم فى عبارات رنانة ، ويقول إنه لم يجد لخدمته والإعراب عن شكر الصنيعة ، للجميل الذى طوقه به ، خيراً من الطب « الذى تكون الوسيلة به ، أولا ذريعة لحفظ صحته ، وهذا الغرض هو ماهو أصل الدين والدنيا، وحفظ للسجايا البرة ، والشيم العليا » .

وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية قديمة فخمة بخزانة جامع القرويين بفاس تقع فى ٣١٩ صفحة كبيرة ، وهى مكتوبة بخط أندلسى جميل ، ومذهب

الترقيم . والمظنون أنها هى نفس النسخة التى رفعها ابن الخطيب إلى السلطان أبى سالم وتحمل رقم 607/40

وتوجد منه نسخة خطية أخرى بخزانة الرباط الملكية ، تقع فى مجلد ضخم يتكون من ١٤١ لوحة مزدوجة ، ومكتوب بخط مغربى وتحمل رقم4777،

كما توجد منه نسخة خطية ثالثة بمكتبة مدريد الوطنية ، تقع فى ١٥١ لوحة كبيرة ، وهى حديثة الكتابة وناقصة من آخرها .

٢٩ — « أرجوزة فى الطب » .ذكرها ابن الخطيب ضمن مؤلفاته التى وضعها أثناء إقامته بسلا ، وذكر أنها تقع فى نحو ألف وستمائة بيت ، وأنها تتضمن ذكر جميع الأمراض الكلية والجزئية ، بيد أننا لم نعثر على أية نسخة مخطوطة من هذه الأرجوزة .

٣٠ — « رجز فى الأغذية » أو « أرجوزة الأغذية » . وهى تقع فى نحو ألف ومائتى بيت ، وموضوعها حسبما يوضحه المؤلف ، هو أنها تتضن ذكر الأغذية ، مرتبة على حروف المعجم ، وطبائعها ومنافعها ومضارها ، وإصلاح خللها . وتوجد نسخة خطية من هذه الأرجوزة ضمن مجموعة خطية مملوكة للأستاذ العابد الفاسى ، محافظ خزانة القرويين الكبرى ، وتقع فى ٣٠ لوحة مزدوجة ، من القطع المتوسط ، ومكتوبة بخط مغربى ، وفى نهايتها أنها كتبت فى أول رمضان عام ١١٣٣ ﻫ .

٣١ — « الوصول لحفظ الصحة فى الفصول » . ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط ، تقع أولها فى مجلد ضخم ، مكون من ١٤٩ لوحة كبيرة مزدوجة ، ومكتوبة بخط مغربى جميل ، ومكتوب فى نهايتها أن المؤلف قد فرغ من تأليفها فى سنة ٧٧١ﻫ . ويوجد منه بخزانة جامع القرويين نسخة تمت كتابتها فى سنة ٩٨٥ ﻫ .

٣٢ — « كتاب فى علاج السموم » . أسمه الأرجوزة المعلومة ، وذلك مقابل الأرجوزة المجهولة التى وضعها ابن طفيل . وقد ذكر ابن الخطيب هذا الكتاب فى نفاضة الجراب ، ضمن الكتب التى ألفها خلال إقامته بسلا . بيد أن هذه الأرجوزة لم تصل إلينا .

٣٣ — ولابن الخطيب عدة رسائل طبية وصحية أخرى نذكر منها : المسائل

الطبية . اليوسفى فى صناعة الطب . رسالة تكوين الجنين . ثم كتابه « البيطرة » وفيه يتناول خصائص الخيل ومحاسنها . وكتاب « البيزرة » . وقد ذكرها لنا ابن الخطيب فى ترجمته فى الإحاطة ، ونقلها إلينا المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض[1]. ولم تصلنا نسخ مخطوطة، من هذه المؤلفات والرسائل الطبية .

٣٤ — ولابن الخطيب رسالة طبية وصحية من نوع خاص عنوانها « مقنعة السائل عن المرض الهائل»، وهى رسالة كتبها عن الطاعون الجارف الذى دهم الأندلس وسائر العالم الإسلامى فى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) وفيها يصف ظروف ظهوره ، وروعة انتشاره ، وأعراضه الأولى ، وسبل التحوط منه . وتوجد نسخة من هذه الرسالة ضمن مجموعة خطية بالإسكوريال تحمل رقم ١٧٨٥ الغزيرى ، وتحتوى على عشر لوحات (٣٩ — ٤٩) . وقد نشرت هذه الرسالة مع ترجمتها الألمانية فى مجلة أكاديمية العلوم الباڤارية (Bayerische Akademie der Wissenschaft) سنة ١٨٦٣ .

وقد وضع ابن الخطيب كثيراً من كتبه ورسائله التى تقدم ذكرها بعد تأليفه كتاب الإحاطة ، ولذلك لم يذكرها ضمن مؤلفاته ، التى ذكرها فى ترجمته لنفسه ، فى نهاية الإحاطة . هذا وقد أورد لنا ابن الخطيب فى ثبت مؤلفاته المذكورة وأورد لنا المقرى فى نفح الطيب ، عدداً آخر من الكتب والرسائل التى لم تشتهر ولم يصل إلينا معظمها ونحن نذكرها فيما يلى :

النفاية بعد الكفاية ، وهو كتاب يجرى على نسق القلائد للفتح بن خاقان . تخليص الذهب فى اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة . المعتمدة فى الأغذية المفردة . البشارة . قطع السلوك . الغيرة على أهل الحيرة . حمل الجمهور على السنن المشهور . وهاتان الأخيرتان هما رسالتان فى الحث على الجهاد . فتات الخوان ولقط الصوان . « المباخر الطيبية فى المفاخر الخطيبية »، وهو حسبما يقول لنا المقرى كتاب يذكر فيه ابن الخطيب نباهة سلفه ، وما لهم من المجد ، رداً منه على خصومه من أهل الأندلس القادحين فى حقه ، وفى نسبه وحسبه . وقد ألفه لحاميه السلطان عبد العزيز المرينى[2] .

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ و ٦٥٤ ، وأزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٠٠ وج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٥ وأعمال الأعلام ص ٣١٠

وقد استوعبنا فيما تقدم، سائر ما دون وعرف من كتب ابن الخطيب ورسائله وما وصل إلينا منها وما لم يصل، وقد بلغت حسبما أسلفنا زهاء ستين كتاباً ورسالة . ولاشك أن هذه المجموعة الزاخرة التى انتهت إلينا ، من مؤلفاته ، والتى أتينا على ذكرها ووصفها ، وفيما تقدمه إلينا ، من تنوع بارز بين التاريخ والأدب ، والسياسة والعلوم ، وبين المنظوم والمنثور ، وما يطبع أساليبها من البلاغة العالية ، والبيان الساحر ، لا شك فى أن ذلك كله ، مما يدل على أهمية التراث الفكرى والأدبى العظيم ،الذى خلفه لناذلك المفكر والكاتب والسياسى الأندلسى الكبير(١) .

— ٧ —

هذا وقد انتهينا بالبحث والمقارنة ، إلى أن مخطوط دار الكتب المصرية من الجزء الأول من الإحاطة ، ومخطوط العلامة جاينجوس ، المحفوظ ضمن مجموعته بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد ، وهو يحتوى على الأسفار السبعة الأولى من الإحاطة ، هما من أقدم ما وصل إلينا من أجزاء الإحاطة الأولى ، وإلى أنهما فى الوقت نفسه ، من حيث الكتابة والنص ، من أقيمها وأصحها .

ولذلك رأينا أن يكون هذان المخطوطان هما عمدتنا فى تدوين المجلد الأول من الإحاطة ، وفى ضبطه وتحقيقه ، وذلك مع مقارنة نصهما ، بنص نسخة جامع الزيتونة ، وكذلك بنص مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ، وهو فيما يبدو لنا من أقدم مخطوطات الإحاطة . وقد اكتسبنا بالمراجعة عليه كثيراً من التصحيحات والتعديلات القيمة ، ثم بما يوجد من الأوراق المخطوطة المتناثرة من الإحاطة ،

---

(١) يراجع فى ذكر مؤلفات ابن الخطيب والتعريف بها نفح الطيب ج ٤ ص ٦٥٣ — ٦٥٧ وأزهار الرياض ج ١ ص ١٨٩ — ١٩٠ . وكذلك كتابى لسان الدين بن الخطيب وفيه استعراض مفصل واف لتراث ابن الخطيب ص ٢٣٠ — ٢٨٤ وراجع أيضاً :

Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur (1948) B. II. p. 339

Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis — فهرس الإسكوريال للغزيرى .

Les Manuscrits Arabes de l'Escurial (V.I. & V.III) — وفهرس الإسكوريال لديرنبور

F. Pons Boigues : Ensayo Bio-Biliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo-Espanoles (Madrid 1898) p. 334-337.

وكذلك D. Pascual Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain V.I,. p. 307.

والمستشرق زيبولد فى دائرة المعارف الإسلامية فى مقال : Ibn-ul-Khatib

بمكتبة رواق المغاربة بالأزهر ، ومع الإستعانة فى نفس الوقت فى هذا التحقيق ، بكل ما نقل من الإحاطة من النصوص والتراجم ، فى كتابى «نفح الطيب» و« أزهار الرياض » وهما أوفر المؤلفات اللاحقة اقتباساً من « الإحاطة » ، وفى غيرهما . وكذلك بما نقل من هذه النصوص فى مؤلفات ابن الخطيب الأخرى ، التى بين أيدينا ، سواء من المنظوم أو المنثور ،وأخيراً بتتبع النبذ التى نقلها ابن الخطيب عن الكتاب المتقدمين فى مصادرها الأصيلة مثل « الذخيرة » و « المغرب » و« الحلة السيراء » و« البيان المغرب » و« صلة ابن الزبير » وغيرها .

وقد عنينا عناية خاصة بتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، ولاسيما الإسبانية منها ، كما عنينا بالتعريف بها فى نبذ وهوامش عديدة .

وقد رأينا أن نستعين فى ضبط النص وجلاء المعنى بالشكل الجزئى ،وإن كنا لانميل إلى هذه الطريقة . بيد أنها مما يرحب به فى بعض الأوساط .

كما رأينا أن نقف فى سياق هذا « المجلد » الأول من الإحاطة ، عند نهاية ترجمة محمد بن محمد بن يوسف ثانى الملوك النصريين ، ولم نشأ مجاراة مخطوط الزيتونة ، حيث يضم الجزء الأول منه ، نحو نصف الترجمة التالية ، وهى ترجمة السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل الغنى بالله ، سلطان ابن الخطيب ، وهى ترجمة طويلة ، تشغل نحو خمسين صفحة ، ولم نشأ أن نثبت جزءاً منها دون بقيتها .

ونود أن نشير هنا فى مقدمة هذه الطبعة الجديدة من كتاب « الإحاطة » إلى أنه مذ صدرت الطبعة الأولى من المجلد الأول فى سنة ١٩٥٦ ، قد توفرت لدينا ميادين جديدة كثيرة للمراجعة والضبط والتحقيق . ومن ثم فقد عنينا عناية خاصة بمراجعة الشعر وضبطه ، وفقاً لمختلف المخطوطات والمصادر ، ولا سيما مخطوط خزانة الرباط الملكية الذى يعتبر من أسلم النسخ نصاً . وليس من ريب فى أن الشعر له قيمته الأدبية والفنية الرفيعة ، بيد أنه لاريب كذلك فى أن كتاب « الإحاطة » هو قبل كل شىء ، موسوعة تاريخية ، جل قيمتها فيما تحتويه من الأحداث والتواريخ والوثائق ، والتعليقات الإجتماعية والحضارية ، ولا يشغل الشعر فيها أكثر من خمس المخطوط أو سدسه . ومن ثم فإننا ، كما عنينا بمراجعة الشعر وضبطه ، فكذلك لم ندخر وسعاً فى العناية بمراجعة النصوص التاريخية الواردة فى مختلف التراجم،وسائر الوثائق والقطع والرسائل النثرية ، ولاسيما رسائل

ابن الخطيب سواء فى هذا المجلد أو المجلدات التالية ، وهى عشرات من الظهائر والرسائل السلطانية والجهادية والإخوانية وغيرها ، وضبطها وفقاً لمختلف النصوص المخطوطة ، سواء ما ورد منها فى كتاب « الإحاطة » أو غيره من كتب ابن الخطيب ، وكذلك وفقاً لمختلف المصادر المخطوطة والمطبوعة الأخرى . وقد قمنا خلال هذه الجهود بمقارنة عدد كبير من المخطوطات المختلفة ، كتب معظمها بخطوط مغربية وأندلسية قديمة ، وبذلنا الكثير من هذه الجهود خارج القاهرة ، فى مدريد والإسكوريال والرباط وفاس وتونس . كما بذلنا جهوداً مضنية فى مراجعة تاريخ الأندلس وجغرافيتها وآدابها وتراثها الحضارى ، لكى نلقى الضياء على كثير من الحوادث والشخصيات والمواقف التاريخية والأعلام الجغرافية ، التى وردت خلال الكتاب . وقد لاحظ البعض بهذه المناسبة ، وعلى ضوء ما قيدنا من هوامش المجلد الأول ، أن الكتاب يتضمن كثيراً من الهوامش التاريخية والجغرافية التى لا ضرورة لها . ونحن نود أن ننتهز هذه الفرصة لنسجل هنا أننا نعتز بإيراد هذه الهوامش والإيضاحات التاريخية والجغرافية كل الإعتزاز ، ونعتبرها من أهم العناصر فى منهج التحقيق الذى سلكناه ، لاسيما وأن ابن الخطيب يلجأ فى أحيان كثيرة ، من الناحية التاريخية ، إلى الإشارة والتلميح ، ويورد من الناحية الجغرافية ، كثيراً من الأعلام والأماكن الأندلسية والمغربية ، التى لايحيط بها سوى أهل التخصص فى هذا الميدان ، وقد عنينا فى سائر الأحوال أن نلقى على هذه الإشارات ، وهذه الأعلام ، من الضياء ، ما يكفى لإحاطة القارىء بها إحاطة تامة .

هذا ، ونحن نكتب هذه المقدمة ، وقد اقتربت الذكرى الستمائة لوفاة ابن الخطيب ، إذ هى تقع فى خريف سنة ١٩٧٤ . ونحن ننتهز هذه الفرصة لنهيب بالدوائر العلمية والأدبية فى مختلف البلدان العربية ، ولاسيما المغرب ، الذى قضى فيه ابن الخطيب أخصب فترات حياته ، وكتب كثيراً من كتبه ورسائله ، ونظم كثيراً من قصائدة ، ثم ثوى إلى أرضه الثواء الأخير ، أن تتطلع إلى مقدم هذه الذكرى ، وأن تنظم للاحتفاء بها ، كل ما يليق بذكرى صاحبها العظيم ، من صنوف التكريم العلمى والأدبى .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٩٣ .
الموافق فبراير سنة ١٩٧٣

محمد عبد الله عنان

رموز المخطوطات

رأينا أن نرمز فى سياق النص إلى المخطوطات المختلفة التى كانت عمدتنا فى تحقيق هذا المجلد من « الإحاطة » على النحو الآتى :

١ — مخطوط دار الكتب المصرية بحرف « ك » .

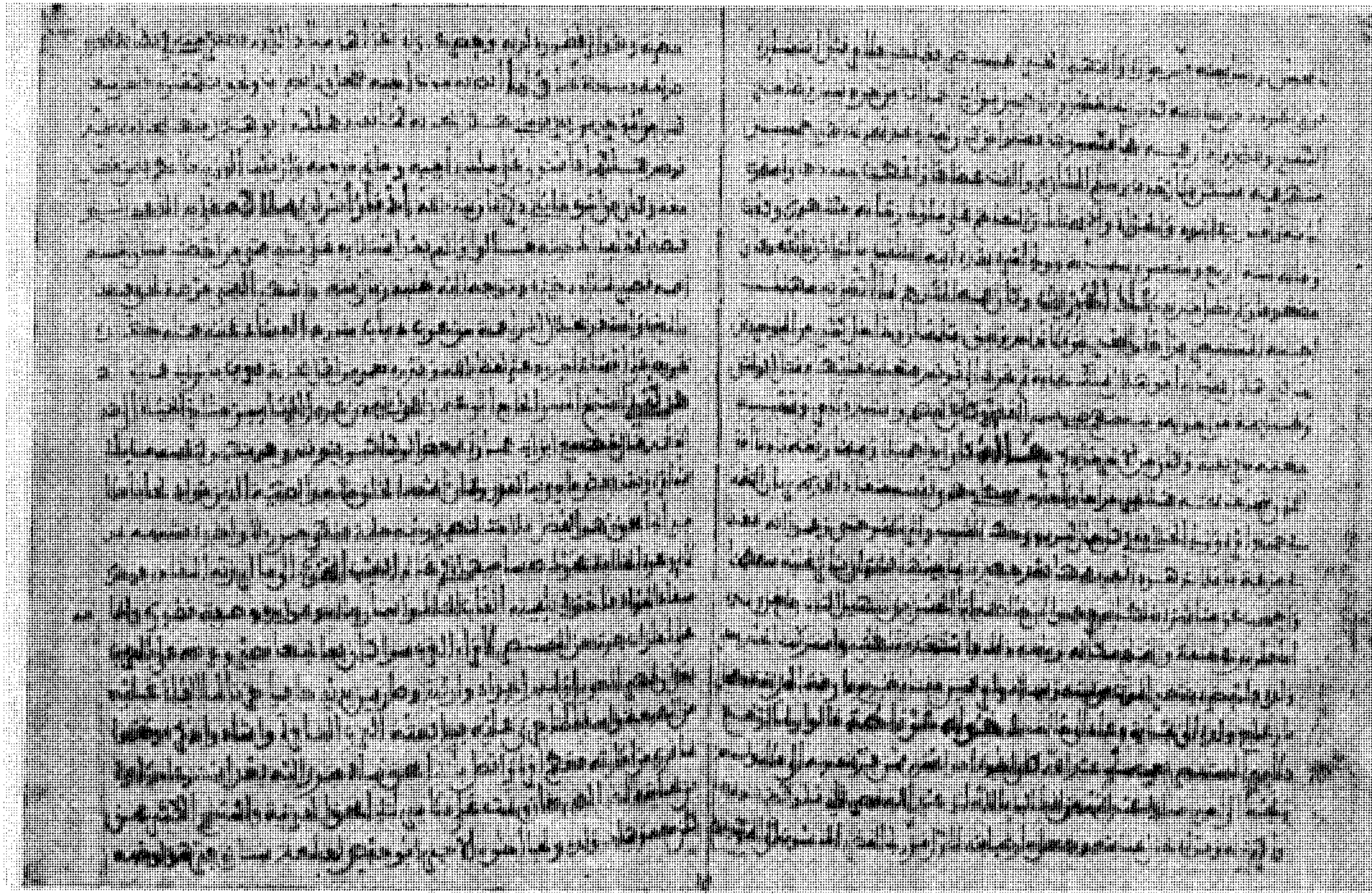
٢ — مخطوط أكاديمية التاريخ (جاينجوس) بحرف « ج » .

٣ — مخطوط كوديرا المنقول عن مخطوط الزيتونة بتونس بحرف « ت » .

٤ — مخطوط رواق المغاربة بالجامع الأزهر وهو الذى رجعنا إليه فى بعض التراجم التى وردت به بحرفى « ر . م » .

٥ — كذلك سوف نرمز إلى مخطوطى دار الكتب وجاينجوس مجتمعين بكلمة : المخطوطين .

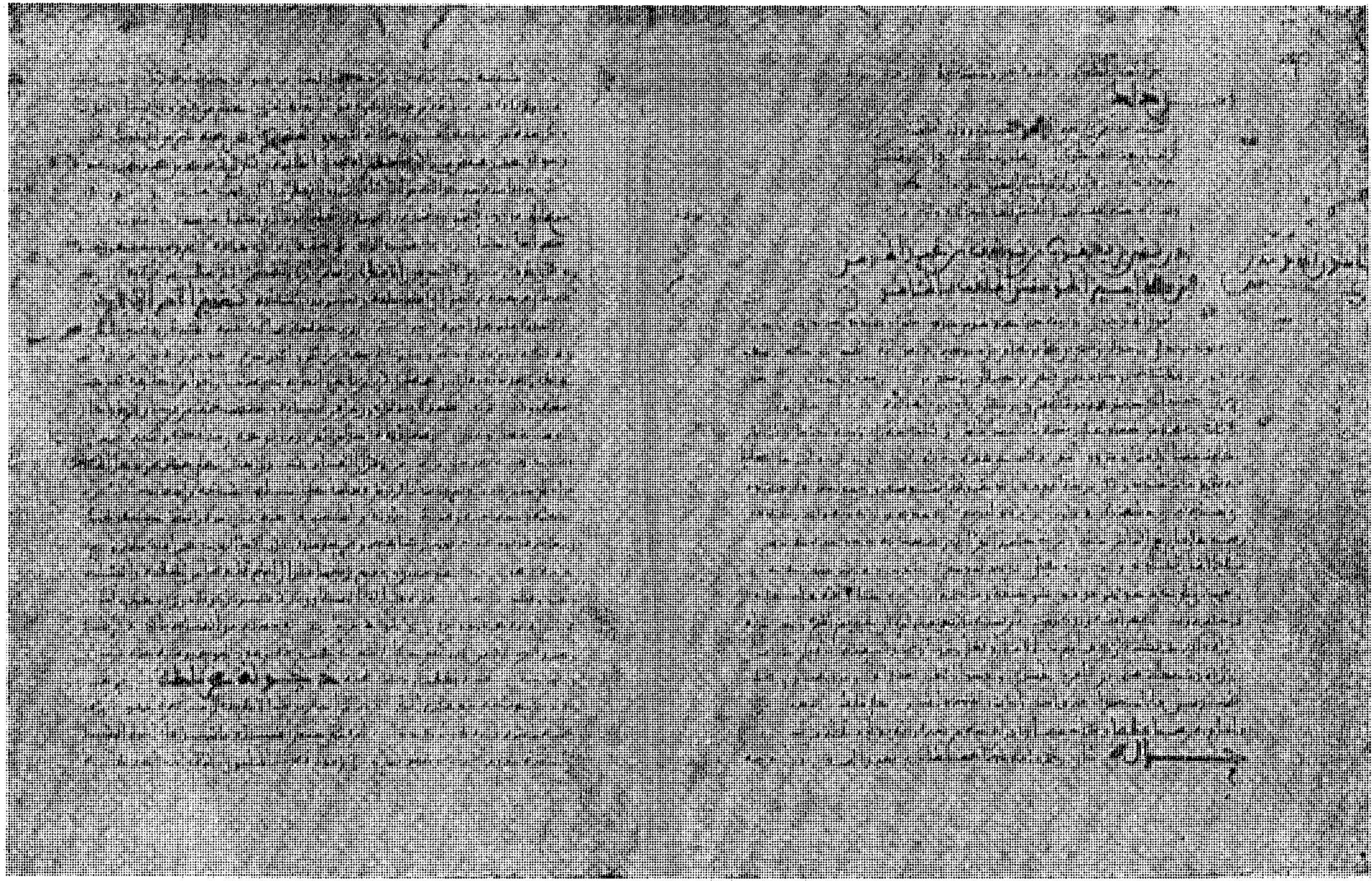
٦ — مخطوط الخزانة الملكية بالرباط بكلمة « الملكية » .



صفحتان من مخطوط « الإحاطة » المحفوظ بأكاديمية التاريخ بمدريد (مجموعة جاينجوس)



صفحتان من الجزء الأول من « الإحاطة » من مخطوط جامع الزيتونة المحفوظ الآن بدار الكتب الوطنية بتونس



صفحتان من مخطوط « الإحاطة » المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط



صفحتان من الأوراق المخطوطة من كتاب « الإحاطة » المحفوظة برواق المغاربة بالجامع الأزهر

الإحاطة
فى أخبار غرناطة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله عَلَى سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

[قال الشيخ الأديب البارع ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلمانى](١) : أما بعد حمد الله الذى أحصى الخلايق عدَداً ، وابتلاهم اليوم ليَجزيهم غداً ، وجعل جيادَهم تتسابق فى ميادين الآجال إلى مدًى ، وبايَن بينهم فى الصور والأخلاق ، والأعمال والأرزاق ، فلا يجدون بما قسمَ مَحيصاً ، ولا فيما حكم مُلْتَحداً(٢) ، وسعَهم عِلمُهُ على تَبايُن أفْراقِهم(٣) ، وتكاثُفِ أعدادِهم ، والداً وولداً ، ونَسباً وبَلَداً ، ووفاةً ومولداً . فمنهم النبيه والخامل ، والحالى والعاطل ، والعالم والجاهل ، ولا يَظلْم ربُّكَ أحداً . وجعل لهم الأرض ذَلولا يمشون فى مناكبها ، ويتخذون من جبالها بيوتاً ، ومن متاعها عُدَداً ، وخصَّ بعض أقطارها بمزايا تدعو إلى الاغتباط والاعتمار(٤) ، وتَحُث على السكون والاستقرار ، متبوأ فسيحًا ، وهواءً صحيحاً ، وماء نَميراً ، وامتناعًا شهيراً ، ورزقاً رَغَداً . فسبحان من جعل التَّفاضُل فى المساكن والساكن ، وعرّف العباد عوارف اللطف ، فى الظاهر والباطن ، ولم يترك شيئاً سدى .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى ملأ الكون نوراً وهدى ، وأوضح سبيل الحق ، وكانت طرائق قِدَداً(٥) ، أعلى الأنام يدا ، وأشرف الخلق

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ج » .

(٢) ملتحداً ، أى ملجا .

(٣) جمع ، فرق ، أى على اختلاف طوائفهم .

(٤) الاعتمار ، أى الزيارة ، ومنها العمرة أو الحج الأصغر .

(٥) قدداً ، أعنى متعددة مختلفة .

ذاتا ، وأكرمهم مَحْتِدا ، الذى أنجز الله به من نصر [دينه][1] الحقّ موعدا ، حتى بلغت دعوتهُ مازُوى[2] له من هذا المغرب الأقصى ، فرفعت بكل هَضْبة مَعْلماً ، وبَنَت بكل هَضْبة مسجدا . والرّضى عن آله وأصحابه ، الذين كانوا لسماء سُنّته عُمُدا ، ليوث العِدا ، وغيوث النَّدَى ، ما أقل ساعدُ يداً ، وعُمر بُكر خالداً ، ومصباح بدا ، [فأرق سُهْداً][3] فإن الله عز وجهه ، جعل الكتاب لموارد العلم قَيْداً ، وجوارح اليراع تثير فى السهول الرقاع صيدا ، ولولا ذلك لم يشعر آتٍ فى الخلق بذاهب ، ولا اتصل شاهدُ بغائب ، فماتت الفضائل بموت أهلها ، وأفَلَت نجومُها عن أعْيُن مُجْتَليها ، فلم يُرجع إلى خبر يُنقل ، ولا دليل يُعقل ، ولا سياسة تُكتَسب ، ولا أصالة إليها يُنتَسب ، فهدى سبحانه وألهم ، وعلّم الإنسان بالقلم [علم][4] مالم يكن يعلم ، حتى ألفينا المراسم قائمة ، والمراشدَ هادية ، والأخبار منقولة ، والأسانيد موصولة ، والأصول محرّرة ، والتواريخ مقرَّرَة ، والسير مذكورة ، والآثار مأثورة ، والفضائل من بعد أهلها باقيةً خالدةً ، والمآثرَ ناطقة شاهدة ، كأن النهارَ القرطاسُ ، والليلَ المدادُ ، ينافسان الليل والنهار ، فى عالم الكون والفساد ، فمهما طويا شيئا ولِعاهُماَ بِنَشْره ، أو دفنا ذكرا دعوا إلى نشره . فلو أنّ لسان الدهر نطق ، وتأمل لهذه المنافضة وتحقق ، لأتى بما شاء من عَتْبٍ ولوم ، وأنْشَده علمه ماية كل يوم .

ولما كان الفنّ التاريخى مأرب البشر ، ووسيلة إلى ضم النشر ، يعرفون به أنسابهم فى ذلك شرعاً وطبعاً ما فيه ، ويكتسبون به عقل[5] التجربة فى حال السكون والرفيه ، ويستدلون ببعض ما يُبْدى به الدهر وما يخفيه ، ويُرى العاقل

---

(١) وردت فى «ك» ، وأغفلت فى «ج» .
(٢) زوى ، أى بعد ونحى .
(٣) وردت فى «ت» ، وأغفلت فى «ك» و «ج» .
(٤) وردت فى «ك» فقط .
(٥) هكذا وردت فى «ج» و «ت» ، وفى «ك» (حقل) .

من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان ويَشفيه، ويمر على مصارع الجبابرة فيَحْسَبه بذلك واعظاً ويكفيه، وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتمم هذا الشاهدَ لهذا الفن ويُوفيه. وقال الله تعالى: «وكلاً نَقُصُّ عليك من أنباء الرُّسُل ما نُثبِّتُ به فؤادك». وقال عز من قائل: «نحنُ نقصُّ عليك أحسنَ القَصَص بما أوحَيْنا إليك هذا القرآنَ، وإنْ كنتَ من قَبْله لَمِنَ الغافلين».

فوَضَح سبيلٌ مبينٌ. وظهر[1] أن القول[2] بفضله يقتضيه عقل ودين، وأن بعض المصنفين، ممن ترك نومه لمن دونه، وأنْزَفَ ماء شبابه مودعاً إياه بَطْن كِتابه، يقصُدُه الناس ويرِدُونه، اختلفت فى مثل هذا الباب أغراضهم. فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان، عجزاً عن الإحاطة بهذا الشان، عموماً فى أكثر الأقطار، وخصوصاً فى بعض البُلْدان. فاستهدَف إلى التعميم فرسانُ الميـدان، وتوسعوا بحسب مادة الاطلاع وجهد الإمكان، وجَنَح إلى التخصيص الأولويّةُ بحسب ما يخصه من المـكان، ويلزمه من حقوق السكان، مغرماً برعاية عهود وطنه، وحُسن العهد من الإيمان، بادئاً بمن يعوله كما جاء فى الطرق الحسان. فتذكرتُ جملةً من موضوعات[3] من أفرد لوطنه تاريخاً هَزّ إليهـا ـــ علم الله ـــ وفاءٌ وكرمٌ، ودار عليها، بقول الله من رحمته الواسعة، حرم؛ كتاريخ مدينة بخارى لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار. وتاريخ أصْبَهان لأبى نُعَيم أحمد بن عبدالله الحافظ صاحب الحلية. وتاريخ أصْبَهان أيضاً لأبى زكريا يحي بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ. وتاريخ نَيْسابُور[4] للحاكم أبى عبد الله بن اليسع، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل. وتاريخ هَمَذَان

(١) هكذا فى «ت». ووردت (يظهر) فى كل من «ج» و«ك».
(٢) هذا ما ورد «ك» و«ت»، وفى «ج» (الفصل).
(٣) فى «ج» وفى «ك» (موضوعاته).
(٤) نيسابور: مدينة قديمة من مدن خراسان تقع جنوب غربى طوس، وكان لها أيام الدولة الإسلامية شأن عظيم، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء.

لأبى شُجاع شَيْرَوَيه بن شهردار بن شيرويه محمد بن فناخُسرو الديلمى . وتاريخ طبقات أهل شيراز لأبى عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار . وتاريخ هَراة[1] أظنه لأبى عبد الله الحسن بن محمد الكتبى . وأخبار هراة أيضاً ومن نزلها من التابعين وغيرهم من المحدّثين لأبى إسحق أحمد بن ياسين الحداد . وتاريخ سَمَرْقَند لعبد الرحمن بن محمد الأرْدِسى[2] . وتاريخ نَسَف[3] لجعفر بن محمد المُعبر المستغفرى . وتاريخ جُرجان[4] لأبى القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمى . وتاريخ الرَّقّة لأبى على محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القُشَيرى . وتاريخ بغداد[5] للخطيب أبى بكر بن ثابت ، وذيله لأبى سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور السمعانى . وأخبار بغداد لأحمد بن أبى طاهر . وتاريخ واسِط لأبى الحسين على بن الطيب الخلافى . وتاريخ من نزل حِمْص من الصحابة ومن دخلها ، ومن ارتحل عنها ، ومن أعْقَب ، ولم يُعقِب ، وحدّث ولم يحدّث ، لأبى القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضى . وتاريخ دِمَشْق لأبى القاسم على بن الحسن بن عساكر[6] . وتاريخ مكة للأزْرَقى . وتاريخ المدينة لابن النجّار . وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس . وتاريخ الإسكندرية

(١) هراة ، أو هرات مدينة قديمة تقع فى شمال غربى أفغانستان ، وإليها ينتسب « الهروى» الرحالة الشهير .

(٢) الأردسى ، نسبة إلى أردستان وهى مدينة فارسية تقع على مقربة من أصبهان ، وقد وردت الكلمة محرفة فى (ت) (الاندلسى) .

(٣) نسف من مدن التركستان ، وتقع جنوب شرقى بخارى فى طريق بلخ ، وقد رسمت محرفة فى « ت » (نشب) وفى « ج » (نسب) .

(٤) جرجان مدينة فارسية قديمة تقع على مقربة من الطرف الجنوبى الشرقى بحر قزوين وإليها ينتسب عدد كبير من علماء الحديث واللغة .

(٥) « تاريخ بغداد » للحافظ أبى بكر بن أحمد بن على الخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧١ م) ، وهو من أضخم التواريخ التى خصصت لمدينة عظيمة ، وقد نشر فى القاهرة سنة ١٩٣١ فى أربعة عشر مجلداً كبيراً .

(٦) «تاريخ مدينة دمشق» تأليف الحافظ أبى القاسم على بن محمد بن هبة الله المعروف بابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) وهو كتاريخ الخطيب البغدادى موسوعة كبرى فى تاريخ دمشق ومن حل بها من الأنبياء والخلفاء والولاة والعلماء والأدباء والشعراء وسائر الأكابر والأعيان على اختلاف طوائفهم . ومنه بدار الكتب المصرية نسخة مخطوطة غير كاملة فى سبعة وثلاثين مجلداً .

لوجيه الدين أبي المظفر منصور بن سليمان بن منصور بن سليم الشافعي . وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبي محمد عبدالله بن إبراهيم بن أبي العبّاس بن خلف التميمي . وعنوان الدّراية في ذكر من كان في المائة السابعة ببِجايَة، لأبي العباس بن الغبريني [1]. وتاريخ تلمسان لابن الأصفر . وتاريخها أيضاً لابن هَدِيّة . وتاريخ فاس لابن عبد الكريم . وتاريخها أيضاً لابن أبي زَرْع . وتاريخ فاس أيضاً للقونجي . وتاريخ سَبْتة [2] المسمى بالفنون السّتّة ، لأبي الفضل عِياض بن موسى بن عياض تركه في مسودته . وتاريخ بَلَنْسية لابن علقمة . وتاريخ إلْبيرة لأبي القاسم محمد بن عبدالواحد الغافقي الملاّحي. وتاريخ شُقُورة لابن إدريس . وتاريخ مالَقة لأبي عبد الله بن عسكر ، تركه غير متمم ، فتممه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر بن خميس . والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالَقة ، لأبي العباس أصْبَغ بن العباس . والاحتفال في أعلام الرجال ، لأبي بكر الحسن بن محمد بن مُفَرّج القيسي . وتاريخ قُرْطُبة ، منتخب كتاب الاحتفال . وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطُلَيْطُلة، لأبي جعفر بن مظاهر. ومنتخبه لأبي القاسم بن بَشْكُوال . وتاريخ فقهاء قُرْطبة ، لابن حَيّان . وتاريخ الجزيرة الخَضْراء لابن خَمْسين وتاريخ قامة يَحْصِب المسمى بالطالع السّعيد ، لأبي الحسن ابن سعيد . وتاريخ بَقيرة ، لأبي عبد الله بن المؤذن . والدُّرّة المكنونة في أخبار أشْبُونة ، لأبي بكر بن محمد بن إدريس القَرَابي العالوسي . ومزيّة المريّة ، لأبي جعفر أحمد بن خاتِمة من أصحابنا . وتاريخ ألمرية وباجة ، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج ، متع الله بإفادته ، وهو في مُبَيَّضته ، لم يرمها بعد [3] .

فداخلتني عصبيّة لا تَقدَح في دين ولا مَنْصِب ، وحَمِيّة لا يُذَمّ في مثلها مُتعصِّب

---

(١) وردت محرفة في المخطوطات الثلاثة : المعزرى . العقريرى . العفريرى .

(٢) وتضبط أحيانا بالكسر أيضاً .

(٣) رأينا فيما يتعلق بهذه التواريخ الأندلسية ، وهي التي اعتمد ابن الخطيب على كثير منها في استقاء مادة « الإحاطة » أن نحيل في التعريف بها وبمؤلفيها إلى الهوامش الخاصة بذلك خلال السياق .

رغبة أنْ يقع سؤالُهم وذكرُهم من فضل الله جناب مُخْصب ، ورأيت أن هذه الحضرة[1] التي لاخفاء بما وفَّر الله ، من أسباب إيثارها ، وأراده من جلال مقدارها، جعلها ثغرَ الإسلام ومتبوَّأ العرب الأعلام ، قَبيل رسوله ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وما خصَّها به من اعتدال الأقطار ، وجريان الأنهار ، وانفساح الاعتمار[2] ، والتفاف الأشجار . نزلها العربُ الكرام عند دخولهم مختَطين[3] ومنقطعين ، وهبُّوا بدعوة فضلها مُهْطِعين[4] ، فعمَرُوا وأولَدوا ، وأثبتوا المفاخر وخلَّدوا ، إلى أن صارت دار مُلْك ، ولبَّة[5] سِلْكٍ ؛ فنَبُه المقدارُ وإن كان نبيها، وازدادت الخِطَّة ترفيعاً ، وجاب إلى سوق الملأ بما نفق فيها ، فكم ضمت جدرانُها من رئيس يتَّقي الصباحُ هجومَه،ويتخوَّفُ الليلُ طروقه ووجومَه ، ويفتقر الغيثُ لنوائله الممنوحةِ سجُومَه[6] ، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها ،ويدعو بالمُشْكِلات فيأخذ بنواصيها ، وعالمٌ بالله قد وَسَم السجودُ جبينه ، وأشعثُ أغبَرُ لو أقسم على الله لأبَرَّ يمينه ، وبليغ قد أذعنت لبراعة خطه وشيجةُ[7] الخط ، يغوص على دُرَر البدايع ، فيلقيها من طِرْسه الراتع الشَّط ، لم يقم بحقها ممتعضٌ حق الامتعاض ، ولا فرّق بين جواهرها وبين الأعراض . هذا وشُجُر الأقلام مُشْرَعة ، ومكان القول والحمد لله ذو سَعَة ، فهي الحُسْنى التي عدمت الذَّام ، وزينة الليالي والأيام ، والهوى إن قيل كلِفت بمغانيها ، وقصُرَت الأيام على معانيها . فعاشق الجمال عذره مقبول ، ولله در أبي الطيب حيث يقول :

ضروب الناس عُشَّاقٌ ضُروباً   فأعذَرهم أشَفُّهُمُ حبيباً

(١) أعني مدينة غرناطة . « والحضرة » . هي القاعدة والعاصمة .
(٢) يراد بها هنا العمران .
(٣) في « ك » (محطين » . وفي « ج » (محتطين) . والتصويب أرجح .
(٤) مهطعين ، أعني مسرعين ومقبلين .
(٥) اللبة هي ماتوسط الصدر.
(٦) سجومه أي هطله .
(٧) هكذا وردت في « ج » . وفي « ك » (وشحية) .

فلست ببدع ممن فُتِن بحب وطن ، ولا بأول ما شاقَهُ منزلٌ فألِف بالعطَن ، فحب الوطن معجون بطينة ساكنه ، وطرفُه مُغرًى بإتمام محاسنه ، وقد نبّه على بن العباس[1] على السّبب ، وجاء فى التماس التّعليل بالعَجَب ، حيث يقول :

وحبّبَ أوطانَ الرجال إليهمِ ... مآربُ قضّاها الشّباب هنالـكا
إذا ذَكَروا أوطانهم ذَكَّرتهم ... عهودُ الصبا فيها فحنُّوا لذالـكا

ورميتُ فى هذا المعنى بسهم سديد ، وألمحْتُ بغرض إن لم يَكُنْه فليس ببعيد :

أُحبك يا مَغْنَى الجلال بواجب ... وأقطع فى أوصافك الغُرّ أوقات
تَقَسّم منك التّربَ قومى وجيرتى ... ففى الظَّهْرِ أحياءٌ وفى البطْنِ أموات

وقد كان أبو القاسم الغافقى ، من أهل غرْناطة ، قام من هذا الغرض بفرض ، وأتى من كله ببعض[2] فلم يَشْفِ من غُلّة ، ولا سدّ خَلّة ، ولا كثّر قِلّة ، فقمت بهذا الوظيف ، وانتدبت فيه للتأليف ، ورجوت على نزارة حظّ الصحة ، وازدحام الشواغل المُلِحّة ، أن أضطلع[3] من هذا القصد ، بالعبء الذى طالما طأطأت له الأكتاد ، وأقف منه الموقف الذى تهيّبته الأبطال الأنجاد ، فاتخذت الليل جَمَلاً لهذه الطّيّة[4] ، وانتضيتُ غارب العزْم ونِعْمَتَ المطيّة ، بحيث لا مؤانس إلاّ ذُبال يكافح جيش الدُّجى ، ودفاترُ تَلْفَحُ الحِجا ، وخواطرُ تبتغى إلى سماء الإجادة معْرَجا ، وإذا صَحِب العملَ صدقُ النيّة ، أشرقَت من التّوفيق كلُّ ثَنيّة ،

---

(١) هو على بن العباس بن جريج الشهير فى المشرق بابن الرومى.

(٢) يشير ابن الخطيب هنا إلى أبى القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقى المعروف بالملاحى نسبة إلى الملاحة La Mala ، وهى قرية فى جنوب غربى غرناطة ماتزال قائمة حتى اليوم ، وهو مؤلف كتاب « تاريخ علماء إلبيرة » ، وهى عاصمة ولاية غرناطة القديمة .

(٣) وردت فى « ج » وفى « ك » (طلع) وفى ت (اطلع) ، وهو رسم محرف لكلمة (اضطلع) كما هو ظاهر من المعنى .

(٤) وردت المخطوطين : المطية . والطية هى الجهة البعيدة .

وطَلَعت من السَّداد كلُّ غُرَّة سنيّة ، وقد علم الله أنى لم أعتمد منها دُنيا أستمنحها ، ولا نَسَمَةَ جاهٍ يُستَنشَق ريحُها ؛ وإنما هو صبح تبيّن ، وحقٌّ رأيته علىَّ قد تعيّن ، بذلت فيه جَهْدى ، وأقطعتهُ جانب سُهْدى ، ليَنظِم هذا البلد بمثله ، مما أثير كامِنُه ، وسُطِّرت محاسنُه ، وأنشر بعد الممات جانبه :

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمـــرو بصاحبك الذى لا تُصبحينا[1]

فلم أدع واحدةً إلا استنجدتُها ، ولا حاشية إلا احتشدتُها ، ولا ضالة إلا أنشدتُها ؛ والمجتهدُ فى هذا الغرض مقصِّر ، والمطيل مختصر ، إذ ما ذُكر لا نسبة بينه وبين ما أُغفل ، وما جُهِل أكثر مما نُقل ، وبحار المدارك مسجورة[2] ، وغايات الإحسان على الإنسان محجورة ؛ ومن أراد أن يوازن هذا الكتاب بغيره من الأوضاع فليتأمّل قصده ، ويثير كامنه ، ويبدى خبائنه[3] ، تتضح له المكرُمة ، ولا تخفَى عليه النَّصَفة ، ويشاهد مجزى السَّيئة بالحسنة ، والإعْراب عن الوصمة والظِنّة ، إذ الفاضلُ فى عالم الإنسان ، من عُدِدت سَقَطاته ، فما ظنّك بمفضوله . وللمعاصر مزيّةُ المباشرة ، ومزيد الخبرة ، وداعى التشفى والمقارضة ؛ وسع الجميع السّترُ ، وشمِلهم البرُّ ، ونُشِرت جنائزُهم لسَقْى الرحمة ، ومُثنَّى الشفاعة ، إلا ما[4] شذَّ من فاسق أباحَ الشرعُ حِماه ، أو غادرٍ وسمه الشؤم الذى جناه ، فتخنل[5] عرضُه عن تخليد مجد ، وتدوين فخر ، وإبقاء ذكرٍ ، لمن لم يهُمّه قط تحقيقُ اسم أبيه ، ولم يعمل لما بعد يومه ، فكم خلَفٍ مما ذكر فيه يجلبه بين يديه ، شفيعاً فى زلّة ، أو آخذاً بضَبْعٍ[6] إلى رُتبة ، أو قائماً

---

(١) وردت فى « ج » تصحبينا وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٢) أعنى مفعمة فياضة .

(٣) ومعناها « خفاياه » من خبن أى أخفى .

(٤) هكذا وردت فى « ج » و « ك » ، وهو استعمال يؤثره ابن الخطيب . فيضع « ما » مكان « من

(٥) وردت فى « ت » (فتتخلل) . وفى « ك » و « ج » (فتتخل) ؛ وما أوردنا أرجح بالنسبة للمعنى .

(٦) وردت فى « ت » و « ج » (أو أخذ بضبع) . وفى « ك » (أخل فيضع) .

عند ضَيْم بحُجَّة ؛ أو عانس يقوم لها مقام متاع ونِحْلة ، أو غريب يَحِلُّ بغير قُطره فيفيده نُحلة ، صاعد خدم قاعداً ونائماً . وقد رضينا بالسلامة عن الشكر ، والإصفاء عن المثوبة ، والنَّصفة عِوَض الخسْرة ، إذ الناس على حَسَب ما سُطِّر ورُسم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .

والترتيب الذى انتهت إليه حيلتى ، وصرفتُ فى اختياره مخيلتى ، هو أنى ذكرت البلدة[1] حاطها الله ، مُنَبِّهاً منها على قديمها ، وطيب هوائها وأَدِيمها ، وإشراق ُعلاها ، ومحاسن خُلاها ، ومن سكنها وتولاها ، وأحوال أناسها ، ومن دال بها من ضُروب القبائل وأجناسها ، وأعطيت صورتها ، وأزحْت فى الفَخْر ضرورتها ، وذكرت الأسماء على الحروف المبوّبة ، وفصلت أجناسهم بالتراجم المترتّبة ، فذكرت الملوك والأمراء ، ثم الأعيان والكبراء ، ثم الفضلاء ، ثم القضاة ، ثم المقرئين والعلماء ، ثم المحدّثين والفقهاء ، وسائر الطلبة النجباء ، ثم الكتّاب والشعراء ، ثم العمّال الأثراء ، ثم الزهّاد والصّلحاء ، والصوفيّة والفقراء ، ليكون الابتداء بالمُلْك ، والاختتامُ بالمِسْك ، ولينْظمَ الجميع انتظام السِّلْك ، وكلُّ طبقة تنقسم إلى من سكن المدينة بحكم الأصالة والاستقرار ، أو طرأ عليها مما يجاورها من الأقطار ، أو خاض إليها وهو الغريب أثباج[2] البحار ، أو ألمَّ بها ولو ساعة من نهار ؛ فإن كَثُرَت الأسماء نوّعتُ وتوسعتُ ، وإن قلت اختصرتُ وجمعتُ . وآثرت ترتيب الحروف فى الأسماء ، ثم فى الأجداد والآباء ، لشرود الوَفَيات والمواليد ، التى رتبها الزمان عن الاستقصاء ، وذهبت إلى أن أذكر الرجل ونسبه وأصالتَه وحَسَبه ، ومولده وبلده ، ومذهبه وأنحاله[3] ، والفنّ الذى دعا إلى ذكره ، وحليته ومشيَخَته ، إن

---

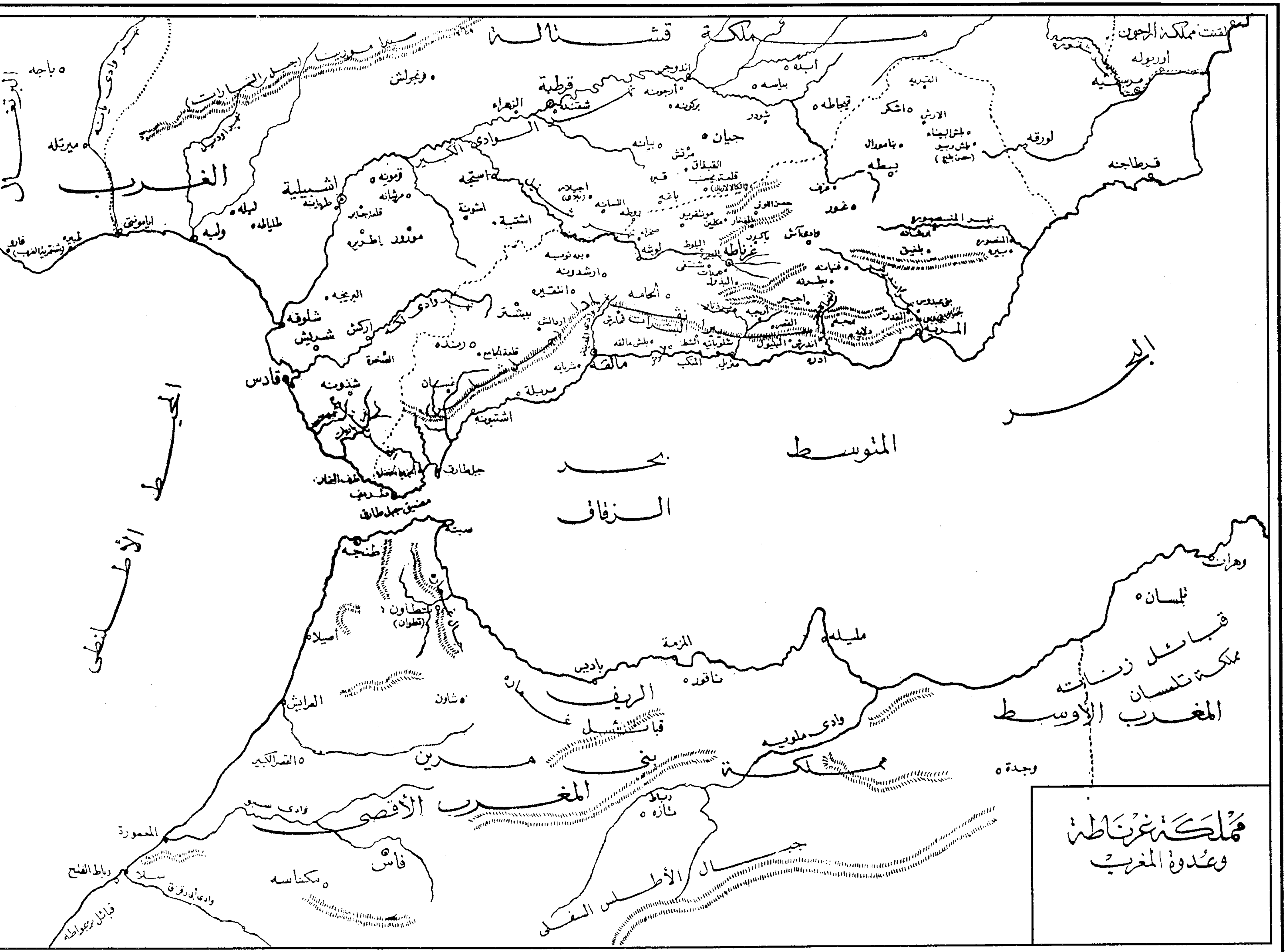
(١) أى غرناطة .

(٢) وردت فى « ك » و« ج » (اتباج) . وفى « ت » (أشباج) . والأثباج جمع ثبج ؛ وثبج البحر وسطه ومعظمه .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وقد رسمت محرفة فى « ك » (وانحى له) .

كان ممن قيَّد علماً أو كتَبَه ؛ ومآثره إن كان ممن وصل الفضل بسببه ؛ وشعره إن كان شاعراً ؛ وأدبه وتصانيفه ، إن كان ممن ألف فى فن أو هَذَّبه ؛ ومحننه إن كان ممن بزَّه[1] الدهر شيئاً أو سابَهُ ؛ ثم وفاته ومُنقلبه ، إذ استرجع الله من منحه حياته ما وهبه .

وجعلت هذا الكتاب قسمين ، ومشتملاً على فَنَّين : القسم الأول ؛ « فى حُلى المعاهد والأماكن ، والمنازل والمساكن » . القسم الثانى ، « فى حُلى الزَّائر والقاطن ، والمتحرك والسَّاكن » .


مملكة قشتالة
قرطبة
الزهراء
جيان
بياسه
ابده
اندوجر
غرناطة
اشبيلية
الغرب
ميرتله
باجه
لبله
وليه
طليطله
قرمونه
مرشانه
استجه
اشونه
اشتبة
لوشه
وادى آش
بسطه
غور
اشكر
لورقه
مرسيه
اوريوله
قرطاجنه
المرية
بجانه
البحر
الوادى الكبير
شلوقه
شريش
اركش
قادس
شذونه
رنده
قلعة الجامع
مربلة
اشتبونه
جبل طارق
مالقة
بلش مالقة
المنكب
ادره
بحر
الزقاق
المتوسط
البحر الأطلنطى
سبتة
طنجه
تطاوين
اصيلا
العرايش
شاون
القصر الكبير
بادس
المزمة
الريف
قبائل غمارة
مليله
وادى ملويه
وهران
تلمسان
قبائل زناته
مملكة تلمسان
المغرب الأوسط
وجدة
مملكة بنى مرين
المغرب الأقصى
فاس
مكناسه
سلا
رباط الفتح
المعمورة
جبال الأطلس
مملكة غرناطة
وعدوة المغرب

القِسم الأوّل
في حُلى المعَاهد والأماكِن وَالمنَازل والمسَاكِن

فصـــل

فى اسم هذه المدينة
ووضْعِها على إجْمالٍ واختصار

يُقال غَرْناطة ويقال إغْرَناطة[١]، وكلاهما أعجمى، وهى مدينة كُورَة إلْبيرة[٢]، فبينهما فرسخان[٣] وثلثا فرسخ. وإلبيرة من أعظم كُوَر الأنْدَلُس، ومتوسِّطة[٤] ما اشتمل عليه الفتح من البلاد، وتسمى فى تاريخ الأمم السالفة من الرّوم، سَنَام الأندلس، وتُدعى فى القديم بقَسْطيلِيّة[٥]. وكان لها من الشُّهرة والعمارة، ولأهلها من الثروة والعُدَّة، وبها من الفقهاء والعلماء، ما هو مشهور. قال أبو مروان

(١) اختلفت آراء الباحثين فى أصل هذه التسمية. فيرى البعض أن اسم غرناطة يرجع إلى عهد الرومان وأنه مشتق من الكلمة الرومانية (اللاتينية) Granata، ومعناها «الرمانة»، وأنها سميت كذلك لجمالها وكثرة حدائق الرمان التى كانت تحيط بها (العلامة زيبولد فى Ency. de L'Islam تحت كلمة Grenade). وهذا ما يقرره الجغرافيون العرب إذ يقولون إن معنى غرناطة «الرمانة» بلسان عجم الأندلس، سمى البلد بذلك لحسنه (راجع معجم ياقوت تحت كلمة غرناطة. طبع القاهرة ج٦ ص٢٨١) ويرى المستشرق الإسبانى سيمونيت فى ذلك رأياً آخر، إذ يقول إن المرجح أن الاسم يرجع إلى عهد القوط، وإنه مزيج من كلمة «ناطة»، وهو اسم قرية قديمة كانت تقع على مقربة من إلبيرة و «غار» وهو المقطع الذى أضافه إليها المسلمون فصارت غرناطة، أو سماها البربر كذلك عند نزولهم بها. وهو اسم لإحدى قبائلهم.

(راجع .Simonet: Descripcion del Reino de Granada (Granada 1872). p. 40& 41)

(٢) إلبيرة، وبالإسبانية Elvira هى مدينة رومانية قديمة. وكانت تسمى على عهد الرومان Illbaris. وكانت عاصمة الولاية التى تسمى بهذا الاسم. ولما فتح المسلمون الأندلس كانت إلبيرة مدينة كبيرة عامرة، وإلى جانبها محلة «غرناطة» الصغيرة. ثم تطور الزمن، وعفت إلبيرة وخربت. ونمت غرناطة، وأصبحت منذ القرن الخامس الهجرى قاعدة الولاية. ثم غدت عاصمة لمملكة غرناطة.

(٣) الفرسخ مسافة تقدر بثلاثة أميال، والميل عند البعض ثلاث آلاف ذراع. وعند البعض الآخر أربعة آلاف.

(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» (موسطة).

(٥) هذا رأى ابن الخطيب. ولكن المستشرق سيمونيت يرى أن قسطيلية هذه، وأصلها اللاتينى Castellum كانت حصناً يقع على مقربة من إلبيرة. ومعناها القشتالى Castella

(راجع .Simonet, ibid. p.31)

ابن حيّان[١] : كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حَــكَمَةً[٢] كلها من فِضّة لــكثرة الأشراف بها . ويدل على ذلك آثارُها الخالدة ، وأعلامُها الماثلة ، كـطَلَل مسجدها الجامع ، الذى تحامى استطالة البِلَى ، كـبلت عن طَمْس معالمه أكُفُّ الرَّدى ، إلى بلوغ ما فُسح له من المَدَى .

بناه الأمير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، أميرالمؤمنين الخليفة[٣] بقُرْطُبة رحمه الله ، على تأسيس حَنَش بن عبد الله الصَّنعانى الشافعى رحمه الله ، وعلى محرابه لهذا الوقت : « بسم الله العظيم ، بُنيت لله ؛ أمر ببنائها الأمير محمد بن عبد الرحمن ؛ أكرمه الله ، رجاء ثوابه [العظيم][٤] ، وتوسيعاً لرعيته ؛ فتمّ بعون الله على يدى عبد الله [بن عبد الله][٥] عامِله على كُورَة إلْبيرة فى ذى قعدة سنة خمسين ومائتين» .

ولم تزل الأيام تخيف ساكنها ، والعَفاء يَتَبَوَّأ مساكنها ، والفتن الإسلامية

(١) أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبى (٣٧٧-٤٦٩ هـ) من أعظم مؤرخى الأندلس . وقد اشتهر بنوع خاص بكتابه «المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس» وقد انتهت إلينا منه عدة قطع مخطوطة أكبرها وأهمها قطعة ضخمة تشمل السفر الخامس وتتعلق بعصر الناصر لدين الله ، وتوجد بالخزانة الملكية بالرباط . وقطعة كبيرة أخرى توجد بخزانة القرويين الكبرى بفاس ، وتشمل معظم السفر الثانى ، وتتضمن حوادث سنى (٢٣٣- ٢٦٧هـ) وقد نشرت محققة بعناية الدكتور محمود على مكى (القاهرة ١٩٧١) وقطعة توجد بالمكتبة البودلية بأكسفورد وتشمل السفر الثالث وقد نشرت بعناية المستشرق الإسبانى أنتونيا (باريس ١٩٣٧) وهى تتعلق بحوادث عصر الفتنة الكبرى (٢٥٠ - ٣٠٠ هـ) وتوجد قطعة أخرى بمكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد تتعلق بحوادث سنى ٣٦٢ - ٣٦٤هـ وقد نشرت بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥) .وله مؤلفات كثيرة أخرى لم تصل إلينا . ويمتاز ابن حيان بأسلوبه النقدى القوى ونظراته الصائبة .(راجع كتابنا : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية - الطبعة الثانية ص ٢٧١ - ٢٨٢) .

(٢) هى قصبة توضع فى فم الدابة لتذليلها وكبح جماحها .

(٣) التعبير هنا عن أمير الأندلس محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (توفى سنة ٢٧٣ هـ) بأمير المؤمنين والخليفة هو مبالغة أو تجاوز ، لأن الخلافة الأموية لم تقم بالأندلس إلا بعد ذلك بنحو نصف قرن فى عهد عبد الرحمن الناصر .

(٤) زائدة فى « ج » .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى « ك » . وساقط فى « ج » .

مجُوس أماكنها ، حتى شملها الخراب ، وتَقَسَّم قاطِنَها الاغتِراب ، وكلُّ الذى فوق التُّراب تُراب . وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البَرْبَرِيّة[(١)] سنة أربعمائة من الهجرة ، فما بعدها ، ولجأوا إلى مدينة غَرْناطة ، فصارت حاضرة الصُّقْع ، وأمُّ المِصر ، وبَيْضَةَ ذلك الحَق ، لحصانة وضْعِها ، وطيب هرائها ، ودُرُور مائها ، ووُفور مَدَّتها ، فأَمِن فيها الخائف ، ونُظِم النَّشر ، ورسخت الأقدام ، وتأثَّل المِصرُ ، وهلمَّ جرًّا . فهى بالأندلس ، قُطْب بلاد الأندلس ، ودار المُلْك ، وقِرَى الإمارة ، أبقاها الله مُتَبَوَّأ الكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقدرته .

من « كتاب إلبيرة »[(٢)] . قال ، بعد ذكر إلبيرة ، وقد خلَفها بعد ذلك كله مدينة غَرْناطة من أعظم مدنها وأقدمها ، عندما انقلبت العمارة إليها من إلبيرة ، ودارت أفلاكُ البلاد الأنْدَلُسية ، فهى فى وقتنا هذا قاعدة الدُّنيا ، وقرارةُ العَلْيا ، وحاضرة السلطان ، وقُبَّة العدل والإحسان . لا يَعْدِلها فى داخلها ولا خارجها بلد من البُلْدان ، ولا يُضاهيها فى اتساع عمارتها ، وطيب قرارتها ، وطنٌ من الأوطان . ولا يأتى على حَصْر أوصاف جمالها ، وعَدِّ[(٣)] أصناف جلالها ، قلمُ البيان . أدام الله فيها العزَّ للمسلمين والإسلام ، وحَرَسها ومن اشتملت عليه من خلفائه ، وأنصار لوائه ، بعَيْنه التى لا تنام ، ورُكنِه الذى لا يُرام .

وهذه المدينة من مَعْمُور الإقليم الخامس ، يبتدىء من الشرق ، من بلاد يَأجُوج ومأجوج ، ثم يمرُّ على شمال خُراسان ، ويمرُّ على سواحل الشأم ، مما يلى الشمال ،

---

(١) ثارت الحرب الأهلية بالأندلس عقب سقوط الدولة العامرية فى سنة ٣٩٩ ﻫ بين أمراء بنى أمية ، وظاهر البربر أحدهم وهو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر . فزحفوا على الزهراء واقتحموها وخربوها ، ثم حاصروا قرطبة حتى سقطت فى أيديهم ، وارتكبوا فيها رائع السفك والإثم (سنة ٤٠٣ ﻫ) واستولى زعماؤهم على معظم قواعد الأندلس الجنوبية ومنها غرناطة . وقامت من ذلك الحين دول الطوائف .

(٢) هو كتاب « تاريخ علماء إلبيرة » لأبى القاسم الملاحى الذى سبقت الإشارة إليه .

(٣) وردت فى المخطوطين (ك و ج) ، « عن » وهو تحريف . والمعنى يستقيم بالتصويب .

ويمرُّ على بلاد الأندلس ، قُرْطبة وإشبيلِيَة وما والاها إلى البحر المحيط الغربى . وقال صاعدُ بن أحمد فى كتاب « الطَّبَقات »[١] إنَّ مُعْظم الأندلس فى الإقليم الخامس ، وطائفةً منها فى الإقليم الرابع ، كمدينة إشبيلية ، ومالَقَة ، وغرْناطة ، وألْمَرِيَّة ومُرْسية[٢] .

وذكر العلماء بصناعة الأحكام أنّ طالعها الذى اختُطَّت به السَّرَطان[٣] ، ونحلوها[٤] ، لأجل ذلك ، مزايا ، وحظوظاً من السعادة ، اقْتَضاها تَسْيير أحكام القِرَانات الانتقاليَّة على عهد تأليف هذا الموضع .

وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضُها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى مساوية فى الطول بأمر يسير لقُرْطُبة ، ومَيُورْقَة ، وألْمَرِيَّة ؛ وتقرُب فى العَرْض من إشبيلِيَة ، وألْمَرِيَّة ، وشاطِبة وطُرْطُوشة، وسَردانية، وأنطاكِية ، والرَّقَّة . كل ذلك بأقل من درجة . فهى شامِيَّةٌ فى أكثر أحوالها ، قريبة من الاعتدال ، وبينها وبين قرطبة ، أعادها الله تعالى ، تسعون ميلا[٥] . وهى منها بين شَرْق وقِبلة . وبحر الشَّام[٦] يحول[٧] ويحاجز بين الأندلس وبلاد العُدْوَة[٨] ،

(١) هو أبوالقاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد القرطبى . ولد بالمرية سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) ودرس على الفيلسوف ابن حزم ، وولى القضاء بطليطلة . وسما ذكره فى ظل دولة بنى ذى النون . وتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) . واشتهر بكتابه : « التعريف بطبقات الأمم » .وهو مختصر جغرافى ، ومنه نسخه خطية فى المتحف البريطانى (ترجمته فى الصلة لابن بشكوال رقم ٥٣٥)

(٢) وردت فى المخطوطين : المرسية .

(٣) هكذا فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : السطران .

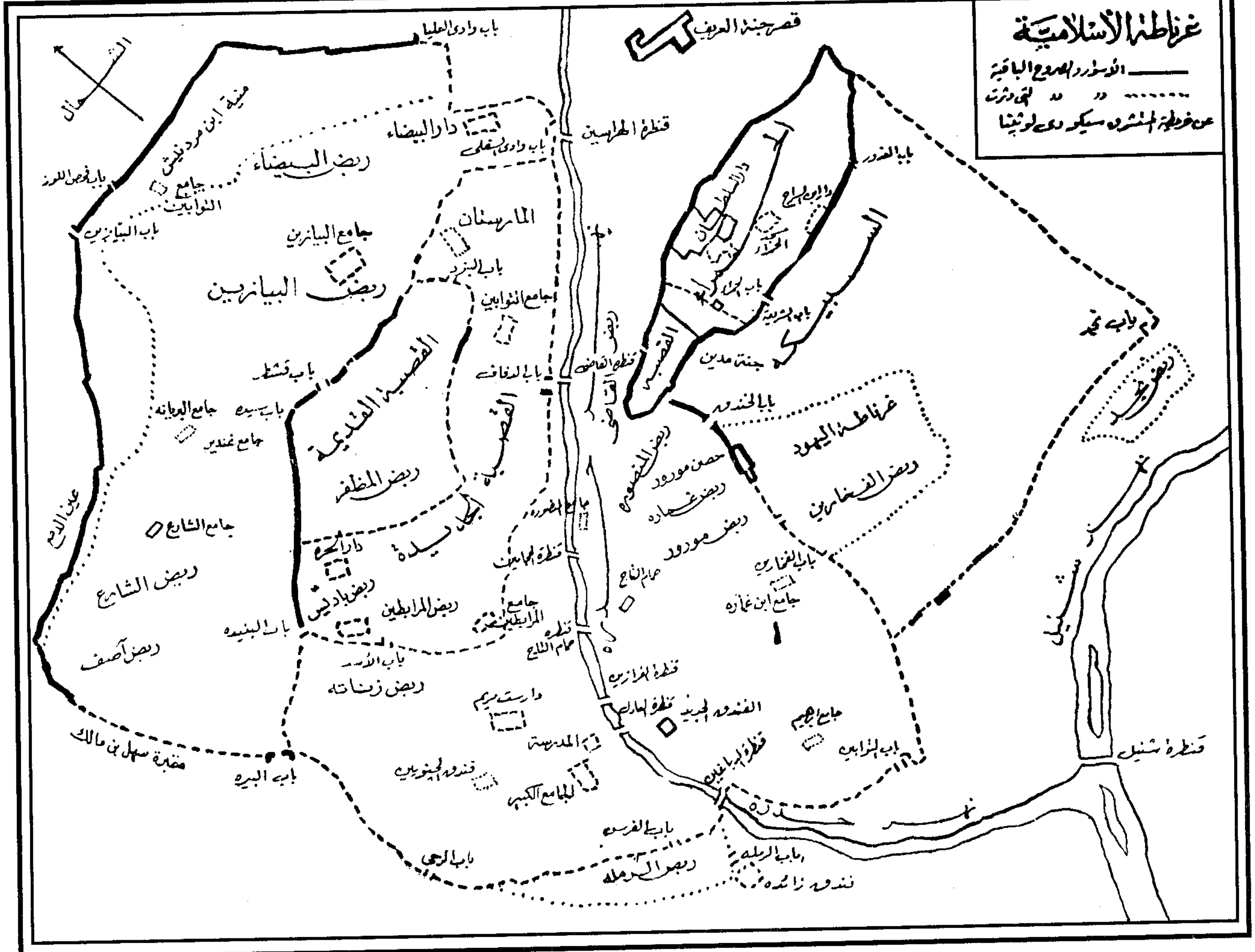
(٤) وردت فى المخطوطين : ويحلوها . والتصويب من « ت » .

(٥) الميل عند العرب ثلاثة آلاف ذراع . والمسافة بين غرناطة وقرطبة وفق التقدير الحديث نحو مائة وخمسين كيلومترا .

(٦) بحر الشام أعنى البحر الأبيض المتوسط .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة (ج وك وت) : يحال وهو تحريف .

(٨) أعنى . عدوة المغرب ، أو ما وراء الضفة الأخرى من البحر المقابلة للأندلس .


غرناطة الإسلامية
الأسوار الموجودة الباقية
عن غرناطة المنشورة سيكو دي لوثينا
الشمال
قصر جنة العريف
قنطرة الطرسين
دار البيضاء
ربض البيضاء
منية ابن مردنيش
باب فحص اللوز
باب البيازين
جامع البيازين
ربض البيازين
المارستان
جامع التوابين
القصبة القديمة
باب الدفاف
القصبة الجديدة
ربض المظفر
جامع الشارع
ربض الشارع
ربض آصف
باب البنيده
ربض المرابطين
ربض زناته
باب البيره
مقبرة سهل بن مالك
المدرسة
الجامع الكبير
الفندق الجديد
ربض الرملة
باب الرملة
باب الفخارين
جامع ابن غماره
باب الطوابين
قنطرة شنيل
نهر حدره
نهر شنيل
السبيكة
القصبة
دار السلطان
جنة مدين
باب الغدر
باب نجد
ربض نجد
غرناطة اليهود
ربض الفخارين
ربض المنصورة
حصن مورور
ربض مورور
عين الدمع
باب إلبيرة

وبين غَرْب وقِبْلة على أربعة بُرُد[١] . والجبال بين شرق وقبلة ، والبَرَاجِلات[٢] بين شرق وجَوْف ، والكَنْبانِيَّة[٣] بين غرب وقبلة ؛ وبين جوف وغرب ، فهى لمكان جوار السَّاحل ، مَارَّة بالبَوَاكر السَّاحلية ، طيبة[٤] البحار ، وركاب لجهاد البحر[٥] ، ولمكان استقبال الجبال ، المقصودة بالفواكه المتأخِّرة اللحاق ، مُعَلَّقة بالمُدَّخَرات ، استِدْبار الكَنْبانِيَّة واضْطبار البَرَاجلات ؛ بحرٌ من بحور الحِنْطة ، ومعدنٌ للحبوب المفضلة ، ولمكان شُلَيْر ، جبل الثلج[٦] ، أحد مشاهير جبال الأرض ، الذى يَنْزل به الثلج شتاءً وصيفاً ، وهو على قِبْلة منها على فرسخين ؛ ويَنْساب منه ستةٌ وثلاثون نهراً من فوهات الماء ، وتَنْبَجِس[٧] من سفوحه العيون ، صحَّ منها الهواء ، واضَّطردت فى أرجائها وساحاتها المياه ، وتعدَّدت الجَنَّات بها والبساتين ، والتفت الأدواح ، وشمَّر الرُّوَّاد على منابت العُشْب فى مظانِّ[٨] العَقار مُسْتودعات الأَدْوية والتِّرْيَاقِيَّة . وبَرْدُها لذلك فى المُنْقَلَب[٩] الشتوى شديدٌ ، وتَجْمُدُ بسببه الأدهان والمائعات ، ويتراكم بساحاتها الثلج فى بعض السنين ، فجُسُوم

---

(١) جمع بريد وهو مقياس للمسافة الطويلة ويقدرة العرب باثنى عشر ميلا .

(٢) البراجلات جمع برجيلة وهو تحريف للكلمة الإسبانية . Parcela ، أى قطعة من الأرض ، والمقصود به هنا الأراضى الخشنة المقفرة .

(٣) رسمت هذه الكلمة فى « ت » (الكتباقية) وفى « ك » (الكنباققة) وفى « ج » (الكنباقة) وهى كلها صور محرفة . وصوابه (الكنبانية) وهى كلمة مشتقة من كلمة Campo القشتالية ، ومعناها هنا البسيط أو السهل من الأرض .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى « ج » و « ك » ، طيه .　　(٥) فى « ت » ، البحرية .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة « شير » وهو تحريف . ويطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير » أو جبل الثلج على جبال سيرا نفادا الشهيرة التى تشرف على مدينة غرناطة بآكامها العالية من الجنوب الشرق . وشلير محرفة عن اللاتينية Solarius أو Solarus ومعناه جبل الشمس . وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على هذه الجبال فينعكس ضوءها على الثلوج الناصعة التى تغطيها . وسميت أيضاً بجبل الثلج ، وهو ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالى Sierra Nevada أى الجبال الثلجية

(٧) أى تتفتح وتسيل . وقد وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » مكان . والأولى أرجح .

(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ت » المنقف .

أهلها لصِحَّة الهواء صُلْبَة ، وسِحانهم خَشِنة ، وهُضُومهم قويّة ، ونفوسهم لمكان الحَر الغريزى جَرِيَّة(١) .

وهى دارُ مَنَعَة وكرسى مُلْك ، ومقامُ حَصانة. وكان ابن غانية(٢) يقول للمرابطين فى مرض موته(٣) ، وقد عوّل عليها للامتساك بدعوتهم : الأنْدَلُس دَرَقَةٌ ، وغَرْناطة قَبْضَتُها ؛ فإذا جَشَّمتم يامعشر المرابطين القَبْضة ، لم تخرج الدرقة من أيديكم .

ومن أبدع ماقيل فى الاعتذار عن شِدَّة بَرْدها ، ماهو غريب فى معناه ، قول شيخنا القاضى أبى بكر بن شِبْرِين رحمه الله(٤) :

رعى الله من غَرْناطة متبوأً　　يسُرُّ كئيباً(٥) أو يُجيرُ طريدا
تبَرَّم منها صاحبى عندما رأى　　مسارحها بالبَرْد(٦) عُدْنَ جَلِيدا
هى الثَّغرُ صان الله من أهْلَتْ به　　وما خيرُ ثغرٍ لايكون بَرُودَا

وقال الرَّازى(٧) عند ذكر كُورَة إلبيرة : ويتصل بأحْواز قَبْرَة كورةُ إلبيرة ،

---

(١) أى جريئة .

(٢) هو أبو زكريا يحى بن غانية كبير قواد المرابطين فى الأندلس ، حينما اضطرب سلطانهم فيها ، وخرج عليهم معظم الزعماء الأندلسيين ، فى نفس الوقت الذى عبر فيه خصومهم الموحدون البحر إلى الأندلس يريدون افتتاحها (سنة ٥٤٠ هـ) . وبذل ابن غانية جهداً فادحاً فى الدفاع عن سلطان المرابطين ، ولكن القواعد الأندلسية خرجت من قبضته تباعاً ، واضطر فى النهاية أن يمتنع بغرناطة التى طوقها الموحدون . وسقط ابن غانية قتيلا فى الموقعة التى تلت بين المرابطين والموحدين ودفن بغرناطة (سنة ٥٤٣ هـ)

(٣) وردت فى المخطوطين (مرموته) وبالتصويب يستقيم السياق .

(٤) هو أبوبكر محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن شبرين من شيوخ ابن الخطيب . (٦٧٤ — ٧٤٧ هـ) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة .

(٥) وفى نص « حزيناً » (راجع رحلة ابن بطوطة — مصر — ج ٢ ص ١٨٧) .

(٦) وفى نص « بالثلج » (راجع رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ١٨٧) .

(٧) هوأحمد بن محمد بن موسى الرازى من مؤرخى الأندلس . ولد سنة ٢٧٤ هـ . وتوفى سنة ٣٤٤ هـ ، (٩٥٥ م) ومن تصانيفه : «أخبار ملوك الأندلس » وكتاب «الإستيعاب فى أنساب أهل الأندلس » . وغيرهما .

وهى بين الشرق والقبلة ، وأرضها سِقى غزيرة الأنهار ، كثيرة الثمار ، ملتفة الأشجار ، أكثرها أدواح الجوز ، ويحسُن فيها قصب السكر ؛ ولها معادنُ جوهريةٌ من ذهب ، وفضة ، ورصاص ، وحديد . وكورة إلبيرة أشرف الكور، نزلها جند دمشق . وقال: لها من المدن الشريفة مدينة قَسْطِلِيَّة،وهى حاضرة إلبيرة ، وفَحْصُها لا يُشَبَّه بشىء من بقاع الأرض طِيباً ولا شَرَفاً إلّا بالغوطة،غوطة دمشق (١)

وقال بعض المؤرخين : ومن كرَم أرضنا أنها لا تَعْدَم زريعةً بعد زريعةٍ ، ورعْياً بعد رعْى ، طُول العام ؛ وفى عِمالتها المعادن الجوهرية من الذهب ، والفضة ، والرصاص ، والحديد ، والتوتية . وبناحية دَلَاية(٢) من عملها ، عود اليلنْجوج ، لا يفوقه العود الهندى ذكاً وعطراً رائحة . وقد سيق منه لخَيْران(٣) صاحب المَرِية أصلٌ كان منْبِتُه بين أحجار هناك . وبجبل شُلَيْر(٤) منها سُنْبُل فائق الطِّيب ، وبه الجَنْطيانا ، يحمل منه إلى جميع الآفاق ، وهو عقيرٌ رفيع ، ومكانه من الأدوية الترياقية مكانه(٥) . وبه المَرْقَشِيثَة على اختلافها ، واللّازَوَرْد . وبفَحْصها وما يتصل به القُرْمُز . وبها من العقّار والأدوية النَّباتية والمَعْدنية(٦) مالا يحتمل ذكرُها

(١) هو الوادى الخصيب الذى تقع فيه دمشق . قال ياقوت : « والغوطة كلها أشجار وأنهار متصلة . وهى بالإجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظراً » (معجم ياقوت ج ٦ ص ٣٠٤) .

(٢) دلاية هى الآن Dalias الحديثة . وهى بلدة صغيرة تقع غرب المرية فى جنوبى سفح جبال « غدر Gador » ، على مقربة من البحر الأبيض المتوسط .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين (لخيزران) وخيران العامرى هو أحد زعماء الدولة العامرية من الفتيان الصقالبة . نهض عقب سقوط بنى عامر ، وقيام الثورة الأموية فى جماعة من الفتيان العامريين وخصوم بنى أمية وزحف على مدينة المرية واستولى عليها (سنة ٤٠٣ هـ) . وحالف بنى حمود الأدارسة فى البداية ثم انقلب عليهم . ولبث يتقلب بين القوى المختلفة حتى توفى قتيلا فى موقعة نشبت بينه وبين البربر فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) .

(٤) وردت فى « ج » : شنيل . وهو تحريف ظاهر ، إذ أن شنيل نهر لا جبل .

(٥) وردت بعد هذه الكلمة فى المخطوطين عبارة : (وقد خاطب فيها أبوجعفر المنصور) وهى عبارة مدخولة لامكان لها فى هذا الموطن ولهذا رأينا حذفها .

(٦) فى « ج » المغرانية .

الإيجاز . وكفى بالحرير الذى فَضَلت به فخراً ورِقيتَّة، وغلّة شريفة ، وفائدة عظيمة، تمتارُه منها البلاد ، وتجلبه الرفاق ، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية . وفحْصُها الأفْيَح (١) المُشبَّه بالغُوطة الدمشقية حديثُ الرُّكاب ، وسمر الليالى ، قد دَحاه الله فى بسيط سهل تخترقه المذانب ، وتتخلله الأنهار جداول ، وتتزاحم فيه القُرى والجَنَّات ، فى ذرْع أربعين ميلًا أو نحوها ، تنْبُو العين فيها عن وجهه ، ولا تتخطَّى المحاسن منها إلا مقدار رقعة الهضاب ، والجبال المُتَطامية منه بشكل ثُلثى دارةٍ ، قد عرّت منه المدينة فيما يلى المركز لجهة القِبْلة ، مستندة إلى أطواد سامية ، وهِضاب عالية ، ومناظرَ مُشْرفة : فهى قيدُ البصر ، ومنتهى الحُسْن ، ومعنى الكمال ، أضفى الله عليها ، وعلى من بها من عباده المؤمنين جَناح سَتْره ، ودفع عنهم عدُوَّ الدِّين بقدرته .

---

(١) الفحص أو فحص غرناطة ، وهو مرجها الشهير La Vega de Granada ، وهو البسيط الأخضر الذى تشرف عليه غرناطة من الجنوب الشرقى . وقدكان أيام الدولة الإسلامية من أنضر وأبدع بقاع الأندلس الخضراء ، وكان بمزارعه اليانعة وحدائقه الغناء متنزه الناس المفضل ولا سيما فى ليالى الصيف . وكان مستقى لوحى الشعر والنثر . أما اليوم فقد زالت مغانيه القديمة وقلت خضرته وتخللته الرقاع الجرداء .

فصــل

فى فتح هذه المدينة

ونزول العرب الشاميين من جنـد دمشق بهـا

وما كانت عليه أحوالهم ، وما تعلق بذلك من تاريخ

قال المؤلف : اختلف المؤرخون فى فتحها . قال ابن القُوطيّة[١] : إن يُلْيان الرُّومى[٢] الذى نَدَب[٣] العرب إلى غزو الأندلس طلباً لِوَتْره من مِلكها لُذْريق[٤] بما هو معلوم ، قال لطارق بن زياد مُفتتِحها عند ما كسر جيش الرُّوم[٥] [على وادى لكّة : قد فضَضتَ جيش القَوْم][٦] ودوَّختَ حاميتهم ، وصيّرت الرعب فى قلوبهم ، فاصمد لبَيْضتهم ، وهؤلاء أدلاء من أصحابى ، ففرق جيوشك فى البُلدان بينهم ، واعْمَد أنت إلى طُلَيْطلة بمعظمهم ، وأشْغِل القوم عن النظر فى أمرهم ، والاجتماع إلى ولىِّ رأيهم .

---

(١) ابن القوطية هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية، لانتمائه بطريق النسب إلى سارة القوطية ابنة وتيزا ملك القوط التى أسلمت عند الفتح وتزوجت من أحد أعيان المسلمين ، ولد بقرطبة وتوفى بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) وكتب تاريخه المسمى «تاريخ افتتاح الأندلس» . وقد نشر بعناية المستشرق الإسبانى ربيرا مقروناً بترجمة إسبانية.

(٢) يليان الرومى هو الكونت يوليان الشهير فى سيرة فتح الأندلس . وكان وقت أن توغل المسلمون فى المغرب الأقصى وافتتحوا طنجة ، حاكما لثغر سبتة المنيع . وكان يظاهر الحزب الذى يخاصم ودريك ملك القوط يحفزه إلى ذلك عامل الانتقام ، لأن ردريك حسبما تقول الرواية اغتصب ابنته فلورندا التى كانت نزيلة بقصره . فلما اقترب العرب من سبتة اتصل بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح لأندلس ، وقدم سفنه إلى العرب ليسهل لهم العبور إليها ، وعاونهم خلال الفتح بمختلف الوسائل .

(٣) فى مخطوط خزانة الرباط الملكية (أندب) .

(٤) لذريق أى ردريك آخر ملوك القوط .

(٥) الروم هنا يقصد بها القوط .

(٦) هذه العبارة ساقطة فى «ك» وواردة استدراكا فى هامش «ج» .

قال : ففرّق طارق جيوشه من إسْتِجَّة ؛ فبعث مُغيثاً الرُّومى ، مولى الوليد ابن عبد الملك بن مروان إلى قُرْطبة ؛ وبعث جيشاً آخر إلى مالَقَة ؛ وأرسل جيشاً ثالثاً إلى غَرْناطة مدينة إلْبيرة ؛ وسار هو فى معظم الناس [إلى كورة جَيَّان][1] يريد طليطلة . قال فمضى الجيش الذى وجَّه طارق إلى مالقة ففتحها ، ولجأ عُلوجها إلى جبال هناك ممتنعة . ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى إلْبيرة ، فحاصروا مدينتها ، وفتحوها عَنْوة ؛ وألْفوْا بها يهوداً ضموهم إلى قَصَبة[2] غرناطة ؛ وصار لهم ذلك سُنَّة مُتَّبعة ، متى وجدوا بمدينة فتحوها يهوداً ، يضمُّونهم إلى قَصَبتها ، ويجعلون معهم طائفةً من المسلمين يَسُدُّونها . ثم مضى الجيش إلى تُدْمير .

وكان دخول طارق بن زياد الأندلس يوم الإثنين لخمس خلون من رجب سنة اثنين وتسعين . وقيل فى شعبان . وقيل فى رمضان ، بموافقة[3] شهر غُشْت من شهور العَجَمية .

وذكر معاوية بن هشام[4] وغيره ، أن فتح ما ذكر تأخّر إلى دخول موسى ابن نصير فى سنة ثلاث وتسعين . فتوجه ابنه عبد الأعلى[5] فى جيش إلى تُدْمير[6] فافتتحها ، ومضى إلى إلْبيرة فافتتحها ، ثم توجَّه إلى مالَقَة .

---

(١) هذه الزيادة ساقطة فى « ك » وواردة فى هامش « ج » .

(٢) القصبة أى القلعة وهو استعمال أندلسى ذائع . وكانت القصبة الأندلسية تضم فى معظم الأحيان قصرا للحاكم ومسجداً للصلاة وثكنات للجند . ويوجد حتى اليوم كثير من أطلال القصبات الأندلسية القديمة .

(٣) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » ، موافق . وغشت أعنى أغسطس .

(٤) معاوية بن هشام بن محمد بن هشام ، هو أديب وكاتب قرطبى من سلالة بنى أمية ، عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وكتب كتاباً فى تاريخ الأندلس عنوانه «دولة بنى مروان بالأندلس» . ويكثر ابن حيان من الاقتباس منه .

(٥) لم يرد ذكر عبد الأعلى بن موسى بن نصير كثيراً فى سيرة فتح الأندلس . ولكن ابن الخطيب يقدم لنا فيما بعد فى الإحاطة عنه ترجمة موجزة ، وينقل لنا فيها عن الرازى أنه قام بهذا الفتح .

(٦) تدمير هى إحدى ولايات الأندلس الشرقية القديمة . سميت باسم أميرها والمدافع عنها وقت الفتح تيودمير . ثم غدت بعد ذلك ولاية مرسية .

قال المؤلف رحمه الله : ولما استقرّ مُلك الإسلام بجزيرة الأندلس ، ورمى إلى قصبتها الفتح ، واشرأبّ فى عَرَصاتها الدِّين ، ونزلت قرطبة وسواها العرب ، فتبوؤوا الأوطان ، وعَمَروا البلدان ، فالدّاخلون على [يد][١] موسى بن نصير [يُسَمَّون بالبَلديِّين][١] والداخلون بعدهم [مع][١] بَلْج بن بِشْر القُشَيرى ، يسمّون بالشّاميين ؛ وكان دخول بَلج بن بشر القُشيرى بالطّالعة البَلْجيَّة سنة خمس وعشرين ومائة .

ولما دخل الشاميُّون مع أميرهم بَلج ،حسبما تقرر فى موضعه ، وهم أسود الشّرى[٢] عزّة وشهامة ، غُصّ[٣] بهم السابقون إلى الأندلس ، وهم البَلديُّون ، وطالبوهم بالخروج عن بَلَدهم الذى فتحوه ، وزعموا أنه لايحملُهم وإياهم ، واجتمعوا لغزوهم ، فكانت الحروب تدور بينهم ، إلى أن وصل الأندلس ، أبو الخطّار حُسام بن ضِرار الكَلْبى ، عابراً إليها البحر من ساحل تونس ، وأَظَلّ على قُرْطُبة على حين غفلة ، وقد ستَر خبر نفسه ، والحرب بينهم ، فانقاد إليه الجميع بحكم عهد مُدينه[٤] حَنْظلة ابن صَفْوان والى إفريقية[٥] ، وقبض على وجوه الشاميين عازماً عليهم فى الإنصراف حسبما هو مشهور ؛ ورأى تفريق القبائل فى كُوَر الأندلس ، ليكون أبعد للفتنة ، ففرّقهم ، وأقطعهم ثُلث أموال أهل الذِّمّة ، الباقين من الرُّوم ، فخرج القبائل الشاميون عن قرطبة .

---

(١) ظاهر من سياق النص أن هناك كلمات ساقطة فى الأصل ، والمرجح أنها هى التى وضعناها بين الحاصرتين ، وبها يستقيم المعنى التاريخى .

(٢) « الشرى » ، جانب الفرات .

(٣) فى المخطوطين . غض .

(٤) فى المخطوطات الثلاثة : مدينة .

(٥) كانت الأندلس عقب الفتح تعتبر ولاية تابعة لإفريقية من الناحية الإدارية . ووالى إفريقية هو الذى يختار حاكمها ، واستمر ذلك معظم عصر الولاة .

قال أبو مروان[١] : أشار على أبي الخطار ، أرْطَبَاس[٢] قُومِس الأندلس[٣] ، وزعيم عَجَم الذمة[٤] ، ومُستخرجُ خراجهم[٥] لأمراء المسلمين — وكان هذا القُومسُ شهير العلم والدهاء — لأول الأمر ، بتفْريق القبائل الشاميين العَلَمَين[٦] عن البلد ، عن دار الإمارة قرطبة ، إذ كانت لا تحمِلُهم ، وإنزالهم بالكُوَر ، على شَبه منازلهم التى كانت فى كُورَ شَامِهم ، ففعل ذلك على[٧] اختيار منهم ؛ فأنزل جُند دِمَشْق كُورَة إلبيرة ، وجند الأُرْدن كورة جَيَّان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تُدْمير : فهذه منازل العرب الشاميين ؛ وجعل لهم ثُلث[٨] أموال أهل الذِّمَّة من العجم طُعْمةً ؛ وبقى العرب والبَلَدِيُّون والبرابر[٩] شركاؤهم ؛ فلما رأوا بُلداناً شِبْهَ بلدانهم بالشأم ، نَزَلوا وسكنوا واغتبطوا وكَبُروا وتموَّلوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على عنائهم موضعاً رضيًا ، فإنه لم

---

(١) هو ابن حيان مؤرخ الأندلس ، وقد سبقت الإشارة إليه .

(٢) أرطباس هو الأسقف أوباس أخو الملك وتيزا . وكان مثل الكونت يوليان قد تحالف مع العرب منذ الفتح هو وولدا أخيه ، إيفا وسيز بوت اللذان تسميهما الرواية الإسلامية « المند » و« رملة » وقد عينه العرب عقب الفتح حاكماً لطليطلة ورئيساً للنصارى الذين انضووا تحت لواء الفاتحين .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : « قوس الأندلس» . وهو تحريف ، والصواب «قومس» . والقومس هو الرسم العربى لكلمة Comes اللاتينية ، وهو الزعيم أو الرئيس . وقد أنشأ المسلمون منذ الفتح منصب « القومس » . و«القوامس» وهم زعماء النصارى فى القواعد الأندلسية . ثم تطور المنصب حتى غدا منصباً دينياً ، يليه أسقف أو مطران للنصارى يرعى شئونهم الروحية .

(٤) عجم الذمة أو النصارى المعاهدون Los Mozarabes وسنتحدث عنهم فيما بعد .

(٥) وردت فى « ج » و« ك » : مزاحهم . و فى «ت» : مزاجهم : وقد رجحنا التصويب .

(٦) هكذا فى المخطوطات الثلاث : والعلمين نسبة إلى علم ، وهو مكان بالشام .

(٧) وردت فى « ج » (عن) والتصويب من الملكية .

(٨) وردت فى المخطوطات الثلاث : « ثلثا » . والصواب : ثلث كما يتضح ذلك من سياق الكلام بعد .

(٩) يريد البربر . وهو التعبير الصحيح .

يرتحل عنه[١] ، وسكن به مع البَلَديِّين . فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولَحِق بجُنْده ، فهم الذين كانوا يُسمَّوا الشَّادَّة حينئذ .

قال أحمد بن موسى : وكان الخليفة يعقد لِوَاءين ، لواء غازياً ، ولواء مقيماً ؛ وكان رزق الغازى بلوائه مائتى دينار . ويبقى المُقِيم بلا رزق ثلاثةُ أشهر ؛ [ثم يدال بنظيره[٢] من أهله أو غيرهم][٣] . وكان الغُزاة من الشَّاميين مثل إخوة المَعهُود له أو بنيه أو بنى عمه ، يُرزقون عند انقضاء غُزاته عشرة دنانير ؛ وكان يَعقد المعقودُ له ، مع القائد ؛ يَتكَشَّفُ عمن غزا ، ويَسْتحقُّ العَطاء ، فيُعطى على قوله تكرمة له ؛ وكانت خِدمتهم فى العسكر ، واعتراضهم إليه ؛ ومن كان من الشَّاميين غازياً من غير بيُوتات العَقْد ، ارتَزَق خمسة دنانير عند انقضاء الغَزْو . ولم يكن يُعطى أحدٌ من البلَديين شيئاً غير المعقُود له ؛ وكان البلديُّون أيضاً يعقد لهم لواءان[٤] ؛ لواء غاز ، ولواء مُقيم ؛ وكان يرتزق الغازى مائة دينار وازنة ؛ وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر ، ثم يدال بنظيره من غيرهم ؛ ولم يكن الدِّيوان والـكَتَبةُ إلا فى الشَّاميين خاصة ؛ وكانوا أحراراً من العُشْر ، معدِّين للغزو ، ولا يلزمُهم إلا المقاطعة على أموال الرُّوم التى كانت بأيديهم ؛ وكان العرب من البلديين يؤدُّون العُشر ، مع سائر أهل البلد ، وكان أهلُ بيوتاتٍ منهم يَغزون كما يغزو الشاميُّون ، بلا عطاء ، فيصيرهم[٥]

(١) وردت هذه العبارة بالمخطوطات الثلاثة مكررة على النحو الآتى . «وسكنوا واغتبطوا وكبروا ، وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه فى الفتوح على عنائهم ، لم يعرض لهم فى شىء منها. فلما رأوا بلدانا شبه بلدانهم بالشام ، نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكبروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل لأول قدومه موضعاً رضياً فإنه لم يرتحل عنه» . وقد رأينا أن نحذف الجزء الأول المكرر من هذه العبارة . ونستبقى الصيغة التالية المشابهة والمكملة .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . ووردت محرفة فى «ج» : يديل بنظره .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ت» .

(٤) فى «ج» و«ت» : لواءين .

(٥) وردت فى «ج» فيسير بهم ، والتصويب من الملكية .

إلى ماتقدّم ذكره . وإنما كان يُكْتَب أهلُ البلد فى الغزو ، وكان الخليفةُ يُخْرِج عسكرين ، إلى ناحيتين ، فيستنزلهم ؛ وكانت طائفةٌ ثالثة يُسمَّون النظرَاء من الشاميين والبلَدِيين ، كانوا يَغْزُون كما يغزو أهل البلد من الفريقين . وقد بينا نبذة من أحوال هؤلاء العرب . والاستقصاء يُخرِج كتابنا عن غرضه . والإحاطةُ لله سبحانه .

ذكر ما آل اليه حال [من][١] ساكن المسلمين بهذه الكورة من النصارى المعاهدين[٢] على الإيجاز والاختصار

قال المؤلف : ولما استقرّ بهذه الكُورَة الكريمة أهل الإسلام ، وأنزل الأمير أبو الخطار قبائل العرب الشاميّين بهذه الكورة ، وأقطعهم ثُلُث أموال المُعَاهدين،

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاث ، ولكنها ضرورية لاستقامة المعنى

(٢) النصارى المعاهدون ، أو المعاهدون ، أو المستعربون ، وبالإسبانية : Los Mozarabes هم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس فى المدن والبقاع المفتوحة تحت حكم الدولة الإسلامية . وكانوا يكونون أقليات كبيرة فى القواعد الرئيسية مثل قرطبة وإشبيليه وطليطلة ، ويتمتعون فى ظل الحكومة الإسلامية باستقلال محلى ، ويطبقون شرائعهم القوطية القديمة ، ولهم قضلؤهم الخاص ، ولهم كنائسهم يزاولون فيها شعائرهم الدينية بكل حرية . وكانوا فوق ذلك يتمتعون فى بعض الأحيان بنفوذ قوى ، ويحتل كثير منهم مناصب هامة فى الحكومة والجيش . وقد أنشأت الحكومة الأندلسية اعترافاً منها بأهمية الأقليات النصرانية ، منصب «القومس» للنصارى ليكون مرجعهم الرئيسى فى شئونهم الروحية . وكان القومس من الشخصيات ذات النفوذ ، وكان له فى معظم الأحيان مكانة خاصة لدى الأمير أو الخليفة إذكان مستشاره فى كل ما يتعلق بشئون النصارى وأحوالهم . ولما نمت هذه الأقليات النصرانية وازدهرت ، بدأت فى مناوأة الحكومة الإسلامية وتدبير الدسائس ضدها ، وكانت عضد الثورات المختلفة فىالمدن والمقاطعات الثائرة . ولا سيما طليطلة وما يجاورها من المدن القريبة من حدود النصارى. ومن الغريب أنهم مع بغضهم للإسلام والحكومة الإسلامية ، كانوا يأخذون بقسط وافر من التقاليد والعادات الإسلامية ، وكانوا يتكلمون العربية ويكتبونها ، ويستعملونها فى وثائقهم ومعاملاتهم ، وقد نبغ الكثير منهم فى النظم والنثر . وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ – ٢٣٨هـ) (٨٢٢ – ٨٥٢م) حاول النصارى المعاهدون أن يدبروا فتنة خطيرة لصدع الحكومة الإسلامية ، وعمد بعض القساوسة المتعصبين إلى سب الإسلام والنبى العربى جهراً فى شوارع قرطبة وأمام القضاة الذين يحاكمونهم ، ودفعوا إلى هذا التحدى بعض الفتيات النصرانيات المتعصبات . فقضى على عدد منهم بالإعدام . وازداد النصارىهياجاً وتحدياً ، وكادت تحدث فى قرطبة فتنة مدمرة ،لولا أن تذرعت الحكومة الإسلامية فى إخمادها بمنتهى الحزم والشدة .

ولبث النصارى المعاهدون على كر العصور شوكة فى جانب الحكومة الإسلامية يحاولون إحداث الشغب بكل الوسائل ، ويشجعون كل خلاف وثورة ، ويحالفون المملكة النصرانية الشمالية ، ويستعدونها على الأندلس باستمرار . ولهم فى الأندلس تاريخ طويل ليس هنا موضع استقصائه . ولكن جهودهم كانت على أى حال من أهم العوامل فى إضعاف الحكومة الإسلامية ، وفى تعضيد جهود اسبانيا النصرانية لاسترداد أراضيها المفتوحة من المسلمين . وهذا ما يعتبره المؤرخون الإسبان من وجهة نظرهم أعمال بطولة . ولهذا يخصص العلماء الاسبان لتاريخ «النصارى المعاهدين» مصنفات وبحوثا كثيرة

استمر سُكناهم فى غِمار من الروم ؛ يعالجون فلاحة الأرض ، وعُمران القرى ، يرأسُهم أشياخ من أهل دِينهم ، أولو حنْكة ودهاء ومُدَاراة ، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم . وأحَدُهم[١] رجل يُعرف بابن القلّاس ، له شهرة وصيت ، وجاه عند الأمراء بها . وكانت لهم بخارج الحَضْرة ، على غَلْوتين[٢] ، تجاه باب إلْبيرة[٣] فى اعتراض الطريق[٤] إلى قُولْجر[٥] ، كنيسة شهيرة ، اتخذها لهم أحدُ الزعماء من أهل دينهم ، استَرْكبه بعضُ أمرائها فى جيش خَشِن من الروم ، فأصبحت فريدة فى العمارة والحِلية ؛ أمر بهدمها الأمير يوسف بن تَاشُفِين[٦] ، لتأكّد رغبة الفقهاء ؛

وقد وضع المستشرق الكبير سيمونيت Simonet فى تاريخ النصارى المعاهدين مؤلفاً ضخماً عنوانه : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) ومن أحدث المؤلفات فى هذا الموضوع كتاب وضعه المستشرق Isidro de las Cagigas عنوانه : Los Mozarabes (Madrid 1947)

(١) وردت فى «ج» وفى الملكية ، وآخرهم .

(٢) الغلوة مقياس مسافة وتقدر بثلاثمائة ذراع أو أربعمائة .

(٣) باب إلبيرة Puerta de Elvira هو من أبواب غرناطة القديمة ، ومايزال قائماً حتى اليوم بقوسه وجانبيه فى الميدان المسمى باسمه ، داخل مدينة غرناطة . وهو الباب الوحيد الذى بقى كاملا وسليما من أبواب سورها الخارجى . بيد أنه توجد من أبوابها الداخلية بضعة أبواب أخرى فى حى البيازين وفى مدينة الحمراء .

(٤) وردت بعد كلمة « الطريق » فى المخطوطات الثلاث كلمات محرفة هذا رسمها : (والعياه يقيق الماء) لا علاقة لها بالسياق ولا بالمعنى فآثرنا تركها .

(٥) هى اليوم بلدة Cuejar Sierra الصغيرة الواقعة على قيد مسافة قليلة من شرقى غرناطة فى اتجاه باب إلبيرة .

(٦) يترجم ابن الخطيب فى نهاية «الإحاطة» ليوسف بن تاشفين المتوفى زعيم المرابطين ومؤسس دولتهم بالمغرب والأندلس المتوفى سنة خمسمائة من الهجرة (١١٠٦ م) . ونكتفى بأن نشير هنا إلى أعظم أعمال حياته وهو عبوره إلى الأندلس نصرة لأمرائها ملوك الطوائف حينما اشتدت عليهم وطأة النصارى ، ولقاؤه مع جيوش الأندلس ، لجيوش النصرانية المتحدة فى سهول الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، وإحرازه عليهم نصره الباهر الذى أنقذت به الأندلس من الفناء ، والذى مد فى حياتها قروناً أخرى .

وتوجُّه فتواهم . قال ابن الصَّيرَفى(١) : خرج أهل الحَضْرَة لهدمها يوم الاثنين عَقِب جمادى الآخرة من عام اثنين وتسعين وأربعمائة ، فصُيِّرَت للوقت قاعا ، وذهَبَتْ كلُّ يد بما أخذت من أنقاضها وآلاتها . قلتُ ، ومكانُها اليوم مشهورٌ ، وجِدارُها مائلٌ يُنبىء عن إحكام وأصالة ، وعلى بعضها مقبرةٌ شهيرة لابن سَهْل بن مالك رحمه الله .

ولما تحرَّكَتْ لعدُوِّ الله الطَّاغية ابن رُذْمير(٢) ريحُ الظُّهور ، على عهد الدولة المُرابِطيَّة ، قبل أن يَخضِد الله شوكته على إفْراغَة(٣) بما هو مشهور ، أمَّلَت المُعاهِدَة(٤) من النصارى لهذه الكورة إدراك الثَّرَّة(٥) وأطْمَعَت [فى](٦) المملكة ،

(١) هو أبو بكر الصيرفى من أكابر علماء غرناطة فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى . عمل كاتباً ووزيراً لأمير المرابطين محمد بن تاشفين الذى حكم الأندلس من سنة ٥٢٠ - ٥٣١ هـ . وألف كتاباً فى تاريخ الدولة المرابطية هو : « الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية » الذى يقتبس ابن الخطيب كثيراً منه . وسوف يترجم له ابن الخطيب فى أواخر « الاحاطة » .

(٢) وردت فى « ك » ، ابن أردمير . وفى « ج » ، ابن درمير . وفى الملكية ابن رذبين . وهذا كله تحريف . وصوابه ابن رذمير . وهو الإسم الذى تطلقه الرواية الإسلامية على ألفونسو الأول ملك أراجون (١١٠٥ - ١١٣٤ م) . نسبة إلى اسم أبيه راميرو . وقد كان ملكاً مقداماً . وهو الذى افتتح سرقسطة من يد المسلمين فى سنة ١١١٨ م ، وانتزع إلى جانبها باقى قواعد الثغر الأعلى . وفى سنة ١١٢٥ م (٥١٨ هـ) خرج بقواته استجابة لتحريض النصارى المعاهدين إلى الغزوة التى يصفها ابن الخطيب فيما يلى .

(٣) كانت مدينة إفراغة Fraga من معاقل الثغر الأعلى . فلما استولى ألفونسو الأول ملك أراجون على معظم قواعده ، سار إلى افتتاح إفراغة سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٤ م) ، وضرب حولها الحصار . ولكن قدمت قوات المرابطين لإنجاد حاميتها بقيادة الأمير يحيى بن غانية . واشتبك المسلمون مع النصارى فى معركة هزم فيها النصارى هزيمة ساحقة ، وفر ألفونسو وتوفى بعد ذلك لأيام قلائل غماً وألماً .

(٤) المعاهدة هم النصارى المعاهدون الذين شرحنا أحوالهم فيما تقدم . وسموا كذلك بسبب المعاهدات التى ارتضى الفاتحون المسلمون عقدها معهم ، وسمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم وشرائعهم نظير دفع الجزية المقررة .

(٥) فى « ج » الترة . و الثرة : السعة والبسطة .

(٦) ناقصة فى المخطوطين ، ويقتضيها السياق .

فخاطبوا ابن رُذْمير من هذه الأقطار ، وتوالت عليه كُتُبهم وتواترت رسلُهم، مُلحّة بالاستدعاء مُطْمِعة فى دخول غَرْناطة . فلما أبطأ عنهم ، وجهوا إليه زماماً يشتمل على إثنى عشر ألفاً من أنْجاد مُقاتليهم ، لم يَعُدُّوا فيها شيخاً ولا غرّاً ، وأخبروه أن من تحوّه ، ممن شهرت أعينُهم لقرب مواضعهم ، وبالبُعْد من يَخفى أمرُه ، ويَظهرُ عند ورود شَخْصه ، فاستأثروا طمعه وابْتَعَثوا جَشَعَه ، واستَفَزّوه بأوصاف غَرْناطة ، وما لها من الفضائل على سائر البلاد وبفَحْصها الأفْيَح(١) ، وكثرة فوائدها من القمح والشعير ، والكتّان ، وكثرة المرافق ، من الحرير والكُرُوم ، والزيتون ، وأنواع الفواكه ، وكثرة العيون والأنهار ، ومَنَعة قُبّتها وانطباع رعيّتها(٢) ، وتأتى أهل حاضرتها، وجمال إشرافها وإطْلالها ، وأنها المباركةُ التى يمتلك منها غيرها ، المسماةُ سَنَام [الأندلس عند](٣) الملوك فى تواريخها ، فرَمَوا حتى أصابوا غرَضه ، فانتَخَب وأحْشَد ، وتحرك أول شعبان من عام خمسة عشر وخمسمائة(٤) وقد أخْفَى منهبه ، وكتم أرَبه ، فوافى بَلَنْسِية ، ثم إلى مُرْسية ، ثم إلى بِيرَة ، ثم اجتاز بالمَنْصُورة ثم إنحَدَر إلى بُرْشانة(٥) ، ثم تَلَوّم إلى وادى ناطلة(٦) ، ثم تحرك إلى بَسْطَة(٧) ، ثم إلى وادى آش(٨) ، فنزل بالقرية المعروفة

(١) هو مرج غرناطة الشهير La Vega الذى سبق التعريف به .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (رغبتا)

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج».ووارد فى الملكية .

(٤) فى هذا التاريخ شىء من التحريف . والحقيقة أن ألفونسو الأرجونى بدأ زحفه على الأندلس فى سنة ١١٢٥ م الموافقة ٥١٨ هـ ، ووصل إلى جنوبى الأندلس سنة ٥٢٠ هـ .

(٥) بيرة والمنصورة وبرشانة هى ثلاثة بلاد صغيرة فى ولاية المرية الحديثة . تقع الأوليان منهاشمال شرق مدينة المرية ، وتقع الثالثة شمال المرية فى طريق وادى آش ، وتحمل على التوالى الأسماء الحديثة الآتية : Vera, Cuevas de Almanzora, Purchena

(٦) لم نعثر على مقابل حديث لهذا الاسم .

(٧) رسمت «بصطة» فى المخطوطين وصوابه بسطة وهى Baza الحديثة ، وتقع شمال شرقى غرناطة.

(٨) وادى آش هى Guadix الحديثة . وقد كانت من المدن الزاهرة بمملكة غرناطة الإسلامية ، وكانت أيام حرب غرناطة الأخيرة معقل مولاى الزغل محمد بن سعد ، وسقطت فى يد الإسبان قبل سقوط غرناطة بقليل فى سنة ١٤٩٠ م .

بالقَصْر (١) وصافحَ المدينة بالحرب ، ولم يَحلْ بطائل ، فأقام عليها شهراً .

قال صاحب كتاب « الأنوار الجَلِيَّة »(٢) فبدأ بَحْثُ المُعاهِدة بغرناطة فى استدعائه ، فافتضح تدبيرهم باجتلابه ، وهَمَّ أميرُها بتثْقيفهم(٣) ، فأعياهم ذلك ، وجعلوا يَتَسَلَّلون إلى مَحَلَّته على كل طريق ، وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العُدْوة(٤) والأندلس بغرناطة ، حتى صارت كالدَّائرة(٥) ، وهى فى وسطها كالنُّقطة ، لمَّا أُنْذِروا بغرضه ؛ وتحرك من وادى آش فنزل بقرية دِجمة(٦) ؛ وصلَّى الناس بغرناطة صلاة الخوف ، يوم عيد النَّحْر من هذه السنة فى الأسلحة والأُبَّهة ؛ وبُعيد الظهر من غَدِه ، ظهرت أخْبيةُ الرُّوم بالقَيْل(٧) شرق المدينة ، وتوالى الحرب على فرسخين منها ، وقد أجْلَى السَّواد ، وتزاحم الناس بالمدينة ، وتوالى الجَليد ، وأظَلَّت الأمطار . وأقام العدو بمحلَّته ، بضْع عشرة ليلة ، لم تَسْرح له سارحةٌ ، إلا أنَّ المُعاهِدة تَجْلب له الأقوات ؛ ثم أقْلَع وقد ارتفع طَعَمُهُ عن المدينة ، لأربع بقين من ذى الحجة عام عشرين ، بعد أن تفرغ مُسْتَدعيه إليها ، وكبيرهُ يُعرف بابن القَلَّاس ، فاحتجوا بِبُطئه وتلوُّمه حتى تلاحقت الجيوش ، وأنهم قد وقعوا مع المسلمين فى الهَلَكة . فرحل عن قرية مُرْسانة إلى بِيَش(٨) ، ومن الغد إلى السكة(٩) من

---

(١) هى بلدة القصر Alcazar الحديثة وهى واقعة فى جنوب شرق غرناطة .

(٢) وردت فى المخطوطين : «الأنوار الجليلة» وهو تحريف . وصاحب الكتاب هو أبو بكر الصيرفى الذى سبق التعريف به .

(٣) أى باعتقالهم .

(٤) أعنى أهل المغرب .

(٥) هكذا فى «ك» وفى «ج» كالدارة .

(٦) هى بلدة Diezma الحديثة ، وهى تقع غربى وادى آش فى منتصف الطريق بينها وبين غرناطة .

(٧) هكذا فى «ت» . وفى «ج» و «ك» ، بالنيل . وهو تحريف ، والقيل منتصف النهار .

(٨) مرسانة وبالإسبانية Maracena ، وبيش وبالإسبانية Beas ، قريتان من حواز غرناطة تقع الأولى فى شمالها الشرقى ، والثانية فى شمالها الغربى .

(٩) هكذا فى «ت» وفى الملكية اليسكة ، وفى «ك» السمكة . وفى «ج» الحكة .

أحواز قلعة يَحْصُب[١] ثم اتصل إلى لِدُوبيانه[٢]، ونـكب إلى قَبرة واللسَّانه[٣]، والجيوش المُسْلمة فى أذْياله . وأقام بقَبْرَة أياما ، ثم تحرك إلى بلاى[٤] والعساكر فى أذياله ، وشِيجَة[٥] فى فَحْصِ الرَّنيسُول[٦] ، مكافحةً فى أثنائها ، مناوشةً ، وظهوراً عليه .

ولما جَنَّ الليل ، أمر أميرهم برفع خبائه من وهْدَة كان فيها إلى نَجْدة ، فساءت الظنون ، واختلَّ الأمر ، ففرَّ الناس وأسلَمُوا[٧] ، وتَهَيَّب العدو المَحَلة ، فلم يدخلها إلّا بعد هَدْأة[٨] من الليل واستولى عليها . وتحرك بعد الغد منها إلى جهة الساحلِ فشق العِمامة الآمنة من الإقليم والشَّارّات[٩] . فيقول بعضُ شيوخ تلك

---

(١) قلعة يحصب أو قلعة يعقوب هى بلدة «القلعة الملكية» الحديثة Alcala la Real ، وتقع شمال غربى غرناطة . وقد كانت قديماً منزل بنى سعيد الأدباء والمؤرخين أصحاب كتاب «المغرب» . وخاتمتهم أبو الحسن على بن سعيد المتوفى سنة ٦٨٥ هـ . وصاحب كتاب «القدح المعلى» و «الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد» .

(٢) هكذا رسم اسمها فى «ج» . وفى الملكية . وفى «ت» «الدوبيانية» . ولم نعثر على بلد بهذا الاسم فى هذه المنطقة .

(٣) قبرة Cabra واللسانه Lucena من بلاد الحصون القديمة فى مملكة غرناطة الإسلامية ، وتقع كلتاهما شمال غربى غرناطة على مقربة من قلعة يحصب ، وقد لعبت قبرة بالأخص فى حروب مملكة غرناطة الأخيرة أدواراً هامة .

(٤) بلاى ، كما رسمت فى المخطوطين ، وبللى كما رسمت فى الملكية و «ت» Poley ، هو الاسم القديم لبلدة «أجيلار» Aguilar الحديثة . وموقعة بلاى شهيرة فى تاريخ الأندلس ، وهى الموقعة التى هزم فيها الأمير عبد الله صاحب الأندلس قوات الثائر ابن حفصون سنة ٢٨٧ هـ (٨٩١ م) .

(٥) وردت فى «ك» وسعمته . وفى «ج» وسحته . وفى «ت» والملكية وبسمحته . وكلها تحريف لاسم بلدة شيجة أو أشيجة ، وهى بلدة Espejo الحديثة ، القريبة من غرناطة .

(٦) فحص الرنيسول أو أرنسول ، موضع يقع جنوبى غرناطة . ويذكره ابن الأثير على أنه حصن لا فحص (ج ١٢ ص ٢٢٤) ويعرف حديثاً باسم Aranzuel .

(٧) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين والملكية : المسلمون . وهو تحريف ظاهر .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» مدة ، والملكية هدة ، والمعنى متقارب .

(٩) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ح والملكية» ، البشارات ، البشارة . والشارات أو البشارات هى الهضاب والمرتفعات ، وهى تحريف لكلمة Sierras الإسبانية أى الجبال .

الجهة ، إنه اجتاز بوادى شُلُوبانِيَة[١] المُطِلِّ الحافَّات ، والمُتحصِّن[٢] المجاز ، وقال بلغته : أيُّ قَبْرٍ هذا لو ألفَيْنا من يَصُبُّ علينا التراب ؛ ثم عرَّج يَمْنةً حتى انتهى إلى بَلِّش[٣] ، وأنشأ بها جَفْناً[٤] صغيراً ، يصيد له حوتاً ، أكل منه كأنه نَذرٌ كان عليه ، وفى به ، أو حديثٌ أراد أن يُخَلَّد عنه . ثم عاد إلى غَرْناطة ، فاضطَّرب بها محلته بقرية ذُكَر[٥] ، على ثلاثة فراسخ منها قِبْلة ، ثم انتقل بعد ذلك بيومين إلى قرية هَمْدان[٦] ، وبرز بالكتب جاعَرِسْطة[٧] من المدينة ، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مُواقعة عظيمة ؛ ولأهل غرناطة بهذا الموضع حِدْثان ينظرونه من القضايا المستقبلة .

قال ابن الصَّيرفى : وقد ذُكر فى بعض كتب الجفر : « هذا الفحص ، بخراب يحيى[٨] عن يتامى وأيامى » وكان هذا اليوم مُعَرَّضاً لذلك ، فوقى الله ؛ وانتقل بعد

---

(١) وادى شلوبانيه أو شلوبينية ، هو البسيط الذى تقع فيه بلدة شلوبانية ، وهى من الثغور الصغيرة الواقعة جنوبى ولاية غرناطة على البحر المتوسط . وهى تقع جنوبى غربى مدينة موتريل وشرقى المنكب . وتسمى اليوم بالإسبانية Salobrena

(٢) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين : المتحصر . والأولى أرجح .

(٣) هى مدينة بلش مالقة Velez Malaga ، وهى تقع شرقى ثغر مالقة وعلى مقربة منها .

(٤) أى مركبا وتستعمل هذه الكلمة بكثرة فى التواريخ الأندلسية للتعبير عن السفن وبخاصة السفن الحربية .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» «دلوا» . وربما كانت هذه قرية Dilar الحديثة الواقعة جنوب غرناطة .

(٦) قرية همدان هى بلدة Alhendin الحديثة ، وهى تقع على مسافة قريبة من جنوبى غرناطة .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى الملكية (جاغرسطة) . وهى إما أن تكون « وجاء عرسطة » ، وإما أن يكون جاعرسطة الاسم الأول لأحد زعماء النصارى المعاهدين . وهو يتفق مع الإسبانية Inigo Arista

(٨) وردت هاتان الكلمتان فى «ت» بخراب يحى . وفى «ج» ، بحرث سحى . ومكانها بياض فى «ك» . والتصويب من الملكية .

يومين إلى المَرْج(١) مُضَيَّقاً عليه والخيل تحرجه(٢) ، فنزل بعين أطسة ، والجيوش مُحدقةٌ به ، وهوفى نهاية من كمال التَّعْبِية ، وأخْذِ الحذر ، بحيث لا تُصابُ فيه فرصة ؛ ثم تحرك على البَرَاجِلات ، إلى اللقوق(٣) ، إلى وادى آش ، وقد أُصيب كثيرٌ من حاميته ؛ وطوى المراحل إلى الشرق ؛ فاجتاز إلى مُرْسية ، إلى جَوف شاطِبة ، والعساكر فى كل ذلك تطأ أذياله ، والتَّناوش يَتَخَطَّرُ به(٤) ، والوباء يسرع إليه ، حتى لحق بلاده ، وهو ينظر إلى قفاه ، مُخْتَرَماً ، مَفْلُولاً من غير حرب ، يكاد الموت يستأصل مَحَلَّته وجُمْلته

ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المُعاهدين ، ما أَجْلَتْ عنه هذه القضية ، أخذهم الإرْجاف ، ووغِرَت لهم الصُّدور . [ووُجِّه إلى مكانهم الحزمُ](٥) ووجَّه القاضى أبو الوليد بن رُشد(٦) الأَجْر ، وتجشَّم المجاز ، ولحق بالأمير [على بن](٧) يوسف بن تاشُفين بمرَّاكُش ، فَبيَّن له أمر الأندلس ،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاث : «الفرج» . وقد رجحنا «المرج» La Vega

(٢) وردت فى «ج» بجوحيه . وفى « ك » نحوجه . وفى « ت » ، تحرحه . والتصويب من الملكية .

(٣) وفى الملكية «اللقون» . ولم نعثر على مواضع هذه الأماكن فى الخرائط الحديثة ولا على مقابلها الإسبانى ، والظاهر أنها دثرت .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «ت» يتخطفه ، والمعنى واحد .

(٥) بعد هذه العبارة التى ينفرد بإيرادها ج ، ورد ما يأتى « فاحتسب الإرجاف ووعزت لهم الصدور» . وهو تكرار غير وارد أيضاً فى باقى المخطوطات .

(٦) أبو الوليد بن رشد هذا هو جد الفيلسوف الشهير ابن رشد . والإسمان متشابهان ، وكلاهما يكنى أبا الوليد . وقد ولد الفيلسوف فى حياة جده المشار إليه سنة ٥٢٠ هـ ، أعنى فى نفس السنة التى وقعت فيها غزوة النصارى لمرج غرناطة ، وعبر فيه الجد إلى مراكش .

(٧) أضفنا هذه الزيادة لأنها لازمة لصحة الوقائع والسياق ، وبدونها نكون إزاء خطأ تاريخى واضح . لأن يوسف بن تاشفين توفى منذ سنة ٥٠٠ هـ ، وخلفه فى الحكم ولده على بن يوسف ابن تاشفين الذى حكم من سنة ٥٠٠ إلى سنة ٥٣٧ هـ ، وهو الذى أمر بتغريب النصارى المعاهدين بناء على فتوى ابن رشد المذكور ، وخلاصتها أن النصارى المعاهدين قد نقضوا العهود ، وأخلوا بها ، فسقطت عنهم الحماية الممنوحة لهم ، وحق عليهم العقاب (راجع الحلل الموشية ص ٧٠ و ٧١ وكتاب عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس القسم الأول (ص ١١٣ و ١١٤) . وراجع أيضاً : Simonet : Historia de los Mozarabes p. 790

وما مُنيت[١] به من مُعاهدِها ، وما جَنَوه عليها ، من استدعاء الرُّوم ، وما فى ذلك من نَقْض العَهْد ، والخروج عن الذِّمة ، وأفتى بتَغْريبهم ، وإجلائهم عن أوطانهم وهو أخفُّ ما يؤخذ به من عقابهم ؛ وأُخذ بقوله ، ونُفِّذ بذلك عهدُه ، وأُزعج[٢] منهم إلى بَرِّ العُدْوة ، فى رمضان من العام المذكور ، عددٌ جمٌّ ، أنكرتهم الأهواء ، وأكلتهم الطرق ، وتفرَّقوا شَذَر مَذَر ، وأصاب كثير من الجلاء جمعتهم[٣] من اليهود ؛ وتقاعدت بها منهم طائفة ، هَبَّت لها بممالأة بعض الدول ريحٌ ، فأمَّروا وأكثروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة ، ووقعت فيهم وقيعةٌ احتشَّتهم ، إلاّ صابةٌ[٤] لهذا العهد قليلة ، قديمةُ المَذَلَّة ، وحالفت الصَّغار[٥]. جعل الله العاقبة لأوليائه .

---

(١) وردت فى المخطوطين : بنيت . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٢) فى «ج» وأعجز ، وفى الملكية واجعز . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) هكذا فى «ج» ، وفى الملكية .

(٤) أى أقلية محدودة .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» الصعار .

ذكر ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم
التى نزلتها العرب بخارج غرناطة ، وما يتصل بها من العمالة

فصـــل

فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجنّات والجهات

قال المؤلف رحمه الله : ويحِفُّ بسور[1] هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى، البساتينُ العريضة المُستخلَصَة ، والأدواح المُلتفَّة ، فيصير سورها من خَلْف ذلك كأنّه من دُون سِياج كثيفة ، تلوح نجوم الشُّرفات أثناء[2] خضرايه ولذلك ما قلت فيه فى بعض الأغراض :

بلد يحفُّ به الرِّياضُ كأنّه ... وجْهٌ جميل والرِّياض عِذاره
وكأنَّما واديه مِعْصَمُ غادَةٍ ... ومن الجُسُور المُحكمات سِوارُه

فليس تَعْرى عن جَنَباته من الكُرُوم والجنَّات جهة ، إلاما لا عِبْرة به مقدار غلْوة ، أما ما حازه السُّفل من جَوْفيه[3] ، فهى عظيمة الخطر ، متناهية القِيَم ، يضيق جَدْه[4] من[5] عدا أهل المُلْك، عن الوفاء بأثمانها، منها ما يغِلُّ فى السنة الواحدة نحو[6] الألف من الذّهب ، قد غصَّت الدكاكين بالخُضَر الناعمة ، والفواكه الطيِّبة ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : سور .
(٢) وردت فقط فى «ت» ، وأغفلت فى المخطوطين .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» حومين .
(٤) هكذا فى «ك» و «ت» . وفى «ج» جوه .
(٥) هكذا فى «ج» وفى الملكية (ما) .
(٦) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين « شكر » .

والثمر المُدَّخرة ، يختصُّ منها بمُسْتَخْلص السلطان[١] ، المرورُ طوْقاً على تَراَئب بلده ما بينهن منية[٢]؛ منها الجَنَّة[٣] المعروفة بفدَّان المَيْسة ، والجنة المعروفة بفدان عِصام ، والجنة المعروفة بالمعروى[٤] ، والجنة المنْسُوبة إلى قدَّاح بن سُحْنون ، والجنة المنسوبة لابن المؤذِّن ، والجنة المنسوبة لابن كامل ، وجنة النَّخلة العليا ، وجنة النخلة السفلى ، وجنة ابن عمْران ، والجنة التى إلى نافع ، والجُرْف الذى يُنسب إلى مُقْبل ، وجنة العَرْض ، [وجنة الحفرة][٥] ، وجنة الجُرْف ، ومَدْرَج نجد ، ومَدْرَج السَّبِيكة[٦] ، وجنة العَريف[٧] : كلها لا نظير لها فى الحسن والدَّمانة[٨] والربيع ، وطيب التربة ، وغرقد[٩] السُّقيا ، والتِفاف الأشجار ، واستجادة الأجناس ، إلى ما يجاورها ويتخلَّلها ، مما يختص بالأحباس الموقفة ، والجنَّات المُتملَّكة ، وما يتصل بها بوادى سَنْجيل[١٠] ما يقيد[١١] الطَّرْف ، ويُعجز الوصف ، قد مَثلث منها على الأنهار المتدافعة العُباب ، المنارةُ والقِبابُ ،

---

(١) مستخلص السلطان يراد به الأملاك السلطانية الخاصة التى يرجع ريعها إلى خزانته الخاصة .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين :

(٣) الجنة هنا بمعنى الحديقة أو البستان ، وهو اصطلاح ذائع فى اللغة الغرناطية .

(٤) هكذا فى «ك» وفى «ت» بالمغرموى . وفى «ج» بياض .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط فى «ج» والملكية ، ووارد فى «ك» .

(٦) السبيكة هو الاسم الذى كان يطلق على البسيط الأخضر الشاسع الواقع جنوب شرق الحمراء وقد شقت اليوم فيها الطرق الشاسعة المظللة بالأشجار الباسقة . ومنها الطريق المؤدى إلى باب الشريعة باب الحمراء الرئيسى .

(٧) جنة العريف كانت تقع فى شمال شرق الحمراء فى أسفل الربوة التى يقوم عليها اليوم قصر جنة العريف (المسمى بالإسبانية Generalife)

(٨) هكذا وردت فى «ج» ، . وفى «ك» الدمامة . وفى «ت» الدمائة . والدمانة أى الخصوبة .

(٩) الغرقد هو الشجر الضخم . والمقصود هنا وفرة المياه .

(١٠) وردت فى المخطوطين هكذا : «سحل» وهو تحريف . والمقصود هو «سنجيل» . وهو اسم آخر لنهر شنيل الذى تقع عليه غرناطة ، وسيجرى التعريف به .

(١١) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» يعيد .

واختصّت من أشجار العاريات ذاتِ العصير الثانى بهذا الصُّقع(١) ، ما قصَرت عنه الأقطار . وهذا الوادى من محاسن هذه الحَضْرة ، ماؤه رقراق من ذوب الثلج ، ومُجَاجة الجَليد(٢) ، وممرُّه على حصًى جوهرية ، بالنبات والظلال محفوفة ، يأتى من قِبْلة علام البلد إلى غرْبه ، فيمر بين القصور النَّجْدية ، ذوات المناصب الرفيعة ، والأعلام الماثلة .

ولأهل الحضرة بهذه الجَنّات كَلَفٌ ، ولذوى البطالة فوق نهره أريك من دَمَث الرمل ، وحجال من مُلْتَفِّ الدَّوْح ، وكان بها سطرٌ من شجر الحُور ، تُنسب إلى مامل ، أحد خدام الدولة الباديسية(٣) ، أدركنا المكان ، يُعرف بها .

قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسّان :

أحنُّ إلى غَرْناطة كلما هَفّت ... نسيمُ الصَّبا تُهدى الجَوَى وتشُوق
سقى الله من غَرْناطة كل مَنْهل ... بمَنْهل سُحبٍ ماؤهُنَّ هَريق
ديارٌ يدور(٤) الحسن بين خيامها ... وأرضٌ لها قلبُ الشَّجىِّ مَشُوق
أغَرْناطة العليا بالله خبّرى ... أَلِلْهائم الباكى إليك طريق
وما شاقنى إلا نضارةُ منظر ... وبهجةُ واهٍ لِلعُيون ترُوق
تأمَّل إذا أمَّلت حَوْز مُؤَمَّلٍ ... ومُدَّ من الحَمْرا عليك شقيق
وأعلامُ نجدٍ والسَّبيكة قد علت ... وللشَّفق الأعلى تلوحُ بُروقُ

(١) وردت فى المخطوطين : «السقع» وهو تحريف أو رسم مغربى لكلمة «الصقع» .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» الجليل .
(٣) أومؤمل نسبة إلى باديس بن حبوس الصنهاجى الملقب بالمظفر . وقد حكم غرناطة وأحوازها عقب الفتنة البربرية من ٤٢٨ — ٤٦٧ هـ . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .
(٤) وردت فى المخطوطين : ديور .

وقد سلّ شنيلٌ(١) فرنداً مهنّداً نضى فوق دُرّ ذُرّ فيه عقيقُ
إذا نمّ منه طيبُ نشرٍ أراكه أراكَ فتيت المسك وهو فتيقُ
ومهما بكى جفنُ الغمام تبسمت ثغورُ أقاحٍ للرّياض(٢) أنيق

ولقد وَلِعت الشعراء بوصف هذا الوادى ، وتغالت الغالات فيه ، فى تفضيله على النيل بزيادة الشّين ، وهو ألفٌ من العدد ، فكأنه نيلٌ بألفِ ضِعفٍ ، على عادة متناهى(٣) الخيال الشعرى ، فى مثل ذلك .

ولقد ألغزْتُ فيه لشيخنا أبى الحسن بن الجيّاب(٤) ، رحمه الله ، وقد نظم فى المعنى المذكور ما عظُم له استِطْرابُه وهو :

ما اسمٌ إذا زدْته ألفاً من العَدَد أفادَ معناه لم ينقُص ولم يَزِد
وإنما ائتلفا(٥) من بعد ما اختَلفاَ مَعْنى بشينٍ ومن نزرٍ ومن بَلدِ

ثم يتصل بالحسن العادى البديع، وهو على قسمين ، نخسٌ من مُحْكم الكدان [فى نهاية الإبداع والإحكام يتّصل به بناء قديم مُحكم ، ويستَقْبل المَلْعب](٦) ،

---

(١) شنيل ، وبالإسبانية Genil و Xenil ، وهو النهر الذى تقع عليه غرناطة . ويسمى أيضاً عند الأندلسيين بنهر سنجيل ، مشتقاً من اسمه اللاتينى Singilis . وشنيل هو أحد فروع نهر الوادى الكبير . وقد كانت ضفافه أيام الدولة الإسلامية غاصة بالحدائق الغناء . ولكنه اليوم يغلب عليه الجفاف ، وقد عفت الخضرة عن شاطئيه . وقد رأيناه غير مرة ، وقد كاد قاعه يخلو من الماء .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (فى الرياض)

(٣) وردت فى المخطوطين : «متناف» . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هو الرئيس ذو الوزارتين أبو الحسن على بن الجياب من أقطاب الشعر والكتابة (٦٧٣ – ٧٤٩ هـ) . وكان ابن الخطيب من تلامذته ومعاونيه فى ديوان الإنشاء . ويترجم له ابن الخطيب فيما بعد ويسميه «شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ» . وقد نقل المقرى ترجمته من الإحاطة ، وأورد له كثيراً من النثر والنظم (نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٦ – ٢٤٥) .

(٥) وردت فى المخطوطين : «استلفه» ، والتصويب من «ت» .

(٦) من بين الحاصرتين وارد فى «ت» والملكية فقط ، وساقط فى المخطوطين .

العيدِى ، ما بين ذُنابى[١] الجسر إلى جدار الرّابطة ، وملعب بديع الشكل ، عن يمينه جناحٌ بديع ، عن ميدانه عُدْوات النهر ، وعن يساره الجُنّات[٢] ، ويُفْضى بعد انتهائه إلى الرّابطة ، إلى باب القصر المنسُوب إلى السيّد[٣] ، وسيأتى ذكره ، ويرتفع من هذا النهر الزُلال جداولُ ، تدور بها أعداد من الأرْحىٍ[٤] لا نظير لها استعداداً وإفادة .

(١) وردت فى المخطوطين : دنابى . وأغفلت فى « ت » .

(٢) يبدو من هذه الأوصاف المضطربة نوعاً أنه يقصد بالوصف البقعة الواقعة فى جنوب شنيل تجاه غرناطة والتى تسمى اليوم أرمليا Armilla (أرملة القديمة) ، والملعب القديم الذى كان بها . وهى ما تزال تحتفظ ببقية صغيرة من القصر المشار إليه فيما بعد .

(٣) قصر السيد هو أحد القصور الملكية التى بنيت خارج غرناطة أيام الموحدين . أنشأه « السيد » أبو إسحق بن يوسف الموحدى والى غرناطة سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) . وفى أيام ملوك بنى نصر كان يستعمل قصراً للضيافة . وقد بقيت منه إلى اليوم بقية صغيرة تتكون من عقد مدخل ، وبهو صغير مربع ذى قبة عالية ، وقد نقشت على جوانبه أدعية مختلفة يتخللها شعار بنى نصر «ولا غالب إلا الله» . ويعرف اليوم بين الآثار الغرناطية باسم «قصر شنيل» Alcazar Genil وذلك لموقعه فى بقعة أرمليا الواقعة على ضفة نهر شنيل .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «ت» الأراحة . وهو تحريف .

فصـــل

وتَرْكبُ ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث ، الكُرُوم البديعة ، طوْقاً مرقوماً ، يتصل بما وراءها من الجبال ، فتعمّ الرُّبى والوهاد ، وتشملُ الغُورَ والنَّجْد ، إلا ما اختصّ منها بالسّهل الأفيح[١] ، متّصلا بشرْقى باب إلْبيرة[٢] ، إلى الخَنْدق العميق ، وهو المسمى « بالمشايخ » ، بسيط جليل ، وجَوّ عريض ، تغص على العَدّ أمراجه[٣] ومصانيعه ، تلوحُ مبانيها ، ناجمَةً بين الثّمار والزيتون ، وسائر ذوات الفواكه ، من اللّوز والإجاص والكمثرى ، مُحْدَقة[٤] من الكروم المُسِحّة ، والرياحين الملْتفة ، ببحور طامية تأتى البُقْعة الماء ؛ ففيها كثير من البساتين والرياض ، والحصون[٥] ، والأملاك المتّصلة السكنى ، على الفُصُول ؛ وإلى هذه الجهة يشيرُ الفقيهُ القاضى ، أبو القاسم بن أبى العافية ، رحمه الله ، فى قصيدة ، يجيب بها عروس الشعراء ، الأديب الرّحال أبا إسحاق السّاحلى ، وكان ممن رُبِطَتْ عليه بهذا العهد[٦] ، التّمائم :

يانازحاً لعِب المَطِىُّ بكُوره	لعِبَ الرِّياح الهُــوج بالأُمْلود
ورمَت به للدِّاية القُصْوى التى	ما وِرْدُها لسـواه بالمَوْرُود
هلاّ حَنَنْتَ إلى مَعــاهدنا التى	كُنْتَ الحُلِىّ لنَحْرها والْجِيد

---

(١) وهو الفحص La Vega الذى سبق التعريف به .

(٢) باب إلبيرة ما يزال باقياً حتى اليوم . وقد سبق التعريف به .

(٣) هكذا فى المخطوطين وفى « ت » والملكية (أفراجه) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : عرت .

(٥) فى المخطوطات الثلاث : الرياضة والحصن وهو تحريف .

(٦) وردت فى المخطوطين : المعهد ، والعهد أرجح .

ورياضُ أُنْس بالمشـــايخ(١) طارَحَتْ فيه الحَمائمُ صَوْتَ سَجْعَ(٢) العُودِ
ومَبيتُنا فيهـا وصَفْوُ مُدامِنـا صَفْو المَوَدّة لابْنةِ العُنْقُــودِ
والعيشُ أخضرُ والهوى يُدْنى جَنَى زهَــرات ثغرٍ أو ثِمـار نُهُودِ
والقُضْبُ رافلةٌ يُعـانق بعضُهـا بعضاً إذا اعتنَقت غُصُون قُدُودِ
لَهفِى على ذاك الزمان وطِيبه(٣) وعلى مُنــاه وعَيْشِه المَحْسُود
تلك الليـــالى لا ليــالى بعدها عُطِّلْن إلا من جَوًى ومُهُود
كانت قِصَارًا ثم طُلْن فيهـــا تأتى على المَقْصُــور والمَمْدُودِ

وأما ما استند إلى الجبل ، فيتصل به البيازين فى سَفْح الجبل ،المتصل بالـكُدية ابن مَعْد ، مُتّصلا بالـكُدية المُنْبصِلة ، المنسوبة لعَيْن الدَّمع(٤) ، منعطفةً على عَيْن القِبْلة ، متصلةً بجبل الفخّار(٥) ، ناهِلةً فى غمر المـاء المجلوب على ذلك السَّمْت ؛ أوضاعٌ بديعة ، وبساتينُ رائقة ، وجنّاتُ لا نظير لها ، فى اعتدال الهواء ، وعذوبة الماء ، والإشْراف على الأرجاء ، ففيها القصور المحروسة ، والمنارة المَعمورة ، والدُّور العالية ، والمبانى القصَبيّة(٦) ، والريَّاحين النَّضيرة ، قد فضَّ فيها أهل البطالة ، من

---

(١) هو الاسم الذى كان يطلق على السهل الأخضر المتصل بالفحص كما تقدم فى السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين محرفة : (سحم . سبح) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» . وهى ساقطة فى «ك» .

(٤) عين الدمع هى بقعة من ضواحى غرناطة ، كانت أيام المسلمين متنزها بديعاً ، إذ كانت تغص بالمروج والحدائق الغناء . ويبدو من وصف ابن الخطيب أنها كانت قريبة من سفح جبل الفخار . واستمرت هذه البقعة بعد سقوط غرناطة أيام الموريسكيين تحتفظ ببقية من سحرها القديم . وكانت عندئذ تسمى « عين الدمعة » ويشغل موقعها سطح تلال البيازين التى تطل على المرج . ويطلق عليها اليوم بالإسبانية **Dinadamar, Aindamar** . ومكانها القديم يقع اليوم فى دائرة لاكارتوخا **La Cartuja** (راجع **Simonet; Descripcion, ibid. p. 69**)

(٥) هو إحدى شعب جبال سيرا نفادا المشرفة على غرناطة ويسمى اليوم **Monte Alfacar**

(٦) أعنى مثل القصبة وهى الحصن ، أو القصر فى لغة الخطط الأندلسية .

أولى الخبرة، الأكياس، وأرخصوا على النفقة عليها، غالى النشب[١]، تتنازع[٢] فى ذلك غير[٣] الخادمين، من خدام الدولة على مر الأيام، حتى أصبحت نادرة الأرض، والمثل فى الحسن. ولهذه البقعة ذكر يجرى فى المنظومات على ألسنة البلغاء من ساكنيها وزوارها، فمن أحسن ما مر من ذلك قول شيخنا أبى البركات[٤]:

ألا قل لعين الدمع يهمى[٥] بمقلتى ... لفرقة عين الدمع وقفاً على الدم

وذكرته فى قصيدة فقلت:

ياعهد عين الدمع كم من لؤلؤ ... للدمع [جاد به][٦] عساك تعود
تسرى نواسمك اللدان بليلة ... فيهزنى شوق إليك شديد

وقلت من أبيات تكتب فى قبة بقصرى الذى اخترعته بها:

إذا كان عين الدمع عيناً حقيقة ... فإنسانها ما نحن فيه ولادع[٧]
فدام لخيل الأنس واللهو ملعباً ... ولا زال مثـواه المنعم مرتع
تود الثريا أن تكون له ثرى ... وتمدحه الشعرى وتحرسه المع

وقال صاحبنا الفقيه أبو القاسم بن قطبة[٨] من قصيدة:

أجل إن عين الدمع قيد النواظر ... فسرح عيوناً فى اجتلاء النواظر
وعرج على الأوزان إن كنت ذا هـوى فإن رباه[٩] مرتع للجآذر

---

(١) النشب أعنى المال والعقار.

(٢) فى المخطوطين: يتنازعوا. وكذا فى الملكية.

(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج»، غين.

(٤) هو أبو البركات بن الحاج البلفيقى من شيوخ ابن الخطيب. وسوف يترجم له فيما بعد بإفاضة.

(٥) هكذا فى «ج». وفى الملكية (تهمى)

(٦) هكذا وردت فى «ج». وفى الملكية (جرت)

(٧) وفى نص «ولا دعوى». وفى الملكية (دعو)

(٨) وردت فى «ج» (قرطبة) والتصويب من الملكية.

(٩) وردت فى «ج» رياه، وفى «ك». مرآة. والتصويب من «ت».

وصافِح بها كفَّ النهار مُسَلِّماً وقبِّلْ عِذارَ الأُنْس بين الأزاهِر

وخُذْها على تلك الأباطِح والرُّبى مُعتَّقةً تجْلو الصَّدَا لِلخواطر

مُدَامَةُ حان أنسا(١) الدهرُ عُمْرَها فلم تخشَ أحْدَاثَ الدُّهور الدّوائر

تحدِّثُ عن كسرى وساسان قبْله وتخبر عن كَرْم يخلَّدُ داثرُ

وهى طويلة . وقال أيضاً من قصيدة طويلة :

وليلًا بعين الدمع وصْلًا قطعتُه وأنْجُمه بين النُّجُوم سُعُود

ترى الحُسْنَ منشور اللواءْ بِسِره وظلُّ الأمانى فى رُباه مَدِيد

فبِتْنا ومن رَوْض الخُدُود أزاهرٌ لدَيْنا ومن وَرْد الرِّياض خدُود

وتُفّاحُنا وسْط الرِّياض مُوَرَّدٌ ورُمَّانُنا وسْط الصُّدور نُهُود

وقد عَرَفت نصَّ الهوى وذميلَه تهايمُ من أكْبادنا ونجودُ

وقال من قصيدة :

ومِلْ بنا نحو عين الدمع نشرَبُها حيث السُّرور بكاس الأُنْس يَسْقينى

حيثُ المنى وفنونُ اللّهو راتِعَةٌ والطَّيْرُ من طرَبٍ فيها تُناجِينى

وجَدولُ الماء يحكى فى أجِنَّتِه صَوَارماً جُرِّدت فى يوم صِفّين

وأعْيُنُ الزهر فى الأغصان جاحظهٌ كأنها بهَوى الغِزْلان تُغْرِينى(٢)

ومن ذلك :

سهرت بعين الدمع أرْعَى ربُوعَه وحَسْبى من الأحْبَابِ رَعْىُ المنازل

يُنافِحُنى عَرْفُ إذا هَبَّتْ الصَّبَا ويقنِعُنى طيفُ الحبيب المُرَاسل

(١) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (انس) .

(٢) فى مخطوط الخزانة الملكية تنتهى القافية بحرف الألف على النحو الآتى : يسقينا ، تناجينا .. الخ .

والأقاويل فى ذلك أكثرُ من أن يُحاط بها كثرة ؛ وما سوى هذه الجهة فغير لاحق بهذه الرُّتبة ، مما مُعَوَّلُه[(١)] على مَحْض الفائدة [وصريح العائدة][(٢)] . وتنهب هذه الغُروس المغروسة قِبْلَةً ، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة ، وقد تركت بها الجبال الشَّاهقة ، والسُّفوح العريضة ، والبطون الممتدة ، والأغوار الخائفة ، مكلَّلة بالأعناب ، غاصَّة بالأدواح ، متزاحمة بالبيوت والأبراج ، بلغ إلى هذا العهد عددُها فى ديوان الخِرْص[(٣)] ، إلى ما يناهز أربعة عشر ألفاً ، نقلْت ذلك من خَط من يُشار إليه فى هذه الوظيفة ، وقاها الله مَضَرَّة السنين ، ودفع عنها عُباب[(٤)] القوم الظَّالمين ، وعُدْوان الكافرين .

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» معوضه . والأولى أصلح للسياق .

(٢) هذه العبارة واردة فى «ك» . وساقطة فى «ج» .

(٣) كان ديوان الخرص فيما يبدو هو الديوان المختص بحصر الأملاك وغلاتها وتقرير الضرائب عليها .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «ج» عياب .

فصـــل

ويحيط بما خَلْف السُّور من المُنى[١] ، والجَنَّات ، فى سهل المدينة ، العَقار الثمين[٢] ، العظيم الفائدة ، المتعاقبة الغَلَّة ، الذى لا يعرف الجِمام ، ولا يفارق الزَّرع من الأرض البيضاء ، ينتهى ثمن المَرْجع منها العَلى ، إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العَيْن ، لهذا العهد فيه مُسْتَخْلصُ السلطان[٣] ، ما يضيق عنه نِطاق القيمة ، ذَرْعاً وغِبطة وانتظاماً ؛ يرجع إلى دور ناجمة[٤] ، وبُرُوج سامية ، وبَيَادر فسيحة ، ومصابٍ للحمايم والدّواجن ماثلة ، منها فى طَوْق البلد ، وحمى سُورها ، جُمْلةٌ ؛ كالدّار المنسوبة إلى هُذَيل ، والدار المنسوبة إلى أم مرضى ، والدار البيضاء[٥] ، والدار المنسوبة إلى السَّنينات ، والدار المعروفة بِنبِيلْة وَوَتَر ؛ وبالمَرْج ما يُسايِر جَرْية النَّهر كقرية وكر وبها حصن خريز[٦] ، وبستان وبشرعيون ، والدار المنسوبة إلى خَلَف ، وعَيْنُ الأبراج ، والحُشُّ[٧] المنسوب إلى الصِّحاب ؛ وقرية رُومَة وبها حصنٌ وبستان ، والدار المنسوبة إلى العَطْشِى ، وبها حصن ؛ والدار المنسوبة لابن جُزى ، والحُشُّ المنسوب لأبى على ؛ وقرية ناجرة ، ومنها فضل بن مَسْلمة الحَسَنى ، وبها حصن ، وحوله[٨] رَبَض ، فيه من الناس أُمَّة ؛ وقرية سِنْيانة وفيها حصن ؛ وقرية أشـكُر ؛ وقريتى بِيبش وواط ، وبهما حصنان ؛ وقرية واطْ عبد الملك بن حبيب . وفى هذه القُرى الجُمَلُ الضخمة من الرجال ، والفُحول من الحيوان الحارث

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» . وهو جمع منية .

(٢) فى «ك» و «ج» الثمن .

(٣) سبق التعريف به . أنظر الحاشية فى ص ١١٦

(٤) وردت فى المخطوطين : ناحة .

(٥) الدار البيضاء مكانها اليوم فى غرناطة الحى المسمى Cuarto real de San Domingo

(٦) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (جرين) .

(٧) الحش بالفتح وبالضم معناه البستان . وجمعه حشان .

(٨) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» . وحوطه .

لآثار الأرض ، وعلاج الفلاحة ، وفى كثير منها الأرْحَى والمساجد[١] . وما سوى هذه من القرى ، المُسْتَخْلَصُ من فَضْلَةِ الإقْطاع ، وقَصَرت به الشهرة عن هذا النَّمَط ، فكثيرٌ .

ويتخلل هذا المتاع الغبيط[٢] الذى هو لُباب الفلاحة ، وغير هذه المَدَرة[٣] الطيِّبة ، سائر القرى التى بأيدى الرعية ، مجاورة لهذه الحدود ، وبنات لهذه الأمهات . منها ما انبسط وتمدَّد ، فاشترك فيه الألوف من الخلق ، وتعددت منه الأشكال ، ونحن نوقع الإسم منه على البُقْعة من غير ملاحظة للتَّعَدُّد . ومنها ما انفرد بمالكٍ واثنين فصاعداً ، وهو قليل ، وتَنيف أسماؤها على ثلاث مائة قرية ما عدا ما يجاور الحَضْرة من كثير من قـرى الإقليم أو ما استضَافَتْهُ حدودُ الحصون المجاورة *

فمن ذلك حَوْز الساعدين[٤] وفيه القرى ، وحَوْز وَتَر[٥] ومنها إبراهيم بن زيد

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : (الأرجل ، الأرحل والمساجد) .

(٢) الغبيط . أى الذى يغبط ويتمنى مثله .

(٣) المدر هو الطين وهو جمع مدرة ، والمدرة أيضاً بمعنى القرية .

* يورد ابن الخطيب فيما يلى أسماء نحو مائة وأربعين قرية ومحلة من قرى ولاية غرناطة القديمة . منها ما هو قريب من الحضرة أى غرناطة ، ومنها ما هو بعيد عنها أو واقع حولها . ولما كان كثير من هذه القرى والأماكن الأندلسية القديمة ما يزال قائماً حتى اليوم ، بعد أن استحالت إلى قرى إسبانية نصرانية ، واستحالت أسماؤها إلى أسماء أوربية ، ولما كان من المفيد لدراسة التاريخ الأندلسى والجغرافية الأندلسية أن نقف على الأسماء الإسبانية الحديثة لما بقى منها ، وأن نعرف فى نفس الوقت ما دثر منها ؛ لذلك رأيت أن أتولى مهمة التعريف بها وبأسمائها ، وأن أتقصى مواقعها على الخرائط الخاصة. وقد وفقت بعد جهد شاق إلى التعريف بكثير منها ، وتعيين مواطنها . وسنذكرها تباعاً فيما يلى كلا منها تحت رقمه وفق الترتيب الذى أوردها به ابن الخطيب ، مع ذكر مواقعها وأسمائها الإسبانية ؛ مع العلم بأن كثيراً منها قد دثر اليوم . وهذه تركناها دون ترقيم .

(٤) هو اليوم المكان المسمى El Zaidin وهو يقع فى جنوب غرناطة بجوار قرية Huetor المذكورة بعد .

(٥) هى القرية المسماة Huetor de le Vega وهى ضاحية فى جنوب شرق غرناطة.

المحاربى ؛ وقرية قُلْجار(١) ؛ وقرية ياجُر الشاميّين ، وقرية ياجُر البلَدِيين(٢) ، وقرية قَشْتالة(٣) ، ومنها قاسم بن إمام من أصحاب سُحْنُون ، ونزل بها جده عطية بن خالد المحاربى ؛ وقرية أججَر(٤) ؛ وقرية أرمِلة الكبرى ؛ وقرية أرْمِلة الصغرى(٥) ؛ وقرية رِقاق وَهَمْدان(٦) ، منها الغريب بن يزيد الشِّمر جدُّ بنى أضحى ؛ وقرية الغَيْضُون ؛ وقرية لسّانة(٧) ؛ وحارة الجامع ، وحارة الفِراق ؛ وقرية غُرليانة ؛ وحُشُّ البُكُر(٨) ؛ وغدير الصغرى وغدير الكبرى ، من إقليم البَلاط ، منها يُرْبوع بن عبد الجليل ، ونزل بها جده يربوع بن عبد الملك بن حبيب ؛ وقرية قولر(٩) ؛ وقرية جُرلْيانه(١٠) ؛ وقرية حارة عمروس(١١) ؛ وحُشُّ الطّلم(١٢) ؛

---

(١) هى قرية Cojar الواقعة جنوب غرناطة فى الضفة الأخرى لنهر شنيل .

(٢) أحد الإسمين ينطبق اليوم على ضاحية Yajar الواقعة فى نهاية « الزاوية » La Zubia على مقربة من غرناطة .

(٣) هى قرية Gastella القديمة وقد دثرت اليوم .

(٤) أحجر إذا كانت بالحاء فالمرجح أنها Hijar الحديثة وهى تطلق اليوم على قرية تقع بجوار قولر Cullar Vega الآتى ذكرها . وإذا كانت أججر أو أجيجر وهو ما نرجحه فإنها تكون Ugijar الحديثة وهى تقع جنوبى شرقى الولاية ، وجنوب وادى آش .

(٥) هاتان القريتان تجتمعان اليوم تحت اسم واحد هو Armilla (أرمليا) وهى ضاحية غرناطة على ضفة شنيل الجنوبية ، وبها بقية قصر السيد المشهور باسم قصر شنيل Alcazar Genil

(٦) رقاق وهمدان هما اليوم قرية Alhendin الواقعة جنوب شرقى أرمليا .

(٧) لسانة ربما كانت هى اللسانة المشهورة فى حروب غرناطة الأخيرة . وهى اليوم Lucena الحديثة وهى تقع فى نهاية الولاية شمال غربى لوشة . وقد تكون قرية صغيرة أخرى على مقربة من غرناطة .

(٨) حش البكر ربما كان موضعه اليوم القرية المسماة Bucor ، وهى شمال غربى غرناطة على مقربة من قربسانة الآتى ذكرها .

(٩) وقرية قولر هى اليوم Cullar Vega الواقعة فى جنوب غربى غرناطة .

(١٠) وجرليانة هى Churriana de la Vega الواقعة أيضاً فى جنوب غربى غرناطة وجنوب شرقى سانتافيه .

(١١) وحارة عمروس هى اليوم قرية Ambrox وهى تقع بجوار جرليانة .

(١٢) وحش الطلم مكانه اليوم قرية Macharatalan الواقعة فى مرج غرناطة على ضفة شنيل ، وتقابل حى Sagrario الحديث فى غرناطة .

وقرية المطار ؛ وقرية الصِّرمُورتة(١) ؛ وقرية بِلسانة(٢) ؛ وقرية الجِبْشان ؛ وقرية الشوش(٣) ؛ وقرية عَرْتَقَة ؛ وقرية جيجانة(٤) ؛ وقرية السِّيجة ؛ وقَنْب قَيْس(٥) ؛ وقرية بِرْذَنار(٦) ؛ وقرية دوير تارش ؛ وقرية آقلة(٧) ؛ وقرية أحجر(٨) ؛ وقرية تجَرْجُر(٩) ؛ وقرية والة ؛ وقرية أنْقر ؛ وقرية الغُرُوم(١٠) ؛ وقرية دار وهْدان ؛ وقرية بيرة(١١) ؛ وقرية القُصَيْبة ؛ وقرية أنطس ؛ وقرية فَنْتِيلان(١٢) ، وقرية سنبودة ؛ وحُش زَنْجيل ؛ وقرية أشتر ؛ وقرية غسّان(١٣) ، منها مطر بن عيسى بن الليث ؛ وقرية شَوْذر(١٤) ؛ وقرية سُنْتشر(١٥) ؛ وقرية ابن ناطح ؛

---

(١) قرية الصرمورته هى Sierra Murada وموقعها فى شمال غربى غرناطة .

(٢) قرية بلسانة (وقد رسمت بايسانة خطأ فى المخطوطين) هى Belicena الحديثة الواقعة غربى غرناطة بجوار سانتافيه .

(٣) وقرية الشوش هى اليوم على ما يرجح قرية El Jau الحديثة الواقعة فى المرج قرب سانتافيه

(٤) وقرية جيجانة هى Chauchina الحديثة ، وهى تقع شمال غربى سانتافيه .

(٥) وقنب قيس هى Cambea

(٦) وقرية برذنار (وقد رسمت محرفة ، برذنام فى «ك») هى Beznar الحديثة وهى تقع جنوبى غرناطة على بعد نحو خمسين كيلومتراً منها .

(٧) وآقلة هى Acula

(٨) وأحجر هى فى اعتقاد البعض تحريف لكلمة «الحجر» وهى اليوم قرية Lachar الحديثة الواقعة بين تجرجر والعقولة .

(٩) وقرية تجرجر هى اليوم Tajarija ، وهى محلة صغيرة تقع فى غربى غرناطة فى منتصف الطريق بينها وبين لوشة .

(١٠) وقرية الغروم هى Agron الحديثة ، وهى تقع على نحو أربعين كيلومتراً من جنوب غربى غرناطة على مقربة من الحامة .

(١١) وقرية بيرة هى Baira الحديثة .

(١٢) وقرية فنتيلان هى إما Fontanar أو Fuentallana الحديثة .

(١٣) وغسان هى اليوم قرية Cacin الحديثة ، وهى تقع فى نهاية المرج فى سفح جبل الحامة

(١٤) وشوذر هى Jodar الحديثة ، وهى غير بلدة شوذر التى تقع شمال غرناطة ، وهى من أعمال ولاية جيان .

(١٥) وسنتشر ربما كانت بلدة Conchar الواقعة جنوب غرناطة .

وقرية الملاّحة(١)، ومنها محمد بن عبد الواحد الغافقي أبو القاسم الملاحي ؛ وقرية القُمُور ، منها أصْبَغ بن مطرِّف ؛ وقرية نفجر وغرنْطِلة(٢) ؛ وقرية بيرَة وبها مسجد قراءة ابن حبيب ؛ وقرية قُولُجَر(٣) ، منها سهلُ بن مالك ؛ وقرية شور(٤) ، منها محمد بن هانىء الأزدى الشاعر المُفلق ، ومحمد بن سهل جَدُّ هذا البيت ، بنى سهل بن مالك ؛ وقرية بُلْيانة(٥) ؛ وقرية بِرقلش(٦) ؛ وقرية ضُوجر(٧) ؛ وقرية البَلُّوط(٨) ؛ وقرية أنِتيانة(٩) ؛ وقرية مُرْسانة(١٠) ؛ وقرية الدُّوَير ؛ وقرية الشَّلان ؛ وقرية طِغْنَر(١١) ، منها الطِّغنرى صاحب الفلاحة ؛ وقرية حُش الدجاج ؛ وقرية حُش نوح ؛ وقرية حُش خليفة ؛ وحُش الـكَوبانى(١٢) ؛ وحُش المعيشة ؛ وحُش السلسلة ؛

---

(١) والملاحة هى قرية La Mala الحديثة . وهى واقعة جنوب غرناطة على مقربة من همدان Alhendin

(٢) وقرية نفجر وغرنطلة هى اليوم Naujar Grandilla وربما كانت هى غوبلجر الآتية الذكر

(٣) وقولجر هى قرية Gojar الواقعة جنوبى غرناطة على مقربة من ضاحية أرمليا .

(٤) وقرية شور وقد تكون أيضاً شون ، هى اليوم بلدة Jun الواقعة شمال غرناطة ومن ضواحيها . ويسميها آسين بلاثيوس « جند » .

(٥) وبليانة هى اليوم كاسمها القديم Pulianas ، وتقع بجوار قرية شور على مقربة من غرناطة .

(٦) وبرقلش هى اليوم قرية Peligros الواقعة بجوار بليانة المتقدمة . وقد وردت محرفة فى الملكية (برقاش) .

(٧) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (قوجر) .

(٨) وقرية البلوط هى اليوم Albolote الواقعة قبالة بليانة وبرقلش ، على مقربة من غرناطة .

(٩) وقرية أنتيانة ربما كانت Fontanar الحديثة .

(١٠) ومرسانة هى قرية Maracena الحديثة الواقعة شمال غربى غرناطة ومن ضواحيها .

(١١) وقرية طغنر Tignar (وقد وردت محرفة فى المخطوطين ، طمن) كان موقعها شمال غربى غرناطة على مقربة من إلبيرة ؛ ولعلها دثرت إذ لم نجد موقعها بالخرائط .

(١٢) فى الأسماء الثلاثة الأخيرة وردت كلمة «حبش» قبل كل منها فى المخطوطين . ولكنا نرجح أنها «حش» جرياً على ما تقدم .

وقرية الطرْف[١] ؛ وقرية إلْبيرة[٢] ؛ وقرية الشَّكرُوجة[٣] ومنها عيسى بن محمد بن أبي زَمَنين ؛ وعين الحُورَة ؛ وحُش البُومل ؛ وقرية بلومال[٤] ؛ وقرية رقّ المَخيض ؛ وقرية الغَيْضُون الحُورَة ؛ وقرية أشقُطمر ؛ وقرية الدَّيمُوس الكبرى ؛ وقرية الديموس الصغرى[٥] ؛ وقرية دار الغازى ؛ وقرية سُويدة ؛ وحُش قَصِيرة ؛ وقرية الرُّكن ؛ وقرية ألْفَنت[٦] ، ومنها صَخْر بن أبان ؛ وقرية الكُدْية[٧] ؛ وقرية لاقِش[٨] ؛ وقرية قَرْبَسَانه[٩] وقرية بُرْسانة برياط ؛ وقرية الوَلْجة ؛ وقرية ماس ؛ وحُش على ؛ وحُش بنى الرُّسيلية ؛ وحُش رقيب ؛ وحش البَلُّوطة ؛ وحش الزَّوَّاس ؛ وحُش مَرْزُوق ؛ وقرية قُبَالة[١٠] ؛ [وقرية نِبَالة][١١]، وقرية العَيْران[١٢] ؛ وبرْج هِلال[١٣] ؛ وقرية قلتيش[١٤] وقرية القنار[١٥]؛ وقرية أرْبل ؛

---

(١) وقرية الطرف تحمل اليوم نفس اسمها القديم Atarfe وتقع على مقربة من مرسانة المتقدمة الذكر .

(٢) وقرية إلبيرة هي اليوم بلدة Elvira وتقع على مقربة من الطرف ، وهى مثلها من ضواحى غرناطة وهى غير إلبيرة القديمة .

(٣) وقرية الشكروجة هى اليوم Asquerosa الحديثة .

(٤) وبلومال هى اليوم قرية El Palomar الواقعة جنوبى ولاية غرناطة بقرب مدينة Albonol قرب شاطىء البحر المتوسط .

(٥) والديموس الكبرى والديموس الصغرى ، هما اليوم بلدة واحدة تحمل اسم Adamuz أو Adamucejo, وتقع على مقربة من غرناطة .

(٦) وألفنت هى Daifontes الحديثة ، وهى تقع شمالى غرناطة على نحو عشرين كيلومتر منها.

(٧) وقرية الكدية هى Alcudia الواقعة جنوب شرق وادى آش .

(٨) لاقش هى اليوم الحى الغرناطى المسمى La Cruz de Lagos ، وهو فى ضاحية غرناطة يبعد عنها نحو كيلومتر ونصف .

(٩) وقرية قربسانة (وقد وردت محرفة فى « ج » ، قرسانة) هى اليوم بلدة Caparacena الحديثة ، وتقع غربى غرناطة على فرع نهر شنيل .

(١٠) وقرية قبالة هى Cubillas الحديثة .

(١١) هذا الاسم وارد فى «ج» . وفى الملكية .

(١٢) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (العيران) .

(١٣) وبرج هلال هى اليوم قرية Purchil الواقعة غربى غرناطة على قيد نحو ثلاثة كيلومترات منها .

(١٤) وقرية قلتيش هى Cortes الحديثة . وتقع غربى مدينة وادى آش .

(١٥) وقرية القنار هى بلدة Canar الحديثة . وتقع شمال مدينة أرحبة برذنار .

وقرية بَرْبل، وقرية قُرْباسة[١]، وقرية أشكن، وقرية قَلَنْبيرة[٢]، وقرية سَمَدى، وقرية قلقاجج[٣]، وقرية فَتَن[٤]، وقرية مرنيط، وقرية ددشطر، وقرية شِمَا نِس[٥]، وقرية أُرنالش[٦]، وقرية وابشر[٧]، وقرية قَقْلُولِش[٨]، وقرية النَّبيل[٩]، وقرية الفخّار[١٠]، وقرية القصر[١١]، منها محمد بن أحمد بن مرعياز الهلالى، وقرية بشر، وقرية بُنُوط[١٢]، وقرية كورة، وقرية كَصْ، وقرية بِيَش[١٣] وقرية قَنْتر[١٤]، وقرية دور، وقرية قَلنقر، وقرية غُلْجُر[١٥]، ومنها هشام بن

---

(١) وفى «الملكية» برباسة. وقرباسة ربما كانت هى قربسانة، وردت مكررة وقد سبق ذكرها.

(٢) وقرية قلنبيرة هى بلدة Colomera الحديثة، وهى تقع فى شمال غرناطة على قيد نحو ثلاثين كيلو متراً منها، وعلى مقربة من بلدة موكلين.

(٣) وقرية قلقاجج هى فيما يرجح بلدة Calicasas الحديثة، وتقع شمال غرناطة، وشرق بلدة قربسانة.

(٤) وقرية فتن ربما كانت Fatinafar الحديثة.

(٥) وشَمانس هو تحريف لكلمة Sietemanos ومعناها الأيدى السبعة.

(٦) وأرنالش هى Arnales الحديثة.

(٧) وابشر هى وفقالسيمونيت Guejar الحديثة، وهى واقعة فى شمال شرق غرناطة فى المجموعة التى منها قلقاجج Calicasas وبرقلش Peligros والفخار Alfacar. ويرى بلاثيوس أن Guejar هى وجار

(٨) وقفلولش هى بلدة Gogollos الحديثة، وهى تقع شمال غرناطة على مقربة من Calicasas

(٩) وقرية النبيل هى بلدة Nivar الحديثة، وهى تقع شمال غربى غرناطة بين قفلولش والفخار.

(١٠) والفخار هى بلدة Alfacar الحديثة، وهى تقع شمال شرق غرناطة فى دائرة المجموعة السابقة، وقد سميت بذلك لأنها تقع على سفح جبل الفخار.

(١١) وقرية القصر هى Alcazar، وهى تقع بعيداً عن غرناطة فى الجنوب الشرقى على مقربة من أرحبة Orgiva

(١٢) وقرية بنوط هى بلدة Pinos Puente أو Fent - Binox الحديثة، وهى واقعة على مقربة من قربسانة والبلوط.

(١٣) وقرية بيش هى التى تعرف اليوم باسم Beas، وتقع فى شمال شرق غرناطة على مقربة من مجموعة الفخار وبرقلش.

(١٤) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك» قتن. ومقابلها الحديث Quentar

(١٥) وغلجر هى فيما يرجح قلجر Cojar. وهى حسبما تقدم من ضواحى غرناطة الجنوبية. وتقع على مقربة من ضاحية الزاوية La Zubia الآتية الذكر.

عبد العظيم بن يزيد الخَوْلانى ؛ وقرية ذُرذَر(١) ؛ وقرية ولجر ؛ وقرية قنالش ؛(٢) وقرية إبتاْيلِس ؛ وقرية سج ؛ وقرية منشتال(٣) وقرية الوَطَا(٤) ؛ وقرية وانى ، وقرية قُريش ، وقرية الزّاوية(٥) .

وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار ، فيها ما يناهز خمسين خُطبة ، تُنصب فيها لله المنابر ، وتُرفع الأيدى ، وتتوجَّه الوجوه .

وجملة المراجع العلمية(٦) المرتفعة فيها ، فى الأزمنة ، فى العام بتَقْريب، ومعظمُها

---

(١) وذرذر هى بلدة Dudar الحديثة وتقع شرق غرناطة على مقربة من قنتر .

(٢) وقرية قنالش هى بلدة Caniles الحديثة ، وهىواقعة جنوبى مدينة بسطة وعلى مقربةمنها .

(٣) منشتال هى اليوم قرية Monachil الحديثة . وأصل الاسم مأخوذ من كلمة Monasterio الإسبانية ومعناها الدير . وهى من ضواحى غرناطة تقع فىجنوبها الشرق علىمقربة من بلدة الوطا Huetor

(٤) قرية الوطا هى Huetor Vega وهى ضاحية غرناطة . وتقع فى جنوبها الشرق فى شمال أرمليا ، وعلى مقربة منها .

(٥) والزاوية هى ضاحية غرناطة التى تعرف اليوم باسم La Zubia ، وهى واقعة بعد أرمليا وغلجر .

هذا ، وأما القرى التى لم نعثر على مواقعها وأسمائها الحديثة مما ذكره ابن الخطيب ، فقد دثر الكثير منها ولا ريب ، وغاضت أسماء البعض الآخر خلال الزمن ، واستحالت إلى أسماء إسبانية أضحى من العسير أن نردها إلى أصولها . كذلك لم نعثر على مواقع بعض الأماكن التى أوردنا مقابلها الإسبانى .

ومن جهة أخرى فان ابن الخطيب لم يذكر كثيراً من قرى ولاية غرناطة المعروفة فى التواريخ الأندلسية ، والتى ما زالت قائمة حتى اليوم ، مثل بلدة الجابية الكبرى Gabia Grande والجابية الصغرى Gabia Chica والبذول Padul ، وموكلين Moclin ، وحصن البلوش Bellillos ، والبلاط Veleto ، وبلدة حصن اللوز الكبيرة Iznalloz ، وغيرها ، وكلها من أحواز غرناطة ، ولها جميعاً ذكرها فى الجغرافية الأندلسية .

وقد رجعنا فى هذا التحقيق إلى المراجع الآتية :

F.J. Simonet : Descripcion del Reino de Granada, scacada de los Autores Arabigos, p. lo, 12, 90, 220, 276-281.

M. Asin Palacios : Contribucion a Ia Toponomia arabe de Espana

L. Seco de Lucena : Toponimos granadinos : (Al-Andalus; Vol XVII 2-1952) : وكذلك

ورجعنا فى تحديد المواقع إلى خريطة إسبانيا وضع J.P. (Gotha) ، وخرائط مصلحة المساحة الإسبانية ، وبلدية غرناطة ، وغيرها من الخرائط التفصيلية .

(٦) هكذا فى «ج» وفى الملكية . وفى «ك» ، العملية .

السقى الغَبيط السَّمين ، العالى ، مايتا ألف ثنتان وستون ألفا ، وينضاف إلى ذلك مَراجع الأملاك السلطانية ، ومواضع أحباس المساجد ، وسُبُل الخير ، ما ينيف على ما ذكر ، فيكون الجميع باحتياط ، خمسمائة ألف وستون ألفا ، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطانى ، ثلاثمائة ألف قَدَح ويزيد ، ويشتمل سورُها وما وراءه من الأرحاء الطّاحنة بالماء ، على ما ينيف على مائة وثلاثين رَحَى ، ألحفَها الله جَنَاح الأَمنة ، ولا قطَع عنها مادّة الرحمة ، بفضله وكرمه .

فصــــل

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده ، وفرغنا من تصويره وتشكيله ، وذكر قراه وأجنَّاته[١] ، وقصوره ومتنزهاته[٢] ، فنحن الآن نذكر بعضا من سيرِ أهله ، وأخلاقهم ، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار ، فنقول :

أحوال هذا القطر فى الدِّين وصلاح العقائد[٣] ، أحوال سَنِيَّة[٤] ، والنِّحَلُ فيهم معروفة ؛ فمذاهبهم على مذهب مالك بن أنس[٥] إمام دار الهجرة جارية ، وطاعتُهم للأمراء مُحْكمة ، وأخلاقُهم فى احتمال المعاون[٦] الجَبائيَّة جميلة ، وصورُهم حسنة ، وأنوفُهم معتدلة غير حادَّة ، وشعورُهم سودٌ مُرْسلة[٧] ، وقدودهم متوسطة معتدلة ، إلى القِصَر ، وألوانهم زُهْر مُشْرَبة بحُمْرة ، وألسنتُهم فصيحة عربية ، يتخللها غَرْبٌ[٨] كثير ، وتغْلِب عليهم الإمالة ، وأخلاقهم أبيَّة فى معانى[٩] المُنازعات ، وأنسابهم عربيَّة ، وفيهم من البَرْبَر والمُهاجَرَة كثير ؛ ولباسُهم الغالب على طرُقاتهم الفاشى بينهم ، الملفُ المَصْبُوغ شتاء ، وتتفاضل

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى الملكية .

(٢) فى المخطوطين : ومنزهاته .

(٣) وردت فى «ج» ، اصلاح . وفى «ك» ، والصلاح العقايد ، وهو تحريف .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، سنة . وهو تحريف .

(٥) ذاع مذهب الإمام مالك بالأندلس أيام معاصره الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وكان ذيوعه بالأخص على يد جماعة من فقهاء الأندلس رحلوا منذ أيام عبد الرحمن الداخل إلى المشرق ودرسوا على مالك بالمدينة . ثم عادوا إلى الأندلس فذاع مذهبه على يدهم . وكان هشام بن عبد الرحمن ، كثير الورع ، شديد الإجلال لمذهب مالك ، فزاد ذلك فى ذيوعه . وكان أهل الأندلس قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام أهل الشام .

(٦) هكذا وردت فى «ج» والملكية واللمحة البدرية (ص ٢٧) . وفى «ك» المعاوز .

(٧) هكذا فى «ج» . وفى «ك» مترسلة .

(٨) هكذا فى الملكية ، وفى المخطوطين : عرب

(٩) هكذا فى «ج» وفى الملكية «مغانى» .

أجناس البزّ بتفاضل الجِدَة، والمقدار، والكتان والحرير، والقطن، والمرعزى، والأرْدِية الإفريقيّة، والمقاطع التونسية، والمآزر المَشْفوعة صَيْفاً، فتُبْصِرُهم فى المساجد، أيام الجُمَع، كأنّهم الأزهار المُفتّحة، فى البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة[١].

وأنسابُهم حسبما يظهر من الإسترعات[٢]، والبَيْعات السلطانية والإجازات، عربيةٌ: يكثر فيها القُرَشى، والفِهْرى، والأَمَوى، والأُمّى، والأنصارى، والأوْسى، والخزْرَجى، والقحْطانى، والحِمْيَرى، والمَخْزُومى، والتَّنُوخى، والغَسّانى، والأزْدى، والقَيْسى، والمُعافرى، والكِنانى، والتَّمِيمى، والهُذَلى[٣]، والبَكْرى، والكِلابى، والنِّمرى، واليَعْمُرى[٤]، والمازنى، والثَّقفى، والسَّلمى، والفزارى[٥]، والباهِلى، والعَبْسى، والعَنْسى، والعُذْرى، والحِجَجى، والضَبى، والسَّكُونى، والتَّيمى، والعَبْشمى، والمُرّى، والعُقَيْلى، والفِهْمى، والصَّريحى، والجَزَلى، والقُشَيْرى، والكلبى، والقُضاعى، والأصبحى، والهوارى، والرُّعَينى، واليَحْصُبى، والتُّجيبى، والصَّدفى، والحَضْرَمى، والحِمىّ، والجُذامى، والسَّلُولى، والحَكمى، والهَمدانى، والمَذْحِجى، والخُشَنى، والبَلوى، والجُهَنى، والمَزْنى، والطَّائى، والغافقى، والأسَدى، والاشْجُعى، والعامِلى، والخولانى، والأيادى، واللَّيْثى، والخَثْعِمى، والسَّكسَكى، والزُّبيدى، والتَغْلبى، والثَّعلبى، والكِلاعى، والدَّوسى، والحوارى، والسَّلمانى.

(١) وردت «المعتز» فى المخطوطين.

(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة، وكذا فى الملكية، ولعلها «الإشراعات»، ومفردها إشراع، أو الاشتراعات بمعنى مرسوم أو ظهير. أو لعلها إن كانت صحيحة، تعبير أندلسى قديم عن الإشراعات.

(٣) فى الملكية «والهذيلى».

(٤) فى الملكية «واليعمورى».

(٥) وردت فى المخطوطين: والفازرى.

هذا ، ويرد كثير فى شهادتهم ، ويقلّ من ذلك السّلمانى نسباً ، وكالدّوسى ، والحوارى ، والزُبَيدى ؛ ويكثرُ فيهم ، كالأنصارى ، والحَميدى ، والجُذامى ، والقيْسى ، والغَسّانى ، وكفى بهذا شاهدا على الأصالة ، ودليلا على العُرُوبيّة .

وجُنْدُهم صِنفان ، أندلُسِى وبَرْبَرى ؛ والأندلسى منها يقودُهم رئيسٌ من القرابة أو حَصِىّ(١) من شيوخ الممالك . وزيُّهم فى القديم شبَه زِى أقتالهم(٢) ، وأضْدَادهم ، من جيرانهم الفِرَنْج ، إسباغُ الدُّروع ، وتعليقُ التُّرْسَة ، وحفاً البيضات ، واتّخاذ عُراض الأسنّة ، وبشاعة(٣) قرابيس السروج ، واستركابُ حملة الرايات(٤) خلفه ، كلٌّ منهم بصفةٍ تختَصُّ بسلاحه ، وشهرةٍ يُعرف بها . ثم عدلوا الآن عن هذا الذى ذكرنا(٥) ، إلى الجواشن المُخْتَصرة ، والبيضات المرهفات ، والسُّروج العربية(٦) ، والبيَتِ اللّمْطية ، والأسَل العَطَفية(٧) .

والبَرْبَرى منه ، يرجع إلى قبائله المرينيّة ، والزّناتية ، والتّجانية ، والمغْراوية والعَجيسية ؛ والعربُ المغْربيةُ إلى أقطاب ورؤوس ، يرجع أمرهم إلى رئيس ، على رؤسائهم ، وقطب لعُرَفائهم ، من كبار القبائل المرينيّة ، يَمُتُّ إلى مَلك المغرب بنَسَب .

والعمائم تقل فى زى أهل هذه الحَضْرة ، إلا ما شاد(٨) فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ، والجُنْد العربى منهم . وسلاح جُمْهورهم العِصىّ الطويلة ، المثناة بعصىّ

(١) وردت فى المخطوطين : حصيا فاقتضى التصويب ، والحصى الرجل الوافر العقل .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . والمقصود هنا ، الذين يقاتلونهم .
(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وكذا فى الملكية واللمحة البدرية (ص ٢٨) .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» ، جملة الربات وهو تحريف ظاهر .
(٥) هذه الكلمة ساقطة فى «ك» .
(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : والروج والعربية ، وهو تحريف ظاهر .
(٧) هكذا وردت فى «ك» وفى «ج» . و «ت» (اللطفية . اللطيفة) .
(٨) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . ومعناها شذ .

صغارٍ ذوات عُرًى فى أواسطها ، تُدفع بالأنامل عند قذفها تسمى « بالأمْداس » ؛ وقسىّ الإفرَنْجة يُحْمَلون على التدْريب بها على الأيام ؛ ومبانيهم(١) متوسطة ، [وأعيادهم](٢) حسنة ، مائلة إلى الاقتصاد ؛ والغنى(٣) بمدينتهم فاشٍ ، حتى فى الدكاكين التى تجمع صنائعها ، كثيراً من الأحْداث ، كالخفّافين(٤) ومثلهم .

وقوتُهم الغالب ، البُرُّ الطيِّب ، عامّة العام(٥) ، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضَّعَفةُ والبوادى والفعَلة فى الفلاحة ، الذُّرةَ العربية ، أمثل أصناف القطانى الطيبة . وفواكهم اليابسة عامة العام ، متعددةٌ ؛ يدّخرون العِنَب سليما من الفساد ، إلى شطْر العام ؛ إلى غير ذلك من التِّين ، والزّبيب ، والتفاح ، والرّمان ، والقسْطل ، والبَلُّوط ، والجَوْز ، واللَّوز ، إلى غير ذلك مما لا يَنفَد ، ولا ينقطع مدده إلا فى الفصل الذى يُزهد فى استعماله .

وصَرْفهم فِضَّة خالصةٌ ، وذهبٌ إبريزٌ طيِّب(٦) محفوظ ، ودِرْهَمٌ مُرَبَّع الشّـكل ، من وزن(٧) المهدى القائم بدولة الموحِّدين(٨) ، فى الأوقية منه سبعون

(١) وردت فى «ج» ومنانهم . وفى «ك» ومناسهم والتصويب من اللمحة البدرية .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى «ت» . وكذا فى الملكية .

(٣) هكذا رسمت فى المخطوطات الثلاثة وكذا فى الملكية . وإزاء هذا الإجماع فى المخطوطات ، تركنا الكلمة على رسمها . ولكن من المحتمل أيضاً أن تقرأ (والغناء) وهو ما ورد فى اللمحة البدرية (ص ٢٨) وهنا يكون المعنى كذلك مقبولا ومناسباً ، وعلى هذا قرأها وترجمها بعض أكابر المستشرقين الإسبان مثل سيمونيت وريميرو (راجع سيمونيت Descripcion . p . 80)

(٤) جمع خفاف . وهو الذى يصنع الخفاف جمع خف .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : العامة وهو تحريف .

(٦) هكذا وردت هذه الكلمات الثلاث فى «ج» . ووردت على النحو الآتى فى «ك» : وذهباً إبريزاً طيباً . وهو تحريف ظاهر .

(٧) وردت فى المخطوطين : لون . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب بالمهدى مؤسس دولة الموحدين فى المغرب ، وهى التى غلبت فيما بعد على الأندلس ، وانتزعتها من أيدى المرابطين . وقد توفى المهدى سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩م) .

درهما ، يختلف الكتبُ فيه . فعلى عهدنا ، في شِقّ ، « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ؛ وفي شِق آخر ، « لا غالبَ إلّا الله ، غرْناطة » . و نصفه وهو القيراط ، في شق ، « الحمد لله ربِّ العالمين » ؛ وفي شق ، « وما النصر إلا من عند الله » . و نصفهُ وهو الرُّبع ، في شق ، « هُدى الله هو الهُدى » ؛ وفي شق ، « العاقبة للتقوى » .

ودينارُهم في الأوقية منه ، ستة دنانير وثلثا دينار ؛ وفي الدينار الواحد ثُمْن أوقية وخُمْس ثُمْن أوقية . وفي شق منه ، « قل اللّهم مالكُ المُلْك بيَدك الخَيْر » ، ويَسْتَدِيرُ به قوله تعالى « إلـٰهكم إلهٌ واحدٌ ، لا إلـه إلا هو الرَّحْمن الرَّحيم » . وفي شق ، « الأمير عبدالله يوسف ، بن أمير المسلمين أبي الحجّاج ، بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر ، أيّد الله أمْرَه » . ويَسْتَدِير به ، شعار هؤلاء الأمراء ، « لا غالب إلا الله » . ولتاريخ تمام هذا الكتاب ، في وجْهٍ ، « ياأيها الذين آمنوا اصْبرُوا وصَابرُوا ورَابطوا واتّقُوا الله لعَلّكم تُفْلِحُون » . ويَسْتَدِير به ، « لا غالب إلا الله » . وفي وجه ، « الأمير عبد الله الغَنى بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصْر ، أيّده الله وأعانه » . ويستدير برُبع ، « بمدينة غرْناطة حرَسها الله » .

وعادةُ أهل هذه المدينة ، الانتقال إلى حُلل العَصِير أوان إدْراكه ، بما تشتمل عليه دورُهم ، والبروز إلى الفحوص[1] بأولادهم ، معَوِّلين في ذلك على شهامتهم[2] وأسْلِحَتهم ، وعلى كثب دورهم[3] ، واتّصال أمْصَارهم بحُدود أرضه . وحُليُّهم في القلائد ، والدَّمالج ، والشُّنوف ، والخلاخل الذّهب الخالص ، إلى هذا العهد ، في

---

(١) جمع فحص وهو المرج .
(٢) هكذا وردت في «ك» . وفي «ج» سهامتهم ، فان كانت تعني السهام فهي صحيحة أيضاً .
(٣) هكذا وردت في «ك» . وفي «ج» والملكية (على كتب على دورهم) .

أولى الجِدَة ؛ واللجيْنُ فى كثير من آلات الرِّجلين ، فيمن عداهم ؛ والأحجارُ النفيسة من الياقوت ، والزَّبَرْجَد [والزمرد][١] ونفيس الجَوْهر ، كثير ممن ترتفع طبقاتهم المُسْتندة إلى ظِلٍّ دولة ، أو أصالةٍ معروفة مُوفَّرة .

وحريمُهم ، حريم جميل ، موصوف بالسحر[٢] ، وتَنَعُّم الْجسوم ، واسترسال الشُّعور ، ونقاء الثُّغُور ، وطِيبِ النَّشر[٣] ، وخفَّة الحركات ، ونُبْل الكلام ، وحُسْن المحاورة[٤] ، إلا أن الُّطول يَنْدُر فيهن[٥] . وقد بَلغْن من التَّفنن فى الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المُصْبَغات ، والتَّنْفيس بالذَّهبيَّات والدِّيباجيَّات ، والتَّماَجُن فى أشكال الُحلى ، إلى غاية نسأل الله أن يُغضَّ عنهنّ فيها ، عَين الدهر ، ويُكفكِف الخَطْب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يَسْلبهم خفيٌّ لطفه ، بعزَّته وقدْرته .

---

(١) الزيادة من الملكية .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية ، بالحسن ، والمعنى واحد .

(٣) وردت فى «ج» والملكية : الشرا ، و «ك» النشرا . والنشر هو الريح الطيبة .

(٤) هكذا فى «ج» و الملكية . وفى «ك» المجاورة .

(٥) إن أوصاف ابن الخطيب لنساء مملكة غرناطة فى عصره ، ما تزال حتى اليوم ماثلة فى نساء غرناطة الإسبانية النصرانية مثولا قوياً ، يستلفت نظر كل من تجول فى ربوع المدينة الأندلسية التالدة .

فصـــل

فيمن تداول هذه المدينة

من لدُن أصْبَحت دار إمارة باختصار واقتِصار

قال المؤلف : أول من سكن هذه المدينة ، سُكنى استبداد ، وصيَّرها دار مُلْـكه ومَقرَّ أمره ، الحاجبُ ، المنصور أبو مُثْنى زَاوى بن زيرى[١] بن مَناد[٢] لمّا تغلب جيش البربر ، مع أميرهم سليمان بن الحكم على قُرْطبة ، واستولى على كثير من كوَر الأنْدلُس ، عام ثلاثة وأربعمائة فما بعدها ، وظهر على طوائف الأندلس[٣] ، واشتهر أمره ، وبعُد صيته . ثم اجتاز البحر إلى بلد قومه بإفريقية ، بعد أن مَلكَ غرْناطة سبع سنين ، واستخْلَف ابن أخيه حبّوس بن ما كْسَنْ ، وكان حازماً داهية ، فتوسَّع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة . وولِي بعده حفيده عبد الله بن بُلُـكّين[٤] بن بادِيس ، إلى أن خُلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، وتصيَّر أمرُها إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشُفين ملك لمتُونة[٥] عند تَمَلُّـكه الأندلس ، ثم إلى ولده عليّ بن يوسف . وتَنوَّب إمارتها

(١) وردت فى المخطوطين : رمدى ؛ وهو تحريف ظاهر .

(٢) كانت غرناطة عقب ثورة البربر التى قامت على أثر انهيار الدولة العامرية والخلافة الأموية من نصيب البربر ؛ واستولى عليها زعيمهم زاوى بن زيرى الصنهاجى سنة ٤٠٣ هـ وحكمها حتى سنة ٤١٠ هـ (١٠١٢ - ١٠١٩ م) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد فى نهاية هذا المجلد .

(٣) طوائف الأندلس ، هم زعماء الطوائف الذين اقتسموا ولايات الأندلس وقواعدها عقب انهيار الخلافة وثورة البربر ، وأسسوا لأنفسهم فى ولايات الأندلس وقواعدها إمارات وممالك صغيرة . وعرف أولئك الزعماء بملوك الطوائف .

(٤) وردت فى المخطوطين : (ملقن) وهو تحريف بلقين أو بلكين . ويجب أن نصحح هنا سهواً تاريخياً وقع فيه ابن الخطيب . ذلك أن الذى تولى حكم غرناطة بعد حبوس بن ماكسن هو ولده باديس ، وقد حكم حتى سنة ٤٦٥ هـ . ثم تولى الحكم من بعده حفيده عبد الله بن بلقين بن باديس ، وحكم حتى سنة ٤٨٣ هـ .

(٥) سبقت الإشارة إلى يوسف بن تاشفين . أنظر الحاشية فى ص ١٠٧ .

جملةٌ من أبناء الأمراء اللمْتُونيين وقرابتهم كالأمير أبى الحسن على بن الحاجّ(١) وأخيه موسى ؛ والأمير أبى زكريا يحيى بن أبى بكر بن إبراهيم ؛ والأمير أبى الطّاهر تَميم ؛ والأمير أبى محمد مَزْدَلى ؛ والأمير أبى بكر بن أبى محمد ؛ وأبى طَلْحة الزُّبَير ابن عُمر ؛ وعثمان بن بدر اللَّمْتُونى ؛ إلى أن انقرض أمرُهم عام أربعين وخمسمائة .

وتصيرَّ الأمرُ للمُوَحِّدين(٢) ، وإلى ملكهم أبى محمد عبد المؤمن بن على(٣) ، فتناولها جملةٌ من بنيه وقرابته ، كالسّيد أبى عثمان بن الخليفة ؛ والسّيد أبى إسحاق ابن الخليفة ؛ والسّيد أبى إبراهيم بن الخليفة ؛ والسيد أبى محمد بن الخليفة ؛ والسيد أبى عبد الله ؛ إلى أن انقَرَض منها أمر المُوَحِّدين .

وتملّكها المتوكل على الله ، أميرا لمؤمنين ، أبو عبد الله محمد يوسف بن هُودْ(٤)

---

(١) هكذا وردت فى «ك» ، وفى «ج» ، الحجاج . وهو تحريف .

(٢) وردت فى «ج» ، للموحد . وفى «ك» ، الموحدون ، وحكمة التصويب واضحة .

(٣) هو خليفة المهدى محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وثانى رؤسائها ، وأعظم زعمائها . تولى الزعامة عقب وفاة المهدى ، وأتم افتتاح المغرب من يد المرابطين ، وقضى على دولتهم بافتتاح مراكش سنة ٥٤٣ هـ . وافتتح الأندلس من يد المرابطين وحلفائهم . ووطد دولة الموحدين فى المغرب والأندلس . وكانت وفاته فى سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) .

(٤) يترجم ابن الخطيب فيما بعد فى الإحاطة للمتوكل ابن هود . ولا بأس من أن نقدم إيضاحاً موجزاً لما يجمله ابن الخطيب هنا من أمر هذا الانقلاب الحاسم فى مصاير الأندلس . وذلك أنه لما اشتدت وطأة الموحدين والنصارى على الأندلس فى أوائل القرن السابع الهجرى ، ظهر المتوكل ابن هود هذا . وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة السابقين أيام الطوائف ؛ ظهر فى أحواز مرسية سنة ٦٢٥ هـ ، ودعا إلى تحرير الأندلس من النصارى والموحدين معاً ، وقوى أمره تباعاً ، وانحازت إليه عدة من قواعد الأندلس الهامة مثل جيان وقرطبة وماردة وبطليوس . وفى سنة ٦٢٨ هـ استطاع أن ينتزع غرناطة من الموحدين . وفى تلك الآونة اشتدت وطأة النصارى على الأندلس ، وأخذت قواعدها تسقط فى أيديهم تباعاً . وبذل ابن هود جهده لمحاربتهم ولكنه لم يستطع وقف عدوانهم لتمزق الأندلس يومئذ . ثم توفى ابن هود فى سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) . وكان قد ظهر فى نفس الوقت محمد بن يوسف بن نصر (ابن الأحمر) فى جنوب الأندلس ، وبسط حكمه على كثير من أنحائها . ثم استولى على غرناطة عقب وفاة ابن هود ، وجعلها عاصمة إمارته وبذلك قامت مملكة غرناطة . ويخصه ابن الخطيب فيما بعد بترجمة وافية.

فى عام ستة وعشرين وستمائة ، ثم لم يَنْشَب[1] أن تملكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجى ، جَدُّ هؤلاء الأمراء الكرام موالينا ، رحم الله من دَرَج منهم ، وأعان من خَلَفه ، إلى أن توفى عام أحدٍ وسبعين وستمائة . ثم ولىَ الأمر بعده ولده وسَمِيُّه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام ، وتوفى عام إحدى وسبعمائة . ثم ولىَ بعده سَمِيُّه محمد إلى أن خُلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وتُوفى عام أحد عشر وسبعمائة فى ثالث شوّال منه . ثم ولىَ بعده أخوه نَصْرُ بن مولانا أمير المسلمين أبى عبد الله ، فأرْتبَ أمرُه ، وطلب المُلْكَ اللّاحقُ به[2] مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج ، فغَلَب على الإمارة ، ثانى عشر ذى القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، وانتقل نصر إلى وادى آش مخلوعاً ، مُوادِعاً بها إلى أن مات عام [اثنين وعشرين][3] وسبعمائة . وتمادى مُلْكُ السلطان أمير المسلمين أبى الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ووَثَب عليه بعض قَرابته فقتله ، وعُوجل بالقتل مع مَنْ حضر منهم . وتولّى المُلْكَ بعده ولده محمد ، واستمرّ سلطانه إلى ذى الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وقُتل بظاهر جبل الفتح[4] . وولىِ بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لُبابُ هذا البيت ، وواسِطة هذا العِقْد ، وطِرَازُ هذه الحِلية ، ثم اغتاله[5] مَمْرُور من أخابيث السُّوقة ،

---

(١) هكذا فى المخطوطين وكذا فى «الملكية» . ومعناها لم يلبث .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» ، إلى أن لحق به . والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى «ك» (عام ... وسبعمائة) مع بياض فى مكان التاريخ . ووردت فى «ج» (عام اثنين وسبعمائة) ، فاقتضى تصحيح التاريخ كما هو بين الحاصرتين .

(٤) أى جبل طارق. والذى سماه جبل الفتح هو الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على ، وذلك حين نزل به سنة ٥٥٥ هـ ليتفقد منشآته الجديدة ، وسماه بذلك الاسم لأنه كان دائماً يتخذ قاعدة لعبور الجيوش الإسلامية الغازية إلى اسبانيا منذ طارق بن زياد .

(٥) قتل السلطان يوسف أبو الحجاج غيلة على النحو الذى يصفه ابن الخطيب فى يوم عيد الفطر سنة ٧٥٥ هـ (أكتوبر سنة ١٣٥٤ م) . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد بإفاضة .

قبَضَه الله إلى شهادته ، وجعله سبباً لسعادته ، فأكَبَّ عليه فى الرَّكْعة الآخرة من ركعتى عِيد الفِطْرِ ، بين يدى المِحْراب ، خاشِعاً ، ضارعاً ، فى الحال الذى أقربُ ما يكون العَبْدُ من رَبِّه ، وهو ساجدٌ ، وضربه بخنجر مُهيء[1] للفتْك به ، فى مثل ذلك الوقت ، كان ، زعموا ، يحاول شَحْذه منذ زمان ، ضَرْبَةً واحدةً ، على الجانب الأيْسر من ظَهْره ، فى ناحية قلْبه ، فقَضى عليه ، وبُودِر به فقتِل .

وولِى الأمر بعده محمد[2] ، ولدُه أكبر بَنيه ، وأفضل ذويه ، خَلقاً وخُلُقاً وحياءً وجوداً ، ووقاراً وسلامة وخَيْريَّة ، ودافع دولته من لا يعبأ الله به[3] ؛ ثم تدارك الأمر سبحانه ، وقد أشْفَى ، ودافع وكفى ، بما يأتى فى محله إن شاء الله . وهو أمير المسلمين لهذا العهد ، متَّع الله به ، وأدام مدته ، وكتب سعادته ، وأطلق بالخير يده ، وجعله بمراسيم الشريعة من العاملين ، ولسلطان يوم الدين من الخائفين ، المُراقِبين ، بفضله .

وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحَضْرة على اختصار . ويأتى فى أثناء التعْريف برجالها كثيرٌ من تفصيل ما أُجمِل ، وتَتْميم ما بَدأ ، وإيضاح ما خَفِى ، بحول الله تعالى .

---

(١) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : مهيئاً ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) هو السلطان محمد الغنى بالله . تولى الملك مرتين : الأولى بين سنتى (٧٥٥ – ٧٦٠ هـ) . الثانية بين سنتى (٧٦٣ – ٧٩٣ هـ) . وهو السلطان الذى قضى ابن الخطيب فى خدمته زها ستة عشر عاماً وشاطره المنفى بعد ولايته الأولى . ويخص ابن الخطيب حوادث عصر مليكه الغنى بالله ، وهو فى نفس الوقت العصر الذى بلغ فيه ابن الخطيب ذروة مجده السياسى والأدبى ، بفصول كثيرة فى «الإحاطة» ، وفى كتبه الأخرى .

(٣) يشير ابن الخطيب هنا إلى ثورة إسماعيل أخى السلطان محمد الغنى بالله عليه ، وانتزاعه الملك منه فى رمضان سنة ٧٦٠ هـ ، واستمراره فى العرش ثلاثة أعوام ، استطاع محمد بعدها أن يسترد ملكه ، وذلك فى أوائل سنة ٧٦٣ هـ .

القسم الثاني

في حُلى الزّائِر والقَاطِن والمتحَرّك والسّاكِن

أحمد بن خَلَف بن عبد الملك الغسانى القُلَيعى

من أهل غرْناطة ، يُكْنى أبا جعفر ، من جلَّة أعيانها ، تُنسب إليه الساقية الـكبرى المجاورة لطوْق[١] الحضرة إلى إلْبيرة ، وما والاها .

حـــاله

قال ابن الصَّيْرفى : كان الفقيه أبو جعفر القُلَيْعى ، من أهل غرناطة ، فريد عصره ، وقريع[٢] دهره ، فى الخير والعلم والتِّلاوة ؛ وله حِزْبٌ من اللَّيل ، وكان سريعَ الدِّمعة[٣] ، كثير الرِّواية[٤] ؛ وهو المُشار إليه فى كل نازلة ، وله العَقْد والحلُّ والتقدُّم والسَّابقة ، مع مُنَّة فى جلائل الأمور ، والنَّهضة بالأعباء وسُمُوِّ الهمَّة .

« غريبةٌ فى شأنه » : قال ، كان باديس بن حَبُّوس [أمير بلده][٥] ينفرَّس فيه أن مُلْك دولته ، يَنقرض على يديه ، فـكان يَنْصِب[٦] لشأنه أكلُباً ، ويَتَمَلَّط بسيفه إلى قتْله ، فحماه الله منه بالعلم ، وغلَّ يده ، وأغْمد سيفه ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

مشيخته

روى عن أبى عمر[٧] بن القطَّان ، وأبى عبد الله بن عتَّاب ، وأبى زكريا القُليعى ، وأبى مروان بن سِرَاج ؛ وكان ثقةً صَدُوقاً ، أخذ عنه الناس .

---

(١) وردت فى «ج» بطوق . والتصويب من الملكية .

(٢) وردت فى «ج» مريع أعنى وافر الخصب والمرعى . وفى «ر.م» : قريع . وقد آثرنا النص الثانى .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك» والملكية ، اللمة .

(٤) وردت فى المخطوطين : الراية . وهو تحريف ظاهر .

(٥) هذه الزيادة واردة فى «ر.م» .

(٦) فى المخطوطين : نصب .

(٧) هكذا فى «ر.م» . وفى المخطوطين : على ، والأولى أرجح .

ولما أجاز أمير لمتونة يوسف بن تاشفين البحر [مستدعى إلى نصر المسلمين][١]، ثانى حركاته إلى الأندلس، ونازل حصن أليط[٢]، وسارع ملوك الطوائف إلى السير فى جملته، كان ممن وصل إليه الأمير عبد الله بن بلكين[٣] بن باديس صاحب غرناطة، ووصل صحبته الوزير أبو جعفر بن القليعى، لرغبته فى الأجر مع شهرة مكانه، وعلو منصبه، ولنهوض نظرائه[٤]، من زعماء الأقطار، إلى هذا الغرض؛ وكان مضرب خيام القليعى [قريباً من مضرب][٥] حفيد باديس؛ ولمنزلته عند الأمير يوسف بن تاشفين، وله عليها الخفوف وله به استبداد، وانفراد كثير، وتردد كثير[٦]، حتى نمى بذلك حفيد باديس، وأتهم عنيه[٧]. قال المؤرخ، وكيفما دارت الحال، فلم يخل من نصح لله ولأمير المسلمين.

قلت؛ حفيد باديس كان أدرى بدائه، قصر الله خطانا من مدارك الشرور. فلما صدر[٨] حفيد باديس إلى غرناطة، استحضره ونجهه، وقام من مجلسه مغضباً،

(١) هذه الزيادة واردة فى «ر.م».

(٢) هذا الحصن يسمى بالإسبانية Aledo. وتسميه الرواية العربية بحصن لييط أو أليط كما يسميه ابن الخطيب. وقد كان من الحصون النصرانية المنيعة الواقعة بين لورقة ومرسية، وقد حاصره المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين ومعه حلفاؤه الأندلسيون فى سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠م). ولكن ألفونسو السادس ملك قشتالة استطاع الدفاع عنه وإنقاذه. وتفيض الرواية الإسلامية فى تفاصيل هذه الموقعة (راجع كتابى «دول الطوائف» – الطبعة الثانية) ص ٣٣٤–٣٣٦ والمراجع.

(٣) رسمت فى المخطوطين، بلقين. ورسمها بالكاف أكثر شيوعاً حسبما يتوضح بعد.

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية: «قرابته». والتصويب من «ر.م».

(٥) هكذا فى «ج» وفى الملكية. وقد ورد فى «ر.م» مكان هذه العبارة: «فى محلة» والمؤدى واحد.

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين؛ وساقطة فى «ت».

(٧) وردت فى المخطوطين، غيبه. والتصويب من «ت» وهو أرجح بالنسبة للمعنى.

(٨) هكذا وردت فى المخطوطين وفى «ر.م». وفى «ت» والملكية صار. والمؤدى واحد.

وتعلقت به الخدَمة ، وحفت به الوَزَعة(١) والحاشية(٢) . وهمّوا بضربه ؛ إلا أن أمّ عبد الله تطارحت على ابنها فى استحيائه ، فأمر بتخليصه ، وسجْنه فى بعض بيوت القصْر ؛ فأقبَل فيه على العبادة والدعاء والتّلاوة ؛ وكان جَهير الصوت ، حسن التّلاوة ، فارتج القصر ، وسَكنت لاستماعه الأصوات ، وهدأت له الحركات ، واقشعرّت الجُلود . وخافت أم عبد الله على ولدها ، عقاباً من الله بسببه ، فلاطفته حتى حلّ عِقَاله ، وأطْلقه من سجنه . ولما تخلَّص أعدّها(٣) غنيمةً . وكان [جَزْلًا ، قوىّ القلب](٤) ، شديد الجَزم(٥) ؛ فقال الصَّيْد بغُراب أُكَيس ؛ فاتخذ الليل جَمَلًا(٦) ؛ فَطلعَ له الصباح بقلعة يَحْصُب(٧) ، وهى لنظر ابن عبّاد(٨) ، وحث منها السَّير إلى قُرطبة ؛ فخاطب منها يوسف بن تاشُفِين بملء فيه ، بما حرّكه وأطْمَعه ؛ فكان من حركته إلى الأندلس ، وخَلْع عبد الله بن بُلُكّين من غرناطة ، واستيلائه عليها ، مايَرد فى اسم عبد الله وفى اسم يوسف بن تاشفين إن شاء الله . وبدا لحفيد باديس فى أمر أبى جعفر القُليعى ، ورأى أنه أضاع الحزم [فى إطلاقه فبحث](٩)

---

(١) الوزعة هم قامعو الشر والبغى .

(٢) وردت فى «ك» الحارسية . وفى «ج» الحاسية . وفى «ت» الجلسة . والتصويب من «ر. م.» .

(٣) هكذا فى المخطوطين ، وفى «ر.م» اعتدها .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين وفى الملكية . ولكنها وردت فى «ر.م» : «حولا قلبا» .

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «ت» ، الحزم ، والأولى أرجح .

(٦) هكذا فى المخطوطين . والمقصود أنه اتخذ الليل مركباً .

(٧) قلعة يحصب أو Alcala la Real الحديثة ، وقد سبق التعريف بها . أنظر الحاشية فى ص ١١١

(٨) المقصود هنا هوالمعتمد بن عباد أمير إشبيليه وأعظم شعراء الأندلس فى عصره . وقد خلع فيمن خلعه المرابطون من أمراء الطوائف (٤٨٤ هـ) . وتوفى منفيا بالمغرب بمدينة أغمات سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م)

(٩) ما بين الحاصرتين وارد فى «ر.م» ومكانه بياض فى «ك» . وفى «ج» (فى البحث) وما أورده «ر.م» أرجح بالنسبة للمعنى .

عنه من الغد[١] ، وتقصّت[٢] عنه البلدة ، فلم يَقَع له خَبَر ، إلى أن اتّصل به خبرُ نجاته ، ولحاقه بمأمنه . فرجع باللائمة على أُمِّه ، ولات حين مَنْدم . ولم يزل أبو جعفر مدّته فى دول الملوك ، من لمْتونة ، معروف الحقِّ ، بعيد الصِّيت والذِّكر ، صَدْرَ الحضْرة ، والمَخْصوص بعُلوِّ المرتبة إلى حين وفاته .

[أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمدانى اللخمى

من أهل غرناطة

« حاله » : كان فقيهاً وزيراً جليلا حسيباً حافلا .

« وفاته » : توفى بإلْبيرة قبل الثلاثين وأربعمائة .

ذكره أبو القاسم الغافقى فى تاريخه وابن اليسر فى مختصره وأثنى عليه][٣] .

أحمد بن محمد بن أضْحى بن عبد اللطيف بن غريب بن يزيد ابن الشّمِر بن عبد شمس بن غريب الهمدانى الإلبيرى

من نزلاء قرية هَمْدان[٤] ؛ ذكره ابن حَيّان ، والغافِقى ، وابن مَسْعَدة ، وغيرهم ؛ فقال جميعُهم ، كان من أهل البلاغة ، والبيان ، والأدب ، والشعر البارع .

---

(١) وردت فى المخطوطين : العدو . والمعنى يستقيم بالتصويب .

(٢) فى المخطوطين : نقصت . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت هذه الترجمة فى صلب «ر.م» (ص ٢٦٩) قبل ترجمة ابن أضحى ؛ ولم ترد فى باقى المخطوطات فرأينا إثباتها فى مكانها .

(٤) هى بلدة Alhendin الحديثة وقد سبق التعريف بها . انظر الحاشية فى ص ١١٢ .

مناقبه

قدم على الخليفة أبي مُطرِّف عبد الرحمن[1] ، فقام خطيباً بين يديه، فقال : الحمد لله المُحْتجب بنُور عَظمته ، عن أبصار بَريَّته ، والدَّال بحدوث خلْقه على أوَّليَّته ، والمنفرد بما أتْقنَ من عجائب دهره ومِنن صَمَدِيَّتِه ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بوَحْدَانِيته[2] ، وخضوعًا لعزِّه وعظمته . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، انتَخبه من أطيب البُيوتات ، واصطفاه من أطيب البيوتات[3] ، حتى قبضه الله إليه ، واختار له ما لديه . وقد قبل سَعْيه ، وأدَّى أمانته ، فصلى الله عليه وسلم تسليما . ثم إن الله لما أن بعثه من أكرم خلْقه ، وأكرمه برسالته وأنزل عليه مُحْكم تنْزيله ، واختار له من أصحابه وأشياعه مخلفاً ، جعل منهم أئمَّة يَهْدُون بالحق ، وبه يَعْدلون ؛ فجعل الله الأمير ، أعزه الله ، وارث ما خلَّفوه من معالِمهم ، وباني ما أسَّسوه من مشاهدهم ، حتى أمَّنَ المسالك[4] ، وسكن الخائف ، رَحْمَةً من الله ، ألْبَسَه[5] كرامتها ، وطوَّقه فضيلتَها ؛ والله يُؤتي مُلْكه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

الله أعطـاك التي لا فوْقهـا   وقد أراد المُلْحِدُون عَوْقها
عَنْك ويأبَي الله إلاَّ سَوْقهـا   إليـك حتى قلَّدوك طوْقهـا

---

(١) هو الخليفة عبد الرحمن الناصر مؤسس الخلافة الأموية بالأندلس وقد حكم من سنة ٣٠٠ – ٣٥٠ هـ (٩١٢ – ٩٦١ م) .

(٢) هكذا وردت في «ج» . وفي «ك» ، بربوبيته .

(٣) هكذا وردت في «ج» وفي الملكية . ومكانها بياض في «ك» .

(٤) هكذا وردت في «ج» وفي الملكية . وفي «ك» «المناسك» والأولى أرجح .

(٥) هذه الكلمة وردت في «ج» وأغفلت في «ك» .

ثم أردف قوله بهذه الأبيات .

أيا مَلكاً تُرْمَى به قُضُبُ الهند[١] ... إذا لمَعَتْ بين المَغافر والسَّرد
ومَنْ بأسُه فى مَنْهل الموت واردٌ ... إذا أنفسُ الأبطال[٢] كلَّت عن الوِرْد
ومن ألْبَس الله الخلافة نِعمةً ... به فاقت النُّعما وجَلَّت عن الحَدِّ
فلو نُظِمتَ مَرْوانُ فى سِلْكِ فخرها ... لأصْبح من مَرْوان واسِطة العِقْد
تجَلَّى على[٣] الدُّنيا فأجْلى ظلامَها ... كما انجابتْ الظَّلْماء عن قمَر السَّعْد
إمامُ هُدَى أضحت به العُرْبُ غضَّةً[٤] ... مُلبَّسةً نُورًا كوَاشِيةِ البرْد
كفانى لديه[٥] أنْ جَعَلتُ وسايلى[٦] ... ذماماً شآمىٌّ[٧] الهوى مخلص الود
يؤكد ما يدلى به من مثابة ... خلوص أبيه عبد الفارس الجند
تأمل رُواه وَالرِّماح شَواجرٌ ... وخَيْلٌ إلى خَيْلٍ بأبطالها تُرْدِى
رأى أسدًا وَرْدًا يخِفُّ إلى الوغى ... ورَأَيْتهُ أرْبَى على الأسد الورد
فأنعِم عليه اليَوْمَ يا خَيْرَ مُنْعِمٍ ... بإظهار تَشْريفٍ وعَقْدِ يدٍ عِنْدى
ولا تُشْمِت الأعداء أن جئْتُ قاصدًا ... إلى مَلِك الدُّنيا فأُحْرَمُ من قصدى
فعِنْدَ الإمام المرْتضَى كلُّ نِعْمَةٍ ... وشُكْرًا لما يلحيه[٨] من نعمةٍ عندى
فلا زال فى الدُّنيا سَعِيدًا مُظفَّرًا ... وبُوِّئَ فى دار العُلى جَنَّة الخُلْدِ

(١) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين : «أيا ملكاً تزهى به قلوب الهند» ووردت فى الملكية (أيا ملكاً تزهى قلوب الهدى به) والتصويب من الحلة السيراء لابن الأبار (القاهرة ١٩٦٤) ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) هكذا فى «ج» ، وفى «الحلة السيراء» . وفى الملكية (الاعداء) .

(٣) فى الملكية (عن) .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى «الحلة السيراء» : (إمام هدى زيدت به الأرض بهجة) .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الحلة السيراء .

(٦) هكذا فى الملكية . وفى الحلة (وسيلتى) .

(٧) واردة فى الحلة وساقطة فى المخطوطين . وفى الملكية .

(٨) هكذا وردت فى «ج» «والملكية» ، وفى «ك» ، يليه .

وكان من بيت سماحة وفصاحة وخطابة ، فَعَلا[١] شرفه بهذه الخصال ، فسُجِّل له على أرحيَةٍ ، وحِصْنِ نبيل ببنى هُود وغير ذلك ، فانقلب مَرْعىً الوسائل ، ومَقْضِىَّ الرَّسائل .

[قال المؤلف أرى ابن فركون قبل الست عشرة والثلاثمائة][٢] .

أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشى

من أهل غَرْناطة . يُكْنَى أبا جعفر ، ويُعرف بابن فَرْكُون

أوليتـــه

وكفى بالنسب القرشى أوّليَّة .

حـــاله

من « عائد الصلة »[٣] : كان من صُدُور القضاة بهذا الصُّقع[٤] الأنْدَلُسى ، اضطلاعاً بالمسائل ومعرفة بالأحكام من مظآنِّها[٥] ، كثير المطالعة والدُّروب ، وحِيَّ[٦] الإجهاز فى فصل القضايا ، نافذ المَقْطع ، كثير الاجتهاد والنَّظر ، مشاركاً فى فنُون ، من عربيَّة ، وفِقْه ، وقراءة ، وفرائض ، طيِّب النَّغْمَة بالقرآن ، حسن التِّلاوة ، عظيم الوقار ، بين طَبْعٍ ومَكْسُوب ، فائق الأُبَّهة ، مُزْرِياً بمن

---

(١) فى المخطوطين : فالى . وهو تحريف ظاهر .

(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى المخطوطات الأربعة عقب هذه التّرجمة . ووجود هذه العبارة فى هذا الموطن غير واضح ، ولا علاقة لها بما تقدم أو بما تأخر بعد ذلك من ترجمة ابن فركون التالية ، بيد أننا لم نر بأساً من إثباتها كما هى .

(٣) هو من مؤلفات ابن الخطيب وقد تقدم التعريف به فى المقدمة .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» السقع .

(٥) وردت فى المخطوطات الأربعة : مضانها . وهو تحريف .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» ، وحير . ووحى معناها عجل مسرع .

دونه من الفقهاء، وعاقدى الشروط، مُسْقِطاً للكُنى والتَّجِلَّات، يعامل الكهول معاملة الأحْداث، ويتهاون بتعامُلات[١] ذلك فيجعلها دُبُرَ أُذنيه[٢]، ويَسْترسِل فى إطلاق عِنان النادِرة الحارة، فى مجالس حُكمِه، فضلا عن غيرها؛ وجَدَ ذلك مَنْ يحمل عليها سبَباً[٣] للغرض منه.

نباهتـــه

ترَشَّح بذاته، وباهِرِ أدواته، إلى قضاء المدن النَّبيهة، والأقطار الشهيرة، كرُندَة، ومالَقة، وغيرهما. ثم وُلِّى قضاء الجماعة[٤]، فى ظلٍّ جاهٍ، وضِمنِ حُرْمَة.

« غريبَة فى أمره »: حدث أنه كان يقرأ فى شَبيبته على الأستاذ الصالح أبى عبد الله بن مَسْتقور[٥]. بكرْم له خارج الحضْرة، على أميال منها فى فصل العصير. قال وجَّهَنى يوماً بغَلَّة من الرُّبِّ[٦] لأبيعه بالبلد، فأصابنى مطرٌ شديد، وعُدْتُ إليه بحال سيِّئة، بعد ما قضيتُ له وطره؛ وكان له أخٌ أسنُّ منه، فعاتبه فى شأنى، وقال له: تأخُذُ صبياً ضعيفاً يأتيك لفائدة يستفيدها، وتُعرِّضُه لمثل هذه المشقَّة، فى حقِّ مصلحتك، ليس هذا من شِيَمِ العُلماء، ولا من شيم الصالحين. فقال له دَعْه، لابد أن يكون قاضى الجماعة بغَرْناطة؛ فكان كذلك، وصدقت فراستُه، رحمه الله تعالى.

---

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج» و «الملكية» بتعامات.

(٢) هكذا فى «ج». وفى «ك» أذنه.

(٣) وفى «الملكية» سبيلا.

(٤) قضاء الجماعة فى الخطط الأندلسية معناه رياسة القضاء العليا، أو منصب قاضى القضاة. ومركزه فى حضرة غرناطة.

(٥) وردت فى المخطوطين وكذا فى الملكية «مسفور» وهو تحريف. والتصويب من كتاب «المرقبة العليا» (قضاة الأندلس) ص ١٣٩.

(٦) الرب هو بقايا الثمار بعد اعتصارها.

مشيخته

قرأ بالقرية على الأستاذ أبى القاسم بن الأصفر ، وبغرناطة على العالم القاضى أبى الحسن محمد بن يحيى بن ربيع الأشعرى ، وعلى الشيخ المفتى أبى بكر [محمد بن] (١) أبى إبراهيم بن مُفَرِّج الأوسى بن الدبَّاغ الإشبيلى ، وعلى الخطيب الزاهد أبى الحسن العدَّال، وعلى الأستاذ النَّحْوى أبى الحسن على بن محمد بن على بن يوسف ابن الصَّايغ ، بالصاد المهملة ، والغين المعجمة ، وعلى الأستاذ أبى الحسن الأُبَّدى (٢) ، وأبى عبد الله محمد بن إبراهيم الطائى ، عُرف بابن مَسْتَقور .

ولما دالت الدولة ، كان له فى مُشَايعة مَخْلُوعِها أمور اقْتَضَتْهَا منه أريحيَّةٌ (٣) وحسنُ وفاء ، أوْجَبت عليه الخُمُول بعد استِقْرار دايلها ، السلطان أبى الوليد رحمه الله ، [وأصابته] (٤) أيام الهَيْج مِحَن ، ونُسِبت إليه نقائص ، زَوَّرَتْها حَسَدَتُه (٥) ، فصُرف عن القضاء ، وبقى مدَّة مَهْجُور الفِناء ، مُضَاع المكان عاطِلَ الدَّولة ، مُنْتَبَذاً فى مليك له ، خارج الحضرة ، يَنْحَنى على خُرْثِيٍّ (٦) ساقط القيمة ، ودفاتر ساقطة الثمن ، يتعلَّل بعُلالتها ، ويُزْجى الوقت بيَسيرها .

حدَّثنى الوزير أبو بكر بن الحكيم (٧) ، قال زرتُه فى منزله بعد عَزْله (٨) ، ونِسْبة الأمور التى لا تليق بمثله ، فأنشدنى بما يُنبِئ عن ضجره وضيق صدره :

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى ك ، وفى الملكية ، وساقط فى «ج» .

(٢) الأبدى بتشديد الباء وفتحها نسبة إلى مدينة أبدة . وهى مدينة أندلسية قديمة تقع شرق قرطبة على مقربة من منابع نهر الوادى الكبير . وهى بالإسبانية Ubeda

(٣) وردت فى «ج» ، رحبية . وفى «ك» رجبية . وهو تحريف . وبالتصويب يستقر المعنى

(٤) أضفنا هذه الكلمة من عندنا ليستقيم المعنى والسياق .

(٥) هكذا وردت فى «ك» ، وفى «ج» والملكية ، حسده .

(٦) أى : الشىء التافه الذى لا قيمة له .

(٧) وردت فى المخطوطين : الحكم . وهو تحريف .

(٨) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : عزلته .

أنا من الحُكم تائِبْ ... وعن دعاويه هـارِبْ
بعـد التَّفقُّه عُمْرى ... ونَيْل أسْنى المَرَاتبْ
وبعـد ما كنْتُ أرْقى ... على المنـابر خاطِبْ
أصْبَحْتُ أُرْمى بعارٍ ... لِلْحال غيرِ مُناسبْ
أشـكُو إلى الله أمْرى ... فهو المُثيبُ المُعاقبْ

وثبَت اسمه فى التاريخ المسمى « بالتاج »(١) تأريخى بما نصه :

شيخ الجماعة وقاضيها ، ومُنفِّذ الأحكام ومُمضيها ، وشايم(٢) سيوفها الماضية ومُنْتَضيها ، رأس بفضيلة نفسه ، وأحيا دارس رسْم القضاء بدَرْسِهِ ، وأوْدع فى أرض الاجتهاد ، بذْر السُّهاد ، فجنَى ثمرة غرْسه ؛ إلى وقار يَودُّ رَضْوى رجاحته(٣) ، وصَدْر تحسِد الأرضُ الغبيطة ساحَته ، ونادِرة يَدْعُوها فلا تتوقَّف ، ويُلقى عصاها فتتلقَّف ؛ ولم يزَل يَطْمَحُ بأمانيه ، ويضطلع بما يُعانيه ، حتى رُفع إلى الرُّتبة العالية ، وحصَل عـلى الحال الحالية ؛ وكان له فى الأدب مُشاركَة ، وفى قريض(٤) النظم حصَّة مباركة . إنتهى إلىَّ قوله يهنئ السلطان أبا عبد الله بن نصر ، بالإبلال من مرض فى اقترانٍ بعيد وفتح ، وذلك :

شفاؤك للمُلْك اعتزازٌ وتأييدُ ... وبُرْؤك مولانا به عيدُنا عِيدُ
مَرِضْتَ فلم تأو النفُوس لِرَاحةٍ ... ولا كان للدُّنيا قرارٌ وتمْهيدُ
[ولم تصبر عينى تود مو لماً](٥) ... ولازمها طول اعتِلالِك تسْهيد

(١) هو كتاب « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » . وقد سبق التعريف به فى المقدمة .
(٢) وشايم أى منتضى .
(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «ك» رجاجته .
(٤) وردت فى «ك» مربضة . وفى «ج» مريضة . وقد آثرنا نص الملكية .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى «ج» والملكية . وفى «ك» (ولم تصبر عينى توالى مؤلما)

وشِعره مختلف عن نمط الإجادة التى تناسب محلّه فى العلم ، وطبقته فى الإدراك فاختصرته .

مولده

عام تسعة وأربعين وستمائة .

« وفاته » فى السادس عشر لذى القعدة عام تسعة وعشرين وسبعمائة : ذكرته فى كتاب « عائد الصِّلة » قاضياً ، وفى كتاب « التَّاج المُحَلى » قاضياً أديباً . وذكره أبو بكر بن الحكيم (١) فى كتاب « الفوائد المُسْتغرَبة ، والموارد المُسْتعذبة » من تأليفه .

أحمد بن محد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن ابن يوسف بن سعيد بن جُزَىّ الكلبى

من أهل غرناطة ؛ ويعرف بابن جُزَىّ ؛ أوليَّته معروفة ، وأصالتُه شهيرة ؛ تُنظر فيما مر من ذلك [عند] (٢) ذكر سلفه ، وفيما يأتى فى ذلك ، بحول الله وقوته .

حالـه

من أهل الفضل والنَّزاهة ، والهمَّة ، وحُسن السَّمة ، واستقامة الطَّريقة ؛ غرَّب فى الوقار ، ومال إلى الانقباض ، وترشَّح إلى رُتب سلفه ؛ له مشاركةٌ

---

(١) هو من شيوخ ابن الخطيب، وهو ولد الوزير الشهير أبى عبد الله محمد بن الحكيم . ولد سنة ٦٦٥ هـ وتوفى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) وتولى مثل أبيه الوزارة . وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد بإفاضة فى المجلد الثانى من الإحاطة .

(٢) يظهر أنه قد سقطت هنا فى المخطوطين كلمة (عند) ، أو نحوها ليستقيم المعنى ، فأضفناها .

حسنة فى فنون ، من فِقْه وعَرَبيَّة ، وأدب ، وحفظ ، وشعر ، تسمو[(١)] ببعضه الإجادة ، إلى غاية بعيدة .

مشيخته

قرأ على والده الخطيب أبى القاسم ، ولازمه ، واستظهر[(٢)] ببعض موضوعاته ، وتأدب به ؛ وقرأ على بعض معاصرى أبيه ، وروى ؛ واستَجْلب له أبوه كثيراً من أهل صُقْعة وغيرهم .

نباهتــــه

ثم أُرْسِم فى الكتابة السلطانية لأوّل دولة السابع من الملوك النَّصَريين ، مَنْفِق سوق الحِلْية من أبناء جنسه ، أبى الحجاج بن نصر ، فورى زَنْدُه ، ودَرَّت أحلاب قريحته ، وصَدَر له فى مدائحه شعر كثير . ثم تصّرف فى الخُطَط الشَّرعية ، فوُلِّى القضاء ببرْجَة[(٣)] ، ثم بأنْدَرَشْ[(٤)] ، وهو الآن قاضى مدينة وادى آشْ مشكور السيرة ، معروف النَّزاهة ، أعانه [ذلك][(٥)] وسوَّده ، وبلغ به رُتْبة سَلفه . وجرى ذكره فى كتاب التَّاج بما نصه :

« فاضلٌ تحلَّى بالسكينة والوقار ، فمدَّت إليه رقاب سَلفه يد الافتقار ، ما شئت

---

(١) وردت فى المخطوطين : (سما) ، وبهذا التصويب يستقيم المعنى .

(٢) هكذا فى الملكية وفى «ج» (استظهره) والأولى أرجح .

(٣) برجة هى Berja الحديثة وهى من أعمال ولاية المرية ، وتقع غربى ثغر المرية على مقربة من البحر المتوسط .

(٤) وردت فى المخطوطين وفى الملكية «أندش» وهو تحريف . وأندرش Andrax هى بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية أيضاً ، تقع فى شمال بلدة برجة . وهى شهيرة فى تاريخ مملكة غرناطة إذ كانت مقر أبى عبد الله آخر ملوك الأندلس بعد تسليم غرناطة . وبها أقام زهاء عامين حتى عبر البحر إلى المغرب فى أكتوبر سنة ١٤٩٣ م .

(٥) زيادة مرجحة لا يستقيم بغيرها السياق .

من هدوء وسكون ، وجنوح إلى الخير وركون ، عني بالمحافظة على سمته من لدن عقل ، ولزم خدمة العلم فما عاد ولا انتقل ، ووجد من أبيه رحمه الله مرعى خصيباً فابتقل ، وعمل على شاكله[1] سلفه فى سلامة الجانب ، وفضل المذاهب ، وتحلى بتلك المآثر وتوشح ، وتأهل إلى الرتب فى سن الشبيبة وترشح ؛ وله مع ذلك فى لجة الفقه سبح ، وعلى بعض موضوعات أبيه شرح ؛ وأدبه ساطع ، وكلامه حسن المقاطع . فمن ذلك ما كتب به إلىّ ، وقد خاطبت ما أمكن من نظمه :

فَدَيْتُك يا سيدى مثلما ... فَدَاك الزمانُ الذى زِنْتَه

وقوله فى المقطوعات من ذلك فى معنى التورية :

كم بكائى لبعدكم وأنينى ... مَن ظهيرى على الأسى مَن مُعينى
جراح الخدَّ دمعُ عينى ولكن ... عجبٌ أن يُجرح ابن معين

وقال فى الغنى[2] :

أرى الناس يولون الغنيَّ[3] كرامة ... وإن لم يكن أهلا لرفعة مقدار
ويَلوون عن وجه الفقير وجوههم ... وإن كان أهلاً أن يُلاقى بإكبار[4]
بنو الدهر جاءتهم أحاديث جَمَّةٌ ... فما صحَّحُوا إلا حديث ابن دينار[5]

ومن بديع ما صدر عنه ، قوله ينسج على منوال امرئ القيس[6] فى قصيدته الشهيرة :

أقول لحزمى[7] أو لصالح أعمالى ... إلا عِمْ صباحا أيها الطَّلل البالى

(١) وردت فى «ج» والملكية (شاكلته» والتصويب أنسب للسياق .

(٢) فى المخطوطين : المغنى ، وهو تحريف حسبما يتضح بعد من نص الشعر .

(٣) وردت فى المخطوطين : الغبى . والتصويب من نفح الطيب وهو يتفق مع سياق البيت التالى .

(٤) فى المخطوطين : بآثار . والتصويب من نفح الطيب .

(٥) لم يرد هذا البيت فى المخطوطين . ونقلناه عن نفح الطيب .

(٦) وردت فى «ج» والملكية (السقرطينى) . والمرجح أن ذلك تحريف وأن الكلمة المقصودة هى (امرئ القيس) حسبما يدل على ذلك ما قاله المقرى عند تقديم القصيدة فى نفح الطيب (ج ٣ ص ٢٧٠) وفى أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٢) .

(٧) هكذا فى المخطوطين ؛ وفى النفح وأزهار الرياض : لعزمى .

أما واعظى شَيْبٌ سما فوق لِمَّتى … سُمُوَّ حباب الماء حالا على حال
أنار به ليـــل الشَّباب كأنه … مصابيحُ رُهْبانٍ تَشبُّ لقُفَّال
نهانى عن غىٍّ وقال مُنبِّهًا … أَلَسْتَ ترى السُّمّاروالناس أحوالى
يقولون غَيِّره لتنعم برهـــةً … يَعْمِنْ به⁽¹⁾ من كان فى العصر الخالى
أغالطُ دهْرى وهو يعلم أننى … كبرتُ وأن لا يُحسِنُ اللَّهو أمثالى
ومُؤْنِسُ نار الشَّيبِ يَقْبحُ لَهْوُه … بآنِسَةٍ كأنَّها خطُّ تِمْثال
أشَيْخًا وتــأتى فعل مَنْ كان عُمْرُه … ثلاثين شهراً فى ثلاثة أحوال
وتُشْغِفُكَ الدُّنيا وما أن شَغَفْتَها … كما شَغَفَ المهنوءةَ الرجلُ الطَّالى
ألا أنَّها الدنيا إذا ما اعتبرتَها … ديار لسَلْمَى عافياتٌ بذى خال
فأين الذين استأْثَرُوا قَبْلنا بها … لناموُا فما إن من حديث ولا صال
ذَهلت بها غيًّا فكيف الخلاصُ من … لعُوبٍ تنسينى إذا قُمْتُ سِرْبالى
وقد علِمَتْ منى مواعيد تَوْبَتى … بأن الفتى يهذى وليس بفعَّال
ومُذْ وثِقَتْ نَفْسى بحبِّ محمد … هَصَرْتُ بغُصنٍ ذى شماريخ مَيَّال
وأصبح شيطانُ الغواية خاسئاً … عليه قتام⁽²⁾ سيئ الظن والبال
ألا ليْتَ شِعْرى هل تقول عزائمى … لِخَيْلى كُرِّى [كَرَّةً بعد]⁽³⁾ إجفال
فأنزلَ داراً للنبى نزيلُهـــا … قليلُ هُمُومٍ ما يَبيت بأوجَال
فطُوبىَ لنفْسٍ جاوَرَتْ خَيرَ مُرْسَل … بيَثْرِبَ أَدْنَى دَارها نظرٌ عالى
ومِنْ ذِكْره عند القبول تعطَّرت … صَبًا وشَمْألٌ فى منازل قُفَّال
جِوَارُ رسول الله مجدٌ مؤثَّلٌ … وقد يُدرِكُ المَجْدَ المُؤَثَّل أمثالى

---

(١) عمن بالمكان أى أقام به .
(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : القتام . والقتام هو الغبار الأسود .
(٣) وردت فى المخطوطين ، (كرا ذات) والتصويب من الملكية والنفح والأزهار .

ومن ذا الذى يثنى عِنان السُّرى وقد كفانى ولم أُطلب قليلٌ من المال
ألم ترَ أنَّ الظَّبْيَة استشْفَعَتْ به تَميل عليه هُونةً غير مِحْفَال
وقال لها عُودِى فقالت له نعم ولو قطّعوا رأسى لدَيْك وأوْصالى
فعادَتْ إليه والهَوَى قائلٌ لها وكان عداء الوَحْش منى على بالى
رثى لبعيرٍ قال أزْمَعَ مالكى ليَقْتُلنى والمرء ليس بفعال[(١)]
وثورٍ ذبيح بالرسالة شاهد طويل القرا والرَّوْق اخْنَس ذيَّال
وحنَّ إليه الجِذْع حَنَّةَ عاطش لغَيْثٍ من الوَسْمِى رائده خالى
وأصلين من نخل قد التأما له فما اختَبَسا من لِين مَسٍّ وتسهال[(٢)]
وقبْضةِ تُرْبٍ منه ذلَّت لها الظبا[(٣)] ومسنونةٍ زُرْق كأنياب أغوال
وأضحى ابن جَحْشٍ بالعَسِيب مقاتلاً وليْس بذى رُمْح وليْسَ بنبَّال
وحسبُك من سيف[(٤)] الطُّفيل إضاءة كمِصْباح زَيْتٍ فى قناديل ذُبَّال
وبُذَّت به العَجْفاء كلَّ مُطهّم له حَجَبات مُشْرفات على الفال
ويا خَسْفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا على هَيْكل نَهد الجزارة جوَّال
وقد أُخْمِدَتْ نارٌ لفارسَ طالما أصابت غَضَى [جَزْلاً][(٥)] وكفَّت بأجْزال
أبان سبيل الرُّشْد إذ سُبُل الهُدى[(٦)] يَقُلْن لأهل الحلم ضَلاًّ بتضْلال
لأحْمَدَ خير العالمين انتقيتُها ورُضْت فذلَّت صَعْبَةً[(٧)] أى إذلال

---

(١) لم يرد هذا البيت فى المخطوطين ، ونقلناه عن نفح الطيب .

(٢) وردت فى المخطوطين : وتسآل ، والتصويب من النفح والأزهار .

(٣) فى المخطوطين ، الصبا . والتصويب من الملكية والنفح .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح سوط .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ونقلناها عن النفح والأزهار .

(٦) «إذ سبل الهدى» نقلناها عن النفح . ومكانها فى المخطوطين عبارة مضطربة : (إذ سبل به). وكذا فى الملكية .

(٧) وردت فى المخطوطين طبعه . والتصويب من النفح .

وإن رَجائى أن ألاقيه غَدًا ولستُ بمَقلى الخِلال ولا قالى
فأدْرك آمالى وما كلُّ آمل بمُدرك أطراف الخطوب ولاوَالى

ولاخفاء ببراعة هذا النَّظم ، وإحكام هذا النَّسج ، وشدَّة هذه العارضة[1]. وله تقييدٌ فى الفقه على كتاب والده ، المسمى بالقوانين الفقهيه ، ورجزٌ فى الفرائض يتضمن العمل . واحسانُه كثير . وتقدم قاضياً بحَضْرة غرناطة ، وخطيباً بمسجد السلطان ، ثامن شوال من عام ستين وسبعمائة . ثم انصرف عنها ، وأُعيد إليها فى عام ثلاث وستين ، موصوفاً بالنزاهة والمَضَاء .

« مولده » ، فى الخامس عشر من جمادى[2] الأولى عام خمسه عشر وسبعمائه، وهو الآن بقيد الحياة .

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد بن سَعْدة ابن سعيد بن مَسْعدة بن ربيعة بن صخر بن شراحيل[3] بن عامر بن الفضل بن بكر[4] بن بكَّار بن البدر بن سعيد بن عبد الله العامرى

يكنى أبا جعفر ، من أهل غرناطه .

أوّليته

عامر الذى ينتسبون إليه ، عامرُ بن صَعْصَعة بن هَوازِن بن منصور بن عَكْرَمة ابن حَفْصة بن قيْس بن عيلان بن مُضر بن نزار بن معدّ بن عدنان .

(١) وردت فى المخطوطين (المعارضة) والتصويب من النفح .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» ، لجمادى .

(٣) فى «ك» سراخيل . وفى «ج» سراحيل .

(٤) وردت فى المخطوطين : بدال . وهو تحريف . ويؤيد هذا التصويب ما يرد بعد قليل فى السياق .

ومن مناقبهم ؛ مَيْمُونة أم المؤمنين ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَعَمْرو بن عامر من أصحابه ، وعاصم بن عبد الله الجَعْلى ، ويزيد بن الحِمْيرى ، وغيرهم . مَنْزِل جدّهم الداخل إلى الأندلس ، وهو بكرُ بن بَكَّار بن البَدْر بن سعيد بن عبد الله ، قرية طِغْنر[١] ، من إقليم بَراجلة[٢] ابن خريز من إلبيرة .

قال ابن الصيرفى[٣] فى تاريخه الصغير : منزل بنى مَسْعَدة ، موضعُ كرم وَمَحْمَدة ، ينتسبون فى عامر ، وهم أعيان عِلْية ، فرسان أكابر ، وحُجَّاب وكُتَّاب ووزراء ، ولهم سابقات ومفاخر ، وأوائلُ وأواخرُ . ومنهم على القِدَم جليل[٤] ونبيه ؛ ومنهم كان وضيعُ بن جَرَّاح الفقيه ؛ لم يُدخل أحد منهم فى الفتنة يداً ، ولا تأذى مُسْلماً ، ولا مُعاهداً[٥] ، على قُدْرتهم على ذلك ؛ وكفى به فخراً لا ينقطع أبداً . ودخل جدّهم الأندلس بعقد بنى مروان له ، سنة أربع وتسعين من الهجرة ؛ ويأتى من ذكر أعلامهم ما يدلّ على شرف بيتهم ، وأصالته ، وعلُوِّه وجلالته .

---

(١) ورد اسم هذه البلدة محرفاً فى المخطوطين : (طغنس) . والصواب هو « طغنر » Tignar التى منها الطغنرى صاحب كتاب الفلاحة . وموقعها على مقربة من غرناطة . وقد سبقت الإشارة إليها . راجع الحاشية فى ص ١٢٩ .

(٢) سبق أن أوضحنا المعنى الجغرافى لكلمة براجلة وبراجلات Parcelas . وهى البقاع والسفوح الواقعة فى أسافل جبل الثلج Sierra Nevada . وبراجلة ابن حريز أو خريز هى إحدى هاته البقاع المجاورة لبلدة إلبيرة .

(٣) وردت فى المخطوطين : السيرفى وهو تحريف .

(٤) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (ولا) لتقرأ العبارة (جليل ولا نبيه) ، ووجودها على على هذا النحو غامض مناقض للسياق ، فحذفناها وأبقينا الواو ليستقيم المعنى .

(٥) هكذا وردت فى «ك» . و «ج» عاهد . وهو تحريف ووردت فى «الملكية» (ولا تأذى به مسلم ولا معاهد) . والمعاهد هو النصرانى الذى كان يعيش فى ظل الحكومة الإسلامية Mozarabe وقد سبق التعريف بأحوال المعاهدين . راجع الحاشية فى ص ١٠٦ .

حـــاله

كان صَدْراً جليلا ، فقيهاً مضطلعاً[١] ، من أهلِ النَّظر السَّديد والبحث ، قائماً على المسائل ، مشاركاً فى كثير من الفنون ، جَزْلا مهمًّا ، جارياً على سُنن سلفه ، ريّان من العربية . وختم سيبَويه تفقّهاً ، وقرأ الفقه ، واستظْهر كتاب التّلقين ، ودرس الأحكام الجيدة[٢] ، وعرضها فى مجلس واحد ، وقرأ أصول الفقه ، وشَرَح المُسْتَصْفَى شرحاً حسناً ، وقرأ الإرشاد والهداية[٣] ؛ وكان صدراً فى الفرائض والحساب ، وألّف تاريخ قومه وقرابته .

ولايتـــه

ولىّ القضاء بمواضع من الأندلس كثيرة[٤] من البشارات[٥] ، أقام بها أعواماً خمسة ؛ ثم لوْشة[٦] ، وأقام بها ثلاثة أعوام ؛ ثم بَسْطة وبُرْشانة[٧] . ثم انتقل إلى مالقة ، وأقام بها أعواماً خمسة . نبّهتُ على مقدار الإقامة لما فى ضِمن طول سنى الوَلاية من استقامة أمر الوالى . وكان له من أمير المسلمين بالأندلس حُظوة لطيفة لم تكن لغيره ، استَنْزلها بسحر التلطُّف ، وخطبها بلسان التَّملُّق حتى استَحْكمت له أسبابُها .

(١) وردت فى المخطوطين : مصطلما . وهى كلمة لا معنى لها . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) هكذا فى «الملكية» ، ووردت فى «ج» (الجدية) .

(٣) وردت فى المخطوطين : والنهاية .

(٤) وردت فى المخطوطين : كثير .

(٥) «البشارات» سبق التعريف بمعناها الجغرافى . وهى السفوح والسهول فى منطقة ميرا نفادا» الوسطى ، ومقابلها الإسبانى Alpujarras راجع الحاشية ، فى ص ١١١ .

(٦) لوشة هى بلد ابن الخطيب . وقد سبق التعريف بها فى المقدمة .

(٧) سبق التعريف بهما ، راجع الحاشيتين فى ص ١٠٩ .

حدثني بعض أشياخي ممن كان يباشر حال السلطان يومئذ ؛ قال : وجّه ابن مسعدة ابنه من مالقة ، بكتاب فى بعض الأغراض الضرورية ، ثم رغب فيه أن يُنعم على ولده بالمُشافهة لإلقاء أمر ينوبُ عنه فيه ؛ فلما حضر ، تناول رجْل السلطان فقبّلها ، وقال أمرنى أبى أن أنوب فى تعْفير الوجه ، فى هذه الرِّجل الكريمة الجهاديّة عنه خاصّة ، لبُعْد عهده بها ، إلى أمثال هذا ، مما اقتضت الانتفاع بعاجلٍ من الدُّنيا زهيدٍ ، لا يدرى ما الله صانعٌ فيه ؛ والإبقاء بما تجاوز الإفراط ، فى تقدُّمه بمالقة ، بعدَه دارُ الأعلام ، وديوانُ العقد ، وهو حَدَثٌ خليٌّ من العِلْم ، قريبُ العهد بالبلوغ ، فكانت على أنها غاية الصُّدور مَلْعباً ، إلى أن ضرب الدهر ضرباته ، وانتقلت الحال .

مشيخته

أولهم قاضى الجماعة ، أبو الحسن بن أبى عامر بن ربيع ؛ وثانيهم القاضى أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع ؛ وثالثهم أبو يحيى بن عبد المنعم الخَزْرجى[1]؛ ورابعهم العَدْل ، الرَّاوية ، أبوالوليد العطّار ؛ وخامسهم أبو إسحاق ابن ابراهيم بن أحمد[2] الخُشَني ؛ وسادسهم الأستاذ أبو الحسن الكِنانى الإشْبيلى ؛ وسابعهم محمد بن إبراهيم ابن مُفرِّج الأوْسى الدبَّاغ ؛ وثامنهم أبو جعفر أحمد بن على الرُّعَينى ، وتاسعهم أبو على بن أبى الأحْوص .

وصمته

فروى الناس أنه وُجد بخزانته بعد وفاته ، زمامٌ ، يشتمل على مثالب أهل غَرناطة ، مما يحدثُ على الأيام فى أفرادهم ، من فَلَتات يُجريها عدم الاتِّصاف بالعِصْمة . استقرّ عند ولده الفضل ، زعموا ، ثم خفى أثرُه ، ستر الله عيوبنا برحمته.

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» (المخزومى) .
(٢) هكذا فى «ج» ، وفى الملكية (مفرح) .

وفاته

توفى بمالقة قُرب صلاة المغرب ، يوم الأحد الموفى عشرين لذى الحجة عام تسعة وتسعين وستمائة ، ودفن بخارج باب قُبالة فى مالقة المذكورة بمقربة من رابعة بنى عمَّار ، وبالروضة المنسوبة لبنى يحيى ، نقلت من خط ولده الفضل .

أحمد بن محمد بن أحمد بن قُعْنب الأزدى

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن قُعْنُب .

« أوّليّته » ، ذكر الأستاذ ابن الزُّبير فى « صِلته »[1] وغيره ، أن قوماً بغرناطة يُعرفون بهذه المعرفة ، فإن كان منهم ، فله أوّليّة لا بأس بها .

حـاله

كان من شيوخ كُتاب الشُّروط معرفة بالمسائل ، واضطلاعاً بالأحكام ، وانفرد بصحّة الوثيقة ، باقعة[2] من بواقع زمانه ، وعيَّابة[3] فى مشايخ قطره ، يألف النادرة الحارّة فى ملاء من النّوْك والغفلة ، فلا يهتزّ لموقع نادرة ، ولا يضحك عقب عقد صَرْعة ، لقلقِه غير مامرة ، غير مجلس من مجالس القضاء من بنى مسعود المزْراة[4]

(١) هو كتاب « صلة الصلة » لأبى جعفر أحمد بن الزبير . وقد ذيل به على كتاب « الصلة » لابن بشكوال . ونشرت منه الأقسام التى عثر عليها منه ، بتحقيق المرحوم العلامة الأستاذ ليڤى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٧) ويقتبس ابن الخطيب كثيراً منه . ويترجم له فيما يلى

(٢) الباقعة هو الذكى الداهية من الرجال .

(٣) أى يكثر العيب فى الناس .

(٤) فى « الملكية » (المزارة)

أحكامُهم ، المرميّة بتهكه وإزْرائه ، فتقنّعَ (١) فى طريق حكمهم خُطاً منفسحة ، غير مكترث بهوانه ، ولاغاصٌ بلسانه . وربما قال لبعض الوَزَعة (٢) من قادته بمجسه ، وقد توقّفوا به فى بعض الطريق ، توقعاً لسُكون غضب قاضيهم ، إبعثوا بعضهم إلى هذا المَحْروم ، لنرى ما عزم عليه ، بكلام كثير الفتُور والاستكانة ، له فى هذا الباب شهرة .

« ذكرُ بعض نزَعاته » . حدَّثنى ملازمُه ، وقفُ عليه ، أبو القاسم بن الشيخ الرئيس أبى الحسن بن الجيّاب ، وقد أعمل والده ، رحلةً إلى مالقة لزيارة شيخه الذى تلمّذ له ، وشُهر بالتشيّع فيه ، أبى عبد الله السّاحلى ، صاحب الأتباع والطريقة ، وكان مفرط الغُلوّ فيه ، واستصحب ولدَه الصغير ، فسأله عن سفر أبيه [وسعيه] (٣) فقال نعم ، واحتمل أخى ، فقال أظنه منذ وُلد كان غير مختطس ، فحمله الشيخ ، فقطّسه ، واستغرب كل من حضر ضحكاً ، فلم يبتسم هو كأنه لا شعور عنده بما ذهب إليه ، فكانت إحدى الطّوام عند الشيخ .

وحدثنى ، قال : جاءت أمراة تخاصم ميّاراً (٤) ، أوصلها من بعض المدن ، فى أمرٍ نشأ بينهما ، وبيده عقْد ، فقال بعض جيرانه ، من نصه حاكياً ، « وأنه جامعها من موضع كذا إلى كذا » ولم يرسم المدّ على ألف جاء ، فقال الشيخ للمرأة ، أتعرفين أن هذا الميّار جامعك فى الطريق أى فعل بك ، فقالت معاذ الله ، ونفرت من ذلك ، فقال كذا شهد عليك الفقيه ، وأشار إلى جاره . ومثل

---

(١) أى خنع وذل .

(٢) هم الحراس والحجاب .

(٣) هذه الزيادة من «الملكية» .

(٤) هكذ وردت فى المخطوطين وفى الملكية . والميار هو الرجل الذى يجمع الميرة .

ذلك كثير . وُلى القضاء بأماكن عديدة كلوْشة ، وبَسْطة ، والمَسْند ، وبُرجة ، وأُرحبة[١] ، وغير ذلك .

مشيخته

يحمل عن الأستاذ أبى جعفر بن الزبير ، والخطيب الصالح أبى عبد الله بن فضيلة ، وأبى محمد بن سِماك ، وأبى الحسن بن مَسْتقور .

مولده

عام سبعين وستمائة . توفى قاضياً ببُرجة بعد علة سَدِكتْ[٢] به فى السادس عشر من شعبان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ، وانتقل منها فى وعاء خشب . ودفن بمقبرة إلبيرة ، تجاوز الله عنه ورحمه .

[أحمد بن محمد بن سعيد بن زيد الغافقى

من أهل غرناطة ، وجلّة بيوتها ، ويأتى من ذكر ذلك ما فيه كفاية .

حـاله

هذا الرجل ممن صُرفت إلى الله رُجعاه، وخَلَصت له معاملته ، وخلص إليه انقطاعه . نازع فى ذلك نفساً جامحة فى الحزم ، عريقة فى الغفلة ، فكتب الله له النصر عليها دَفْعة ، فشمر وفوت الأصول للحضرة فى باب الصَّدَقة ، ونبذ الشواغل ، وحفظ كتاب الله على الـكِبْرة ، واستقبل المحراب ، ملغياً سواه . درأ به ، فاتُّفق

---

(١) سبق التعريف ببسطة (الحاشية فى ص ١٠٩) وبرجة (الحاشية فى ص ١٥٨) . وأرحبة وبالإسبانية Orgiva ، هى بلدة تقع جنوب شرق غرناطة .

(٢) أى لازمت .

على فضله ، وغُبط فى حسن فيئته . وله ديوان نبيل ، يتضمن كثيراً من فقه النفس والبدن ، دل على نبله ؛ وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد . نفعه الله تعالى .

« مولده » ؛ بغرناطة عام تسعين وستمائة][1] .

أحمد بن أبى سهل بن سعيد بن أبى سهل الخزرجى

من أهل الحمّة[2] ، يكنى أبا جعفر .

« حاله » ، من أهل الخير والعفاف والطهارة والانقباض ، والصحة والسّلامة ، أصيلُ البيت ، معروف القدم ببلده ، حرّه[3] النادرة . قرأ بالحضرة ، واجتهد ، وحصّل ؛ ولازم الأستاذ أبا عبد الله الفخّار وغيره من أهل عصره . ووُلى القضاء ببلدة الحمّة ، ثم بغربى مالقة . وهو الآن قاض بها ، مشكور السيرة .

أحمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمي

من أهل ألمَريّة[4] . يكنى أبا القاسم ، ويعرف بابن وَرْد .

---

(١) وردت هذه الترجمة فى «ر.م» ، فى هامش ص ٢٧٢ ؛ ولم ترد فى المخطوطات الأربعة ، فرأينا إثباتها فى هذا المكان وفق ترتيبها الأبجدى .

(٢) الحمة أو الحامة Alhama ، تقع جنوب غربى غرناطة على قيد أربعين كيلو متراً منها . وقد كانت أيام مملكة غرناطة من أهم مدنها وأكثرها حصانة . وهى اليوم بلدة متوسطة .

(٣) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «ك» حاد

(٤) هكذا وردت فى «ك» . ووردت (غرناطة) فى «ج» و «الملكية» ، والأولى رجح حسبما يستدل بعد من سياق الكلام .

حـــاله

قال الملاّحى : كان من جلّة الفقهاء المُحدِّثين . قال ابن الزُّبير كذلك ، وزاد: موفور الحظِّ من الأدب والنحو والتاريخ ، متقدِّماً فى علم الأصول والتّفسير ، حافظاً متقناً ، ويقال إن عِلْم المالِكيَّة انتهت إليه الرياسة فيه ، وإلى القاضى أبى بكر بن العربى ، فى وقتهما ، لم يتقدَّمهما فى الأندلس أحد [بعد][1] وفاة أبى الوليد بن رشد . قال أخبرنى الثِّقة أبو عبد الله بن جَوْبر عن أبى عمر بن عات ، قال:حديث ابن العربى ، اجتمع بابن وَرْد ، وتبايتا ليلة ، وأخذا فى التَّناظُر والتذاكُر ، فكانا عجَباً . يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ماترك شيئاً إلا أتى به ، ثم يجيبه أبو القاسم بأبدع جواب يُنْسى السامعين ماسمِعوا قبله . وكانا أعجوبتى دهرهما . وكان له مجلسٌ يتكلم فيه على الصَّحيحيْن ، ويخص[2] الأخمسة بالتفسير .

«حلوله غرْناطة»[3] ؛ قال المؤرخون وُلِّى قضاء غرناطة سنة عشرين ، فعدل وأحسن السِّيرة ، وبه تفقه طلبتُها إذ ذاك .

مشيخته

روى عن أبى على الغسّانى ، وأبى الحسن بن سراج ، وأكثر عنه ، وأبى بكر بن سابق الصقيلى ، وأبى محمد بن عبد الله بن فرج المعروف بالعسَّال الزاهد ، ولازمه ، وهو آخر من روى عنه . ورحل إلى سِجلْماسة ، وناظر عند ابن العوَّاد[4] .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وقد أضفناها ليستقيم المعنى والسياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : ويحضر . وهو تحريف .

(٣) هكذا وردت فى «ج» ، وفى «ك» (حلوله عن غرناطة) وعن هنا لا محل لها .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى «الملكية» .

وروى أيضاً عن أبي الحسن المبارك المعروف بالخشّاب ، وكان الخشاب يحمل عن أبي بكر بن ثابت الخطيب وغيره .

«من روى عنه» ، وروى عنه جماعة كأبي جعفر بن الباذِش ، وأبي عبيد الله ، وابن رَفاعة ، وابن عبد الرحيم ، وابن حكيم وغيرهم . وآخر من روى عنه ، أبو القاسم ابن عُمران الخزرجي بفاس .

« وفاته » ، توفى بالمريّة فى الثانى عشر لرمضان سنة أربعين وخمسمائة .

أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن على الأموى [1]

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن بُرْطال [2] ، أصله من قرية تعرف بحارة البحر من وادى طرُّش [3] نصر حصن مُنْتِماس من شرقى مالقة ، من بيت خير وأصالة ، وانتقل سلفه إلى مالقة ، فتوَشّجت لهم بها عروقٌ ، وصاهروا إلى بيوتات نبيهة .

حـــاله

كان من أهل الخير ، وكان على طريقة مُثْلى من الصمت ، والسَّمْت ، والانقباض ، والذكاء ، والعدالة والتخصُّص ، محوّلا فى الخير ، ظاهر المروءة ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : الأمدى . والتصويب من كتاب « قضاة الأندلس » (ص ١٤٨) .

(٢) وردت فى المخطوطين وفى «الملكية» : ابن بطال ، وهو تحريف . وقد وردت بعد ذلك فى السياق «ابن برطال» وهو الصواب .

(٣) هو السهل الذى تقع فيه بلدة Torrox الحديثة أو طرش ، وذلك فى شرقى مالقة على قرب من البحر المتوسط .

معروف الأصالة ، خالص الطّعمة ، كثير العفّة ، مشهور الوقار والعفاف ، تحرّف بصناعة التوثيق على انقباض .

دخوله غرناطة

تقدم قاضياً بغرناطة ، بعد ولاية القضاء ببلده ، وانتقل اليها ، وقام بالرّسم المضاف إلى ذلك ، وهو الإمامة بالمسجد الأعظم منها ، والخطابة بجامع قلعتها الحمراء ؛ واستقل بذلك إلى تاسع جمادى الثانية من عام إحدى وأربعين وسبعمائة ، على قصور فى المعارف ، وضعف فى الأداة ، وكلال فى الجدّ ، ولذلك يقول شيخنا أبو البركات بن الحاج :

إن تقديمَ ابن بُرطـال دعا ... طالبَ العلم الى تركِ الطّلب

حَسِبوا الأشياء عن أسبابهـا ... فإذا الأشياء عن غير سبب

إلا إنه أعانه[1] الدربة ، والحُنْـكة على تنفيذ الأحكام ، فلم تؤثر عنه فيها أحدوثة ، واستظهر بجزالة ، أمْضَت حُـكمه ، وانقباضٍ عافاه عن الهوادة ، فرضيت سيرته ، واستقامت طريقته .

« مشيخته » ، لقى والده ، شيخ القضاة ، وبقيّة المُحدّثين ، وله الرواية العالية ، والدرجة الرفيعة ، حسبما يأتى فى اسمه ، ولم يؤخذ عنه شىء[2] فيما أعلم .

شعره

أنشدنى الوزير ، أبو بكر بن ذى الوزارتين ، أبى عبد الله بن الحـكيم ، قال

---

(١) هكذا وردت فى «لـك» . وفى «ج» و «الملكية» إعاده .

(٢) وردت فى المخطوطين : «شيئاً» وهو تحريف .

أنشدنى القاضى أبو جعفر بن بُرطال لنفسه ، مُودِّعاً فى بعض الأسفار :

أستودع الله [من لوداعهم](١) قلْبي ورُوحى إذ دَنَى الوَداع
بانوا وطرْفى والفؤاد ومِقولى باكٍ ومسلوب العزاء وداع
فتولَّ يا مولاى حِفْظَهُم ولا تجعل تفرُّقنا فِراق وَداع

وفاته

توفى رحمه الله ، وعفا عنه ، أيام الطاعون الغريب(٢) بمالقة ، فى منتصف ليلة الجمعة خامس صفر عام خمسين وسبعمائة ، وخرجت جنازته فى اليوم التالى ، ليلة وفاته فى رَكْبٍ من الأموات ، يناهز الألف ، وينيف بمائتين ، واستمر ذلك مدة ، وكان مولده عام تسعة وثمانين وستمائة ، رحمه الله تعالى .

أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومى

بلنسى شقورى(٣) الأصل يكنى أبا مُطرِّف .

« أوَّليَّتُه » لم يكن من بيت(٤) نباهة ، ووقع لابن عبد الملك فى ذلك نقل ، كان حقه التجافى عنه ، لو وُفق .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين ، وفى «الملكية . ووردت فى «ت» (الزيتونه) (الأولى أودعتهم) . وقد آثرنا النص الأول المجمع عليه .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (القوا) وهى دخيلة هنا فأغفلناها . ويشير ابن الخطيب هنا إلى الوباء الهائل الذى اجتاح المشرق والمغرب سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٩م) ، وطاف بالأندلس وفتك بأهلها. وقد كتب عنه ابن الخطيب رسالته المسماة « مقنعة السائل عن المرض الهائل» التى ذكرناها فى المقدمة .

(٣) نسبة إلى شقورة . وهى بلدة تقع شمال شرقى مدينة أبدة ، وشمال غربى جبال شقورة Sierra de Segura وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعمال ولاية جيان . وتسمى اليوم بالإسبانية Scgura de Sierra

(٤) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» أهل . والأولى أرجح ، وهى متفقة مع ما يرد بعد فى السياق .

حاله

قال ابن عبد الملك[(١)] : كان أوّل طلبه العلم، شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث ، وأخذه عن مشايخ أهله ، وتفنّن فى العلوم ، ونظر فى العَقْليّات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فيه براعة ، عُدّ بها من كبار مُجيدى النّظم . وأما الكتابة ، فهو عَلَمُها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدّهور، ولاسيما فى مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان[(٢)]، وله المُطوّلات المُنْتَخَبة ، والقِصار المقتَضبة ، وكان يُملح[(٣)] كلامه نظماً ونثراً بالإشارة إلى التاريخ ، ويُودِعه إلماعات بالمسائل العِلمية مُنوّعة المقصد . قلت : وعلى الجملة ، فذاتُ أبى المطرِّف فيما ينزع اليه ، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحْدِه ، إدرا كاً وتفنّناً ، بصيراً بالعلوم ، مُحدِّثاً ، مكثراً ، راوية ثبْتاً ، سَجِراً[(٤)] فى التاريخ والأخبار ، ريّان ، مضطلعاً بالأصْلين ، قائماً على العربية واللغة ، كلامه كثير الحلاوة والطّلاوة ، جمّ العيون ، غزير المعانى والمحاسن ، وافد أرواح المعانى ، شفّاف اللفظ ، حرّ المعنى ، ثانى بديع الزمان ، فى شكوى الحِرفة ، وسوء الحظ ، ورونق الكلام ، ولُطْف المأخذ ، وتبريز النثر على النظم ، والقُصُور فى السّلطانيات .

مشيخته

روى عن أبى الخطاب بن واجب ، وأبى الربيع بن سالم ، وأبى عبد الله بن فرج وأبى على الشلَوبين ، وأبى عُمر بن عات ، وأبى محمد بن حَوْط الله ، لقيهم ، وقرأ

(١) هو القاضى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشى المتوفى سنة ٧٠٣ هـ ، صاحب كتاب «الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة» وهو موسوعة تراجم عظيمة أندلسية ومغربية ، ومنه أجزاء مخطوطة بباريس والقاهرة والإسكوريال والرباط والمتحف البريطانى . وقد صدرت منه بضعة أجزاء فى بيروت (١٩٦٤ — ١٩٦٥) .

(٢) وردت فى المخطوطين : الإنسان . والتصويب من «ت» والذيل والتكملة .

(٣) وردت فى المخطوطين : (يعلم) والتصويب من الذيل والتكملة .

(٤) هكذا وردت فى « ج » وفى « الملكية » . وفى « ك » شحرا . والسجر هو الملء .

عليهم ، وسمع منهم ، وأجازوا له ؛ وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر بن أبي الفرَج وغيره .

« من روى عنه » ؛ روى عنه ابنه القاسم ، وأبو بكر بن خطّاب ، وأبو إسحاق البُلْقيني الحفيد ، والحسن بن طاهر بن الشقُّوري ، وأبو عبد الله البَرِّي . وحدّث عنه أبو جعفر بن الزُّبير ، وابن شقيف ، وابن ربيع ، وغيرهم مما يطول ذكره .

نباهتـه

صحب أبا عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن خطّاب ، قبل توليته ما تولىَّ من رياسة بلده ، وانتفُع به كثيراً ؛ وكتب عن الرئيس أبي جميل زيّان ابن سعد[١] ، وغيره من أمراء شرق الأندلس . ثم انتقل إلى العُدْوة[٢] ، واستكتبه الرشيد[٣] أبو محمد عبد الواحد[٤] بمراكش ، مدة يسيرة ؛ ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مِلْيانة من نظر مَرّاكُش [الشرق][٥] ، فتولاه قليلا ، ثم نقله إلى أقصى رِباط الفتح . وتوفى الرشيد ، فأقره على ذلك الوالى بعده ،

(١) الرئيس أبو جميل زيان بن سعد بن مردنيش ، كان أميراً لبلنسية واستمر على إمارتها حتى حاصرها الأرجوينون بقيادة الملك خايمي الأول سنة ٦٣٥ هـ . وقد أوفد عندئذ كاتبه الشهير أبا عبد الله ابن الأبار القضاعى إلى صاحب تونس الأمير أبى زكريا يحيى الحفصى يستنجد به ويطلب عونه . وأنشد ابن الأبار لهذه المناسبة بين يدى أمير تونس قصيدته المشهورة التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد استجاب أبو زكريا للنداء ، وبعث طائفة من السفن تحمل الأموال والمؤن إلى مياه بلنسية . ولكنها أخفقت فى الاتصال بأهل المدينة . وسقطت بلنسية فى يد النصارى فى العام التالى أى فى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) .

(٢) أى عدوة المغرب .

(٣) هو خليفة الموحدين ، وولد الخليفة العادل . حكم فى مراكش من سنة ٦٣٠ إلى سنة ٦٤٠ هـ .

(٤) وردت فى المخطوطين : عبد الوليد ، وهو تحريف .

(٥) الزيادة من الملكية .

أبو الحسن المُعتضد أخوه ؛ ثم نقله إلى قضاء مِكْناَسة الزَّيتون ؛ ثم لما قتل المعتضد لحق بسَبْتة ، وجرى عليه بطريقها ما يذكر فى مِحْنته . ثم رَكِب البحر منها متوجهاً إلى إفريقيَّة ، فقدم بجَاية على الأمير أبى زكريا يحيى بن الأمير أبى زكريا[١] . ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله ، وولى قضاء مدينة الأُرش[٢] . ثم انتقل إلى قابس ، وبها طالت مدة ولايته ؛ واستدعاه المُسْتنصر بالله[٣] محمد بن أبى زكريا ، ولطُف محله منه ، حتى كان يحضر مجالس أُنْسِه ، وداَخله بما قرَفته[٤] الأَلْسُن بسببه حسبما يذكر فى وَصْمته .

مناقبه

وهى الكتابة والشعر ؛ كان يَذكر أنه رأى فى منامه ، النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فناوله أقلاماً ، فكان يُرْوى له أن تأويل تلك الرُّؤيا ، ما أدرك من التَّبريز فى الكتابة ، وشِياع الذكر ، والله أعلم .

ومن بديع ما صَدَر عنه ، فيما كتب فى غرض التَّورية ، قطعة من رسالة ، أجاب بها العبَّاس بن أمية ، وقد أعلمه باستيلاء الروم على بَلنْسِية[٥] ، فقال :

« بالله أىَّ نحو ننحُو ، أو مَسْطورٍ نُثْبت أو نمْحُو ؛ وقد حُذف الأَصْلُ والزَّائد ، وذهَبت الصِّلةُ والعائد ؛ وباب التعجُّب طال ، وحالُ اليَأس لا تخْشى الانتقال ؛ وذهَبت علامةُ الرَّفْع ، وفقدت [نون] الجمع ؛ والمعْتلُّ أعْدَى

---

(١) كان أمير بجاية وقت وفود ابن عميرة إليها ، هو الأمير أبو زكريا يحيى بن الأمير أبى زكريا يحيى ولد الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، أمير تونس ومؤسس الدولة الحفصية الأفريقية .

(٢) هكذا وردت فى «ج» والملكية ، وفى «ك» (الأوش) . والظاهر أن هذا الاسم محرف

(٣) وردت فى المخطوطين : المنتصر بالله . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «الملكية» (قربته)

(٥) سقطت بلنسية فى يد النصارى حسبما تقدم فى صفر ٦٣٦ هـ . (سبتمبر ١٢٣٨ م) . والروم هنا هم «الأرجونيون» .

الصَّحيح والمُثلّثُ أرْدَى الفصيح ؛ وامتَنَعَت الجُمُوع من الصَّرف ، وأُمنَت زيادتُها من الحَذْف ؛ ومالت قواعدُ المِلَّة ، وصِرْنا جَمْعَ القِلّة ؛ وظهرَتْ علامةُ الخفْض ، وجاء بدلُ الكلِّ من البعض » .

ومن شعره فى المقطوعات التى وَرَّى فيها بالعلوم قوله :

قد عَكفْنا على الكتابة حيناً ... وجاءت(١) خُطّة القضاء تليها
وبكلٍ لم يبق للجُهْد إلا ... منْزِلاً نابياً وعيشاً كريهاً
نِسْبةٌ بُدِّلت ولم تتغيّر مثـ ... ـلُ ما يزعمُ المهندس فيها

وكقوله مما افتتح به رسالة :

ياغائباً سلَبَتنى الأُنسَ غيبتهُ ... فكيف صبرى وقد كابدتُ بَيْنَهُما
دَعْواى أنَّك فى قلْبِي فعارَضَها ... شوق إليك فكيف الجمْعُ بَيْنَهُما

وفى مثل ذلك استفْتاحُ رسالته أيضاً :

إن الكِتاب أتى وساحةُ طِرْسه ... روحٌ مُوَشًّى(٢) بالبديع مُرَتّعُ(٣)
وله حقوقٌ ضاق وقتُ وجوبها ... ومِنَ الوُجُوب مُضَيَّقٌ وموسّع

وفى مثل ذلك فى استفتاح رسالة أيضاً :

كبَّرْتُ بالبُشْرى أتت وسماعُها ... عيدى الذى لشُهُودِه تكبيرى
وكذلك الأعياد سُنة يومها ... مختصَّة بزيادة التَّكبير

وفى أغراض أُخَرْ :

بايَعُونا مَوَدَّةً هى عندى ... كالمرآة(٤) بيعها بالخِدَاع
فسأقْضى برَدِّها ثم أقضى ... بعدها من مدامعى(٥) ألف صاع

(١) فى «الملكية» (ثم جاءت) .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» (الزيتونة) موشح .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» مرتبع .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» و «ت» كالممرات ،كالممارات .
(٥) هكذا فى «ت» . وفى «ج» مدامتى . وفى «ك» قدامتى .

وله فى معنى آخر :

شرَطتُ عليهم عند تسليم مُهجتى ... وعند انعِقاد البَيع قُرباً يُواصل
فلما أردتُ الأخْذبالشرط أعرَضوا ... وقالوا يصحُّ البيع والشَّرْطُ باطل

تصانيفـــه

له تأليفُ فى كائنة مَيُرْقة[1] ، وتغلُّب الرُّوم عليها ، نحى فيه مَنحى العِماد الأصْفَهانى ، فى الفتْح القُدْسى[2] ؛ وكتابُهُ فى تعقيبه ، على فخر الدين بن الخطيب الرَّازى فى كتاب المعالم فى أصول الفقه منه ؛ وردُّه على كمال الدين أبى محمد بن عبد الـكريم السِّماكى فى كتابه المسمى بالتِّبيان فى علم البيان ؛ واقتضابُه النبيل[3] فى ثورة المُريدين[4] ، إلى غير ذلك من التعاليق[5] والمقالات ودوَّن الأستاذ أبو عبد الله ابن هانىء السَّبْتى كتابته وما يتخلَّلُها من الشِّعر فى سفْرين بديعين أتقن ترتيبهما ، وسمَّى ذلك « بغُية المُسْتطرف ، وغُنْيه المُتطرِّف[6] من كلام إمام الـكتابه ابن عميرة أبى المطرِّف » .

---

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» مريقة . وفى «ت» (الزيتونة) المرية وهو تحريف . وكائنة ميورقة يقصد بها هنا استيلاء النصارى على جزيرة ميورقة كبرى جزائر البليار أو الجزائر الشرقية ، وذلك فى سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٨م) على يد ملكهم خايمى ملك أراجون الذى سبقت الإشارة إليه.

(٢) كتاب العماد الأصفهانى المشار إليه هنا هو «كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى» وهو من تأليف عماد الدين أبى عبد الله محمد بن هبة الله القرشى الأصفهانى المشهور بالعماد الكاتب . المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) . وفيه يصف الحوادث التى اقترنت بفتح بيت المقدس على يد الملك الناصر صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) . وينحو فيه منحى السجع المرتب . وقد كان شاهداً لكثير من الحوادث التى يصفها .

(٣) وردت فى «ج» السميل ، وفى «ك» النسيل . وهو فيما يبدو تحريف لما أثبتناه .

(٤) كتاب «ثورة المريدين» من تأليف أحمد بن قسى ، وهو من زعماء ولاية الغرب الأندلسية فى أواسط القرن السادس الهجرى ، وكان شاعراً متصوفاً. ولم يصلنا كتابه المشار إليه .

(٥) فى المخطوطين : العماليق . وهو تحريف ظاهر .

(٦) هكذا فى «ك» . وفى «ج» المطرف .

دخوله غرناطة

[قال](١) شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب . عَمير أخبرُ بذلك مِنْ شيوخه — والرجل ممن يُركن إليه فى أخباره فيما أحقُّوا(٢) على سبيل الرواية والإخبار ، من شرْق الأنْدلس ، إلى غرْناطة ، إلى غرْبها إلى غير ذلك ، عند رحلته ، وهو الأقْرب ، وقال : قال المخبر ، عهدى به طويلا ، نحيف الجسم ، مُصْفراً ، أقْنى الأنْف ، أصيب بمالقة ما أحوج ما كان إليه ، وقد استقبل الـكَبْرَة(٣) ، ونازعه(٤) سوء الحظ ، قال الشيخ أبو الحسن الرُّعَينى ، إنه كتب إليه يُعْلمُهُ بهذه الحادثة عليه ، وأن المنْهُوب من ماله ، يَعْدل أربعة آلاف دينار عُشْرية ، وكان ورقاً وعيناً وحُليّا وذلك أنه لما قُتل المعتضد ، اغتنم الفطرة(٥) ، وفصَل عن مِكناسة ، قاصداً سَبْته ، فلقى الرفقة التى كان فيها جَمْعٌ من بنى مَرين ، سلبوه وكلّ من كان معه .

مولده

بجزيرة شقْر(٦) وقيل بَبَلَنْسِية فى رمضان اثنتين وثمانين وخمسمائة .

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ، ويقتضيها السياق .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين مع تحريف بسيط . وفى «ت» «مما أخفوا» .

(٣) الكبرة هى كبر السن .

(٤) هكذا وردت فى «ت» و «ج» و « الملكية» ، ووردت فى «ك» (وقارعه) ، والمعنى واحد .

(٥) هكذا فى «ج» و «الملكية» وفى «ك» (الفترة) .

(٦) جزيرة شقر كانت تطلق أيام الدولة الإسلامية على الجزيرة الكبيرة الواقعة فى نهر شقر Jucar . قبل مصبه فى البحر المتوسط جنوبى بلنسية . وكانت من أجمل البقاع فى تلك المنطقة ، وكانت تسمى أحياناً بالجزيرة فقط . وهو الاسم الذى استعير فيما بعد لبلدة Alcira الإسبانية الواقعة على نهر شقر على مقربة من الجزيرة المذكورة . وقد كانت جزيرة شقر موطن كثير من العلماء والأدباء .

« وفاته » ؛ توفى بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين[١] ذى الحجة عام ستة وخمسين وستمائة . قال ابن عبد الملك ، وَوَهِم ابن الزبير فى وفاته ، إذ جعلها فى حدود الخمسين وستمائة أو بعدها .

أحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيي بن عبد الحق الجذلى

من أهل مالقة ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن عبد الحق .

حـاله

من صدور أهل العلم والتفنّن ، فى هذا الصقْع[٢] الأندلسى ، نسيجُ وحْدِه فى الوقار والحصافة ، والتزام مُثْلى الطريقة ، جمُّ التّحصيل ، سديد النظر ، كثير التخصُّص ، محافظ على الرسم ، مقبوضُ العِنان فى التَّطْفيف فى إيجاب الحقوق لأهلها ، قريب من الإعتدال فى معاملة أبناء جنسه ، مقتصد مع ثروته[٣] ، مؤثر للترتيب[٤] فى كافة أمره ، متوقد الفكرة مع سكون ، لينُ العريكة مع مَضاء ؛ مجموع خِصال حميدة مما يفيد التجريب[٥] والحُنْكة ؛ مضطلع بصناعة العربيه ، حائز قصب السّبق فيها ، عارف بالفروع والأحكام ، مشارك فى فنون من أصول ، وطبٍ ، وأدب ، قائم على القراءة ، إمام فى الوثيقة[٦] ، حسنُ الْخَطّ ، مليح السَّمة والشيبة[٧] عَذْب الفُكاهة ، حسن العهد ، تام الرجولية[٨] .

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «ت» عشر .
(٢) ترد دائماً فى «ك» السقع بالسين . وهو تحريف إملاء مستمر .
(٣) هكذا فى «ك» ، وفى «ج» ثورته . وهو تحريف ظاهر .
(٤) هكذا فى «ج» ، وفى «ك» للقريب . والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى «الملكية» وفى المخطوطين : التحريج ، والتخريج ، والأولى أرجح بالنسبة للمعنى .
(٦) الوثيقة والتوثيق كتابة العقود .
(٧) وردت فى «ج» الشيبهة . وفى «ك» ، الشبيبة . والتصويب أنسب السياق .
(٨) وردت فى المخطوطين : «الروجلية» . وهو تحريف .

نباهته

تصدَّر للاقراء ببَلدِه على وفور أهل العلم ، فكان سابق الحَلْبَة ، ومناخ الطيَّة ، إمتاعاً ، وتفنناً ، وحسن إلقاء[1] . وتصرف فى القضاء ببَلِّش[2] وغيرها من غرْبى بلده ، فحَسُنت سيرته ، واشتهرت طريقته ، وحُمدَت نزاهته . ثم وُلى خُطَّة القضاء بمالقة ، والنظر فى الأحْباس[3] بها ، على سبيل من الحظوة والنَّباهة ، مرجوعاً إليه فى كثير من مُهِمَّات بلده ، سائمةً وجوه السعادة ، ناطقةً ألسن الخاصة والعامة بفضله ، جمَّاعة نزاهته ، آوياً إلى فضل بيته . واتَّصلت ولايته إيَّاها إلى هذا العهد ، وهى أحد محامد[4] الوالى ، طولُ مدة الولاية ، لاسيما القاضى ، مما يدُلُّ على الصبر ، وقلّة القدْح ، وسدُّ أبواب التُّهم ، والله يُعينه ، ويمتع به بمنه .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى عبد الله بن بكر ، وهو نجيب حَلْبته ، والسَّهْمُ المُصيب من كِنانته ، لازمه ، وبه تفقَّه وانتفع ، وتلا القرآن عليه وعلى محمد بن أيوب ، وعلى أبى القاسم بن درهم عَلَمى وقتهما فى ذلك ، وعلى غيرها ، وتعلَّم الوثيقة على العاقد القاضى أبى القاسم بن العريف . وروى عن الخطيبَيْن المحدِّثين أبى عثمان ابن عيسى وأبى عبد الله الطَّنجالى وغيرها .

دخوله غرناطة

تردَّد إليها غير ما مرَّة ، منها فى أمور عرَضت فى شئونه الخاصَّة به ، ومنها

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» اللقاء ، وهو تحريف .

(٢) هى بلدة بلش مالقة Velez Malaga . وقد سبق التعريف بها . أنظر الحاشية فى ص ١١٢ .

(٣) أى الأوقاف .

(٤) هكذا فى «ك» . وفى «ج» المحامد .

مع الوفود الجلّة ، من أهل بلده ، تابعاً قبل الولاية ، متبوعاً بعدها . ومن شعره قوله فى جدول :

ومُقاربُ الشطّين[١] أحكم صَقْله ... كالمشْرَفى إذا اكتسَى بفرِنْده
فحَمائلُ الديباج منه خمائلُ ... ومعانقٌ فيها البَهارَ بورْدِه
وقد اختفى طرفٌ له فى دَوْحَةٍ ... كالسَّيف رُدَّ ذُبابه فى غِمْده

وقوله فى شجر نارنج مزهر :

وثمار نارنج نرى أزهارها ... مع نائئ النارنج فى تنضِيد
فإذا نظرت إلى تألُّفها أتت ... كمباسِمٍ[٢] أوْمَت لِلثْم خُدُود

وفاته

فى زوال يوم الجمعة السابع والعشرين لرجب عام خمسة وستين وسبعمائة .
« مولدُه » ، ثامن شوال عام ثمانية وتسعين وستمائة .

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن الصقر الأنصارى الخزرجى

يُكْني أبا العباس ، من أهل الثَّغْر الأَعْلى[٣] .

أوَّليتـه

من سَرَقُسْطة ، حيث منازل الأنصار هنالك ، انتقل جدُّ أبيه عبد الرحمن بابنه الصغير منها لحدوث بعض الفتن بها إلى بَلَنْسِية ، فوُلد له ابنه عبد الرحمن

(١) وردت فى المخطوطين : ومنهم الشيطان .
(٢) وردت فى المخطوطين : كلاسم .
(٣) الثغر الأعلى فى الجغرافية الأندلسية هو ولاية الحدود الشمالية وهى ولاية سرقسطة ، وأعمالها تطيلة ووشقة ولاردة وطركونة وطرطوشة . وهو يقابل فى الجغرافية الحديثة ولاية أراجون .

أبو العباس هذا ؛ ثم انتقل أبوه إلى ألمريَّة[1] ، فوُلد أبو العباس بها ، ونقله أبوه إلى سَبْتة فأقام بها مدّة .

حــــاله

كان محدِّثاً مُكثراً ثقةً ، ضابطاً ، مقرئاً ، مُجوِّداً ، حافظاً للفقه ، ذاكراً للمسائل ، عارفاً بأصولها[2] ، متقدِّماً فى علم الكلام ، عاقداً للشروط ، بصيراً بعللها ، حاذقاً بالأحكام ، كاتباً بليغاً ، شاعراً محسناً ، أتقنُ أهل عصره خطّاً ، وأجلهم مَنْزعاً ، ما اكتسب قط شيئاً من متاع الدُّنيا ، ولا تلبَّس بها ، مُقتنعاً باليسير ، راضياً بالدُّون ، مع الهمَّة العليَّة[3] ، والنفس الابيَّة ، على هذا قطع عمره ، وكتب من دواوين العلم ودفاتره ، ما لا يحصى كثرة ، بجَودة ، وضَبْط وحُسن خطّ ، وعُني به أبوه فى صغره ، فأسمعه كثيراً من الشروح ، وشاركه فى بعضهم . نفعه الله .

نباهتُــــه

استدعاه أبو عبد الله بن حسُّون ، قاضى مَرّاكش ، إلى كتابته ، إلى أن صُرف ، واستقرَّ هو متولى حُكمها وأحكامها ، والصلاة فى مسجدها ، ثم ترك الأحكام ، واستقرَّ فى الإمامة . ولما تصيَّر الأمرُ إلى المُوحِّدين ، ألحقهُ عبد المؤمن[4] منهم ، بجملة طلبة العلم ، وتحفَّا به ، وقدّمه إلى الأحكام بحَضْرة مَرّاكش ، فقام بها مدّة ، ثم ولّاه قضاء غرناطة ، ثم نقله إلى إشبيلية قاضياً بها

---

(١) وردت فى المخطوطين : «القرية» . وهو تحريف ، ولابد أنها «ألمرية» كما يتضح من سياق الكلام فيما بعد .

(٢) وردت فى المخطوطين : بأصوله . والتصويب أرجح لأن الضمير هنا عائد إلى المسائل .

(٣) فى «الملكية» ، العالية .

(٤) هو الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص١٤١)

مع وليّ عهده . ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب (١) ، ألزمه خدمة الخزانة العلمية وكانت عندهم من الخطط التي لا يُعَيَّنُ لها إلا كبار أهل العلم وعليّهم ، وكانت مواهب (٢) عبد المؤمن له جَزْلة ، وأعطياتُهم مُترافِهة كثيرة .

مشيخته

قرأ القرآن على أبيه ، وأكثر عنه ، وأجاز له ، وعلى أبي الحسن التُطيلي (٣) ، قال ، وهو أول من قرأت عليه .

«من روى عنه» ، روى عنه أبو عبد الله ، وأبو خالد يزيد بن يزيد بن رفاعة ، وأبو محمد بن محمد بن علي بن وهب القضاعي .

دخـــوله غرناطة

صُحْبة القاضي أبي القاسم بن حمزة ، ونوَّه به واسْتخْلفه إذ وليها ، وقبض عليه بكلتي يديه ، ثم استُقضي بها أبو الفضْل عِياض بن موسى ، فاستمْسك به ، واشتمل عليه ، لصحبة كانت بينهما وقرابة ، إلى أن صُرف عنها أبو الفضل عِياض ، فانتقل إلى وادي آش ، فتولى أحكامها والصلاة بها ، ثم عاد إلى غرناطة سنة ست وثلاثين ، إلى أن استُقضي بغرناطة في دولة أبي محمد بن عبد المؤمن بن علي ، فحُمدت سيرته ، وشُكر عدْلُه ، وظهرت نزاهته ، ودام بها حتى ظُن من أهلها .

---

(١) أبو يعقوب يوسف هو ولد عبد المؤمن وخليفته . وقد حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨–٥٨٠ ﻫ (١١٦٢–١١٨٤ م) وتوفي متأثراً بجراحه في موقعة شنترين التي هزم فيها الموحدون (ربيع الآخر سنة ٥٨٠ ﻫ) .

(٢) هكذا في «ك» ، وفي «ج» و «الملكية» مذاهب . وهو تحريف .

(٣) التطيلي ، نسبة إلى تطيلة ، وهي مدينة من مدن الثغر الأعلى تقع شمال غربي سرقسطة على نهر إيبرو ، وبالإسبانية Tudela .

شـــعره

وشعره فى طريقة الزهد [وهى][1] لاينفُذُ فيها إلاّ من قويت عارضتُه، وتوفّرت مادّته :

إلـهى لكَ المُلْكُ العظيمُ حقِيقةً ... وما لِلْورى مهما منعت نقِير
تجافى بنُو الدنيا مكانى فسَرَّنى ... وما قدرُ مخْلوق جَداه[2] حقير
وقالوا فقيرٌ وهم عندى جلالةٌ ... نعم صَدَقوا إنى إليك فقير

وشعره فى هذا المعنى كثير، وكله سَلِس القادة، دالاًّ على جَوْدة الطبع .

ومن شعره قوله :

إرْض العـدُوَّ بظـاهر مُتَصَنَّعٍ ... إن كنت مضطرًّا إلى استرضائه
كم من فتًى ألْقى بوجه باسمٍ ... وجوانحى تتقّـــد من بغضـائه

تصـانيفه

له تصانيفُ مفيدة، تدل على إدراكه وإشرافه، كشرحه الشِّهاب، فإنه أبدع فيه، وكتابه « أنوار الأفـكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهّاد والأبرار »، ابتدأ تأليفه، وتوفى دون إتمام غرضه فيه، فـكمّله عبد الله أبنه .

محنته

كان ممن وقعت عليه المحنة العظمى بمرّاكُش يوم دخول الموحّدين إياها، يوم السبت لإثنى عشر ليلة بقيت من شوال [عام][3] إحدى وأربعين وخمسمائة، على الوجه المشهور فى استباحة دماء كل من اشتملت عليه من الذُّكور البالغين، إلا

---

(١) هذه الكلمة واردة فى « ك ». وساقطة فى « ج ».

(٢) فى المخطوطين : حداه. وفى الملكية (جزاه).

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين، وإثباتها أصلح للسياق .

من تستّر بالاختفاء فى سِرْب [أو غرفة][١] أو مخبأ . وتمادى القتل فيها ثلاثة أيام ، ثم نودى بالعفو عمن أشارته الفتْكة الكبرى ، فظهر من جميع الخلق بها ، مايناهز السبعين رجلا ، وبيعوا بيع أسارى المشركين ، هم وذراريهم ، وعُفى [عنهم][٢] ، فكان أبو العباس ممّن تخطّته المنيّة ، واستنْقذه من الرقّ العفوُ ، وحسبك بها محنة ، نفعه الله ، وضاعت له فى ذلك وفى غيره ، كتب كثيرة بخطّه وبغير خطه ، مما تجلّ عن القيمة .

مولده

بالمريّة فى أواخر شهر ربيع سنة اثنين وخمسمائة .

« وفاته » ، توفى بمرّاكش بين صلاة الظهر والعصر ، فى يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة . ودفن يوم الإثنين بعده عقب[٣] صلاة الظهر ، وصلى عليه القاضى أبو يوسف حجاج ، وكانت جنازته عظيمة المحفل ، كثيرة الجمع ، برز إليها الرجال والنساء ورفعوا نعشه على الأيدى رحمه الله .

ومما رثاه به جارُه وصديقه أبو بكر بن الطفيل[٤] ، وهو بإشْبِيلية ، بعث بها إلى ابنه مع كتاب فى غرض العزاء :

لأمرٍ ما تَغَيَّرت الدُّهــور ... وأظْلَمَت الكواكبُ والبُدُور
وطال على العُيُون الليلُ حتى ... كأنَّ النَّجم فيه لايَغُــور

---

(١) هذه الكلمة زائدة فى « ك » .

(٢) ناقصة فى المخطوطين . ويقتضى إثباتها السياق .

(٣) فى المخطوطين ، بعد عقب ، والتصويب من « الملكية » .

(٤) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل (أو ابن الطفيل) القيسى من أعظم فلاسفة الأندلس وأطبائها . ولد فى أوائل القرن السادس الهجرى بمدينة وادى آش . وتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وتولى منصب الوزارة ومنصب الطبيب الخاص للخليفة أبى يعقوب يوسف الموحدى . وكان صديقاً وأستاذاً لابن رشد . وهو صاحب رسالة « حى بن يقظان » الشهيرة . وسوف يترجم له ابن الخطيب فى المجلد الثانى من الإحاطة .

أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن ، يعرف بابن القَبّاب

من أهل فاس ، ويكنى أبا العباس .

حاله

هذا الرجل ، صَدْرُ عدول[١] الحَضْرة الفاسِيَّة ، وناهضُ عُشِّهم ، طالب ، فقيه ، نبيه ، مُدْرِك ، جيد النظر ، سديد الفهم ؛ حضر الدرس بين يدى السلطان ، ووُلِّى القضاء بجبل الفتح[٢] ، متَّصفاً فيه بجزالة وانتهاض . تعرفتُ به بمدينة فاس ، فأعجبتنى سيمتُه ؛ ووصل مدينة سَلا فى غرض اختبار واستطلاع الأحوال السلطانية ؛ واستدعيته فاعتذر ببعض مايُقبل ، فخاطبته بقولى :

أبيتُم دَعْوتى إمَّا لِشَأْوٍ ... وتأبَى لومه مُثْلى الطريقة
وبالمختار للناس اقتداء ... وقد حضر الوليمة والعقيقة
وغيرُ غريبةٍ أن رقَّ حُرٌّ ... على من حالُه مِثْلى رقيقة
وإمّا زاجرُ الوَرَع اقتضاها ... ويأبى ذاك دُكانُ الوثيقة
وغِشْيانُ المنازل لاختبارٍ ... يُطالب بالجليلة والدَّقيقة
شكرتُ مَخيلة كانت مجازاً ... لكم وحَصَلت بعدُ على الحقيقة[٣]

وتفرَّع الكلام على قولى : « ويأبى ذاك دكانُ الوثيقة » ، بما دعى إلى بيانه بتصنيفى[٤] فيه الكتاب المسَمَّى « بمُثْلى الطريقة فى ذَمِّ الوثيقة » .

---

(١) جمع عدل . والعدل فى نظام الأندلس القضائى ، وهو الذى اشتقت أصوله بالمغرب فيما بعد ، هو موظف قضائى مهمته صياغة الوثائق التى يطلبها المتقاضون . ويقرر القاضى صحة نص الوثائق . ولا يباشر العدل مهمته إلا بعد أن يقوم القاضى « بتعديله » أعنى بإثبات أنه عدل . وبذلك يصبح أهلا للتوثيق . (راجع الخشنى : قضاة قرطبة – طبعة القاهرة – ص ١٤١) .

(٢) أى جبل طارق .

(٣) ورد بعض التحريف فى المخطوطين فى إيراد هذه الأبيات . وقد اعتمدنا فى تصويبها على نفح الطيب وأضفنا إليها البيت الثانى وهو وارد فى النفح وساقط فى المخطوطين (ج ٤ ص ٤٧٣)

(٤) وردت فى المخطوطين ، بتعنيفى ، وهو تحريف ظاهر . وبالتصويب يستقيم المعنى .

دخوله غرناطة

فى عام اثنين وستين وسبعمائة، مُوَجَّهاً من قِبَل سلطان المغرب أبى سالم بن أبى الحسن لمباشرة صَدقة عهد بها لبعض الرُّبُط[١]، وهو إلى الآن، عَدْلٌ بمدينة فاس، بحال تَجلّة وشهرة. ثم تعرّفتُ أنه نسك ورفض العَيْش[٢] من الشهادة ككثير[٣] من الفضلاء.

أحمد بن ابراهيم بن الزُّبير بن محمد بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مُسلم بن كَعْب الثَّقفى

يكنى أبا جعفر.

أوليته

كَعْبٌ الذى ذكر، هو كعب بن مالك بن علْقَمة بن حباب[٤] بن مسلم بن عدْى ابن مرة بن عُوف بن ثَقِيف؛ أصله من مدينة جيّان[٥]، منزل قِنَّسرين، من العرب الداخلين إلى الأندلس؛ ونسبُه بها كبير، وحَسَبه أصيل، وثَرْوته[٦] معروفة. خرج به أبوه عند تغلُّب العدوّ عليها عام ثلاثة وأربعين وستمائة، ولأبيه إذ ذاك إثراء[٧] وجِدَة أعانته على طلب العلم، وإرفاد[٨] من أحْوجَته الأزمة فى

---

(١) الربط جمع رباط وهو فى الأصل المكان الذى يرابط فيه المجاهدون استعداداً لدفع العدو، وكان ذلك فى الغالب على الحدود أو الثغور. ثم تطور إلى المعنى الدينى. والربط هنا فيما يبدو الزوايا التى ينتسب إليها جماعات من الصلحاء والزهاد.

(٢) وردت فى المخطوطين: المتمعش وهو تحريف ظاهر، والتصويب من «ت» (الزيتونة).

(٣) وردت «الكثير» فى «ك» و «ت». وفى «ج» للكثير.

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية. ووردت فى «الصلة» (حيان).

(٥) كانت مدينة جيان من القواعد الأندلسية الهامة أيام الدولة الأسلامية. وهى تقع شمال غرناطة وشرق قرطبة. وهى اليوم قاعدة الولاية الإسبانية المسماه باسمها.

(٦) وردت فى المخطوطين: وثورته.

(٧) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» أثر.

(٨) إرفاد من رفد وأرفد، ومعناه العون والمساعدة.

ذلك الزمان من جالية العلماء عن قُرْطبة وإشبيليه كأبى الحسن الصائغ[1] وغيره، فنصحوا له، وحَطَبوا فى حَبْله.

حـالـه

كان خاتمة المحدِّثين، وصدور العلماء والمقرئين، نسيج وحده، فى حُسن التعليم، والصبر على التَّسميع، والملازمة للتدريس، لم تختل له، مع تخطى الثمانين، ولا لحقته سآمة، كثير الخشوع والخشية، مُسترسل العَبْرة[2]، صليباً فى الحق، شديداً على أهل البدع، ملازماً للسُّنَّة، جَزْلا، مُهيباً، معظَّماً عند الخاصة والعامّة عذب الفكاهة، طيِّب المجالسة، حُلو النادرة، يؤثر عنه فى ذلك حكايات، لا تُخل بوقار، ولا تحل بجلال مَنصِب.

« فنونه »، إليه انتهت الرياسة بالأندلس فى صناعة العربية، وتجويد القرآن، ورواية الحديث، الى المشاركة فى الفقه، والقيام على التَّفسير، والخوض فى الأُصلين.

« مشيخته »، أخذ عن الجلة المُقرئين، كالمقرى أبى عبد الله محمد بن ابراهيم بن مستقور[3] الغرناطى الطائى.

« نباهته وخُططه »، وُلِّى قضاء المناكح، والخطبة بالحضْرة، وبلغ من الشهرة والإشادة بذكره، مالم يَبْلغه سواه.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن باجة التجيبى الأندلسى المشهور بابن الصائغ، الفيلسوف الشاعر. كان من أعظم فلاسفة الأندلس ومفكريها، ومن علماء الرياضة والفلك والطبيعة. وهو من أهل سرقسطة من الثغر الأعلى. وقد نسب إليه الإلحاد والخروج على تعاليم الدين. وكانت وفاته مسموماً بفاس سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م). ويعرف بالإفرنجية باسم Avempace.

(٢) هكذا وردت فى « ك ». ووردت فى « ج » وفى « الملكية »، الدمعة.

(٣) وردت فى المخطوطين : مشهور. والتصويب من كتاب « المرقبة العليا ».

تصانيفه

من تأليفه كتاب « صلة الصِّلة لابن بَشْكُوال » ، التى وصلتُها بعده ، وسمَّيتُ كتابى « بعائد الصلة »(١) ، وافتتحت أول الأسماء فيه باسمه ؛ وكتاب « ملاك التأويل ، فى المُتشابه اللفظ فى التَّنْزِيل » غريبٌ فى معناه ؛ [والبرُهان فى ترتيب سُوَر القرآن](٢) ؛ وشرح الإشارة لِلْباجى فى الأصُول ؛ وسبيلُ الرَّشاد فى فضل الجهاد ؛ ورَدْع الجاهل عن اغتياب المجاهل ، فى الرد على الشّودية(٣) ، وهو كتاب جليل يُنْبى عن التفنن والاضطلاع ؛ وكتاب الزمان والمكان ، وهو وضْمَةٌ ، تجاوز الله عنه .

شعره

وشعره مختلف عن نمط الإجادة ، مما حقُّه أن يُثبت أو ثَبَتَ فى كتاب شيخنا أبى البركات المسمى « شعرُ مَنْ لا شِعر له » مما رواه ، ممن ليس الشعر له بضاعة ، من الأشياخ الذى عُدَّ صدرٌ عنهم هو . فمن شعره :

مالى ولِلتسآل لا أَمَّ لى(٤) … إن سألتُ من يَعْزِل أو من يَلى
حَسْبى ذنوبٌ أثقلت كاهلى … ما إن أرى إظلامها ينجلى
يا ربِّ عَفواً إنها جَمَّةٌ … إن لم يكن عَفْوُك لا أُمَّ لى

---

(١) سبق التعريف به فى المقدمة .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ك » . وساقط فى « ج » و « ت » والملكية .
(٣) الشودية ، فرقة من فرق الصوفية معروفة فى المغرب .
(٤) رسمت فى المخطوطات الثلاثة (لأمل) وهو تحريف .

محنته

نشأت بينه وبين المُتغلب بما لقة من الرؤساء التُّجيبيين من بنى إِشْقَيْلُولة[١] ، وَحْشة أكّدتها سعاية بعض من استهواهم رجلٌ مُمَخْرِق من بنى الشّعوذة ، ومُنْتحلى الكرامة ، يمتطيها زعموا إلى النبوّة ، يعرف بالفزارى ، واسمه إبراهيم ، غريب المَنْزَع ، فذُّ المآخذ ، أعجوبة من أعاجيب الفتن ، يخبر بالقضايا المستقبلة ، ويتسوّر سور حمى العادة فى التطور[٢] من التقشُّف والخِلابة ، تبعه ثاغية وراغية ، من العوام الصُّم البُكْم ، مستفزِّين فيه حياته ؛ وبعد زمن[٣] من مقتله ، على يد[٤] الأستاذ بغرناطة ، قرّعه بحقّه ، وبادره بتعجيل نكيره ، فاستغاث بمفتونه الرئيس ، ظهير مُحاله فاستعصى[٥] له ؛ وبلغ الأستاذ النياحة ، ففرّ لوجهه[٦] ، وكُبِس منزله لحينه ، فاستولت الأيدى على ذخائر كُتبه ، وفوائد تَقْييده عن شيوخه ، على ما طالت له الحسرة ، وجلّت فيه الرزيّة[٧] . ولحق بغرناطة آوياً إلى كَنَف سلطانها الأمير أبى عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر ؛ فأكرم مثواه ، وعرَف حقه ، وانثال عليه الجمُّ الغفير لالتماس الأخذ عنه ، إلى أن نالته لديه سعاية ، بسبب جارٍ له ، من صُلحاء القرابة النَّصرية ، كان ينتابه لِنِسْبة الخيريّة ، نُميَت عنه فى باب تفضيله ، واستهالت للأمر

---

(١) بنو إشقيلولة هم أسرة أندلسية قوية نابهة ، من المولدين ، وكانوا أصهاراً لملوك بنى نصر حكاماً لكثير من القواعد ، وقد قاموا بعدة ثورات ، واستقلوا خلال ذلك ببعض المدن والثغور .

(٢) وردت فى المخطوطين : الطور . والتصويب من « ت » .

(٣) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين : (ونفرن من) . وفى « ت » (ونفذت) . وهو تحريف ، والتصويب من الصلة .

(٤) هذه الكلمة واردة فقط فى « ك » .

(٥) وردت فى « ج » ، فاستمض ، وفى « ك » فاستفض . والتصويب من « ت » .

(٦) وردت فى المخطوطين : لوجه . والتصويب من « ت » .

(٧) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » المردية .

كلمة ، أوجبت امتحانه ، وتخلّل تلك الأُلْقِيَّة[١] من الشك ، ماقَصر المحنة على إخراجه من منزله ، المجاور لذلك المتهم به،ومَنْعه من التصرف ، والتزامه قَعر منزل ، انتقل اليه بحال اعتزال من الناس ، محجوراً عليه مُداخلتهم ؛ فمكث على ذلك زماناً طويلا ، الى أن سُرِّيت عنه النكبة ، وأقْشعت المَوْجدة ، فتخلَّص من مَرَارها بدرُه ؛ وأُقِلَّ من شكاتها جاهُه ، وأحسنت أثرُها حاله ، وكثُر مُلْتمسه ، وعُظمت فى العالم غاشيته ؛ فدوَّن واستمع ، وروى ودَرَّب ، وخَرَّج[٢] وأَدَّب وعلَّم ، وحلّق وجَهَر ؛ وكانت له الطّايلةُ على عدُوِّه ، والعاقبة للحسنى ، بعد ثبات[٣] أمره ، والظَّفر بكثير من مُنْتهب كُتبه . وآلت الدولة للأمير أبى عبد الله نصر بمالقة ، فطالب الفزارىّ المذكور ، واستَظْهر بالشّهادات عليه ، وبالغ فى دحض دَعْوَته ، إلى أن قُتل على يده بغرناطة .

حدّثنا شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب ، قال : لما أُمر بالتأهب للقتل وهو فى السجن الذى أخرج منه إلى مصرعه ، جَهَر بتلاوة «ياسين» ، فقال له أُحد الذَّعرة ، ممن جمع السجن بينهم : « اقْرَأْ قرآنك ؛ على أى شىء تتطَفّل على قرآننا اليوم » أو ماهو فى معناه . فتركها مثلاً لِلوَذْعيتِه .

مولده

بيلده جيّان فى أواخر عام سبع وعشرين وستمائة .

وتوفى بغَرْناطة فى الثامن لشهر ربيع الأول عام ثمانية وسبعمائة . وكانت جنازته [جنازة][٤] بالغةً أقصى مبالغ الإحتفال[٥] ، نفَرَ لها الناس من كل أَوْب ، واحتمل

(١) ألقية والجمع ألاقى ، أى مسائل وألغاز .

(٢) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » وأخرج . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » : الثبات .

(٤) هذه الكلمة زائدة فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « ك » احتفال .

طلبة العِلم نعشه على رؤوسهم ، إلى جَدَثه ، وتبعه ثناء جميل ، وجزع كبير ، رحمه الله .

ورثاه طائفة من طلبته ؛ وممّن أخذ عنه منهم ، القاضى أبو جعفر بن أبى حنْبل فى قصيدة أولها :

عزيزٌ على الإسلام والعلم ماجدٌ ... فكيف لعينى أن يُلمَّ بها الكرا

وما لمآقى لا تفيض شئونها ... نجيعاً(١) على قدر المصيبة أحمرا

فوالله ما تقضى المدامع بعض ما ... يَحقُّ ولو كانت سُيولا وأبْحُرا

حقيقٌ لعمْرى أن تفيضَ نفوسُنا ... وفرضٌ على الأكباد أن تتفطّرا

أحمد بن عبد الوالى بن أحمد الرعينى

يكنى أبا جعفر ؛ ويعرف بالعوّاد ، صنعةٌ لأبيه الكاتب الصالح .

حاله

هو من بيت تَصَاوُن ، وعفاف ، ودين ، والتزام السُّنة ؛ كانوا فى غرناطة فى الأشعار ، وتجويد القرآن ، والامتياز بحمله ، وعكوفهم عليه ، نُظَراء بنى عظيمة بإشْبيلية ، وبنى الباذش بغرناطة ؛ وكان أبو جعفر هذا ، المترجم له ممن تُطوى عليه الخناصرُ ، معرفةً بكتاب الله ، وتحقيقاً(٢) لحقه ، واتقاناً لتجويده ، ومثابرةً على تعليمه(٣) ، ونُصْحاً فى إفادته ؛ على سُنن الصالحين ، انقباضاً عن الناس ، وإعراضاً عن ذوى الوجاهة ، سَنِيًّا فى قوله وفعله ، خاصِّيًّا فى جميع أحواله ، مُخْشَوْشِناً فى مَلْبسه ، طويل الصَّمت إلا فى دَسْت تعليمه ، مقتصراً فى مكسبه ، مُتَّقياً لدينه ،

(١) وردت فى المخطوطين : نجيباً . وهو تحريف والتصويب مستقيم مع السياق .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » : وتعريفاً .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تجويده مرة أخرى .

محافظاً على أواده . سأل منه رجل يوماً كَـتْب رقعة ، ففهم من أمره ، فقال ياهذا والله ما كَـتَبَتْ قط يمينى إلا كتاب الله ، فأحبُّ أن ألقاه على سَجِيّتى بتوفيقه إن شاء الله وتسديده .

مشيخته

قرأ على الأستاذ أبى جعفر بن الزُّبير ، والأستاذ أبى جعفر الحَزمونى السكفيف ، وأبى عبد الله بن رُشيد[1] وغيرهم .

وفاته

توفى فى شهر ذى الحجة من عام خمسين وسبعمائة ، ودفن بجبّانة باب الفخّارين[2] فى أسفل السفح تجاه القصور الحَـكَمية ، وأتبعه الناس أحسن الثناء .

أحمد بن على ، أحمد بن خلف الأنصارى

من أهل غرْناطة ؛ يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن الباذش .

« أوّليّته » ؛ أصله من جيّان من بيت خَيْريّة ، وتَصَوُّن .

حـاله

قال القاضى أبو محمد بن عطية ؛ إمامٌ فى المقرئين ، ومُقَدَّم فى جهابذة الأستاذين ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » رشد .

(٢) باب الفخارين أحد أبواب غرناطة الإسلامية . وقد كان موقعه تجاه القرية المسماة بالفخار وهى من أطراف غرناطة الشمالية . وتسمى اليوم Alfacar

راوية[١] ، مُكثر ، متفنّن فى علوم القراءة ، مُستَبْحِر ، عارف بالأدب والإعراب ، بصير بالأسانيد ، نقّاد لها ، مُمَيِّزٌ لشاذّها من معروفها . قال ابن الزُّبير ، وماعلمت فيما انتهى إليه نظرى وعِلمى ، أحسن انقياداً لطُرُق القراءة ، ولا أجلَّ اختياراً منه ، لايكاد أحد من أهل زمانه ، ولا ممن أتى بعده أن يبلغ درجته فى ذلك .

مشيخته

تَفَقَّهَ بأبيه الإمام أبى الحسن ، وأكثر الرواية عنه ، واستوفى ما كان عنده ، وشاركه فى كثير من شيوخه . أخذ القِراءات عَرَضاً عن الإمام المُقْرى أبى القاسم ابن خَلَف بن النحّاس ، رحل إلى قُرْطبة ولازمه ؛ وعلى المقرى أبى جعفر هابيل بن محمد الَخلاسى ، وأبى بكر بن عيَّاش بن خلف المقرى ، وأبى الحسن بن زكريا ، وأبى الحسن شُرَيح بن محمد ، وأبى محمد عبد الله بن أحمد الهَمْدانى الجَيَّانى [رحل إليه إلى جيان][٢] ؛ وتلا على جميع من ذكر ؛ وروى بالقراءة والسَّماع والإجازة على عالمٍ كثير ، كأبى داود وأبى الحسن بن أخى الرَّش المُقْرئين ، أجازا له ؛ وأبى على الغسَّانى فى الإمامة والإتقان ، وقد أُمْجِعَ عليه ؛ وأبى القاسم خَلف ابن صواب المقرى ، وأبى عامر محمد بن حبيب الجَيَّانى ، وأبى عبد الله محمد بن أحمد التُّجيبى الشهير ، وأبى محمد بن السيد ، وأبى الحسن بن الأخضر ، وأبى محمد عبد الله بن أبى جعفر الحافظ ، وعالَمٍ كثير غير هؤلاء يطول ذكرهم .

---

(١) وردت فى المخطوطين : رواية .

(٢) وردت هذه الزيادة فى « ج » وفى « الملكية » .

من رَوَى عنه

روى عنه أبو محمد عبد الله ، وأبو خالد بن رفاعة ، وأبو على القلْعى المَمَدِّى وأبو جعفر بن حكم ، وأبو الحسن بن الضّحّاك ، وابنه أبو محمد عبد المنعم ، وهو آخر من حدَّث عنه .

تصانيفه

ألّف كتاب « الإقناع » فى القِراءات ، لم يُؤلّف فى بابه مثْلُه ؛ وألّف كتاب « الطرق المتداولة » فى القراءات ، وأتقنه كل الإتقان ، وحرَّر أسانيده وأتقنها ، وانتقى لها ، ولم يتَّسع عُمْره لفرْش حُروفهم وخلافهم من تلك الطرق . وألّف غير ما ذكر .

مولده

فى ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة .

« وفاته » ؛ توفى ثانى جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة ، وكان عمره تسعاً وأربعين سنة .

أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد رحمه الله (١)

يكنى أبا جعفر ، من أهل مالقة ، ويعرف بيته بها ببنى راشد ؛ قال شيخنا ، أبو البركات : نقلتُ اسم هذا من خطّه ، ولا نعلم له نسباً إذ لم يكتبه ، وشُهر بابن عبد النّور .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين .

حـاله

كان قيّماً على العربية إذ كانت جُلَّ بضاعته ؛ يشارك مع ذلك فى المنطق ، على رأى الأقدمين ، وعَرُوض الشعر ، وفرايض العبادات من الفقه ، وقرْض الشعر ؛ وكان له اعتناء بفَكِّ المُعَمَّى ، والتَّنقير عن الُّلغُوز. وكان ذكىَّ الصوت عند قراءة القرآن ، خاشعاً به . رحل من بلده عالقة إلى سَبْتَة ، ثم انتقَلَ[١] الى الأندلس وأقرأ بوادى آش مدة ، وتردّد بين إلمريّة وبُرْجَة ، يُقرئ بها القرآن ، وغير ذلك مما كان يشارك فيه . وناب عن بعض القضاة وقتاً ، ودخل غرناطة أثناء هذا السَّفر[٢] .

مشيخته

قال : أخذ القرآن قراءةً على طريقة أبى عَمْرو الدَّانى[٣] ، على الخطيب أبى الحسن الحجاج بن أبى رَيْحانة المَرْبلِّى[٤] ، ولا يُعلم له فى بلده شيخ سواه ، إذ لم يكن له اعتناء بلقاء الشيوخ ، والحمل عنهم ؛ ومن علِمى أنه لَقِى أبا الحسن ابن الأخضر المُقْرى العَرُوضى بسَبْتَة ، وذاكره فى العَرُوض ، ولا أعلم هل أخذ عنه أم لا . ورأيت فى تقاييدى أن القاضى[٥] أبا عبد الله بن بُرْطال حدَّثنى أن

---

(١) وردت فى المخطوطين : نقل . وهو تحريف .

(٢) هكذا فى « ج » وفى « ك » السفرة .

(٣) وردت فى « ج » أبى عمر ، وهو تحريف . وأبو عمرو الدانى من أشهر علماء القراءات والتفسير فى الأندلس . وعاش فى دانية دهراً يلقن علمه ، ووضع كتاباً شهيراً فى « القراءات » أسمه « التيسير فى القراءات » (٣٧١ — ٤٤٤ هـ) .

(٤) نسبة إلى مربلة أو ماربلة . وهى ثغر أندلسى صغير يقع على شاطىء البحر المتوسط جنوب غربى مالقة . وبالإسبانية Marbella

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « الملكية » : الشيخ ، والأولى أصح لشهرة ابن برطال بهذه الصفة بين قضاة الأندلس .

ابن النّور قرأ معه الجُزوليَّة[1] على ابن مُفَرِّج المالَقى تفقهاً ، وقيَّد عليه تقييداً عرضه بعد ذلك ، على ابن مُفرج هذا ؛ وهو محمد بن يحيى بن على بن مُفرج المالقى . وروى عن أبى الحجّاج المتقدم الذكر تَيْسِير أبى عَمْرو الدانى ، وجُمَل الزَّجَّاجى ، وأشعار الستَّة ، وفصيح أحمد بن يحيى بن ثعلب ؛ وقفتُ فى ذلك على رِقٍّ أجاز فيه بعض الآخذين عنه ، ولم ينص فيه على كيفية أخذه لهذا الكتيب عن أبى الحجّاج . قال : ورأيت فى ذلك الرِقّ أوهاماً ، تدل على عدم شعوره بهذا الباب جملة ، وقبول التَّلْقين فيه ، فلا ينبغى أن يُرْكن إلى مثله فيه . ورأيت بخط بعض أصحابه ، أنه تفقه على أبى رَيْحانة ، ولعل ذلك فى صغره قبل أن يتحكَّم طلبُه ويتفنَّن ، إذ الفنون التى كان يأخذ منها لم يكن أبو رَيْحانة ، مليًّا بها ، ولا منسوباً إليها .

تصانيفه

منها كتاب « الحِلْية فى ذكر البسملة والتصلية » . وكتاب « رَصْف[2] المبانى فى حروف المعانى » ، وهو أجَلُّ ما صنّف ، ومما يدل على تقدُّمه فى العربية . وجزء فى العَرُوض . وجزء فى شواذِّه . وكتابٌ فى شرح الكوامل لأبى موسى الجُزُولى ، يكون نحو المُوَطّأ فى الجِرم ، وكتاب شرح مُغْرب أبى عبد الله بن هشام الفِهْرى المعروف بابن الشوّاش ، ولم يتم ، انتهى [فيه][3] إلى همزة الوصل ، يكون نحو الإيضاح لأبى على . وله تقييدٌ على الجُمَل غيرُ تام .

شعره

قال : وشعره وسَطٌ ، بعيدٌ عن طرفى الغثِّ ، والثمينُ أبعد ؛ وكان لا يعتنى فيه

---

(١) الجزولية هى الحواشى التى وضعها أبو موسى الجزولى النحوى المغربى المتوفى سنة ٦٠٧ ھ على « جمل الزجاجى » . وتعرف أيضا « بالمقدمة » .

(٢) وردت فى « ج » رصنى . وفى « ك » وصفى ، وكلاهما تحريف .

(٣) وردت فى « ك » واغفلت فى « ج » .

ولا يتكلّفه ، ولا يقصد قصده ، وإنّ ذلك لعذر فى عدم الإجادة . قال الشيخ ، ولدىّ جزء منه[١] تصفّحته على أن أستجيد[٢] منه شيئاً أُثْبته له فى هذا التّعريف ، فرأيته بعضه أشبه ببعض من الغرابة ، فكتبت من ذلك ، لامُؤْثراً له على سواه من شعره ، بل لمرجّح[٣] كَوْنه أوّل خاطر بالبال ، ومُتَلمّح خَطّه بالبَصَر ، فمن ذلك قولُه من قصيدة ، ومن خطه نقلتُ :

محاسنُ من أهْوى يَضيق لها الشرحُ ... له الهِمَّةُ العَلْيـاء والخُلقُ السَّمْحُ
له بهجةٌ يَغْشَى البصــائرَ نورُها ... وتَعْشَى[٤] بها الأبصار إن غَلَسَ الصُّبحُ
أذا ما رَنَى فاللَّحْظُ سَهمٌ مُفَوّقٌ ... وفى كل عُضْو من إصابته جُرْحُ
اذ ما انثنى زهواً ووَلّى تبَخْتُراً ... يَغَار لذاك التَدُّ من لينه الرُّمْحُ
وإن نَفَحَتْ أزهارُه عنــد روضةٍ ... فيُخْجِلُ ريًا زَهْرِها ذلك النَّفْحُ
هو الزَّمَنُ المأمولُ عند ابتهـاجه ... فلِمَّتُهُ ليــلٌ ، وغُرتُه صُبْحُ
لقد خَامَرت نفسى مُدامة حبــه ... فقلبى من سُكر المُدامة لا يَصْحُ
وقد هام قلبى فى هــواه فَبَرّحت ... بأسرارِه عينٌ لمَدْمَعهـا سَبْحُ

غفلته ونوكه

كان هذا الرجل من البَلَه فى أسباب الدنيا ، له فى ذلك حكايات دائرة على ألسنة الثِقاة من المُلازمين له وغيرهم ، لولا تواتُرُها لم يُصدق أحد بها ، تُشبه ما يُحكى عن أبى على الشَلَوْبِين . منها أنه اشترى فَضْلة مِلَف[٥] فبلّها ، فانتَقَصَت كما يجرى فى

---

(١) وردت فى المخطوطين : من .
(٢) وردت فى المخطوطين : تجيد . والتصويب من « ت » .
(٣) هكذا وردت فى « ك » ، وفى « ج » لمحج وهو تحريف .
(٤) وردت فى المخطوطين وتغشى ، وبالتصويب يستقم المعنى .
(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية ملفا .

ذلك ، فذرعها بعد البَل فوجدها تنقصت ، فطلب بذلك بائع المِلف ، فأخذ يبين له سبب ذلك فلم يفهم . ومنها أنه سار الى بعض بساتين ألمَرية مع جماعة من الطلبة واستصحبوا أُرزاً ولبَناً ، فطلبوا قدراً لطبخه ، فلم يجدوا ، فقال اطبخوا فى هذا القدر ، وأشار إلى قدر بها بقيّة زفْت مما يُطلى به السّوانى[1] عندهم فقالوا له : وكيف يسوغ الطبخ بها ، ولو طُبخ بها شيء مما تأكله البهائم لعافته ، فكيف [الأرزباللبن][2] ؛ فقال لهم : اغسلوا معائدكم ، وحينئذ تُدْخلون فيها الطعام ، فلم يَدْروا ممّا يَعْجَبون ، هل من طيب نفسه بأكله مما يطبخ فى تلك القدر ، أم من قياسه المعدة عليها . ومنها أنهم حاولوا طبخ لحمٍ مرّة أخرى فى بعض النُّزَه فذاق الطعام من المِلح بالمِغرفة ، فوجده محتاجاً للملح ، فجعل فيه ملحاً وذاقه على الفَوْر ، قبل أن ينحلّ الملح ويسرى فى المَرَقة الأولى ، فزاد ملحاً إلى أن جعل فيه قَدْرما[3] يَرْجُح اللحم ، فلم يقدروا على أكله . ومنها أنه أدخل يده فى مِفْجَر صهريج فصادفت يدُه ضِفْدعاً كبيراً ، فقال لأصحابه تعالَوْا إن هنا حَجَراً رَطْباً . ومنها أنه استعار يوماً من القائد أبى الحسن بن كماشة ، جواداً ملوكياً ، قِرْطاسى اللَّوْن ، من مراكب الأمراء ؛ فقال وجِّه لى تلك الدابة ، فتخَيل أنه يريد الرُّكوب إلى بعض المواضع ، ثم تفَطّنَ لغَفْلته ، وقال : أى شيء تصنع به ، قال : أجعله يُسْنى شيئاً يسيراً فى السّانية[4] ، فقال : تُقْضى الحاجة إن شاء الله بغيره ؛ ووجّه له حماراً برَسم السانية وهو لا يشعر بشيء من ذلك كله .

قلت ، وفى موجودات الله تعالى عِبرٌ ، وأغربها عالم الإنسان ، لما جُبلوا عليه

---

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» ، السواق . والسانية كالساقية آلة لحبس الماء ورى الأرض .

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (الرزبلبن) . وهو تحريف .

(٣) هذه الكلمة ساقطة فى «ج» .

(٤) هى الساقية كما تقدم . وهى كلمة ذائعة فى أدب الأندلس .

من الأهواء المختلفة ، والطباع المشتتة[1] ، والقصور عن فهم أقرب الأشياء ، مع الإحاطة بالغوامض .

حدثنا غيرُ واحد ، منهم عمّى أبو القاسم ، وابن الزّبير ، إذناً فى الجُمْلة ، قالا : حدثنا أبو الحسن بن سراج عن أبى القاسم بن بَشْكُوال ، أن الفقيه صاحب الوثائق أبا عمر بن المندى ، خاصم يوماً عند صاحب الشُرطة والصلاة ، إبراهيم ابن محمد ، فَنَكَل وعجز عن حُجّته ، فقال له الشرطى[2] : ما أعْجَب أمرك أبا عمر أنت ذَكِى لغيرك ، بَكِىٌّ[3] فى أمرك ، فقال أبو عمر : « كذلك يُبيِّنُ الله آياته للنَّاس » . ثم أنشد متمثِّلاً[4] .

صرت كأنى ذُبالة نُصِبت   تُضىء للناس وهى تحترق

قال ، وحدثنى الشيخ أبو العباس بن الكاتب ببِجاية ، وهو آخرُ من كتَبْنا معه الحديث من أصحاب ابن العمَّار ، قال : كنت آويا إلى أبى الحسن حازم القَرْطَجانى[5] بتونس ، وكنت أُحسن الخياطة ، فقال لى : إن المُسْتنصر خلَع على جُبّة جِرْبِيَّة من لباسه ، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس ، وأريد أن تُحل أكمامها ، وتُصيرها مثل ملابسنا . فقلت له : وكيف يكون العمل ، فقال : تُحل رأس الكُمّ ، ويوضع الضيِّق بالأعلى ، والواسع بالطرف . فقلت : وبِمَ يُحير الأعلى ، فإنه إذا وُضع فى موضع واسع ، سَطَتْ علينا فُرَج[6] ما عندنا ، ما يُصنع فيها إلا أن رقّعنا بغيرها ، فلم يفهم . فلما يئستُ منه تركته وانصرفت . فأين هذا الذهن الذى صنع المقْصُورَة وغيرها من عجائب كلامه .

---

(١) وردت فى المخطوطين : المستتة .

(٢) وردت فى المخطوطين : الشرقى ، وهو تحريف .

(٣) بكى أى عيى وعاجز .

(٤) وردت فى المخطوطين : مثلا .

(٥) نسبة الى قرطاجنة .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » فوج .

مولده

في رمضان من عام ثلاثين وستمائة .

وفاته

توفي بالمرية يوم الثلاثاء السابع والعشرين لربيع الآخر من عام اثنين وسبعمائة ودفن بخارج باب بجاية بمقبرة من تُرْبة الشيخ الزاهد أبي العباس بن مكنون .

أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى [بن محمد](١) ابن مصادف بن عبد الله

يُكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن مصادف ؛ من أهل بَسْطَة ، واستَوْطن غرناطة ، وقرأ وأقرأ بها .

حاله

من أهل الطلب والسّلاطة والاجتهاد ، وممن يقصر مُحَصّله عن مدى اجتهاده ، خلَوب(٢) اللسان ، غريب الشّكل ، وحَشِيّه ، شتيت الشّعر مُعفيه ، شديد الاقتحام والتَسَوُّر ، قادر على اللُّصُوق بالأشراف . رمى بنفسه على مشيخة الوقت يَطْرُقهم طروق الأمراض الوافدة ، حتى استَوْعب الأخذ عن أكثرهم ، يَفُكُّ عن فايدته فَكّ المتبرِّم(٣) ، ويَنتَزِعها بواسطة الحَيا(٤) ، ويُسلِّط(٥) على قَنْصها جوارح

(١) وردت هذه الزيادة في « ك » فقط .

(٢) وردت في المخطوطين : حلوب ، وهو تحريف . وخلوب بمعنى خلاب وجذاب .

(٣) هكذا وردت في « ك » وفي « ج » ، التبرم .

(٤) وردت في « ك » الحيا . وفي الحبا . وقد رجحنا التصويب لاستقامته مع السياق .

(٥) وردت في المخطوطين : وسلط ، بالماضي . والتصويب أرجح عطفاً على ما سبق في المضارع

التبذّل والإطراء ، إلى أن ارتسم فى المُقَرّبين بغرناطة ، محولاً[١] عليه بالنّحْب والملق ، وسد الترتيب المدنى[٢] ؛ ولوثة تعتاده فى باب الرُّكوب والثِّقافة[٣] ، وهو لا يستطيع أن يستقر بين دفّتى السَّرج ، ولا يُفرق بين مَبْسوط الكف[٤] ؛ أخذ نفسه فى فنون ، من قرآن ، وعربيّة ، وتفسير ، وامتُحن مرات لجر أحركة القلقلة[٥] الذى لا يَمْلِك عنانه ، ثم تخلّص من ذلك ، وهو على حاله إلى الآن .

مشيخته

قرأ على الخطيب ببَسْطة ، وأبى الأصبغ بن عامر . والخطيبين بها أبى عبد الله وأبى إسحاق ابن عمه ، وأبى عبد الله بن جابر ، وعلى أبى عثمان بن ليُون بالمريّة ، والخطيب أبى عبد الله [بن الغربى][٦] بحَمة[٧] ، وتلا القرآن بقراءاته السبع على شيخنا أبى عبد الله بن الوالى العوّاد ؛ وروى عن شيخنا أبى الحسن بن الجيّاب ، وعلى الحاج أبى الحجاج الساحلى فكتب الإقراء ، وأخذ الفقه عن الأستاذ أبى عبد الله البيَّانى[٨] . وقرأ على قاضى الجماعة أبى القاسم البيَّانى ، وقرأ على قاضى الجماعة أبى القاسم الحَسَنى ؛ ولازم أستاذ الجماعة أبا عبد الله الفخّار ، وقرأ عليه العرَبية ، وصاهره على بنته الأستاذُ المذكور ، وانتفع به ، إلى أن ساء ما بينهما عند وفاة الشيخ

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « الملكية » . وفى « ت » فحولا . « ك » محمولا .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، المدينى .

(٣) الثقافة بكسر ، هى الضرب بالسيف .

(٤) هكذا فى « ج » ، وفى « ت » والملكية . وفى « ك » ، الكيف .

(٥) هكذا فى المخطوطين ، وفى « الملكية » .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » (من الغرب) .

(٧) الحمة أو الحامة ، هى بلدة تقع فى جنوب غربى غرناطة وقد سبق التعريف بها (ص١٦٩)

(٨) نسبة إلى بيانة ، وهى مدينة أندلسية قديمة تقع فى جنوب شرقى قرطبة على مقربة من قبر ، وهى Baena الحديثة .

فرماه بتَرْمية بيضاء تخلَّقها[١] ، مثيرة عَجَبٍ ، مرّة . وحاله متصلة على ذلك ، وقد ناهز الاكتهال .

أحمد بن حسن بن باصَة الأسْلَمى
المُوَقِّت بالمسجد الأعظم بغرناطة

أصله من شرق الأندلس ، وانتقل إليها والده ، يكنى أبا جعفر .

حـــاله

كان نسيج وحده ، وقريع دهره ، معرفة بالهيئة ، وإحكاماً للآلة الفَلَكية ، ينحتُ منها بيده ذخائر ، يقف عندها النظر والخبر[٢] ، جمال خَط ، واستواء صنعة ، وصحة وضع ، بلغ فى ذلك درجة عالية ، ونال غاية بعيدة ، حتى فَضَل بما ينسب إليه من ذلك كثيراً من الأعلام المتقدمين ، وأزرت آلاته[٣] بالحمايريات[٤] والصَّفاريّات وغيرها من آلات المُحْكِمين ، وتغالى الناس فى أثمانها ، أخذ ذلك عن والده [الشيخ المتفنن] [٥] شيخ الجماعة فى هذا الفن .

وفاته

فى عام تسع وسبعمائة .

---

(١) وردت فى « ج » وفى « ك »تخلفت . والتصويب من « ت » .

(٢) هكذا فى « ج » و« ت » والملكية . وفى «ك» الحيرة ، والأولى أرجح .

(٣) وردت فى المخطوطين : (إلا أنه) والتصويب من « ب »

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» بالجمايريات .

(٥) الزيادة من «الملكية» .

أحمد بن محمد بن يُوسُف الأنصارى

من أهل غرناطة ؛ يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالجبالى .

حـــاله

عكف صَدْراً من زمانه منتظماً فى العُدُول[١] ، آوياً إلى تخصيص وسكون ودماثة ، وحسن معاملة ، له بصر بالمساحة والحساب ، وله بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج[٢] ، وتدَرَّب فى أحكام النجوم ، مقصودٌ فى العلاج بالرُّقا والعزايم ، من أولى المسّ[٣] والخَبال[٤] ، تعلق بسبب هذه المُنتحلات بأذْيال الدول ، وانبَتَّ من شيمته الأولى ، فنال استعمالا فى الشهادات المَخْزنية ، وخبر منه أيام قُرْبه من مبادى الأمور والنَّواهى ، ومُداخلة السلطان ، صمتٌ ، وعقلٌ ، واقتصارٌ على معاناة ما امتُحن به ، وهو الآن بقيد الحياة .

مشيخته

أخذ تلك الصناعة عن الشيخ أبى عبد الله الفخّار المعروف بأبى خُزيمة ، أحد البواقع الموسومين بصحة الحكم فيها ، وعلى أبى زيد بن مُثنى ؛ وقرأ الطب على شيخنا أبى زكريا بن هُذَيل رحمه الله ؛ ونسب إليه عند الحادثة على الدولة وانتقالها إلى يد المتغلِّب ، اختيارُ وقت الثورة وضمان تمام الأمر ، وشهد بذلك بخطٍ ، وغيب من إيثارها . فلما عاد الأمر إلى السلطان المزْعج بسببها إلى العُدْوة ،

---

(١) جمع عدل ، وهو الموثق . وقد سبق التعريف بنظام العدول (راجع الحاشية فى ص ١٨٧)

(٢) هكذا فى « ج » و « ت » . وفى « ك » الأرياح . والأولى أرجح حسبما يستدل من السياق .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » اللمس .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و « ت » الخيال .

أوقع به نكيراً كثيراً ، وضربه بالسياط التى لم يخلّصه منها إلا أجلُه ، وأجلاه[1] إلى تونس فى جملة المغَرَّبين فى أواخر عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

وأخبرنى السلطان المذكور ، أن المُتَرجم به كتب إليه بمدينة فاس ، قبل شروعه فى الوُجْهة ، يخبره بعودة الملك إليه ، وبإيقاعه المكروه الكبير به ، بما شهد بمهارته فى الصنعة ، إن صح ذلك كله من قوانينها ، نسأل الله أن يُضْفى علينا لُبوس سَتْره ، ويقينا شرَّ عثرات الألْسُن بمنه .

أحمد بن محمد الكَرْنى[2]

من أهل غرناطة .

حـــاله

شيخ الأطباء بغرناطة على عهده ، وطبيب الدار السلطانية . كان نسيج وحده ، فى الوقار والنزاهة ، وحسن السَّمْت[3] ، والتزام مُثْلى الطريقة ، واعتزاز الصنعة ؛ قائماً على صناعة الطبّ ، مقْرِئاً لها ، ذاكراً لنصوصها ، مُوفَّقاً فى العلاج ، مقصوداً فيه ، كثير الأمل والمثاب ، مكبوح العِنان عما تنبت به أصول[4] صناعته من علم الطبيعة ، سَنِيًّا ، مقتصراً على المداواة ؛ أخذ عن الأستاذ أبى عبد الله الرَّقُوطى ، ونازعه بالباب السلطانى ، لما شدّ ، واحتِيج إلى ما لديه فى حكم[5] بعض الأموال المعروضة على الأطبّاء ، منازعةً أوجبت من شيخه يميناً أن [لا][6] يحضُرَ معه

---

(١) وردت فى المخطوطين : وجلاه .

(٢) هكذا وردت فى « ك » وهو الرسم الصواب للإسم . ووردت فى « ج » الكنزى .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى الملكية (السمة) .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : الطول ، الصول . والتصويب من « ت » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أحكام .

(٦) أغفلت هذه الكلمة فى المخطوطين ، وإثباتها لازم لاستقامة السياق .

بمكان ، فلم يجتمعا بباب السلطان بعد ، مع التمسُّك بما لديهما ، وأخذ عن ابن عَرُوس وغيره ، وأخذ عنه جملةٌ من شيوخنا كالطبيب أبى عبد الله بن سالم ، والطبيب أبى عبد الله بن سراج وغيرهما .

حدّثنى والدى بكثير من أخباره [فى][1] الوقار وحسن الترتيب ، قال ، كنت آنس به ، ويُعجبنى استقصاؤه أقوال أهل هذا الفن من صنعته ، على مشهوره[2] ، فلقد عُرِض عليه ، لعليل لنا ، بعضُ ما يخرج ، وفيه حية ، فقال على فتور ، وسكونة ، ووقار كثير : هذا العليلُ يتخلص ، فقد قال الرئيس ابن سينا فى أرجوزته :

إنْ خَرَجَ الخِلْطُ مع الحيّات ... فى يوم بُحْران فَعَنْ حياة

وهذا اليوم من أيام البُحْرانية ، فكان كما قال .

وفاته

كان حياً سنة تسعين وستمائة .

أحمد بن محمد بن أبى الخليل مُفَرّج الأموى

مولاهُم ، من أهل إشبيلية ، يُكنى أبا العباس ، وكناه ابن فُرْتون[3] أبا جعفر وتفرّد بذلك ، يعرف بالعَشّاب ، وابن الرُّوميّة ، وهى أشهرهما وألصقهما به .

أوليتُه

قال القاضى أبو عبد الله ، كان والد جدّه أحد أطباء قُرْطبة ، وكان قد تبنّاه ، وعن مولاه أخذ علم النبات .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضى إثباتها السياق .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » ، مصوره .

(٣) هكذا فى « ك » . والملكية . وفى « ج » ، فرقون ، وهو تحريف . والصواب (فرتون) وهو اسم أندلسى ذائع محرف عن القشتالية Fortun ويكثر فى نسب الذين ينحدرون من أصول نصرانية

حـــاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، وغُرَّة جنسه ، إماماً فى الحديث ، حافظاً ، ناقداً ، ذاكراً تواريخ المُحدِّثين ، وأنسابهم ومواليدهم ووفاتهم ، وتَعْديلهم وتجريحهم ؛ عجيبةُ نوع الإنسان فى عصره ، وما قَبله ، وما بعده ، فى معرفة علم النبات ، وتمييز العُشْب ، وتَحْليتها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها ، بمشرق أو مغرب حِسًّا ، ومشاهدةً ، وتحقيقاً ، لا مدافع له فى ذلك ، ولا منازع ، حجةٌ لا تُرد ولا تُدفع ، إليه يُسَلَّم فى ذلك ويُرجع . قام على الصَنْعتين، لوجود القَدْر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرِّحلَة[1] والتقْييد ، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان ، وغير ذلك . وكان زاهداً فى الدنيا ، مؤثراً بما فى يديه منها ، مُوَسَّعاً عليه فى معيشته ، كثيرَ الـكتُب ، جمّاعاً لها ، فى كل فن من فنون العلم ، مَمْحاً لطلبه العلم ، وربما وهب منها لملتمسه[2] الأصل النفيس ، الذى يَعزّ وجوده ، احتساباً وإعانة على التعليم ؛ له فى ذلك[3] أخبار منبئة عن فضله ، وكرم صُنعه[4] ، وكان كثير الشغف بالعلم ، والدؤوب على تقييده ، ومداومته سهر الليل من أجله ، مع استغراق أوقاته ، وحاجات الناس إليه ، إذ كان حسن العلاج فى طبِّه المَوْرود ، الموضوع لثقته ودينه .

قال ابن عبد الملك ، إمامُ المغرب قاطبه فيما كان سبيلُه ، جال الأندلُس ، ومَغْرب العُدْوة ، ورحل إلى المشرق ، فاستوعب المشهور من إفريقيّه ، ومِصْرِه ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : الرجلة . وهو تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطين : لمتلمسه . والتصويب أنسب للسياق .

(٣) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة (فى) مرة أخرى . وهو من باب السهو .

(٤) وفى الملكية (صفته) .

وشامه، وعراقه، وحجازه، وعاين الكثير ممّا ليس بالمغرب؛ وعاوض كثيراً فيه، كلّ ما أمكنه، بمن يشهد له بالفضل فى معرفته، ولم يزل باحثاً على حقائقه، كاشفاً عن غوامضه، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره، ممن تقدم فى الملة الإسلامية، فصار واحد عصره فرداً، لا يجاريه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن.

مذاهبُه

كان سُنِّيا ظاهريّ المنهب[١]، مُنْحياً على أهل الرأى، شديد التعصُّب لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حَزم، على دين متين، وصلاح تام، وورع شديد؛ انتشرت عنه تصانيف أبى محمد بن حزم، واستنسخها، وأظهرها، واعتنى بها، وأنفق عليها أموالاً جمّة، حتى استوعبها جُمْلة، حتى لم يشُذ له منها إلا ما لا خطر، متقدماً ومقتدراً[٢] على ذلك بجِدَته[٣] ويساره، بعد أن تفقّه طويلاً على أبى الحسن محمد بن أحمد بن زَرْقُون فى مذهب مالك.

مشيخته

البحرُ الذى لا نهاية له : روى بالأندلس عن أبى إسحاق الدّمشقى، وأبى عبد الله اليابُرى، وأبى البركات بن داود، وأبى بكر بن طلْحة، وأبى عبد الله ابن الحُر[٤]، وابن العربى، وأبى على الحافظ، وأبى زكريا بن مرزوق، وابن يوسف، وابن ميمون الشريشى، وأبى الحسن بن زَرْقُون، وأبى ذرّ مُصْعب، وأبى العباس

---

(١) أعنى من أتباع الظاهرية الذين يقولون بتأويل ظاهر القرآن والحديث، والذين كان الفيلسوف ابن حزم القرطبى من أقطاب مذهبهم بالأندلس.

(٢) وردت فى «ك»، متقدرا. وفى «ج» متقدماً. ووردت الكلمتان معا فى «الملكية».

(٣) وردت فى المخطوطين : بجدته.

(٤) هكذا فى «ج». وفى «الملكية» الحدوى.

ابن سيِّد الناس ، وأبى القاسم البرّاق[١] ، وابن جمهور ، وأبى محمد بن محمد بن الجنّان ، وعبد المنعم بن فَرَس ، وأبى الوليد بن عفير ؛ قرأ عليهم وسمع . وكتب إليه مُجِيزاً[٢] من أهل الأندلس والمغرب ، أبو البقاء بن قديم ، وأبو جعفر حكم الجفّار ، وأبو الحسن الشقّورى ، وأبو سليمان بن حَوط الله ، وأبو زكريا الدمشقى ، وأبو عبد الله الأندَرَشى ، وأبو القاسم بن سمجون ، وأبو محمد الحجرى . ومن أهل المشرق جُملةٌ ، منهم أبو عبد الله الحَمَدانى بن إسماعيل بن أبى صيف ، وأبو الحسن الحُوَيكر نزيل مكة . وتأدّى إليه أذنُ طائفة من البغداديين والعراقيين له فى الرواية ، منهم ظَفَر بن محمد ، وعبد الرحمن بن المبارك ، وعلى بن محمد اليزيدى ، وفَنَاخُسرو فَيروز بن سعيد ، وابن سَنِيّة ، ومحمد بن نصر الصّيدلانى ، وابن تيميّة . وابن عبد الرحمن الفارسى ، وابن الفضل المؤذّن ، وابن عمر بن الفخّار ، ومسعود بن محمد بن حسان المنيعى ، ومنصور بن عبد المنعم الصاعدى ، وابن هوَازِن القُشيرى ، وأبو الحسن النّيسابُورى .

وحجّ سنة اثنى عشر وستمائة ، فأدّى الفريضة ثلاث عشر ، ولُقِّب بالمشرق بمحب الدِّين . وأقام فى رحلته نحو ثلاثة أعوام ، لقى فيها من الأعلام العلماء ، أكابر جُملة ؛ فمنهم بِبجاية أبو الحسن بن نصر . وأبو محمد بن مكّى ؛ وبتونس أبو محمد المرْجانى ؛ وبالإسكندرية أبو الأصبغ بن عبد العزيز ، وأبو الحسن بن جُبَير الأندلسى ، وأبو الفضل بن جعفر بن أبى الحسن بن أبى البركات ، وأبو محمد عبد الكريم الربعى[٣] ، وأبو محمد العثمانى أجاز له ولم يَلْقه ، وبمصر أبو محمد بن سُحْنون الغمارى ولم يلقه ، وأبو الميمون بن هِبَة الله القرشى ؛ وبمكة أبو على الحسن

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى الملكية ، البارق

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » مخبراً . وهو أيضاً تحريف .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الربعى .

ابن محمد بن الحسين ، وأبو الفتوح نصر بن أبي الفرج الحُصري ؛ وببغداد أحمد ابن أبي السعادات ، وأحمد بن أبي بكر ، وابن أبي خَطْ طلحة ، وأبو نصر القرشي ، وإبراهيم بن أبي ياسر القطيعي ، ورَسْلان المَسْدى ، والأسعد بن بقاقا[1] ، وإسماعيل بن بارَكش الجوهري ، وإسماعيل بن أبي البركات .

وبَرْنامج مَرْوِيّاته وأشياخِه ، مشتملٌ على مئين عديدة ، مرتبة أسماؤهم على البلاد العراقية وغيرها ، لو تتبعتها ، لاستَبْعدتُ الأوراق ، وخرجت عما قصدت .

قال القاضي أبو عبد الله المراكشي[2] بعد الإتيان على ذلك ، مُنْتَهى الثقاة أبو العباس النباتي ، من التَّقْييد الذي قيّد ، وعلى ما ذكره في فهارس له مُنَوّعة ، بين بسط ، وتوسُّط ، واقتضاب ، وقَفْت منها بخطِّه ، وبخط بعض أصحابه ، والآخذين عنه .

من أخذ عنه

حدث ببغداد[3] ، برواية واسعة ، فأخذ عنه بها أبو عبد الله بن سعيد اللَوْشي ؛ وبمصر الحافظ أبو بكر القط . وبغيرها من البلاد أُمّة وقَفَل برواية واسعة ، وجلب كُتُباً غريبة[4] .

تصانيفُه

له فيما ينتحله من هذين الفَنَّين تصانيفُ مفيدة[5] ، وتنبيهات نافعة ،

(١) وردت في « ج » (فقارقا) ، وفي « ك » نفاقا . وفي الملكية نفاق . والتصويب من الذيل والتكملة .

(٢) هو ابن عبد الملك المراكشي وقد ورد هنا باسمه الأول أبوعبد الله محمد .

(٣) وردت في المخطوطين : حديث بغداد . وهو تحريف .

(٤) هكذا في « ج » . وفي « ك » : عربية وهو تحريف ، لأن الكتب عربية بطبيعتها .

(٥) هكذا في « ج » . وفي « ك » مفيدات . والمعنى واحد .

واستدوا كات نبيلة[١] بديعة ، منها فى الحديث ، « رَجّالة المَعلَم بزوائد البُخارى على مُسلم » ، واختصارغريب حديث مالك للدّارَقُطْنى ، و « نَظْم الدّرارى فيما تفرد به مُسلم عن البخارى » ، و « توهين طرق حديث الأربعين »[٢] ، و « حُـكم الدّعاء فى إدبار الصّلوات » ، و « كيفية الأذان يوم الجمعة » ، واختصار الـكامل فى الضّعفاء والمتروكين لأبى محمد بن عدى[٣] ، و « الحافل فى تذييل الـكامل » ، و « أخبار محمد بن إسحاق » .

ومنها فى النبات ، « شرح حشائش دياسْقُورِيدوس وأُدوية جالينوس »[٤] ، والتنبيه على أوهام ترجمتها ، والتنبيه على أغلاط[٥] الغافقى ، والرّحلة النّباتية [والمسْتَدْرَكه][٦] ، وهو الغريب الذى اختصّ به ، إلا أنه عَدِم عَيْنَه بعده ، وكان معجزة فى فنّه ، إلى غير ذلك من المُصَنَّفات الجامعة ، والمقالات المفيدة للفردة ، والتعاليق المُنَوعة .

مناقُبه

قال ابن عبد الملك وابن الزّبير ، وغيرهما ، عُنى تلميذه ، الآخذ به ، الناقد ،

---

(١) فى « الملكية » نبيهه .

(٢) ورد اسم هذا الكتاب فى « ك » هكذا : « توهين حديث طرق الأربعين » .

(٣) ورد اسم الكتاب محرفا كالآتى (اختصار الكامل فى الضعفاء والمتكبرين) . واسم مؤلفه محرفاً كالآتى : (لابى أحد بن على) .

(٤) دياسقوريدوس ، أودياسقوريدس Dioscorides ، طبيب وكيمائى يونانى عاش فى القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن «الأعشاب العلاجية» . وقد عرفه المسلمون منذ عصر مبكر ، وأهدى الإمبراطور قسطنطين السابع قيصر بيزنطية نسخة منه إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وترجمت إلى العربية منذ أوائل القرن الرابع الهجرى . وعليها وضع ابن الرومية شرحه . وأما جالينوس Galen ، فهومن أطباء اليونان القديمة ، عاش فى القرن الثانى للميلاد ، واشتهر ببراعته فى الطب وتركيب الأدوية ، وعرف العرب كتبه الطبية وعربوها .

(٥) هكذا وردت فى « ج » ، وفى « الذيل والتكملة . ووردت فى «ك» » والملكية (أخلاط) . والأولى أرجح .

(٦) واردة فى « الملكية » . ومكانها بياض فى المخطوطين .

المحدِّث ، أبو محمد بن [بن قاسم] الحزّار[١] ، ونهم بجمع أخباره ، ونَشْر مآثره ، وضمَّن ذلك مجموعاً حفيلاً نبيلاً .

شعره

ذكره أبو الحسن بن سعيد فى «القِدْح المعلَّى» ، وقال : جَوَّالٌ بالبلاد المشرقية والمغربية ، جالسْتهُ بإشبيلية بعد عوده من رحلته ، فرأيته متعلقاً بالأدب ، مرتاحاً إليه ارتياح البُحْترى لحَلَبْ ، وكان غير متظاهر بقول الشِّعر ، إلا أن أصحابه يسمعون منه ، ويروون عنه ، وحملت عنه[٢] فى بعض الأوقات ، فقيَّدت عنه هذه الأبيات :

خيِمٌ تَخَلَّق بين الكأس والوَتَر ... فى جنَّة هى ملء السمع والبصر
ومتِّع الطَّرْف فى مَرْأى محاسنها ... برَوْض فكرك بين الروض والزَّهر
وانظر إلى ذَهَبِيات الأصيل بها ... واسْمع إلى نَغمات الطَّير فى السَّحَر
وقل لِمَن لامَ فى لذَّاته بَشَراً ... دَعْنى فإنَّك عندى من سوَى البَشَر

قال ، وكثيراً ما يُطنب على دمشق ، ويصف محاسنها ، فما انفصل عنى إلا وقد امتلأ خاطرى من شكلها[٣] ، فأتمنَّى أن أحُلَّ مواطنها ، إلى أن أبلُغَ الأمل قبل المنُون .

ولو أنِّى نظرتُ بألفِ عَيْنٍ ... لما استَوْفَتْ محاسنها العُيون

دخولُه غَرْناطة

دخلها غيرَ ما مرّة لسماع الحديث ، وتحقيق النبات ، ونقَّر عن عيون النبات

---

(١) هكذا وردت فى « ج » وفى الذيل والتكلة . وفى « ك » الحوار ، وفى الملكية الجزار ، وهو تحريف .

(٢) وردت فى « ج » عليه . والتصويب من « الملكية ».

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ثكلها وهو تحريف ظاهر.

بجبالها ، أحد خزاين الأدوية ، ومظان[١] الفوايد الغريبة ، يجرى ذلك فى تواليفه بما لايفتقر إلى شاهد .

مولده

فى محرم سنة إحدى وستين وخمسمائة .

وفاته

توفى بإشبيلية عند مغيب الشفق من ليلة الإثنين مستهل ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وستمائة . وكان مما رُثى ، قال ابن الزُبير ، ورثاه جماعة من تلامذته كأبى محمد الحرّار ، وأبى أمية اسماعيل بن عفُير ، وأبى الأصبغ عبد العزيز الكَبْتُورى[٢] وأبى بكر محمد بن محمد بن جابر السقطى ، وأبى العباس بن سليمان ؛ ذكر جميعهم الحرار المذكور فى كتاب ألّفه فى فضايل الشيخ أبى العباس ، رحمه الله .

أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خَلَف بن سعيد بن خلف ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان ابن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسِر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أوّليتـــه

بيتُ بنى سعيد العَنْسى ،[٣] بيتٌ مشهور فى الأندلس بقلعة يَحْصُب[٤] ،

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين مضان . مصان .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين . والكبتورى نسبة إلى كبتور أوقبتور ، من قرى مدينةإشبيلية

(٣) وردت فى ج « الغسنى . وفى « الملكية » الغسانى ، وهو تحريف (راجع جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٣٨١) .

(٤) قلعةيحصب أوقلعة بنى يحصب أوقلعة يعقوب أوقلعة بنى سعيد هى اليوم بلدة Alcala la Real الإسبانية . وقد سبق التعريف بها(انظر الحاشية فى ص١١١) .

نزلها[١] جدهم الأعلى[٢] ، عبد الله بن سعيد بن عمّار بن ياسر ؛ وكان له حُظْوة لمكانه من اليمانيّة بقرطبة ؛ وداره بقرب قنطرتها ، كانت معروفة ؛ وهو بيت القيادة والوزارة ، والقضاء ، والكتابة ، والعمل . وفيما يأتى ، وما مرّ كفاية من التنبيه عليه .

حـــاله

قال الملاّحى[٣] ، كان من جِلّة الطلبة ، ونبهائهم ؛ وله حظ[٤] بارع من الأدب ، وكتابة مفيدة ، وشعرٌ مُدَوّن . قال أبو الحسن بن سعيد فى كتابه المسمى «بالطالع »[٥] نشأ محبًّا فى الأدب ، حافظاً للشعر ، وذا كراً لنظْم الشريف الرّضى ، ومِهْيار ، وابن خفاجة ، وابن الزّقاق ، فرَقّت طباعه ، وكثُر اختراعه وإبداعه ؛ و نشأت معه حَفْصة بنت الحاج الرّكونى[٦] ، أديبة زمانها ، وشاعرة أوانها ، فاشتدّ بها غرامه ، وطال حبُّه وهيامه ؛ وكانت بينهما منادمات ومغازلات أرْبَت على ما كان بين علوَة وأبى عُبادة ؛ يمر من ذلك إلمام فى شعر حَفْصة إن شاء الله .

نباهتُه وحُظوتُه

ولما وفدت[٧] الأندلس ، على صاحب أمر المُوحِّدين فى ذلك الأوان ، وهو

---

(١) وردت فى المخطوطين : نزلم .

(٢) وردت فى «ك» . واغفلت فى «ج» وفى «الملكية» .

(٣) سبق التعريف به (انظر الحاشية فى ص ٨٥) .

(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» والملكية خط . وهو تحريف .

(٥) هو كتاب «الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد» .

(٦) ورد اسمها محرفا فى المخطوطين : حفصة بنت الحجاج . وسوف يترجم لها ابن الخطيب فيما بعد .

(٧) وردت فى المخطوطين ، وفد ، والتصويب يقتضيه السياق.

مُحْتَل بجبل الفتح[١] ، واحتفل شعراؤها فى القصائد ، وخطباؤها فى الخُطَب بين يديه[٢] ، كان فى وفدِ غَرْناطة ، أبو جعفر هذا المترجم به ، وهو حَدَث السن فى جُملة أبيه وإخوته وقومه ، فدخل معهم على الخليفة ، وأنشده قصيدة ؛ قال أبو الحسن بن سعيد ، كتبت منها من خط والده قوله :

تـكَلَّم فقد أصْغَى إلى قولك الدهرُ ... وما لسواك اليوم نَهْـىٌ ولا أمْرُ
ورُمْ كلّ ما قد شِئْتَه فهو كائنٌ ... وحاوِلْ فلا بَرٌّ يفُوت ولا بَحْرُ
وحَسْبُك هذا البحر فَألاً فإنه ... يُقَبّلُ تُرْباً داسَه جيشُك الغَمْرُ
وما صوتُه إلاّ سلامٌ مُرَدَّدٌ عليــ ... ـك وعن بِشْرٍ بقُرْبك [اليوم][٣] يَفترُّ
بجيش لـكى يَلْقى أمامك مَنْ غَدَا ... يُعاند أمراً لا يقُوم له أمْرُ
أطَلّ على أرض الجَزيرة سَعْدُها ... وجدّد فيها ذلك الخَبَرَ الخُبْرُ
فما طارقٌ إلا لذلك مُطــرقٌ ... ولابن نُصَيْر لم يكنْ ذلك النّصْرُ
هما مَهّداها كى تَحُلّ بأفقها[٤] ... كما حَلّ عند التّمِّ بالهالة البَـدْرُ

قال : فلما أتمّها أثنى عليه الخليفة[٥] ، وقال لعبد الملك أبيه : أيهما خير عندك فى ابنيك ؛ فقال ياسيّدنا : محمدٌ دخل إليكم مع أبطال الأندلس وقوادها ،

---

(١) الحادث الذى تشير إليه هذه العبارة هوقدوم وفود الأندلس على خليفة الموحدين عبدالمؤمن ابن على وهو مقيم بجبل طارق وذلك فى أوائل سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) بعد أن تمت المدينة الجديدة التى أمر ببنائها فيه ، وهو الذى أسماه عندئذ بجبل الفتح . وقد ألقى بين يديه الشعراء والخطباء بهذه المناسبة قصائدهم وخطبهم مرحبين منوهين بعظمة عهده (راجع الحلل الموشية ص ١١٧ ، والاستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٦٣ ، وعصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان ج ١ ص ٣٨٢ – ٣٨٥) .

(٢) وردت فى المخطوطين : يد .

(٣) الزيادة من « الملكية » .

(٤) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » . وفى « ك » بأرضها .

(٥) ورد فى النص بعد هذه الكلمة عبارة (كل ميسر) ، هى هنا زائدة ولا محل لها فى السياق ، فآثرنا إغفالها .

وهذ مع الشعر ، فانظروا ما يجب أن يكون خيراً[1] عندى ؛ فقال الخليفة : كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له ، وإذا كان الإنسان متقدّماً فى صناعة فلا يُؤْسَف عليه ، إنما يُؤْسَف على متأخر القَدْر ، محروم الحظ . ثم أنشد قول الشعراء والأكابر[2]. ثم لما ولِى غَرناطة ولدُه السيد أبو سعيد ، استَوْزَر أبا جعفر المذكور ، واتصلت حظوته[3] إلى أن كان مايذكر من نكبته .

محنته

قال قريبُه وغيره : فسَد مابينه وبين السيد أبى سعيد لأجل حَفْصة الشاعرة ، إذ كانت محل هواه[4] ، ثم اتصلت بالسيِّد ، وكان له بها [علاقة][5] ، فكان كل منهما على مثل الرَّضْف للآخر[6] ، ووجد حُسّاده السبيل، إلى إغراء السيد به ، فكان مما نُمى به عنه ، أن قال لحفصة يوماً: وماهذا الغرام الشديد به ،يعنى السيد ، وكان شديد الأُدْمة[7] ، وأنا أقدر أن أشترى لك من المَعْرض أسْوداً خيراً منه بعشرين ديناراً ، فجعل السيد يتوسّد له المهالك ، وأبو جعفر يتحفّظ كل التحفظ . وفى حالته تلك يقول :

مَنْ يشترى منى الحياة وطيبَها ... ووَزارتى وتأدُّبى وتهذُّبى
بمَحلِّ راعٍ فى ذُرَى مَلْمُومة ... زُويت عن الدنيا بأقصى مَرْتَب
لاحُكْمَ يأخذُه بها إلا لِمَن ... يعْفُو ويرؤُف دائماً بالمذْنب
فلقد سَئِمْتُ من الحياة مع امرئٍ ... مُتغضِّب[8] متغلِّب مترتِّب

---

(١) هكذا «ج» وفى الملكية ؛ وفى «ك» ميسراً .

(٢) وردفى النص بعد هذه الكلمة اسم (ابن أبى مروان) ، دون أن يكون له بالسياق أى صلة فآثرنا إغفاله .

(٣) وردت فى المخطوطين : حضرته . والتصويب أرجح وأصلح للسياق .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» هداه . والأولى أرجح .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، والزيادة من الملكية .

(٦) الرضف هو الحجارة المحماة ، ومعناه أن كلا منهما كان شديد الحقد على الآخر .

(٧) أى شديد السمرة ، والأدم هو الجلد المدبوغ .

(٨) وردت فى المخطوطين : مغضب . وبالتصويب يستقيم الوزن والسياق .

الموتُ يلحظُنى إذا لاحظتُه ويقُوم فى فكرى أوان تجنّبى
لا أهتدى مع طول ما حاولته لرضاه فى الدنيا ولا للمَهْرَب

وأخذ فى أمره مع أبيه وأخوته، وفتنة ابن مَرْدَنيش[1] مضطّربة، فقال له أخوه محمد وأبوه، إن حرّكنا حركةً كنا سبباً لهلاك هذا البيت، ما بقيت دولة هؤلاء القوم، والصبر عاقبته حميدة، وقد كنا نهاك عن المُمارَجة[2]، فلم تَرْكب إلا هواك؛ وأخذ مع أخيه عبد الرحمن، واتفقا على أن يثورا فى القلعة باسم ابن مَرْدَنيش، وساعدهما قريبهما على ذلك حاتم بن حاتم بن سعيد، وخاطبوا ابن مردنيش، وصدر لهم جوابه بالمبادرة، ووصلت منه خيلٌ ضاربةٌ، وتهيأ لدخول القلعة؛ وتهيأ الحصول فى القلعة، وخافوا من ظهور الأمر؛ فبادر حاتم وعبد الرحمن إلى القلعة، وتم لهما المراد؛ وأخّر الجبنُ أبا جعفر ففاتاه، وتوقّع الطلب فى الطريق إلى القلعة، فصار مُتخفياً إلى مالقَة، ليركب منها البحر إلى جهة ابن مردنيش؛ ووضع السيّد عليه العيون فى كل جهة، فقُبض عليه بمالقة، وطولع بأمره فأمر بقتله صبراً، رحمه الله.

جزالته وصبره

قال أبو الحسن بن سعيد؛ حدثنى الحسين بن دُوَيرة، قال: كنت بمالقة لما قبض على أبى جعفر، وتوصّلت إلى الاجتماع به، ربما استؤذن السيد فى أمره حين حُبس، فدَمَعَت عينى لما رأيته مَكْبولا؛ قال: أعلىّ تبكى بعد ما بلغتُ من الدنيا أطايب لذاتها، فأكلتُ صدور الدجاج، وشربت فى الزُجاج، وركبت كل هِمْلاج[3]،

(١) يشير ابن الخطيب هنا إلى قيام ابن مردنيش، وهو محمد بن سعد بن سعد من زعماء شرق الأندلس فى أواسط القرن السادس الهجرى، وتملكه بلنسية ومرسية وثورته على الموحدين، ومحاربته إياهم. وقد توفى ابن مردنيش سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م). ويترجم له ابن الخطيب فى الإحاطة فيما بعد (راجع فى ذلك الحلة السيراء ص ٢٢٠ و ٢٣٠. والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠. وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠. وراجع كتابى عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، القسم الثانى، ص ٣٣-٥٧)

(٢) هكذا فى «ج»، وفى «الملكية». والمارجة، من المرج، ومعناه الفساد أو الفتنة.

(٣) الهملاج هو الدابة الأصيلة الحسنه السير.

ونمت فى الديباج ، وتمتعت بالسّرارى والأزواج ، واستعملت من الشمع ، السِّراج الوهّاج ، وهأنا فى يد الحجّاج ، منتظراً محنة الحلاّج[١] ؛ قادمٌ على غافرٍ ، لا يُحْوج إلى اعتذار ولا احتجاج . فقلت : ألا أبكى على من ينطق بمثل هذا ، ثم تَفَقَّدُ ، فقمت عنه ، فما رأيته إلاّ مصلوباً ، رحمه الله .

شعره

أتانى كتابٌ منك يحسده الدهر[٢] أمّا حِبْرُه ليلٌ ، أما طِرسُه فَجْرُ
به جمع الله الأمانيَّ لناظرى ومَحى وفِكرى فهو سِحْرٌ ولا سِحْرُ
ولا غَرْوَ أن أبدى العجايب ربُّه وفى ثوبه بِرٌّ ، وفى كفِّه بَحْرُ
ولا عجَبَ إن أينعَ الزهــرُ طيّه فما زال صوبُ القَطْرِ يبدو به الزَّهْرُ

ومن شعره مايَجْرى مَجْرى المُرْقص ، وقد حضر مع الرُّصافى والـكُتُنْدى [ومعهم مغن برُوطَة][٣] .

لله يومُ مَسَرَّةٍ أضْوَى وأقْصَرُ من ذُبَالَه
لما نَصَبْنا للمُنى فيه من أوْتارِ حِبالَه
ظل النهار بهـا كمُرْ تاعٍ ، وأجْفَلَتْ الغزاله

وشعره مُدَوَّنٌ كما قلنا ، وهذا القدر عنوانٌ على نُبْله .

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، وهو فارسى من أصل مجوسى ، اشتغل بعلوم الدين ، واشتهر بالتنسك والزهد . وكانت له آراء فى الدين عدها فقهاء عصره مروقاً وإلحاداً ، وقبض عليه بأمر الخليفة المقتدر ، ثم ضرب ألف سوط ، وأعدم بطريقة بشعة إذ قطعت أطرافه ، ثم قطع رأسه ، وأحرقت جثته أمام جمهور كبير من أهل بغداد ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ (٩٢٢ م) (ترجمته فى ابن خلكان ج (ص ١٨٣) .

(٢) هذا فى « ك » ، وفى « ج » الزهر .

(٣) ما بين الحاصرتين وارد فى « ج » وفى « الملكية » ، وساقط فى « ك » . وروطة من قرى غرناطة .

غريبةٌ فى أمره مع حفصة

قال حاتم بن سعيد ؛ وكان قد أجرى الله على لسانه ، إذا حرّكت الكأس بها غرامه ، أن يقول ، والله لايقْتُلنى أحدٌ سواك ؛ وكان يعنى بالحُب ، والقَدَرُ مُوَكل بالمَنْطق ، قد فرغ من قتله بغيره من أجلها . قال ؛ ولما بلغ حفصة قتلهُ لبِست الحِداد ، وجهرت بالحزن ، فتُوُعِّدت بالقتل ، فقالت فى ذلك :

هدَّدونى من أجل لِبْس الحِداد لحبيبٍ أرْدُوه لى بالحِداد
رحم الله من يجودُ بدمعٍ أو يَنُوح على قتيلِ الأعاد
وسقَتْه بمثل جُود يديه حيث أضْحَى من البلاد الغَواد

ولم يُنتفع بعدُ بها ، ثم لحِقت به بعد قليل .

وفاته

توفى على حسب ما ذُكر ، فى جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين وخمسمائة .

أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشى
المعروف بابن فركون

يكنى أبا جعفر .

أوَّليتُه

قد مرَّ ذلك فى اسم جَدِّه قاضى الجماعة(١) ، وسيأتى فى اسم والده .

حاله

شعلة من شعل الذكاء والإدراك ، ومجموع خلال حميدة ، على الحداثة ، طالب

(١) وردت ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشى فى ص ١٥٣ .

نبيل، مدرك، نجيب، بذّ أقرانه كفاية، وسما إلى المراتب، فقرأ، وأغرب، وتمر[١]، وتدرّب، واستجاز له والدُه شيوخ بلده، فمن دونَهم، ونظم الشعر، وقيّد كثيراً، وسبق أهل زمانه فى حسن الخط، سبقا أفرده بالغاية القصوى؛ فيراعه اليوم، المشار إليه، بالظرف[٢] والإتقان، والحوَا، والإسراح؛ اقتضى ذلك كله ارتقاؤه إلى الكتابة السلطانية، ومزية الشفوف بها، بالخلع والاستعمال؛ واختصّ بى، وتأدّب بما انفرد به من أشياخ تواليفى، فآثرتُه بفوائد جمّة، وبطَن[٣] حوضه من تحَلُّبه، وترشّح إلى الاستيلاء على الغاية.

شعره

أنشد له بين يدى السلطان فى الميلاد[٤] الكريم:

حيّ المعاهد بالكثيب وجادها   غيثٌ يروى حيّها وجمادها

مولده

فى ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وسبعمائة.

أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن صَفْوان

من أهل مالَقَة؛ يُكنى أبا جعفر، ويعرف بابن صفوان.

حاله

بقيّة الأعلام، أديب [من أدباء][٥] هذا القطر، وصدرٌ من صدور كتّابه، ومشيخة طلبته، ناظمٌ، ناثر، عارف، ثاقب الذهن، قوىّ الإدراك، أصيل

(١) هكذا فى المخطوطين. والمقصود بها أثمر.

(٢) هكذا وردت فى «ج» وفى «الملكية». ووردت فى «ك» باللطف.

(٣) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» ونطق.

(٤) فى المخطوطين وكذا فى الملكية: البلاد، وهو تحريف. (٥) الزيادة من الملكية.

النظر ، إمام الفرايض والحساب والأدب والتّوْثيق ، ذا كرٌّ للتاريخ واللغة ، مشارك في الفلسفة والتصوّف ، كلفٌ بالعلوم[١] الإلـهية ، آية الله في فكِّ المُعَمَّى ، لا يجاريه في ذلك أحد ممن تقدّمه ، شأنه عجبٌ ، يفُكُّ من المُعمَّيات[٢] والمُسْتَنْبَطات ، مفصولاً وغير مفصول ؛ شديد التعصّب لذي[٣] وُدٍّ ، وبالعكس ، تامُ الرُّجولة ، قليل التهيب ، مُقتحم حِمَى أهلِ الجاه والحد والمضايقة ، إذا دعاه لذلك داع ، حَبْل[٤] نقمه على غاربه ، راضٍ بالخُمول ، مُتبلِّغ بما تيسّر ، كثير الدؤوب والنظر ، والتقييد والتصنيف ، على كلال الجوارح ، وعائق الـكَبْرة[٥] ، متقارب نمطى[٦] الشعر والـكتابة ، مجيد فيهما ، ولنظمه شُفوف على نثره .

مشيخه

قرأ على الأستاذ [أبي محمد][٧] الباهلي ، أستاذ الجُمْلة من أهل بلده ، ومولى النعمة عليهم ، لازمه وانتفع به ؛ ورحل إلى العُدْوة ، فلقى جُمْلة ، كالقاضى المؤرخ أبي عبد الله بن عبد الملك ، والأستاذ التعالمى أبي العباس بن البنّا ، وقرأ عليهم بمراكش .

نباهتـــه

استدعاه السلطان ، ثاني الملوك من بني نصر[٨] إلى الـكتابة عنه مع الجِلّة[٩] ،

---

(١) وردت في المخطوطين : بالعموم ، وهو تحريف ظاهر.

(٢) وردت محرفة في المخطوطين : المعايات .

(٣) هكذا في « ج » . وفي « الملكية » : لأهل .

(٤) وردت محرفة في المخطوطين : حل .

(٥) الكبرة أى تقدم السن .

(٦) وردت في « ج » بمضى . والتصويب من الملكية .

(٧) واردة في « ك » . وساقطة في « ج » والملكية .

(٨) هو السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر الملقب بالفقيه . حكم من سنة ٦٧١ – ٧٠١ هـ (١٢٧٢ – ١٣٠٢ م) .

(٩) هكذا في « ج » . وفي « ك » و« الملكية » الجملة . والأولى أرجح .

ببابه ، وقد نما عُشُّه ، وعلا كعبه ، واشتهر ذكاؤه وإدراكه . ثم جَنَح إلى العودة[1] لبلده . ولما ولى المُلْك ، السلطان أبو اليد ، ودعاه إلى نفسه، ببلده مالَقَة ، استَكْتبه رئيساً مستحقاً ، إذ لم يكن ببلده . فأقام به واقتصر على كَتْب الشروط ، معروف القدر ، بمكان من القضاة ورعيهم ، صدراً فى مجالس الشورى ؛ وإلى الآن يجعل إلى زيارة غرناطة ، حظاً من فصول بعض السنين ، فيَنْصِب[2] بها العدالة ، ثم يعود إلى بلده فى الفصل الذى لايصلح لذلك . وهو الآن بقيد الحياة ، قد عَلَقته أشراك[3] الهَرَم ، وفيه بعدُ مُستمتَعٌ ، بديع ، كبير .

تصانيفه

من تواليفه ، « مطلع الأنوار الإلــهية» ، «وبغْية المستفيد » ، وشرح كتاب القُرشى فى الفرايض ، لانظير له . وأما تقاييده على أقوال يعترضها ، وموضوعات ينتقدها ، فكثيرة .

شعــره

قال فى غرَض[4] التَّصوُّف ، وبلغنى أنه نظمها بإشارة من الخطيب ، ولى الله ، أبى عبد الله الطَنْجالى ، كَلِفَ بها القوَّالون والمسمِّعون بين يديه :

بان الحميُ فما الحِمَى والبــانُ ... بشفاء مَنْ عنـه الأحِبّة بانُوا
لم ينقضُوا عهــداً بينهم ولا ... أنساهم ميثاقَكَ الحِــدْثانُ
لــكن جَنَحتَ لغيرهم فأزالهم ... عن أُنْسِهم بك مُوحشٌ غَيْران
لو صحّ حُبُّك ما فقدْتُهم ولا ... سارَتْ بهم عن حُبِّك الأظعان
تشتاقُهم، وحَشاك هالةُ بَدْرِهم ... والسرُّ منك لِحِلِّهم ميدان
ماهكذا أحوالُ أرباب الهوى ... نَسَخ الغــرامَ بقلبك السُّلوان

---

(١) وردت فى المخطوطين : العدوة ، وهى هنا تحريف .

(٢) وردت فى المخطوطين : فتنصب . والتصويب أصلح للسياق .

(٣) فى المخطوطين : اشتراك ، وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين : عرض .

لايشتكى ألم البُعاد مُتَيَّمٌ أحبابه فى قَلْبِه[١] سُكّان
ما عندهم إلا الكمال وإنما غَطَّى على مِرآتك النُّقْصان
شَغَلَتْك بالأغيار عنهم مُقْلةٌ إنْسانُها عن لَمْحِهم وسْنان
غَمِّضْ جُفُونَك عن سواهم مُعْرِضاً إنَّ الصوارم حَجْبُها الأَجْفان
واصرِفْ إليهم لَحْظَ فِكرك شاخصاً تَرَهُم بقلبك حيث كنت وكانوا
مابان عن مَغناك من ألطافه يَهمى عليها سحابُها الهَتَّان
وجياد أنْعُمِه ببابك ترتمى تَسْرِى إليك بِرَكْبِها الأكوان
جعلوا دليلاً فيك منك عليهم فبدا على تَقْصِيرك البُرهان
يا لاحِظاً سِرَّ الوُجود بعَيْنِه السِّرُّ فيك بأَسْرِه والشَّانُ
ارجِعْ لذاتك إن أرَدْت تَنَزُّهاً فيها لعَيْنَى ذى الحجا بُستانُ
هى رَوْضَةٌ مطْلُولةٌ بل جَنَّةٌ فيها المُنَى والرَّوحُ والرَّيحانُ
كم حِكْمَة صارت تلُوح لناظرٍ حارَتْ لباهر صُنْعِها الأذهانُ
حُجِبَتْ بشمسك[٢] عن عيانك شَمْسُها شمسُ مُحاسنُ[٣] ذِكرها التِّبيان
لولاك ماخَفِيت عليك آياتُها[٤] والجوُّ من أنوارها مَلآن
أنت الحِجابُ لما تُؤَمِّل منهم فَفَناؤك الأقْصى لهُم وُجدان
فاخْرُج إليهم عنك مُفْتَقِراً لهم إن المُلُوك بالافْتِقار تُدان
واخضع لعِزِّهم ولِذُلِّهم[٥] يَلُح منهم عليك تَعطُّفٌ وحنان
هُمْ وشحوك إلى الوصول إليهم وهُمُ على طَلَب الوِصال عوان

---

(١) وردت فى المخطوطين : بقلبه . وبالتصويب يستقيم الوزن .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بشخصك .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى « ج » والملكية : فحاسن .
(٤) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » أيتها .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » . لذبهم وهو تحريف .

عَطَفُوا بجمالهم على أجْمَالهم فحُلى المشوق الحُسْن والإحسان
يامُلبسين عَبيدَهم[١] حُلَل الضّنا جسمي بما تكسُونه يَزْدان
لا سُخْط[٢] عندى للذى تَرضونه قلبي [بذاك مفرح][٣] جذلان
فبِقُربكم عينُ الغِنا وببعدكم محضُ الفنا ومحُبُّكم ولْهان
إنى كتَمْتُ عن الأنام هوا كم حتى دُهيتُ وخانني الكتمان
وَوَشَتْ بحالى[عندذاك][٤] مدامعٌ أدنى مواقع قَطْرِها طوفانُ
وبَدَتْ على شمايلُ عُذْرِيّة تَقضى بأنى فيكُمُ هَيمانُ
فإذا نَطقْتُ فذكرُكُمُ لِىَ مُنطقٌ ما عن سوا كُمْ لِلّسان بيانُ
وإذا صَمَتُّ فأنتمُ سِرُّى الذى بَيْنَ الجَوَانح فى الفُؤَاد يُصانُ
فبباطنى وبظاهرى لكُمُ هَوًى من جُنْده الإسْرَارُ والإعْلانُ
وجَوَانحى وجميع أنفاسى وما أحْوى عَلَىَّ لحُبِّكم أعوان
وإليكُمُ منى المفرُّ فقصْدُكُمْ حَرَمٌ به للخائفين أمان

وقال يذُمُّ الدنيا ويمدح[٥] عُقْبى من يُقلل منها :

حديث الأمان[٦] فى الحياة شجون إن أرضاك شأنٌ أحْفَظَتْكَ شُئون
يميلُ إليها جاهلٌ بغرُورها فمِنْه اشتياقٌ نحوها وأنينُ
وذو الحَزْم يَنْبو عن حِجاه لحالها يقيه إذا شَكَّ عَراه يَقينُ
إليك صريعَ الأمْنِ مَنْحَه[٧] ناصح على نُصْحِه سيما الشَّفيق[٨] تبِينُ

---

(١) هكذا فى «الملكية» ووردت فى المخطوطين : عميدهم .
(٢) وردت فى المخطوطين سخطى .
(٣) هكذا وردت فى «الملكية» . وفى المخطوطين (بذلك فرح) . والأولى أصح وأنسب للسياق.
(٤) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى «ت» .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ويحمد .
(٦) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» ، الجمان .
(٧) هكذا فى «ج» . وفى الملكية (منحة) .
(٨) هكذا وردت فى «ك» . ووردت محرفة فى «ج» : السفين .

تجافَ عن الدُّنيا ودِنْ باطِّراحها ... فَمَرْكَبُها بالمُطْمعين(١) حَرُون
وترفيعُها خَفْضٌ وتَنْعيمها أذًى ... ومَنْهَلُها للواردين أُجُون
إذا عاهَدَتْ خانت وإن هى أقْسَمت ... فلا ترجُ برًّا باليمين يَمينُ
يروقُك منها مَطمعٌ من وفائها ... وسَرعان ما إثْرَ الوفاء تَخُون
وتَمْنَحُك الإقبالَ كفَّة حابلٍ ... ومِنْ مَكْرِها فى طَىٍّ ذاك كَمينُ
سقاهُ لعَمْرُ الله إمحاضَك الهوى ... لمَنْ أنتَ بالبَغْضاء فيه قَمينُ
ومن تَصْدِفيه وهو يقْطعك القِلا ... وتُهدى له الإعْزازَ وهو يُهينُ
ألا إنّها الدنيا فلا تَغْترِر(٢) بها ... ولُودُ الدَّواهى بالخداع تَدين
يَعُمُّ رَدَاها الغِرَّ والخِبَّ ذا الدَّها ... ويُلْحَقُ فيها بالكِناسِ عَرِينُ
وتَشْمَلُ بَلْواها نبيلاً وخاملًا ... ويَلْقَى مُذالٌ(٣) غدرَها ومَصُونُ
أبِنْها لحاها الله كم فِتْنَةٍ لها ... تُعَلِّمُ صُمَّ الصَّخر كيف يَلينُ
فلا مَلِكٌ سامٍ(٤) أقالت عِثاره ... ولو أنه لِلفَرقَدَين خَدِين
[ولا معهد الاّ وقد نَبهَت به ... بَعيدَ الكرى للثاكلات جُفُون
أبيتُ لنفسى أن يُدَنِّسها الكَرَى ... سكونٌ إليها موبقٌ ورُكُون](٥)
فليس قَريرَ العَيْنِ فيها سوى امرئٍ ... قَلاه لها رأى يراه ودِينُ
أبيتَ طَلَاقَ الحِرْص فالزُّهد دائباً ... خليلٌ له مُسْتَصْحَبٌ وقَرِينُ
إذا أقبلَتْ لم يُولِها بشرَ شيِّقٍ ... ولا خَفَّ لِلإقبال منه رَزِينُ

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج» بالممطعين. وفى الملكية: بالمطمين.
(٢) هكذا فى «ج»، وفى «ك» تفتر
(٣) هكذا فى المخطوطين، وفى الملكية.
(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» سمى.
(٥) هذان البيتان واردان فى «ج» وفى «الملكية». ولكنهما أدمجا فى «ك» فى بيت واحد نصه: (ولا معهد إلا . . . سكون إليها موبق . . .)

وإن أدْبَرَتْ لم يلتفت نحوها بها ... وادٍ على مالم توات حزين
خفيفُ المطا من حَمْل أثقال هَمِّها ... إذا ما شَكَتْ ثِقَلَ الهُمُوم متون
على حفظه للفَقْـــر أبْهَى ملاءةٍ ... سَنَى حَلْيها وسْطَ الزرى يدين
برَجْف تخال الخائفين منـــازلٌ ... لهنّ مكانٌ حيث حَلّ مَــكِينُ
منازلُ نجْدٍ عنـــدها وتِهامَةٍ ... سوًى واستوى هنْدٌ لديهوصِين[1]
يرُودُ رياضاً أين ســـار وورْدُه ... زُلالٌ اعتاض الورودَ مَعِينُ
فهذا أثيلُ[2] المُلْك لامُلْكُ ثائرٍ ... لأعدائه حربٌ عليه زَبُونُ
وهذا عريضُ العزِّ لاعزُّ مُترفٍ ... له من مَشِيدات القُصُور سُجُون
حَوَتْ شَخْصه أوْصافها فكأنّه ... وإن لم يَمُتْ فوق التّراب دَفِينُ
فياخابطاً عَشْواء والصُّبْح قد بدا ... [إلام تُغَطِّى][3] ناظِرَيك دُجُون
أفِقْ من كرَى هذا التَّمَادِى ولاتَضع ... بجبلك علق[4] العُمْر فهو ثَمِين
إذا كان عُقْبى ذى جِدَّة إلى بِلًى ... وقُصارى ذى الحيـــاة مَنُون
ففِيمَ التفانى والتنافُس ضِـــلَّة ... وفيم التَّلاحى والخِصامُ يَكون
إلى الله أشـــكوها نفُوساً عَمِيّةً ... عن الرُّشْد والحقُّ اليقين تَبِينُ[5]
وأسألُه الرُّجعى[6] إلى أمرِه الذى ... بتوفيقه حَبْـــلُ الرَّجاء متينُ
فلا خَيْرَ إلا من لَدُنْه وجُـــودُه ... لتَيْسير أسباب النَّجاة ضَمِينُ

وجمعتُ ديوان شعره أيّام مقامى بمالقةعند توجُّهى صُحْبة الركاب[7] السلطانى

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ومين .
(٢) وردت فى « ج » ، واغفلت فى « ك » .
(٣) ما بين الحاصرتين ورد محرفاً فى المخطوطين : إلى تمنى . ثغنى .
(٤) هكذا وردت فى « ج » وفى « الملكية » ، وفى « ك » علو.
(٥) فى المخطوطين : يكون
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، الرجا .
(٧) هكذا فى « الملكية » . ووردت فى « ج » الركبان .

إلى إصراخ الخَضْراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ وقدّمت صدْرَه خطبة ،وسمّيت الجزء « بالدُّرَر(١) الفاخرة ، واللُّجَج الزاخرة » ، وطلبتُ منه أن يُجيز نى ، وولدى عبد الله ، روايةَ ذلك عنه [فكتب](٢) بخطّه الرائق بظهر المجموع مانصه :

« الحمد لله مستحقٌ الحمد ، أجبْتُ سؤال الفقيه ، الأجَلّ ، الأفضل ، السّرِى ، الماجد ، الأوْحَد ، الأحْفل ، [الأديب](٣) البارع ، الطّالع فى أفقُ المعرفة والنَّباهة ، والرفعة المَكينة والوجاهة ، بأبْهى المَطَالع ، المُصنِّف ، الحافظ ، العلاّمَة ، الحائز فى فَنّي النظم والنثر ، وأسلوبى الكتابة(٤) والشِّعر ، رُتْبة الرياسة ، الحامل لراية التقدُّم والإمامة ، مُحلِّى جيد(٥) العصر بتواليفه الباهرة الرواء(٦) ، ومُجْلى محاسن بنيه(٧) ، الرائقة على منَصَّة الإشهاد والإنْباء ، أبى عبد الله بن الخطيب ، وصَل الله سعادته ومجادته ، وسَنّي من الخير الأوْفر ، والصُنْع الجميل الأبْهر ، مَقْصِده وإرادته ، وبلّغه فى نجله الأسْعد ، وإبنه الراق(٨) بمحتده الفاضل ، ومنْشَئه الأطْهر ، مَحلّ الفَرْقد ، أفضل ما يُؤَمِّل نِحْلَتَه إياه فى المَكْرُمات وإفادته ، وأجَزْتُ له ، ولابنه عبد الله المذكور ، أبقاهما الله تعالى ، فى عزةٍ سَنِيَّةِ الخلال(٩) ، وعافية ممتدة الأفياء ، وارِفَة الظِّلال ، روايةَ جميعِ ماتقيد فى الأوراق ، المُكْتَتَب على ظهر أوّل ورقة منها ، من نَظْمى و نَثْر ى ، وما توليتُ إنشاءه(١٠) ، واعتمدتُ بالارتحال

(١) وردت فى المخطوطين ، الدار . وفى الملكية بالدرارى ، وهو تحريف .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وفى « الملكية » . وينقصها السياق .
(٣) وردت فقط فى « ك » . وأغفلت فى « ج » ، وفى الملكية .
(٤) وردت فى المخطوطين المكاتبة ، وفى « النفح » الكتابة ، وهو أرجح .
(٥) وردت فى المخطوطين : جيل .
(٦) فى المخطوطين : الرواية ، والتصويب من نفح الطيب .
(٧) وردت فى المخطوطين : ومحل بنيه ، مع إغفال « محاسن » . والتصويب من نفح الطيب .
(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : (إلى اقر) .
(٩) هكذا فى « ج » . وفى النفح ، وفى « ك » ، الجلال .
(١٠) هكذا فى « ج » وفى « النفح » ، وفى « ك » أنشاده .

والرواية، اختياره وانتقاءه، أيام عُمْرى ؛ وجميع مالىَ من تصْنيف وتَقْييد، ومقطوعة وقصيدة ؛ وجميع ما أَحْمِلُه عن أشياخى رضى الله عنهم، من العلوم، وفُنون المنثور والمنظوم ؛ بأى وجه تأتّى ذلك، وصحّ حَمْلى له، وثَبَت إسنادُه لى ؛ إجازةً تامّة، فى ذلك كله عامّة، على سُنَن الإجازات الشّرعية، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المَرْعى، والله ينفعُنى وإيّاهما بالعلم وحَمْله، وينْظِمُنا جميعاً فى سِلْك حِزْبه المُفْلحين وأهله، ويفُيض علينا من أنوار بركته وفضله. قال ذلك وكَتَبه بخط يده الفانية، العبدُ الفقير إلى الغنى به، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان، ختم الله له بخير ؛ حامداً لله تعالى، ومصلياً ومُسلماً على محمد نبيه المصطفى الكريم، وعلى آله الطاهرين ذوى المَنْصِب العظيم، وصحبه البررة، أولى المنصب والأثَرة والتقديم ؛ فى سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين[1]، وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل ».

واشتمل هذا الجزء الذى أَذِن بحمله عنه من شعره على جملة من المُطوّلات، منها قصيدة يعارض بها الرئيس أبا علىّ بن سينا فى قصيدته الشهيرة فى النّفْس التى مطلعها : « هَبَطت إليك من المحلّ الأَرْفع »، أولها : أهلا بمسراك المحب[2] الموضع ». وأول قصيدة :

لِمَعْناك فى الأفهام سِرٌّ مُكَتَّمُ ... عليه نفـــوسُ العارفِين تَحُوم

وأول أخرى :

أَزْهَى حجابَك رؤيةُ الأَغْيـار ... فامحُ الدُّجَى بأشـــعَّة الأنْوار

وأول أخرى :

ثناه وجودى فى هوا كم هو الخُلْد ... ومَحْوُ رُسُومى حُسن ذاتى به يَبْدو

---

(١) هكذا وردت فى « ك ». وفى النفح وفى « ج » : أربعة وسبعين، وهو تحريف واضح يناقض ما ذكره ابن الخطيب فى البداية، ويناقض ما ذكره بعد ذلك من وفاة ابن صفوان فى سنة ٧٦٣ هـ
(٢) وردت فى المخطوطين : المحب.

ومطلع أخرى :

أَلا فى الهوى بالذُّلِّ ترعى الوسائلُ ... ودَمْعى أن أنادى مجيبٌ وسائلُ

ومطلع أخرى :

هُمُ القصدُ جادُوا بالرِّضى أو تَمَنَّعوا[1] ... صَلُوا اللوم فيما أَوْدَعوا القَلْبَ أودَعُوا

ومن أخرى :

سَقَى زمن الرِّضا هامٌ من السُّحُب ... ولله العَوْدُ مِن أثوابه القُشُبِ

ومن أخرى :

يافوزَ نَفْسى فى هواك هواؤها ... رقَّت معانيها وراق منــــاؤها

ومن أخرى :

أمّا الغرامُ فبالفُـــؤاد غَرِيمُ ... هيهـات مِنِّى ما العَذُول يرُوم

ومن شعره فى المقطوعات قوله :

رَشَق العِـــذارُ لُجَينَه بِنِبالَه ... فغــدا يَدُور على المُحبِّ الوالِه
خَطَّ العِـــذارُ بصفحَتَيْه لامَه ... خَطًّا توَعَّـــده بمحْو جماله
فحسِبْتُ أن جماله شمسُ الضحى ... حُسْناً وذاك الخَطُّ خطُّ زَواله
فَدَنا إلىّ تعَجُّـــباً وأجابنى ... والرَّوْعُ يبدُو من خِلال مَقاله
إن الجمال آخـــرُه اللّامُ فَعُجْ ... عن رَسْمـــه واندِبْ على أطْلاله

ومن أبياته فى التَّوْرية بالفُنُون قوله :

كففْتُ عن الوصال طويلَ شَوْقى ... إليك وأنت للرُّوح الخَليل
وكفُّك للطويل فَدَتْكَ نَفْسى ... قبيحٌ ليس يرضاه الخَليـــل

---

(١) وردت فى المخطوطين : (وتمنعوا) . والتصويب لازم للوزن والمعنى .

وقال فى التَّوْرِية بالعَرُوض :

يا كاملاً شَوْقى إليــــه وافِرُ ... وبسيط خدِّى فى هواه عزيزُ
عاملتَ أسْبابى لديك فقطَعْتَها ... والقَطْعُ فى الأسباب ليس يَجُوز

وقال فى التَّوْرِية بالعربية :

أيا قمـــراً مَطالعُه جَنــانى ... وغُرَّتُه تُوَارى عن عِيان
أأصْرِفُ فى هواك عن اقتراحى ... وسُهْدِى وانتِحابى عِلَّتان

وقال أيضاً :

لاتَصْحَبَن [ياصاحبي][1]غيرالوَفِى ... كلُّ امرئٍ عُنوانه مِن يَصْطَفِى
كم من خليلٍ بِشْرُهُ زهرُ الرُّبَي ... وطىُّ ذاك البِشْر حدُّ المُرْهِفِ
ظاهرهُ يريك سَرَّ من رأى ... وأنت من إعراضِه فى أسَفِ

ووقعَت بينه وبين قاضى بَلَده أبى عمرو بن المَنْظُور مقاطعة ، انبرى بها إلى مطالبته بما دعاه إلى التحوُّل مضطرًّا إلى غَرْناطة ، وأُخذ بكَظَمه[2] ، وطَوَّقه للموت فى أثناء القطيعة ، فقال فى ذلك مُتَشَفِياً ، وهو من نَبيه كلامه ، وكلُّه نَبيه :

تَرَدَّى ابنُ منظورٍ وحُمَّ حِمامُهُ ... وأسْلَمَهُ حامٌ له ونصيرُ
تبرَّأ منه أوليــــاءُ غُرُوره ... ولم يَقِهِ بَأْس[3] المَنُون ظَهيرُ
وأودِعَ بعدالأُنسِ مُوحِشَ بَلْقَعٍ ... فحيَّاه فيــــه مُنكرٌ ونَـكيرُ
ولا رِشْوَةٌ يُدلى القبولُ رشادَها ... فيُنْسَخَ[4] بالسِّير المُريح عسيرُ
ولا شاهدٌ يُغْنى له عن شهادةٍ ... تَخَلَّلَها إفْكٌ يُصاغُ وزُورُ

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وفى « الملكية » . والإضافة من « ت » .
(٢) وردت فى المخطوطين : بكنفه بكنطه . وبالتصويب يستقيم السياق .
(٣) هكذا وردت هذه العبارة فى «ك» . وفى« ج » (ولم يفقه بأن).والأولى أرجح للوزن والمعنى .
(٤) وردت فى المخطوطين : (فينسج) . والتصويب أرجح .

ولا خِدْعَةٌ تُجدى ولا مكرُ نافعٌ ... ولا غِشٌ مَطْوِىٌّ عليه ضميرُ
ولـكنه حَقٌّ يَصول وباطلٌ ... يَحُولُ ومَثْوَى جَنَّةٍ وسَعِيرُ
وقالوا قَضاء الموت حَتْمٌ على الورى ... يُدِيرُ صغيرٌ كأسَهَ وكبيرُ
فلا تَمْتَنِسم ريحَ ارتياحُ لفَقْدِه ... فإنَّك عن قصد السَّبِيل تحُور
فقات بَلَى حُكم المَنِيَّة شامِلٌ ... وكلٌّ إلى ربِّ العِباد يَصِيرُ
ولـكنَّ تقدُّم[1] الأعادى إلى الرَّدى ... نشاطٌ يعودُ القلبَ منه سرُورُ
وأمنٌ ينام المرء فى بُرْدِ ظِلِّه ... ولا حَيَّةٌ للحِقْد ثَمَّ نَثُور
وحَسْبِىَ بيتٌ قاله شاعِرٌ مضى ... غدا مثلاً فى العالَمِين يَسِير
وإنَّ بقـاء المرء بَعْد عدُوِّه ... ولَوْ ساعَةً من عُمره لَكثِيرُ

مـــولده

قال بعض شيوخنا ، سألتُه عن مولده فقال لى فى آخر خمسة وتسعين وستمائة ، أظن فى ذى قعدة منه الشك .

« وفاته » ، بمالقة فى آخر جمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة .

أحمد بن أيوب اللَّماى[2]

من أهل مالقة ، يُكنى أبا جعفر .

حـــاله

قال صاحب الذَّيْل[3] ، كان أديباً ماهراً ، وشاعراً جليلا ، وكاتباً نبيلا .

---

(١) هكذا فى « الملكية » ، ومكانها بياض فى « ك » ، وكلمة غير واضحة فى « ج » .
(٢) رسمت فى الذخيرة لابن بسام : « اللمائى » (الذخيرة : القسم الأول من المجلد الثانى ص١٣٢)
(٣) هو كتاب « الذيل والتكملة ، لكتابى الموصول والصلة » لابن عبد الملك المراكشى. وقد سبق التعريف به (راجع الحاشية فى ص ١٧٤)

كتب عن أوّل الخلفاء الهاشميين بالأندلس ، على بن حَمُّود ، ثم عن غيره من أهل بيته ، وتولى تدبير أمرهم ، فحاز لذلك صيتاً شهيراً ، وجلالة عظيمة . وذكره ابن بسّام فى كتاب « الذّخيرة » ، فقال : كان أبو جَعْفر هذا فى وقتة أحدَ أئمة الكتّاب ، وشُهُب الأدب ، مِمّن سُخرت له فنون البيان ، تسخير الجنّ لسليمان ، وتصرّف فى محاسن الكلام ، تصرُّف الرياح بالغمام ، طلع من ثناياه ، واقْتَعَد مطاياه ؛ وله إنشاءات[1] سَرِيّة ؛ فى الدولة الحمُّودية[2] ، إذ كان عَلَمَ أدبائها ، والمضطلع بأعبائها[3] ، إلاّ أنى لم أجد عند تحريرى هذه النُّسخة ، من كلامه ، إلا بعض فصول من منثور ، وهى ثِمادٌ من بُحور .

« فصل » : من رِقْعة خاطب بها أباجعفر بن العباس : « غُصْنُ ذِكْرِك عندى ناضِرٌ ، وروضُ شُكرك لدىّ عاطِرٌ ، وريح[4] إخلاصى لك صَباً ، وزمان آمالى فيك صِباً ، فأنا شاربٌ ماء إخائك ، متفيّء ظِلّ[5] وفائك ، جان منك ثمرة فرعٍ طاب أُكُلُه ، وأجنانى البرّ قديماً[6] أصلُه ، وسقانى إكراماً بَرْقُه ، وروانى أفضالا وَدْقُه ؛ وأنت الطّالع فى فِجاجه ، السّالك لِمِنْهاجه ، سهمٌ فى كِنانَة الفَضْل صائبٌ ، وكوكبٌ فى سماء المجد ثاقبٌ ، إن أتبعْتَ الأعداء نورَه أحرق ، وإن رميْتَهم به أصاب الحَدَق ؛ وعلى الحقيقة فلسانى يقصُر عن جميل أنشرُه[7] ، ووصف وُدٍّ أضمِرُه » .

---

(١) هكذا وردت فى « ك » والذخيرة . ووردت محرفة فى « ج » ، (إنشات) .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : فى « ج » المحمدية . وفى « ك » المحمودية . وفى الملكية (المحمدية) .

(٣) وردت فى « ك » ، بأعيانها . وكذا فى « الملكية » . وفى « ج » بأذيالها . والتصويب من الذخيرة .

(٤) وردت فى المخطوطين وفى « الملكية : وروح . والتصويب من الذخيرة .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى الذخيرة : ظلال

(٦) فى المخطوطين : قديم ، وهو تحريف .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى الذخيرة : أسره .

شعره

قال ، ومما وجد بخطه لنفسه :

طلعت طلائعُ للربيع فأطْلَعَت ... فى الرَّوْض ورداً قَبْلَ[١] حِين أوانه
حيَّا أمير المسلمين[٢] مُبشِّراً ... ومؤمِّلاً للنَّيْل من إحْسانه
ضَنَّتْ سَحائبُه عليه بمائها[٣] ... فأتاه يَسْتَسقيه ماء بَنانِه
دامَتْ لنا أيّامُه موصُولةً ... بالعزِّ والتَّمكين فى سُلْطانه

قال : وأنشدنى الأديب أبو بكر بن مَعْن ، قال أنشدنى أبو الربيع بن العَريف [لجَدِّه][٤] الكاتب أبى جعفر اللماى ، وامتُحن بداء النَّسَمة من أمراض الصَّدر ، وأزْمَن به ، نفعه الله ، وأعياه علاجُه ، بعد أن لم يَدَعْ فيه غاية ، وفى ذلك يقول :

لم يَبْق من شىء أعالجها به[٥] ... طَمَعُ الحياةِ وأين مَنْ لا يَطْمَعُ
« وإذا المنِيَّةُ أنشَبَتْ أظْفارها ... ألفيْتَ كلَّ تَميمةٍ لا تَنْفَعُ »

ودخل عليه بعض أصحابه فيها ، وجعل يُرَوِّح عليه فقال له بديهة :

روَّحَنى عائِدى فقلت له ... لا تَزِدْنى على الذى أجِد
أما ترى النار وهى خامدةٌ ... عند هُبوب الرياح تتَّقد

ودخل غَرْناطة غير مامرة ، منها متردِّداً بين أملاكه ، وبين من بها من ملوك صِنْهاجة ، قالوا ولم تفارقه تلك الشَّكاية حتى كانت سبب وفاته .

---

(١) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » .
(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الذخيرة : أمير المؤمنين .
(٣) فى المخطوطين وفى الملكية : بمائه . والتصويب من الذخيرة .
(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : الحرة . والتصويب من الذخيرة .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . ولكنها وردت فى الذخيرة كما يلى : «لم يبق شىء لم أعالجها به » .

وفاته

بمالَقَة عام خمس وستين وأربعمائة . ونقل منها إلى حصن الوَرْد ، وهو عند حصن مُنْتِ مَيُور[1] إذ كان قد حصّنه ، واتخذه لنفسه ملجأً عند شدّته ، فدُفن به ، بعَهْدٍ منه بذلك ، وأمر أن يُكتب على قبره بهذه الأبيات :

بَنَيْتُ ولم أسْكُن وحصَّنت جاهداً   فلما أتى المَقْدور صيّره قَبْرى
ولم يكن حظّى غير ما أنْتَ مُبْصِرٌ   بعَيْنك ما بين الذِّراع إلى الشِّبر
فيازائراً قَبْرى أوصِيك جاهداً   عليك بتَقْوى الله فى السِّر والجَهْر
فلا تحسِبَنَّ بالدَّهرِ ظنّا فإنما   من الحَزْم ألاَّ يُسْتَنام إلى الدهر

أحمد بن محمد بن طَلْحة

من أهل جَزيرة شُقْر[2] ، يكنى أبا جعفر ، ويُعرف بابن جده طلحة .

حاله

قال صاحبُ «القِدْح المُعَلّى» ، من بيت مشهور بجزيرة شُقْر من عمل بلَنْسِية كتب عن ولاة الأمر من بنى عبد المؤمن ، ثم اسْتَكْتَبه ابنُ هود[3] ، حين تغلّب على الأندلس ، وربما استوْزَره ، وهو ممن كان والدى يُكثر مُجالسته ، وبينهما مُزاورةٌ ، ولم أستفِد منه إلا ما كنتُ أحفظُه من مجالسته .

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» (منت ميون) . وهو تحريف . وما أثبته «ج» وهو منت ميور أرجح – وهو مطابق للاسم الإسبانى المقابل وهو Monte mayor أى الجبل الكبير .

(٢) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٧٩) .

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ، المتوكل على الله، سليل بنى هود أمراء سرقسطة . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٤١) .

شـــعره

قال ، سمعته يوماً يقول ، تقيمون القيامة بحبيب ، والبُحترى ، والمُتنبى ، وفى عصركم من يهتدى إلى مالم يهتد إليه المتقدّمون ولا المتأخرون [فانْبَرى إليه شخص له همّة وإقدام ، فقال يا أبا جعفر : أين بُرهان ذلك ، فما أظنك تعنى إلا نفْسك ، فقال ما أعنى إلا نفسى ، ولمَ لا ، وأنا الذى أقول](١) :

ياهل ترى الظَّرْفُ من يومنـــا قلّد جيدَ الأفْق طَوْقَ العَقيق
وأنطَق الوُرْق بعيدانها مُطْرِبَةً كلَّ قضيبٍ وَرِيق
والشمسُ لا تَشْربُ خمر النّدى فى الرّوْضِ إلا بكأس الشقِيق

فلم يُنصفوه فى الاستحسان ، وردُّوه فى الغَيْظ(٢) كما كان ، فقلت له : ياسيدى هذا والله السِّحر الحلال ، وما سمعت من شعراء عصرِنا مثله ، فبالله ألا ما لازمْتَنى وزِدْتني من هذا النمط ، فقال لى لله دَرُّك ، ودَرُّ أبيك من مُنْصف ابن مُنْصف . إسمع ، وافتح أُذُنيك . ثم أنشد :

أدِرْها فالسماء بَدَتْ عَرُوساً مُضَمَّخة الملابس بالغَـــوَالِ
وخدُّ الأرض خَفَّرهُ أصيـــلٌ وجَفْنُ النَّهْرِ(٣) كُحِّل بالظِّلال
وجيدُ الغُصْن يُشْرِق فى لآلٍ تضِيء بهن أكْنَافُ اللّيـــال

فقلت بالله أعدْ وزِدْ(٤) ، فأعاد والارتياح قد ملأ عِطْفه ، والتيهُ قد رفع أنفَه ، ثم قال :

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين ، ووارد فى الملكية وفى «ت» (الزيتونة) .
(٢) وردت فى المخطوطين : النيض . والتصويب من «ت» .
(٣) هكذا وردت فى «ك» ، و«ت» . وفى «ج» النهار .
(٤) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين : وأزد .

لله نهــرٌ عنــد ما زُرته ... عاين طَرْفى منه سحراً حلالْ
إذا أصبح الطّل به لَيْلَة ... وجال(1) فيه الغُصن مثلَ الخيال

فقلت ماعلى هذا مزيدٌ فى الاستحسان ، فعسى أن يكون المزيد فى الإنشاد فزاد ارتياحة وأنشد :

ولما ماج(2) بحرُ الليــل بينى ... وبينكم وقد جدَّدتُ ذِكرا
أراد لِقاكُمْ إنسانُ عَيْنى ... فمدَّ له المنام عليه جِسرا

فقلت إيه زادك الله إحْساناً ، فزاد :

ولمـا أنْ رأى إنسانُ عَيْنى ... بصَحْنِ الخدِّ منه غريقَ ماء
أقام له العِذار عليه جِسْراً ... كما مُدَّ الظلامُ(3) على الضياء

فقلت فما تكرَّرَ ويطُول ، فإنه مُلول ، إلاّ ما أوْرَدْتَه آنفاً ، فإنه كنسيم الحياة ، وما أن يُمل ، فبالله ألا مازِدتنى ، وتفضّلت علىّ بالإعادة ، فأعاد وأنشد :

هات المُدام إذا رأيت شبيهها ... فى الأُفْق يافرْداً بغير شَبيه
فالصُّبح قد ذبح الظلام بِنَصْله ... فَغَدَتْ حمائمُه تُخاصم فيه

دخولُه غَرْناطة

دخلها مع مخدومه المُتوكل على الله ابن هود وفى جُملته ، إذ كان يصحبُه فى حركاته ، ويباشر معه الحرب ، وجرَت عليه الهزائم ، وله فى ذلك كله شعر .

---

(١) هكذا فى الملكية و « ك » وفى « ج » ، و « ت » وخال .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » فاح . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » صبح .

محنتـــه

قالوا لم يقنع بما أجرى عليه أبو العباس الينشتى[١] من الإحسان ، فكان يُوغِرُ صدره من الكلام فيه ، فذكروا أن الينشتى قال يوماً فى مجلسه : رميتُ يوماً بسَهْمٍ من كذا ، فبلغ إلى كذا ، فقال إبن طَلْحة لشخص كان إلى جانبه : والله لو كان قَوْس قُزح ، فشَمَّر أبو العباس إلى قوله ما يُشبه ذلك ، واستَدْعى الشخص ، وعزم عليه ، فأخبره بقوله ، فأسَرَّها فى نفسه ، إلى أن قوّى الحقد عليه ، مابلغه من عنه من قوله يهجوه :

سمعنـــا بالمُوَفَّق فارتَحَلْنـــا ... وشافِعُنـــا له حَسَبٌ وعِـــلم

ورُمْتُ يداً أُقبِّلُها وأُخـــرى ... أعيشُ بفضلها أبداً وأُمْحُـــو

فأنْشَدَنا لسانُ الحال عنـــه ... يدٌ شَـــلاَّ وأمـــرٌ لا يَتِم

فزادت مَوْجِدتُه[٢] عليه ، وراعى أمره إلى أن بَلَغته أبياتٌ قالها فى شهر رمضان ، وهو على حال الاستهتار[٣] :

يقول أخُو الفضول وقـــد رآنا ... على الإيمان يُلِّغنـــا الُمجُون

أتشْكُو شهر الصَّـــوْم هلاَّ ... حَماه منكُمُ عقـــلٌ ودين

فقلتُ اصحَبْ سوانا فنحن قوم ... زنادِقَة مذاهِبُنا فُنون

نَدِينُ بكل دين غير دين الـــرعاع فما به أبداً نَدينُ

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين : ووردت فى « ت » السبتى وهوتحريف . وقد كان الينشتى أو اليانشتى واليا لثغر سبتة مستقلا بحكمها ، ويتخذ لقب الموفق .

(٢) وردت فى المخطوطين : موجوه . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت فى المخطوطين : الإسهاد . والمرجح أنه الإستهتار حسبما يدل على ذلك معنى الشعر

فنحن على صُفُوح(١) الدهر ندعو ... وإبليسُ يقول لنا آمين
أيا شَهْرَ الصيام إليك عنّا ... ففيك أكفَرُ ما نكُون

قال، فأرسل إليه من هجم عليه، وهو على(٢) هذا الحال، وأظْهَر إرضاء العامّة بقَتْله، وذلك فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة(٣). ولا خفاء أنه من صُدور الأندلس، وأشدهم عثوراً على المعانى الغريبة المخترعة، رحمه الله.

أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد بن خاتِمة الأنصارى

من أهل ألْمَرِيّة(٤)، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن خاتمة.

حاله

هذا الرجل صدرٌ يُشار إليه، طالبٌ مُتفنِّنٌ، مشاركٌ، قوىُّ الإدراك، سديد النَّظر، قوى الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، مَعين الطبع، جيِّد القريحة، بارع الخط، مُمْتع المجالسة، حسن الخُلُق، جميل العشرة، حَسَنَةٌ

(١) هكذا وردت فى «ج» و«الملكية». وفى «ك» الصفوح بالتعريف وهو لا يستقيم مع وزن الشعر.

(٢) هكذا فى «ك». وفى «ج» فى.

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة: (وسبعمائة) وهو سهو تاريخى لأن المتوكل بنهود للذى التحق بخدمته الشاعر المترجم له توفى قتيلا سنة ٦٣٥ هـ، وذلك بعد مقتل الشاعر. ولهذا اقتضى التصويب.

(٤) سبق ذكر ألمرية فى السياق غير مرة. وقد رأينا أن نعرف بها هنا لمناسبة ترجمة شاعرها الكبير ابن خاتمة. وألمرية Almeria، ثغر من ثغور الأندلس الشهيرة يقع فى جنوب اسبانيا على البحر المتوسط شرقى مالقة. وهى مدينة مشرقة جميلة الموقع والتخطيط. وكانت أيام الدولة الإسلامية من أعظم ثغورها الجنوبية، وكان سكانها يومئذ يزيدون على مائة وخمسين ألفاً، وهم اليوم لا يعدون ستين ألفاً. وقد سقطت ألمرية فى يد النصارى سنة ١٤٨٩. وما تزال تقوم بها حتى اليوم أطلال القصبة الأندلسية القديمة، وبها عدة أبراج منيعة تشرف عليها من عل. ولألمرية ميناء جميل يرسو به كثير من السفن.

من حسنات الأندلس ، وطَبَقَةٌ فى النظم والنثر، بعيد المَرْقى فى درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق الإحسان ؛ عقد الشروط ، وكتب عن الوُلاة ببَلَدِه ، وقعد لِلاقراء ببلده ، مشكور السيرة ، حميد الطريقة ، فى ذلك كله .

وجَرَى ذِكره فى كتاب « التَّاج » بما نصه : « ناظمُ دُرَرِ الألفاظ ، ومُقَلَّد جواهر الكلام ، نحُور[1] الرُّواة ، ولَبَّات[2] الحُفَّاظ والآداب ، التى أصبحت شوارِدُها ، حلم النائم ، ومَمَر الأيقاظ ؛ وكم فى بياض طِرْسها ، وسواد مَقْسها سحرُ الألحاظ[3] ؛ رفع فى قطره راية هذا الشأن على وفور حَلْبَتِه ، وقرع فنّه البيان على سُمُو هَضْبته ، وفَوّق سَهْمه إلى بحر الإحسان ، فأثْبَتَه فى لَبَّتِه ؛ فإن أطال[4] شأنُ الأبطال ، وكاثر المُدَسّجم المطال ؛ وإن أوْجَز ، فضح وأعْجَز ؛ فمن نَسيبٍ تَهيجُ به الأشواق ، وتَضيق عن زفراتها الأطْواق ؛ ودُعابةٍ تُقَلِّص ذيل الوقار ، وتُزْرى بأكواس العقار ؛ إلى انتماء للمعارف ، وجنوح إلى ظلها[5] الوارف ؛ ولم تزل معارفُه ينفَسح آمادُها ، وتحوز خُصَل السباق جيادُها » .

مشيخته

حسبما نَقَل بخطه فى ثَبَتٍ استدعاه منه من أخذ عنه ؛ الشيخ الخطيب ، الأستاذ مولى النعمة ، على أهل طَبقَتَه بألمَرِيَّة ، أبو الحسن على بن محمد بن أبى العَيْش المرِّى ؛ قرأ عليه ولازمه ، وبه جلَّ انتفاعه ؛ والشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن العاص التُّنوخى . وروى عن الراوية المُحَدِّث

(١) وردت فى المخطوطين : بحور ، وهو تحريف . وحكمة التصويب واضحة .

(٢) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » لباب . والأولى أرجح وأنسب للسياق .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » اللحاظ .

(٤) وردت فى المخطوطين : طال . وهو تحريف .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية ظل . والأولى أرجح .

المكثر الرحّال، محمد بن جابر بن محمد بن حسّان الوادى آشى؛ وعن شيخنا أبى البركات ابن الحاجّ، سمع عليه الكثير، وأجازه [إجازة][1] عامة؛ والشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شُعيب القَيْسى من أهل بلده؛ والقاضى أبو جعفر القُرشى بن فَرْكون. وأخذ عن الوزير الحاجّ الزاهد، أبى القاسم محمد ابن محمد بن سهل بن مالك. وقرأ على المُقْرى أبى جعفر الأغر[2]، وغيرهم.

كتابته

مما خاطبنى به بعد إلمام الرَّكب[3] السلطانى ببلده، وأنا صحبته، ولقائه إياى، بما يلق به مثلهُ من تأنيس، وبرّ، وتودُّد، وتردُّد:

يامَن حَصَلت على الكمال بما رأت عيناى[4] منه من الجمال الرائع
مَرْأًى[5] يروقُ وفى عِطافَيْ بُرْدِه ما شئت من كرمٍ ومجدٍ بارع
أشكو إليك من الزمان تَحَامُلاً فى فَضّ شملٍ لى بقربك جامعِ
هجم البُعاد عليه ضَنًّا باللقا حتى تَقَلَّص مثل برق لامع
فلو اننى ذو مذهب لشفاعة ناديتُه يامالكى [كُن شافعى][6]

شكواى إلى سيدى ومُعظَمى؛ أقرّ الله تعالى بسنائه أعيُن المجد، وأدرّ بثنائه ألسُنَ الحمد، شكوى الظمآن صُدّ عن القَراح العذب[7] لأول وروده، والهَيْمان رُدّ عن استرواح القُرب لمُعْضِل صدوده، من زمانٍ هجم علىّ بُعاده، على حين

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين، وفى «الملكية»، وإضافتها لازمة لاستقامة السياق.

(٢) هكذا فى «ك». وفى «ج»، الأغن.

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك»، الركاب.

(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» عينان.

(٥) فى نفح الطيب (قمر).

(٦) وردت فى نفح الطيب (ياشافعى).

(٧) وردت فى المخطوطين: الضر، العز. والتصويب من نفح الطيب.

النفادة[١] ، ودَهَمنى بفراقه غَبَّ إنارة أُفُق به وإشراقه ؛ ثم لم يَكفِه ما اجْترم فى ترويع خياله الزاهر[٢] ، حتى حرم عن تشييع كماله الباهر ، فقطع عن تَوْفية حقِّه ، ومنع من تأدية مُسْتَحقِّه ، لاجَرَم أنه أنِف لشارع ذكائه من هذه المطالع النافية [عن شريف الإنارة ، وبَخِل بالإمتاع بذكائه عن هذه المسامع النائية][٣] عن لطيف العبارة ، فراجِع أنظاره ، واستَرْجِع مُعارَه[٤] ؛ وإلا فعهدى بغروب الشمس إلى طُلوع ، وأنّ البَدْر ينصرف بين الاستقامة والرُجوع . فما بالُ هذا النَيِّر الأسعد ، غَرُب ثم لم يطلع من الغد ، ماذاك إلا لِعَدْوى[٥] الأيام وعُدْوانها ، وشأنها فى تغطية إساءتها وجه إحسانها ، وكما قيل عادت[٦] هيفٌ إلى[٧] أديانها ؛ أستغفر الله أن لايُعد ذلك من المُغْتَفر فى جانب ما أُوليت من الأثر ، التى أزْرى العيان فيها بالأثر ، وأربى الخبرُ على الخبر ؛ فقد سُرَّت مُتشوِّفات الخواطر ، وأقرَّت مُتَشَرِّفاتُ النواظر[٨] ، بما جَلَتْ من ذلكُم الكمال الباهر ، والجمال الناضر ؛ الذى قيّد خُطى الأبصار ، عن التشوُّف والاستبصار ؛ وأخذ بأزِمّة القلوب ، عن سبيل كل مأمول ومرغوب ؛ وأنّي للعين بالتحوُّل عن كمال الزَّيْن ، أو للطَّرْف[٩] ، بالتحول عن خِلال الظَّرْفِ ؛ أو للسَّمع [من][١٠] مُراد ، بعد ذلك الإصرار والإيراد ، أو للقلب من مُراد ، غير تلكُم الشيم الرافلة من ملابس الكرم فى حُلل

---

(١) هكذا فى «ج» وفى «الملكية» . وفى «ك» النعاق . وفى النفخ : أسماده .

(٢) وردت فى المخطوطين وفى الملكية الزاير . والتصويب من النفح .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين وفى الملكية . وأضفناه عن النفح .

(٤) وردت فى المخطوطين : عماره . والتصويب من النفح .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين .

(٦) فى المخطوطين : عاد .

(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين .

(٨) هكذا فى «ج» . وفى «ك» القواطر . وهو تحريف .

(٩) وردت فى المخطوطين وفى الملكية . لطرفه . والتصويب من النفح .

(١٠) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من النفح .

وأبراد ؛ وهل هو إلا الحُسْن جُمع فى نظام ، والبدْرُ طالع التّمام ، وأنوار الفضائل ضمَّها جنسُ اتفاقِ والتآم ؛ فما ترعى العين منه فى غير مرعًى خصيب ، ولا تستهدفُ الآذان[1] لغير سهمٍ فى حَدَق البلاغة مُصيب ؛ ولا تطلعُ النفسُ سوى مطلعٍ له فى الحسن والإحسان أوفرُ نصيب . لقد أزرى بناظم حُلاه فيما تعاطاه التقصير . وا نفسح من أعلاه بكل باعٍ [قَصِير ، وسَفُه حلمُ القائل : إنَّ الإنسان عالَمٌ صغير ، شكراً للدهر على يد أسداها بقلب مزاره ، وتُحْفة]$^{(2)}$ ثناء أهداها بمَطْلع أنواره على تَعاليه فى ادِّخار نفائسه ، وبُخْله بنفائس[3] ادِّخاره ؛ ولا غَرْو أن يضيق عنا نطاق الذِكر ، ولما يتسعُ لنا سِوار الشكر ؛ فقد عُمّت هذه الأقطار بما شاءت من تحنّنٍ ، بين تُحَفٍ وكرامة ، واجتَنَتْ أهلُها ثمرة الرِحْلة[4] فى ظِلِّ الإقامة ، [وجرى الأمرُ فى ذلك مَجْرى الكرامة]$^{(5)}$ ؛ ألا وإن مُفاتحتى لسيدى ومُعَظَّمى ، حرس الله تعالى مَجْدَه ، وضاعف سَعْدَه ؛ مُفاتحة من ظَفِر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القَدَرُ على وفق مَرْغُوبه ؛ فشرع له إلى أمله باباً ، ورفع له من خجله جلباباً ؛ فهو يَكْلَفُ بالاقتحام ، ويأنَفُ من الإحجام ؛ غير أنّ الحَصْر عن دَرَج قَصْده يقيّده ، فهو يُقْدِم والبصَرُ يُبهرج[6] نقده فيُقعده ؛ فهو يقدِّم رجْلًا ويؤخِّر أخرى ، ويجدِّد عزْماً[7] ثم لايتحرّى ؛ فإن أبطأ خطابى فلَواضحُ[8] الاعتذار ، ومثلُكم لايقبل حياة الأعذار ؛ والله عزّ وجلّ يَصل إليكم عوايد الإسعاد والإسعاف ،

---

(١) هكذا وردت فى «ج» وفى الملكية . وفى «ك» الأذهان .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين : وقد أثبتناه عن النفح .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» بنمايم . والأولى ارجح .

(٤) هكذا وردت فى «ج» وفى النفح . وفى «ك» الوحدة .

(٥) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين . ونقلناها عن النفح .

(٦) وردت فى المخطوطين : يهرح . والتصويب من النفح .

(٧) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» جزماً .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : لوضح . فلو صح .

ويحفظ لكم ماللمَجْد من جوانبٍ وأكناف ، إن شاء الله تعالى ؛ كتب فى العاشر من ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

دخوله غَرْناطة

دخل غرناطة غير ما مرّة ، منها فى استدعاء شمال الخواصّ من أهل الأقطار الأندلسية ، عند إعذار الأمراء فى الدولة اليُوسُفيّة[1] ، فى شهر شعبان من عام إحدى وخمسين وسبعمائة .

شعره

كان مُجْليًا[2] ، وأنشد فى حَلْبَة الشعراء قصيدةً أولها:

أجِنانُ خُلْدٍ زُخْرِفَتْ أم مَصْنَعُ والعيدُ عاوَدَ أم صَنيعٌ يُصْنَع

ومن شعره :

من لم يُشاهد مَوْقِفاً لِفِـراق لم يدْرِ كيف تَوَلُّه العُشَّـاق
إن كنت لم تَرَه فسائل من رأى يُخْبِرْكَ عن وَلَهى وهول سياق[3]
من حَرّ أنفاسٍ وخَفق جَوانح وصُدوع أكبـادٍ وفيضِ مآق
دُهى الفؤاد فلا لسانٌ ناطقٌ عند الوداع طايع[4] مُتَرَاق
ولقد أشيرُ لمنْ تـكَلَّف رِحْلةً أن عُجْ علىّ ولو بقَدْر فُواق
علّى أراجعُ من ذماى حَشاشَةً أشكو بها بعض الذى أنا لاق

(١) الدولة اليوسفية أعنى دولة السلطان يوسف أبى الحجاج ملك غرناطة الذى حكم من سنة ٧٣٣ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٣٣ - ١٣٥٤ م)

(٢) كلمة (كان) ساقطة فى « ك » . ووردت العبارة فى « ج » هكذا : مجليا كان .

(٣) وردت فى المخطوطين : وهو سياق . وفى «ت»(وعن أشواق) .

(٤) هكذا فى « ج » وفى «الملكية» . وفى «ك» لا يبح .وفى«الكتيبة الكامنة» (ولايد)

فَمضَى ولم تَعطِفه نحوى ذِمَّةٌ … هيهات لابُقْيا على مُشْتاق
ياصاحبيَّ وقد مضى حُكم النَّوَى … روحا علىَّ بشيمة[1] العُشّاق
واستَقْبِلاني[2] نَسْمَةً عن أرضكم[3] … فلعلَّ نَفْحتها[4] تُحل وثاق
إنى ليَشْفينى النَّسيم إذا سَرى … مُتَضَوِّعاً من تلكُمُ الآفاق
مَنْ مُبلغ[5] بالجزع أهل مودَّتى … أنى على حُكْم الصَّبابة باق
ولئن تحوَّل عهدُ قُرْبِهم[6] نَوَى … ما حُلْت عن عهْدى ولا ميثاق
أنِفَتْ خلايق الكرام لخُلَّتى … نَسَباً إلى الإخلاق والإخراق
قسماً به ما استغرقَتنى فكرةٌ … إلّا وفِكرَى فيه واستِغْراق
لى آهةٌ عند العَشِيِّ لعلَّه … يُصْغى لها وكذا مع الإشراق
أبكى إذا هبَّ النسيمُ فإن تجِد … بَلَلاً به فبِدمْعِيَ المُهْرَاق
أوما ماتكتب إليه معَ الصَّبا[7] … فالذكر كُتبى والرِفاقُ رفاق
منْ لى وقد شحط المزار بنازح[8] … أدنى لقلبى من جوَى أشواق
إن غاب عن عَيْنى فمَثْواه الحَشا … فسراه بين القَلْب والأحداق
جارت علىَّ يد النَّوى بفراقه … آهاً لما جَنَتْ النوى بفراق
أحباب قلبى هل لماضِى عَيْشِنا … ردٌّ فيُنْسخ بُعدكم بتلاق
أم هل لأثواب التجَلُّد راقعٌ … إذ ليس من داء المحبَّة راقِ
ماغاب كوكب حُسْنِكم عن ناظرى … إلا وأمْطَرت الدِما آماق

---

(١) هكذا فى المخطوطين : وفى الملكية وفى « الكتيبة » (بشيمة) .
(٢) وفى الكتيبة (واستقبلاها) . (٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » أرضهم .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » نفحاتها .
(٥) فى المخطوطين : يبلغ . (٦) فى دايوان ابن خاتمة (حبهم) .
(٧) هكذا وردت فى هذه الشطرة فى المخطوطات الأربعة : وفى الديوان والكتيبة (أومى بتسليم إليه مع الصبا) .
(٨) وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الثلاثة : « من لى شحط المزار بنازح أفق » .

إيه أُخيّ أدِرْ عليّ حديثهم ... كأساً ذَكَتْ عَرْفاً وطيبَ مذاق
وإذا جنحت لمـاءٍ أو طربٍ فمن ... دَمْعى الهموع وقلبيَ الخفّاق
ذكراهُ راحِي والصّبابةُ خُضرتى ... والدمعُ ساقِيني وأنت الساقِ
فليَلُه عنى من لحانى إننى ... راض بمـا لاقيتُه وأُلاق

وقال :

وقفت والرّكْبُ(١) قدزُمت ركائبه ... وللنفوس مع النَّوى(٢) تقْطيع
وقد تمايل نحوى للوداع وهل ... للرّاحلِ القلْب صَدْر الرّكْب توديع
أُضمُّ منه كما أهْدَى لغير نوى ... ريحانةً فى شَذَاها الطيبُ مجموعُ
يهفو فأذعرُ خوفاً من تقلُّصها(٣) ... إن الشفيق بسوء الظن مَوْلوع
هل عند من قدعَى بالبَيْن مُقْلَتَه ... إنّ الرّدى منه مرئيٌّ ومسموع
أُشيّعُ القلب عن رَغْمٍ عليّ وما ... بقـاء جسم له لِلْقلب تَشييع
أُرى وُشاتى أنى لست مُفْتَقِراً(٤) ... لما جرى وصميم القلب مصروع
الوجــد طبعٌ وسُلوانى مُصانَعة ... هيهات يَشْكُلُ مصنُوع ومَطْبوع
إن الجديد إذا ما زِيد فى خَلَقٍ ... تبَيَّن النَّاسُ أن الثوب مَرْقُوع

وقال أيضاً :

لولا حيائى من عيون(٥) النرجس ... لَلَثَمْتُ خدّ الورد بين السُّنْدُسِ
ورَشَفْتُ من ثَغْرِ الأقاحة ريقها ... وضَمَمْتُ أعطاف الغُصون المُيَّس

---

(١) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » . وفى « ك » ، والبين .
(٢) هكذا فى الملكية . وفى « ج » « الأيام » ، والأولى أرجح .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » و« ج » نقضها . ووردت الشطرة كلها فى الملكية كما يأتى : (يهفو فؤاداً عن خوفها من نقضها) .
(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : مفترقاً .
(٥) وردت فى المخطوطين : العيون . والتصويب من « ت » .

وهتكت أستار الوقار ولم أُبَل ... للباقلاء تلحظ بطرفٍ أشوس
مالى وصهباء الدِنان مُطارحاً ... سَجْعَ القِيان مُكاشِفاً وجه المُس
شتّان بين مُظاهرٍ ومُخاتل ... ثوب(١) الحجا ومُطهّر ومُدنّس
ومُجمجمٍ بالعذل باكرنى به ... والطير أفصَحُ مسعد بتأنُّس
نزّهتُ سمعى عن سفاهة نُطْقه ... وأعرتُه صوتاً رخيم(٢) الملمس
سفّهتُ فى العشّاق يوماً إن أكن ... ذاك الذى يُدعى(٣) الفصيحَ الأخرس
أعذول وَجْدى ليس عِشْقُك فادرجى ... ونصيحَ رُشْدى بان نُصْحك فاجلسِ
هل تبصُر الأشجار والأطيار والأزه ... ار [تلك](٤) الخافضاتِ الأروُسِ
نالله وهو [إليّتى وكَفى به](٥) ... قسماً يُفـدّى برُّه بالأنفُس
ما ذاك من شَكوٍ ولا لخلاَلة(٦) ... لكن سجود مُسبّحٍ ومُقدّس
شكراً لمن بَرَأ الوجود بجُوده ... فثَنى إليه الكلُّ وجه المُفلِس
[وسما بساط الأرض فمدّه](٧) ... ودحاً بسيط(٨) الأرض أوثر مجلس
ووشَى بأنواع المَحاسن هـذه ... وأنار هذى بالجوارِ(٩) الكُنّس
وأدَرَّ أخلاف العطاء تطوُّلاً ... وأنال فَضْلا مَنْ يطيعُ ومَنْ يُسى

---

(١) فى « ج » بثوب . وفى « ك » مثوب . و « ت » تثوب .

(٢) فى المخطوطين ، رحيما . وفى « ت » وخيم .

(٣) هكذا وردت فى « ت » والملكية . ووردت فى المخطوطين : يدع .

(٤) ساقطة فى المخطوطات الأربعة وواردة فى الديوان .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . ووردت فى « ت » (الذى كفى به) . والألية هنا معناها اليمين .

(٦) هكذا فى المخطوطين . ووردت فى «ت » : (ولا نجادة) .

(٧) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الأربعة . وفى الديوان (رفع السماء سقفا يروق رواءه) .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى « ك » و« ج » ببسيط .

(٩) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : بجوار .

حتى إذا انتظم الوجودُ بنِسْبَةٍ ... وكساه ثَوْبَىَ نُورهِ والحِنْدِس
واستكْمَلَتْ كلُّ النفُوس كمالها ... شفَعَ العطايا بالعطاء الأنْفَس
بأجلُّ هادٍ للخلائق مُرْشِدٍ ... وأتمِّ نورٍ للخلائق مُقْبس
بالمصطفى المُهْدى إلينا رحْمَةً ... [مرْمى الرَّجاو مِسْكَةَ(١) المُتَيئِّس](٢)
نعمٌ يَضيق(٣) الوصفُ عن إحصائها ... فلُّ الخطيبُ بها لسانَ الأوْجس
إيه فحَدّثْنى حديثَ هَواهمُ ... ما أبْعد السُّلوان عن قَلبْ الأسى
إن كنتُ قد أحسنْتُ نعتَ جَمالهم ... [فلقد سها عنى العذول بهم وسى](٤)
ما إن دَعَوك ببُلبُلٍ إلا لما ... قد هجْتَ من بَلْبال هَذِى الأنْفُس
سبحان من صَدَعَ الجميعُ بحَمْده ... وبشُكره من ناطق أو أخرس
وامتدَّت الأطلالُ ساجدةً له ... بجبالها من قائمٍ أو أقْعَسِ
فإذا تراجعت الطيور وزايلت ... أغصانها بأن المطيعُ من المُسى(٥)
فيقولُ ذا سَكرتْ لنغمة مُنْشد ... ويقولُ ذا سَجَدَتْ لذِكر مُقَدَّس
كل يفوه بقوله(٦) والحقُّ لا ... يخفى على نظر اللّبيت الأكيس

وقال:

زارت على حَذَر من الرُّقباء ... والليلُ ملتحفُ بفضل رداء

---

(١) وردت فى المخطوطين : مكسة . والتصويب من « ت » .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطات الأربعة وفى الديوان مع اختلاف يسير .
(٣) وردت فى المخطوطين : (نعما ضاق) . والتصويب من « ت » .
(٤) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين وفى الملكية . (فلقد سها عندى العذول بهم وسى). والتصويب أرجح .
(٥) ورد هذا البيت فى « ج » و « الملكية » كالآتى :
(فإذا تراجعت الطيور أعضانها (أغضها) فتمايلت بان المطيع من المسى) .
(٦) هكذا فى « ت » وفى « الملكية » . وفى « ك » والديوان بذوقه ، و « ج » بلونه .

تصل الدُّجا بسواد فرعٍ فاحم لتزيد[١] ظَلماءً إلى ظلماء
وشى بها من وجهها وحُليِّها بدرُ الدُّجا وكواكبُ الجَوْزاء
أهلا بزائرةٍ على خطر السُّرَى ما كنتُ أرجُوها ليوم لِقَاء
أقسمتُ لولا عفّة عُذرية [وتُقًى علىّ له رقيبٍ راء][٢]
لنقعتُ غُلة لَوْعَتى برُضابهـا ونَضَحتُ وَردَ خدودها ببكائى

ومن ذلك ما قاله أيضاً :

أرسلت لَيْل شَعْرِها من عقْص عن محيًا رمى البُدور بِنَقْص
فأرَتنا الصباح فى جُنْح لَيْلٍ يتهادى ما بين غُصْنٍ ودعْص
وتَصَدَّت براحـات نُهُودٍ أشْرِعت للأنام من تحت قُمْص
فتولّت جيوشُ صبرى انهزاما وبوُدِّى ذاك اللقاء وحِرْص
ليس كلُّ الذى يَفِرُّ بناجٍ رُبَّ طَعْنٍ[٣] فيه حيـاةٌ لشَخْص
كيف لى بالسلو عنها وقلبى قد هوى حلمه[٤] بمهوًى لخرص[٥]
ما تعاطيت [ظاهِرِ الصّبْر][٦] إلاّ ردّنى جيـدُها بأوْضَح نَصّ

ومن ذلك قوله أيضاً :

أنا بَيْن الحيـاة والموت وقفٌ نَفَسٌ خافتٌ ودمعٌ ووكْفٌ

---

(١) وردت فى المخطوطين ، لتدبير وهو تحريف . والتصويب من « ت » و« الملكية » .
(٢) هكذا وردت هذه الشطرة فى الديوان والكتيبة . وفى المخطوطات الثلاثة (وتاق له على ..) وفى نص آخر (وتخوفى وشى الرقيب الراء) .
(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » وطغى . وفى « ت » طغن . وفى الملكية طعن .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » حمله . وكذا فى « الملكية » .
(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » بمعول لخوص . وفى « ت » بملمكى الخرص .
(٦) هكذا وردت فى «ت» (الزيتونة) والملكية . ووردت فى المخطوطين : طاهر البصير ، وهو تحريف ظاهر .

حلّ بى من هواك ما ليس يُنْبى(١) عنه نَعْتٌ ولا يُعَبِّرُ وصفُ
عجباً لانعطاف صدْغَيك والمِعْطَفُ والجِيدُ ثم ما منك عَطْفُ
ضاق صدرى بضيق حِجْلك واستوقف طَرْفى حَيران(٢) ذلك الوَقْفُ
كيف يُرجى فكاكُ قلبٍ معَنّى فى غرام قَيّداه قِرطٌ وشَنْفُ(٣)

ومن ذلك قوله أيضاً :

رقّ السّنا ذهباً فى اللازَوَرْدىّ فالأُفْق ما بين مَرْقوم ومَوْشِىّ
كأنما الشُهب(٤) والإصباح ينهبها لآلىء سقطت من كف زنجىّ(٥)

ومن شعره فى الحِكَم قوله :

هو الدهرُ لا يُبقى على عائذٍ به فمن شاء عيشاً يَصْطَبر لنَوائبه
فَمَنْ لم يُصَب فى نَفْسه فَمُصابُه لفَوْتِ أمانيه وفَقْدِ حبائبه

ومن ذلك قوله :

ملاكُ الأمر تَقْوى الله فاجعل تُقاه عُدَّةً لصلاح أمْرِك
وبادِرِ نحو طاعته بعزمٍ فما تَدْرى متى يمضى بعُمْرك(٦)

ومن ذلك أيضاً :

دمٌ فوق خدّك أم خُلُوق وريقٌ ما بثغرك أم رَحيق
وما ابتَسَمَتِ ثَنَايا أم أقاحٌ ويكنفُها شِفاه أم شقيقُ

---

(١) وردت فى المخطوطين : ينسى . وفى « ت » محرفة ، يبنى .

(٢) وردت فى المخطوطين : جيران .

(٣) الشنف معناه القرط أيضاً .

(٤) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » الصبح .

(٥) فى « ج » « والملكية » (على تنحى) .

(٦) فى المخطوطين : لعمرك . والتصويب من « ت » .

وتلك سِناة نومٍ ما تعاطت ... جُفُونك أم هى الخمْرُ العتيقُ
لقد أعدت معاطفُكَ انثناء ... وقلبى سُكْرُه ما إن يَفيقُ
جمالك حَضْرَنى وهواك راحى ... وكأسُك مُقْلتى فمتى أفيقُ

ومن شعره فى الأوصاف :

أرسَلَ الجوُّ ماء وَرْدٍ رذاذَا ... ومحى الحزْن والدّمايث رَشا
فانثنى حَوْل أسْوُقِ الدّوْح حَجْلاَ ... وجرى فوقَ بُرْدة الرّوض رَقْشا
وسما فى الغُصُون حُلَى بنَان ... أصْبَحَت من سُلافة الطّل رَعْشا
فترى الزّهر تَرقُمُ الأرض رَقْمَا ... وترى الريح تَنْقُشُ الماء نَقْشا
فكأنّ المياه سَيفٌ صَقيلٌ ... وكأنّ البطِاح غُمْدٌ مُوَشّي

وكتب عقب انصرافه من غرْناطة فى بعض قَدْماته عليها ما نصُّه : « مما قلته بديهةً عند الإشراف على جنابكم السعيد ، وقدومى مع النفر الذين أتحفتْهم [السيادة][(١)] سيادتُكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار فى المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسه ، ولم يتفَّق أن كمل[(٢)] أُنْسه ، وأنشده حينئذ بعض من حضر ، ولعله لم يَبلُغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكُم يحملُني [فى][(٣)] إعادة الحديث :

أقول وعينُ الدّمع[(٤)] نُصْب[(٥)] عيوننا ... ولاح لبُستان الوَزارة جانب
أهذى سماء أم بناء سما به ... كواكبُ غضّت عن سَناها الكواكب

---

(١) هذه الكلمة واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : نكمل . والتصويب من نفح الطيب .

(٣) الزيادة من « الملكية » .

(٤) عين الدمع مكان اشتهر أيام غرناطة الإسلامية بجمال خضرته ومنتزهاته . وسبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٢١) .

(٥) فى المخطوطين تنصب . والتصويب من النفح .

تناظَرَتْ الأشكالُ منه تقابلًا ... على السّعدوسُطى عِقده والجنائب[1]
وقد جرَت الأمواهُ فيه مجرَّةً ... مذانبها شُهُبٌ لهُنَّ ذوائب
وأشْرَفَ من[عَلْيَاء بَهو][2] تحفّهُ ... شماسيُّ زُجاج وشْيُها مُتناسب
يُطِلُّ على ماءٍ به الآسُ دائراً ... كما افترَّ ثغرٌ أو كما اخضرَّ شارب
هنالك ما شاء العُلى من جلالةٍ ... بها يزْدَهى بُستانُها والمراتب

ولما أُحضر[3] الطعام هنالك ، دُعى شيخنا القاضى أبو البركات إلى الأكل ، فاعتذر بأنه صائم ، قد بيَّته من الليل ، فحضرنى أن قلت :

دَعَوْنا الخطيبَ أبا البركا ... ت لأكل طعام الوزير الأجلّ
وقد ضَمَّنا فى نداه جِنان[4] ... به احتفل الحُسْنُ حتى كَمَل
فأعرَض عنّا لعُذر الصيام ... وما كلُّ عذرٍ له مُسْتَقَل[5]
فإن الجنان مَحَلُّ الجزاء ... وليس الجنانُ محلُّ العمل

وعندما فرغنا [من الطعام][6] أنشدتُ الأبيات شيخنَا أبا البركات ، فقال : « لو أنْشَدتَنيها ، وأنتم بعد لم تفْرغوا منه لأكلْتُ معكم برًّا بهذه الأبيات ، والحوالة فى ذلك على الله تعالى » .

ولما قضى الله عزّ وجلّ ، بالإدالة ، ورجعْنا إلى أوطاننا من العُدْوة ، واشتهر عنى ما اشتهر من الانقباض عن الخدْمة ، والنيّة على السلطان والدولة ، والتكبُّر [على أعْلى رُتَب الخِدمة][7] ، وتطارحتُ على السلطان فى استنجاز وعد الرحلة ،

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الجانب .
(٢) وردتا محرفتين فى « ج » (علياه بهو) وفى « ك » والملكية (علياه فهو) .
(٣) هكذا فى « ج » ، وفى « ك » حضر .
(٤) هكذا فى « ج » والنفح . وفى « الملكية » (جمال) .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مستقبل .
(٦) الزيادة من نفح الطيب .
(٧) وردت هذه العبارة فى المخطوطين وفى « الملكية » : (أعلى على المراتب) وما أثبتناه عن نفح الطيب وأزهار الرياض ، وهو أرجح .

ورغبت فى تفويت[1] الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبنى بعد صَدر يَبلغ من حُسن الإشارة ، وبراعة الإستهلال الغاية ، بقوله[2]:

« وإلى هذا ياسيدى ، ومحلَّ تعظيمى وإجلالى ، أمْتَع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف فى العزِّ درجات ارتقائكم ؛ فإنّهُ من الأمر الذى لم يَغِب عن رأى المَقُول[3] ، ولا اختلف فيه أربابُ المَحْسوسِ والمعقول ؛ أنّكم بهذه الجَزيرة شمسُ أفقُها ، وتاج مَفْرِقها ، وواسطة سِلكها ، وطِراز مُلكها ، وقِلادة نَحْرها ، وفريدة دهرها[4] ، [وعِقد جِيدها المنْصُوص ، وكمال زينتها على المعلوم والمخصوص ؛ ثم أنتم مدارُ أفلا كها][5] ، وسرُّ سياسة أملا كها ، وتُرْجمان بيانها ، ولسانُ إحسانها ، وطبيب[6] مارَسْتانها ، والذى عليه عقْد إدارتها ، وبه قِوام إمارتها ؛ فلدَيه يُحل المشكل ، وإليه يُلجأ فى الأمر المُعضل ؛ فلا غَرْو أن تتقيّد بكم الأسماع والأبصار ، وتُحدّق نحوكم الأذهان والأفكار ؛ ويُزْجَر عنكم السانح والبارح ، ويُسْتَنْبَأُ[7] ما تَطْرِفُ عنه العين وتَخْتَلِج الجوارح ، استقراءً لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم[8] ؛ واستكشافاً لمرامى سهامكم ، لا سيا مع إقامتكم على جَناح خُفُوق ، وظهوركم فى مُلْتَمَع بُروق ، واضطراب[9] الظُنون فيكم مع الغروب والشروق ؛ حتى تستقرَّ بكم الدّار[10] ، ويلقى عصاهُ

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : تبرئة .

(٢) وردت مكانها فى المخطوطين : وهو . والتصويب من النفح وأزهار الرياض .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض : المعقول . والأولى أرجح حسبما يتضح من السياق .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض (دررها) . والأولى أرجح .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فى « ك » ، وساقط فى « ج » وفى الملكية .

(٦) هكذا فى النفح . وفى المخطوطين : طب .

(٧) هكذا فى « ج » والنفح . وفى « الملكية » (ويستأنف) .

(٨) هكذا فى « ج » والنفح . وفى الملكية (اعتزالكم) .

(٩) وردت فى المخطوطين : واطراب . هو تحريف .

(١٠) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح وأزهار الرياض : الديار .

التّسْيار ، وله العُذر فى ذلك إذ صَدْعُها بفراقكم لم يَنْدمل ، وسرورها بلقائكم لم يكْتَمل ، فلم يَبْرَ بعد جناحُها المَهيض ، ولا جَمَّ ماؤها المَغِيض ، ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ، ولا استوى نهارُها ، ولا تألّقت أنوارُها ، ولا اشتملت نعماؤها ، ولا نُسِيت غماؤها ، بل هى كالنّاقِه ، والحديث العَهْد بالمكاره ، تَسْتشعر نَفَس العافية ، وتتمسّح منكم باليد الشافية ، فبحياتكم عليها ، وعظيم حرمتكم[1] على من لديها ، لا تَشُوبوا لها عذب المُجاج بالأُجاج ، وتُقْنِطوها[2] مما عُودت من طيب المزاج ، فما لدائها[3] ، وحياة قُربكم غير طبِّكم من علاج ، وإنى ليَخْطُر بخاطرى محبةً فيكم ، وعنايةً بما يَعنيكم ، ما نال جانبكم صانه الله [بهذا الوطن][4] من الجفاء ، ثم أذكر [ما نالكم من حسن العَهْد وكرم الوفاء ، وأنَّ الوطن إحدى المواطن الأظآر التى][5] يحق لهنّ جميل الاحتفاء ، وما يتعلق بكم من حُرمة أولياء للقرابة [وأولى][6] الصفّاء ، فيغلب على ظنى ، أنكم لحسن العهد أجْنَح ، وبحق نفسكم [على أوليائكم][7] أسمَح ، والتى هى أعظم قيمة فى فضائلكم أوهَبَ وأمْنَح ، وهَبْ أن الدُّر لا يحتاج فى الإثبات إلى شهادة النُحور[8] واللبّات ، والياقوت غنى المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ، أليس أنّه أعلى للعِيان ،

---

(١) هكذا فى النفح . وفى نفاضة الجراب (مخطوط الرباط السفر الثالث) وفى المخطوطين : مرضاتكم .

(٢) وردت فى « ك » وتقمطوها ، وفى « ج » وتقطموها . وفى النفح والأزهار : وتفطموها والتصويب من نفاضة الجراب .

(٣) وردت فى « ح » لديها . وفى « ك » لبدنها .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وقد أكملناه عن نفاضة الجراب والنفح والأزهار .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط أيضاً فى المخطوطين ، وهو سقط سهو كما يبدو . وقد أثبتناه عن نفاضة الجراب والنفح والأزهار .

(٦) وردت فى « ج » ، وأغفلت فى « ك » . ووردت فى النفاضة ، وأوداء

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . ووردت فى النفح والأزهار : (عن حق أوليائكم) .

(٨) وردت فى المخطوطين : شهود ، وهو تحريف . والتصويب من النفح والأزهار .

وأبعدُ عن مكابرة البرهان ، تألقها[1] فى تاج الملك أنوشروان ؛ والشمس وإن كانت أمُّ الأنوار وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق ، قيل ، الليلُ هو أم نهار ؛ وكما فى علمكم ما فارق ذو الأحلام ، وأولو الأرحام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برَغْمِهم واضطرارهم ، واستبدال دار هى[2] خير من دارهم ، ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يُعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؛ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد ، ، وما فوقه مرابط[3] جهاد ، ومعاقد ألوية فى سبيل الله ، ومضاربُ أوْتاد ؛ ثم يُبوِّئُ ولدَه مُبوَّأ أجداده ، ويجمع له بين طرافه[4] وتلاده ؛ أعيذ أنظاركم المسدَّدة من رأى فائل ، وسعى[5] طويل لم يَحْلُ منه بطائل [فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعَوْد الحميد][6] . وهى طويلة .

فأجبته عنها بقولى :

لُمْ فى الهوى العُذْرى أو لا تَلُم فالعَذْلُ لا يَدخل أسماعى
شأنُك تَعْنيف وشأنى الهوى كلُّ أمرئ فى شأنه ساعى

« أهلا بتُحْفة القادم ، وريْحانة المُنادم ؛ وذكرى الهوى المُتقادم ، لا يصغر الله مَسْراك ، فما أسراك ، لقد جَلَبت[7] إلى من همومى ليلا ، وجُبْتَ[8] خَيْلا ورَجْلا ، ووفَّيت من صاع الوَفا كيْلا ، وظننتَ بى الأسف على ما فات ،

(١) وردت فى المخطوطين : (ما يمها) . والتصويب من النفح والأزهار .
(٢) فى المخطوطين : هو . وهو تحريف .
(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» ، رباط .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : طارفه .
(٥) هكذا فى النفح . ووردت فى «ج» ومعنى .
(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأثبتناه عن النفح والأزهار .
(٧) هكذا فى «ج» ، وفى «ك» حلبت . وفى النفح والأزهار : جبت . والأولى أرجح .
(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : جست .

فأعملت الالتفات ، لكيلا ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدى ، أو كانت اللمة السوداء من عُدَدى[1] ما أفلَتّ أشراكى المنصوبة لأمثالك حوْل المياه وبين المسالك ، [ولا علمت ما هنالك][2] ، لكنك طرَقْتَ حِمًى كسَحَتْه[3] الغارة الشعواء ، وغيرت [رَبْعه][4] الأنواء ؛ فخمد بعد ارتجاجه ، وسكت أذين دَجاجه ، وتلاعبت الرياح والموج فوق فِجاجه ، وطال عهدُه بالزمان الأول ، وهل عند رسْمٍ دارس من مُعوّل ؛ وحيًّا الله نَدْباً إلى زيارتى نَدَبك ، وبآدابه الحكيمة أدّبك :

فكان وقد أفاد بك الأمانى كمن أهدى الشفاء إلى العليل[5]

وهى شيمةٌ بوركت من شيمة ، وهبةُ الله قبله[6] من لدُن المَشيمة ؛ ومن مثله فى صِلة رَعْى ، وفضل سعى ، وقول وَوَعْى :

قسما بالكواكب الزُّهر والزُّهر عاتمة
إنما الفضل مِلّةٌ خُتمت بابن خاتمة

كسانى حُلة وصفه[7] ، وقد ذهب زمان التجمُّل ، وحمّلنى ناهض شكره ، وكتدى واهٍ عن التحمُّل ، ونظرنى بالعين الكليلة عن العيوب[8] فهلا أجاد التأمُّل ، واستطلع طلع نَثّى ،[9] ووالى فى مركب[10] المعجزة حثّى ، وإنما أشكو بثّى :

« ولو ترك القَطا ليلا لناما »

---

(١) فى المخطوطين وفى الملكية : عدق . والتصويب من النفح والأزهار .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين . وأثبتناه عن النفح والأزهار .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : كسعته .

(٤) واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » .

(٥) ورد هذا البيت فى المخطوطين مرسلا فى سياق الكلام .

(٦) هكذا فى « ج » وفى النفح . وفى الملكية ، قلبه .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : فضله . والأول أرجح .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : العيب .

(٩) فى المخطوطين : بثى .

(١٠) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ركب .

وما حالُ شمل وتِدُه مفروق ، وقاعدته فروق ، وصُواعُ بنى أبيه مسروق ؛ وقلبُ قُرْحه من عضَّة الدهردام ، وجَمْرَةُ حسرته ذات احتدام ؛ هذا وقد صارت الصغْرى ، التى كانت الكبرى ، لمشيبٍ لم يَرُعْ أن هجم ، لمَّا نَجَم ، ثم تهلَّلَ عارضُه وانسجم :

لا تجمَعى هجراً علىَّ وغُربةً ... فالهجرُ فى تَلَف الغريب سريع

نظرتُ فإذا [الجنب ناب][(١)] ، والنفْس فريسة ظُفُر وناب ، والمال أكيلةُ انتهاب ، [والعُمْر رهن ذهاب][(٢)] ، واليد صِفْرٌ من كل اكتساب ، وسوق المَعاد مترامية ، والله سريع الحساب .

ولو نُعطى الخَيار لما افترقنا ... ولكن لا خَيار مع الزمان

وهَبْ أن العمر جديدٌ ، وظِلَّ الأمن مديدٌ ، ورأى الاغتباط [بالوطن][(٣)] سديدٌ ، فما الحجةُ لنفسى إذا مرَّت بمطارح جفْوَتها ، وملاعب هَفْوتها ، ومناقب[(٤)] قناتها[(٥)] ، ومظاهر عزَّاتها ومُناتها ؛ والزمان وَلود ، وزِنادُ الكون غير صَلُود[(٦)] .

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرة ... تركته حين يُجَرُّ حبْل يَفْرَق

ثم أن المُرغِّب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وَهَبَ ، والعارضُ قد اشتَهب ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضةٌ ، وأسماؤه على الجوار مخفوضةٌ[(٧)] والنيَّة مع الله على الزُّهد فيما بأيدى الناس معقودةٌ ، والتوبة بفضل الله عزَّ وجلَّ

---

(١) مكان هذه العبارة فى المخطوطين وفى الملكية : (الحسنات) . وهى ساقطة فى النفح . وقد أثبتناها عن الأزهار .

(٢) هذه العبارة ساقطة فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : (العمر رد عن ذهاب) .

(٣) ساقطة فى المخطوطين ، وأثبتناها عن النفح والأزهار .

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : « مثاقف » .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قناعتها .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » صلاد .

(٧) هكذا فى « ج » والنفح . وفى الملكية (مرفوعة) .

شروطها غير مُعارضة ولا مَفْقودة ، والمعاملة سامِرية ، ودروع الصبر سابرية ؛[١] والاقتصاد قد قرّت العين بصحبته ، والله قد عوّض[٢] حب الدنيا بمحبته ؛ فإذا راجعها[٣] مثلى من بعد الفراق ، وقد رَقى لَدْغتها ألف راق ، وجمعتنى بها الُحجرة ، ما الذى تكون الأجرة ، جلّ شانى ، وقد رضى الوامق وسَخط الشانى[٤] ؛ إنى إلى الله [تعالى][٥] مُهاجر[٦] ، وللغرض الأدنى هاجر ، ولأظْمان السُّرى زاجر ، لأُحُد[٧] إن شاء الله وحاجر ؛ ولكن دعانى إلى الهوى ، لهذا المولى المُنعم هوى ، خلعتُ نَعْلَى الوجود وما خلعته ، وشوق أمَرَنى فأطعتُه ، وغالبُ والله صبرى فما استطعتُه ، والحال والله أغلب ، وعسى أن لا يخيبَ المَطْلب ؛ فإن يسره رضاه فأمل[٨] كمل ، وراحل احتمل ، وحاد أشْجَى النّاقة والجَمل ؛ وإن كان خلاف ذلك ، فالزمان جمّ العوائق ، والتسليم بمقامى لائق .

ما بين غَمْضَة عيْن وانتباهتها يُصرّف الأمرُ من حال إلى حال

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ، ليُمْن طَيْرِه ، وعموم خَيْره ، وبركة جهادِه ، وعُمْران رُباه ووهادِه ، بأشْلاء عُبّاده وزهّاده ، حتى لا يفضُله إلا أحدُ الحرمين ، فحقٌ برىٌ من المَيْن ؛ لكنّى للحرمين جَنحتُ ، وفى جو الشوق إليهما سَرَحتُ ،[٩] فقد أفضَت إلى طريق قصدى محجّتُه ، ونصرتنى والمِنّة[١٠] لله حجتُه ؛ وقَصْدُ

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، سافرية . وفى الملكية (والمعاملة سامرة ، ودروع الصبر سابرة) .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، عرض ، وهو تحريف .

(٣) فى «ك» ، راجعها .

(٤) الوامق أى المحب والشانى أى المبغض .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

(٦) هكذا فى النفخ والأزهار وفى المخطوطين : هاجر .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : لنجد .

(٨) هكذا فى المخطوطين والأزهار . وفى النفح : أمر .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح والأزهار : سنحت .

(١٠) وردت فى «ج» والسمة وفى «ك» والسمت . والتصويب من النفح والأزهار .

سيدى أسنى قصد، توخّاه الشكر والحمد، ومعروفٌ عُرف به النُّـكر، وأملٌ انتحاه الفـكرُ، والآمال [والحمد لله](1) بعد تُمتار، والله يخلق مايشاء ويختار، ودعاؤه يظهر الغيب مَدَد، وعُدَّة وعَدَد، وبرُّه حالَىْ الظَّعْن والإقامة مُعْتَملٌ مُعْتَمد، ومجال المعرفة بفضله، لا يَحْصُره أحد، والسلام »(2).

وهو الآن بقيد الحياة، وذلك ثانى عشر شعبان عام سبعين وسبعمائة(3).

أحمد بن عباس بن أبى زكريا

ويقال ابن زكريا. ثَبَت بخط ابن التَّيانى، أنصاريُّ النسب، يكنى أبا جعفر.

حـــاله

كان كاتباً حسن الـكتابة، بارع الخط فصيحاً، غزير الأدب، قوى المعرفة، شارعاً فى الفقه، مشاركا فى العلوم، حاضر الجواب، ذكىّ الخاطر، جامعاً للأدوات السلطانية، جميل الوجه، حسن الخِلْقة، كلفاً بالأدب، مؤثراً له على سائر لذّاته، جامعاً للدواوين العلمية، [معنياً بها](4) مقتنياً [للجيّد منها](5) مغالياً فيها، نفّاعا من خصّه بها، لا يستخرج منها شيئاً، لفَرْط بُخْله بها، إلا لسبيلها، حتى لقد أثْرى كثيرٌ من الورَّاقين والتجّار معه فيها، وجمع منها مالم يكن عند مَلِك.

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى النفح والأزهار: (من فضل الله)

(٢) وردت رسالة ابن خاتمة ورد ابن الخطيب عليها، فى نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣٦ – ٣٣٨ وفى أزهار الرياض (القاهرة) ج ١ ص ٢٦٥ – ٢٧٠.

(٣) توفى ابن خاتمة وفقا لأرجح الروايات فى التاسع من شعبان سنة ٧٧٠ﻫ فى نفس الوقت الذى اختتم فيه ابن الخطيب ترجمته بهذه العبارة. والظاهر أن نبأ وفاته لم يكن قد وصل إليه بعد من المرية، بلد الشاعر. وقد نشر ديوان ابن خاتمة أخيراً بدمشق (١٩٧٢) محققاً بعناية الدكتور محمد رضوان الداية.

(٤) هذه الزيادة من « الملكية »

(٥) وردت محرفة فى المخطوطين: (لحمدها – بحمدها). والتصويب من الذخيرة.

« يساره » ؛ يقال إنه لم يجتمع عند أحد من نُظَرائه ما اجتمع عنده من عَيْن وورق ودفاتر وخِرَق ، وآنية ، ومتاع وأثاث وكُراع .

« مشيخته » ؛ روى عن أبي تمام غالب التيّانى ، وأبى عبد الله بن صاحب الأحباس .

« نباهتُه وحُظْوته » ؛ وزرَ لزُهير العامرىّ[1] الآتى ذكره ، وارثاً الوزارة عن أبيه ، وهى ما هى فى قطر [مُتَحَرّ بينابيع السَّخيلة ، وثَرّ بهذه الأَمنَة][2] مستنداً إلى قَعْساء العزة ، فتبنَّك[3] نعيما كثيراً ، تجاوز الله عنه .

« دخوله غرناطة » ؛ الذى اتصل على أنه دخل غرناطة منكوباً حسبما يتقرر .

نكبته

زعموا أنه كان أقوى الأسباب فيما وقع بين أميره زُهير ، وبين بادِيس[4] . أمير غَرْناطة ، من المفاسدة ، و فَصْل صَحْبه إلى وَقْم باديس وقَبيله ، وحطّه فى حَيِّز هواه وطاعته ، وكان ما شاء الله من استيلاء باديس على جُمْلتهم ، وَوَضْع سيوف قومه فيهم ، وقَتْل زُهير ، واستئصال محلّته ؛ وقبض يومئذ على أحمد بن عباس ، وجيء به إلى باديس ، وصدرُه يغلى حقداً عليه ، فأمر بحبسه ، وشفاؤه الولوغُ فى دمه ، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حَمَلة[5] الأقلام[6] . قال ابن حيان

(١) هو أحد زعماء الطوائف من الفتيان العامريين عقب الفتنة البربرية . استولى على ألمرية وحكمها عقب وفاة زميله خيران العامرى (٤١٨ – ٤٢٨ هـ) .

(٢) هكذا وردت فى «الملكية» وفى ت . ووردت محرفة فى المخطوطين : (ببحر فينابيع السنجابة وثير بهذا الأمنة) .

(٣) أى استقر فى نعماء .

(٤) ترد هنا فى المخطوطات الثلاثة : (بادس) . والصحيح المشهور هو (باديس) .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : جملة .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » الأقدام ، وهو تحريف .

حديث ابن عباس أنه[١] ، كان قد وَلَع ببيت[٢] شعر صيره هَجْواه أوقات لعبه بالشطرنج ، أو مَعْنى يسنحُ له مستطيلًا بجدّه[٣] .

عيونُ الحوادث عنى نِيامُ   وهَضْمى على الدهر شيء حَرام

وشاع بيتهُ هذا عند الناس، وغاظهم ، حتى قَلَب له مصراعه بعضُ الشعراء فقال :

« سيُوقِظُها قَدَرٌ لا ينام »

فما كان إلا كلا ولا حتى[٤] تنبّهت الحوادثُ لهَضْمه ، إنتباهةً[٥] انتزعت منه نَخوته وعزّته ، وغادرته أسيراً ذليلا يَرْسُف فى وزن أربعين رطلا من قَيْده ، مترعجاً من عَضّه لساقه البَضّة[٦] ، التى تألمت من ضغطة جَوْرَبه ، يوم أصبح فيه أميراً مطاعاً أعْتَى[٧] الخلقِ على بابه ، وآمَنهم بمكره ، فأخذه أخْذَ مليكٍ مقتدر ، والله غالبٌ على أمره .

وفاته

قال أبو مروان : كان باديس قد أرجأ قتْله مع جماعة من الأسرى ، وبَذَل فى فداء نفسه ثلاثين ألف دينار من الذّهب العَيْن ، مالت إليها نفسُ باديس ، إلا أنه عرَض ذلك على أخيه بلُكّين[٨] ، فأنِف منه ، وأشار عليه بقتله ،

---

(١) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٢) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين ، هكذا : ولغ بيت ، وهو تحريف ظاهر .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و« ت » ، بعده .

(٤) وردت هنا فى « ت » هذه العبارة : (تيقظت إليه ونبهت) وهى ساقطة فى المخطوطين ، وفى الذخيرة الذى نقل نص ابن حيان الأصلى . ولذلك أسقطناها .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » إنباهة .

(٦) وردت هذه العبارة محرفة فى « ت » (من غصة لسانه العضة) .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وردت محرفة : على .

(٨) جرى الناسخ فى المخطوطات الثلاثة على كتابة اسم « بلقين » بالقاف . ولكنا فضلنا كتابتها حيثما وردت « بالكاف » أى « بلكين » . وهو الرسم الذى يورده ابن خلدون أوثق حجة فى الأعلام البربرية ، وكذلك السلاوى فى « الاستقصاء » ، وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » .

لتوقعه[١] إثارة فتنة أخرى على يديه، تأكُل من ماله أضْعاف فِديته . قال فانصرف يوماً من بعض رَكَبَاته مع أخيه، فلما توسط الدار التي فيها أحمد بقَصَبة غَرْناطة، لصق القصر، وقف هو وأخوه بلكّين، وحاجبُه على بن القَرَوى، وأمر بإخراج أحمد إليه، فأقبل يَرْسُف فى قيده حتى وقف بين يديه، فأقبل على سبِّه وتبكيته بذنوبه، وأحمدُ يتلطف إليه، ويسأله إراحتَه مما هو فيه، فقال له: «اليوم تستريح من هذا الألم، وتنتقل إلى ما هو أشد»؛ وجعل يُرَاطن أخاه بالبربرية[٢]، فبان لأحمد وجه الموت، فجعل يكثرُ الضَّراعة، ويضاعفُ عدد المال، فأثار غضبه، وهز مِزْراقه، وأخرجه من صدره؛ فاستغاث [الله][٣]، زعموا، عند ذلك، وذكر أولاده وحرمه؛ لِلْحين أمر باديس بحزٍّ رأسه ورُمى[٤] خارج القصر .

حدَّث خادم باديس، قال: رأيت جسد ابن عباس ثانى يوم قتله، ثم قال لى باديس، خُذْ رأسه وواره مع جثته؛ قال: فنبشتُ قبره، وأضفتُه إلى جسده، بجَنْب أبى الفتوح قتيل باديس أيضاً . وقال لى باديس: ضع عدُوًّا إلى جَنْب عدو، إلى يوم القِصاص؛ فكان قتلُ أبى جعفر عشِيَّة الحادى والعشرين من ذى حجة سنة سبع وعشرين وأربعمائة، بعد اثنين وخمسين يوماً من أسره . وكان يوم مات ابن ثلاثين . [نفعه الله ورحمه][٥] .

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة (لتفرقمه – لتفرنمه) .

(٢) وردت فى «ك» بالبربارية . وفى «ج» بالبرية .

(٣) واردة فى «ك» . وساقطة فى «ج» .

(٤) وردت فى «ك» وروى. وفى «ج» وورى، وهو تحريف حسبما يتضح بعد من السياق.

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» . ووردت فى «ك» (رحمه الله ونفعه).

أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطيّـة القُضاعى

من أهل مرّاكش ، وأصله القديم من طُرْطُوشة[١] ثم بعد ، من دانية[٢] يكنى أبا جعفر .

« حاله » ؛ كان كاتباً بليغاً ، سهل المأخذ ، منقاد القريحة ، سيّال الطبع[٣]

« مشيخته » ؛ أخذ عن أبيه ، وعن طائفة كبيرة من أهل مراكش .

نباهته

كتب عن [على][٤] بن يوسف بن تاشفُين ، وعن إبنه[٥] تاشفين ، وعن أبى إسحاق[٦] وكان أحظى كتابهم . ثم لما انقطعت دولة لَمْتُونة ، دخل فى لفيف النـاس ، وأخفى نفسه . ولمـا أثار الماسى[٧] الهداية بالسوس ، ورمى المُوَحّدين

---

(١) طرطوشة ، وبالإسبانية Tortosa من مدن الأندلس القديمة ، ومن قواعد الثغر الأعلى ، وتقع على مصب نهر إيبرو جنوب غربى برشلونة .

(٢) ودانية من ثغور الأندلس القديمة . تقع جنوبى بلنسية على لسان بارز فى البحر . وقد كانت أيام الطوائف قاعدة لمملكة مجاهد العامرى أمير دانية والجزائر الشرقية (البليار) . وبالإسبانية Denia .

(٣) هكذا وردت فى « ك ». ولكنها وردت فى « ج » (القريحة) للمرة الثانية . وهو سهو .

(٤) هذا الاسم ساقط فى المخطوطين . وإثباته ضرورى للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين (أبيه) . وهو تحريف لأن تاشفين هو ابن على بن يوسف .

(٦) فى إيراد هذه العبارة بعض الغموض والخلط . فإن الذى كتب عن على بن يوسف ، ثم عن ولده تاشفين ، هو أبو جعفر بن محمد بن عطية والد صاحب الترجمة (أنظر ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٢ ، والإستقصاء للسلاوى ج ١ ص ١٥٢) . أما صاحب الترجمة أحمد بن أبى جعفر ، فقد خدم أبا إسحق (وليس إسحاق كما ورد فى المخطوطين) إبراهيم بن على بن يوسف ، وهو الذى انقرضت على يده دولة المرابطين فى المغرب سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦ م)

(٧) هو محمد بن هود الماسى ، أصله من أهل سلا . وقد خرج بالسوس داعياً ضد الموحدين . وجمع لمحاربتهم جيشاً كبيراً ، وهزمهم فى البداية ، ولكنه هزم فى النهاية وقتل وذلك فى أواخر سنة ٥٤١ هـ (راجع ابن خلدون ج٦ ص ٢٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢) .

بحَجَرهم الذى رموا به البلاد ، وأعيا أمره ، وهزم جيوشهم ، التى جهزوها إليه وانتدب منهم إلى ملاقاته ، أبو حفص عمر بن يحيى الهِنْتاتى ، فى جيش خشن من فرسان ورَجّاله ، كان أبو جعفر بن عطية ، من الرَّجالة ، مُرْتَسماً بالرماية ، والتقى الجمْعان ، فهُزم جيش الماسى ، وظهر عليه الموحدون[1] . وقتل الدَّعى المذكور ، وعظُم موقعُ الفتح عند الأمير الغالب يومئذ أبو حفص عمر ، فأراد إعلام الخليفة عبد المؤمن ، بما سَنّاه الله ، فلم يَلْقَ فى جميع من استصحبه من يُجلى عنه ، ويُوفى ما أراده ، فذكر له أن فتًى من الرماة يُخاطر بشىء من الأدب والأشعار والرسايل فاستحضره ، وعرض عليه غرضه . فتجاهل وظاهر بالعجز ، فلم يقبل عذره ، واشتدّ عليه ، فكتب رسالة فائقة مشهورة ، فلما فرغ منها وقرأها عليه اشتد إعجابُه بها وأحسن إليه ، واعتنى به ، واعتقد أنه ذُخْرٌ يتحف به عبد المؤمن وأنفذ الرسالة ، فلما قُرئت بمحضر أكابر الدولة ، عظُم مقدارها ، ونَبُه فضل منشيها ، وصدر الجواب ومن فصوله الاعتناء بكاتبها[2] ، والإحسان إليه ، واستصحابُه مكرّماً . ولما أُدخل على عبد المؤمن سأله عن نفسه ، وأحظاه لديه وقلّده خُطّة الكتابة ، وأسند اليه وَزارته ، وفوّض إليه النظر فى أموره كلها ؛ فنهض بأعباء مافُوِّض إليه ، وظهر فيه استقلاله وغِناؤه ، واشتهر بأجمل السّعى للناس واستمالتهم[3] بالإحسان وعمّت صنايعُه ، وفشا معروفه ، فكان محمود السيرة ، مُنْجَحَب المحاولات ، ناجح المساعى ، سعيد المآخذ ، مُيَسَّر المآرب ، وكانت وزارته زَيْناً للوقت ، كما لا للدولة .

محنته

قالوا ، واستمرت حالته إلى أن بلغ الخليفة عبد المؤمن أن النصارى

---

(١) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » الموحدين . وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » بكتابتها .

(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ج » واستمالاتهم .

غزوا(١) قَصَبة ألمرية، وتحصنوا بها، واقترن بذلك تقديم ابنه يعقوب على إشبيلية، فأصحبه أبا جعفر بن عطيه، وأمره أن يتوجه بعد استقرار ولده بها إلى ألمرية؛ وقد تقدم إليها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن، وحَصَر من بها النصارى، وضيّق عليهم، ليحاول أمر إنزالهم، ثم يعود إلى إشبيلية، ويتوجه منها مع واليها(٢)، إلى منازلة الثائر بها على الوهيبي؛ فعمل على ما حاوله من ذلك؛ واستنزل النصارى من ألمريّة على العهد بحسن محاولته(٣)، ورجع السيد أبو سعيد إلى غرناطة، مُزْعَجَين إليها، حتى يسبقا جيش الطاغية؛ ثم انصرف إلى إشبيلية ليقضى الغرض من أمر الوهيبي. فعند ما خلا منه الجوُّ، ومن الخليفة مكانه، وجدت حُسّاده، السبيل إلى التدبير عليه، والسعى به، حتى أوغَروا(٤) صدر الخليفه؛ فاستوزر عبد المؤمن ابن عبد السلام بن محمد الكومى. وانبرى لمطالبة(٥) ابن عطية، وجدّ فى التماس، عوَراته، وتشنيع سقطاته، وأغرى به صنايعه، وشحن عليه حاشيته، فبرءُوا وراشُوا وانقلبوا، وكان مما نقم على أبى جعفر، نكاة القَرْح بالقَرْح، فى كونه لم يقف فى اصطناع العدد الكثير من اللمتونيين، وانتياشهم من خمولهم، حتى تزوج بنت يحيي الحمار من أمرائهم؛ وكانت أمها زينب بنت على بن يوسف، فوجدوا(٦) السّبيل بذلك إلى استئصال شأفته [والحكام](٧). حتى نظم منهم مروان بن عبد العزيز، طليقه ومُسْتَرَقُّ اصطناعه، أبياتا طرحت بمجلس عبد المؤمن.

---

(١) هكذا فى «ج». وفى «ك» عدوا.

(٢) وردت فى المخطوطين: وليها. وهو تحريف.

(٣) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» ولا يته. والأولى أصلح للسياق.

(٤) فى المخطوطين: وأغروا.

(٥) وردت فى المخطوطين: لمطالبته. والتصويب أرجح.

(٦) وردت فى المخطوطين: فوجد بالمفرد. والسياق يقتضى صيغة الجمع.

(٧) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين. ولم نستبن صلتها بالسياق.

قل للإمام[١] أطال الله مدته ... قولاً تبين لذى لبٍّ حقائقه
إن الزراجين[٢] قوم قد وُتِرتَهم ... وطالب الثأر لم تُؤمَن[٣] بوائقه
وللوزير إلى آرائهم ميلٌ ... لذاك ما كثرت فيهم علائقُه
فبادِرْ الحزم فى إطفاء نارهم ... فربما عاق عن أمرٍ عوائقُه
هم العدُوّ ومن والاهم كهُمُ ... فاحذر عدوّك واحذر مَنْ يُصادقه
الله يعلم أنى ناصحٌ لكم ... والحقّ أبْلَجُ لا تخفى طرايقه

قالوا ، ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة فى معناها وغِرِ صدره على وزيره الفاضل أبى جعفر ، وأسرّ له فى نفسه تغيُّراً ، فكان ذلك من أسباب نكبته . وقيل أفضى إليه بسر فأفشاه[٤] . وانتهى ذلك كله إلى أبى جعفر وهو بالأندلس ، فقلق وعجّل بالانصراف إلى مرّاكُش ، فحُجب عند قدومه ، ثم قِيد إلى المسجد فى اليوم الثانى بعده ، حاسر العمامة ، واستحضر الناس على طبقاتهم وقرّروا ما يعلمون من أمره[٥] ، وما صار إليهم منه ، فأجاب كلٌّ بما اقتضاه هواه ، فأمر بسجنه ، ولفّ معه أخوه أبو عقيل عطية ، وتوجّه عبد المؤمن فى إثرِ ذلك زايراً إلى تُربة المهدى · فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف ، وصدرت عن أبى جعفر فى هذه الحركة ، من لطايف الأدب ، نظما ونثرا فى سبيل التوسل بتُربة إمامهم ،

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» الأمير . والأولى أرجح .

(٢) فى المخطوطين : الزراحين . وهو تحريف . والزراجين كلمة أطلقها المهدى ابن تومرت على المرابطين ومفردها زرجان ، وهو طائر أسود البطن ، أبيض الريش ، شبه المهدى المرابطين به لأنهم بيض الثياب سود القلوب (نظم الجمان تحقيق الدكتور مكى ص ٨٥) .

(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى «ك» توقد .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» فأفشى .

(٥) فى المخطوطين : أمرهم . والتصويب من الاستقصاء .

عجائب لم تُجِدِ[١] ، مع نفوذ قَدَر الله فيه ؛ ولما انصرف من وُجهته أعادها معه ، قافلاً إلى مراكش ؛ فلما حاذى[٢] تاقْمَرت[٣] ، أنفَذ الأمر بقتلهما ، بالشَّعْراء المتَّصلة بالحصن على مقربة من الملاَّحة هنالك ، فمضيا لسبيلهما ، رحمهما الله .

شعره وكتابته

كان مما خاطب به الخليفة عبد المؤمن مُسْتعطفاً كما قلناه من رسالة :

« تالله لو أحاطت بى خطيئةٌ ، ولم تَنفَكّ نفسى عن الخيرات بطيئةً ، حتى سَخِرتُ بمن فى الوجود ، وأنِفتُ لآدم من السجود ، وقلتُ إن الله لم يُوحِ إلى الفُلك إلى نوح ، وبَرَيْتُ لقرار ثمود نبلاً ، وأبرَمتُ لحطَب نار الخليل حَبْلا ، وحطَطْتُ[٤] عن يونس شجرة اليقْطين ، وأوقدتُ مع هامان على الطين ، وقبضتُ قبضةً [من الطَّير][٥] من أثر الرسول فنبذتُها ، وافتريْتُ على العذْراء البتول فقذفتُها ، وكتبتُ صحيفة القَطيعة بدار الندوة ، وظاهرتُ الأحزاب بالقُصْوى من العَدْوة ، وذَمَمْتُ كل قُرشى ، [وأكرمتُ لأجل وحشى كل حبشى][٦] ، وقلتُ إن بيعة السَّقيفة[٧] لا توجب لإمام[٨] خليفة ، وشحنتُ

---

(١) فى المخطوطين : توجد ، وهو تحريف ظاهر .

(٢) وردت فى « ج » ، حاذت . وفى « ك » حاد .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، قمرت . وينطق اسم هذه البلدة أحياناً : تاكرت وتغمرت .

(٤) وردت فى المخطوطين : انحططت ، والتصويب يقتضيه السياق .

(٥) وردت هاتان الكلمتان فى « ك » وأغفلتا فى « ج » .

(٦) وردت هذه العبارة فى المخطوطين هكذا . (وأكرمت لأجل كلى وحشى) والزيادة والتصويب من الإستقصاء .

(٧) ردت فى « ك » ، واغفلت فى « ج » .

(٨) هكذا وردت فى « ج » وفى « ك » إمام . والأولى أصوب .

شفرة غلام المغيرة [بن شعبة][1] ، واعتَقَلْتُ من حصار الدار وقتل أشْمُطِها[2] بشُعبة ، وغادرت الوجه من الهامةخضيباً ، وناولت من قَرْع سن الحسين قضيباً ، ثم أتيت حَضْرة المَعْصوم لائذاً ، وبقبر الإمام المهدىّ عائذاً[3] لقد آن لمقالتى أن تُسْمع ، وأن تُغفر لى هذه الخطيئات أُجْمَع :

فعفواً أمير المؤمنين فَمَنْ لَنـــا ... بحَمْلِ قلوبٍ هدَّها الخفقانُ
عطفاً علينا أمير المؤمنين فقد ... بان العزاء لفرط البَثِّ والحزَن
قد أغرَقتنا ذنوبٌ كلها لُجَجٌ ... وعطفةٌ منــكُمُ أنجى من السفُن
وصادفَتْنا سهامٌ كلها غَرَضٌ ... لها ورحمتُــكُمُ أوْقى من الجُنَنِ
هيهات للخَطب أن تسطو حوادثه ... بمن أجارَتْهُ رحماكم من المِحن
من جاء عندكم يَسْعى على ثقة ... بنَصره لم يخَفْ بطشاً من الزمن
فالثوب يَطْهُرُ بعد الغسل من دَرَن ... والطَّرف ينهض بعد الرَّكض من وَسَن
أنتم بَذَلتُم حيــاة الخَلْق كلهم ... من دون منٍّ عليهم لا ولا ثمن
ونحن من بعض من أحْيَيتْ مكارمُــكم ... تلك الحياَتَيْن من نَفْسٍ ومن بَدَن
وصِبْيَة كفراخ الوُرق من صِغَر ... لم يألفوا النَّوْح فى فرع ولا فَنَن
قد أوْجَدَتْهم[4] أيادٍ منك سابغة ... والـكلُّ لولاك لم يُوجد ولم يَـكُن

ومن فصول رسالته التى كتب بها عن أبى حفص ، وهى [التى][5] أورثته الـكتابة العليّة والوزارة كما تقدم قوله :

---

(١) هاتان الكلمتان ساقطتان فى « ج » .

(٢) وردت فى المخطوطين : شمطها .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » لائذا .

(٤) وردت فى المخطوطين : أوجبتهم . والتصويب من الاستقصاء .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

« كتبنا هذا من وادى ماسَة بعد ما تَزَحزح أمر الله الكريم ، ونصر الله المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فتح بمسرى الأنوار إشراقاً ، وأحْدَق بنفوس المؤمنين إحداقاً ، ونبَّه للأمانى النائمة جفوناً وأحْداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا تطيق الألسن كُنْه[1] وَصْفه إدراكا ولا لحاقاً ؛ جمع أشْتات الطبُّ والأدب ، وتقلّب فى النعم أكرم مُنْقلب ، وملأ دِلاء الأمل إلى عقد الكَرَب :

فتحٌ تُفَتَّح أبوابُ السماء له   وتبرزُ الأرض فى أثوابها القُشُب

وتقدَّمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مُهْلة . كان أولئك الضالُّون المرتدون قد بطِروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكُفْر مَعْنَيً وإسماً ، وأملى لهم الله ليزدادوا إثماً[2] ؛ وكان مقدَّمُهم الشّقى قد استمال النفوس بخزَعْبِلاته ، واستهوى القلوب بهُولاته ، ونصب [له][3] الشيطان من حِبالاته ، فأتَتْهُ المخاطبة من بُعْد وكَثَب ، ونَسَلَت إليه الرسل[4] من كل حَدَب ، واعتقدته الخواطر أعْجَبَ عَجَب ، وكان الذى قادهم لذلك ، وأوْرَدَهم تلك المهالك ، وصولُ مَنْ بتلك السواحل ، ممن ارتسم برسم الانقطاع عن الناس ، فيما سلف من الأعوام ، واشتغل على زَعْمه بالصيام والقيام ، آناء الليل والأيام ، لبسوا الناموس أثواباً ، وتدرَّعوا الرياء جِلباباً ، فلم يفتح الله لهم إلى التوفيق باباً » .

ومنها فى ذكر صاحبهم :

« فصُرِع والحمد لله لحينه ، وبادرت إليه بوادر مَنُونه ، وأتَتْه وافدات الخطيئات عن يساره ، ويمينه ، وكان يدّعى أن المَنِيَّة فى هذه الأعوام لا تصيبه ، ويزعم أنه

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الا لكنه ، وهو تحريف .

(٢) واردة فى « ج » ، وساقطة فى « ك » .

(٣) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ج » . ووردت فى « ك » الرمل .

يُبشَّر بذلك والنوائب لا تنوبه ؛ ويقول فى سواه قولاً كثيراً ، ويختلِق[1] على الله إفكاً وزوراً ؛ فلما عاينوا هيئة اضطجاعه ، ورأوا ما خَطَّته[2] الأسِنة فى أعضائه[3] ، وننذ فيه من أمر الله مالم يقدروا على استرجاعه ؛ هُزِم لهم من كان لهم من الأحزاب ، وتساقطوا على وجوههم كتَسَاقُط الذّباب ، وأعطوا عن بَكْرَة[4] أبيهم صَفْحَة الرقاب ، ولم تقْطِر كلومهُم إلا على الأعقاب ؛ فامتلأت تلك الجهات بأجسادهم ، وأذِنَت[5] الآجال بانقراض آمالهم ، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم ؛ فلم يُعايَن منهم إلا من خرّ صريعاً[6] ، وسقى الأرض نجيعاً ، ولقى من وقع الهِنْديّات أمراً فظيعاً ؛ ودعت الضرورة باقيهم إلى التّرامى فى الوادى ، فمن كان يؤمل الفرار منهم ويرْتَجيه ، ويَسْبَحُ طامعاً فى الخروج إلى ما يُنجيه ، اختطفته الأسِنَّة اختطافاً ، وأذاقته موتاً ذُعافاً ؛ ومن لجّ فى الترامى على لجُجَه ، ورام البقاء فى ثَجّه ، قضى عليه شرقُه ، وألوى فَرَقته غَرَقه[7] . ودخل الموحّدون إلى الباقية الـكائنة فيه ، يتناولون قتالهم طعناً وحرباً[8] ، ويلقونهم بأمر الله هَوْناً عظيماً وكرْباً ، حتى سَطَت[9] مراقات الدماء على صفحات الماء ، وحكت حُمرتها على زُرْقه ، حمرة الشّفق على زُرْق السماء ؛ وظهرت العِبرة للمُعْتبر ، فى جرى الدماء جَرْىَ[10] الأبحُر » .

---

(١) فى المخطوطين : ويخلق . والسياق يقتضى التصويب .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » خطبته .

(٣) وردت محرفه فى المخطوطين : فى « ج » أعطايه . وفى « ك » اغطابه .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » ، الكرة .

(٥) فى المخطوطين :وأدنت . وهو تحريف .

(٦) وردت فى المخطوطين : سريعاً . والتصويب أنسب .

(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، عرقه .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » و« الملكية » وضرباً .

(٩) وردت محرفة فى المخطوطين : اسطت فى « ج » . واسمطت فى « ك ».

(١٠) وردت فى المخطوطين : تجرى . والتصويب يقتضيه السياق .

دخوله غرناطة

احتل بغرناطة عام إحدى وخمسين وخمسمائة، لما استدعى أهل جهات ألمرية، السيِّد [أبا سعيد][1] إلى مُنازلة من بها النصارى ؛ وحشد ، ونزل عليها، ونصب المجانيق على قَصَبتها ، واستَصْرخ من بها الطاغية[2] ، فأقبل إلى نصرهم ؛ واستمدّ السيد أبو سعيد الخليفة ، فوجَّه إليه الكبير أبا جعفر بن عطية صُحبة السيد أبي يعقوب إبنه ، فلحق به ، واتّصل الحصار شهوراً سبعة، وبُذل الأمنُ لمن كان بها ، وعادت إلى مَلَـكَة الإسلام ، وانصرف الوزير أبو جعفر صُحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية ، وجرت أثناء هذه أمور يطول شرحها ؛ ففِي أثناء هذه الحركة دخل أبو جعفر غرناطة ، وعُدَّ فيمن ورد عليها .

مولده

بمرّاكُش عام سبعة وعشرين وخمسمائة[3].

وفاته

على حسب ما تقدم ذكره ، لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة .

---

(١) وردت هذه الكلمة فى «ك» وأغفلت فى «ج».

(٢) يقصد بالطاغية هنا ألفونسو ريموندس ملك قشتالة الذى حكم من سنة ١١٢٦–١١٥٧ م. وفى عصره استطاعت الأساطيل والجيوش النصرانية المتحدة أن تنتزع ألمرية من يد المرابطين (٥٤٢هـ – ١١٤٧ م) . واستمرت ألمرية فى يد النصارى زهاء عشرة أعوام حتى حاصرها الموحدون بشدة وفق ماهو مسطور . وحاول النصارى وحليفهم ابن مردنيش أمير بلنسية وخصم الموحدين ، إنقاذها من السقوط . ولكن ذهبت جهودهم سدى ، وسقطت ألمرية فى يد الموحدين ، وعادت إلى قبضة الإسلام فى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م)، وأفرج عن حاميتها النصرانية بالأمان .

(٣) هذا سهو من ابن الخطيب . والحقيقة أن مولد ابن عطية ، كان وفقا لابن الأبار فى سنة ٥١٧هـ (الحلة السيراء – القاهرة – ج ٢ص٢٣٨) . وهذه الرواية أكثر اتفاقا مع مراحل حياته .

أحمد بن محمد بن شعيب الكِرْيانى

من أهل فاس ، يكنى أبا العباس ، ويعرف بابن شُعيب من كِريانة ، قبيلة من قبائل الرِّيف الغربى[1] .

حاله

من « عائد الصِّلة » : من أهل المعرفة بصناعة الطب ، وتدقيق النظر فيها ؛ مشاركاً فى الفنون ، وخصوصاً فى علم الأدب ، حافظاً للشعر ؛ ذُكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمُحْدثين ، والغالب عليه العلوم الفلسفية ؛ وقد مقُت لذلك ، وتهتَّك فى علم الكيمياء ، وخلع فيه العِذار ، فلم يَحل بطائل ، إلا أنه كان تفوّه[2] بالوصول ، شَنْشَنة المفتونين بها على مدى الدهر . وله شعر رائق ، وكتابة حسنة ، وخط ظريف . كتب فى ديوان سلطان المغرب مُرئسا ، وتسرّى جارية روميّة إسمها صُبْح ، من أجمل الجوارى حُسْناً ، فأدّبها حتى لَقِنت حظاً من العربية ، ونظمت الشعر ، وكان شديد الغرام بها ، فهلكت أشدّ ما كان حباً لها ، وامتداد أمل فيها ، فكان بعد وفاتها لا يُرى إلا فى تأوّه دائم ، وأسف متمادٍ ، وله فيها أشعار بديعة فى غرض[3] الرِّثاء .

مشيخته

قرأ فى بلده فاس على كثير من شيوخها ، كالأستاذ أبى عبد الله بن أجْروم نزيل فاس ، والأستاذ أبى عبد الله بن رُشيد[4] ؛ ووصل إلى تونس ، فأخذ منها

---

(١) وردت فى « ج » العربى ، والتصويب من الملكية . وقبائل الريف المغربية هى من القبائل البربرية .

(٢) هكذا فى المخطوطين بصيغة الماضى .

(٣) وردت فى المخطوطين : عرض .

(٤) هكذا ورد اسمه فى « ج » . وفى « ك » رشد .

الطبّ والهيئة على الشيخ رُحْلَة[١] وقته فى تلك الفنون ، يعقوب بن الدرَّاس .

وكان مما خاطب به الشيخ أبا جعفر بن صَفْوان ، وقد نشأت بينهما صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصّنعة المَرْموزة ، يتشوّق إلى جهة كانوا [يَخْلون بها][٢] للشيخ فيها ضَيْعة بخارج مالَقَة كَلأها الله :

رعى الله وادىَ شِنْيانَة ... وتلك الغَدَايا[٣] وتلك اللَّيال
ومَسْرحنا بين خُضر الغصون ... وَوَدْق المياه وسِحْر الظِّلال
ومَرْتَعُنا تحت أدْوَاحه ... ومكْرَعُنا فى النَّمير[٤] الزُّلال
نُشاهد منها كَعَرْض الحُسام ... إذا ما انتَشَت فوقه كالعَوال
ولله من دُرِّ حَصْبائه ... لآلٍ وأحْسِن بها من لآل
وليلٍ به فى سُتُور[٥] الغُصون ... كخودٍ ترنَّم فوق الحِجال
وأسحارُه كيف راقَتْ وصَــحَّ النسيمُ بها فى اعتدال
ولله منك أبا جعفر ... عميدَ[٦] الحلال حميدَ الخِلال
تُطارحُنى برُموز الــكنو ... ز وتُسفر لى عن معانى المعال
وتُبْدِلُنى[٧] فى شجون الحديث ... ويا طِيبَة كلَّ سِحرٍ حَلال
فألْقُطُ من فيك سِحْرَ البيان ... مجيباً به عن عريض النَّوال
أفدتُ الذى دونها معشرٌ ... كثير المقال قليل النَّوال
فأصبحتُ لا أبْتَغى بعدها ... سواك وبعدَ كما لا أُبال

(١) أى رحالة .
(٢) هذه العبارة وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .
(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : العذايا .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » النهر .
(٥) وردت فى المخطوطين : الستور .
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » عيد .
(٧) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » ، وتبدل لى .

وخاطب الفقيه العالم أبا جعفر بن صفوان يسأله [عن][1] شيء من علم الصناعة بما نصه :

دارُ الهوى نجدٌ وساكِنُها ... أقصى أماني النفس من نجْدِ

ومما صدّر به رسالة :

أيُجمَع هذا الشَّمل بعد شَتاته ... ويُوصل هذا الحَبْلُ بعد انْبِتاته
أما لِلْبِلى آية عيسَوِيّةٌ ... فيَنشُر ميِّتَ الأُنْس بعد مماته
ويُورِدُ عَيْنِي بعد مِلْح مدامعي ... برؤيته في عَذْبِه وفُرَاته

وأنشد له صاحبنا الفقيه الجليل صاحب العلامة[2] بالمغرب ، أبو القاسم بن صفوان قوله :

يارُبَّ ظَبْيٍ شعاره نُسُك ... ألحاظُه في الورى لها فَتك
يَتْرُك من هامَ به مُكتئباً ... لا تعجبوا أن قومه التُّرك
أشكو له مالقيتُ من حُرق ... فيمش[3] لاهياً إذا أشكو
صَبَرْتُ حتى أطلَّ عارِضُه ... فكان صبري ختامُه مِسْك

ومن المعاتبة والفكاهة قوله :

وبائعٌ للكتب يبتاعها ... بأرخص السَّوم وأغْلاه
في نِصْف الاستذكار أعطيتُه ومَحْض العين وأرضاه

وله أيضاً :

يا من توعَّدني بحادث هَجْره ... إن السُّلوّ لَدُون ما يتوعَّد

---

(١) واردة في « ج » . وساقطة في « ك » .

(٢) صاحب العلامة أوكاتب العلامة ، هو الذي يتولى التوقيع باسم السلطان وشارته على المخاطبات والمراسيم الملكية ، وكانت هذه الوظيفة من أهم الوظائف الإدارية في القصور المغربية .

(٣) وردت في المخطوطين محرفة : (فثى : فشا) . والتصويب من « الملكية » .

هذا عِذارك وهو موضع سَلْوَتى   فاكفِفْ فقد سبق الوعيدَ المَوْعِدُ
وأظن سَلْوتَنا غداً أو بعده   فبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسود

وله أيضاً :

قال العذول تنقُّصاً لجماله   هذا حبيبُك قد أطلّ عِذاره
لابل بدا فصلُ الربيع بِخَدِّه   فلذا تساوى ليله ونهاره

وله يرثى :

ياقبرَ صُبْحٍ حلَّ فيك   بهجتى أسْنَى الأمانِ(١)
وغدوتَ بعد عيانها(٢)   أشهى البقاع إلى العيان
أخشى المَنية إنها   [تُقْصى](٣) مكانك عن مكانِ
كم بين مَقْبور بفـ   ـاس وقابر بالقَيْرُوان

وله أيضاً يرثيها :

ياصاحبَ القبرِ الذى أعلامُه[درست](٤)   وثابت حُبِّه لم يُدْرس
ما اليأسُ منك على التصبُّر حاملى   أيأسْتَنى فكأننى لم أيأس
لما ذهبْتَ بكل حُسْن أصبحت   نفسى تُعانى شَجْو كلِّ الأنفس
أصْباحُ أيّامى ليال كلُّها(٥)   لاتَنْجلى عن صُبْحِك المُتَنَفِّس

(١) هكذا وردت فى «ك» وفى الملكية . وفى «ج» الأمانى .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى «ت» بقاعها .
(٣) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين بالرسم الآتى (تصصى) . ووردت فى «ت» تنق .
وأعتقد أن هذا التصويب فى محله .
(٤) الزيادة من «الملكية» .
(٥) وردت هذه الشطرة محرفة فى المخطوطين : (صبح أيامى ليل كلها) . وفى «ت» (صبح
أيامى كلها ليل) . والوزن لا يستقيم بهذه النصوص .

وقال فى ذلك :

أعلمتَ ما صنع الفراق[1] غداة جَدَّ به الرِّفاق[2]
ووقفتَ منهم حيث للنَّـ ـظرات والدمع استباق
سبَقَتْ مطـاياهم فمـا أبْطَى[3] بنفسك فى السباق
أأطَقْتَ حمل صدودهم لِلْبَـيْن خَطْبٌ لا يُطاق
عن ذات عرق أصْعَدُوا أتقول دارُهم[4] العراق
نزلوا [ببرقة ثَمْهِدٍ][5] فلذاك ما شئت البراق[6]
وتيامَنُوا عَسْفَانَ أن يقفوا بمُجْتَمع الرِّفاق
ماضرَّهم وهم المُنى لو وافقوا بعض الوفاق
قالوا تفرُّقنا غـداً فشُغِلت عن وعد التَّلاق
عمداً[7] رأوا قَتْل العميـ ـد فـكان عيْشُك فى اتِّفاق
أوْلى لجسمك[8] أن يَرِقَّ[9] ودمعُ عيْنِك أن يُراق
أمَّا الفؤاد فعندهم دَعْه ودَعْوى الاشتياق
أعتاد حب[10] محلهم فمحلُّ صـدرك عنه ضاق

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الفريق ، وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : « الفراق » مرة أخرى . والتصويب من« ت » .
(٣) فى المخطوطين : انبطى . والتصويب من « ت » .
(٤) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : وراهم . وهو تحريف.
(٥) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطات الثلاثة . ووردت فى الملكية (ببرقة ثهمد) .
(٦) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين . وفى « ت » : (فلذاك مشتت البراق) .
(٧) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : عدا .
(٨) هكذا فى « ج » وفى « الملكية » بجسمك .
(٩) وردت فى المخطوطين : يرقى . وفى الملكية ، يروق .
(١٠) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » حجب .

واها لسالفة الشـــبا ب مضَتْ بأيامى الرقاق
أبقَتْ حرارةَ لوْعةٍ بين الترايب والتّراق
لا تَنْطفى وَوُرودُها من أدمعى كأسٌ دِهاق

وقال أيضاً :

ياموحِشى والبعدُ دون لقائه أدعوك عن شَحَطٍ وإن لم تَسْمع
يُدْنيك منى الشوق حتى إننى لأَراك رَأْى العين لولا أدمعى
وأحنُّ شوقاً للنّسيم إذا سَرَى لحديثكم وأصيخُ كالمُسْتطلع
كان اللّقا فكان حظِّىَ ناظِرى وسْطَ الفراق فصار حظِّى مَسمع
فابْعَثْ خيالك تُهْدِه نار الحَشَي إن كان يجهلُ من مقامى مَوْضِـع
واصحبْه من نومى بتُحفَة قادم فصَدَى قَليل رِكابكم لم تُجْمع[1]

دخولُه غَرْناطة

دخل غَرْناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد لقربٍ من ولايته فى بعض شئونه ، وحقق[2] بها تغيير أمر الأدوية[3] المنفردة التى يتشوف الطيب إليها والشحرور ، وهى بقرية شون[4] من خارجها .

« وفاته » رحمه الله ، توفى بتونس فى يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين وسبعماية .

---

(١) وردت هذه الشطرة محرفة فى المخطوطين كالآتى : (فصدا سفل ركابكم لم مجع) .

(٢) فى المخطوطين وفى الملكية : وخفق . وهو تحريف .

(٣) فى المخطوطين : الدولة . وهى كلمة لا محل لها هنا . وكلمة الأدوية هى الصحيحة ، لأن المترجم له هنا طبيب .

(٤) قرية شون من ضواحى مدينة غرناطة ، وهى Jun الحديثة ، وتقع فى شمالها الشرق .

أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن حسين بن على بن سليمان بن عرفة[١] اللخمى

الفقيه ، الرئيس ، المتفنّن ، حامل راية مذهب[٢] الشعر فى وقته ، المشار إليه بالبنان[٣] فى ذلك ببلده ، يكنى أبا العباس .

حـــاله

كان فذًّا فى الأدب ، طِرْفاً فى الإدراك ، مهذب الشمايل ، ذَلِق اللسان ، ممتع المجالسة والمحاضرة ، حُلو الفكاهة ، يرمى كل غرضٍ بسهم ، إلى شرف النشأة[٤] وعزّ المرتبة ، وكرم المَحْتِد ، وأصالة الرياسة .

حدثنى الشيخ أبو زكريا بن هُذَيل ، قال : حضرت بمجلس ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الحكيم ، وأبو العباس بدْرُ هالته ، وقُطْبُ جلالته ، فلم يُحر بشىءٍ[٥] إلا ركض فيه ، وتكلم بملء فيه . ثم قمنا إلى زبّارين[٦] يصلحون شجرة عنب ، فقال لعريفهم حقٌّ هذا أن يقْصُر ، ويُطال هذا ، ويُعمل كذا . فقال الوزير ، ياأبا العباس ماتركت لهؤلاء أيضاً ، حظًّا من صناعتهم ، يستحقون به الأجرة ؛ فعجبنا من استحضاره[٧] ، ووساعة[٨] ذرْعه ، وامتداد حظ كفايته .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (ابن أبى عرفه) .

(٢) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » (مهذب) .

(٣) وردت فى المخطوطين : بالبيان ، وهو تحريف ظاهر.

(٤) وردت فى المخطوطين محرفة : (الشاة) .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » شىء .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » ، ربارين .

(٧) وردت فى المخطوطين : استحفارة .

(٧) وردت فى المخطوطين : استحفارة .

(٨) أى سعة . وقد وردت (ساعة) فى المخطوطين .(وإساعة) فى « ت » والملكية .

قدومه على غرناطة

قدم عليها مع الجُملة من قومه عند تغلب الدولة النصرية على بلدهم ، ونزول البلاء والغلاء والمحنة بهم ، والجلاء بهم فى آخر عام خمسة وسبعمائة ، ويأتى [التعريف بهم][1] بعد إن شاء الله ؛ وكان أوفر الدواعى فى الاستعطاف لهم بما تقدم بين يدى أدعيائهم[2] ، ودخولهم على السلطان ، [أن][3] الذى تنخل[4] بمثله السَّخائم ؛ وتذهب الإحَن[5] ، وخطب لنفسه ، فاستمرت ، حاله لطيف المَنْزِلة ، معروف المكانة ، ملازماً مجلس مُدبِّر الدولة ، مرسوماً بصداقته[6] مشتملاً عليه ببرِّه ، إلى أن كان من تقلُّب الحال ، وإدالة الدولة ، ما كان .

شـــعره

وشعره نمطٌ عال ، ومحل البراعة حال ، لطيف المبوب ، غزير المائية[7] ، أنيق الديباجة ، جمُّ المحاسن ؛ فمنه فى مذهب المدح ، يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله ابن الحكيم :

تملَّكتَ رِقِّ بالجمال فأجمل ... وحكَمْتَ قلبى بجَوْرك[8] فاعدل

أنت الأمير على الملاح ومن يَجُرْ ... فى حكمه إلا جفونك يُعزل

---

(١) أضفنا هذه العبارة المحتملة لاستقامة السياق .

(٢) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : إذعامهم ، وفى الملكية ، أدعامهم .

(٣) واردة فى « ت » . وساقطة فى المخطوطين .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تنحل .

(٥) وردت فى « ج » الأجر . وفى « ك » الأجر . وفى « ت » الأخر .

(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » صدقاته .

(٧) فى المخطوطات الثلاثة : المانية .

(٨) وردت فى المخطوطين ، بجود . وفى « ت » ، فجود . والتصويب من أزهار الرياض .

إن قيل أنت البدْرُ فالفضل الذى ... لك بالكمال ونقصه لم يُجهل
لولا الحظوظ(١) لكُنْت أنت مكانه ... ولكان دونك فى الحضيض الأسفل
عينـاك نازلتا القلوب فكلُّها ... إما جريحٌ أو مُصاب المَقْتل
هزّت ظُباها بعد كسر جفونها ... فأصيب قلبي فى الرَّعيل الأول
مازلت أُعذل فى هواك ولم [يزل](٢) ... سمعى عن العُذّال فيك بمعزل
أصبَحْتُ فى شغل بحبك شاغلٍ ... عن أن أصيخ إلى كلام العُذّل
لم أهمل الكتمان لكن أدمعى ... هَمَلَت ولو لم تعصنى لم تهمل
جَمَع الصحيحين الوفاء مع الهوى ... قلبي وأملى الدمعُ كَشْف المشكل
ما فى الجنوب ولا الشمال جواب ما ... أهدى إليك مع الصَّبا والشَّمأل
خَلَسًا له من طيب عَرْفك نفحة ... تجىء بها(٣) دماء عليلها المُتَعلل
إن كنت بعدى حُلْتَ عما لم أحُل ... عنه وأهملتَ الذى لم أهمل
أو حالت الأحوال فاستبدلتَ بى ... فإن حبى فيك لم يُسْتَبْدل(٤)
لاقيتُ بعدك ما لو أنّ أقلّه ... لاقى الثرى لأذاب(٥) صُمَّ الجَنْدل
وحملت فى حُبِّك ما لو حُمِّلت ... شمُّ الجبال أخَفَّه لم تَحْمل
من حَيْف دهرٍ بالحوادث مُقدمٍ ... حتى على حَبْس الهِزَبْر المُشْبل(٦)
قد كنتُ منه قبل كرٍّ صروفه(٧) ... فوق السَّنام فصرتُ تحت الكلكل

(١) هكذا فى « ت » وأزهار الرياض . وفى المخطوطين : الخصوص .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وفى الملكية . وفى «ت » ، أضح . والإضافة عن أزهار الرياض .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ضحابها .
(٤) هكذا وردت هذه الشطرة فى الملكية ووا ردت فى « ك » و« ج » كالآتى (فإنى بحبى لم أستبدل) . والأولى أنسب للمعنى والسياق .
(٥) فى المخطوطين : لذاب .
(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » المسبل .
(٧) فى المخطوطين : صروفها .

ونُصُول شَيْبٍ قد ألَمَّ بلِمَّتى … وخِضاب أبى شيبة لم تَنْصِل
ينوى الإقامة ما بقيت وأقْسَمَت … لا تنزلُ اللذات ما لم يَرْحل
ومسير ظَعْنٍ ودان حميمهُ … لاقى الحِمام وإنَّه لم يفعل
يهْوى على جسدى[1] الضلوع فقلبه … بأُواره يغلى كَغَلْى المرجل
فى صدره ما ليس فى صدرى له … من مِثْله مثقالُ حَبَّة خَرْدل
أعرضتُ عنه ولو أشَفَّ لذمّة … شعرى[2] لَجرّعه نقيع الحنظل
جُلِّيت فى حَلْبات سَبْق لم يكن … فيها بمــرتاح ولا بمؤمِّل[3]
ما ضَرَّه سبقيه فى زمن مضى … أنَّ المُجَلِّى فيه دون الفُسْكُـل
ساءته منِّى عَجْرَفيّةُ قُلَّبٍ … باقٍ على مر الحوادث حُوَّل
متحرِّقٌ[4] فى البذل مدَّة سيره … متجلّدٌ فى عُسْره مُتَجَمِّل
حتى يثوبَ له الغِنَى من ماجدٍ … بقضاء حاجات الـكرام مُوَكَّـل
مثلُ الوزير ابن الحـكيم وماله … مثلٌ يقوم مقامه مُتَمثِّل
ساد الورى بحديثه وقديمه … فى الحال والماضى وفى المستقبل
من بيت مجد قد[سمت بقبابه][5] … أقيال لَخْمٍ فى الزمان الأوّل
سامى الدعائم طال[6] بيت وزارة … ومشاجع وأبى الفوارس نَهْشل
يَلْقَى الوفود ببَسْط وجهٍ مُشرق … تجلو طلاقتهُ هُموم المُجْتَلى
فلآمِلى جَدْواه حَوْل فنائه … لَقَط القطا الأسراب حول المَنْهل

(١) هكذا فى «ج» و«ت». وفى الملكية، جسد. وفى «ك» : قلبى.
(٢) هكذا فى «ك». وفى «ج»، شجرى.
(٣) فى المخطوطين : بمتؤمل.
(٤) وردت فى «ك» متخرق. وفى «ج» مخترق.
(٥) هكذا فى «ج» و«الملكية». وفى «ك» : أسست بقبابه
(٦) فى المخطوطين : طالت، وكذا فى الملكية. وهو لا يتفق مع الوزن.

وإذا نحى بالعدل(١) فصل قضية ... لم تحظ فَصْلا من إطالة مُفْصل
يقضى على سخَب الخصوم وشَغْبهم ... ويقيم مُغريهم مقام المؤمل
ويلقّن الحج العَيِىّ تحرُّجاً ... من راحٍ عند اللَّجاج وأعزل
فإذا قضى صور المُحِقّ بحقّه ... عنه وحاق(٢) عقابُه بالمُبْطل
عَجِلٌ على من يستحقّ مثوبةً ... فإذا استحقّ عقوبة لم يَعْجَل
يا كافىَ الإسلام كلّ عظيمة ... ومعيدَه غضًّا كأن لم يَذْبُل

وقال أيضاً يمدحه بقصيدة من مطولاته ؛ وإنما اجتلبتُ من مدحه للوزير ابن الحكيم لكونه يمدح أديباً ناقداً ، وبليغاً بالكلام بصيراً ، والإجادة تلزم فيه منظومه ، إذ لا يوسع القريحة فيه عُذْراً ؛ ولا يُقبل من [الطَّمع قدراً](٣)، وهى :

أما الرُّسوم فلم تَرِقّ لما بى ... واستَعْجَمَت عن أن تردّ جوابى
واستبدلت بوحوشها من أنْ ... سٍ بيضِ الوجوه كواعب أتراب
ولقد وقفت بهاَ أُرَقْرِق عَبْرَةً ... حتى اشتكى طول الوقوف صحاب
يبكى لطول بكاى فى عَرَصاتها ... صحبى ورجَّعت الحنينَ ركاب

ومن شعره فى المقطوعات غير المطولات :

لم يبق ذو عين لم يُشْبِه ... وجهك من زَيْن بلا مَيْن
فلاح بينهما طالعاً ... كأنه القمر بلاَمَيْن

ومن ذلك قوله :

كأنما الخال مصباحٌ بوَجْنته ... هَبَّت عواصف أنفاسى فعطّف

---

(١) وردت فى المخطوطين : بالعد . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : وعاق .

(٣) هكذا وردت فى «ج» وفى الملكية . وفى «ك» : الطبع قدراً .

أو نقطةٌ قطرت فى الخد إذ رسمت خطَّ الجمال بخطٍّ اللاَّم والألِف] (١)

ومن ذلك قوله :

وعدتنى أن نزُور يا أملى فلم أزل للطريق مُرتقِبـا
حتى إذا الشمس للغروب دَنَت وصيَّرت من لُجَينها ذهبا
أنسَنى البدرُ منك حين بدا لأنَّه لو ظهَرْتَ لاحتَجَبا

ومن ذلك قوله :

هجرُكم مالى عليه جَلَد فأعيدوا إلىَّ الرضى أو فعدُّوا
ما قسى قلبى من هِجرانكم ولقد طال عليه الأمد

ومن ذلك قوله :

أبْدَى عِذَارُك عُذْرى فى الغرام به وزادنى شغفاً فيه إلى شغف
كأنّه ظن أنى قد نسيت له عَهْداً فعرَّض باللام والألف

ومما هو أطول من المزدوجات قوله :

ويوم كساه الدُّجى (٢) دَكْنَ (٣) ثيابه وهبَّت نسيم الروض وهو عليل
ولاحت بأفلاك الأفق (٤) كواكبٌ لها فى البدور الطَّالعات أفُول
وجالت جياد الرَّاح بالرَّاح جولةً فلم تحـلُ إلا والوقار قتيـل

ومن ذلك :

عذلونى فيمن أحب وقالوا دَبَّ نملُ العِذَار فى وجنتيه

---

(١) هذان البيتان قد وردا فى « ج » و« الملكية » ، وأغفلا فى « ك » .
(٢) وردت فى المخطوطين : الدجن .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : ذكر.
(٤) وردت فى المخطوطين محرفة : الإفك .

وكذا النَّمل كلما حلَّ شيئاً ... منع النفس أن تميل إليه
قلت قَبْل العِذار أُعذر فيه ... ثم من بعده ألام عليه
إنما دبَّ نحو [شَهْدٍ بفيه](١) ... فلذاك انتهى إلى شَفَتَيه

وإحسانه كثير، ومثله لا يُقنع منه بيسير.

وفاته

قال فى «عائد الصلة»: «ولما كان من تغلُّب الحال، وإدالة الدولة، وخلع الأمير، وقتل وزيره، يوم عيد الفطر من سنة سبع وسبعمائة، وانتهبت دار الوزير، ونالت الأيدى يومئذ، مَن شَمَله دهليز بابه، من أعيان الطبقات، وأولى الخُطط والرُّتب، ومنهم أبو العباس هذا رحمه الله؛ فأفلت تحت سلاحٍ مشهُورٍ، وحيزٍ مَرْقوف، وثوب مسلوف(٢)؛ فأصابته بسبب ذلك علّة أياماً، إلى أن أودت به، فقضت عليه بغرناطة، فى الثامن والعشرين لذى حجة من سنة سبع وسبعمائة؛ ودفن بمقبرة الغرباء من الرُّبَيط عَبْر الوادى تجاه قصور(٣) نجد، رحمة الله عليه».

أحمد بن على المِلْيانى(٤)

من أهل مرَّاكش، يكنى [أبا عبد الله](٥) وأبا العباس.

---

(١) وردت فى «ج» (شهد فيه). وفى «ك» شهديه: والتصويب من «الملكية».

(٢) مرقوف أى مرتعد مرتجف، ومسلوف أعنى رقيق.

(٣) هكذا فى «ك» والملكية. وفى «ج»: قطور.

(٤) نسبة إلى مليانة. وهى مدينة قديمة من مدن المغرب الأوسط تقع جنوب غربى الجزائر

(٥) وردت فى «ج» والملكية. وأغفلت فى «ك».

صاحب العلامة[١] بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأن فى اقتضاء التِّرَّة ، المثل المضروب [فى][٢] العفّة ، وقوة الصَّريمة ، و نفاذ العزيمة .

« حاله » : كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على [سجية][٣] غريبة كانت فيه ، من الوقار ، والانقباض ، والصَّمت. أخذ بحظ من الطّبّ ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، يُذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمته

فتك فَتْكة شنيعة أساءت الظنّ بحَمَلة الأقلام على مرّ الدهر ؛ وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة ، وجرى ذكره فى كتاب « الإكليل » بما نصه :

« الصَّارم ، الفاتك ، والكاتب الباتك ، أبيٌّ اضطرابٍ فى وقار ، وتجهُّمٍ تحته أنس عقار ، اتخذه صاحب المغرب ، صاحب علامته[٤] . وتوّجه تاج كرامته ؛ وكان يطالب جملة [من][٥] أشياخ مراكش بثأر عمّه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويُقصر على الاستبصار منهم بنات همّه ، إذ سعوا فيه حتى اعتُقل ، ثم جدُّوا فى أمره حتى قُتل ؛ فترصّد كتاباً إلى مراكش يتضمن أمراً جزْماً ، ويشل من أمور الملك عزماً ، جعل الأمر فيه بضرب رقابهم ، وسَبي أسبابهم ؛ ولما أكّد على حامله فى العَجَل وضايقه فى تقدير الأجل ، تأنى حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل . فرَّ إلى تِلِمْسان ، وهى بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها[٦] ، حالاًّ بين أنوفها وأبصارها ؛

---

(١) سبق أن أوضحنا اختصاص هذا المنصب (أنظر الحاشية فى ص ٢٧٤) .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » والملكية .

(٤) وردت فى المخطوطين : علامة .

(٥) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ت » .

(٦) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » بأقطارها .

وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجَحت الظنون فى آثاره . ثم اتَّصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، وترَكها شَنْعَةً على الأيام ، وعاراً فى الأقاليم على حَمَلة الأقلام ؛ وأقام بتِلمْسان إلى أن حُل مُخَنَّقُ حصارها ، وأزيل اللَّقيان[1] الضيقة عن خصرها ؛ فلحق بالأندلس ، فلم يَعْدم برًّا ورعْياً مستمراً ، حتى أتاه حِمامه ، وانصرمت أيامه » .

شعره

من الذى يدل على بره[2] ، وانفساخ خطاه فى النَّفاسة ، وبعد شأوه ، قوله :

العز ما ضَرَبَت عليه قبابى ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابى
والزَّهرُ ما أهداه غصن[3] براعتى ... والمِسْك ما أبداه نقش كتابى
والمجدُ يمنع أن يزاحم مَوْرِدى ... والعزم يأبى أن يُسام جَنانى
فإذا بلوتُ صنيعةً جازيتُها ... بجميل شكرى أو جزيل ثوابى
وإذا عقدتُ مودَّة أجرَيْتُها ... مجرى طعامى من دَمِى وشرابى
وإذا طلبتُ من الفراقد والسُّهى ... ثأراً[4] فأوشِك أن أنال طلابى

وفاته

توفى رحمه الله يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة ، ودفن بجبَّانة باب إلبيرة ، تجاوز الله عنه .

---

(١) هكذا فى « ج » . الملاكية وفى « ك » العيان . .
(٢) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » ، أنوه .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : غضر .
(٤) وردت فى المخطوطين : آثاراً . وهو تحريف .

أحمد بن محمد بن عيسى الأموى

يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالزيّات

حـاله

من أهل الخير والصلاح والأتباع ، مفتوح عليه فى طريق الله ، نيِّر الباطن والظاهر ، مطَّرح التصنُّع ، مُتْبَذل ، مجانب للدنيا وأهلها ، صادق الخواطر ، مُرْسَل اللسان بذكر الله ، مبذول النصيحة ، مثابر على اتِّباع السُّنة ، عارف بطريق الصوفيَّة ، ثبْتُ القدم عند زلَّاتها[١] ؛ ناطق بالحكمة على الأمية ؛ جميل اللقاء ، متوغل فى الكَلَف بالجهاد ، مرتبط للخيل ، مبادر للهَيْعة ، حريص على الشهادة ، بركة من بركات الله فى الأندلس ، يعز وجود مثله .

وفاته

توفى رحمه الله ببلده غرناطة ، يوم الخميس الثانى والعشرين لجمادى الثانية من عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ وشارف الإكْتِهال .

أحمد بن الحسن بن على بن الزيات الكلاعى

من أهل بَلِّش مالقة[٢] ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بالزيّات ، الخطيب ، المتصوِّف الشهير .

حـاله

من « عائد الصلة » : كان جليل القدر ، كثير العبادة ، عظيم الوقار ، حسن

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، قولاتها .

(٢) بلش مالقة Velez Malaga ، سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٢) .

الْخُلق ، مخفوض الْجناح(١) ، متألق(٢) البِشْر ، مبذول المؤانسة ، يُذَكِّر بالسَّلف الصالح ، فى حُسْن شيمته ، وإعراب لفظه ، مزدحم المَجْلس ، كثير الإفادة ، صبوراً على الغاشية ، واضح البيان ، فارس المنابر غير مُدافع ، مستحق التصدُّر فى ذلك ، بشروط قلما كَمُلت عند غيره ؛ منها حسن الصورة ، وكمال الأبَّهة ، وجَهْوَريَّة الصوت ، وطيب النَّغمة ، وعدم التَّهيُّب ، [والقدرة على الإنشاء](٣) ، وغَلَبة الخشوع ، إلى التفنُّن فى كثير من المآخذ العلمية ، والرياسة فى تجويد القرآن ، والمشاركة فى العربية ، والفقه ، واللغة ، والأدب ، والعروض ، والمحاسَّة(٤) فى الأصلين ، والحفظ للتفسير .

قال لى شيخنا أبو البركات بن الحاجّ ، وقد جرى ذكر الخطابة : ما رأيت فى استيفائها مثله . كان يفتح [مجالس تدريسه](٥) أكثر الأحيان ، بخُطَب غريبة ، يطبِّق بها مفاصل الأغراض ، التى يشرع فى التكلم فيها ، وينظم الشعر دائماً فى مراجعاته ومخاطباته ، وإجازاته ، من غير تأنٍّ ولا رويَّة ، حتى اعتاده مَلَكةً بطبعه ؛ واستُعمل فى السِّفارة بين الملوك ، لدحْض السَّخائم ، وإصلاح الأمور ، فكانوا يوجبون حقَّه ، ويلتمون بركته ، ويلتمسون دعاءه .

مشيخته

تحمَّل العلم عن جملة ؛ منهم خاله الفقيه الحكيم أبو جعفر أحمد بن على المَذْحِجى

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية ، محفوظ الجناد .

(٢) وردت كلمة (كثير) فى المخطوطين وفى الملكية قبل هذه الكلمة . ولا موضع لها هنا إلا أن كانت كلمة (متالق) تقرأ (تألق) . وفى ذلك تجاوز .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين وفى الملكية (والقدر على الإمشاء) . أو الأشياء

(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى والملكية ، من محس ، والمقصود بها هنا الإتقان والبراعة .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى « الملكية » مجالسه .

من أهل الحمّة[١] ، من ذوى المعرفة بالقرآن والفرائض ؛ ومنهم القاضى أبو على الحسين بن أبى الأحوص الفهرى ، أُخذ عنه قراءةً وإجازة ؛ ومنهم العارف الرّبانى ، أبو الحسن فضل بن فضيلة ، أخذ [عنه][٢] طريقة الصوفية وعليه سَلك ، وبه تأدّب ، وبينهما فى ذلك مخاطبات ؛ ومنهم أبو الزهر ربيع بن محمد بن ربيع الأشعرى ، وأبوعبد الله محمد بن يحيى أخوه ؛ ومنهم [أبو الفضل][٣] عياض ابن محمد بن عياض بن موسى ، قرأ عليه ببَلِّش وأجازله ؛ ومنهم الأستاذ أبوجعفر ابن الزبير، والأستاذ أبوالحسن التِّجلى ، وأبو محمد بن سماك ؛ وأبوجعفر بن الطَّباع ؛ وأبو جعفر بن يوسف الهاشمى الطّنْجَلى[٤] ، والأستاذ النحوى أبو الحسن بن الصَّائغ ؛ والكاتب الأديب أبو على بن رشيق التَّغْلبى ؛ والرَّاوية أبو الحسن بن مَسْتَقور[٥] الطائى ؛ والإمام أبو الحسن[٦] بن أبى الربيع ، والأستاذ أبو إسحاق الغافقى الميربى ؛ والإمام العارف أبو محمد عبد العظيم بن الشيخ البَلَوى ، بما كان من إجازته العامة لكل من أدرك عام أحد وأربعين وستمائة ؛ وغير هؤلاء ممن يشُقّ إحصاؤهم .

تصانيفُه

كثيرة ، منها المسماة « بالمقام المَخْزون فى الكلام المَوْزون » ؛ والقصيدة[٧] المسماة « بالمشرف[٨] الأصْفى فى المأرب الأوْفى » وكلاهما ينيف على الألف بيت ؛

(١) الحمة أو الحامة سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٦٩) .
(٢) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى الملكية .
(٣) وردت هذه الزيادة فى « ج » والملكية ، وأغفلها « ك » .
(٤) الطنجلى نسبة إلى طنجة . وترسم أحياناً الطنجالى ، والطنجى .
(٥) وردت فى المخطوطين : ابن مسنور ، وهو تحريف .
(٦) هكذا وردت فى « ج » . و فى « ك » أبو الحسين .
(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة (العقيدة) والتصويب أرجح .
(٨) هكذا أرسمت فى « ك » . وفى « ج » ، الشرف .

و«نظم السُّلوك فى [شيم الملوك] »[١] ؛ و « المُجْتَنى النَّضير والمُقْتَنى[٢] الخطير» ؛ و«العبارة الوجيزة عن الإشارة » ؛ و«اللطائف الرُّوحانية والعوارف الربَّانية » .

ومن تواليفه : « أُسُّ مبنى العلم ، وأُس معنى الحلم » فى مقدمة علم الكلام ؛ و«لذَّات السمع من القراءات السَّبْع » نظماً ؛ و«رصفُ نفائس اللآلى ، ووصفُ عرائس المعالى » فى النحو ؛ و« قاعدة البيان وضابطة اللسان » ، فى العربية ؛ و« لهجة اللَّافظ وبهجة الحافظ » ؛ والأرجوزة المسماة « بقُرَّة عَيْن السائل وبغُية نفس الآمل» فى اختصار السيرة النبوية ؛ و«الوصايا النظامية فى القوافى الثلاثية» ؛ وكتاب « عُدَّة الداعى ، وعُمْدة الواعى » ؛ وكتاب « عوارف الكرم ، وصلات الإحسان ، فيما حواه العين من لطائف الحِكَم وخلق الإنسان» ؛ وكتاب «جوامع الأشراف والعنايات ، فى الصَّوادع والآيات » ؛ و « النَّفْحة الوسيمة والمِنْحة الجسمية »[٣] ، تشتمل على أربع قواعد اعتقاديَّة وأصوليَّة وفروعيَّة وتحقيقيَّة ؛ وكتاب « شُروف المَنَارق فى اختصار كتاب المشارق » ، و «تلخيص الدَّلالة فى تخليص الرسالة» ؛ و « شُذور الذَّهب فى صروم الخطب » ؛ و « فائدة المُلْتقط وعائدة المُغْتبط » ؛ وكتاب «عُدَّة المُحِق وتُحْفة المُسْتحق » .

نــثره

من ذلك خُطْبة أُلغيت الألف من حروفها ، على كثرة ترددها فى الكلام وتصرفها ، وهى :

« حمدتُ ربى جلَّ من كريم محمود ، وشكرتُه عزَّ من عظيم موجود ، ونزَّهته عن جهل كل مُلْحد كفور ، وقدّسته عن قول كل مُفسد غَرور ، كبير لو تقدم ،

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج » والملكية (نظم السلوك) مرة أخرى . وهو سهو ظاهر .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج » المنتقى ، والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى «ج » . وفى الملكية « السنحة فى الوسمة والمنحة ».

فى فهم نجد ، قدير لو تصور فى رسم لحد ؛ لو عدَدَته فكرةُ التصوُّر[١] لَتَصَوَّر ، ولو حَدَدَتْه[٢] فكرة لتعذَّر ؛ ولو فُهِمت له كيفية لبَطَل قِدَمُه ، ولو عُلمت له كيفية لحصل عدمُه ؛ ولو حَصَره[٣] طَرْفٌ لقُطع بتَجَسُّمه ، ولو قهره وصْفٌ لصدع بتقَسمه ؛ ولو فُرِض له شَبَحٌ[٤] لرهقه[٥] كيف ؛ ولو عرض له ، للحق عجلٌ ورَيْث ؛ عظيم من غير تركُّب قُطْر ، عليمٌ من غير ترتُّب فكر ؛ موجود من غير شيء يُمسكه ، معبود من غير وهم يُدْركه ؛ كريمٌ من غير عِوَض يُلْحِقُه ، حكيم من غَير عَرَض يَلْحَقُه ؛ قوى من غير سبَبٍ يجمَعُه ، علىٌّ من غير سبب يرفعه ؛ لو وجد له جنس لعُورض فى قيمومينه[٦] ، ولو ثبت له حِسٌّ لنُوزع فى دَيْمومِيَّته » .

ومنها : « تقدَّس عن لِمٍ فِعله ، وتنزه عن سَمٍّ فضله ، وجلَّ عن ثَمَّ قدرته ، وعزَّ عن عَمَّ عزَّته ، وعظمت عن مَن صفته ، وكثرت عنْ كَمْ مِنَّته ؛ فتَق ورتق صوَّر وحلق ، وقطع ووصل ، و نصر وخذل ؛ حَمَدْتَه حَمْدَ من عَرَف ربه ؛ ورهب ذَنْبه ، وصفَتْ حقيقةُ يقينه قلبَه ، وذكرت بصيرةُ دينه لبَّه ، فنهض[٧] لوعْى بشروط نفضنه وحَدّ ، وربط سِلْكَ سلوكه وشيَّد ، وهدم صرح عتُوِّه وهَدّ ، وحرس معْقِل عقله وحد ، طرد غرور غُرَّته وردله ؛ علم [علم][٨] تحقيق فنحا نحوه ، وتفرَّد له عز وجل بثبوت ربوبيَّته وقِدَمه ، و نعتقد[٩] صدور كلٌ

(١) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» تصور

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» حدثه . والأولى أرجح .

(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» حصر .

(٤) وردت فى المخطوطين : شح ، وهو تحريف .

(٥) هكذا فى «ك» . وفى «ج» لمرقه .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية .

(٧) فى الملكية ، فنبه .

(٨) ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى «ت» .

(٩) هكذا وردت فى الملكية وفى المخطوطين . وتعتقد . والأولى أرجح .

جوهر وعَرَض عن جوده وكرمه ؛ ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه عليه وسلم، رسوله وخير خَلْقِهِ، و نُعلن بنهوضه فى تَبْيين فرضه، وتبليغ شرعه ؛ ضرب قبة شَرْعه ؛ فنسخت كلَّ شَرْع ؛ وجدَّد عزيمته فقمع عدوَّه خير قَمْع ؛ قوَّم كل مُقَوَّم بقويم سمته ؛ و كريم هَدْيه ؛ وبيَّن لقومه كيف يركنون فَوْره بقصده ؛ وسديد سعيه ؛ بشَّر مطيعه، فَظَفِر برحمته ؛ وحذَّر عاصيه فشقى بنقمته.

« وبعد فقد أُصحتم لو كنتم تعقلون، وهُديتم لو كنتم تعلمون، وبُصِّرتم لو كنتم تبصرون، وذكِّرتم لو كنتم تَذَّكرون ؛ وظَهَرتْ لكم حقيقةُ نَشْركم وبرزت لكم خبيئةُ حشركم ؛ فلم تركضون فى طَلْق غفلتكم، وتغفلون[1] عن يوم بَعْثكم ؛ والموت عليكم سيفٌ مسلول، وحكم عَزْم غير معْلول ؛ فكيف بكم يوم يُؤخذ كل بذنبه ؛ ويُخبر بجميع كسبه ؛ ويُفَرَّق بينه وبين صحبه، ويَعْدَم نصرة حزبه ؛ ويُشْغل بِهمِّه[2] وكَرْبه ؛ عن صديقه وتِربه ؛ وتُنْشر له رقعته وتعين له بقعته ؛ فربح عبدٌ نظر وهو فى مَهَل لنفسه ؛ وتَرَسَّلَ[3] فى رضى عمله جنَّةَ لحلول رَمْسه ؛ وكسر صنم شهوته ليقرَّ فى بحبوحة قُدْسه[4] ؛ وحَصَر[5] بنظر يُنزله سَريرَ سروره بين عقله وجسمه[6].

ومنها : « فتنبه ويحْك من سِنَتك ونومك وتفكر فيمن هلك من صحبك[7] وقومك ؛ هتف بهم من تَعَلُّم، وشبَّ عليهم منه حَرَق مظلم ؛ فخُرِّبت بصيحته ربوعهم ؛ وتفَرَّقت لهوله جموعهم، وذُلَّ عزيزهم، وخُسِئ رفيعُهم، وصُمَّ سميعُهم ؛ فخرج كل منهم عن قَصْره، ورُمى غير مُوَسَّد فى قبره ؛ فهم بين سعيدٍ

(١) هكذا فى «ج»، وفى «ك»، وغافلون. وهو تحريف.
(٢) هكذا فى الملكية وفى «ج» بقوله. والأولى أرجح
(٣) فى المخطوطين : وترسيل.
(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» قدمه.
(٥) هكذا فى «ج». وفى «ك»، وحصن.
(٦) هكذا فى «ج» والملكية. وفى «ك» حسه.
(٧) هكذا فى «ج» والملكية. وفى «ك» صحبتك

فى روضته مُقَرَّب ، وبين شقى فى حُفْرَته مُعذَّب ؛ فنَسْتَوهب منه عز وجل عصمته من كل خطيئة ، وخصوصيَّة تقى من كل نفس جريئة» .

كتب إلى شيخنا الوزير ، ابن ذى الوزارتين ، ابن الحكيم ، جواباً عن مخاطبة كتبها إليه يلتمس منه وصايته ونُصْحَه هذا الشعر :

جلَّ اسم مولانا اللَّطيف الخبير ... وعزّ فى سلطانه عن نَظير
هو الذى أوجد ما فوقها ... وتحتها وهو العليم الخبير
ثم صلاة الله تَتْرى على ... ياقوتة الكون البشير النذير
وصحبه الأولى نالوا مرأى ... يرجع عنه الطَّرْف وهو الحسير
وبعد فأنفسهم جوهر ... للأرواح منه ما للأثير
فإنك استدعيت من ناصر ... نُصْحاً طويلا وهو منه قصير
ولستُ أهلا أن أرى ناصحاً ... لقلَّة الصدق وخُبث الضمير
وإنما يحسنُ نصحَ الورى ... من ليس للشَّرْع عليه نكير
ومستحيلٌ أن يقود امرأً ... يدُ امرئٍ واهى المبانى ضرير
واعجبا يُلتمس الخير من ... مُعْتَقَل العقل مهيض كسير
لكن إذا لم يكن بُدٌّ فَعَن ... [جهد أوفِّيك بتبر][1] يسير
فالقِنه إن كنت به قانعاً ... درًّا نظماً يَزْدَرى بالنثير
لازم أبا بكر على مَنهج ... ذاك تفُزْ منه بخير كثير
واقنع بما يكفى ودع غيره ... فإنما الدنيا هباء نَثِير
بُنَىَّ لا يخدعنك[2] هذى الدُّنا ... فإنها والله شىء حقير
أين المشيدات أما زُلزلت ... أين أخو الإيوان أين السدير[3]

(١) وردت فى المخطوطين : (جهرا وفيك تبرز - تبر ر) .

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» يخدعك .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . ووردت فى المخطوطين وفى الملكية : الغدير . والأولى أرجح .

أين أنو شِروان أضْحَى كأن ... لم يكُ أين المُعتدى أزْدَشير
هذا مقالٌ من وعاه اهتدى ... وحيط من كل مَخُوف مُبير
وصَّى[1] أبو بكر به أحمدا ... وأحمدُ فى الوقت شيخ كبير
إنقرضت[2] أيامـه وانتهى ... وَهنْاً ومن قبلُ أتاه النَّذير
وهـا هو اليوم على عُـدَّة ... مُبْرِمه للشَّر وما من عذير

ومن شعره فى طريقة الذى كان ينتحله :

شهود ذاتِك[شيء عنك][3] محجوب ... لو كنت تُدْرِكه لم يبق مطلوب
علوٌ وسُفْل ومن هذا وذاك معا ... دَوْر على نقطة[4] الإشراق منصوب
ومَنْزِل النفس منه ميمٌ مذكرة[5] ... إن صح للغرض الظنىُّ مرغوب
وإن تنـاءت مساويهـا فمنزلهـا ... أوجُ الـكمال وتحت الروح تَقْليب
والروح إن لم تَخُنْه النَّفْس قام له ... فى حضرة المُلك تخصيصٌ وتقريب

ومن شعره :

دَعْنى على حُـكم الهوى أتضرَّع ... فعسى يلين لنا الحبيب ويَخْشع
إنى وجدت أخا التضرُّع فائزًا ... بمراده ومن الدُّعا مـا يُسمع
أهلا ومـا شيء بأنْفَع للفتى ... من أن يَذِلَّ عسى التذلُّل ينفع
وامْحُ اسم نفسك طالباً إثبـاته ... واقنع بتفريقٍ لعلك تجمـع
واخضع فمن دأب المحب خضوعهُ ... ولربـما نال المُنى من يَخْضع

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أضحى .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » انقضت .
(٣) وردت هاتان الكلمتان فى المخطوطين هكذا : (شرعية) . والتصويب من « ت » (الزيتونة) .
(٤) فى « ج » نطقه . وفى « ك » نطيقه .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » مركزة .

ومن شعره :

مالى بباب غير[1] بابك موقف | لا[2] ولا لى عن فنائك مَصْرف
هذا مقامى ما حَيِيتُ فإن أمُت | فالذل مأوى للضراعة مَألف
غـرضى وأنت به عليم لمحـــة | تذر الشَّتيت الشَّمل وهو مؤلّف
وعليك ليس على سواك مُعَوَّلى | جاروا علىّ لأجل [ذا أو أنصفوا][3]

ومن المقطوعات فى التجنيس :

يقال خِصـال أهل العلم ألفٌ | ومن جَمَع الخصال الألْف سادا
ويجمعها الصَّلاح فمن تَعــدّى | مذاهَبه فقد جمع الفســادا

ومنه فى المعنى :

إن شئت فوزاً بمطلوب الكرام غداً | فاسْلُك من العمل المرضىّ مِنْهاجا
واغلب هوى النفس لا تغرُرْك خادعة | فـكل شىء يحطُّ القدر منها جا

دخوله غرناطة

دخل غرناطة مراراً عدة تشذُ عن الحصر ، أوجبتها الدَّواعى بطول عمره ، من طلب العلم وروايته ، وحاجة عامة ، واستدعاء سلطان ، وقدوم من سفارة . كان الناس يَنْسالون[4] عليه ويغشون منزله ، فيما أدركت ، كلما تبوّأ ضيافة السلطان ، تبرُّكا به ، وأخذاً عنه .

مولده

ولد ببَلّش بلده فى حدود تسع وأربعين وستمائة

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » غيرك . وهو تحريف .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية . وفى « ك » كلا .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : ذاك وأنصف .

(٤) فى « الملكية » يتسللون .

وفاته

توفى ببلِّش سَحَر[١] يوم الأربعاء السابع عشر من شوال عام ثمانية وعشرين وسبعمائة . وممن رثاه شيخنا ، نسيج وحده ، العالم الصالح الفاضل ، أبو الحسن بن الجيَّاب بقصيدة أولها :

على مثله خضابة الدهر فاجع تفيض نفوسٌ لا تفيض المدامع

ورثاه شيخنا القاضى أبو بكر بن شِبْرين رحمه الله ، بقصيدة أولها :

أيساعد رائده الأمــل أم يُسْمع ســائله الطلل
يا صاح فَديتُك ما فَعَلتَ ذا من الأحباب وما فعلوا[٢]
فأجاب الدمعُ منــاديَه أمَّا الأحباب فقد رحلوا[٣]

ورثاه من هذه البلدة طائفة ، منهم الشيخ الأديب أبو محمد بن المرابع الآتى اسمه فى العيادة له ، بحول الله ، بقصيدة أولها :

أدعوك ذا جزع لو انَّك سامع ماذا أقول ودمع عينى هامع

وأنشد خامس يوم دفنه قصيدة أولها :

عَبْرة تفيض حزناً وثُــكلا وشجونٌ تعم بعضاً وكُلَّا
ليس إلا صُبابة أضرمتهــا حسرةٌ تبعث الأسى ليس إلاّ

وهى حسنة طويلة .

إبراهيم بن محمد بن مُفرِّج بن هَمُشك

المتأمِّر ، رومى[٣] الأصل .

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » منحر .
(٢) فى المخطوطين : فعل . رحل .
(٣) يقصد برومى الأصل هنا ، قشتالى أو إسبانى .

أوّليته

مُفَرج أو هَمُشك(١)، من أجداده ، نصرانى أسلم على يدى أحد ملوك بنى هود بسَرَقُسْطة ؛ نزح إليهم ، وكان مقطوع إحدى الأُذنين ، فكان النصارى إذا رأوه فى القتال عرفوه ، وقالوا هامُشك ، معناه ترى المقطوع الأذن ، إذ « ها » عندهم قريب مما هى فى اللغة العربية ، و « المُشك » المقطوع الأذنين فى لغتهم(٢) .

نباهتُه وظهوره

ولما خرج بنو هود عن سرقسطة ، نشأ تحت خمول ، إلا أنه شهم متحرك ، خدم بعض الموحِّدين فى الصَّيد ، وتوسل بدلالة الأرض ؛ ثم نزع إلى ملك قَشْتالة واستقر مع النصارى ؛ ثم انصرف إلى بقيّة اللَّمتونيين(٣) بالأندلس بعد شفاعة وإظهار توبة . ولما وُلّى يحيى بن غانِيَة قرطبة ، إرتسم لديه برسمه . ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين [وثار](٤) ابن حَمْدِين(٥) بقرطبة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، فبعثه رسولا ثقة بكفايته ودربته وعُجْمة لسانه ، لمحاولة الصلح بينه وبين ابن حَمْدِين ، فأغنى ونَبُه قدرُه ؛ ثم غلى مِرجل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس ،

---

(١) ترسم بالإسبانية Hamusco ومن ثم كان ضبطها على هذا النحو .

(٢) وأصلها بالقشتالية He mochico ومعناها ها هو المقطوع أو المصاب . وأما مقطوع الأذن فهى بالقشتالية El desorejado .

(٣) أى المرابطين ، وهم كما رأينا ينتسبون إلى قبيلة لمتونة .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ج » والملكية . وساقطة فى « ك » .

(٥) ورد اسمه فى « ج » (ابن أحمدين) . وفى « ك » (ابن أحمد) وكلاهما تحريف . وصوابه (ابن حمدين) . وابن حمدين هذا هو القاضى أبو جعفر بن حمدين بن محمد بن على بن حمدين . ثار بقرطبة فى رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، واستبد بحكمها ، وتلقب باسم المنصور بالله ، وحكمها فى البداية نحو أسبوعين ، ثم انتزعها منه سيف الدولة بن هود لأيام قلائل وعاد ابن حمدين إلى رياسته واستمر فى رياسة قرطبة زهاء عشرة أشهر ، ثم انتزعها منه ابن غانية زعيم المرابطين بالأندلس ، وفر ابن حمدين ناجياً بنفسه . راجع الحلة السيراء لابن الأبار (دوزى) ص ٢٢٥ و ٢٢٨ . (والقاهرة) ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٥ وعصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس لمحمد عبد الله عنان ج ١ ص ٣١٢ — ٣١٤ .

فاتصل بالأمير ابن عِياض بالشرق وغيره ، إلى أن تمكن له الامتزاز[١] بحصن شَقُوبش ، ثم تغلب على مدينه شَقُورة[٢] وتملكها وهى ماهى من النِّعمة ، فغلُظ أمره ، وساوى محمد بن مَرْدنيش[٣] أمير الشرق وداخله ، حتى عقد معه صِهراً على ابنته ، فاتصلت له الرياسة والإمارة . وكان يُعد سيفاً لصهره المذكور ، مُسلَّطاً على من عصاه ، فقاد الجيوش ، وافتتح البلاد إلى أن فسَد مابينهما ، فتفاتنا وتقاطعا ، وانحاز بمالديه من البلاد والمعاقِل ، وعُدَّ من ثوار الأندلس أولى الشوكة الحادَّة ، والبأس الشديد ، والشَّبا المرهوب . وآثاره بعد انقِباض دولته تشهد بما تأثَّل من مُلْك وسَلَف من الدولة ؛ والدَّار الآخرة خير لمن اتقّى . قال ابن صفوان :

ودِيار شكوى الزمان فَتَشْكُ[٤] حدَّثتنا عن عزَّة ابن هَمُشك

حـاله

قال محمد بن أيوب بن غالب ، المدعو بابن حمامة : أبو إسحاق الرئيس ، شجاع بُهْمَة من البُهَم[٥] . كان رئيساً شجاعاً مقداماً شديد الحزم ، سديد الرأى ، عارفاً بتدبير الحرب ، حمِىَّ الأنف ، عظيم السَّطوة ، مشهور الإقدام [مُرتكباً للعظيمة][٦] . قال بعض من عرف به من المؤرخين ؛ وهو وإن كان قائد فرسان ، هو حليفُ فتنه وعُدْوان ، ولم يصحب قط متشرِّعاً ، ولا نشأ فى أصحابه من كان متورِّعاً ، مسلَّطه الله على الخلق ، وأملى له فأضر بمن جاوره من أهل البلاد ، وحُبب إليه العيث فى العباد .

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . والإمتزاز أى الامتناع .

(٢) سبق التعريف بمدينة شقوره Segura de Sierra (أنظر الحاشية فى ص ١٧٣) .

(٣) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٢١٨) .

(٤) وردت فى المخطوطين : فتشبك .

(٥) تطلق على الشجاع الذى يستبهم على أقرانه مأتاه . والبهمة هى الصخرة الصامتة .

(٦) وردت فى « ك » ، مرتكب العظمة . ولكنها وردت محرفة فى « ج » (مرتبكاً للطيمة) .

سيرته

كان جباراً قاسياً ، فظا غليظاً ، شديد النَّكال ، عظيم الجرأة والعبث بالخلق ؛ بلغ من عيثه[1] فيهم ، إحراقُهم بالنّار ، وقذفُهم من الشواهق والأبراج ، وإخراج الأعصاب والرِّباطات عن ظهورهم ، عن أوتار القِسِيّ بزعمه ، وضمٌّ أغصان الشجر العادى بعضها إلى بعض ، وربط الإنسان بينها[2] ، ثم تسريحها ، حتى يذهب كل غصن بحظِّه من الأعضاء ؛ ورآه بعض الصالحين فى النوم بعد موته ، وسأله مافعل الله بك فأنشده :

من سرَّه العيشُ فى الدنيا بِخلقَة من ... يصور الخَلق فى الأرحام كيف يشا
فليصْبِرِ اليوم صبرى تحت بَطْشَتَه ... مغلَّلا[3] يمتطى جَمْرَ الغضا فَرْشا

شجاعته

زعموا أنه خرج من المواضع التى كانت لنصره مُتَصَيِّداً ، وفى صحبته محاولو اللهو[4] وقارعو أوتار الغِناء[5] ، فى مائة من الفرسان ، ونقاوة أصحابه ؛ فما راعهم إلا خيل العدو هاجمة على غِرَّة ، فى مائتى[6] فارس ضِعْف عددهم ؛ فقالوا العدو فى مائتى فارس ، فقال وإذا كنتم[7] أنتم لمائة ، وأنا لمائة ، فنحن قدرهم ؛ فعدّ نفسه بمائة . ثم استدعى قَدَحاً من شرابه ، وصرف وجهه إلى المُغَنِّى ؛ وقال أعد[8] لى تلك الأبيات ، كان يغنيه بها فتعجبه :

---

(١) وردت فى «ج» ، عبثه . وفى «ك» غشه .
(٢) فى «ج» بينهما .
(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» مغلا .
(٤) هكذا فى الملكية ، وفى «ج» الهوى .
(٥) وردت فى المخطوطين وفى الملكية ، أوتار غنى :
(٦) وردت فى المخطوطين والملكية : مائتين . وهو تحريف .
(٧) وردت فى المخطوطين : كان . والتصويب لازم للسياق .
(٨) وردت فى المخطوطين : عد .

يتلقى النَّدا بوجهٍ حَيِّ وصدورَ القَنا بوجه وَقاح
هكذا هكذا تكون المعالى طرُق الجِدِّ غيرُ طرق المزاح

فغَنَّاه بها ، واستقبل العدوَّ ، وحمل عليه بنفسه وأصحابه ، حملة رجل واحد ، فاستولت على العدو الهزيمة ، وأتى على معظمهم القتل ، ورجع غانماً إلى بلده . ثم ضربت الأيام ، وعاود التصيُّد فى موضعه ذلك ، وأطلق بازَه على حَجَلة ، فأخذها ، وذهب ليذكيها ، فلم يحضره خنجرُ ذلك الغرض فى الوقت ، فبينما هو يلتمِسُه ، إذ رأى نصلاً من نِصال المُعْتَرك من بقايا يوم الهزيمة ، فأخذه من التراب ، وذبح به الطائر ، ونزل واستدعى الشراب ، وأمر المغنى فغَنَّاه بيتى أبى الطيب :

تذكرت ما بين العُذَيْبِ وبارقٍ مجَرَّ عَوَالينا ومجُرى السوابق
وصحبةَ قوم يذبحون قنيصهم بفَضلات ماقد كسَّروا فى المَفارق

وقد رأيت من يروى هذه الحكاية عن أحد أمراء بنى مَرْدَنيش ، وعلى كل حال فهى [من][1] مُسْتَظرف الأخبار .

دخوله غرناطة

قالوا ، وفى سنة ست وخمسين وخمسمائة ، فى جمادى الأولى منها ، قصد إبراهيم ابن هَمُشْك بجمعه مدينة غَرْناطة ، وداخل طائفة من ناسها ، وقد تشاغل الموحِّدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم بالمغرب ، وتوجُّه الوالى بغرناطة السيد [أبى][2] سعيد إلى العُدْوة ، فاقتحمها ليلاً واعتصم الموحدون بقَصَبتها ، فأجاز بهم[3] بأنواع الحرب ، ونصب عليهم المجانيق ، ورمى فيها من ظَفِر به منهم وقتلهم بأنواع من القتل . وعند ما اتصل الخبر بالسيد أبى سعيد ، بادر إليها فأجاز البحر ، والتف[4]

(١) زيادة يقتضيها السياق . وهى ساقطة فى المخطوطين .
(٢) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : أبو . وهو تحريف يقتضى التصويب .
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية ، لهم .
(٤) هكذا وردت هذه الكلمة فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك » .

به السيد أبو محمد [بن][1] أبي حفص بجميع جيوش الموحدين والأندلس ؛ ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة ، وأصحر إليهم ابن هَمُشْك ، وبرز منها ، فالتقى الفريقان « بمرج الرُّقاد »[2] من خارجها ، ودارت الحرب بينهم ، فانهزم جيش الموحدين ، واعترضت الفلَّ تخومُ الفدادين[3] وجداول المياه التى تتخلل المَرْج[4] ، فاستولى عليهم القتل ، وقتل فى الوقيعة السيد أبو محمد ؛ ولحق السيد أبو سعيد بمالقة ؛ وعاد ابن هَمُشْك إلى غرناطة فدخلها بجُملة من أسرى القوم ، أفحش فيهم المُثْلة ، بمرأى من إخوانهم المَحْصورين ؛ واتصل الخبر بالخليفة بمراكش ، وهو بمُقْرَبة[5] سَلاَ ، قد فرغ من أمر عدوِّه[6] ، فجهز جيشاً ، أصحبه السيد أبا يعقوب ولده ، والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته ، وداهية زمانه ؛ فأجازوا البحر ، والتقوا[7] بالسيد أبي سعيد بمالَقَة ، وتتابع الجَمْع ، والتفَّ بهم من أهل[8] الجهاد من المطوعة ، واتصل منهم السير إلى قرية دِلَر[9] من قرى غرناطة ؛ وكان من استمرار الهزيمة على ابن هَمُشْك الذى أمده بنفسه[10] وجيشه ، من نصارى وغيرهم ، ما يأتى ذكره عند اسم ابن مَرْدَنيش فى الموحدين ، فى حرف الميم بحول الله تعالى .

---

(١) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » .

(٢) كان هذا الاسم يطلق على موضع بظاهر غرناطة على بعد بضعة كيلو مترات من قرية الطرف Atarfe فى سفح جبل إلبيرة Sierra de Elvira على مقربة من نهر شنيل . ومقابلها الحديث هو Majorrocal أو Merrojal (S. de Lucena Al - Andalus 1944, p. 505)

(٣) أى الحدائق والبقاع .

(٤) هو مرج غرناطة الشهير La Vega . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٩٩)

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بقربة . وفى الملكية (وهو بقربة من) .

(٦) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » عوده .

(٧) وردت فى المخطوطين : وتلقوا . وهو تحريف اقتضى التصويب .

(٨) أثبتها « ك » ، واغفلها « ج » .

(٩) هكذا ورد اسمها صحيحاً فى « ج » . وفى « ك » دلن ، وهو تحريف . وقرية دلر ما تزال تقوم حتى اليوم . وتقع فى جنوبى غرناطة على مقربة من قرية « البذول » وهى بالإسبانية Dilar

(١٠) هكذا فى الملكية . وفى « ج » أمره بنفسه . وفى « ك » أمره لنفسه .

إنخلاعه للموحدين عما بيده
وجوازه للعدوة ، ووفاته بها

قالوا ، ولما فسد ما بينه وبين ابن مردنيش بسبب بنته التى كانت تحت الأمير أبى محمد بن سعد بن مردنيش إلى أن طلقها ، وانصرفت إلى أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، مختارة كنف أبيها إبراهيم ، نازعة فى انصرامه إلى عروقها ؛ فلقد حكى أنها سئلت عن ولدها ، وإمكان صبرها عنه ، فقالت : جَرْوُ كلبٍ ، جرو سوءٍ ، من كلب سوءٍ ، لا حاجة لى به ؛ فأرسلت كلمتها فى نساء الأندلس مثلاً ؛ فاشتدت بينهما الوحشة والفتنة ، وعظمت المحنة ، وهلك بينهما من الرعايا المَمْرورين ، المضطرين ، بقنّينة[1] الثوار ممن شاء الله بهلاكه ، إلى أن كان أقوى الأسباب فى تدمير[2] ملكه .

ولما صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده ، وتغلب على كثير منها ، خدم ابن همشك الموحدين [ولاذ بهم][3] واستجارهم ؛ فأجاز البحر ، فقدم على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة ، وأقره بمواضعه ؛ إلى أوائل عام أحد وسبعين ، فطولب بالانصراف إلى العُدْوة بأهله وولده ، وأُسكن مِكْناسة وأُقطع بها سآماً[4] لها خطر ، واتصلت تحت عنايته إلى أن هلك

وفاته

قالوا ، واستمر[5] مُقام ابن همشك بمكناسة غير كبير ، وابتلاه الله بفالج

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وقنينة أعنى حظيرة .
(٢) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : تدبير . وواضح أنه تحريف لكلمة تدمير وهو ما يؤيده سياق الكلام .
(٣) وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية ، وأغفلها « ك » .
(٤) هكذا فى المخطوطين والملكية ، والسوام والسائمة أى الإبل الراعية .
(٥) وردت فى المخطوطين : واستمرت وهو تحريف .

غريب الأعراض ، شديد سوء المزاج ، إلى أن هلك ، فكان يدخل الحمّام الحار ، فيشكو حرّه بأعلى صراخه ، فيخرج ، فيشكو البرد كذلك ، إلى أن مضى سبيله .

إبراهيم بن أمير المسلمين أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى سعيد عثمان بن أمير المسلمين[1] أبى يوسف يعقوب بن عبد الحقّ

يكنى أبا سالم .

أوليتــــه

الشمس تخبر[2] عن حِلًى[3] ، وعن حُلَلٍ . فهو البيت الشهير ، والجلال الخطير ، والمُلْكُ الكبير ، والفَلَكُ الأثير ، ملاك المسلمين ، وحماة الدين ، وأمراء المغرب الأقصى من بنى مَرين[4] ، غيوث المواهب ، وليوث العرين[5] ، ومعتَمد الصَّريخ ، وسهام الكافرين . أبوه السلطان أبو الحسن ، الملك الكبير ، البعيد[6] شأو الصيت والهمة والعزيمة ، والتحلّى بحُلَى السُّنة ، والإقامة لرسوم المُلْك ، والاضطلاع بالمهمّة ، والصبر عند الشدة . وأخوه أمير المسلمين ، فذلكةُ الحَسَب ،

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ، أمير المؤمنين . وهو سهو .

(٢) فى المخطوطين : تنكر . وفى الملكية يمكن . والتصويب من « ت » . (الزيتونة)

(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية « حال .

(٤) بنو مرين هم بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية الشهيرة ، وكانوا فى بداية أمرهم من القبائل البدوية المتنقلة . وفى أوائل القرن السابع الهجرى ساروا نحو المغرب الأقصى ، ونفذوا إلى أراضى الموحدين . وكانت دولة الموحدين تجوز دور انحلالها . وبدأت المعارك بينهم وبين الموحدين فظهروا عليهم تباعاً واستولوا على فاس سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . ثم استولوا على مراكش سنة ٦٦٩هـ (١٢٦٩ م) وانتهت بذلك دولة الموحدين . وقامت مكانهم دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى من ذلك الحين . واشتد بأسها وسطع نجمها . وظهر فيها ملوك عظام مثل أبى يوسف يعقوب منشىء دولتهم ، وأبى الحسن على بن عثمان ، وولده أبى عنان فارس . ثم أبى سالم إبراهيم ، (وهو المترجم هنا).وقد لبثت دولة بنى مرين دهراً عضداً لمملكة غرناطة بالأندلس . وقد عبروا البحر مراراً وتكراراً لغوثها وإنجادها

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الغر . والأولى أرجح وأصلح للسياق .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » المتد .

ونير النُّصبة ، وبَدْرَة المعدن ، وبيت القصيد ، أبو عنان ، فارس ؛ الملكُ الكبير ، العالم المُتَحَبرٌ ، العامل النظّار ، الجواد ، الشجاع ، القَسْوَر ، الفصيح ، مدد السعادة ، الذى خرق الله [به][1] سياج العادة ؛ فما عسى أن يطلُبَ اللسان ، وأين تقع العبارة ، وماذا يحصُرُ الوصف . عينُ هذا المجد فوّارة ، وحَسْبُ هذا الحَسَب اشتهاره ، قولا بالحق ، وبعداً عن الإطراء ، ونشراً للواء النَّصَفة ، حفظ الله [على][2] الإسلام ظُلهم ، وزيَّن ببدور الدين والدنيا هالتهم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم .

حاله

كان شابا[3] كما تَطلّع وَجْهه ، حسن الهيئة . ظاهر الحياء والوقار ، قليل الكلام ، صليفة عن اللفظ ، آدَمَ اللون[4] ، ظاهر السكون والحَيْرية والحشمة ، فاضلاً ، متخلقاً ؛ قدّمه أبوه ، أمير الرتبة ، موفَّى الألقاب ، بوطن سِجِلْماسَة ، وهى عمالة ملكهم[5] ، فاستحق الرتبة فى هذا الباب بمزيد هذه الرتبة المشترط لأول تأليفه . ولما قبضه الله إليه ، واختار له ما عنده ؛ أحوج ما كانت الحال إلى من ينظم الشّت ، ويجمع الكلمة ، ويصون الدّما سبحانه[6] أحوج ما كانت الدنيا إليه ، وصير [إلى وارثه طواعية][7] وقسراً ومستحقًا وغِلاباً ، وسَلْماً ، وذاتاً وكَسْباً ،

(١) زيادة يستلزمها السياق .

(٢) أثبتها « ك » . وأغفلها « ج » .

(٣) فى المخطوطين : شبا .

(٤) أعنى أسمر اللون .

(٥) هكذا وردت فى « ت » وفى الملكية . وفى المخطوطين ملك . والأولى أرجح .

(٦) وردت فقط فى « ج » . ومكانها بياض فى « ك » .

(٧) وردت هذه العبارة محرفة فى « ج » (إلى وازنه طوعية) . ومكانها بياض فى « ك » . والتصويب من « ت » (الزيتونة) .

السلطان اخيه ، تحصل هو [وأخ له](١) أسمه محمد ، وكنيته أبو الفضل ، يأتى التعريف بحاله فى مكانه إن شاء الله ؛ فأبق(٢) ، وأغضى ، واجتنب الهوى ، وأجاب داعى البر والشفقة والتقوى ، فصرفهما إلى الأندلس ؛ باشرتُ إركابها البحر بمدينة سلاَ ثانى اليوم الذى انصرفت من بابه ؛ وصدرتُ عن بحر جوده ، وأفَضْتُ بإمامة عنايته ، مُصْحباً بما يعرض(٣) لسان الثناء من صنوف كرامته ، فى غرض السِّفارة عن السلطان بالأندلس ، تغمده الله برحمته ؛ ونزل مَرْبَلّة(٤) من بلاد الأندلس المصروفة إلى نظره ، واصلاً السير إلى غرناطة .

دخولُه غَرْناطة

قدم هو وأخوه عليها ، يوم عشرين من جمادى الأولى ، من عام اثنين وخمسين وسبعمائة . وبرز السلطان إلى لقائهما ، إبلاغا فى التَّجلة ، وانحطاطاً فى ذِمة(٥) التَّخلق ؛ فسعياً إليه مُرْتَجلين ، وفاوضهما(٦) ، حتى قُضِيت الحقوق ، واستَفْرَجت(٧) تفقدَه وجرايتَه ، وحلاّ بأحظى الأمكنة ، واحْتَفَيا(٨) فى سرير مجلسه مقسومٌ بينهما الحظ ، من هشَّتِه ولَحْظَته ؛ فأما محمد فسوّلت له نفسه الأطماع ، واستفزَّته الأهواء ، أمراً كان قاطع أجله ؛ وسَعْد أخيه اختاره الله من

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » أخوه .
(٢) وردت فى المخطوطين : فانى . والتصويب من « ت » .
(٣) هكذا وردت فى « ج » و « ت » والملكية . وفى « ك » يخرس .
(٤) ورد اسم هذا المكان محرفاً فى المخطوطات الأربعة : فى « ك » جربله . و« ج » جذبلة . و « ت » والملكية جرية . والمرجح المقصود ، هو مربلة ، وهى من ثغور الأندلس الجازبية . وقد سبق التصريف بها (الحاشية فى ص ١٩٧) وكانت وقتئذ من الثغور الأندلسية التى بيد بنى مرين .
(٥) هكذاوردت فى « ج » والملكية . وفى « ت » محرفة نعة . ووردت فى « ك » دست .
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قارضهما .
(٧) فى « ج » واستقرحت . وفى « ك » استقرج . والتصويب من « ت » والملكية .
(٨) فى « ت » ، واختفيا وكذا فى « ج » . وفى المخطوطين : اختفى .

دونه . وأما إبراهيم المترجم به ، فجنَح إلى أهل[1] العافية ، بعد أن ناله اعتقال ، بسبب إرضاء أخيه أمير المسلمين فارس ، فى الأُخريات لشهر ذى حجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة ، وتقديم ولده الصبىّ ، المُـكنى بأبى بكر ، المسمى بسعيد ، لنظر وزيره فى الحزم والكفاية ، حرّكه الاستدعاء ، وأقْلَقَتْه[2] الأطماع وهبّ به السائل[3] . وعرّض بغرضه إلى صاحب [الأمر][4] بالأندلس ، ووفق عن صُبوحه ، فشكا إلى غير مُصْمت ، فخرج من الحضرة ليلا من بعض مجارى المياه ، راكباً للخطر ، فى أخريات جمادى الأولى من العام بالحضرة المكتنبة الجوار ، من ثغور العدو ، ولَحِق بملك قشتالة ، وهو يومئذ بإشْبيلية ، قد شرع فى تجْرِيةٍ إلى عدوّه من بَرْجلونه[5] ، فطرح عليه نفسه ، وعرض عليه مخاطبات استدعائه ، ودسّ له المطامع المرتبطة بحصول غايته ، فقبل سعايته ، وجهز له جَفْناً من أساطيله ، أُركب فيه ، فى طائفة تحْرِيكه ، وطَمَن بحر المغرب إلى ساحل أزمور[6] ، وأقام به منتظراً إلى إنجاز المواعد ، ممن بمرّاكش ، فألفى [الناس][7] قد حَطَبوا فى حَبْل منصور بن سليمان ، وبايعوه بجملتهم ، فأخفق مسعاه ، وأُخلف ظنه ، وقد أخذ منصور بمُخَنَّق البلد الجديد دار مُلْك فاس[8] ، واستوثق له الأمر ،

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة . (أصل) وقد رجحنا هذا التصويب لأنه أنسب السياق .

(٢) وردت محرفه فى المخطوطين : قلقه . وفى « ت » وقلمت .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية الرسائل . والأولى أرجح .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ج » و « ت » ، وساقطة فى « ك » .

(٥) وردت محرفة فى المخطوطات الثلاثة : فى « ج » و« ك » والملكية ، رحلونه . وفى « ت » رجوله . والصواب (برجلونه) أو برشلونة ، وهى يومئذ عاصمة مملكة أراجون .

(٦) أزمور أو أزمورة من ثغور المغرب الأقصى الغربية ، وتقع شمالا على المحيط بعد رباط الفتح شمالى مراكش .

(٧) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٨) وردت فى « ج » دار ملك فارس ، وهو تحريف ، والمقصود فاس . والبلد الجديد ضاحيتها الملكية ، وكانت مقر ملك بنى مرين .

فانصرف الجَفْنُ أدراجه . ولما حاذى لبلاد غُمارة من أحواز أصِيلاَ[١] ، تنادوا به[٢] قومٌ منهم ، وانحدروا إليه ، ووعدوه الوفاء له ، فنزل إليهم ، واحتملوه فوق أكْتادهم ، وأحدقوا[٣] به فى سفح[٤] جبلهم ، وتنافسوا فى الذّب عنه ، ثم كبَسُوا[٥] أصِيلاً فملكوها [وضُيِّق بطنجة][٦] ، فدخلت فى أمره ، واقتدت بها سَبْتة ؛ وجبل الفتح ، واتصل به بعض الخاصة ، وخاطبة الوزير المحصور ، وتخاذَل أشياع منصور ، فخذلوه[٧] ، وفروا عنه جهاراً ، بغير علّة ، وانصرفت الوجوه إلى السلطان أبى سالم ، فأخذ بيعاتهم عَفْوا[٨] ، ودخل البلد المحصور ، وقد تردد بينه وبين الوزير المحصور ، مخاطبات فى رد الدعوة إليه ؛ فدخل البلد يوم الخميس خامس عشرة شعبان من عام التاريخ ؛ واستقر[٩] وجدّد الله عليه أمره ، وأعاد ملكه ، وصرف عليه حقّه ؛ وبلى[١٠] هذا الأمير من سير الناس إلى تجديد عهد أبيه ، وطاعتهم إلى أمره ، وجنوحهم إلى طاعته ؛ وتمـنّي مدته ؛ حال[١١] غريبة ، صارت عن كَثَب إلى أضدادها ، فصرف ولده إلى اجتثاث شجرة أبيه ، فالتقط من الصِّبية بين مُراهق ومُحتلم ومُسْتجمع ، طائفة تناهز العشرين ؛ غلماناً

---

(١) هى من ثغور المغرب الأقصى الغربية . وتقع على المحيط جنوبى طنجة .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» تنادر . والأصوب أن يكون الفعل بالمفرد . ولكنه يرد قبل الفاعل بالجمع فى أحيان كثيرة . وهذه خاصة فى بعض الأساليب الأندلسية المتأخرة .

(٣) وردت فى المخطوطين : وأحزنوا . والتصويب من «ت» .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» سطح .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : كسبوا . وهو تحريف ظاهر .

(٦) وردت فى المخطوطين : (وصينوا لطنجة) وهو تحريف . والتصويب من «ت»

(٧) هكذا فى «ج» و «ت» . وفى «ك» (فغدروه) والمعنى واحد .

(٨) هكذا وردت فى «ج» و «ت» . وفى «ك» عنوا .

(٩) هكذا فى المخطوطين : وفى «ت» واستنقذ .

(١٠) هكذا فى المخطوطين وفى «ت» وأخذ .

رَدَنَة ، قُتلوا إغرافاً من غير شُفْعَة(١) توجب إباحة قطرة من دمائهم ، ورأى أن قد [خلا له الجو](٢) ، فتوا كل ، وآثر الحجْبَة ، وأشرك الأيدى فى مُلْكه ؛ فاستبيحت أموال الرعايا ، وضاقت(٣) الجبايات ، [وكثرت الظلامات](٤) ، وأخذ الناس حرمانُ العطاء ، وانفتحت أبواب الإرجاف ، وحُدت [أبواب](٥) القواطع ، إلى أن كان من أمره ما هو معروف .

وفى أول من شهر رجب عام واحد وستين وسبعمائة ، تحرّك الحركة العظمى إلى تِلمِسْان . وقد استدعى الجهات ، وبعض البلاد ، ونهَدَ فى جيوش تجرُّ الشوك والحَجَر ، ففر سلطانها أمام عزمه(٦) ، وطار الذُّعر بين يدى الضّلالة ؛ وكنا قد استغثنا القرار فى إيالته(٧) ، وانتهى بنا الإزعاج إلى ساحل سَلاَ من ساحل مملكته ؛ فخاطَبْتُه وأنا يومئذٍ مقيم بتُربة أبيه ، مُتذمِّمٌ بها ، فى سبيل استخلاص أملاكى بالأندلس ، فى غرض التهنئة والتوسُّل :

« مولاى ، فتّاحُ الأقطار والأمْصار ، فائدة الزمان والأعْصار ، أثيرُ هِبات الله الآمنة من الاعْتِصار ، قدوةُ أولى الأيدْى والأبصار » .

وفاته

وفى ليلة العشرين من شهر ذى قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة ، ثار عليه

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » شفقة . والأولى أنسب للسياق .
(٢) وردت محرفة فى المخطوطين هكذا : (حلا له الحق) .
(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ج » ، وضويقت . وفى « ك » وصربقت .
(٤) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (وكثر الظلمات)
(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » . وواردة فى الآخرين .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » العزم .
(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » أظلته .

بدار الملك ، وبلد الإمارة المعروف [بالبلد الجديد][1] ، من مدينة فاس ، الغادِرُ[2] مُخلِفُهُ عليها عمر بن عبد الله بن على ، نَسَمَةُ السوء ، وجُمْلة الشؤم ، المثل البعيد فى الجرأة على قَدَر ، اهتبل[3] غرة انتقاله ، إلى القصر السلطانى ، بالبلد القديم ، مُحْتولا إليه ، حَذِراً من قاطع فلكىّ [الجدر منه][4] استعجله ضعفُ نفسه ، وأعانه على فرض محنته به ، وسدَّ الباب فى وجهه ، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه ؛ وأصبح حائراً بنفسه ، يروم استرجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد ، يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلته[5] ، فأعياه ذلك ، ورَشَقت مَنْ معه السهام ، وفرّت عنه الأجناد والوجوه ، وأسْلَمه الدهر ، وتبرأ منه الجدُّ ؛ وعندما جنّ عليه الليل ، فرّ على وجهه ، وقد التفت عليه الوزراء ، وقد سُفِّهت أحلامهم ، وفالت آراءهم ؛ ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة ، لولّوا وجوههم شطر مظَنَّة الخلاص ، واتصفوا بعذار الإقلاع[6] ؛ لكنهم نكلوا عنه ، ورجعوا أدراجهم ، وتسللوا راجعين إلى برّ غادرٍ[7] الجُمْلة ، وقد سلبهم الله لباس الحياء والرُّجلة[8] ، وتأذّن الله لهم بسوء العاقبة ؛ وقصد بعضَ بيوت البادية ، وقد فضحه نهار الغداة[9] ،

(١) وردت هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : «البلد القديم الجديد » وعلى كلمة القديم علامة تدل على الشك . والصواب ما أثبتناه .

(٢) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : العاد : وفى « ت » : المعادى . وفى الملكية« الغادى» والتصويب أرجح للسياق .

(٣) أى احتال واغتنم .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين والملكية . وفى « ت » (الجد رقية) . هو حذره من نبوءة على حظه .

(٥) هكذا فى « ت » : وفى المخطوطين : حليه .

(٦) هكذا فى الملكية . وفى « ج » بعذار الإبلاغ . وفى « ت » بعذر الإبلاغ

(٧) هكذا وردت فى « ج » وفى « ت » (من غادر) وفى « ك » (من عادى) . وهو تحريف .

(٨) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الرحلة) .والرجلة أى الرجولة .

(٩) هكذا وردت فى « ت » . ووردت محرفة فى المخطوطين : (العدو) .

واقتفى البعث[١] أثره ، حتى وقعوا عليه ، وسِيق إلى مصرعه ، وقُتل بظاهر البلد ، ثانى اليوم الذى كان غدر فيه ، جعلها الله له شهادة [ونفعه بها][٢] ، فلقد كان بقيّة البيت ، وآخر القوم ، دماثة وحياء ، وبُعْداً عن الشر ، ورُكوناً للعافية .

وأنشدتُ على قبره الذى ووُرِيت به جثّته بالقلعة من ظاهر المدينة ، قصيدة أدّيت فيها بعض حقه :

بنى الدنيا بنى لَمْع السَّراب ... لِدُوا للموت وابْنوا للخراب

إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص
عمر بن يحيى الهنتانى ، أبو إسحاق

أمير المؤمنين بتونس ، وبلاد إفريقية ، ابن الأمير أبى زكريا ، أمير إفريقية ، وأصل الملوك المُتأثّلين العزّ بها ، والفرع الذى دَوّح بها ، من فروع الموحّدين بالمغرب ؛ واستِجلابُه بها أبا محمد عبد المؤمن بن على ، أبا الملوك من قومه ، وتغلبُ ذريته على المغرب وإفريقية والأندلس معروف كله ، يفتقر بسطه[٣] إلى إطالة كثيرة ، تخرج عن الغرض .

وكان جدّ هؤلاء الملوك من أصحاب المهدى ، فى العشرة الذين [هبُّوا لبيعته][٤]

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » (اتبعت) . وساقطة فى « ت » والملكية .

(٢) وردت فى المخطوطين . وأغفلت فى « ت » .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : سبطه .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ج » (هبوا لبيعته) . وفى « ت » (هيوه البيعة) وفى الملكية (هبوا البيعة) .

وصَحِبوه فى غُربته ، أبو حفص ، عمر بن يحيى ، ولم يزل هو وولده[١] من بعده ، مرفوع القَدْر ، معروف الحق .

ولما صار الأمر للناصر أبى عبد الله بن المنصور ، أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن على ، صرف وجهه إلى إفريقية ، ونزل بالمَهْدِيّة ، وتلوّك[٢] إليه ابن غانية[٣] فيمن لفَّه من العرب والأوباش ، فى جيش يسوق الشجر والمَدَر ، فجهز إلى لقائه عسكراً لنظر الشيخ أبى محمد عبد الواحد[٤] بن أبى حفص ، جدهم الأقرب ، فخرج من ظاهر المهدية فى أُهْبة ضخمة ، وتَعْبِية[٥] مُحكمة ، والتقى الجمعان فكانت على ابن غانية ، الدايرة ، ونُصر الشيخ محمد نصراً لا كفاء له ، وفى ذلك يقول أحمد بن خالد من شِعْر عندهم :

فتوحٌ بها شُدَّت عرى الملك والدين تراقب مَنّا منكم غير مَمْنُون

وفُتحت المهدية على هيئة ذلك الفتح ، وانصرف الناصر إلى تونس ، ثم تفقّد

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : ووالده . وهو تحريف ظاهر .

(٢) وردت فى المخطوطين : (وتلول) . وهو تحريف . وفى « ت » والملكية (وأتى) وهى فى حيز هذا المعنى .

(٣) هو يحيى بن إسحاق المسوفى المعروف بابن غانية الميورقى ، من أسرة بنى غانية وهم أسرة من القواد المرابطين اشتهرت بالمغرب والأندلس . وكان بنو غانية حينما انهارت دولة المرابطين فى المغرب والأندلس ، قد استولوا على الجزائر الشرقية (وكبراها ميورقة) وأقاموا بها دولة مستقلة ، ووضعوا خطتهم لمناوأة الدولة الموحدية ، وضرب سلطانها فى أفريقية أهم ولاياتها الشرقية . ونجح بنو غانية فى تنفيذ خطتهم مدى حين . واستولوا بالتحالف مع الأعراب المحليين على معظم ثغور ومدن إفريقية ومن بينها العاصمة تونس . ولبثت الدولة الموحدية ترسل لقتالهم البعوث دون جدوى . حتى كانت الحملة التى قاده الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، فاستطاع أن يسحق قوى يحيى بن غانية فى موقعتين : الأولى سنة ٦٠٢ هـ ، والثانية فى سنة ٦٠٦ هـ . وسحقت بذلك مغامرات بنى غانية فى إفريقية .

(٤) وردت فى المخطوطين (أبى محمد بن عبد الواحد) . وفى « ت » عبد المؤمن . وهو تحريف ظاهر .

(٥) وردت فى المخطوطين وكذا فى الملكية : وتبعية .

البلاد، وأحكم ثقافها[١]، وشرع فى الإياب إلى المغرب، وترجّح عنده تقديم أبى محمد بن أبى حفص المصنُوع له بإفريقية، على مُلْكها، مستظهراً منه بمضاء وسابقة وحزم؛ بسط يده فى الأموال، وجعل إليه النظر فى جميع الأمور، سنة ثلاث وستمائة. ثم كان اللقاء بينه وبين ابن غانية فى سنة ست بعدها؛ فهزم ابن غانية، واستولى على محلته؛ فاتصل سعده، وتوالى ظُهره، إلى أن هلك مشايعاً لقومه من بنى عبد المؤمن، مظاهراً بدعوتهم عام تسعة وعشرين وستمائة[٢].

وولى أمره بعده، كبيرُ ولده، عبد الله، على عهد المستنصر بالله بن الناصر من ملوكهم؛ وقد كان الشيخ أبو محمد زُوحم، عند اختلال الدولة، بالسيد أبى العلاء الكبير، عم أبى المستنصر على أن يكون له اسم الإمارة بقَصَبة تونس، والشيخ أبو محمد على ما لسائر نظره؛ فبقى ولده عبد الله على ذلك بعد، إلى أن كان ما هو أيضاً معروف من تصيُّر الأمر إلى المأمون أبى العلاء إدريس، ووَقْعِه السيْف فى وجوه الدولة بمراكش، وأخذه بتَرّة[٣] أخيه وعمه منهم. وثار أهل الأندلس على السيد أبى الربيع بعده بإشبيلية وجَعْجَعوا[٤] بهم، وأخذوا فى التشريد بهم، وتبديد دعوتهم؛ واضطربت الأمور، وكثُر الخلاف؛ ولحق الأمير أبو زكريا بأخيه بإفريقية، وعرض عليه الاستبداد. فأنِف من ذلك. وأنكره عليه إنكاراً شديداً، خاف منه على نفسه؛ فلحق بقابِس فارًّا. واستجمع بها مع شيخها مَكّى، وسلف شيوخها اليوم من بنى مكى؛ فمهّد له، وتلقاه بالرحب، وخاطب له الموحدين سرًّا، فوعدوه بذلك، عند خروج عبد الله من تونس إلى الحركة.

---

(١) ثقافها أى تحصينها. وقد وردت محرفة فى «ت» ثقاتها.

(٢) هذا سهو تاريخى وقع فيه ابن الخطيب. والحقيقة أن وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد وقعت فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م).

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك» (بترة). والترة الطفة الكثيرة الدم. والمقصود هنا الأخذ بالثأر.

(٤) هكذا وردت فى «ك»؛ وفى «ج» والملكية وجمعوا؛ والأولى أنسب للسياق.

من جهة القيْروان . فلما تحرك [نحوا عليه][١] ، وطلبوا منه المال ، وتلكأ ، فاستدعوا أخاه الأمير أبا زكريا ، فلم يَرُعه وهو قاعد فى خبائه آمِنٌ فى سربه ، إلا ثورة الجند به ، والقبض عليه ، ثم طردوه إلى مرّاكش ؛ وقعد أخوه الأمير أبو زكريا مقعده ، وأخذ بيعة الجند والخاصّة لنفسه ، مستبدًّا بأمره ، ورَحَل إلى تونس ، فأخذ بيعة العامة ، وقتل السّيد الذى كان بقَصَبَتِها ؛ وقبض أهل بجاية حين بلغهم الخبر على واليها السّيد أبى عمْران ، فقتلوه تغريقاً ؛ وانتظمت الدولة[٢] ، وتأثّل الأمر ؛ وكان حازماً داهية مشاركاً فى الطَّلب أديباً راجح العقل ، أصيل الرأى ، حسن السياسة ، مَصْنوعاً له . مُوفقاً فى تدبيره ؛ جبى[٣] الأموال ، واقتنى العُدَد ، واصطنع الرجال . واستكثر من الجيش . وهزم العرب ، وافتتح البلاد ؛ وعظُمت الأمَنَة بينه وبين الخليفة بمراكش الملقب بالسّعيد . وعزم كل منهما على ملاقاة صاحبه ، فأبى القَدَر ذلك ؛ فكان من مهلك السعيد بظاهر تِلِمْسان ماهو معروف ؛ واتصل بأبى زكريا هَلاكُ ولده ولى العهد أبى يحيى ببِجاية ، فعظم عليه حزنه وأفْرَط جزعُه ؛ واشتهر من رثائه فيه قوله :

ألا جازِعٌ يبكى لفَقْد حبيبه فإنى لعَمْرى قد أضرَّ بى الثُّكْلُ
لقد كان لى مالٌ وأهل فقدتُهُم فهأنا لا مالٌ لدَىّ أهل ولا أهل
سأبكى وأرثى حسْرَةً لفراقهم بكاء قريحٍ لا يَمَلّ ولا يَسْلُ
فلَهْفِى[٤] ليوم فرَّق الدهر بيننا ألا فرَجٌ يرُجى فينتظم الشَّمل
وإنى لأرضى بالقضاء وحكمه وأعلم ربى أنه حاكم[٥] عَدْل

---

(١) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » ، نحوا عنه . والأولى أنسب للسياق .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » الدعوة . والأولى أنسب للسياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : (مجبى) . والمعنى يستقيم بالتصويب .

(٤) وردت فى « ج» فلهجى . والتصويب فى الملكية .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، حكم . وبالأولى يستقيم الوزن .

نسبه(١) ابنُ عَذارى المراكشى فى البيان المُغْرِب . واعتلّ بطريقه فمات ببلد العُنَّاب لانقضاء أربعة من مهلك السعيد، وكان موت السعيد، يوم الثلاثاء، مُنْسَلخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة . وبويع ولده الأمير أبو عبد الله بتونس وسنه إحدى وعشرين سنة، فوجد مُلْكاً مُؤسساً، وجُنْداً مجنّداً، وسلطاناً قاهراً، ومالاً(٢) وافراً، فبلغ الغاية فى الجبَروت والتِّيه والنَّخوة والصَّلَف ، وتسمى بأمير المؤمنين . وتلقّب(٣) بالمستنصر بالله ، ونَقِم(٤) عليه أرباب دولته أموراً ، أوْجَبت مداخلة عمه أبى عبد الله بن عبد الواحد المعروف باللِّحيانى ، ومبايعته سرّاً بداره ، وانتهى الخبر للمستنصر ، فعاجل الأمر قبل انتشاره برأى الحَزَمة من خاصَّته ، كابن أبى الحسين ، وأبى جميل بن أبى الحَمَلات بن مَرْدَنيش ، وظافر الكبير ، وقصدوا دار عمه فكبسوها(٥) ، فقتلوا من كان بها ، وعُدَّتهم تناهز خمسين ، منهم عمه ، فسكن الإرجاف ، وسَلِم المنازع ، وأعطت مقادها(٦) ، واستمرت أيامه . وأخباره فى الجود والجُرأة ، والتَّعاظم على ملوك زمانه ، مشهورة . وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وستمائة . [وولى أمره](٧) بعده ابنه الملقب بالواثق بالله ، وكان مَضْعوفاً(٨) ، ولم تطل مدته .

عاد الحديث ، وكان عمه المُترجَم ، لما اتصل به مهلك أخيه المستنصر ، قد أجاز البحر من الأندلس ، ولحق بتِلِمْسان ، وداخل كثيراً(٩) من الموحِّدين بها ،

(١) وردت فى المخطوطين : نسب . فى الملكية نسب ذا ، وبالتصويب يستقيم الكلام نوعاً .
(٢) وردت فى المخطوطين : وآمالا .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » تقلب .
(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : ونظم . والتصويب من « ت » .
(٥) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين : (فجا مكسبوها) وهو تحريف ظاهر .
(٦) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » مقالدها . والمعنى واحد .
(٧) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » (ووامره) .
(٨) هكذا وردت فى المخطوطين . وهى كلمة يكثر المؤلف من استعمالها .
(٩) فى المخطوطين : كثير .

كأبى هلال ، فهيّأ له أبو هلال تَمَلُّك بجاية ، ثم تحرك إلى تونس، فتغلب عليها ، فقتل الواثق، وطائفة من إخوته وبنيه، منهم صبىٌّ يسمى الفضل ، وكان أنهضهم[١] ، واستبدّ بالأمر ، وتمّت بيعته بإفريقية ، وكان من الأمر مايذكر .

حاله

كان أيِّدا[٢] ، جميلا وسيما ، رَبْعَة بادنا ، آدَمَ اللون ، شجاعاً بُهْمَةً ، عَجِلاً غير مَرَاخٍ[٣] ، ولا حازم ، منحطًّا فى هوى نفسه ، مُنْقاداً للَّذة ، بريئاً من التشمّت فى جميع أمره . وولى الخلافة فى[٤] حال كِبَره ، ووخطه الشيبُ ، وآثر اللهو ، حتى زعموا أنه فُقِد [فوُجِد][٥] فى مزرعة باقلاً مزهرةٍ أُلفى فيها بعد جهد نائماً بينها، نشوان يتناثر[٦] عليه سقطُها ؛ واحتجب عن مباشرة سلطانه ؛ فزعموا أن خالصته[٧] [أبا الحسن بن سهل ، داخل الناس بولده أبى فارس][٨] فى خلعه ، والقيام مكانه ، وبلغه ذلك ، فاستعدّ وتأهّب ، واستركب الجند ، ودعا ولده ، فأحضره ينتظر الموت من يمينه وشماله ، وأمر للحين فقُتل وطرح بأزقّة المدينة ، وعجّل بإزعاج ولده إلى بجاية ، وعاد إلى حاله .

دخوله غرناطة

قالوا ، ولما أوقع الأمير المستنصر بعمّه أبى عبد الله ، كان أخوه أبو إسحاق،

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . ومكانها بياض فى « ك » .

(٢) أيداً . أعنى قوياً .

(٣) وردت فى « ج » مراحاً . وفى « ك » مرحاً . والتصويب من الملكية .

(٤) وردت فى المخطوطين بعد فى ، كلمة (كل) وهى هنا حشو لا محل له فأسقطناها . وهى ساقطة بالفعل فى الملكية .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . والإضافة . من « ت » .

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : يناثر . وهو تحريف .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » خاصة . والمقصود هنا ، صفيه وموضع ثقته .

(٨) هكذا ورد ما بين الحاصرتين فى « ت » وفى « الملكية » ووردت فى المخطوطين (أبا الحسن بن سهيل الناس داخل ولده أبا فارس) . والأولى أرجح .

ممن فرَّ بنفسه إلى الأندلس ، وَلجأ إلى أميرها أبى عبد الله بن الغالب بالله أبى عبد الله [بن][1] نصر ، ثانى ملوكهم[2] فنوّه به ، وأكرم نَزْله[3] ، وبوّأه بحال عنايته ، وجعل دار ضيافته لأول نزوله القصر المنسوب إلى السَّيد[4] خارج حضرته ، وهو آثرُ قصوره لديه ، وحضر غزوات أغزاها ببلاد الروم ، فظهر منه فى نكاية العدو وصدامه [سهولة وغناء][5] .

ولما اتصل به موت أخيه تعجّل الانصراف ، ولحق بتلمسان ، وداخل منها كبيراً من الموحدين ، يعرف بأبى هلال[6] بباجة[7] كما تقدم ، فملّكه أبو هلال منها بجاية ، ثم صعد[8] تونس فملكها ، فاستولى على مُلك ابن أخيه [وما ثَمَّ من ذمه][9] ، وارتكب الوِزْر[10] الأعظم فيمن قُتل معه ، وكان من أمره ما يأتى ذكره إن شاء الله .

إدبار أمره بهلاكه على يد الدعيِّ الذى قيَّضه الله [لهلاك حينه][11]

قالوا ، واتّهم بعد استيلائه على الأمر فتًى من أخِصَّاء[12] فتيان المستنصر ، اسمه

---

(١) ساقطة فى المخطوطات الثلاثة ويقتضيها السياق .

(٢) هذا السلطان هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الأحمر . حكم مملكة غرناطة بعد وفاة أبيه مؤسس المملكة فى سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) حتى سنة ٧٠١ ، (١٣٠٢ م) . وكان يلقب بالفقيه لعلمه وتقواه .

(٣) فى الملكية مثواه والمعنى واحد .

(٤) هو القصر الذى ماتزال بقية منه تقوم حتى اليوم خارج غرناطة . ويعرف عند الإسبان بقصر شنيل Alcazar Genil . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١١٩) .

(٥) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (وسهولة عنا) . وهو تحريف .

(٦) وردت هذه العبارة فى « الملكية » كالآتى : (وداخل منها كثيراً من الموحدين كأبى هلال بباجة) .

(٧) وردت فى «ج» (ببجاية) وهو تحريف . وباجة هى بلدة أخرى غير بجاية ، تقع غربى تونس .

(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : صمد ، وهو تحريف .

(٩) هكذا فى « ك » وفى « ت » . وفى « ج » والملكية (وما ثم من دمه) .

(١٠) وردت فى الثلاثة : الوزير ، وهو تحريف ظاهر .

(١١) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » (بهلاك حينه)

(١٢) هكذا وردت فى المخطوطين وفى « ت » (خصيات)

نُصير، بمال وذخيرة، وتوجه إليه طلبُه، ونال منه. وانتهز الفتى فرصةً لحق فيها بالمغرب واستقر [بحِلال المراعمة][١] من عرب دَبّاب، وشارع الفساد عليه، بجملة جهده، حريصاً على إفساد أمره، وعثر لقضاء الله وقدره بدَعِيّ[٢] من أهل بجاية يعرف بابن أبي عمارة.

حدثني الشيخ المُسِن الحاج أبو عثمان اللّواتي من عدول المياسين[٣]، متأخر الحياة إلى هذا العهد، قال خُضْتُ[٤] مع ابن أبي عمارة ببعض الدكاكين بتونس، وهو يتكهّن لنفسه ما آل إليه أمره، ويعد بعض ماجرى به القدر، وكان أشبه الخلق بأحد الصبية الذين ماتوا[٥] ذبحاً، بالأمير أبي إسحاق، وهو الفضل، فلاحت لنُصيرَ وجهُ حيلته[٦]، فبكى حين رآه، وأخبره بشَبَهه بمولاه، ووعده الخلافة، فحرك نَفْساً مُهيأة[٧] في عالم الغيب المحجوب إلى ما أبرزته المقادر[٨]. فوجده منقاداً لهواه؛ فأخذ في تلقينه ألقاب المُلْك. وأسماء رجاله، وعوايده، وصفة قصوره، وأطلعه على إماراتٍ جرت من المستنصر لأمراء العرب، سرًّا كان يعالجها نُصير، وعرَضَه على العرب، بعد أن أظهر العويل، ولبس الحداد، وأركبه، وسار بين يديه حافياً، حُزْناً لما ألفاه عليه من المَضيعة، وأسفاً لما جرى عليه. فبايعته العرب النَّافرة، وأشادوا بذكره، وتقوَّلوا بما قرره من إمارته، فعظُم أمره. واتصل بأبي إسحاق نبأه فبرز إليه، بعد استدعاء ولده من بِجاية، فالتقى الفريقان، وتمت على الأمير أبي إسحاق الهزيمة، واستَلْحم الكثير ممن كان معه؛ وهلك ولده،

(١) هكذا وردت في المخطوطين والملكية. وفي «ت» (بحلال المراعة)

(٢) وردت هذه الكلمة في المخطوطين: (يعمى). وفي «ت» (بد). وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، وهو اللقب الذي عرف به ابن أبي عمارة.

(٣) المرجح أن هذه الكلمة اسم موضع، ونذكر أنه يوجد بمراكش حي يسمى حي المواسين

(٤) وردت في المخطوطين: (حطت). وفي «ت» (خطت). والتصويب أرجح.

(٥) وردت في المخطوطين و«الملكية»: (توا) فقط. وهو سهو ظاهر.

(٦) هكذا وردت في و«الملكية». وفي «ج» (حيلمة) وفي «ك» (حيلة). وفي «ت» (حليته). والأولى أرجح.

(٧) وردت في المخطوطين: (ميبات) وهو تحريف.

(٨) هكذا في المخطوطين. وفي «ت» المقابر. وهو تحريف.

ولجأ أخوه الأمير أبو حفص لقلعة سِنان، وَفرَّ هو لوجهه؛ حتى لحق ببجاية؛ وعاجله ابن أبي عمارة؛ فبعث جريدة من الجند[1] لنظر أشياخ من الموحِّدين، أغرت[2] إليهم الإيقاع، فوصَلَتْ[3] إلى بجاية؛ فظن من رآه من الفُلّ المنهزم، فلم يعترضْه مُعترض عن القَصَبة. وقُبِض على الأمير أبي إسحاق، فطوَّقه الحِمام، واحتُزَّ رأسه، وبُعث إلى ابن أبي عمارة به؛ وقد دخل تونس، واستولى على مُلْكها، وأقام سنين ثلاثة، أو نحوها [في][4] نعماء لا كفاء له، واضطلع بالأمر، وعاث في بيوت أمواله، وأجْرَى العظائم على نسائه ورجاله إلى أن فشا أمره، واستقال[5] الوطن من تمرُّته[6] فيه؛ وواجع[7] أرباب الدولة بصايرهم في شأنه، ونَهَدَ[8] إليه الأمير أبوحفص طالباً بثأر أخيه، فاستولى، ودحض عاره، واستأصل شأفته، ومثل به؛ والمُلْكُ لله، الذى لا تَزِن الدنيا جَناح بعوضة عنده.

وفي هذا قلت عند ذكر أبي حفص في الرجز المسمى [بنظم][9] الملوك، المشتمل على دول الإسلام أجمع؛ على اختلافها إلى عهدنا، فمنه في ذكر بني حفص:

وَلِّهم يحيى بن عبد الواحد ... وفضلُهم ليس له من جاحد
وهو الذى استبدَّ بالأمور ... وحازها ببَيْعة الجُمهور
وعظُمت في صُقعه آثارُه ... ونال مُلْكاً عالياً مقدارُه

---

(١) وردت في «ت» الخبر. وهو تحريف واضح.
(٢) في المخطوطين: أوغرت. والتصويب من «ت».
(٣) في المخطوطين: فوصل. والتصويب من «ت».
(٤) واردة في «ت» وساقطة في «الملكية» ومكانها في المخطوطين، (سك) وهما حرفان لا معنى لها هنا.
(٥) هكذا وردت في المخطوطين. وفي «ت». استقل.
(٦) وردت في المخطوطات الثلاثة: (ثمرته). والتصويب أنسب للسياق.
(٧) هكذا في المخطوطين. وفي «ت» وراجعت.
(٨) هكذا في المخطوطين. وفي «ت» والملكية: نهض، والمؤدى واحد.
(٩) هكذا في «ت» و«الملكية». وفي المخطوطين بقطع. والمقصود هنا كتاب ابن الخطيب المسمى (رقم الحلل في نظم الدول). وقد سبقت الإشارة إلى غير مرة.

ثم تولى ابنه المستنصر وهو الذى عَلْياه لا تَنْحصر
أصاب ملكا وئيساً[1] أوطانه وافق عزًّا سامياً سُلطانه
ودولةً أموالها مجموعة وطاعةً أقوالها مسموعة
فلم تَخَفْ من عقدها انتكاثاً وعاث فى أموالها عِيَانا
هبَّت بنصر عزه الرياح وسقيت بسعده الرِّماح
حتى إذا أدركه شَرَكُ الرَّدى وانتحب النَّادى عليه والنَّدا
قام ابنه الواثق بالتَّدبير ثم مضى فى زمن يسير
سطا عليه العمُّ إبراهيم والمُلْكُ فى أربابه عقيم
وعن قريبٍ سلب الإمارة عنه الدعىّ[2] ابن أبى عمارة
عَجيبةٌ من لُعَبِ الليالى ماخَطَرت[3] لعاقل ببال
واختَرَمَ السيف أبا إسحاقا أباهلال لَقِيَ المَحَاقا
واضطربت على الدَّعى الاحوا ل والحق لايغلبه المحال
ثم أبوحفص سما عن قرب وصيَّر الدَّعى رهين[4] التُّرب
ورجع الحق إلى أهليه وبعده محمد يليه

وهذه الأمور تستدعى الإطالة ، مخلّةٌ بالغرض ، وَمَقْصِدى أن أستوفى ماأمكن من التواريخ التى لم يتضمنها ديوان : وأختصر ماليس بقريب[5] ؛ والله ولى الإعانة [بمنه][6] .

---

(١) هكذا فى «ت» ، و «ج» . وفى «ك» : رايسا .

(٢) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين : الداعى .

(٣) وردت فى المخطوطين : خاطرت .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : وهق ، وهو تحريف .

(٥) وردت فى المخطوطين : بغريب . والتصويب أنسب السياق .

(٦) وردت فقط فى «ج» .

إبراهيم بن محمد بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد ابن سهل بن مالك بن أحمد بن إبراهيم بن مالك الأزدى

يُكنى أبا إسحاق .

أوليتـــه

منزلُ جدِّهم الداخل إلى الأندلس ، قرية « شون »[١] من عمل ، أو قيل من إقليم إلبيرة . قال [ابن البستى][٢] : بيتهم فى الأَزْد ، ومجدهم مامثله مجد ، حازوا الكمال[٣] ، وانفردوا بالأصالة والجلال ، مع عفّة وصيانة ووقار ، وصلاح وديانة ، نشأ على ذلك سلفُهم ، وتبعهم الآن خلفُهم . وذكرهم مُطرِّف بن عيسى فى تاريخه[٤] ، فى رجال الأندلس ؛ وقال ابن مَسْعدة[٥] ، وقفت على عَقْد قديم لسلفى ، فيه ذُكر محمد بن إبراهيم بن مالك الأَزْدى . وقد حُلِّى فيه بالوزير الفقيه أبى أحمد بن الوزير الفقيه أبى عمرو إبراهيم . وتاريخ العقد سنة ثلاث وأربعمائة ؛ فناهيك من رجال تَحَلَّوا[٦] بالجلالة والطهارة منذ أزيد من أربعمائة سنة ؛ ويُوصفون

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٢٩) .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن البسر . والمرجح أنه ابن البستى ، وهو من أدباء الأندلس فى القرن الثالث الهجرى .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : الكلام .

(٤) مطرف بن عيسى الغسانى من أدباء غرناطة فى القرن الرابع الهجرى . وقد صنف كتاباً عن « فقهاء إلبيرة » ، وآخر عن شعرائها .

(٥) سبق أن وردت ترجمة ابن مسعدة (ص ١٦٢ – ١٦٦) . وأورد ابن الخطيب ثبت مؤلفاته (ص ١٦٤) .

(٦) وردت فى المخطوطين : تجلوا . والتصويب أرجح .

فى عقودهم بالفقه والوزارة منذ ثلاثمائة [سنة][1] فى وقت كان فيه هذا المنصِب فى تَحْلية الناس، ووصفهم، فى نهاية من الضَّبط والحِرْز[2]، بحيث لا يُتهم فيه بالتَّجاوُز لأحد، لاسيما فى العقود؛ فكانوا لايصفون فيه الشخص إلا بما هو [الحقّ فيه][3] والصدق، وما كان قصدى فى هذا إلا أن شَرَفَهم غير واقف عليه، أو مستندٌ فى الظهور إليه؛ بل ذكرهم على قديم الزمان شهير وقَدْرهم خطير.

قلت، ولما عُقد لولدى عبد الله أسْعَده الله، على بنت الوزير أبى الحسن بن الوزير أبى الحسن القاسم[4] [بن][5] الوزير أبى عبد الله بن الفقيه العالم الوزير[6]، حَزْمِ فخارهم، ومُجدِّدِ آثارهم، أبى الحسن سهل بن مالك، خاطبتُ شيخنا أبا البركات بن الحاجّ، أعرض ذلك عليه؛ فكان من نص مراجعته[7]، فسبحان الذى أرشدك لبيت السِّتر والعافية والأصالة، وشحوب[8] الأبرار، قاتلك الله ما أجلَّ اختيارك. [وخَلَفُ][9] هذا البيت الآن على سُنَن سلفهم من التحَلِّى بالوَزارة، والاقتياد من العظمة الزاكية، والاستناد القديم الكريم،

(١) واردة فى « ج ». وساقطة فى « ك ».

(٢) هكذا فى « ج ». وفى « ك »: الحوز.

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى « ت »: حق به. وفى « الملكية » أحق به. والأولى أوجح وأنسب للسياق.

(٤) وردت بعدها كلمة (الوزير) أكثر من مرة. والظاهر أنها وردت سهو إذ لا محل لها هنا ووورودها قبل الاسم ولهذا أغفلناها.

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ت ». ووردت فى « ج » إبى. وفى « ك » بن أبى. وهو اضطراب فى النسخ لا يعتد به.

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى « ت ».

(٧) وردت فى المخطوطين: فراجعته. والتصويب من « ت ».

(٨) هكذا وردت فى « ج » و « ك » وكذا فى الملكية. ووردت فى « ت » سحوب.

(٩) وردت فى المخطوطين: وخف. وفى « ت » وحق. وهو تحريف وحكه، التصويب واضحة.

واغتنام العمر بالنُّسك ؛ عناية من الله اطَّرد(١) لهم قانونها ، واتصلت عادتها والله ذو الفضل العظيم .

حـــاله

كان من أهل السرِّ والخصوصيَّة ، والصَّمت والوقار ، ذا حظ وافر من المعرفة بلسان العرب ، ذكيّ الذهن ، متوقد الخاطر ، مليح النادرة ، شَنْشَنته معروفة فيهم . سار بسيرة أبيه ، وأهل بيته ، فى الطهارة والعدالة ، والعفاف والنزاهة .

« وفاته »(٢) : ....

إبراهيم بن فرج بن عبد البر الخولانى

من أهل قرطبة ؛ يُكنى أبا إسحاق ، ويعرف بابن حُرّة(٣) .

« أوّليّتُه » ؛ من أهل البيوتات بالحضْرة ، ولى أبوه القهْرَمة(٤) ، لثانى الملوك من بنى نصر ، فتأثّل مالاً ونباهةً .

حـاله

هذا الرجل من أعْيان القطر ، ووزراء الصُّقع(٥) ، وشيوخ الحضْرة ، أغنى هذه المَدَرة يداً ، وأشغلهم بالعرض(٦) الأدنى نفساً ، تحرّف بالتَّجر المربوب فى حجر

---

(١) هكذا رسمت فى المخطوطين . والمقصود اضطرد .

(٢) ورد بعدها فى المخطوطات الأربعة بياض . ولم نهتد إلى تاريخ الوفاة المنشود .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : ابن جره . وفى الملكية : ابن جده .

(٤) هكذا وردت فى « ك » وفى « ج » : فهرمة . والمقصود بها هنا إحدى وظائف القصر السلطانى الخاصة .

(٥) وردت فى « ك » كالعادة : السقع .

(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : بالفرض . و « ت » : بالحضرة . والأولى أصلح للسياق .

الجاه ، ونما ماله : تحاط به الجدات ، وتنمو الأموال ، ففار تنورها ، وفهق حوضها ، كثير الخوض فى التصاريف الوقتية ، والأدات الزمانية ، وأثمان السلع ، وعوارض الأسعار ، متبجح[١] بما ظهرت به يده من علق مَضَنَّة[٢] هُرَى المدينة ، الذى يُنفق على أسواقها ، عند ارتفاع القيم ، وتميُّز الأسعار ، وبلوغها الحد الذى يراه كُفؤ حبَّته ، ومنتهى ثمن غلَّته ؛ غَرِقُ الفكر ، يخاطبُ الحيطان والشجر والأساطين ، محاسباً إياها على معاملات وأغراض فنيَّة ، يُرى من التلبُّس شيئاً من المعارف والآداب والصنائع ، وحجة من الحجج [فى][٣] الرِّزق ؛ تَغْلب عليه السَّذاجة والصحة ، دَمِثٌ ، متخلِّق ، متنزِّل ، مُختصر للملبس والمطعم ، كثير التبذل ، يعظُم الانتفاع به فى باب التوسعة ، بالتسلُّف[٤] والمداينة ، حسن الخُلُق[٥] ، كثير التجمُّل [مُبْتَلى بالمُوقِبِ والطَّانز][٦] : يسمع ذى القحة ، ويُصِمّ على ذوى المسألة[٧] .

ظهوره وحظوته

لبس الحُظْوة شملة ، لم يفارق طرقُها رقبته ، إذ كان صِهراً للمتغلب على الدولة أبى عبدا لله بن المحروق[٨] ، صار بسهم فى جذور خُطته ، وألقى فى مَرَقة حُظْوته .

---

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : فنجح . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى « ج » : مطنة . وفى « ك » مظنة .

(٣) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم المعنى .

(٤) هكذا رسمت فى « ج » . وفى « ك » و « ت » : بالسلف .

(٥) وردت فى المخطوطين : الحق . والتصويب من « ت » .

(٦) هذه العبارة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى « ت » والملكية . والموقب والطانز أى القادح والساخر .

(٧) هكذا وردت فى « ك » ، و « ت » . وفى « ج » المتبلة وهو تحريف .

(٨) وردت فى « ت » محرفة : ابن محروق . وصحته ابن المحروق . وهو وزير محمد بن الأحمر الثالث . وقد توفى قتيلا فى سنة ٧٢٨ هـ .

مشتملا على حاله ، بعباءة[١] جاهه ، ثم صاهر المصيَّر الأمر إليه بعده القائد الحاجب أبا النعيم رضوان ، مولى الدولة النصرية ، وهلم جرا ، بعد أن استُعمل فى السِّفارة إلى العُدْوة وقَشْتالة ، فى أغراض تليق بمنه ، مما يوجب فيه المياسير والوجوه ، مُشَرَّفين مُعزَّزين بمن يقوم بوظيفة المخاطبة والجواب ، والرد والقبول ؛ ووُلِّى وزارة السلطان ، لأول مُلكه فى طريق من ظاهر جبل الفتح إلى حضرته ، وأياماً يسيرة من أيام اختلاله ، [إلى][٢] أن رغب الخاصَّة من الأندلسيين فى إزالته ، وصُرف الأمر إلى الحاجب المذكور ، الذى تسقَّط مع رياسته المنافسة ، وترضَّى به الجملة .

محنتــه

وامتُحن هو وأخوه ، بالتَّغريب إلى تونس ، عن وطنهما ، على عهد السلطان الثالث من بنى نصر . ثم آب عن عهد غير بعيد ؛ ثم أُمِن واستَمرَّ أديمُه ؛ وضَجر عن الركوب إلى فلاحته التى هى قُرة عينه ؛ وحظَّ سعادته ، يتطارح[٣] فى سكَّة المترددين[٤] بإزاء بابه ، مباشرُ الثَّرى بثوبه ، قد سَدكت[٥] به شكايةٌ شائنة ، فلما يَئلت منها الشيوخ ، ولا من شَرَكها ، فهى تزفه[٦] بولاء ، بحال تقتحمها العين شَعَثاً[٧] ، وبعْدًا عن النظر ، فلم يُطْلق[٨] الله يده من جِدته على يده ، فليس فى سبيل دواء ولا غذاء إلى أن هلك .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية . وفى « ت » : بعبادة . والأولى أرجح . وهى (العباءة) .

(٢) إضافة لا بد منها لاستقامة السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : يتطاح : وهو تحريف .

(٤) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : المرتدين . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٥) أى علقت به ولزمته .

(٦) هكذا فى « ك » ، وفى « ج » تنزفه .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » شعة .

(٨) كذا فى « ك » . وفى « ج » : يطل .

« وفاته » ؛ فى وسط شوال عام سبعة وخمسين وسبعمائة .

« مولده » ؛ فى سنة خمس وسبعين [وستمائه][1] .

إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهّاق الأوسى

يكنى أبا إسحاق ، ويعرف بابن المرأة .

حاله

سكن مالَقَة دهراً طويلا ، ثم انتقل إلى مُرْسية ، باستدعاء المُحَدث أبى الفضل المُرْسى والقاضى أبى بكر بن مُحْرز ، وكان متقدماً فى علم الكلام ، حافظا ذا كراً للحديث والتفسير ، والفقه والتاريخ ، وغير ذلك . وكان الكلام أغْلَبَ عليه ، فصيح اللسان والقلم ، ذا كراً لكلام أهل التصوف ، يطرِّز مجالسه بأخبارهم . وكان بحراً[2] للجمهور بمالقة ومرسية ، بارعاً فى ذلك متفنناً له ، متقدما فيه ، حسن الفهم لما يلقيه ، له وثوب على التمثيل والتّشْبيه ، فيما يقرب للفهم ، مؤثراً للخُمول ، قريباً من كل أحد ، حسن العشرة ، مؤثراً بما لديه . وكان بمالقة يتّجر بسوق الغزل . قال الأستاذ أبو جعفر وقد وصمه ، وكان صاحب حيل [ونوادر][3] مستظرفة ، يُلهى بها أصحابه ، ويؤ نسهم ؛ ومتطلعاً على أشياء غريبة من الخواص وغيرها ، فتن بها بعض الَطلبة ، واطّلع كثير ممن شاهده على بعض ذلك ، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المُرْتكبات الشّنيعة ، فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه ، منهم شيخنا

---

(١) وردت فى المخطوطين : (سبعمائة) ووردت فى الملكية : خمس وثمانين وستمائة .

(٢) وردت فى « ج » بحر . وفى « ك » ، لحق . والأولى مع التصويب متفقة مع السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين . ونوارج . والتصويب من « ت » .

القاضى العَدل المسمَّى الفاضل أبو بكر[١] بن المرابط رحمه الله ؛ أخبرنى من ذلك بما شاهد[٢] مما يقبُح ذكره ، وتَبَرَّأ منه من كان سعى فى انتقاله إلى مرسية ، والله أعلم بغيبه وضميره .

تواليفه[٣]

منها شرحُه كتاب الإرشاد لأبى المعالى ، وكان يعلمه من حفظه من غير زيادة وامتداد . وشرح الأسماء الحسنى . وألف جزءا فى إجماع الفقهاء ، وشرح محاسن المجالس لأبى العباس [أحمد] بن العريف . وألّف غير ذلك . وتواليفه[٤] نافعة فى أبوابها ، حسنة الرصف والمبانى .

« من روى عنه » ، أبو عبد الله بن أحلى ، وأبو محمد عبد الرحمن بن وصلة .

« وفاته » ؛ توفى بمرسية سنة أحد عشر وستّمائة .

إبراهيم بن أبى بكر بن عبد الله بن موسى الأنصارى

تِلِمسانى وقرشى الأصل ، نزل بسَبْتَة ، يكنى أبا إسحاق ، ويعرف بالتلِمسانى .

حـــاله

كان فقيهاً عارفاً بعقد الشروط ، مبرّزاً فى العدد[٥] والفرايض ، أديباً ، شاعراً ، محسنا ، ماهراً فى كل ما يحاول . نظم فى الفرايض ، وهو ابن ثمانية وعشرين سنة[٥]

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أبو البركات . وهو تحريف .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : باشهادة .
(٣) كذا فى « ج » . وفى « ك » : تآليفه .
(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » القدر .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى الملكية : ثمانية عشر .

أرجوزة محكمة بعلمها، ضابطة، عجيبة الوضع. قال ابن عبد الملك، وخبرت منه فى تكرارى عليه، تيقُّظا وحضور ذهن، وتواضعاً، وحسن إقبال وبر، وجميل لقاء ومعاشرة، وتوسطاً صالحاً فيما يناظر[1] فيه من التواليف، واشتغالاً بما يعنيه من أمر معاشه، وتخاملا[2] فى هيئته ولباسه، يكاد ينحط عن الاقتصاد، حسب المألوف والمعروف بسَبْتة. قال ابن الزبير، كان أديباً لغويا، فاضلا، إماماً فى الفرائض.

مشيخته

تلا بمالقة على أبى بكر بن دَسْمان، وأبى صالح محمد بن محمد الزّاهد، وأبى عبد الله ابن حفيد؛ وروى بها عن أبى الحسن سهل بن مالك؛ ولقى أبا بكر بن مُحرز، وأجاز له، وكتب إليه مُجيزاً، أبو الحسن بن طاهر الدباج، وأبو على الشلوبين؛ ولقى بسبتة، الحسن أبا العباس بن على بن عصفور الهوارى، وأبا المُطَرِّف أحمد ابن عبد الله بن عُفيرة، فأجازوا له؛ وسمع على أبى يعقوب بن موسى الحسانى الغُمارى.

«من روى عنه»؛ روى عنه الكثير ممن عاصره، كأبى عبد الله بن عبد الملك وغيره.

تواليفــه

من ذلك الأرجوزة الشهيرة فى الفرائض، لم يصنَّف فى فنها أحسن منها. ومنظوماته فى السِّير، وأمداح النبى، صلى الله عليه وسلم، من ذلك المُعَشّرات على أوزان العرب، وقصيدة فى المولد الكريم؛ وله مقالة[3] فى علم العروض الدوُبَيتى.

---

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج» و«الملكية»: يناط فيه. والأولى أرجح.

(٢) وردت فى المخطوطين: وتتحاملا. والتصويب يقتضيه السياق.

(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج» و«الملكية»: مقام. والأولى أرجح.

شـــعره

وشعره كثير ، مبرَّز[١] الطّبقة بين العالى والوسَط ، منْحازاً أكثر إلى الإجادة جمّة ؛ وتقع له الأمور العجيبة فيه كقوله :

الغَدرُ فى الناس شيمةٌ سَلَفَت ... قد طال بين الورَى تصرُّفها
ما كلُّ مَنْ سَرَت له نِعَمٌ ... منك يرى قَدْرها ويعرفُها
بل ربما أعقَب الجزاء بهـا ... مضرةٌ عنك عزَّ مَصْرِفُها
أما ترى الشمس تَعْطف بالنُّـ ... ـور على البَدْر وهو يَكْسِفُها

دخوله غرناطة

أخبر عن نفسه أن أباه انتقل به إلى الأندلس ، وهو ابن تسعة أعوام ؛ فاستوطن به غرناطة ثلاثة أعوام ، ثم رحل إلى مالقة ، فسكن بها مدّة ، وبها قرأ معظم قراءته . ثم انتقل إلى سَبْتة ، وتزوج بها أخت الشيخ أبى الحكم مالك بن المُرَحَّل . وهذا الشيخ جد صاحبنا وشيخنا أبى الحسين التِلِمْسانى لأبيه ، وهو ممن يُطرَّز به التأليف ، ويُشار[٢] إليه فى فنون لشهرته .

ومن شعره ، وهو صاحب مطولات مجيدة ، وأمادح مُبْدية فى الإحسان مُعيدة[٣] ، فمن قوله يمدح الفقيه أبا القاسم العزَفى أمير سبتة :

أرأيت من رَحَلُوا وزمُّوا العِيسا ... ولا نزلوا على الطلول حبيساً
أحَسِبْتَ سوف يعود نَسْفُ تُرابها ... [يوماً][٤] بما يَشْفى لديك نسيساً
هل من مُؤْنِسٍ ناراً بجانب طورها ... لأنيسها أم هل تحس حسيساً

(١) وردت فى المخطوطين : مبرد .

(٢) وردت فى المخطوطين : ويشر .

(٣) وردت فى المخطوطين : بعيدة . والتصويب أرجح .

(٤) الزيادة من « الملكية » .

«مولده» ، قال ابن عبد الملك ، أخبرنى أن مولده بتلمسان سنة تسع وستمائة .

« وفاته » ، فى عام تسعين وستمائة بسبتة ، على سن عالية ، فَسَحَت مدى الانتفاع به .

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصارى الساحلى

المشهور بالطُّوَيْجِن ، من غرناطة .

حـــاله

من كتاب « عائد الصلة » ، كان رحمه الله ، نسيجَ وحده فى الأدب ، نظماً ونثراً ، لا يُشَق فيهما غُبارُه ، كلام[1] صافى الأديم ، [غزير المائية][2] ، أنيق الدِّيباجة ، موفور المادة ، كثير الحلاوة ، جامعٌ بين الجزالة والرِّقة ، إلى خط بديع ، ومشاركة فى فنون ، وكَرَم نفس ، واقتدار على كل محاولة . رحل بعد أن اشتهر فضله ، وذاع أُوَجه ، فشرّق ، وجال فى البلاد . ثم دخل إلى بلد السُّودان ، فاتصل بملكها ، واستوطنها زماناً طويلا ، بالغاً فيها أقصى مبالغ المَكِينة ، والحُظْوة ، والشُّهرة ، والجلالة ، واقتنى مالا دَثْراً[3] ؛ ثم آب إلى المغرب ، وحَوَّم على وطنه ، فصرفه القدر إلى مُسْتَقَره من بلاد السودان ، مُستزيداً من المال . وأهدى إلى ملك المغرب [هديّة][4] تشتمل على طُرَف ، فاثأبه عليها مالا خطيراً ؛ ومدحه بشعر بديع كتبناه عنه . وجرى ذكره فى كتاب « التاج » بما نصه :

« جوّاب الآفاق ، ومحالف الإباق ، ومُنفق سَعْد الشِّعر كل الإنفاق ؛ رفع

---

(١) هكذا فى « ك » . فى « ج » : الكلام .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : عزيز المانعة . وفى الملكية (المادة) .

(٣) وردت فى المخطوطين : دبرا ، وهو تحريف . وفى الملكية (تبرا) .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويقتضى إثباتها السياق .

بيلده للأدب رأيةً لاتحجم ، وأصبح فيها يسوِّى ويُلْجِم ؛ فإن نَسَب ، جرى ونُظَم نَظْم أُلجمان المحامد ؛ وإن أبَّن ورثَى ، غبَّر فى وجوه السوابق وحَنا ؛ ولما اتَّفق كسادُ سوقه ، وضِياق حقوقه ، أخذ بالحَزْم ، وأدخل على حروف علايه عوامل الجزم ؛ يسقُط على الدول سقوط الغَيْث ، ويحِلُّ كِناس الظِّبا وغاب اللَّيث ؛ شيَّع العجائب ، وركْض النَّجائب ؛ فاستضاف بِمصْرام ؛ وشاهد [البرابى][(١)] والأهرام ؛ ورمى بعزْمَته الشأم ؛ فاحتلَّ ثغوره المَحُوطة ، ودخل دِمَشق ، وتوجَّه الغُوطَة؛ ثم عاجلها بالعراق ؛ فحيا بالسَّلام مدينة السَّلام ، وأوْرَدَ [بالرَّافدين][(٢)] رَوَاحِله ؛ ورأى اليمَنَ وسواحله ؛ ثم عَدَل إلى الحقيقة عن المجاز ، وتوجه إلى شأنه الحجاز ؛ فاستلم الرُّكن والحجر ، وزار القبر الكريم لمَّا صَدَر ؛ وتعرَّف بمجتمع الوفود بملك[(٣)] السُّود ، فغمره بإرفاده ؛ وصحِبَه إلى بلاده ، فاستقرَّ بأوَّل أقاليم العَرْض ، وأقصى ما يَعْمُر من الأرض ، فحلَّ بها محل [الُحمْر فى الغار][(٤)] ، والنور فى سواد الأبصار ؛ وتقيَّد بالإحسان ؛ وإن كان غريب الوجه واليد واللسان ؛ وصدرت عنه رسائلُ أثناء إغرابه ، تشهد بجلالة آدابه ، وتعلُّق الإحسان بأهدابه »[(٥)] .

نثره

فمن ذلك ما خاطب به أهل غَرْناطة بلده ؛ وقد وصل إلى مَرَّا كُش :

---

(١) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين هكذا . الفرابى . وظاهر من ورودها إلى جانب «الأهرام» أن المقصود هو البرابى ، وهى الكلمة التى تطلق فى التواريخ الإسلامية على المعابد الفرعونية .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا فى المخطوطين : بالرفدس . وقد رجحنا أنها تحريف كلمة (الرافدين) وهما الدجلة والفرات ، وهى هنا متسقة مع المعنى .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بلد . وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » : وفى « ك » و « ت » (الحمر فى القار) . والأولى أرجح .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ناهوايه ، وهو تحريف ظاهر .

« سلام ليس دارين شعاره ، وحلق الروض والنضير به صداره ، وأنسى نجداً شمه[١] الزكى وعراره[٢] ؛ جرَّ ذيله على الشجر فتعطّر ؛ وناجى غصن البان فاهتزّ لحديثه وتأطّر ؛ وارتشف الندى من ثغور الشّقائق ، وحيَّا خدود الورد تحت أردية الحدائق ؛ طَرِبت له النَّجدية المُسْتهامة ، فهجرت صباها ببطن تِهامة ، وحَنّ ابن دهمان لصباه ، وسلا به التَّميمى عن ريَّاه[٣] ، وأنسى النُّميرى ما تضوَّع برقيب من بطن نعمايه ؛ واستَشْرف السمر والبان ، وتخلق بخلوقة الآس والظَّيَّان[٤] ؛ حتى إذا راقت أنفاس تحياته ورقّت ، وملكت نفائس النفوس واستَشْرقت ؛ ولبست دارين فى ملائها ، ونظمت الجوزاء فى عِقد ثنائها ، واشتغل بها الأعشى عن روضه ولَهى ، وشهد ابن بُرْد شهادة[٥] أطراف المساويك لها ؛ خيَّمت فى رَبْع الجود بغَرْناطة ورقت ، وملأت دَلْوها إلى عقد كَرْبه[٦] ، وأقبلت[٧] منابتُ شرقها عن غربه ، لا عن عَرْفه ؛ هناك تترى لها صدور المجالس تحمل صدوراً ، وترايبُ المعالى تُحلِّى عقوداً نفيسة وجذوراً[٨] ؛ ومحاسن الشرف تحاسن البروج فى زهرها ، والأفنية فى إيوانها ، والأندية فى شِعَب بَوّانها[٩] ؛ لو رآها النعمان لهجر سَديره ، أو كِسرى لنبذ إيوانه وسريره ، أو سيف لقصرَ عن غُمدانه ، أو حسّان لترك جِلّق لغسّانه[١٠] .

(١) وردت فى المخطوطين : شجه .

(٢) وردت فى المخطوطين : وعزاره . والتصويب متفق مع السياق .

(٣) هكذا فى « ت » . وفى « ك » زيادة . وفى « ج » ديانة .

(٤) وردت فى « ج » و « ت » ، والضيان . وفى « ك » والعنان وهو تحريف . والظيان هو نبات برى من نوع النباتات الزاحفة الملتفة .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » ركبت .

(٧) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » ، وانبات .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » وجدورا .

(٩) « شعب بوان » هو اسم يطلق على أرض بفارس على مقربة من أرجان ، وكانت فى القديم من متنزهات الدنيا (راجع معجم ياقوت – مصر – ج ٤ ص ٢٩٧) .

(١٠) والجلق اسم يطلق على دمشق أو غوطة دمشق .

بلاد بها نيطت علىّ تمـــائمى وأول أرض مسّ جلدى ترابها

فإذا قضيتُ من فَرْض السلام خَتْما ، وقَضَت من فاره[1] الثناء حَتْما، ونفَضت طيب عرارها[2] على تلك الأنداء ، واقتطفت أزاهرَ محامدها أهلُ الود القديم والإخاء ، وعمّت مَن هنالك من الفضلاء ، وتلتْ سُوَر[3] آلائها على مِنبر ثنائها ، وقصّت وعَطفَت على من تحمل من الطلبة بشارتهم ، وصدرت[4] عن إشارتهم ، وأنارت[5] نجماً حول هالتهم المنيرة ودارَتهم ؛ فهناك تقصُّ أحاديث وجْدى على تلك المناهج ، لا إلى صلة عالج ؛ وشوقى إلى تلك العَلْيا ، لا إلى عبلة والجزا[6] إلى ذلك الشريف الجليل ؛ فسقى الله تلك المعاهد غَيْداقاً[7] يهمى دعاؤها[8] ، ويغرق رَوْضها إغراقاً[9] ؛ حتى تتكالل منه نحور زَنْدها دُرًّا ، وترنوعيون أطراف نرجسها إلى أهلها سَرَراً[10] ؛ وتتعانق تدود أغصانها طرباً، وتعطف خصور مذانبها على أطراف كُثبانها لَعِبا ، وتضحك ثغور أقاحها عند رقص أدواحها عُجْباً ؛ وتحمرُّ خدود وردها حياءً ، وتشرق حدائق وردها سناءً، وتهدى إلى ألسنة صباها [خبر طيبة][11] وإنباء ؛ حتى تشتغل المطريّة عن روضتها المردودة ، والمُتَــكَلِّىء[12] عن مشاويه المجودة؛ والبكرى عن شقائق رياض روضته

(١) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » فارط ، والأولى أرجح .
(٢) وردت فى « ج » غرايرها . و « ك » عرايرها . و « ت » غابرها . وهو كله تحريف .
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « ت » صر .
(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة : صدر . والتصويب يقتضيه السياق .
(٥) فى المخطوطات الثلاثة : وأنار . والتصويب يقتضيه السياق .
(٦) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى الملكية وفى « ت » وانجر .
(٧) وردت فى المخطوطين : غيدانا . وفى « ت » غيوثاً .
(٨) هكذا وردت فى « ث » . وفى « ج » دعاوا . وفى « ك » دعافا .
(٩) هكذا فى « ج » . وفى « ك » اغترقا .
(١٠) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » شزراً . وفى « ج » برزا .
(١١) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطات الأربعة .
(١٢) فى المخطوطين والملكية : والمكلى . والتصويب من « ت » .

النديّة ، والأخطل عن خلع [بيعته الموشيّة][1] . فما الخُورَنق وسُراد ، والرُّصافة وبغداد ، وما لفّ النِّيل فى مَلأته كرماً إلى أفدين سقايته ، وحارته غمدان عن محراب ، وقصر وابرية[2] البلقاء عن غوطة ونهر ، بأحسن من تلك المشاهد التى تساوى فى حسنها الغائب والشاهد ، وما لمصر تفخر[3] بنيلها ، والألفُ[4] منها فى شَنِيلها[5] ، وإنما زيدت الشين هنالك [ليعد بذلك][6] :

ويا لِلّهِ من شوق حَثيث ومن وَجْدٍ تَنَشَّط[7] بالصميم
إذا ماهاجه وجدٌ حديث صَبا منها إلى عهدٍ قديم

أجْنَح إنسانى[8] فى كل جانحة . وأنطق لسانى من كل جارحة ، وأهيم وقلبى رهين الأنين ، وصريع البَيْن ، تهْفَق به الرياح البليلة إذا ثارت ، وتطير به أجنحة البروق الخافقة أينما طارت ، وقد كنت أستنزل قُرْبهم براحة الأجل ، وأقول عسى وطن يدنيهم[9] ولعل ، وما أقْدَر الله أن يُدْنى على الشَّحَط ، ويُبرى[10] جراح البين بعد اليأس والقَنَط . هذا شوق يستعيرُه البُركان لناره ، وَوَجْدى لايجرى قَيْس فى مضماره ، فما ظنُّك وقد حمت حول المورد الخَصِر ، ونسمت ريح المُنبِت الخَضِر ، ونظرت إلى تلك المعاهد من أمم ؛ وهمست باهتصار ثمار ذلك

(١) وردت فى « ج » و « ك » : (بيعة الموشية) . وفى « ت » : (بيعة الموصية) .
(٢) هكذا فى « الملكية » . وفى « ك » وقصر وابدره . وفى « ج » برريه . وفى « ت » برأيه .
(٣) وردت فى « ج » نفحر . وفى « ك » تهجر . وهو تحريف .
(٤) وردت فى المخطوطين : اللف . وهو تحريف .
(٥) وردت محرفة فى المخطوطين : شيلها ، شلها .
(٦) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ت » والملكية (ليعن بذلك) . وفى « ج » (ليعن ذلك) . والأولى أرجح وأصلح للسياق .
(٧) وردت فى المخطوطين : نشبط . وفى « ت » نشيط .
(٨) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أساى .
(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » يدنو بهم .
(١٠) وردت فى « ت » ويبرا . وفى المخطوطين : ويأمر .

المجد اليانع والكرم ؛ وإن المحبَّ مع القُرب لأعظم همًّا ، وأشدُّ فى مقاساة الغرام غمًّا:

وأبرح(١) ما يكون الشوق يوماً إذا دَنَتْ الدّيار من الديار

وقَرُبت مسافة الدوّار ؛ لـكن الدهر ذو غِيَر(٢) ، ومن ذا(٣) يحكم على القَدَر ؛ وما ضرّه لو غفل قليلا ، وشفى بلقاء الأحبّة غليلا ، وسمح لنا بساعة اتفاق ووَصَل ذلك الأمل القصير بباع ، وروى مسافة أيام ، كما(٤) طوى مراحل أعوام.

[لكَ إبليس](٥) أفلا أشفقت من عذابى ، وسَمَحْت ولو بسلام أحبابى :

أسلمْتَنى إلى ذَرْع البيد ، ومحالفة [الذميل والوخيد](٦) ، والتنقُّل فى المشارق والمغارب ، والتمطِّى فى الصّهوات والغوارب ؛ ياسابق البين دع محْمَله ، وما بقى فى الجسم ما يحْمِله ؛ ويابنات جديل ، مالـكن وللذميل(٧) ؛ ليت سَقَمى عقيم فلم يلد ذات البين ، المُشَتِّتَة مابين المحبين ؛ ثم ماللزّاجر الـكاذب ، وللغُراب النّاعب ، تجعله نذير(٨) الجلاء ورايد الخلاء ؛ ما أبعد من زاجر ، عن رأى الزّاجر ، إنما فعل ماترى ، ذات الغارب والقِرَى ، المختالةُ فى الأزِمّة والبرى ، المترددة بين التّأويب والسُّرى ؛ طالما باكَرَت النَّوى ، وصَدَعت صَدْع الثوى(٩) ، وتركت الهايم بين رَبْعٍ محيل ، ورسم مستحيل ؛ يقفو(١٠) الأثرُ نحوه ، ويُسَئل الطَّلل

---

(١) فى « الملكية » وأشد .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » أغير . وفى « ت » غيار .

(٣) وردت فى المخطوطين وفى « الملكية » : وماذا .

(٤) وردت فى المخطوطين : كيما . والتصويب من « ت » .

(٥) هكذا فى الملكية » . وفى المخطوطين : (لذا يليس) . وفى « ك »لك ابليس . والأولى أرجح

(٦) وردت هذه العبارة فى « ت » و « ج » : (الدميل والوحيد) . وفى « ك » : (الوصيل والوحيد) . والتصويب من « الملكية . والذميل هو السير المتوسط . والوخيد هو السير الواسع الخطى .

(٧) هكذا ورد فى « ج » و « ت » . وفى « ك » وللمدميل .

(٨) وردت فى المخطوطين : قدير . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٩) وردت فى المخطوطين : النوى . والتصويب من « ت » .

(١٠) هكذا وردت فى « ج » و « ت » و « الملكية » . وفى « ك » يبو . والأولى أصح للسياق

عن عهده ؛ وإن أنصفَت فما لعين معقودة[١] ، وإبل مطرودة ، مالت عن الحوض والشَّوط ، وأسلمت إلى الحَبل[٢] والعصا والسّوط ؛ ولو خُيّر النائى لأقام ، ولو تُرك القَطا ليلا لنام ؛ لـكن الدهر أبو براقش ، وسهمٌ بينه وبين بنيه غيرُ طائش ؛ فهو الذى شتَّت الشمل وصَدَعه ، وما رُفع سيفٌ بعاده إلا[٣] وضعه ، ولا بلّ غليلا أحرْقه بنار وجده ولا نفعه . فأُقسم ما ذاتُ[٤] خضاب وطَوْق ، شاكيةُ غرام وشوق ؛ برزت[٥] فى منَصّتها ، وترجمت عن قضيّتها ، أو غُربت عن بيتها ، ونَفَضَتْ شرارة زفرتها عن عينها ؛ مَيْلا حكت المَيْلا والغريض ، وعَجْماء ساجلت بسَجْعها القريض ؛ وكَصّت الفود فـكأنما نقرت العود ، وردّدت العويل ، كأنما سمعت النَّقيل ؛ نبّهت الواله فثاب ، وناحت بأشواقها فأجاب . حتى إذا افترّ بريقُها[٦] ، استراب فى أنّتها ، فنادى يا حصيبةَ السَّاق ، مالَكِ والأشواق ، أبا كِيَةٌ ودموعك[٧] راقيةٌ ، ومحررة وأعطافك حالية ؛ عُطّلت الخوافى ، وحُلِّيت القوادم ، وخُضِّبت الأرجل ، وحضرت[٨] المآتم[٩] . أمّا أنتِ فنزيعة خِمار ، وحليفة أنوار وأشجار ، تَتَردَّدين بين منبر وسرير ، وتتهادين بين روْضة وغَدير ؛ أسرفتِ فى الغناء ، وإنما حكيت خرير الماء ، وولعت بتكرير الرَّاء ؛ فقالت أعد نظر البقير[١٠] ، ولأمر ما جَدَع أنْفَه قَصير ؛ أنا التى أغرَقتُ فى الرُّزء ،

---

(١) هكذا فى «ك» و«الملكية» . وفى «ج» ، مصفوه .

(٢) هكذا فى «ج» و «ت» . وفى «ك» الجبل .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة وكذا فى «الملكية» : من . والتصويب يقتضيه المعنى للسياق .

(٤) وردت فى الثلاثة : ماذا . وفى «الملكية» ماذا خطاب . والتصويب أرجح .

(٥) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «ك» و «ت» بررت .

(٦) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» بربتها . وفى «ت» بريتها .

(٧) هكذا فى «ج» و «ت» . وفى «ك» : دموع .

(٨) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين : حضرت . وفى «الملكية» خضرت .

(٩) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ، الماثم .

(١٠) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين و «الملكية» : البهير ، والأولى أرجح .

فكنيت[1] عن الكل بالجزء ؛ كنت أربع بالفيافى ما ألافى ، وآنسُ مع مقيلى ، بُكرته وأصيلى ؛ تحتال من غدير إلى شَرْج[2] ، وتنتقل من سرير إلى سَرْج ؛ آوُنة تلتقط الَحبّ ، وحيناً تتعاطى الُحبّ ؛ وطورا تترا كض الفنَن ، وتارة تتجاذب الشَّجن[3] ؛ حتى رماه الدهر بالشَّتات ، وطَرَفة بالآفات ؛ فهأنا بعده دامِيةُ العين ، دائمة الأين ، أتعلل بالأثر بعد العَين ؛ فإن صعدت منارى[4] ، ألهبت منقارى ، أونكأت أحشائى ، خُضِّبت رجلى بدمائى ؛ فأقسم لا خلعت طَوْق عهده ، حتى أردى[5] من بعده ؛ بل ذات خَفْض وتَرَف ، وجمال باهر وشَرَف ؛ بسط الدهر يدها ، وقبض ولدها ؛ فهى إذا عقدت التَّمايم على تريب ، أو لفّت[6] العمائم على نجيب ، حثت المفؤود[7] ، وأدارت عين الحسود ؛ حتى إذا أينعت فَسألها ، وقضى حَمْلُها وفصالها ، عمرَ لحدُها بوحيد كان عندها وسطى ، وفريد أضحى فى نحر[8] عشيرتها سِمْطا ؛ استحثَّت له مَهَبَّات النسيم الطَّارق ، وخافت عليه من خطَرات اللَّحظ الرَّاشق ؛ فحين هشّ للجياد ، ووهب التَّمائم للنِّجاد ونادى الصريم ، ياالآل والحريم ؛ فشد الأناة ، واعتقل القناة ، وبرز يختال فى عيون لامه ، ويتمرّف منه رمحه بألفه ولامه ؛ فعارضه شَثْن[9] الكفين ، عارى الشعر والمَنْكبين ، فأسلمه لَحتفه ، وترك حاشية ردائه على عِطفه ؛ فحين انْبهَم لشاكِلته ماجرَى [برزت لترى][10] :

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » وتكشف . وفى « ت » ونسكت . وفى « الملكية » ونكست . والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : سرج . والشرج ، مسيل الماء .

(٣) هكذا وردت فى « ت . : وفى المخطوطين والملكية : الشجر .

(٤) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » « نارى » .

(٥) وردت فى المخطوطات الأربعة : أردموه .

(٦) فى المخطوطين : ليف . وفى « ت » ألف .

(٧) هكذا فى « ج » و « ك » . وفى « ت » المقتودة .

(٨) وردت فى المخطوطات الأربعة : نحره .

(٩) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » شنن . وشثن أى خشن .

(١٠) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » و « ت » و « الملكية » . وفى « ك » : (أبرزت الثرى)

فلم تلق غيرَ خمس قوايم ... وأشلاء لحم تحت ليثٍ سخايل[(١)]
يحطُّ على أعطافه وترايبه ... بكفٍ حديد النَّاب صُلْب المفاصل

أعظم من وجد إلى تلك الآفاق،التى أطْلَعت وجوه الحسن والإحسان،وسفَرت عن كمال الشرف، وشرف الكمال عن كل وجه[(٢)] حُسَّان؛ وأبرزت من ذوى الهمم المُنيفة، والسِّير الشريفة، ما أقرَّ عين العلياء، وحلَّى جيد الزمان؛ فتقوا[(٣)] للعلم أزهاراً أربَت على الروض المَجود، وأداروا للأدب هالَةً استدارَتْ حولها بُدُور السُّعود؛ نظم الدهر محاسنهم حُلِيًّا فى جيده ونحره، [واستعار لهم][(٤)] الأفق ضياء شمسه وبَدْره، وأعرب بهم الفخر عن صميمه، وفسح لهم المجد عن مصدره؛ فهم إنسان عَيْن الزمان؛ وملتقى طريق[(٥)] الحسن والإحسان؛ نَظَمت الجوزاء مفاخرهم، ونثَرت النَثْرة مآثرهم، واجتلبت الشِّعْرى[(٦)] من أشعارهم؛ وطلع النور من أزرارهم[(٧)] واجتمعت الثُّريّا لمعاطاة أخبارهم؛ وود الدَّلو لو كرع فى حوضهم؛ والأسدُ لو ربض حول رَبِضهم، والنعايم[(٨)] لو غُذِّيت بنعيمهم؛ والمجرة لو استمدت من فيض كرمهم؛ عَشِق[(٩)] المسك محاسنهم فرقّ؛ وطَرب الصبح لأخبارهم فخَرَق جبينه وشَقَّ؛ وحام النِّسر حول حمامهم وحلّق؛ وقدً

(١) هكذا فى «ج» وفى «الملكية». وفى «ك» مخاتل.

(٢) وردت بعد هذه الكلمة فى «ت» كلمة: الوجوه. وهى كلمة لا موضع لها هنا. والغالب أن ورودها فى «ت» من باب السهو.

(٣) هكذا فى «ج». وفى «ك» و «ت» فتقوى.

(٤) هكذا وردت هذه العبارة فى «ج» و «ت» وفى «الملكية». ولكنها وردت فى «ك» واستعلاهم.

(٥) هكذا وردت فى المخطوطين. وفى «ت» طريق. والأولى أنسب للسياق.

(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة: الشعر. والتصويب يقتضيه السياق.

(٧) هكذا فى «ك» و «ت». وفى «ج» أزنارهم.

(٨) وردت فى «ت» و «الملكية»: والنعيم، مفردة. والجمع أنسب للسياق. وفى المخطوطين (والتعليم) وهو تحريف.

(٩) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج».

الفخار جدار[١] محامدهم وخلَق؛ إلى بلاغة أخرَست لسان لَبِيد ، وتركت عبدالحميد غيرَ حميد ؛ أهلُ ابن هلال لمحاسنهم وكبّر ، وأعطى القارى[٢] مازجر به قلمه وسطّر ، وأيس إياس من لحاقهم[٣] فأقصَر لما قصَّر .

ومنها : فما لِلوَشْي تألّق ناصعهُ ، وتأنق يانعهُ[٤] ، بأحسن مما وشّته أنفاسُهم ، ورسمته أطراسُهم ؛ فكم لهم من خَريدة غذّاها العلم ببره[٥] ، وفريدة حلّاها البيان بدُرّه ؛ واستضاءت المعارف بأنوارهم ، وباهَتْ الفضايل بسَناء منارهم ، وجُليت المشكلات بأنوار عقولهم وأفكارهم ؛ جَلَوا عروس المجد وحَلّوا ، وحلّوا[٦] فى ميدان السيادة و نشأوا ؛ وزاحموا السُّهى[٧] بالمناكب ، واختطوا التُّرْب فوق الكواكب ؛ لزم محلّهم التّكبير ، كما لزمت الياء التّصغير ، وتقدموا فى رُتبة الأفهام ، كما تقدّمت همزة الاستفهام ؛ ونزلوا من مراتب العَلْياء ، منْزِلة حروف الاستِعلاء ؛ وما عسى أن أقول ودون النهاية مدًى نازح ، وما أغنَى الشمس عن مدْح المادح ؛ وحَسْبي أن أصف ما أعانيه من الشوق ، وما أجدهُ من التَّوق ؛ وأعلِّل نفسى بلقائهم ، وأتملّلُ بالنسيم الوارد من تِلْقائهم ، وإن جلانى الدهر عن ورود حوضهم ، وأقعَدنى الزمان عن اجتناء رَوْضهم ؛ فما ذهب ودادى ، ولا تغيَّر اعتقادى ، ولا جفّت أقلامى عن مدادهم ولا مدادى ؛ وأنا ابن جَلا فى وجْدِهم ، وطلّاع الثّنايا إلى كَرَم عهدهم ؛ إن دعوا إلى وُدٍّ صميم وجدونى ، أضع[٨] العمامة عن

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» مدار ، وهو تحريف .

(٢) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين : الغارى .

(٣) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين و «الملكية» : وحاقهم .

(٤) هكذا فى «ت» . وفى المخطوطين : أنمه . وهو تحريف .

(٥) هكذا فى «ت» . فى المخطوطين : برره .

(٦) هكذا فى «ت» و «ج» . وفى «ك» وحذوا .

(٧) وردت فى المخطوطات الثلاثة : السهر . وقد رجحنا التصويب . إذ هو أكثر اتساقاً مع المعنى والسياق .

(٨) هكذا فى «ت» و «الملكية» . وفى المخطوطين : أوضع .

ذوى[1] عهد قديم عرفونى[2] ؛ ولو شرعوا نحوى قلم مُسكاتبتهم[3] ، وأَسَحُّوا[4] بالعِلق الثَّمين من مخاطبتهم ، لـكفوا من قلبي العانى قَيْدَ[5] إساره ، وبَلوا صدى وَجْدى المُتحَرق بناره ؛ ففى الـكتابة بُلغة الوطر ، وقد يُغنِى عن العين الأثر ؛ والسلام الأثير الـكريم الطيب الرَّيا[6] ، الجميل المحَيَّا ، [يحضُر محلَّهم][7] الأثير ، وكبيرهم إذ ليس فيهم صغير ؛ ويعودُ على من هناك من ذوى الوُدِّ الصميم ، والعهد القديم ، من أخٍ بَرٍّ وصاحب حميم ؛ ورحمة الله وبركاته » .

ولا خفاء ببراعة هذه الرسالة[8] على طولها ، وكثرة أُصولها ، وما اشتملت عليه من وصف وعارضة ، وإشارة وإحالة ، وحلاوة وجزالة .

شعره

ثبت لدىّ من متأخر شعره قوله من قصيدة ، يمدح بها ملك المغرب ، أمير المسلمين ، عند دنوّ ركابه من ظاهر تِلِمْسان ببابه أولها :

خَطَرت كَمَيّاس[9] القنا المُتَأطِّرِ[10] وَرَنت بألحـاظ الغزال الأعفر

ومن شعره فى النسب :

زارت وفى كل لحظ[طَرْفٌ][11] محترس وحول كل كِناس كَفٌّ مفترس

(١) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » ذدى .

(٢) هذه الكلمة واردة فى المخطوطين . وساقطة فى « ت » .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » كتابتهم . والأولى أنسب للسياق .

(٤) هكذا فى « ت » . وفى المخطوطين : أوسحوا .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » قد .

(٦) هكذا فى « ت » . وفى « ك » الثريا . وفى « ج » الرياى .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « الملكية » (يخص علاهم) .

(٨) هكذا فى « ت » والملكية . ووردت محرفة فى المخطوطين : الرياسة .

(٩) هكذا وردت فى « ت ». وفى المخطوطين : كياد .

(١٠) وردت فى « ت » : المتناظر . وفى المخطوطين : الناظر . وهو تحريف .

(١١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وكذا فى « الملكية »

يشكو لها الجيدُ ما بالحلْى من هَدر ... ويشتكى الزَّند ما بالقلب من خرَس

متى[1] تلا خدّها الزّاهى الضّحى نطقت ... سيوفُ ألحاظها من آية الحرس

فى لحظها سحرُ فِرْعون ورقتها[2] ... آيات[3] موسى وقلبى موضع القَبَس

تُخفى النَّمومَيْن من حَلْى ومُبْتَسم ... تحت الكتُومين من شَعْرٍ ومن غَلَس

وتُرسل اللَّحظ نحوى ثم تهزأ بى ... تقول بعد نفُوذ[4] الرَّمْية احترس

أشكو إليها فؤاداً واجلاً[5] أبداً ... فى النَّازعات وما تنفك من عَبَس

ياشُقَّة النَّفْس إن النَّفْس قد تَلِفت ... إلا بقيَّة رجْعِ الصّوت والنَّفَس

هذا فؤادى وجَفْنى فيك قد جمعا ... ضدّين فاعتبرى إن شئتِ واقتبسى

ويا لطارق[6] نومٍ منك أرّقنى ... ليلا ونبّهنى للوجد ثم نَسِى

ما زال يشرب من ماء القلوب فلمْ ... أبصرتُه ذابلاً يشكو من اليَبَس

ملأتِ طَرْفى عن وردٍ تفتح فى ... رياض خدّيك صلّا[7] غير مفترَس

وقلت للَّحظ والصُّدغ احرُسا فهما ... ما بين مُضْمٍ وفتّاك[8] ومُنْتكس

وليلة جئتها سَحَراً[9] أجوس بها ... شَبا العوالى وخيسَ الأخْنَف الشَّرس

أستفهم الليل عن أمثال أنجُمه ... وأسالُ العيس[10] عن سرب المها الأُنس

وأهتكُ السِّتر لا أخشى بوادرَه ... ما بين مُنتهِزٍ طوراً ومُنْتَهس

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة : فى «ك» معنى . وفى «ج» معى .

(٢) وردت فى المخطوطين : ورمتها .

(٣) فى المخطوطين آية . والتصويب من «ت» .

(٤) واردة فى «ج» و «ت» . وساقطة فى «ك» .

(٥) وردت فى المخطوطين : ووجه . والتصويب من «ت» و «الملكية» .

(٦) وردت فى «ج» و «ت» ، وبالطرف . وفى «ك» وبالطرف .

(٧) وردت فى المخطوطين : ضلا . وفى «ت» والملكية : بالأصيل .

(٨) فى المخطوطين : وماياه .

(٩) فى المخطوطات الأربعة : ليلا ، وهو تحريف .

(١٠) هكذا فى «ج» و «الملكية» . وفى «ك» : العبس .

بتنا نُعاطى بها ممزوجةً مَزَجَت   حُلْو(١) الفكاهة بين اللِّين والشَّرس
أنكحتها من أبيها وهى آيِسةٌ   فثار أبنـــاؤها فى ساعة العُرس
نورٌ ونارٌ أضاءا فى زُجاجتها   فذاك خدُّك يا ليلى وذا نَفَس
حتى إذا آب نور(٢) الفجر فى وضح(٣)   معرك جال بين الفجر والغَلَس
وهيمنَت بالضنا تحت الصباح صباً   قد أنذَرتْها ببرْدِ القلب والَّلعْس
قامت تجر فضول الريط آنسة(٤)   كريمة الذيل لم تجنْحَ إلى دَنَس
تَلوثُ فوق كثيب الرمل مِطْرَفَها   وتمسَحُ النّوم عن أجفانها النُّعُس
فظـل قلبي يقفوها بملتَهبٍ   طوراً ودمعى يتلوها بمنْبَجِس
دهر يُلوِّن لونَيه كعادته   فالصبحُ فى مأتمٍ والليل فى عُرس

وإحسانه كثير، ومقداره كبير. ثم آبَ إلى بلاد السودان، وجَرت عليه فى طريقه محنة، ممن يعترض الرفاق ويُفسد السبيل. واستقرَّ بها على حاله من الجاه والشهرة، وقد اتخذ(٥) أماء للتسرِّى من الزُّنجيّات [ورزق](٦) من الجوالك أولاداً كالخنافسة. ثم لم يلبث أن اتصلت الأخبار بوفاته بتُنبُكتو(٧)، وكان حيًّا فى أوائل تسعة وثلاثين وسبعمائة.

(١) فى المخطوطات الأربعة : حال.
(٢) فى المخطوطات الثلاثة : ليل.
(٣) ساقطة فى المخطوطات الأربعة.
(٤) ساقطة فى المخطوطين. وفى «الملكية» من طهر.
(٥) هكذا فى «ج». وفى «ك» أخذ.
(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين، وكذا فى الملكية ولكن السياق يقتضيها بداهة.
(٧) هى بلدة من أعمال السودان الغربى، وتقع على مقربة من منحنى نهر النيجر. وقد كانت فى العصور الوسطى عاصمة لمملكة كبيرة زاهرة هى مملكة غانة السوداء. وقد كانت هذه المنطقة معروفة للرحل المسلمين، وقد زارها الرحالة ابن بطوطة ووصفها فى رحلته. ولكن يوجد قول فى الجغرافيا الحديثة بأن الذى اكتشفها هم الرحل الأوربيون فى القرن الثامن عشر. وهو زعم باطل.

إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم ابن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النميرى

من أهل غَرْناطة ، يكنى أبا إسحاق ويعرف بابن الحاجّ .

أوليتـــه

بيت نبيهٌ ، يزعم من يُعنى بالأخبار ، أن جدَّهم الداخل إلى الأندلس ثَوابة ابن حمزة النُّميرى ، ويشركهم[(١)] فيه بنو أرقم الوادى شيون[(٢)] . وكان سكناه بجهة وادى آش ، ولقومه اختصاصٌ وانتقال ببعض جهاتها ، وهى شَوْظر ، والمنظر ، وقرسيس ، وقطرش[(٣)] ؛ تغلب العدو عليها على عهد عبد العزيز ، وآوى جميعهم إلى كَنَف الدولة النصرية ، فانخرطوا فى سِلك الخدمة ، وتمحّض خلفُهم بالعمل . وكان جده الأقرب إبراهيم ، رجلا خيراً [من أهل الدين][(٤)] والفضل والطهارة والذكاء ؛ كتب للرؤساء من بنى إشْقَيلُولة ، عند انفرادهم بوادى آش . واختصّ بهم ، وحصل منهم على صِهرٍ بأم ولدِ بعضهم ، وضبط المهمَّ من أعمالهم . ثم رابته منهم سجايا ؛ أوجَبَت انصرافه عنهم ، وجنوحه[(٥)] إلى خالهم السلطان الذى كاشفوه بالثورة ، فعرف حقَّه ، وأكرم وفادته . وقبل بيانه ؛ فقلده ديوان جنده ، واستمرت أيام عُمره تحت رَعْيه ، وكَنَف عنايته . وكان ولده

---

(١) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » : ويشكرهم .

(٢) الوادى شيون ، أو الوادى آشيون . نسبة إلى مدينة وادى آش .

(٣) شوظر أو شوذر . وهى الآن Jodar الحديثة ، بلدة من أعمال ولاية جيان تقع جنوبى مدينة أبدة بقليل . ولم نوفق إلى تحقيق مواقع الثلاثة الأخرى أو أسمائها الإسبانية . ولكن يبدو من أقوال ابن الخطيب أنها كانت تقع جميعاً فى هذه المنطقة الواقعة شرقى جيان وشمال وادى آش .

(٤) الكلمة الأولى من هذه العبارة واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » . والكلمة الثانية واردة فى « ج » وساقطة فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وجنوحهم . وهو تحريف .

عبد الله أبو صاحبنا المترجم به ، صَدْراً من صدور المستخدمين فى كبار الأعمال ، على سُنن[١] رؤسائهم ، مِكْساباً مِتْلافاً[٢] ؛ سرى النفس ، [غاض الحواز][٣] . ولى الأشغال بغرناطة وسَبْتة ؛ عند تصيُّرها إلى إيالة بنى نصر ؛ وجرى طلاقه هذا، فى صلٍّ دنيا عريضة ؛ تغلَّبت عليه بآخرة ، ومضى لسبيله ، مصدوقاً بالكفاية ، وبراعة الخط ، وطيب النفس ، وحسن المعاملة .

حـاله

هذا الرجل نشأ على عفاف وطهارة ؛ امتهك صُبابة ترف من بقايا عافية، أعانته على الاستظهار بيزَّة . وصانته من التحرُّف بمهنة . ثم شدّ وبهُرت خصاله ، فبَطح بالشِّعر ؛ وبلغ الغاية فى إجادة الخط ، وحاضر بالأبيات ، وأُرسم فى كتابة الإنشاء ، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، مُستحقاً حسن سِمَة ، وبراعة خط ، وجودة أدب ، وإطلاق يد ، وظهور كفاية ؛ وفى أثناء هذا الحال ، يُقيد ولا يفتر ، ويروى الحديث ، ويعلق[٤] الأناشيد ، ولا يغِبُّ النظم والنثر ، ولا يُعفى القريحة ، مُمَنَّى ، مخولا فى العناية ، مشتملا على الطهارة ، بعيداً فى زمان الشبيبة عن الرِّيبة ، نزيهاً على الوسامة عن الصَّبوة[٥] والرُّقية ، أعانه على ذلك ، نخوة فى طبعه ، وشفوفٌ وهمةٌ[٦] . كان مليح الدُّعابة ، طيِّب الفكاهة ،

---

(١) هكذا فى «ج» و «ت» . وفى «ك» سر .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . ووردت فى «ج» متلافافا .

(٣) وردت هذه العبارة فى المخطوطين غاص الحواز . وفى «ت» : (غاص الحوار) وفى الملكية (غاضا للحواز) .

(٤) هكذا وردت فى «ت» . وفى المخطوطين و «الملكية» : ويغلق .

(٥) هكذا وردت فى «ت» . وفى «ج» الكبوة . و «ك» الطبوة .

(٦) هكذا فى «ج» . وفى «ك» و «ت» : ووهمه .

[آثر المشرق](١) ، فانصرف عن(٢) الأندلس فى محرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، وألم بالدول ، محركاً إياها بشعره ، هازًّا أعطافها بأمداحه ؛ فعُرف قدرُه ، وأعين على طِيَّته ؛ فحجّ وتطوّف ، وقيّد ، واستكثر ، ودوّن فى رحلة سفره ؛ وناهيك بها طُرفة ؛ وقفل إلى إفريقية ، وكان عَلِق بخدمة بعض ملوكها ، فاستقرّ ببجايه لديه ، مضطَّلعاً بالكتابة والإنشاء . ثم انتقل إلى خدمة سلطان المغرب ، أمير المسلمين أبى الحسن ؛ ولم ينشب أن عاد إلى البلاد المشرقية ، فحج ، وفَصل إلى إفريقية ، وقد دالت الدولة بها بالسلطان(٣) المذكور ، فتقاعد عن الخدمة ، وآثر الانقباض ؛ ثم ضرب الدهر ضرباته ، وآل حال السلطان إلى ماهو معروف ، وثابت للموحِّدين برملة بجاية بارقة لم [تكد تنقد](٤) حتى خَبَت ، فعادإلى ديوانه من الكتابة عن صاحب بجاية . [ثم](٥) أبى مؤثراً للدَّعة فى كَنَف الدولة الفارسية(٦) ، ونَفَض عن الخدمة يده ، لا أُحقِّق مضطراً أم اختياراً ، وحجة كليهما قائمة لديه ، وانقطع إلى تربة الشيخ أبى مَدْين بعُبَّاد(٧) تلمْسان ، مؤثراً للخُمول ، عزيزاً به ، ذاهباً مذهب التَّجلَّة من التجريد والعكوف بباب الله ، مفْخَراً لأهل نِحلته(٨) ، وحجة على أهل الحرص والتهافت ، من ذوى طبقته ، راجع الله بنا إليه بفضله . ثم جبرته الدولة الفارسية على الخدمة ، وأبرّنه برّة

(١) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الأربعة : (إلى أثر المشرق) وهو مالا يدل على معنى معين . ونعتقد أن التصويب على هذا النحو يحقق المعنى المقصود .

(٢) وردت فى المخطوطين (إلى) وهو ما يتعارض مع ما يلى . ونعتقد أن التصويب يساعد على استقامة السياق .

(٣) هكذا وردت فى « ت » . وفى المخطوطين : السلطان .

(٤) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : « تكن تقد » . وحكمة التصويب ظاهرة .

(٥) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق والمعنى .

(٦) نسبة إلى السلطان فارس أبى عنان .

(٧) العباد هى ضاحية صغيرة تقع على مقربة من تلمسان ، وبها مزار ولى المغرب الشهير « سيدى أبو مدين » وهو فى الأصل العلامة الأندلسى الشهير شعيب بن الحسين المتوفى سنة ٥٩٤ هـ .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » نحلته .

النسك ، فعاد إلى ديدنه من الكتابة ، رئيساً ومرؤوساً . ثم أفلت نفيه موتُ السلطان أبى عنان فلحق بالأندلس ، وتُلقى ببرٍّ وجراية ، وتنويه وعناية ، واستعمل فى السفارة إلى الملوك ؛ ووُلِّى القضاء فى الأحكام الشرعية بالقليم بقرب الحضرة ؛ وهو الآن بحاله الموصوفة ، صَدْراً من صدور القطر وأعيانه ، يحضر[1] مجلس السلطان ، ويُعدُّ من نبهاء من يُنتاب بابه ، وقد توسط من الاكتهال ، مقيماً لرسم الكتابة والظرف مع الترخيص للباس الحرير ، والخِضاب بالسواد ، ومصاحبة الأبهة ، والحرص على التجلة .

وجرى ذكره فى « التاج المُحلى » بما نصه : « طَلَع شهاباً ثاقباً ، وأصبح بشعره للشِّعرى مُصاقباً ، فنَجَم وبرع ، وتمَّم المعانى واخترع ؛ إلى خط يستوقف الأبصار رايقُه ، وتقيِّدُ الأحْداق حدايقُه ، وتفتن الألباب فنونه البديعة وطرايقه ، من بليغ يطارد[2] أسراب المعانى البعيدة فيقتنصها ، ويغوص على الدرر الفريدة فيخرجها ، ويستخلصها بطبع مذاهبه دافقة ، وتأييد رايته خافقة ، نَبَهُ فى عصره شرف البيان من بعد الكرى ، وانتُدب بالنشاط إلى تجديد ذلك البِساط وانبرى ، فدارت الأكواس[3] ، وتضوَّع الورد والآس ، وطاب الصَّبوح ، وتبدل الروح المَروح ، ولم تزل نفحاته تتأرَّج ، وعقائلُ بناته تتبرَّج ، حتى دُعى إلى الكتابة ، وخطب إلى تلك المثابة[4] ، فطرَّز المفارق برقوم أقلامه ، وشنَّف المسامع بدُرِّ كلامه ؛ ثم أجاب داعى نفسه التى ضاق عنها جُثمانه ، لا بل زمانه ، وعظُم لها فكره وغمُّه ، وتعب [فى][5] مداراتها ، وكما قال أبو الطيب المتنبى : « وأتعَبُ

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » و « الملكية » : بحضرة .

(٢) فى المخطوطين « والملكية » : يطارب والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : الكباس . والتصويب من « الملكية » .

(٤) هكذا وردت فى « الملكية » . وفى « ج » (المثوبة) . والأولى أرجح .

(٥) إضافة يقتضيها السياق .

خلق الله من راد محمدُه » ، فارتحل لطيَّته ، واقتعد غارب[1] مطيَّته ، فحجَّ وزار ، وشد للطَّواف الإزار . ثم هبا إلى المغرب وحوَّم ، وقفل قفول النسيم عن الروض بعد ما تلوَّم ، وحطَّ بإفريقيه على نار القِرى ، وحمد[2] بها صباح السُّرى ، ولم يلبث أن تنقلَ ، ووحِر الحميمُ شِفافه وتنغل ، ثم بدا له أُخرى فشرق ، وكان عزمُه أن يجتمع فتفرَّق » .

مشيخته

روى عن مشيخة بلده وأشجر ، وقيَّد واستكثر ، وأخذ فى رحلته عن أناس شتَّى يشق إحصاؤهم[3] .

تواليفُه

منها كتاب « المُساهلة والمسامحة » فى تبيين طرق المداعبة والممازحة » و« إيقاظ[4] الكرام ، بأخبار المنام » و« تنعيم الأشباح بمحادثة[5] الأُرواح » ، وكتاب « الوسائل ونزهة المناظر والخمائل » و « الزَّهرات وإجالة النَّظرات » و كتاب فى « التَّوْرية » على حروف المعجم ، أ كثره مروى بالأُسانيد عن خلق كثير ، والله تعالى يجُزه ؛ وجزء فى تبيين المشكلات الحديثة الواصلة من زُبيد اليمن[6] إلى مكَّة ؛ وجزء فى بيان اسم الله الأعظم ، وهو كبير الفائدة ، و « نزهة الحدَق فى ذكر الفِرَق » ، وكتاب الأربعين حديثاً البُلدانية ، والمُستدرك عليها من البلاد التى دخلتها ، ورويت فيها ، زيادة على الأربعين ، و « روضة العباد المستخرجه من الإرشاد » ، وهو من تأليف شيخنا القطب أبي محمد الشافعى ؛

(١) وردت فى المخطوطين : غاب . وهو تحريف .

(٢) فى « ج » : وحم . وفى « ك » وحمل . والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) هكذا وردت فى « الملكية » . وفى « ج » احصارهم .

(٤) وردت فى المخطوطين : إيقاض .

(٥) وردت فى المخطوطين : محادثة .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (زبيد المن) .

والأربعون حديثاً التى رويتها عن الأمراء والشيوخ ، الذين [رَوُوا][١] عن الملوك والأمراء ؛ والشيوخ الذين رَوُوا عن الملوك والخلفاء القريب عهدهم ؛ ووصلت بها خاتمةً ذكرتُ فيها فوائد مما رويته عن الملوك والأمراء ، وعن الشيوخ الذين روُوا عن الملوك والأمراء ؛ وكتاب « اللِّباس والصُّحبة » وهو الذى جُمعت فيه طرق المتصوِّفة ، المدَّعى أنه لم يجمع مثله ؛ وكتاب فيه شَطْر الحماسة لحبيب ، وهو غير مُكمَّل ؛ ورجز فى الفرائض على الطريقة البديعة التى ظهرت ببلاد الشرق ؛ ورجز صغير فى الحُجُب والسِّلاح ، ورجز فى الجدَل ؛ ورجز فى الأحكام الشرعية سمّاه[٢] ، « بالفصول المُقْتضبة فى الأحكام المُنْتَخبة » ؛ وكتاب سمَّاه « بمثاليث القوانين ، فى التَّوْرية والاستخدام والتَّضمين » ، وهو كله من نظمه ؛ وله تأليف سماه « بفَيْض العُباب ، وإجالة قِداح الآداب ، فى الحركة إلى قُسَنْطينة والزَّاب »[٣]

شعره

ومن شعره فى المقطوعات :

طاب العَذيب بماءِ ذِكرك وانثنى ... فكأنَّما ماء العذيب سلافُه
واهتزَّ من طربٍ لانياكِ الحِمَى ... فكأنَّما بأناتِهِ أعطافُه

ومن ذلك :

لىَ المدحُ يروى منذ كنت كأنما ... تصورت مدحاً للوَرَى وثناء
ومالى هجاء فاعجبنّ لشاعر ... وكاتبِ سرٍّ لا يُقيم هجاء

---

(١) واردة فى « ج » و « الملكية » . وساقطة فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : سميته . والتصويب يقتضيه السياق .

(٣) وردت فى المخطوطين : الذباب . وهو تحريف . والزاب من أقاليم المغرب الأوسط . وقسنطينة مدينة بالجزائر على مقربة من بجاية .

ومن ذلك :

ولى فرسٌ من علية الشُّهب سابق أصرِّفه يوم الوغى كيف أطلب
عدوتُ له فى حَلْبة القوم مالـكا [يتابعُنى][1] ماشئت [فى السبق][2] أشهب

وقال ، وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء « فيض الثغور » وشرب منها :

تعجبتُ من ثَغْر هذى البلاد وها أنت من [عَيْنه شارب][3]
فلله ثغر أرى شـــارباً وعينٌ بدا فوقها حاجبُ

ومن ذلك :

وحمراء فى الـكأس مشمولة تحث على العَوْد[4] فى كل بيت
فلا غَرْو أن جاءنى سـابقا إلى الأنس خل[5] يحثُّ الـكميت

وقال مُضَمِّنا ، وقد تذكر حمراء غرناطة ، وبابها الأحفل المعروف « بباب الفَرَج »[6] :

أقول وحمراء غرناطة تشوق النفـــوس وتَسْبى المُهَج
ألا ليت شعرى بطول السُّرى أرتنا الوجى واشتكت[7] العرج
ومالىَ فى عرجٍ رغبـــةٌ ولـكن لأقْرَع باب الفرَج

وقال مُلْغزا فى قلم وهو ظريف :

أحاجيك ما واشٍ يُراد حديثه ويهوى الغريب النازح الدّار إفصاحَه

---

(١) هكذا وردت هذه الكلمة فى « ج » . وفى « ك » : فتى يعنى .

(٢) الزيادة من « الملكية » ومكانها بياض فى « ج » .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى الملكية : (عينها تشرب) .

(٤) أغفلت فى المخطوطين : والإضافة من الملكية ونفح الطيب .

(٥) وردت فى المخطوطين : حل . والتصويب من النفح .

(٦) كان باب الفرج هو باب قصر الحمراء الرئيسى الذى يلى « باب الشريعة » . وهو باب مدخلها الحالى . وقد اختفى اليوم « باب الفرج » .

(٧) وردت فى « ك » . واستكتب . وفى « ج » واستكتبه .

تراهُ مع الاحيان أصفَرَ ناحلا كمِثْلِ مريض وهو قد لازم الرّاحة

وقال :

وقالوا رمى فى الكأس وَرْداً فهل تَرَى لذلك وجهاً قلت أحْسِن به قَصْدا
ألم تجد اللذات فى الكأس حَلْبة فلا تُنكروا فيها الكُميت ولا الوَرْدا

وقال :

[كُماة تلاقت تحت نقع سيوفهم وللهام رَقْصٌ كلما طلب الثأر
فلا غرو أن غَنَّتْ وتلك رواقصٌ . . . فيهمُ فى مارِدِ الحرب أو تار][1]

وقال :

وعارضٌ فى خـدِّه نباتُه فحُسْنه بين الورى يَسْحرنا
أجْرَى دموعى إذ جَرت شوقا له فقلتُ هذا عارضٌ مُمطرنا

وقال وقد توفى السلطان أبو يحيى بن أبى بكر صاحب تونس، وولى ابنه أبو حفص[2] بعد قتله لإخوته :

وقالوا أبو حفص حَوَى المُلْك غاصباً وإخوته أولى وقد جاء بالنُّكر
فقلت لهم كفوا فما رضى الورَى سوى عُمَر من بعد موت أبى بكر

وقال مضمِّنا، وقد حضر الفتى الكبير عَنْبر قتالا، وكان فارساً مذكوراً عند بنى مَرِين :

ولقد أقول وعنبرٌ ذاك الفتى يَلْقَى الفوارس فى العَجَاج الأكور
ياعاثرين لدى الجلاد لَعاً فقد بسقَت[3] لـكم ريح الجلاد بعنبر

(١) ورد هذان البيتان بنصهما فى «ك»، وأغفلا فى «ج» وفى «الملكية».
(٢) هكذا وردت فى «ك». ووردت فى «ج» أبوجعفر. والأولى متفقة مع سياق الشعر
(٣) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» تبعت.

وقال وقد اشتاق إلى السُّبيكة[١] خارج حمراء غرناطة :

وإن إفراط بُـكائى لم يَرُعْ منى عريكة
قد أذاب العين لمـا زاد شوقى للسَّبيكة[٢]

* * *

لمـا نزلتُ من السَّبيكة صادنى ظبىٌ وددت لديه أن لم أنزل
فاعجب لظبي صاد ليثاً لم يكن من قبلها مُتخبطًا[٣] فى أخبل

وقال وهو ظريف :

قد قارب العشرين ظبىٌ لم يكن ليَرَى الوَرَى عن حبه سُلْوانا
وبدا الربيع بخدّه فـكأنمـا وافى الربيعُ ينـادم النعمانا

وقال :

أتَوْنى فعابوا من أحبُّ جماله وذاك على سَمْع المُحب خفيف
فما فيه عيبُ غير أنَّ جفونه مِراضٌ وأنَّ الخصْر منه ضَعيف

وقال :

أيا عجباً كيف تهوى الملوكُ محلِّى وموطن أهلى وناسى
وتحسِدُنى وهى مخـدومَة وما أنا إلا خديمٌ بفاس

نثره

ونثرهُ تلوَ نظمه فى الإجادة، وقد تضمَّن الـكتاب المسمى « بنُفاضة الجراب »[٤]

(١) كان اسم « السبيكة » يطلق على الساحة الكبيرة اليانعة الواقعة جنوب شرق الحمراء . (أنظر لزيادة التعريف الحاشية فى ص ١١٦) .

(٢) أدمج هذان البيتان فى المخطوطين فى بيت واحد . وهما ساقطان فى « الملكية » .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : متحصنا .

(٤) « نفاضة الجراب فى علالة الإغتراب » هو أحد كتب ابن الخطيب التى وضعها قبل «الإحاطه» وقد أشرنا إليه فى المقدمة عند الكلام على مؤلفات ابن الخطيب . ومنه قطعتان مخطوطتان . الأولى توجد بمكتبة الإسكوريال وتتضمن السفر الثانى منه . والثانية توجد بخزانة الرباط العامة وتتضمن السفر الثالث . وقد وردت رسالة إبى إسحق بن الحاج ورّد ابن الخطيب عليها فى هذه القطعة الأخيرة (راجع التفاصيل الوافية عن هذا الكتاب فى كتابى « لسان الدين بن الخطيب » ص ٢٤٢ — ٢٤٥) .

منه ذكر كل بديع ؛ فمما ثبت فيه ، مما خاطبته به . وقد ولى خُفّة القضاء بالإقليم ، أداعبه ، وأثير ماتستحويه عجائبه :

أيا قاضى العدل[1] الذى لم تزل تمتارُ شهب الفضل من شمسك
قعدتَ للإنصاف[2] بين الورَى فاطلب لنا الإنصاف من نفسك

« ماللقاضى ، أبقاه الله ، ضاق ذَرْعُ عدله الرَّحيب ، عن العجيب ؛ وهمّ عن العَتْب ، وضَنّ[3] على صديقه حتى بالكُتْب ؛ أمِن المُدَوَّنة الكبرى ركب هذا التحريج ، أم من المَبْسوطة ذهب إلى هذا الأمر المريج ؛ أم من الواضحة امتنع عن الإمام ببديع الوفاء والتعريج ؛ ومن أمثالهم إرضَ من أخيك بعُشْر وُدّه إذا وُلّى ، وقد قَنِعنا والحمد لله بحَبّة من مُدّه ، وإشارة من دَرْجه ، وبرّة وصاعة[4] معتدلة ، من زمان بلوغ أشُدّه ؛ فما باله يمطلُ مع الغِنى ، ويحُوج إلى العَنا ، مع قرْب الجَنَى ؛ المحلة حُلة ضالع ، ومطمع وطامع ، ومَرْأى[5] ورأى ، ومستمع وسامع ، والكَنَفُ واسع ، والمكان لاناءٍ ولا شامع ؛ والضَّرع حافل ؛ والزّرع كافٍ كافل ؛ والقريحةُ وارية الزَّند ، والإمامة خافقة البَنْد ؛ وهب أن البُخْل يقع بها فى الخِوان على الإخوان ، فما باله يسمح بالبيان ، وليس الخبر كالعِيان ؛ ويتعدى حظَّ الجنان ، لاخَطَّ البنان ؛ أعيذ سيدى من ارتكاب رأيٍ ذميم ، ينقل إلى نميرها بيتُ تَميم ، ويقصدُ معناه بتَميم ، وهلا تلاحم ؛ وعهدى بالسياسة القاضَوية[6] ، وقد نامت [فى مهاد أهل الظرف] [7] ، نوم أهل الكهف ، ولم

(١) وردت فى المخطوطين : اعدل .
(٢) وردت فى المخطوطين : للانصراف . وحكمة التصويب ظاهرة .
(٣) وردت فى المخطوطين : وطر . وهو تحريف .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : واسعة . والأولى أرجح .
(٥) هكذا فى « ج » : والملكية . وفى « ك » مراء .
(٦) فى « ك » ، العاطوية . وفى « ج » ، الفاطوية . وفى « الملكية » الفاطرية .
(٧) هكذا وردت هذه العبارة فى « ك » . وفى « ج » (فى مهاد الترف) .

تُبال بمردَّد الويل واللَّهف ، أو شَرْبةٍ لحفظ الصِّحة بخَنْجا، ودقت لإعادة الشَّبيبة عفْصًا وَرد سَخْتَجا ؛ وغطَّت الصبح بالليل إذا سجا ، ومدَّت[١] على ضاحى البياض صلًا[٢] مَجْسجا ؛ وردَّت سَوْسن العارض بنَفْسجا[٣] ، ولَبِس بحرها الزَّاخرمن طُحلُب البحر مُنتَسجا ؛ وأحكامُ العامة ، ومزين[٤] المرأة ينصح ويُرشد ، ويطوى المحاسن وينشُد ، حتى حسُنت الدَّارة ، وصحَّت الاستِدارة ، وأعجبه الوجهُ الجميل ، والقدُّ الذى يميد فى دَكَّـة الدَّار ويميل ، وأغرى بالسواك السميم والتكميل ، ووَلج بين شفَرتى سيد الميل ، وقيل لو صاح اليمين خاب فيك التَّأميل ؛ وامتدَّ جناح برلس السَّرِق ، واحتفل[٥] الغصن الرَّطيب فى الورق ، ورشَّ الوَرْد بمائه عند رَشْح العرق ، وتهيأ لمنطَلَق. فقرأت عليه نساء أعوانه ، وكتبة ديوانه ، سورة الفَلَق ؛ من بعد ما وَقَف الإمليق[٦] حُجَّابه على إقدامهم ، وسحبهم جلاوزته من أقوامهم ؛ فمثلوا واصطفُّوا ، وتألَّفوا والتفوا ، وداروا وحفُّوا ، وما تسللوا ولا خفوا[٧] ؛ كأنما أسمعتهم صيحة النَّشر ، وأخرجوا لأول الحَشْر ، فعيونهم بملتقى المِصْراع معقودة ، وأذهانُهم لمكان الهيبة مفقودة ؛ وحِبالتهم قبل الطلب بها منقودة ؛ فبعد ما فرَّش الوِساد ، وارتفع بالنِّفاق الكساد ، وذارع[٨] البكا وتأرج الحُسَّاد ، واستقام الكون وارتفع الفساد ، وراجعت أرواحَها الاجسادُ ؛ جاءت السَّادة القاضوية فجلست ، وتنعَّمت الأحداقُ بالنظر فيها واختَلست ،

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ومرت .
(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» هلا .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» سفسجا .
(٤) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» ومدين .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» واحتمل .
(٦) هكذا فى «ك» . وفى «ج» الأملين .
(٧) وردت فى المخطوطين والملكية : وحفوا .
(٨) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» : ودارع .

وسجَت الأكُفّ حتى أفلَست ، وزانت شمسُها ذلك الفَلَك ، وجلَت[١] الأنوار ذلك الحَلك ، وفُتحت الأبواب وقالت هَيْت لك ؛ ووقفت الأعوانُ مِمَاطَين ومَثَلوا خَطَّين ، وتشكَّلوا مجرَّة تنتهى منك إلى البطين ، يُعلنون بالهديَّة ويجهرون ، [ولا][٢] يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؛ من كل شهاب ثاقب وطائفٍ غاسِق واقِب ، وملاحظ مُراقب ؛ كَمِيشُ الإزار ، بعيد المزار ، حامل للأوبار[٣] ، خصيم[٤] مبين ، وارثٌ سوفسطائياً[٥] عن رثين ، مضطلِّع بفقه البين[٦] وحريمها ، فضلاً عن تلقين الخصوم [وتعليمها][٧] ، برأسهم العريف المتمرِّب ، والمقدَّم المُدرَّب ، والمُشافه المُباشر ، والنَّابح الشاكر ، والنَّهج العاشر ؛ الذى يقتضى خلاص العَقْد ، ويقطع الكالى والنَّقد ، ويزكِّى ويجرِّح ، ويُمسك ويسرِّح ويطرِّح ، ويحمل من شاء أو يشرِّح ، والمُسيطر الذى بيده ميزان الرِّزق[٨] ، وجميع أجزاء المُفْتَرِق ، وكافة[٩] قابلة ، وحم الدواة الفاغرة ، ورشا بلالة الصُّدور الواغِرة ؛ فإذا وقف الخصمان بأقصى مطرح الشعاع ؛ أيَّان[١٠] يجتمع الرعاع ، وأعلنا النِّدا ، وطلب الأعداء . وصاحا جعل الله أنفسنالك الفِدا ، ورُفع الامر إلى مُقطِع الحق ، والأولى بالمثوبة الأحق ، أخذتْهما الأيدى دفعاً فى القُفِىّ ، ورفعا السِّتر اللَّطيف الخفِىّ ، وأمسكا[١١] بالحِجْر والأكمام ، ومنعا المباشرة

---

(١) فى المخطوطين : وجلب . وهو تحريف .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » و « الملكية » .

(٣) وردت فى المخطوطين : للأورباز .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » ، خيم .

(٥) وردت فى المخطوطين : سوفطائياً .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » البيق .

(٧) واردة فى « ت » و « الملكية » . وساقطة فى المخطوطين .

(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » الورق .

(٩) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » كفة .

(١٠) وردت فى «ج» « والملكية » أمان . وفى «ك» وأماى . ونعتقد أن التصويب أنسب للمعنى .

(١١) وردت فى « ج » : وإمساكاً . وفى « ك » وإمسا . وهو تحريف .

والإلمام ، فإذا أدلى بحجته مَنْ أدلى ، وسمعها دينه عدلا ، وحقّ القول ، واستقرّ[١] الهَوْل ، ووَجَبت اليمين ، أو الأداء الذى يفوت له الذخر[٢] الثمين ، أو الرهن أو الضَّمين ، أو الاعتقال الذى هو على أحدهما كالأمين ؛ نَهَش الصِّل ، الذى سليمه لأهل ، ولَسَبَت[٣] العقارب ، التى لايُفلتُها الهارب ، ولا تَخفى منها المشارب ؛ وكم تحت ظلام الليل من غرارة يحملها غِر ، وصدّه ريح فيها صِرّ ؛ ويهدى ارتقاب قُلّة شَهْد ، وكبش يُجَرّ بقرنيه ، ويدْفع بعد رفع ساقيه ؛ ومِعْزى وجَدْى وقلائد ، [وسرب][٤] دجاج ، ذوات بجاج ، يفْضَحن[٥] الطَّارق ، ويشعثن[٦] المَفارق ، فمتى يستفيقُ سيدى مع هذا اللَّغط العائد بالصِّلة ، واللهو المتَّصلة ، وتَفْرغ يده البيضا لأعمال ارْتِياض ، وخطٍّ سوادٍ فى بياض ، أو حَنينٍ لدَوْحٍ أو رياض ؛ أو إمتاع طَرْف ، باكتشاف حَرْف ، أو إعمال عدل لرسول فى صَرْف ، أو حَشْو طَرْف ، بتُحفة ظَرف ؛ شأنه أشدّ استغراقاً ، ومثواهُ أكثر طِراقاً ، من ذكرى حبيبٍ ومنزل ، وأمٍّ مُعَدَّل ؛ وكيف يستخدمُ القلم الذى يصرف ماءها الحبر[٧] ، بذَوْب التِّبر ، فى ترَّهاتٍ عَدِمِ جَناها ؛ وأقْطَع جانب الخيبة لفظها ومعناها ؛ اللّهم إلا أن تحصل النفس على كفاية تُحتِم لها الصَّدر ، ويُشام من خلالها اللُّجين [الرفيع][٨] القدر ، أو يحي للفكاهة والأُنس ، أو يُنفق لديها ذمامٌ على الجِنس ؛ فربما تقعُ المخاطبة المبرورة ، وتبيحُ هذا المُرْتَكَب الصعب الضرورة ؛

---

(١) فى المخطوطين : استنفر .

(٢) فى المخطوطين : الزخر .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : ألبست فى « ك » . والبيت فى « ج » .

(٤) وردت مكانها فى المخطوطين : وهو درب .

(٥) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » بمحصر . والأولى أنسب للمعنى .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » يشتعن .

(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » البحر .

(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ت » .

والمرغوبُ من سيّدنا القاضى أن يَذْكُرَنا[1] يوماً بالإغفال فى نعيمه ، ولا يخيِّبَ آمالنا المتعلِّقة بأذيال زعيمه ، ويُسْهِمَنا حظّاً من فرائد خطِّه ، لامن فوايد خُطَّته ، ويجعلَ لنا كِفْلا من فضل بُرِيته وحِنْطَته[2] لا من فضل هِرَّته وقِطَّته[3] ؛ فقد غَنينا عن الحلاوات بحلاوات لفظه ، وعن الطرَف المجموعة ، بفُنون حِفْظه ، وعن قَصَب السُّكر ، بقصب أقلامه ، وعن جنى الرُّوْم برَوامه ، وبهَدْيه ، عن جَدْيه ؛ وبمجاجَته ، عن دجاجته ؛ وبدَلَجه عن أتْرُجه ؛ وعن البُر ببِرِّه ، وعن الحَبِّ بحُبِّه ؛ ولا نأمُل إلا طاوع بطاقته ، وقد رضينا بوُسْع طاقته ؛ وإلا فلا بدَّ أن يجيش جيش الكلام إلى عَتْبه ، ونُوالى عليه ضرايب الكتايب ، حتى يتَّقى بضريبَة كَتْبه . والسلام[4] » .

فراجعنى بما نصه :

فنيت عن الإنصاف منِّى لأننى كما قُلْتُ لكم من فراقكم قاضِ

فمن سَمْعنا أو من بعينك إننى[5] بكلٍّ الذى تَرْضاه يا سيدى راضِ

« عَمَرَكَ الله أيها الإمام الفذُّ ، ومن بمَدْحه تطرَب الأسماع وتَلَذّ ، أوحدُ الدنيا وحائزُ الرُّتبة العليا ؛ ولولا أنك فوق مايقال ، والزَّلة إن لم تُظهر العجز عن وصْفِك لاتقال ، لأَطلتُ فى القول ، وهَدَرْتُ هدير[6] قَرْع الشَّول ، لكن تحصيل الحاصل مُحال ، ولكل فى تهيُّب كمالك مقال ، ومقامٌ وحال ؛ ولولا أنَّ الدعاءمأمول ، وهو يظهر الغَيْب مَقْبول ، والزيادة من فضل الله لاتنتهى ، والنِّعم قد تُوافيك ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : يذكر . والتصويب يقتضيه السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : بريته ومظنه . والتصويب من « الملكية » .

(٣) فى المخطوطين : وقطعته . والتصويب يقتضيه السياق .

(٤) وردت هذه الكلمة فى « ك » . وأغفلت فى « ج » و « الملكية » .

(٥) وردت هنا الشطرة فى المخطوطين هكذا : (فمن سمعنا أو بعتك إنى) فى الزى .

(٦) فى المخطوطين : هديع . والتصويب يقتضيه السياق .

فوق ما تشتهى ، لأُريت[1] أن ذلك [أمرٌ][2] كفى ، وأمرُ ظهر [فيه ما خَفى][3]

[إن قلتُ لازلتَ مرفوعاً فأنت كذا أو قلتُ زانك ربّي فهو قد فعلا][4]

إيه ياسيدى ما هذه الكلمات السّحريّة والأنفاس النّفيسة الشّجرية ، والألفاظ التى أنالت المرغوب وخالطت بشاشتها القلوب ، والنّزَعات الرّائقة ، والأساليب الفائقة ، والفصاحة التى سلبت العقول ، والبلاغة التى أوجبَت الذّهول ، والبيان الذى لا يضيق صحيفه[5] ، ولا يبلغ أحد مدّه ونَصيفه ؛ يميناً بما احتوى من المحاسن ، واللطائف التى لم يكن ماؤها بالآسن ، وقسماً ببراعتك التى هى الواسى المُطاع ، وطِرْسِك الذى أبهجت به الأبصار والأسماع ؛ لقد عادلى بكتابتك عيدُ الشّوق ، وجاد لى بخطابك جدُّ التّوق ، ولعَهدى بنفسى رَهْن أشجانى[6] ، غيرَ محْلولة عُقدة [لسانى][7] ، أشدَّ من الصخرة جَلدًا ، وأغلظَ من الإبل كبداً ؛ حتى إذا بَدَت حقيدة[8] القلب وهبَّ نسيمه الرَّطْب ، وأفْيَح موردُه العَذْب ، وأضاء بنوره الشّرق والغرب ، ولم يبق لى بثٌّ ولا شَجَن ، ولا شاقنى أهل ولا وطن ؛ ومضى سيف اللسان بعد النبوّ ، ونَهَض طَرْف الفكر بعد البُكر ، وهزّنى الطّرب المثير[9] للأفراح ، ومشى الجذَل[10] فى أطرافى وأعطافى مشْي الرّاح ؛ بيد أنى خَجِلت ولا خَجْلة ربّة الخِدْر[11] ،

---

(١) هكذا وردت فى « ج » وفى الملكية . وفى « ك » لرأيتك .

(٢) وردت فقط فى « ك » . وساقطة فى باقى المخطوطات .

(٣) وردت هذه العبارة فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) هذا البيت وارد فى « ج » و « الملكية » . وساقط فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » حصيفه .

(٦) وردت فى المخطوطين : الشحانى . وهو تحريف ظاهر .

(٧) وردت فى « ك » و « الملكية » . وأغفلت فى « ج » .

(٨) هكذا فى « الملكية » . وفى « ج » حقيرة . وفى « ك » حريقة .

(٩) هكذا فى « ك » . وفى « ج » المتين .

(١٠) وردت فى المخطوطين : الجزل .

(١١) وردت فى المخطوطين : الحذر .

وتضاءلت نفسى لجلالة ذلك القَدْر ؛ وقلت مالى بشرْبة من كأس بيانه ، وقَطْرة من بُحور إحسانه ؛ حتى أُؤدِّى ، ولو بعض حقِّك ، وأكتبَ عقْد ملْك رقِّى لرقك ، إننى على ماوليتُ من الصَّدقة والصَّداقة وبعد طلاقك ؛ لكنى أقوم فى حقك مُسْتَغْفِراً ، ولا أرضى أن أكون لذمَّة المخدوم خفراً ؛ على أننى أقول ، قد كتبتُ فلم يُردّ جوابى ، وجرَمْت فهاج الجوى بى ' ولعَمْرى قد لزمت فيه خطّة الأدب ، ولم أر التّثقيل على المولى الرَّفيع الرُّتب ؛ فأما وقد نَفقَتْ عندك بضاعتى المزْجاة ، وشملنى من لدُنْك الحلم والأناة ، وشرَّفنى بالخطاب الكريم ، والرسالة التى عرفتُ فى وجهها نُضْرة[١] النعيم ؛ فما أبْغِى إلا إيرادها[٢] عليك وكلها خراج ، ولبُرْدها فى الإجادة إنْهاج ؛ ولعلك ترضى التَّخْريج من مُدَوَّنة الأخبار ، والمَبْسُوطة والواضحة ، لكن من الأعذار . وأمّا الولاية التى يقُنع بسببها من الوُد بالعُشْر ، أو بحبّة من المُدّ إلى يوم النَّشْر ، فلابد أن يكون القانع محتاجاً للوالى ، ومُفْتَقِراً إلى التفقُّد[٣] المتوالى ؛ وأما إذا كان القانع هو الذى تولّى الخُطّة ، وأكْسِبَ الهرَّ[٤] الذى أشار إليه والقطَّة ، فهو قياسٌ عكسه كان أقْيَس ، بل تعليمٌ لمن وجد فى نفسه خيفةً وأوجس ؛ وهأنا قد فهمْتُ وعلمتُ ، من حسن تأديبك ما علمتُ ، وعلى ما فرَّطت فى جَنْبك نَدمت ، وإلى المعذرة[٥] والحمد لله أُلهِمت ؛ ومع ذلك أعيدُ حديث الشيخ [القاضى][٦] ، وذكر عهدك به فى الزمان الماضى ؛ فلقد أجاد ، فى الخضاب[٧] بالسَّواد ، واعتمد على قول المالكى الذى هَدَى [إلى الرَّشاد][٨] ، وأوجبه بعضهم فى بلاد الجهاد ؛

---

(١) هذه الكلمة واردة ثابتة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : أيراها .

(٣) وردت فى المخطوطين : تفقد .

(٤) وردت فى المخطوطين : الهند .

(٥) وردت فى المخطوطين : العذرة .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين و « الملكية » ، وواردة فى « ت » .

(٧) وردت فى المخطوطين : بالخطاب . والتصويب يقتضيه السياق .

(٨) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الرشاد .

وبيَّن عمرُ منافع الخضاب[1] الصادقة الإشهاد ، وخضَب بالسَّواد جماعة من الصَّحابة الأمجاد ، وكان ذلك ترخيصاً لم يُعد شَرْعاً ، لـكنه دفع شرًّا وجلب نَفْعاً ، لا كأخيه الذى أبكى عين الحَميم ، وأنشد قول الرَّضيِّ يوم السقيم ، وفجع قلوب أترابه ، ولم يأت بيت النَّصْف من بابه ، وإلا فقد علم أن فى الخير مشروع ، وتعجُّل الشىء قبل أوانه ممنوع ، وستَغْبِط أخاك ولو بعد حين ، وما كل صاحب يحمد[2] فى إيضاح وتبيين ، وإنى لأرجو أن تتزوجها بكْراً ، تلاعِبها وتلاعبُك ، أو ثَيِّباً تقْصُر عن حبها مآربك ، فلا جَرَم ترجع إلى الخضاب ، وحينئذ تُمتَّع برشف الرُّضاب ، وإلا قالت سيدى ، لا تعظم المُني ، ولا تجعل القَطْر قبل أن يموت[3] عمر ، لعَمْرُ الله إن هذا الموقف صَعْب ، قد ملأ الروح منه رَوْعٌ ورُعْب ، وإن أضاف إلى ذلك غَلَبة الأوهام ، وظن الشيخوخة الصادرة عن نيل المرام ، سكن المُتحرك المطلوب ، وتنغَّص عند ذلك المحبوب ، والله يُعينك أيها المولى ، ويواليك من بَسْطه أضعاف ما ولى . وأما الأوصاف التى حسَبْتَها[4] أوصافى ، وأوْجَبْتَ حُـكْمها بالقياس على خلافى[5] ، فهى لعَمْرى أوصاف لا تُراد ، ومراعٍ لا شك أنها تراد ، غير أنى بعيد العَهد بهذه البلاد ، [لا أمت لها][6] إلا بالانتساب والميلاد ، لا كالقضاة الذين ذكرتَ[7] لهم عهداً ، ونَظَمْتَ حلاهم[8] فى جيد الدهر عِقْدا ، ولو أنك [بسرك][9] بَصَّرتنى بشروط القضاء وسجايا أهل الصَّرامة والمضاء ، لحققت المَناط ، وأظهرت الزهد

(١) وردت فى المخطوطين هنا أيضاً : الخطاب .
(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » يحمل .
(٣) هكذا وردت فى « ت » . ووردت فى المخطوطين والملكية : أموت . والأولى أرجح .
(٤) وردت فى المخطوطين : حبستها .
(٥) وردت فى المخطوطين : خلاف .
(٦) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية . وفى « ك » : لا أمتثلها .
(٧) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : يذكر .
(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : حالمم .
(٩) هذه الكلمة واردة فى الملكية ، وساقطة فى باقى المخطوطات .

والاغتباط ؛ لكنى جهلت [والآن أهمت][١] ؛ وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلَم ، والله يهدينا إلى الذى يكون أحسنُ وأقوم ؛ وإنى لأعلم سيدى بخبرى[٢] ، وأطلع جلاله على عُجْرى وبُجرى ؛ ولكنى رَحَلتُ عن تلك الحضْرة ، وعَدِمت النَّظرة فى تلك النَّظْرة ، لبستُ الإهمال ، واطّلعت فى السفر والاعتمال ، فأقيم بادى الكآبة ، مُهتاج الصَّبابة ، قد فارقتُ السكن ، وخلفت الدار مثيرةَ الشَّجن :

وكانت جَنَّتى فخرجتُ منها كآدم حين أخرجَه الضِّرار

حتى إذا حطَطْتُ رَحْلى بالقرى ، وقَنِعت بالزَّاد الذى كفى معياراً والقِرى ؛ أُدْخلت إلى دار ضيقة المسالك ، شديدة[٣] الظُّلمة كالليل الحالك ، تُذَكرنى القَبْر وأهواله [وتُنْسينى الذى أهواه][٤] ، بل تزيد على القبر برَفَل[٥] لا يُتخلص ، وبراغيث كريعة الكتَّان حين تُمَحَّص ؛ وبعوض يُطيل اللَّهزْ[٦] ، ولا تغنى حتى تشرب ، وبوق يسقط سقوط النَّدى ، ويزْحف إلى فراشى زَحْف العدا ؛ وأراقم خارجة من الكُوَى[٧] ، وحيَّات بلدْغها نزَّاعة للشَّوى ؛ وجنون يُسمع عزيفها[٨] . وسُرَّاق لا يعدم تخويفها ؛ هذا ولا قَرَق[٩] لمن بالقهْر حُبس ، إلا حصيرٌ قد اسودَّ من طول مالُبس ، لايُجتزى[١٠] فى طهارته بالنَّضْح ، ولا يُجْسد من جلس عليه إلا بالجُرح ؛ حتى إذا سجا الليل ، وامتدَّ منه على الآفاق الذيل ، فارقنى

(١) هكذاوردتهذه العبارة فى «الملكية» . ووردت فى «ج» (والىالآن أمهلت) والأولىأرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين : بخبر .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» : الشديدة .

(٤) وردت هذه العبارة فى «ج» و «الملكية» . واغفلت فى «ك» .

(٥) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : بزيل .

(٦) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» : المنى . والأولى أصوب .

(٧) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : الكرى .

(٨) وردت فى المخطوطين : عزيعها . وفى الملكية عزفها . والتصويب أرجح .

(٩) هكذا وردت فى المخطوطين : والقرق ، هو المكان المستوى .

(١٠) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : يجن .

العونُ فراق الكرى ، ورأيت الدمع لما جَرَى قد جَرَى ؛ فأتوسَّدُ والله ذراعي ، ولأحمد والله اضطِّجاعي ؛ فكِلاَ لَيْلَيَّ محمومين ، والوجعوالسَّهر مَحْمولان على الرأس والعين ؛ حتى إذا طلع الصبح ، وآن لبالي وعيونِ الخصوم الفَتْحُ ، أتاني عونٌ قد انحنى ظهره ظهره ، ونيف عن المائة عمرُه لا يشعر[١] بالجون الصَّيِّب ، ولا تُسمعه كلمات أبي الطيِّب ؛ بَرْبَرِى الأصل ، غير عارف بالفَصْل ؛ حتى إذا أذِنْتُ للخصوم ، وأردتُ إحياء الرسوم ، دخل على غولان عاقلان[٢] ، وأثقَل كَتِفِي منهما مايلان ، قد أكلا الثوم النِّيء والبصل ، وعَرِقا في الزنانير عرقاً اتَّصل ، يُهديان إلىَّ تلك الروائح ، ويظُهران لى المخازى والفضائح ؛ فإذا حَكَمْتُ لأحدهما على خصمه ، وأردت الفصل الذى لا مطمع فى فَصْمه ، هرب العونُ هربا ، وقضى من النجاة بنفسه أربا ، واجتمع إلى النصحاء ، وجاء المرضى والأصحّاء ، كل يقول أتريد تعجيل المنايا ، وإشكال الولايا ، وإتعاب صديقك السَّيد العِماد ، بمَرْتبَةٍ كما فعل مع القاضى الحدَّاد ، فأقول هذا جهاد ، ومالى فى الحياة مُراد ، فأرْتكبُ الخطر ، وأقضى فى الحكم الوَطَر . والله يسلِّم ، ويُكمِلُ اللطف ويتمِّم . وأما إذا جاء أحدكم لِكَتْب عقد ، وطمعتُ فى نسيئةٍ أو نقد ، قطعتُ يومى فى تفهُّم مقصده ، مستعيذاً بالله من غضبه وحَرَده ؛ حتى إذا ماتخلَّصتُ منه ، وملأت السِّجل بما أثبتهُ عنه ، كشف عن أنياب غُضل ، وعبس عبوس المحب لانقطاع وَصْل ؛ وقال لقد[٣] أخطأتَ فيما كتبتَ ، ورسمتَ ما أردت وأحببتَ ؛ فأكتُبُ عقداً ثانياً وثالثاً ، وأرتقبُ مع كل كلام حادثٍ حادثاً ؛ فإذا رضى ، فأسأله كيف ؛ وسِن السَّالى[٤] الذى أظهره ، أو اسمه[٥] أو السيفَ ، أخرج من فمه دِرْهماً نَتِناً ، قد لزم ضِرساً عَفِناً ؛ فأُعاجله فى البخُور ، وأحكُّه فى

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» يسمع .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . و فى «ج» و «الملكية» غافلان . والأولى أرجح .

(٣) وردت فى المخطوطين : لو . (٤) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» : البسالى .

(٥) وردت فى المخطوطين : اسم . وبهذا التعديل يستقيم المعنى نوعاً .

الصُّخور ، حتى إذا حُمل لمن يبيع خبز الذرة مُنتناً ، ويرى أنه قد فَضَل بذلك أُنساً وحُسْناً ، وجده ناقصاً زايناً فيرجع حامله وَجلاً خايفاً ؛ ويبقى القاضى فقيدَ الهُجُوع ، يشُدُّ الحجر على بطنه من الجوع ؛ على أننى أَحْمَدُ خلاء البَطْن ، وما بجسمى لا يُحكى من الوَهن ؛ لتعذر[١] المرحاض ، وبُعد ماء الحياض ؛ وكُمُون السِّباع فى الغياض ، وتعلُّق الأفاعى بالرِّداء الفِضْفاض ؛ ونجاسة الحجارة ، وكثرة تردُّدِ السَّيارة ، والانكشاف للريح العقيم ، والمطر المُنْصَبِّ إلى الموضع الذميم . هذه الحال ، وعلى شرحها مجال[٢] ؛ وقد صَدقتُك سُنن فكرى ، وأعلمتُك بذات صَدْرى ؛ فتَجَلَّى الغرارة غُرور ؛ وشهود الشَّبَه زور ، والطَّمع فى الصُّرة إصرار ؛ ودون التِّبر[٣] يعلم الله تيَّار . وأما الكبْشُ فحظِّى منه غُباره إذا خطر ، والثَّور بقَرنه إذا العيد حَضَر ؛ كما أن حظِّى من الجَدْى التأذِّى بمسلكه ؛ وإنَّ جَدْى السماء لأقربُ لى من تملكه ؛ وأنا من الحلاوة سالِمُ ابنُ حَلاوة ؛ ولا أعهد من طَرْف الطرف الدَّماوة ؛ ودون الدَّجاج كل مُدَجَّج ، وعِوَض الأُترج رجَّة بكل مَعْرج ؛ ولو عرفتُ أنك تقبل على علاّتها الهدايا ؛ وتُوجبُ المزيد لأصحابك المزايا[٤] ؛ لبعثتُ بالقُماش ؛ وأنفذْتُ الرياش ؛ وأظهرتُ الغِنى ؛ والوقوف بمبنى المُنى ، وأوردتُها عليك من غير هَلَع ؛ مطَّلعة فى الجَوْف بعد بَلْع ؛ من كل ساحليَّة تُقرِّب إلى البحر ، وعُدْوية لا تعد ، وصدر مجلس الصَّدر ؛ حتى أجمعَ بين [الفاكهة][٥] والفُكاهة ، ويبدو لى بعد الشظف وجوه الوجاهة ؛ وأتبرأ من الصَّدِّ المذموم ، ولا أكون أهدأ من القطا لطرق[٦] اللوم ، لأنك زهَدْتَ فى الدنيا زُهد ابن أدْهم ، وألْهمَك الله من ذلك أكرم

(١) وردت فى المخطوطين : لتعد . والتصويب يقتضيه السياق .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : محال.

(٣) هكذا فى «ك» . وفى «ج» و «الملكية» البر .

(٤) وردت فى المخطوطين : المرايا . وهو تحريف .

(٥) هذه الكلمة واردة فى «ك» و«الملكية» . وساقطة فى «ج» .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» . لطوق . والأولى أنسب للسياق .

ما ألم ؛ فيَدُك من أموال الناس مقبوضة ، وأحاديث اللُّها الفاتحة لِلها مرفوضة ؛ وإذا كان المرء على دين خليله ، ومن شأنه سلوك نَهْجه وسبيله ، فالأليقُ أن أزهد في الصّفراء والبَيْضاء ، وأقابل زُخْرف الدنيا بالبغضاء ، وأحقق وأرجو على يدك حسن التخلِّي ، والاطلاع على أسرار التَّجلِّي ؛ حتى أسعد بك في آخرتي ودنياي ، وأجد بركة خاطرك في مماتي ومَحْياي ؛ أبقاك الله بقاء يُسر ، وأمْتَع بمناقبك التي يحسِدُها الياقوت والدُّر ، ولا زلتَ في سيادة تروق نَعْتاً ، وسعادةٍ لا ترى فيها عِوَجا ولا أمتاً ، وأقرأ عليك سلاماً عاطر العَرف ، كريم التأكيد والعَطْف [ما رثى لحالى راث ؛ وذكرت أدّاية حراث][1] ، ورحمة الله وبركاته . وكتبه أخوك ومَمْلوكك ، وشيعةُ مَجْدك ، في الرابع والعشرين من جمادى الأولى عام أربعة وستين وسبعمائة » .

مولده

بغرناطة عام ثلاثة عشر وسبعمائة .

محنتـه

توجَّه رسولا عن السلطان إلى صاحب تِلمْسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسُف بن عبد الرحمن بن يحي بن [يَغْمُراسِن بن زيَّان] :[2] وظفر بالجَفْن الذى رَكبه العدو ، بأحْواز جزيرة حبيبة[3] ، من جهة وَهْران ، فأُسر[4] هو ومن بأسطول

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد في المخطوطين مع اختلاف يسير . وساقط في « ت » والملكية .

(٢) ورد هذان الإسمان محرفين في المخطوطين هكذا : (عمراسان بن زياد) . والتصويب من « اللمحة البدرية » .

(٣) هكذا في المخطوطين . وفي « ت » : حبيه . وهو تحريف . وجزيرة حبيبة تقع غربي مدينة وهران على مقربة الشاطئ .

(٤) وردت محرفة في المخطوطين : فاتسر .

سفره من المسلمين ؛ وبلغ الخبر (١) فعظم الفجع ؛ وبين نحنُ نَروم سفر أسطول يأخذ الثار ، ويستقرى (٢) الآثار ، فيقيل العثار ، إذا اتَّصل الخبر بمهادنة (٣) السلطان المذكور ، فَفُدى (٤) من أُسر بذلك المال الذى يَنيف على سبعة آلاف من العَيْن فى ذلك ؛ فتخلَّص من المحنة لأيام قلائل ، وعاد ؛ فتولى السلطان إرضاءه عمّا فقد ، وضاعف له الاستغناء وجَدَّد ؛ وكان حديثه من أحاديث الفَرَج بعد الشدة محسوباً ، وإلى سعادة السلطان منسوباً . وأنشدته [شعراً فى مصابه ، بعدها] (٥) ، وقد قضيت له من برٍّ السلطان على عادتى ، ما جَبَرَ (٦) الكَسْر ، وخَفَض الأمر :

خَلُصْتَ كما خَلَص الزَّبْرُقان وقد محَقَ النُّور عنه السَّرا
وفى السَّيْق والرَّار فى هذا سرٌّ وفى ذا أسرار

وكان تاريخ هذه المحنة المُرْدَفة المِنحة (٧) ، حسبما نقلته من خطه ؛ قال ، « اعلموا ياسيدى أبقاكم الله تعالى ، أن سفرنا من المرِيَّة ، كان فى يوم الخميس السادس لشهر ربيع الآخر من عام ثمانية وستين وسبعمائة ، وتغلب علينا العدو فى عَشِيَّة يوم الجمعة الثانى منه ، بعد قتال شديد ؛ وكان خروجُنا من الأُسر فى يوم السبت الثانى والعشرين لربيع الثانى المذكور ، وكان وصولى إلى الأندلس فى أسطول مولانا نصره الله ، فى جمادى الآخرة من العام المذكور ، بعد أن وصلوا قَرْطاجَنَّة وأُخذوا أجفاناً ثلاثة من أجفان العدوِّ ، وعمل المسلمون (٨) الأعمال الكريمة » .

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : البحر . وحكمة التصويب واضحة .
(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : ويستغرق .
(٣) وردت فى المخطوطين : بمهادة . وفى « ت » بمهادات . وهو تحريف .
(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ت » و « الملكية » : وفك ، والمعنى واحد .
(٥) وردت هذه العبارة فى المخطوطات الثلاثة وكذا فى « الملكية » على النحو الآتى : (سعة أصابه بعدها) . وهو تحريف لا معنى له . وقد حاولنا بما أثبتناه أن نقرب المعنى المقصود .
(٦) وردت فى المخطوطات الثلاثة : يجبر . وصيغة الماضى هنا لازمة لاستقامة السياق .
(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : (المحنة) مرة أخرى وهو تحريف .
(٨) وردت فى المخطوطين : المسلمين . وهو خطأ اقتضى التصويب .

إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله ابن عمر بن فَرْقَد القُرشى العامرى

قال ابن عبد الملك ، كذا وقفتُ على نَسَبه بخطه فى غير ما موضع من أهل مُورَة[1] ؛ وسكن إشبِيلية .

حـاله

كان مُتفنِّناً فى معارفه ، محدِّثاً ، راوية[2] ، عَدْلا ، فقيها ، حافظاً ، شاعراً ، كاتباً ، بارعاً ، حسن الأخلاق ، وطِىء الأكناف ، جميل المُشاركة لإخوانه وأصحابه ؛ كتب بخطه الكثير من كبار الدواوين وصغارها ، وكان من أصحِّ الناس كُتْباً ، وأتقنهم ضَبْطاً وتقييداً ، لا تكاد تلقى فيما تولى تصحيحه خللا ، وكان رؤوفاً شديد الحنان على الضعفاء والمساكين واليتامى ، صَلِيباً فى ذات الله تعالى ، يعقِد الشروط مُحْتَسِباً ، لا يقبل ثواباً عليها إلا من الله تعالى .

مشيخته

تلا بالسبع على أبى عمران موسى بن حبيب ، وحدَّث عن أبى الحسن بن سليمان ابن عبد الرحمن المُقْرى ، وعبد الرحمن بن بَقِىّ ، وأبى عمرو ميمون بن ياسين ؛ وأبى محمد بن عتَّاب ؛ وتفقه بأبوى عبد الله بن أحمد[3] بن الحاجّ ، وابن حميد ،

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» (مرده) وفى «الملكية» بدرة ، وهو تحريف . وموره ، وبالإسبانية Mora ، هى بلدة من أعمال طليطلة ، وتقع فى جنوبها الشرقى على مقربة منها .

(٢) هكذا فى «ك» . وفى «ج» راوياً .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى «الملكية» (بأبى عبد الله بن محمد ... الخ) .

وأبى الوليد بن رشد ؛ وأجاز له أبو الأصْبَغ بن مناصف ، وأبو بكر بن قُزمان ، وأبو الوليد بن طريف .

« من روى عنه » ؛ روى عنه أبو جعفر ، وأبو إسحاق بن على المَزْدالى ، وأبو أمية إسماعيل بن سعد السعود بن عُفير ، وأبو بكر بن حكم الشَّرمسى ، وابن خير ، وابن تِسع ، وابن عبد العزيز الصدفى ، وأبو الحجاج ابراهيم بن يعقوب ، وأبو على ابن وزير ، وأبو الحسن بن أحمد بن خالص ، وأبو زيد محمد الأنصارى ، وأبو عبد الله ابن عبد العزيز الذّهبى ، وأبو العباس بن سَلْمة ، وأبو القاسم بن محمد بن إبراهيم المُراعى ، وأبو محمد بن أحمد بن جُمْهور ، وعبد الله بن أحمد الأطْلس .

تواليفـه[1]

دوّن برنامَجاً مُمْتعاً ذكر فيه شيوخه ، وكيفية أخذه عنهم ، وله رجزٌ فى الفرائض مشهور ، ومنظومٌ كثير ، وترسُّل مُنوع ، وخُطَب مختلفة المقاصد ، ومجموعٌ فى العَرُوض .

دخوله غرناطة

قال المؤرخ : وفى عام أربعة وخمسين وخمسمائه ، عند تغيب الخليفة بالمَهْدِيَّة استدعى السيد أبو سعيد الوالى بغرناطة ، عند استقراره بها ، الحافظ أبا بكر بن الجد ، والحافظ أبا بكر بن حبيش ، والكاتب أبا القاسم[2] بن المُراعى ، والكاتب أبا إسحاق بن فَرْقد ، وهو هذا المترجم به ، فأقاموا معه مدّة تقرب من عامين اثنين بها .

(١) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وترد أحياناً : تآليفه .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن القاسم . والتصويب من « ت » .

شـــعره

مما ينقل عنه قصيدة شهيرة فى رثاء الأندلس :

ألا مُسْعِدٌ مُنجزٌ ذو فِطَن — يبكى بدمعٍ مَعِين هَتِن
جزيرةَ أندلسٍ حسرةً(١) — لا غالب(٢) من حقود الزَّمن
ويَنْدُب أطلالها آسِفاً — و يَرْثى من الشِّعر ما قد وَهَن
وَيبكى الأيام ويبكى اليتـامى — ويَحكى الحَمام ذوات الشَّجَن
ويشكو إلى الله شكوى شجٍ(٣) — ويدعـــوه فى السِّر ثم العلن
وكانت رِباطاً لأهـــل التُّقى — فعادب منـاطاً لأهل الوَثَن
وكانت معـــاذاً لأهل التُّقى — فصارت ملاذاً لِمَن لم يَدِن
وكانت شَجىً فى حُلوق العِـــدا — فأضحى لهم مالُها مُحْتَجَن

وهى طويلة ؛ ولدىّ خلاف فيمن أفْرَط فى استحسانها . وشعره عندى وسَط .

ومن شعره وهو حجَّة فى عُمْره عند الخلاف فى ميلاده ووفاته . قال :

ثمانون عاماً مع سِتٍّ عُمِّرَت وليتنى — أرَقْتُ دموعى بالبـكاء على ذَنْب
فلا الدَّمع فى محو الخطيئة غُنْيَةٌ — إذا هاج من قلبٍ مُنِيب إلى الرَّب
فياسامعَ الأصوات رحماك أرْتَجى — فهَبْ لى انسِكاب الدمع من رِقَّة القلب
وزَكِّ الذى تَذْريه من شيمةٍ(٤) — تعلَّق بالمَظْلُوم من شدَّة الـكَرْب

---

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » و « ت » حسرت .

(٢) وردت فى المخطوطين : عالياً . والتصويب من « ت » .

(٣) وردت فى المخطوطين : (شجم) . والتصويب من « ت » .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » شيمتى .

وزكِّ مثابى[1] فى العقود وكَتْبِها ... لوجهك لم أقْبَل ثواباً على كَتْبِ
ولا تحْرِمنى أجْرَ ما كنتُ فاعلاً ... فحقُّ اليتامى عندى من لِذِى صَعْب
ولا تخْزِنى يوم الحساب وهوله ... إذاجئتُ مذعوراً من الهَوْل والرُّعب

مـــولده

حسبما نُقل من خط ابنه أبى جعفر ، ولد ، يعنى أباه سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

« وفاته » ؛ بعد صلاة المغرب من ليلة الثلاثاء [الثامن عشر][2] من محرم عام اثنين وسبعين وخمسمائة . ونُقل غير ذلك .

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيدِس بن محمود النفرى

أُبّدِى[3] الأصل ، غَرناطى الإستقرار ، ويكنى أبا إسحاق .

حـــاله

خاتمة الرُّحَّال[4] بالأندلس ، وشيخ المجاهدات وأرباب المعاملات ، صادق الأحوال ، شريف المقامات ، مأثور الإخلاص مشهور الكرامات ، أصْبَرُ الناس على مجاهداته ، وأدومهم على عملٍ وذكرٍ وصلاة وصوم ؛ لا يفْتُرُ عن ذلك ولا ينام ، آية الله فى الإيثار ، لايدَّخر شيئاً لغد ، ولا يتحرَّف بشىء ؛ وكان فقيهاً حافظاً ، ذاكراً للغة[5] والأدب ، نحوياً ماهراً ، درس ذلك كلَّه أول أمره ؛ كريم

---

(١) وردت فى المخطوطين : منابى . وهو تحريف . وفى « ت » مقامى . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » (الثامن والعشرين عشر) وهو خلط لا معنى له .

(٣) نسبة إلى مدينة أبدة Ubeda . وقد سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٥٥) .

(٤) وردت فى المخطوطات الأربعة : الرجال . وهو تحريف ظاهر .

(٥) وردت فى الملكية وفى المخطوطين : للغات . وهو تحريف . ولا نظن أن المقصود بها غير العربية .

الأخلاق ؛ غلب عليه التصوُّف فشُهر به ، وبمعرفة طريقه الذى نَدَّ[(١)] فيها أهل زمانه ، وصنَّف فيها التصانيف المفيدة .

ترتيب زمانه

كان يجلس إثْر صلاة الصبح لمن يقصده من الصَّالحين ، فيتكلم لهم بما يجريه الله على لسانه ، ويُيَسَّر من تفسير ، وحديث وعظة ، إلى طلوع الشمس؛ فيتنفَّل صلاة الضُّحى ،وينفصل إلى منزله ، ويأخذ فى أوراده ، [من قراءة][(٢)] القرآن والذِّكر والصلاة إلى صلاة الظهر ، فيُبكِّر فى رواحه ، ويوالى التنفُّل إلى إقامة الصلاة ؛ ثم كذلك فى كل صلاة ، ويصل مابين العِشاءين بالتنفل ، هذا دأْبُه أبدا .

وكان أمره فى التوكُّل عجباً ، لايَلْوى على سبب ، وكانت تُجْبَى إليه ثمرات كلِّ شىء ، فيدفع ذلك بجملته ، وربما كان الطعام بين يديه ، وهو محتاجٌ ،فيعرِض من يسأله ، فيدفعه جُمْلة ، ويبقى طاوياً ؛ فكان الضعفاء والمساكين له لياذاً يَنْسِلون من كل حَدَب ، فلا يردُّ أحداً منهم خائباً ؛ ونفع الله بخدمته وصحبته ، واستخرج بين يديه عالمًا كثيراً .

مشيخته

أخذ القراءة عن أبى عبد الله الحَضْرمى ، وأبى الكوم جُودى بن عبدالرحمن؛ والحديث عن أبى الحسن بن عمر الوادى آشى ، [وأبى محمد عبد الله بن سليمان][(٣)] ابن حَوطِ الله ؛ والنحو واللغة عن ابن يُربوع وغيره . ورَحَل وحجَّ، وجاور وتكرّر.

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ندب .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وقراءة .

(٣) وردت فى « ك » أبو محمد سليمان . وفى « ج » والملكية (وإبى سليمان محمد) والصحيح ما أثبتناه .

ولَقِي هناك غير واحد ، من صدور العلماء وأكابر الصوفية ؛ فأخذ صحيح البخارى سماعاً منه سنة خمس وستمائة عن الشَّريف أبى محمد بن يونس ، وأبى الحسن على بن عبد الله بن المغربانى ، ونصر بن أبى الفرج الحضرمى ؛ وسُنَن أبى داود وجامع التِّرمذى على أبى الحسن بن أبى المكارم نصر بن أبى المكارم البغدادى ، أحد السامعين على أبى الفتح الكروخى ، وأبى عبد الله محمد بن مسترى الحمة[١] ؛ وأبى المعالى[٢] بن وَهَب بن البنا ؛ وببجاية عن أبى الحسن على بن عمر ابن عطيّة .

«من روى عنه» ؛ روى عنه خلق لا يحصون كثرة[٣] ؛ منهم أحمد بن عبد المجيد ابن هُذيل الغسَّانى ، وأبو جعفر بن الزبير ، وغيره .

تواليفه

صنَّف فى طريقه التصوُّف وغيرها تصانيف مفيدة ؛ منها «مواهب العقول[٤] وحقائق المَعْقُول» ؛ و «الغيرة المذْهلة ، عن الحَيْرة والتَّفرقة والجَمْع» ؛ و «الرحلة العنوية » ؛ ومنها « الرسائل فى الفقه والمسائل » ؛ وغير ذلك .

شــعره

له أشعار فى التصوف بارعة ؛ فمن ذلك ما نقلته من خط الكاتب[٥] أبى إسحاق ابن زكريا فى مجموع جمع فيه الكثير من القول :

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . وربما أغفلت كلمة (ابن) قبلها . وربما كانت اسم البلد المعروف بالأندلس (الحمة أو الحامة) .

(٢) وردت فى المخطوطين : ابن المعالى . وهو تحريف .

(٣) وردت فى المخطوطين والملكية : كثير . وهو تحريف .

(٤) هكذا ورد العنوان فى «ك» . وفى «ج» : مواهب القلوب . والأولى أرجح لاتفاقها فى السجع مع الشطر الآخر من العنوان .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : الكتاب . وهو تحريف .

يضيق عليّ من وَجْدى الفضاء ... ويُقْلقنى[1] من الناس العَناء
وأرضُ الله واسعة ولكن ... أبَتْ نفسى تحيطُ بها السماء
رأينا العرش والكرسيَّ أعلا ... فوالَيْناهما حَرَمَ الوَلاء
فأين الأينُ منا أو زمانٌ ... بحيث لنا على الكُلِّ اسْتِواء
شَهِدْنا للإلَه بكل حُكم ... فغاب القلبُ وانكشف الغطاء
ويَدْعونى الإلَه إليه حقًّا ... فيُؤْنِسُنى من الخوف الرَّجاء
ويُقْبِضُنى ويُبْسِطُنى ويَقضى ... بتَفْريق وجمعى ما يشاء
ويَعِى فى وجود الخَلْق نَحْواً ... ينْعَتُ[2] من تولاَّه الفَناء
فكم أُخفى وجودى وقت فَقْدِى ... كأن الفَقْد والإحْيا[3] سواء
فسُكْرٌ ثم صَحْوٌ ثم سكر ... كذاك الدهر ليس له انقِضاء
فوصفى حالَ[4] من وصفى ولكن ... ظهورُ الحقّ ليس له خَفاء
إذا شمسُ النهار بَدَتْ تولّت ... نجومُ الليل ليس لها انْجِلاء

و[من][5] شعره :

كم عارف سَرَحَت فى العلم همَّتُه ... فعقْلُه لحجاب العقل هَتَّاك
كساه نور الهدى بُرْداً وقلّده ... درًّا ففى قلبه لِلْعِلم أسلاك
كسب ابن آدم فى التحقيق كِسْوته ... إن القلوب لأَنْوار وأحْلاك
كَلِّف فؤادك ما يبدى عجائبه ... إن ابن آدم للأسْرار دَرّاك

---

(١) هكذا وردت فى « الملكية » . وفى « ج » ويسليني . والأولى أرجح .
(٢) هكذا فى « ج » و « الملكية » . وفى « ك » : نيعت .
(٣) وردت فى المخطوطين : (أو حياً) .
(٤) وردت فى المخطوطين : حل .
(٥) ساقطة فى المخطوطين والملكية .

كَيْف وكَم ومتى والأيْن مُنْسَلِب عن وصْف باريها والجهل تبّاك
كبرٌ وقدّس [ونزّه][1] ماأطقْتَ فلم يَصل إلى مَلِك الأملاك أملاك
كرسيه ذَلّ والعرش [استكان][2] له ونزه الله أملاك وأفلاك
كل يقر بأن العجز قيّده والعجز [عن دَرْك][3] الإدراك دراك

وقال، وهو ما اشتُهر عنه، وأنشدها بعض المشارقة فى رحلته فى غرض اقتضى ذلك، يقتضى ذكره طولا :

يامن أنامله كالمُزْن هاميةٌ وجُودُ كفّيه أجْرى من مجاريها
بحقٍّ من خلق الإنسان من عَلَقٍ أنظر إلى رِقْعَتى وافهم معانيها
أنى فقيرٌ ومسكين بلا سبب سوى حروف من القرآن أتلوها
سفينةُ الفقر فى بحر الرّجا[4] غرِقت فامْنُن عليها بريحٍ منك يُجْريها
لايعرفُ الشوقَ إلا من يكابِدُه ولا الصّبابة إلا من يعانيها

وقال القاضى أبو عبد الله بن عبد الملك، وقد ذكره ؛ على الجملة فبه خُتم جِلّة أهل هذا الشأن بصُقع الأندلس، نفعه الله ونفع به .

مولده

ولد بجيّان سنة اثنتين وستين وخمسمائة أو ثلاث وستين .

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى « ت » .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا وردت فى « ت » . وفى « ك » : دون . وفى « ج » : در، وهو تحريف .

(٤) هكذا وردت فى « ت » و « الملكية »، وفى المخطوطين : الدجا . والأولى أرجح بالنسبة المعنى المقصود .

إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى بكر التسولى

من أهل تازى[١] ، يكنى أبا سالم ، ويعرف بابن أبى يحيى .

حـــاله

من أهل[٢] «الكتاب المؤتمن»[٣] ، كان هذا الرجل قيِّماً على التَّهذيب ، ورسالة ابن أبى زيد ، حسن الإقراء لهما ، وله عليهما تقييدان نبيلان ، قيَّدهما أيام قراءته إياها على أبى الحسن الصغير ، حضرت مجالسَه بمدرسة عُدْوة الأندلس من فاس ، ولم أر فى متصدِّرى بلده أحسن تدريباً منه . كان فصيح اللسان ، سهل الألفاظ ، موفياً حقوقها ، وذلك لمشاركته الحَضَر فيما فى أيديهم من الأدوات ، وكان مجلسه وقْفاً على « التهذيب » و « الرسالة » ، وكان مع ذلك شيخاً فاضلاً ، حسن اللقاء ، على خلق بائنة من أخلاق أهل مِصره[٤] . امتُحن بصحبة السلطان ، فصار يستعمله[٥] فى الرسايل ، فمر فى ذلك حظٌّ كبير من عُمره ضايعاً ، لا فى راحة دنيا ، ولا فى نصيب آخرة ، ثم قال هذه سنّة الله فيمن خدم الملوك ، ملتفتاً إلى مايُعطَونه ، لا إلى مايأخذون من عُمره[٦] وراحته ، أن يبوؤا[٧] بالصفقة الخاسرة ، لَطَف الله بمن ابتُلى بذلك ، وخلَّصنا خلاصاً جميلاً .

ومن كتاب « عائد الصلة » : الشيخ ، الحافظ ، الفقيه ، القاضى ، من

---

(١) وردت فى المخطوطين : تيزى وفى الملكية تيزين . وهو تحريف لاسم المدينة المغربية القديمة.

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى « ت » .

(٣) هذا الكتاب وعنوانه الكامل «الكتاب المؤتمن فى أنباء أبناء الزمن» هو من تأليف ابن الحاج البلفيقى شيخ ابن الخطيب .

(٤) هكذا فى « ك » و « ت » . وفى « ج » : عصره .

(٥) وردت فى المخطوطين : يتعلمه . وهو تحريف .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية . غيره .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تبوأ .

صدور المَغْرب ، مُشاركاً في العلم ، متبحراً في الفقه ؛ كان وجيهاً عند الملوك ، صَحِبهم ، وحضر مجالسهم ، واستُعمل في السفارة ، فلقيناه بغرناطة ، وأخذنا بها عنه ؛ تام السَّراوة[1] ، حسن العهد ، مليح المجالس ، أنيق المحاضرة ، كريم الطبع ، صحيح المذهب .

تصانيفه

قيد على « المُدوَّنة » ، بمجلس شيخه القاضي أبي الحسن ، كتاباً مفيداً ؛ وضم أجوبته على المسائل في سِفر ؛ وشرح كتاب « الرسالة »[2] شرحاً عظيم الفائدة .

مشيخته

لازم أبا الحسن الصغير ، وهو كان قارئ كُتُب الفقه عليه ، وجل انتفاعه في التفقه به ؛ وروى عن أبي زكريا بن أبي ياسين ، قرأ عليه كتاب « المُوطّأ » ، إلاّ كتاب « المكاتب » ؛ وكتاب « المدبّر »[3] ، فإنه سمعه بقراءة الغير ؛ وعن أبي عبد الله بن رشد ، قرأ عليه « المُوطأ » ، « وشفاء » عياض ؛ وعن أبي الحسن ابن عبد الجليل السِّداري ، قرأ عليه « الأحكام الصغرى » لعبد الحق ؛ وأبي الحسن ابن سليمان ، قرأ عليه « رسالة » ابن أبي زيد[4] ، وعن غيرهم .

وفاته

فُلِج بآخرة ، فالتزم منزله بفاس ، يزوره السلطان فمَن دونه ؛ وتُوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

---

(١) هكذا في « ج » . وفي « ك » : السرارة . والسراوة هي الرياسة .

(٢) الرسالة هي « رسالة » ابن أبي زيد القيرواني وهي من شروح الفقه المالكي .

(٣) هكذا رسمت في « ج » . وفي « ك » : المدر .

(٤) إن الكتب التي ورد ذكرها في هذه الترجمة كلها من كتب الحديث والفقه . وقد رأينا أن نثبتها بعناوينها ومؤلفيها كاملة في الملحق الخاص بذلك .

إبراهيم بن محمد بن على بن محمد بن أبى العاصى التنُّوخى

أصله من جزيرة طريف[١] ، ونشأ بغرناطة واشتهر .

حـاله

من « عائد الصلة » : كان نسيج وحده حياءً ، وصَدَقة ، وتخلُّقاً ، ومشاركة ، وإيثاراً . رَحَل عند استيلاء العدو على جزيرة طريف ، عام أحد وسبعين وستمائة ، مُتحولاً إلى مدينة سَبْتة ، فقرأ بها واستفاد . وورد الأندلس [فاستوطن][٢] مدينه غرناطة ، وكتب فى الجملة عن سلطانها ، وترقى مَعارج الرتب ، حالاً مُحالا ، من غير اختلاف على فضله ، ولا نزاع فى استحقاقه ؛ وأقرأ فنوناً من العلم ، بعد مهلك أستاذ الجماعة ، أبى جعفر بن الزبير[٣] ، بإشارة منه به ؛ ووُلّى الخطابة والإمامة بجامعها منتصف صفر عام ستة عشر وسبعمائة ، وجمع بين القراءة والتدريس ، فكان مُقرئاً للقرآن ، مبرِّزاً فى تجويده ، مدرساً للعربية والفقه ؛ آخذاً فى الأدب ، متكلماً فى التفسير ، ظريف الخط ، ثَبْتاً محققاً لما ينقله ؛ وألقى الله عليه من المحبة والقبول ، وتعظيم الخلق له ، ما لا عَهْد بمثله لأحد ؛ بلغ من ذلك مبلغاً عظيماً ، حتى كان أحبَّ إلى الجمهور من أوصل أهلهم وآبائهم ؛ يتزاحمون عليه فى طريقه ، يتمسَّحون به ، ويسعون بين يديه ، ومن خلفه ؛ ويتزاحم مساكينُهم على بابه ، قد عوّدهم طَلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقُوتِه ، يفرّقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجلوه قبل استواء خُبزه ، فيفرّقه[٤] عليهم عجيناً . له فى ذلك أخبار غريبة .

---

(١) هى مدينة طريف التى سميت باسم طريف بن مالك أول من عبر البحر إلى اسبانيا من قواد المسلمين . وهى على نتوء فى جنوبى غربى المثلث الإسبانى مقابل الجزيرة الخضراء واسمها بالإسبانية Tarifa

(٢) وردت هذه الكلمة فى « ك » . وأغفلت فى « ج » والملكية .

(٣) سبقت ترجمته فى هذا المجلد من الإحاطة (ص ١٨٨ – ١٩٣) .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » ففرقه .

وكان صادعاً بالحق ، غيوراً على الدين ، مخالفاً لأهل البدَع ، ملازماً للسنة ، كثير الخشوع والتخلُّق على علوّ الهمة ، مَبْذول المشاركة للناس والجِدّ فى حاجاتهم ، مُبتلى بوسواس فى وضوئه ، يتحمل الناس من أجله مَضَضاً فى تأخير الصلوات ومضايقة أوقاتها .

مشيخته

قرأ ببلده على الخطيب القاصى المُقرى أبى الحسن عُبيد الله بن عبد العزيز القرشى المعروف بابن القارئ ، من أهل إشبيلية ؛ وقرأ بسَبْتة على الأستاذ إمام المقرئين لكتاب الله ، أبى القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الطيِّب بن زَرْقون القَيْسى الضرير ، نزيل سبتة ، والأستاذ أبى إسحاق الغافقى المريونى ؛ وقرأ على الشيخ الوزير أبى الحَكَم بن منظور القيسى الإشبيلى ، وعلى الشيخ الراوية ، الحاج أبى عبد الله محمد بن الكتامى التِلِمسانى بن الخَضَّار ؛ وقرأ بغرناطة على الأستاذ أبى جعفر ابن الزبير ، وأخذ عن أبى الحسن بن مستقور[(١)] .

شعره

كان يَقرِض شعراً وسطاً ، قريباً من الانحطاط . قال شيخنا أبو بكر ابن الحكيم[(٢)] فى كتابه المسمى «بالفوائد المُنتخبة ، والموارد المُستعذبة» ؛ كتب إليه شيخنا وبركتُنا أبو جعفر بن الزيات فى شأن شخص من أهل البيت النبوى بما نصه :

---

(١) وردت فى المخطوطين : مسمفور . وهو تحريف يرد دائماً فى المخطوطين بالنسبة لهذا الاسم .

(٢) سبقت الإشارة إليه (انظر الحاشية فى ص ١٥٧) . وقد ترجم له ابن الخطيب فيما بعد ، فى المجلد الثانى من الإحاطة .

رجـــل يدّعى القرابة للبيـــــت وإن الثريا[1] منه بمعزل
سأل منى خطابـكم وهو هذا ولـكم فى القلوب أرفع مَنْزل
فهبوه دعاءكم وامنحونى منه حظًّا يُنْمى الثواب ويَجزِل
وعليـكم تحيـة الله ما دا م أمير الهدى يُولِّى وَيعزل

فأجابه :

يا إمامى ومَنْ به قطركم ذا ك وحادى البلاد أطْيَب منزل
لم أضَعْ ما نظمتم من يدى حتى أنيـل الشّريف تحفة منزل
وحبـــاه بكل مَنْح جزيل مَنْ غدا يمنحُ الثّواب ويجزل
دمتم تنشرون عِلْماً ثوابُ الله فـيه لـكم أعزُّ وأجْـزل
[تذكرون الله ذكراً كثيراً][2] وعليـكم سـكينةُ الله تنْزل
وطلبتمُ منى الدُّعاء وإنى عند نفسى من الشروط بمعزِل
لـكن ادعو ولتَدْعُ لى يرضا الله وأبدى فهم ذكر قد أُنزل
وحديث الرسول صلى عليه كل وقت ورب لنا الغيثُ ينزل
وعليـكم تحيّتى كل حين ما اطمأنّت بمكة أمُّ معزل

قال ، ومما أنشدنى من نظمه أيضاً فى مَعْرض الوصيَّة للطلبة :

إعَمل بعلمك تُؤْت علماً إنما عدوى علوم المرء منح[3] الأقوم
وإذا الفتى قد نال علماً ثم لم يعمل به فـكأنما لم يَعْلَم

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : الثرى . والتصويب من « ت » .
(٢) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين وفى الملكية محرفة : (ولذكر الله كثيراً) .
(٣) وردت فى المخطوطين : تمنح .

وقال موطئاً على البيت الأخير :

أمولاى أنت الغفور الكريم   لبذل النَّوال مع المَعْذِرة[١]
علىَّ ذنوبٌ وتصحيفها   ومن عندك الجودُ والمغفرة

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن خميس بن نصر [بن][٢] قيس الأنصارى الَخزْرجي

أمير المؤمنين[٣] بالأندلس رحمه الله .

أوَّليَّتُه

تُقرِّر عند ذكر الملوك من قومه فى اسم صِنْو جدّه ، أمير المسلمين أبى عبد الله الغالب بالله .

حـــاله

من كتاب « طُرفة العصر فى تاريخ دولة بنى نصر »[٤] من تصنيفنا : « كان رحمه الله ، حسن الخُلُق ، جميل الرواء ، رجل جد ، سليم الصدر ، كثير الحياء ، صحيح العقل ، ثَبْتاً فى المواقف ، عفيف الإزار ، ناشئاً فى حِجر الطهارة ، بعيداً عن الصَّبوة ، بريًّا من المعاقرة[٥] ، نشأ مشتغلا بشأنه مُتَبَنِّكاً نعمة أبيه ،

---

(١) وردت فى « ج » (لبذول النوال والمعذرة) والتصويب من « الملكية » .
(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين وواردة فى الملكية .
(٣) هذا اللقب تجاوز من ابن الخطيب . وقد كان لقب « أمير المسلمين » هو اللقب الصحيح لملوك بنى نصر .
(٤) سبق التعريف بهذا الكتاب فى المقدمة .
(٥) وردت فى المخطوطين والملكية : المعاقدة . والتصويب من اللمحة البدرية .

مختصّاً بإيثار السلطان جَدّه أبى أمه، وابن عم والده، منقطعاً إلى الصيد، معروف اللذة إلى استجادة سلاحه، وانتقاء مراكبه، واستِفْرَاه(١) جَوارحه، إلى أن أفْضَي إليه الأمر، وساعدته الأيام. وخدمه الجدُّ، وتنقّل إلى بيته المُلْك به، وثَوى فى عقبِه الذّكر، فبذل العدل فى رعيته، واقتصد فى جبايته، واجتهد فى مدافعة عدو الله، وسدَّ(٢) ثَلْم ثغوره، فكان غرة فى قومه، ودُرَّة فى بيته، وحسَنةً من حسنات دهره. وسيرد نبذٌ من أحواله، مما يدل على فضل جلاله».

صفتـــه

كان معتدل القدِّ، وسيم الصورة، عَبْل اليدين، أبيض اللون، كثير اللحية، بين السواد والصهوبة(٣) أنْجل أعْينَ أفْوهَ مليح العين، أقنى الأنف، جَهير الصوت، أمه الحرُّة الجليلة، العريقة فى الملوك، فاطمة بنت أمير المؤمنين، أبى عبد الله نُخْبة المُلك، وواسطة العِقْد، وفخر الحَرَم، البعيدة الشَّأو فى العز والحُرْمَة، وصِلة الرَّعى، وذكر التراث(٤). واتصلت حياتها، ملتَمَسَة الرأى، برنامجا للفوائد، تاريخاً للأنساب، إلى أن توفيت فى عهد حفيدها السلطان أبى الحجّاج، رحمها(٥) الله، وقد أنْفَت على تسعين من السنين، فكان الحفل فى جنازتها، مُوازياً لمنصبها، ومتروكها، المفضى إليه خطيرُه، وقلت فى رثائها:

---

(١) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» والملكية: واستفراء. وهو تحريف.

(٢) فى المخطوطين: وتسد. والتصويب من الملكية.

(٣) الصهوبة هى احمرار الشعر.

(٤) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج»: الثمرات. والأولى أرجح.

(٥) هكذا وردت فى «ج؛ وفى «ك»: رحمه. والأولى أرجح هنا. والمقصود بها السلطانة لا السلطان.

نَبيتُ على علم بغائله الدهر ... ونعلم أن الخلق فى قَبْضة الدهر
ونركن للدنيا [اغتراراً بقهرها][1] ... وحَسْبُك من يرجو الوفاء من الغَدْر
ونُمْطل بالعزم الزّمان سفاهةً ... فيومٌ إلى يوم ، وشهرٌ إلى شهر
وتُغْرى بها نفسى المطامع والهوى ... ونرفض ما يَبْقى فياضَيْعَةَ العُمْر
هو الدهر لا يبقى على حَدَثانه ... جديدٌ[2] ولا ينفك من حادث نُكْر
وبين الخطوب الطّارقات تَفَاضُلٌ ... كفضل من اغْتالَتْهُ فى رِفْعة القَدْر
ألم تر أن المجـد أقوت ربوعُه ... وصوّح من أدْواحه كل مُخْضَر
ولاحَتْ على وجه العلاء كآبة ... فقطّب من بعد الطلاقة والبِشر

وثبتُ اسمها فى الوَفيات من الكتاب المذكور بما نصه :

« السلطانةُ الحرة ، الطاهرة ، فاطمة بنت أمير المسلمين ، أبى عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله ، بقيّة نساء الملوك ، الحافظة لنظام الإمارة ، رعيا للمتَات[3] ، وصلةَ للحرْمة ، وإسداء للمعروف ، وسَتْرًا للبيوتات[4] ، واقتداء بسلفها [الصالح][5] ، فى نزاهة النفس ، وعُلُوّ الهمة ، ومتانة الدين ، وكشف الحجاب ، ونفاذ العزم ، واستشعار الصبر ؛ تُوفيت فى كفالة حفيدها ، أمير المسلمين أبى الحجاج ، مواصلا برّها ، ملتمساً دعاءها ، مستفيداً تجربتها وتاريخها ، مباشراً مُواراتها بمقبرة الجنان ، داخل الحمراء ، سَحَر يوم الأحد السابع لذى حجة ، من عام تسعة[6] وأربعين وسبعمائة » .

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية . ووردت فى « ك » : اغتراراً بفقرها .
(٢) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » والملكية : حديث . والمؤدى واحد .
(٣) من متا متاً . أى وصل . والمقصود : رعياً للصلات .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » للبيوت . والأولى أنسب للمعنى المقصود .
(٥) هذه الكلمة واردة فى « ج » والملكية وساقطة فى « ك » .
(٦) فى الملكية : سبع .

أولاده

تخلَّف(١) من الولد أربعة ، أكبرهم محمد ، ولى الأمر من بعده ؛ وفَرَج شقيقه التالى له بالسن ، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه المذكور ، المتقلب فى الإيالات ، الهالك أخيراً فى سجن قصبة(٢) المرية عام أحد وخمسين وسبعمائة ، مظنونا به الاغتيال ؛ ثم أخوه [أمير المسلمين](٣) أبو الحجاج ، تغمده الله برحمته ، أقعَدُ القوم فى المُلك(٤) ، وأبعدُهم أمَدًا فى السعادة ، [ثم](٥) إسماعيل أصغرهم سناً ، المبْتلى فى زمان الشبيبة فى الثِّقاف(٦) المخيف مدة أخيه ، المستقر الآن مُوادعاً مرْفودا ، بقصر المُسْتَخلص(٧) من ظاهر شالُوبانية(٨) ؛ وبنتين ثنتين من حَظِيَّته علْوة ، عقد عليهما أخوهما أبو الحجاج ، لرجلين من قرابته .

وزراؤه

وزر له أول أمره القائد البُهمة ، أبو عبد الله محمد بن أبى الفتح الفهرى ، وبيت هؤلاء القواد شهير ، ومكانتهم من الملوك النصريين مَكينة ؛ أشرك معه فى الوزارة الفقيه الوزير أبا الحسن على بن مسعود بن على بن مسعود المحاربى ، من أعيان الحَضْرة ، وذوى النباهة ؛ فجاذب(٩) رفيقه حَبْل الخُطَّة ؛ ونازعه لباس الحُظوة ، حتى ذهب باسمها ومسماها ؛ وهلك القائد أبو عبد الله بن أبى الفتح ، فخَلَص له شِربها ؛ وسيأتى التعريف بكل على انفراد .

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة البدرية .

(٢) وردت فى المخطوطين : قصبات . والمفرد هنا أرجح . ولا محل للجمع . وقد كانت قصبة المرية من أعظم وأمنع قصبات الأندلس . وما تزال تقوم بها إلى اليوم بقية كبيرة من الأسوار والأبراج تدلى بما كانت عليه من المناعة والفخامة معاً .

(٣) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٤) وردت فى المخطوطين : الملوك . والتصويب من اللمحة .

(٥) واردة فى « ج » والملكية . وساقطة فى « ك » .

(٦) الثقاف أى الإعتقال .

(٧) المستخلص أعنى أملاك السلطان . وقد سبقت الإشارة إليها .

(٨) شالوبانية وبالإسبانية Salobrena . سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٢) .

(٩) وردت فى المخطوطين : فجاذف . والتصويب يقتضيه السياق .

كتـــابه

كتب عنه لأول أمره بمالقة ، ثم بطريقه إلى غرناطة ، وأياماً يسيرة بها ، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صَفْوان المتقدم ذكره ، [ثم ألقى المقادة][1] إلى كاتب الدولة قبل ، شيخنا أبى الحسن بن الجيَّاب ، فاصل الخُطَّة ، وبارى القوس[2] ، واقتصر عليه إلى آخر أيامه .

قضـــاته

استَقْضى أخا وزيره ، الشيخ الفقيه أبا بكر بن يحي بن مسعود بن على ، رجل الجزالة ، وفَيْصل[3] الحُكْم ، فاشتد فى إقامة الحكم[4] ، وغَلُظ بالشرع،واستعان بالجاه ، فخيف سطوته ، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه .

رئيس جنده الغربى

الشيخ البُهْمة ، لباب قومه ، وكبير بيته ، أبو سعيد عثمان بن أبى العلاء إدريس ابن عبد الله بن عبد الحق ، مشاركا له فى النعمة ، ضارباً بسهم فى المنحة ، كثير التجنّي[5] والدّالة ، إلى أن هلك المخلوع ، وخلا الجو ، فكان منه بعض الإقصار .

الملوك على عهده

وأولاد بعُدوة المغرب ، كان على عهده من ملوك المغرب السلطان الشهير ،

---

(١) هذه العبارة ساقطة فى المخطوطين وفى الملكية ، وبدونها يختل السياق . وقد أضفناها من اللمحة .

(٢) وردت فى المخطوطين : القدس . وهو تحريف ظاهر .

(٣) وردت فى المخطوطين : وفصل . والتصويب من اللمحة .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية . وفى « اللمحة » الحق . وقد آثرنا النص الأصلى مع تكراره .

(٥) وردت فى المخطوطين : التحنى . وفى الملكية التخنى .

جوادُ الملوك ، الرَّحْب الجنَاب[1] ، الكثير الأمل ، خِدن العافية، ومحالف الترفيَة، مُفحم النِّعم ، السعيد على [خاصته وعامته][2] ، أبو سعيد عثمان بن السلطان الكبير، المجاهد ، المُرابط ، أبي يوسف بن عبد الحق . وجرت بينه وبينه المراسلات ، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه ، وصدراً من أيام ولده أبي عبد الله حسبما مر عند ذكره .

وبمدينة تِلمْسان ، وطن القِبْلة ، الأمير أبو حمّو موسى بن عثمان بن يَغْمُراسِن بن زيّان ؛ ثم توفى قتيلا على عهده بأمر ولده المذكور ، واستغرقت أيام ولده المذكور الوالى بعده ، إلى أن هلك فى صدر أيام أبى الحجاج ؛ وجرت بينه وبين الأمير مراسلات وهدايات .

وبمدينة تونس ، الشيخ المُتَلَقِّب[3] بأمير المؤمنين أبو يحيى زكريا بن أبى حَفْص المدعو باللِّحيانى ، المتوثب[4] بها على الأمير أبى البقاء خالد [بن أبى زكريا][5] بن أبى حفص ، وهو كبير ، إلا أن أبا حفص أكبر سناً وقدراً ؛ وقد تملك تونس تاسع جمادى الآخرة من عام ظهر له [اضطراب مَنْ بها][6] ، أحد عشر وسبعمائة[7] ، وتم له الأمر ، واعتقَل أبا البقاء بعد خَلْعه ، ثم اغتاله فى شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، ثم رَحَل عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها ، وتوجّه إلى طرابلس فى وسط عام خمسة عشر ، واسْتَناب صِهره الشيخ أبا عبد الله بن أبى عمر ، ولم يعد

---

(١) وردت فى اللمحة البدرية ، وفى المخطوطين والملكية الجنان . والأولى أرجح .

(٢) وردت فى المخطوطين : (خاصة وعامة) . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى اللمحة . ووردت فى المخطوطين : المتقلب . وهو تحريف .

(٤) وردت فى «ج» : الموثب . وفى «ك» المثوب .

(٥) الزيادة من الملكية .

(٦) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (من اضطراب بها) . ونعتقد أن التصويب أرجح للمعنى والسياق .

(٧) وردت فى الملكية (ثلاثة عشر ، والصواب ما أثبتناه .

بعد إليها . ثم اضطرب أمر إفريقية ، وتنوّبه عدة من الملوك الحَفْصيين ، منهم الأمير أبو عبد الله بن أبى عمر المذكور ، وأبو عبد الله بن اللِّحيانى ، والسلطان أبو بكر ابن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى إسحاق ، لِبِنة تمامهم ، وآخر رجالهم، واستمرت أيامه إلى أيام ولده الأمير بالأندلس ومعظم أيام ولديه ؛ رحم الله الجميع .

ومن ملوك الروم بقَشْتاله ؛ كان على عهده مقروناً بالعهد القريب من ولايته ، الطاغية هراندة بن شانْجه بن ألهنشة بن هراندة[1] المجتمعُ له مُلْك قشتالة وليون ، وهو المتغلب على إشبِيلية ، وقُرطبة ، ومُرسية ، وجيّان ؛ ابن ألهنشة الذى جرت له وعليه هزيمة الأرك والعِقاب[2] ؛ ابن شانْجه[3] بن ألهنشة المسمى إنبرذور[4] ، وهو الذى أفرد صهره وزوج بنته بملك برتقال[5] ؛ إلى أجداد ، يخرجنا تقصى ذكرهم عن الغرض .

ومن ملوك رَغُون[6] من شرق الأندلس ، الطّاغية جايمش بن بِطْره بن جايمش[7]

---

(١) هو فرناندو بن ألفونسو التاسع ملك ليون . ولى الملك سنة ١٢١٤ م . وكان من أعظم ملوك اسبانيا النصرانية . وهو الذى استولى على قواعد الأندلس الكبرى : قرطبة وإشبيلية وجيان وغيرها . وقد سلكه الإسبان فى ثبت القديسين . وأسبغوا عليه لقب القديس فرناندو San Fernando وحكم حتى وفاته سنة ١٢٥٢ م . وقد أورد ابن الخطيب نسبته محرفة .

(٢) ألهنشة أى ألفونسو . وهو ألفونسو الثانى ملك قشتالة . هو الذى هزم فى معركة «الأرك» Alarcos سنة ٥٩١ ﻫ (١١٩٥ م) أمام جيوش الموحدين بقيادة الخليفة الموحدى يعقوب المنصور . أما معركة العقاب ، فقد وهم ابن الخطيب بإيرادها على هذا النحو . والحقيقة أنها هى المعركة التى هزم فيها الموحدون بزعامة خليفتهم محمد الناصر ، أمام الجيوش النصرانية المتحدة بقيادة ألفونسو الثامن ، وذلك فى سنة ٦٠٩ ﻫ (١٢١٢ م) وتعرف بالإسبانية بموقعة Las Navas de Tolosa

(٣) شانجه بالإسبانية Sancho

(٤) وردت فى المخطوطين : (اشردون) وهو تحريف لكلمة (إنبرذور) ومعناها الإمبراطور

(٥) وردت فى المخطوطين وكذا فى « الملكية » محرفة : (برطال) .

(٦) رغون أعنى مملكة أراجون .

(٧) جايمش (وقد رسمت فى المخطوطين والملكية جامس) هو بالإسبانية Jaime (خايمى) أى يعقوب . وبطره هو بيدرو Pedro أو بطرس . وقد حكم خايمى ملك أراجون من سنة ١٢٢٧ إلى سنة ١٢٧٤ م . وهو المستولى على بلنسية وشاطبة وجزائر البليار (الجزائر الشرقية) .

الذى تغلب على بَلَنسية ، ابن بِطرُه بن ألهَنْشة ، إلى أجداد عدة كذلك . ثم هلك فى أخريات أيامه ، فولى مُلْك أرغون بعده ألهنشة بن جايمش إلى أخريات أيامه.

وببُرتُقال ألهنشة[١] بن يومس بن ألهنشة بن شانجه ابن ألهنشة بن شانجه بن ألهونشة ، ويسمو أولا دُوقاً .

ذكر تصيرُّ الأمر إليه

لما وَلى الأمر بالأندلس ، حرسها الله ، السلطان أبو الجيوش نصر بن السلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان الغالب بالله أبى عبد الله بن نصر ، يوم عيد الفطر من عام [ثمانية][٢] وسبعمائة ، بالهجوم على أخيه أبى عبد الله الزَّمِن المُقْعد ، الآمن فى ركن بيته ، واغتيال ابن الحكيم وزيره ببابه ، والإشادة بخلعه حسبما يأتى فى موضعه ، استقرَّ الأمر على ضعف أخيه ، وسارع دِخْلته ، فساءت السيرة لمنافسة الخاصة ؛ وكان الرئيس الكبير عميدُ القرابة ، وعَلَم الدولة أبو سعيد فرج ، ابن عم السلطان المخلوع ، وأخيه الوالى بعده ، راسخاً قدمه وعُرْفه ، بمثوبة الوارث ؛ ولنظره عن أبيه المُسوَّغ عن جده مالَقَة وما إليها ، ولنظره مدينة سَبْتة ، المُضافة إلى إيالة المخلوع عن عهد قريب ، قد أفرد بها ولده المترجم به ، وجميعهم تحت طاعته ؛ وفى زمان انقياد سوغ مديد[٣] الدولة ، بل مد سَرْوِها[٤] لِما شاء عز وجل من احتوائهم فى حبل هذا الدايل ، يتعقبون على الرئيس الكبير أموراً تَنِزُّ مخيمة[٥] الصدور ، وتستدعى فرض الطاعة ، وتحتوى على مظنات مُخلة[٦] ؛ واحترسوا

---

(١) هو ألفونسو الثالث الذى حكم البرتغال من ١٢٤٨ - ١٢٧٨ م .

(٢) مكان هذه الكلمة بياض فى المخطوطين وفى الملكية .

(٣) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» : مدين .

(٤) وردت فى المخطوطين : سرورها . والتصويب أنسب السياق .

(٥) هكذا وردت هذه الكلمة فى المخطوطين وفى الملكية :

(٦) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» والملكية . جلة .

صافيات منافعه، وأوعزوا(١) إلى ولاة الاعمال بالتضييق على رجاله، وصرفوا سُننه عن نظره. ولما بادر إلى الحضرة لإعطاء صفقة البَيْعة وتهنئة السلطان نصر، [عن روحه](٢) وابن عمه، على عادته، داخله بعض أرباب الأمر، مُحذراً، ومُشيراً بالامتناع ببلده، والدُّعاء لنفسه، ووعده بما وسعه. فاستعجل الانصراف إلى بلده، ولم تمر إلا برهة، واشتعلت(٣) نار الفتنة، وهاجت مراجل الحفيظة، فتلاحق به ولدُه، وأظهر الانفراد والاستعداد فى سابع عشر رمضان من هذا العام. وأقام ولده إسماعيل، برسم الملك والسلطان، ورتَّب له ألقاب الملك، ودوّن ديوان الملك بحسبه(٤)، ونازل حَضْرَة(٥) أنتقيرة(٦)، وناصبها القتال، فتملكها؛ ودخلت مَرْبَلَّة(٧) فى طاعته، وتحرّك إلى بَلِّش(٨) فنازلها، ونصب عليها المجانيق فدانت؛ فضخُمت(٩) الدعوة، ومكنت الجباية، والتفّ إليه من مساعير الحروب ومن أجاب. وتحرك إلى غرناطة فى أول شهر محرم، عام اثنى عشر وسبعمائة، ونزل بقرية العَطْشا من مرجها(١٠). وبرز السلطان نصر فى جيش خشن، مُستجاد(١١) العدة، وافر الرّجل فكان اللقاء ثالث عشر الشهر؛ فأظهر [الله](١٢) أقلّ الفئتين، وانجرّت(١٣) على

(١) فى المخطوطين: وأغروا.
(٢) هكذا فى المخطوطين والملكية، ومعناها عن نفسه.
(٣) وردت فى المخطوطين والملكية محرفة: واستعملت.
(٤) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين: بجبسه. والتصويب من الملكية.
(٥) وردت فى «ك»: حضر وفى «ج» صر. والمرجح ما أثبتناه.
(٦) أنتقيرة وبالإسبانية Antaquera مدينة أندلسية حصينة تقع شمال غربى مالقة.
(٧) مربلة وبالإسبانية Marbella من ثغور الأندلس الجنوبية. وقد سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٩٧).
(٨) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١١٢).
(٩) هكذا فى «ج». وفى «ك» وردت محرفة: فطمخت.
(١٠) وردت فى المخطوطين: جها. وهو تحريف. والتصويب من اللمحة البدرية.
(١١) وردت فى «ج»: مستجد. وفى «ك» مستنجد. والتصويب من اللمحة.
(١٢) أضفنا هذه الكلمة من اللمحة. وهى ساقطة فى المخطوطين.
(١٣) هكذا فى «ج» واللمحة البدرية. وفى الملكية: وجرت.

الجيش الغرناطي الهزيمة، وكبا بالسلطان نصر فرسه في مجرى سقي لبعض الفدن، فنجا بعد لأي ودخل البلد مفلولا؛ وانصرف الجيش المالقي ظاهراً إلى بلده؛ وطال بالرئيس وولده الأمر وضرستها الفتنة، وعظُم احتياجه إلى المال، وكادت تفضحه المُطاولة؛ وزاحمه الملك بمكلَّف ضخم، فاقتضى ذلك إذعانه إلى الصلح، وإصغاره المهادنة، على سبيله من المقام ببلده، مُسلِّماً للسلطان في جبايته، جاريةً وطايفةً في رياسته، وأرزاق جنده؛ فتم ذلك في ربيع الأول من العام المذكور. ثم لَقِحت فتنة في العام بعده، فعادت جَذعة، وكانت ثورة الأشياخ في غرناطة في رمضان من العام المذكور هاتفين بخُلْعان السلطان، وطاعة مخلوعهم، وطالبين منه إسلام وزيره خِدْن(١) الروم، المتهم(٢) على الإسلام أبي عبد الله بن الحاجّ. ثم لحق زعماؤهم بمالقة عند اختلال ماأبرموه، فكانت الحركة الثانية لغرناطة بعد أمور اختصرتها، من استبداد [السلطان أبي الوليد](٣) بأمره، والانحطاط في القبض على أبيه، إلى هوى جنده، والتصميم في طلب حقه؛ فاتصل سيرُه، واحتلَّ بلَوْشة سِرَار شوال فتملّكها(٤)، ورحل قافلا إلى وطنه، طريد كلب الشتاء، وافر الخزانة، واقتضى الرأي الفائل ممن له النظر الجاش من زعيم شيوخ جندها، اتهاماً له بالطاغية(٥)، فسجنه. ثم بدا له في أمره، ثم سرّحه بعد استدعاء يمينه، فوغُرت صدور حاشيته، وتبعهم من كان على مثل رأيهم، وهو شوكة حادة، فصرفوا الوجوه إلى السلطان المقبل الحظ، المحبوب إليه هوى الملك، بما راعه، ثانياً من عِنانه بأحواز أرجدونة(٦)، إلا تثويب داعيهم، فكرّ إلى المدينة وبرز إليه

---

(١) في المخطوطين: جذل. والتصويب من اللمحة البدرية. والخدن أي الصديق.

(٢) في المخطوطين: المبهم. والتصويب من اللمحة.

(٣) هذه الإضافة من اللمحة البدرية. وهي ساقطة في المخطوطين.

(٤) وردت محرفة في المخطوطين: فثملها. والتصويب من اللمحة.

(٥) وردت هذه الكلمة في المخطوطين: (بالصفاغية). والمرجح صواب ما أثبتناه.

(٦) هي فيما يرجح مدينة أرشدونة Archedona وهي تقع شمالي مالقة على مقربة من أنتقيرة.

جيشها ، ملتفا على عبد الحق بن عثمان ، فأبلى ، وصدّق الحملة ، فكادت تكون الدائرة ؛ فلولا ثبوت السلطان لما استقبلت بأسفلهم الحملة ، فولوا منهزمين، وتبعهم إلى سور المدينة ، وقد خفّتَ الّلفيف والغوغاء النّاعقون بالخُلعان ، الشّرهون إلى تبديل الدّعوات ، وإلى تسنم المآذن والمنارات والرُّبا ، وبرز أهل رَبَض البيّازين[1] ، الهافون إلى مثل هذه البوارق ، إلى شُرف رَبْوتهم ، كل يشير مستدعيا ، إعلاناً بسوء الجوار ، وملل الإيالات ، والانحطاط ، وبعد التلون والتقلب ، وسآمة العافية ؛ شَنْشَنة معروفة فى الخَلْق مألوفة . وبودر غلق باب إلبيرة ، ففُض قفله ، ودُخلت المدينة ، وجاء السلطان إلى معقل الحمراء بأهله وذخيرته وخاصته ، وبرز السلطان أبو الوليد بالقصبة القُدْمى تجاهها ، بالدار الكبرى المنسوبة لابن المؤْل ، ينُفذ الصكوك ، ويذيع[2] العفو ، ويؤلف الشّارد ؛ وضعُفت بصاير المحصورين ، وفَشِلوا على وجود الطعمة ، ووفور المال ، وتمكُّن المنَعَة ؛ فالتمسوا لهم ولسلطانهم عهداً نزلوا به ، مُنتقلين إلى مدينة وادى آشْ ، فى سبيل العِوَض بمال معروف ، وذخيرة موصوفة ؛ وتم ذلك ، وخرج السلطان رحمه الله مخلوعاً ، ساء به القرار ، جانياً على ملكه الأخابيث[3] والأغمار ، ليلة الثامن والعشرين من شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة ، واستقرّ بها موادعاً مرة، ومحارباً أخرى ، إلى أن هلك حسبما يأتى ذكره . وخلا للسلطان الجو، وصُرفت إليه القيادة، وأطاعه القاصى والدّانى ، ولم يختلف عليه اثنان ؛ والبقاء الُخلص لله وحده .

مناقبه

اشتد رحمه الله على أهل البِدَع ،وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة ؛ ولقد

---

(١) كان ربض البيازين أهم أحياء غرناطة الإسلامية . وما زال يقوم بها إلى اليوم وهو يقع فى شمالها الشرق مواجهاً لهضبة الحمراء . وبالإسبانية .Albaicin

(٢) هكذا فى «ج» واللمحة البدرية . وفى «ك» : ويدفع .

(٣) وردت فى المخطوطين محرفة : الأجانيث .

تُذوكر بين يديه [أهل](١) البيت ، فبذل فى فِدْية بعضهم ما يعزُّ بذله ، ونقل منهم بعضاً من [حِرَف خبيثة](٢) ، فزعموا أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فشكر له ذلك . واشتدَّ فى إقامة الحدود ، وإراقة المسكرات ، وحظر(٣) تجلِّى القينات للرجال فى الولائم ، وقَصَر طربهن على أجناسهن من الناس ؛ وأُخذ يهود(٤) الذمة بالتزام سِمِةٍ تُشهرهُم ، وشارة(٥) تميزهم ، وليوفىَّ حقهم من المعاملة التى أمر بها الشارع فى الخطاب والطُّرق ، وهى شواشى صُفْر .

ولقد حدَّث من يخفُّ حديثه ، من الشيوخ أولى المجانة والدُّعابة ، قال : كنا عاكفين على راح(٦) ، وبرأسى شاشيّة ملف حمراء ، فحاول أصحابى إنامتى ، حتى أمكن ذلك ، وبادروا إلى رقاع من ثوب أصفر ، فصنعوا منها شاشية ، ووضعوها فى رأسى ، مكان شاشيتى ، وأيقظونى ، فقمت لشأنى ، وقد هيئوا ثمناً لشراء بَقْل وفاكهة ، وجهزونى لشرائه ، فخرجت حتى أتيت دكان السوق ، فساومته ، فلما نظر إلىّ قال لصاحبه : جزى الله هذا السلطان خيراً ، والله لقد كنت أبادر هذا اللَّعين بالسلام عند لقائه أظنه مُسْلماً ، وبصق علىّ ؛ فَهَمَمْتُ أن أوقع به ، ثم فَطِنتُ للحِلية ، فانتزعتُها ، وبادرت فأوسعتُهم ذمًّا ، وعظُم خجلى ، وسبقنى إليهم عينٌ لهم علىّ ، فكاد الضحك يُهلكهم عند دخولى . ومناقبه كثيرة .

جهاده وبعض الأحداث فى مدته

والتَأثت(٧) الأمور ، لأول مدته ، تَجرَت على جيشه بمظاهرة [جيش](٨) المخلوع لجيش

---

(١) أغفلت فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٢) وردت فى المخطوطين : (من صروف جيشته) . والتصويب من اللمحة .

(٣) هكذا فى «ك» . ووردت فى «ج» حضر .

(٤) وردت فى «ك» : اليهود . وأغفلت فى «ج» .

(٥) وردت فى المخطوطين : وإشارة . والتصويب من اللمحة .

(٦) وردت فى المخطوطين : راحة .

(٧) أساءت وتحرى جت .   (٨) الزيادة من اللمحة .

الرُّوم، الهزيمة الشنيعة، بوادى فُرْتونة؛ أوقع بهم الطاغية بِطره[1]، كافل ملك الروم، المُمَلك صغيرا على عهد أبيه، وعمه الذّاب عنه، ففشا فى الأعلام القتل، وذلك فى صفر من عام ستة عشر وسبعمائة؛ وظهر العدو بعدها فغلب[2] على حصن شمانس[3] وحصن بجيج، وحصن طشْكر، وثغر رُوط. ثم صرفت[4] المطامع عزمه إلى الحضرة، فقصد مرْجها[5]، وكف الله عاديته، وقممَه، ونصر الإسلام عليه، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها؛ واستولى على محلّته النهب، وعلى فرسانه ورجاله القتل، وعظم الفتح، وبهر الصنع وطار الذكر، وثاب السّعد. وكانت الوقيعة سادس جمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبعمائة[6]، وفى ذلك يقول كاتبه شيخنا أبو الحسن بن الجيّاب:

الحمد حقُّ الحمد للرحمن ... كافى العدو وناصر الإيمان
ومُكيِّف الصنع الكريم ودافعُ الـ ... ـخَطْب العظيم وواهب الإحسان
فى كل أمر للمُهَيْمِن حكمة ... أعيت على الأفكار والأذهان

واستقر مَلكهم[7] القتيل بأيدى المسلمين بعد فرارهم، فجعل فى تابوت خشب، [و نُصب][8] بالسور المُنازل من الحمراء يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها، إذاعةً للشهرة، وتثبيتاً لتخليد الفخر.

(١) هودون بيدرو Don Pedro. وكان وصيا على الملك الصبى ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة

(٢) أثبتها «ك». وأغفلها «ج».

(٣) وردت فى المخطوطين: متمابس. وهو تحريف لإسم (شمانس) وقد كان أحد الحصون القريبة من غرناطة. وبالإسبانية Sietemanos أعنى الأيدى السبعة.

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين: صفرت.

(٥) مرج غرناطة الشهير LaVega.

(٦) فى هذا التاريخ الذى يورده ابن الخطيب للموقعة بعض التحريف. ويضع ابن خلدون تاريخ الموقعة فى سنة ٧١٨ هـ (ج ٤ ص ١٧٣ و ج ٧ ص ٢٥٠). وهو يوافق تاريخها الميلادى الواقع فى مايو سنة ١٣١٨ م. وراجع كتابى «نهاية الأندلس» (الطبعة الثالثة) ص ١١٨.

(٧) إن الذى هلك فى الموقعة ووضع جثمانه فى التابوت هودون بيدرو الوصى على الملك الصبى وليس هو ألفونسو الحادى عشر.

ومن الغريب أننى فى هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً[١]، تفقدت ذلك المكان فى بعض ما أباشره، أيام نيابتى عن السلطان بدار مُلْكه على عادتى، فألفيته قد علا عليه كوم من الحجارة، رجم الصبيان إياه، فظهر لى تجديد الإشادة به والاستفتاح بوقوع مثله، ولما كُشف عن الرِّمة لتُنقل إلى وعاء ثان، أُلفى بعَظْم[٢] القَطَن[٣] العريض منها، سنانٌ مُرْهب ثبت فى العظم، انتُزِع منه، وقد غالبتى الرقة والإجهاش، وقلت اللهم ادّخر رضوانك لمن أودع[٤] فى هذه الرّمة الطاغية، سنان جهادك إلى اليوم، وأثِبه وارفع درجته، إنك أهل لذلك.

«رجعٌ»؛ واستقامت الأيام، وهلك المخلوع، فصفا الجو، واتّحدت الكلمة، وأمكن الجهاد. فتحرك فى شهر رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة، وأعمل القصد إلى بلاد العدو، ونازل حصن إشْكر[٥]، الشَّجى المعترض فى حلق بَسْطة، فأخذ بمُخَنَّقة، ونشر الحرب عليه، ورمى بالآله العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد محماة طاق البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شررها، واستقرت بين محصوريه[٦]، فعاثت عياث الصواعق السماوية، فألقى الله الرعب فى قلوبهم، وأتوا بأيديهم، ونزلوا قسراً على حكمه فى الرابع والعشرين من الشهر؛ وأقام بظاهره، فصيره دار جهاد، وعمل فى خندقه بيده، وانصرف؛ فكانت غزاة جمّة البركة عظمت بها على الشرق الجدْوى، وأنشد الشعراء فى هذه الوجهة قصائد أشادت بفضلها، وشهرت من ذكرها، فمن ذلك عن كاتب سره[٧] قوله:

(١) يوافق ذلك سنة ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م).
(٢) وردت فى المخطوطين: بعظن.
(٣) القطن هو ما انحدر من الظهر واستوى.
(٤) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» والملكية: وضع.
(٥) إشكر وبالإسبانية Huescar هى بلدة حصينة تقع شمال شرقى مدينة بسطة.
(٦) وردت فى المخطوطين: محصوبه.
(٧) هكذا فى «ك» واللمحة البدرية. وفى «ج» (كتاب بيره) وهو تحريف

أما مَداك فغاية لم تُلحق   أعيَت على غرِّ الجياد السُّبَّق

ورفع إليه شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هُذيل ، قصيدة أولها :

بحيث القباب[١] الحُمْر والأُسْدُ الوَرْدُ   كتائبُ سكان السماء لهــا جند

أنشدنى منها فى وصف النفط قوله :

وظنوا بأن الصَّعق والرَّعد فى السما   فحاقَ بهم من دونها الصَّعق والرَّعدُ

غرائب أشكالٍ سما هُرْمُسٌ بها   مهنَّدةٌ تأتى الجبال فتنهدُّ

ألا إنها الدنيا تريك عجائباً   وما فى القوى منها فلا بد أن يبدو

وفى العاشر لشهر رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، تحرَّك للغزو بعد أخذ الأهبة والاستكثار والاجتهاد المطوعة ، وقصد مدينة مَرْتُش[٢] العظيمة السَّاحة ، الطيبة البقعة ، فأضْرَب[٣] بها المحلّات[٤] و[كان][٥] القصد إجمام الناس ؛ فصوَّب الحشود ووجهها إلى ما بها[٦] من بَحْر الكروم والملتفَّات ، وأدواح الاشجار ، فأمعنوا فى إفسادها ، وبرز حاميتها [فناشبت الناس][٧] القتال ، فحَمِيت النفوس ، وأريد منع الناس ، فأعيا أمرهم وسال[٨] منهم البحر ، فتعلقوا بالأسوار ؛ وقيل للسلطان بادر بالركوب ، فقد دُخل الرَّبض ، فركب ووقف بإزائها ، فدخل البلد عَنْوة ، واعتصم أهله بالقصَبة ، فدُخلت أيضاً القصبة عنوة ، وانطلقت أيدى الغوغاء على من بها من

(١) هكذا فى «ج» . وفى اللمحة : البنود .

(٢) مرتش ، وبالإسبانية Martos هى بلدة أندلسية حصينة تقع جنوب غربى مدينة جيان . وشمال شرق مدينة بيانة .

(٣) وردت فى المخطوطين وكذا فى « الملكية » : فاضطرب . والتصويب من اللمحة .

(٤) وردت فى المخطوطين : المحالات . والتصويب من اللمحة .

(٥) الزيادة من اللمحة وهى ساقطة فى المخطوطين .

(٦) وردت فى المخطوطين محرفة : بابها .

(٧) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : (فناشب الناس) . والتصويب من اللمحة .

(٨) فى المخطوطين والملكية : وهال .

ذكر وأنثى كبيراً أو صغيراً ، فساءت القِتْلة ، وقُبحت الأُحدوثة . ورُفعت من الغد آكام من الجثث ، صعدت ذُراها المؤذِّنون ؛ وقَفَل إلى غرناطة بنصر لا كفأ له ، فكان دخوله من هذه الغزاة فى الرابع والعشرين لرجب المذكور .

وفـــاته

ولما فصل من مَرْتُش نقم على أحد الرؤساء من قرابته ، وهو ابن عمه محمد ابن إسماعيل المعروف بصاحب الجزيرة ، أمراً تقرَّعه عليه ، وبالغ فى الإهمال له ، وتوعّده بمـا أثار حفيظته ، فأقدم عليه بالفَتْـكة الشنعاء التى ارتكبهـا منه بباب قصره ، بين عبيده وأرباب دولته ، آمنَ ما كان سرباً ، وأعزَّ سلطاناً وجُنداً ؛ وذلك يوم الإثنين ثالث يوم من دخوله من مرتُش ، بعد أن عاهد فى الامر جُمْلة من القرابة والخُدّام ؛ فوثب به ، وهو مجتاز بين السِّماطين من ناسه إلى مجلس كان يجلس فيه للناس ؛ فاعتنقه وانتضى خنجراً كان ملصقاً فى ذراعه ، فأصابه بجراحات ثلاث ، إحداهن فى عنقه ، بأعلى تَرْقُوته ، فخرَّ صريعاً . وصاح بكرٌ وزيره ، فعمَّته سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك ، ووقعت الرَّجة ، وسُلت السيوف ، وتشاغل كل بمن يليه ، واستُخلص السلطان من يديه ، وحيل بينه وبينه ؛ وحين[1] تشاغل القوم بالوزير ، رُفع السلطان وظن أنه قد أفلت جريحاً ، فوقع البُهْت ، وبادروا الفرار ، فسُدت المذاهب ، فقُتلوا حيث وجدوا ، وأخذت الظنة قوماً من أبريائهم ، فامتُحنوا ، ونهب الغوغاء دورهم ، وعلِقت بالجدرات أشلاؤهم ؛ وكان يوماً عصيباً ، وموقفاً صعباً ، واحتُمل السلطان إلى بعض دور قصره ، وبه صُبابة روح ، أشبه شيء بالعدم ، للزُّوق العامة بفوهة[2] شُرْيانه المبتور ، ففاض لحينه بنفس زوال العامة ، رحمه الله .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وعند .

(٢) وردت فى « ج » : ينهو . وفى « ك » بعهو . والتصويب من اللمحة .

وكان من أخذ البيعة لولده الأمير أبى عبد الله من بعده ، ما هو معروف فى موضعه . ودفن غلَس ليلة الثلاثاء ، ثانى يوم فاته ، بروضة الجنة من قصره ، إلى جانب جده ؛ وتنوهى الاحتفال بقبره نقشاً ، وتخريماً(١) ، وإحكاماً ، وحلْياً ، وتمويهاً ، يشق على الوصف ، وكُتب بإزاء رأسه فى لوح الرخام ما نصه ، من كلام شيخنا ، بعد سطر الافتتاح :

« هذا قبر السلطان الشهيد(٢) فتّاح الأمصار ، وناصر ملّة المصطفى المختار ، ومحيي سبيل آبائه الأنصار ، الإمام العادل ، الهمام الباسل ، صاحب الحرب والمحراب الطاهر الأنساب والأثواب ، أسعد الملوك دولة ، وأمضاهم فى ذات الله صوْلة ، سيف الجهاد ، ونور البلاد ، ذى الحسام المسلول فى نصرة الإيمان ، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن ، المجاهد فى سبيل الله ، المنصور بفضل الله ، أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل ابن الهمام الأعلى ، الطاهر الذات والفخار(٣) ، الكريم المآثر والآثار ، كبير الإمامة النصرية ، وعماد الدولة الغالبية ، المقدس ، المرحوم أبى سعيد فرج ، ابن علم الأعلام وحامى حمى الإسلام ، صِنْو الإمام الغالب ، وظهيره [المقدس](٤) العلى المراتب ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد إسماعيل بن نصر ، قدّس الله روحه الطيب ، وأفاض عليها [غيث](٥) رحمته الصيِّب ، ونفعه بالجهاد والشهادة ، وحيّاه بالحسنى والزيادة ، جاهد فى سبيل الله حقّ الجهاد ، وصنع الله له فى فتح البلاد ، وقتل كبار الأعاد ، ما يجده مذخوراً يوم التناد ، إلى أن قضى الله بحضور أجله ، فختم عمره بخير عمله ، وقبَضه إلى ما أعدّ له من كرامته وثوابه ، وغُبار الجهاد طىُّ أثوابه ، فاستشهد رحمه الله شهادةً أثبتت له فى الشُّهداء من الملوك قدَماً ، ورفعت له فى أعلام السعادة علَماً .

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » تحميراً . وفى اللمحة : تنجيداً .

(٢) هكذا وردت فى اللمحة . وفى المخطوطين : الشهير .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية المفاخر . وفى «اللمحة» النجار .

(٤) وردت فقط فى « ج » (٥) واردة فى اللمحة . وساقطة فى المخطوطين والملكية .

« ولد رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يدَى الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شوال عام سبعة وسبعين وستمائه ؛ وبويع يوم الخميس السابع والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائه ؛ واستشهد فى يوم الإثنين السادس والعشرين لشهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة . فسبحان الملك الحق ، الباقى بعد فناء الخلق»

وبعده من جهة اللوح الأخير :

تخصُّ قبرَك ياخيرَ السلاطين … تحيةٌ كالصَّبا مرت بدارين
قبر به من بنى نصر [إمام هدى][1] … عالى المراتب فى الدنيا وفى الدين
أبو الوليد وما أدراك من ملكٍ … مستنصرٍ واثقٍ بالله مأمون
سلطان عدلٍ وبأسٍ غالبٍ وندًى … وفضل تقوى وأخلاقٍ ميامين
لله ما قد طواه الموت من شرف … وسرُّ مجدٍ بهذا اللحد مدفونُ
ومن لسان بذكر الله منطلق … ومن فؤادٍ بحبٍّ الله مسكون
أما الجهادُ فقد أحيا معالمه … وقام منه بمفروض ومَسْنون
فكم فتوحٍ له تَزْهو المنابرُ من … عُجبٍ بهن وأوراق الدواوين
مجاهدٌ نال من فضل الشهادة ما … يجبى[2] عليه بأجر غير ممنون
قضى كعثمان فى الشهر الحرام ضُحىً … وفاة مستشهد[3] فى الدار مطعون
فى عارضيه غبار الغزو تمسحه … فى جنة الخلد أيدى حورها العين
يُسْقى بها عين تسليم وقاتله … مردّد بين زقّوم وغسلين
تبكى البلاد عليه والعباد معاً … فالخلق ما بين أحزان أفانين
لكنه حكم ربٍّ لا مردّ له … [فأمره][4] الجزم بين الكاف والنون
فرحمة الله ربِّ العالمين على … سلطان عدلٍ بهذا القبر مدفون

(١) وردت فى «ج» والملكية . وأغفلت فى «ك» .
(٢) وردت فى المخطوطين (يجرى) والتصويب من اللمحة .
(٣) وردت فى المخطوطين والملكية : مشتهر . والتصويب من اللمحة .
(٤) ساقطة فى المخطوطين والمالكية . وواردة فى اللمحة .

بعض ما رثى به

[وعظُمت فيه][1] فجيعةُ المسلمين لما ثَكلوا من جهاده وعزمه ، وبلوه من سعده وعزٍّ نصره ، فكثرت[2] فيه المراثى ، وتراهنت فى شَجْوِهِ القرائح ؛ وبكاه الغادى والرائح . فمن المراثى التى أُنشدت على قبره ، قول كاتبه [شيخنا][3] أبى الحسن بن الجَيَّاب .

أيا عَبرة العين امزجى الدمع بالدَّم ... ويازفرة الحزن احكمى وتحكَّمى
ويا قلب ذُب وَجْدًا وغمًّا ولَوْعةً ... فإنَّ الأسى فرضٌ على كل مُسْلم
ويا سلوةَ الأيَّام لا كنتِ فابعدى ... إلى [حيث ألقت][4] رحلها أم قشعم
وصِح بأناة الصبر سُحقاً تأخرى ... وقل لشكاة الحزن أهلا تَقَدَّمى
ولِمْ لا وشمسُ الملك والمجد والهُدى ... وفَتَّاح أبواب النَّدى والتكرُّم
ثوَى[5] بين أطباق الثرى رهن غُربة ... وحيداً وأصْمَته الليالى بأسهم
على مَلِك الإسلام فاسْمَحْ بِزَفْرَةٍ ... تُساقط درًّا بين فَذّ وتوْأم
على عَلَمِ الأعلام والقمر الذى ... تجلّى بوجه العصر غُرّة أدهم
على أوْحَدِ الأملاك غير منازع ... أصالة أعراق وفضل تقدمِ
ومَنْ مثل إسماعيل نورٌ لمُهْتَدٍ ... وبُشْرى لمكروبٍ وعفوٌ لمُجْرِم
وما مثلُ إسماعيل للبأس والندى ... لأصْرَاخ مذعور وإغناء مُعدم
وما مثلُ إسماعيل للحرب يجْتَني ... به الفتحُ من غرس القَنا المُتحطِّم

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين والملكية ، ووارد فى اللمحة .
(٢) فى المخطوطين : فكثر .
(٣) وردت فى اللمحة . وأغفلت فى المخطوطين .
(٤) هذه العبارة واردة فى « ك » والملكية . وساقطة فى « ج » .
(٥) وردت فى المخطوطين : ثرى.

وما مثل إسماعيل سَهْمُ سعادةٍ … أصاب به الإسلام شاكلة الدم
شهيدٌ سعيدٌ صبّحته شهادة … تبوأ منها فى الخلود التنعم
أتت وغُبار الغَزْو طيّ ثيابه … ظهيرُ أمانٍ من دخان جَهَنَّمَ
فتبًّا لدارٍ لا يدوم نعيمُها … فما عِرْسها إلا طليعةَ مأتمَ
ولا أنْسُها إلا رهينٌ بوَحْشَة … ولا شَهْدُها إلا مشُوبٌ بعلقم
فيا من يرى الدنيا مُجاجة نَحْلَة … ألا فاعتبرها فهى نَبْتة أرْقَم
فمن شام منها اليوم برق تبسُّم … ففى الغد تلقاه بوجه جهنّم
فضاحكُها باكٍ وجَذْلانُها شجٍ … وطالعُها[1] هاوٍ ومُبْصرها عَم
وسرّاؤها تَفْنى[2] وضرّاؤها معاً … فكلتاهما طيفُ الخيال المُسَلِّم
سَطَتْ بملوك الأرض من بعد آدم … تُبَدِّد منهم كلَّ شمْلٍ مُنظم
فكم من قصير قصَّرت شأو عُمْره … فخرّ صريعاً لليَدَيْن وللفم
وكم كسرت كسرى وفضّت جيوشه … فلم تُحمِهِ منها كتائبُ رسْتُم
ولو أنها ترعى إمام هدايةٍ لأعفَت … علياً[3] من حُسام ابن مُلْجَمَ[4]
وما قَتَلَتْ عثمان فى جَوْف داره … فقدس من مُستَسْلِم ومُسلِّم
وما أمكَنَتْ فيروز[5] من عُمر الرِّضى … فَهدَّت من الإسلام أرفع مَعْلم

إلى آخرها. وتضمن إجمالَ ما ذكر من ذلك، التاريخُ المسمى «بقطع السلوك»[6] المنظوم رجزًا من تأليفى بما نصه:

---

(١) هكذا فى «ك». وفى «ج». وطالقها.

(٢) فى المخطوطين: تنى.

(٣) وردت فى المخطوطين: علينا. وهو تحريف ظاهر.

(٤) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى قاتل الإمام على بن أبى طالب.

(٥) هو أبو لؤلؤة فيروز قاتل الخليفة عمر بن الخطاب.

(٦) هذا هو اسم آخر يورده ابن الخطيب لكتابه المسمى: «رقم الحلل فى نظم الدول».

وعندما خيف انتشار السِّلك ووزر الرُّوم وزير الملك
تدارك الأمر الإمام الطّاهر فعالج الدار طبيبُ ماهر
وهو أبو الوليد إسماعيل والشمس لا يفقدها دليل
ابن الرئيس الماجد الهمام فرْدُ العلا وعلم الأعلام
وجده صِنو الإمام الغالب مناقبُ كالشُّهب الثواقب
فقاد من مالقة الجنودا ونشر الأعلام والبُنودا
وعاد نصر بعدى حمرائه أتى وأمر الله من ورائه
فخلع الأمر وألقى باليد من بعد عهد موثّق مؤكّد
وسار[1] فى الليل إلى وادى الأشى[2] والملك لله يعز من يَشَا
ولم يزل فيها إلى أن ماتا وطلّق الدنيا بها بتاتا
واتّسق الأمر وقرّ الملك وربما جر الحياة[3] الهلك

ومن الرجز المذكور فى وصف جهاده ومقتله :

وكان يوم المرج فى دولته ففرق الأعداء من صولته
وفتح المعاقل المنيعة وابتهجت[4] بعدله الشريعة
وانتبه الدهر له من نومه على يدى طائفة من قومه
بكى عليه الحرب والمحراب وندبته الضُّمَّر العُرَّاب

(١) وردت فى المخطوطين : وصار .
(٢) يقصد به مدينة وادى آش .
(٣) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : المهلك .
(٤) هكذا فى «ج» والملكية . وفى «ك» وانبهجت .

إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر

السلطان الذى احتال[١] على أخيه، المتوثب على ملكه ، يكنى أبا الوليد .

حـاله

كان صبيًا كما اجتمع وجهه ، بادنًا ، دمِثَ الخلق ، ليِّن الجانب ، شديد البياض كثيف الحاشية ، متصلا بالجفوة ، لطول الحَجْبة ، وبُعد التمرن والحُنْكة غُرًّا ، فاقدًا لحسن الأدب ، عريقةً ألفاظه فى العُجمة . تصيَّر الأمر إلى أخيه السلطان خيرتهم ولُباب بيتهم ، يوم قتل أبوهما ، وله مزية السن والرَّجاحة[٢] ، والسكنى بمحل وفاة الأب ، فأبقى عليه ، وأسكنه بعض القصور لِصقه[٣] ، ولم يضايق أُمَّه فيما استأثرت به من بيت المال ، إذ كان إقليدُه فى يدها ، وبيضاؤه وصفراؤه[٤] فى حكمها ، ورفَّه مُتَبَوَّأه ، واستدعى له ولأخيه المعلم الذى كان السبب فى إفاتة إرماقهما ، وإعدام حياتهما ، الشيخ السِّفْلة[٥] محمد البطروجى البائِس ، [فرِد ذلك السِّرب][٦] فاستمرت أيام احتجابه وانتظاره على قصره ، إلى رمضان من عام ستين وسبعمائة . وحرك سماسرة[٧] الفتنة له ولأمه جواز الطمع فى المُلْك ، ودندنوا لها حتى رقَصَت على إيقاعهم ، وخفت إلى مواعدهم ، وشمروا إلى خلاص الأمر ، وأحام الوثبة صِهرُه الرئيس

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » اختال .

(٢) وردت فى « ك » : الرحاجة . وفى « ج » الزجاجة .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : لصقعه .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : وصفراؤها .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : السلفة .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (حدد ذلك السر) . وفى الملكية (فرد ذلك السرفا) .

(٧) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : سمسارة .

[أبو عبد الله][1] ، حِلف الشؤم زوج أخته ، محمد بن إسماعيل ، الشهير الكائنة ، المذكور فى موضعه من حرف الميم . فسيّرت إليه أمه المال ، فبثه فى الدّعرة والشرار ، حتى تم غرضه ، واقتحم القلعة من بعض أسوارها عند البالية ، وقد هُدم منها شىء فى سبيل إصلاحه ، ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من عام ستين وسبعمائة ؛ والسلطان ليلتئذ غير حالّ بها ، فملؤوها لجباً ولَغطاً[2] وصراخاً وهَوْلا وتَنْويراً ، فى جُملة تناهز المائة ؛ وانضاف إليهم أخوانُ رأيهم من حُرّاسها وسكانها ؛ فألبس الناس ، وسُقِط فى أيديهم . وأهدى الليل فتكته[3] هائلة ، وأدّاها شنيعة ، فاقتصر كل على النظر لنفسه ، واقسموا فرقتين ، قصدت إحداها دار كبير الدوله ، وقَيُّوم التفويض ، وشيخ رجال الملك رضوان ، المستبدّ بإحالة كورتها ، الشيخ الذّهول ، معزوز القدر [ورائب النّكتة][4] ، ومُعود الإقالة ، وجرّار رَسَن[5] الأطواد ، وطول الإملا ، الماشى على خدّ الدنيا ، المغضوض البصر عن النّظر ، المستهين بكل سَبْة[6] وحية تسعى ، المعوّل على نظره ، وقوة سَعْده[7] وإجابة دعوته ، مع كونه نسيج وحده فى عفافه وديانته ، ورضى الناس به ، وسقوط منافستهم من أجله ، ومأويهم على موئل لفظه ، وبساط معاملته ، وصحة عقده . فعالجوا بابه طويلاً وتولّجوا داره ، وقتلوه بين أهله وولده .

وقصدت الأخرى دار الأمير المترجم به ومعها صهره ، فأخرجوه[8] ، وأركبوه على فرس ، راعِد الفرائض ، منتقع اللون ، مختلط القول ، تحف به داياته بين

---

(١) فى المخطوطين والملكية : أباهو .
(٢) هكذا فى «ك» والملكية . وفى «ج» : وغلطا .
(٣) هكذا فى «ك» والملكية . وفى «ج» : فتكة .
(٤) هكذا وردت فى الملكية . ووردت فى المخطوطين (وريب النكتة – النكنه) والأولى أرجح
(٥) الرسن هو الحبل .
(٦) وردت فى المخطوطين : سبتا .
(٧) هكذا فى «ك» . وفى «ج» سعادته .
(٨) هكذا وردت فى الملكية . ووردت فى المخطوطين : فارجوه .

مُوَكْولَةٍ(١) ، وتافِلةٍ ومعوَّذة ، قد جعلوا به سيفاً مُصْلتاً على سبيل اللّواعب بالنّصول والرّواقص ، فى مدارج اللهو ؛ واستُخرجت طبول الملك فقرعت ، وقيدت الخيل من مرابطها فرُكبت ، وقصدت الخزائن السلاحية(٢) ففُرقت ، وتم الأمر ، وحل من الريب على دار الإمارة القصد ، وخرجت الكتب إلى البلاد والقواعد ، فالتقت باليد أمهاتها لقطع من بها من أولى الأمانة ، بتمام الأمر ، وهلاك السلطان ، قتم له الأمر ، وبادر أخوه السلطان لحينه(٣) لظهر سابق كان مرتبطاً عند مُجرٍ(٤) له من الجنة لصق القلعة ، فاستأجر الليل ، ووافق الحزم ، فاستقر بوادى آش . وكان أملاكَ بها ، ونازلته المحلات ، وأخذ بمخنّقه الحصص ، واستُنصرت لمنازلته الناس ، وأعملت الحيل ؛ وتأذن الله بثبوت قدمه ، وانتقاله إلى مَلِك المغرب صبح عيد النحر من العام المذكور ؛ إلى أن أعاد الله إليه أمره وردَّ عليه حقه ، وتولى بعد اليأس جبْره ، حسبما يذكر فى موضعه إن شاء الله .

وخلا الجو لهذا الأمير المضعوف ، واستولى على أريكة المُلك الأغمار وأولو البطالة ، وأولياء(٥) صهره الرئيس ، خاطبها له ابتداءً ثم ناقلها(٦) إلى نفسه انتهاءً ، وحاملها إلى غايته دَرَجاً ، وإلى إعاقته سُلّماً ؛ وهو ما هو من غش الحبيب ، وسوء العقد ، ودَخَل السريرة ، واستيطان المكروه ، فأغرى منه بالعهد نفساً مطاوعةً للشهوة ، متبرِّمة بالامتحان والخَلْوة ، بريّة [من](٧) نور العلم وتهذيب الحكمة ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ملولة .

(٢) هكذا فى الملكية . ووردت فى « ج » (وقصرت الخزائن عن الأسلحة) وهو تحريف .

(٣) رسمت فى « ج » : لحبر . ومكانها بياض فى « ك » . وقد رجحنا التصويب لاتساقه مع المعنى .

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : بمتجرا . ونعتقد أن التصويب يتفق مع السياق .

(٥) رسمت فى المخطوطين ناقصة : ولا .

(٦) وردت فى المخطوطين : نقلها . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٧) ساقطة فى المخطوطين والملكية . ويقتضيها السياق .

ناشئة بين أخابيث القسوة ، جانيةً أمانى الشهوة والمخالفة ، مضادّة للفلاح[١] ، حايدة عن سبيل النجاة ، بمحل اغتراب عن النُّصحاء ، وانتباذ عن مقاعد الأحرار ، فجرى طَلَق الجموح فى التخلف ، حتى كبا لِفيه ويديه ، وأعان نَسَمة السوء الرئيس على نفسه ، وقد كان اصطنع الرجال ، واستركب أولى البسالة ، وأسالف الدّعرة ، واختص فى سبيل خدمته والذب عنه ، بالبؤساء والمساعير ، يُشركهم فى الأكلة . ويصافيهم النعمة . واظلم مابينهما ، فحذِرَ كل جانب أخيه ، [إلا أن المهين كان أضعف من أن يستأثر بخطة المعالجة ، ويهتدى إلى سبيل الحزم][٢]. وفى عشىّ يوم الأربعاء [السابع والعشرين][٣] من شهر شعبان، شارفه من مَكْمن[٤] غدره الرَّحب بجوار قصره ، وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية ، وأخفى المساعير ، وداخل المَوْرورى[٥] المشئوم على الدولة ، فبادر رجاله سدَّ الأبواب ، وانخرط فى جملة أو باشه من باب السلطان ، من الرَّجْل لنظر مماليه فى العنا ، وعونه على الهول المورورى ، فأحاط به ، وقد بادر الاعتصام بالمصنع ثانى الصرح المنسوب إلى هامان سموًّا ونفالاً فى السُّكاك[٦] وسعة ذرع . وبعد مارق وصرخ بالناس ، يناشدهم الذِّمام ، فخف إليه منهم الكثير ، وتراكموا بالطريق تحته ، وتولى استنزاله عن سِويّه مملوك أبيه ، العِلج المخذول عبَّاد ، وقد تحصَّل فى قبضته الغادر ، ففَتَل له فى الغارب والذِّروة ، ووعده الحياة ، فنزل عن أمان فُسحة الغَدْر الصَّراح ، والوفاء المُستباح . ولحين استهاله ، أمر نقله[٧] إلى المُطْبَق ،

(١) وردت فى «ك» . وأغفلت فى «ج» والملكية .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين وفى الملكية .

(٣) تاريخ اليوم ساقط فى المخطوطات الثلاثة . وقد أكملناه من اللمحة البدرية .

(٤) وردت فى المخطوطين : ممكن .

(٥) المورورى ، هو حسبما ورد فى اللمحة البدرية ، وزير الرئيس المتوثب ابن عم السلطان المغتصب إسماعيل بن يوسف . والإسم ينسب إلى بلدة مورور . وهى من قواعد الأندلس القديمة وتقع جنوب شرقى إشبيلية وبالإسبانية Moron.

(٦) السكاك هنا أى الجو . (٧) وردت فى «ج» نبله . وفى «ك» تبله .

فقيد مُختبلاً كثير الضراعة ، إلى الأرِىّ[١] لِصق قصره ، وتعاوَرَتْه السيوف ، وأُلحق به صغيره قَيْس ، استُخرج من بعض الخزاين ، وقد جَهَدت[٢] أُمه فى إخفائه ، فمضى لسبيله ، وطُرح رأسه على الرعاع المجيبين لندائه ، فانفضوا لحينه ، وبقى مطروحاً موارى ، بحِلْس[٣] دابة من دواب الظهر ، إلى يوم بعده ، فوورى هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهم ، فكان من أمرهما عبرة . وقد استوفى [ذلك][٤] الكتاب المسمى « بنُفاضة الجراب » من تأليفنا .

وزراء دولته

قَدَّم للوزارة عشية[٥] يوم ولايته ، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى ، بطالع الشؤم ، ونَعْبة النحس . عهدى بالطبيب الإسرائيلى الحبرى العظيم المهارة [فى الفن النجومى][٦] ، إبراهيم بن زَرْزار ، يتطاير بتلك الولاية بكَوْن النَّحس الأعظم فى درجة طالعها ، جِذْواً انفرد بنَحْز أديمِه الجُهَّالة ، المعدودون فى البَهْم والهَمَج[٧] ، الذين لا يعبأ الله بهم ، فكان الخبر وفوق الخبر ، فلم يُر فى الأندلس وزارةٌ أثقل وطأة ، ولا أخبث عهداً ، ولا أعظم شرَهاً ، ولا أكثر حَجْراً منها ثم كان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها . وذلك جزاء الظالمين من رجل حَبَرْكَة[٨] ، كَمِدِ اللون ، تنطِف سحنتُه مرّةً وتُمّا ، غائر العين مطأطىء الرأس ، طَرِفٌ فى الحقد والطمع ، وعىٌّ المنطق ، وجمود الكف ، معدنٌ من معادن الجهل ، مثلٌ فى الخيانة ، تناول

---

(١) الأرى هو محبس الدواب .

(٢) وردت فى المخطوطين : جهد. (٣) الحلس هو كساء الدابة .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وقد أضفناها من الملكية .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ح » عشى .

(٦) هذه العبارة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

(٧) وردت فى المخطوطين والملكية . المهج . وهو تحريف لا يستقيم مع السياق .

(٨) هكذا رسمت فى المخطوطين . ولكن الرسم الشائع هو (حبركى) . والرجل الحبركى هو : الظهر الطويل القصير الرجلين ، ويكاد يكون مقعداً من ضعفهما .

الأمر مُزاحماً فيه بالرئيس المتوثب، وابن عم نفسه، الغادر، الضخم الجرارة، بالوَعَث المهين، وثور النقل، وثعبان الفواكه، وصاعقة الأخْوِنه(١)، ووكيل الدولة المنحط عن خلالهم بالأبوّة والنشأة؛ فجرت أمورها أسوأ مجاريها، إلى ان كان ما أذن الله به، من مداخلة الرئيس الغادر، على قتل أميره المسكين المَهين، مقلده [أنْوَه الرتب](٢)، وتاركه وخطة الخيانة؛ ثم أخذه الأخْذَة الرابية بيد من أمدّهُ فى الغي، وظاهره فى الخزى؛ فجعله نكالاً لما بين يديه وما خلْفَه، وموعظةً للمتّقين، حسبما يأتى فى اسمه بحول الله تعالى.

كاتبه

واستعمل فى الكتابة صاحبنا الرجل الأخرق، الطُوال، الأهوج، البرىّ من الخلال الحميدة، إلا ما كان من وَمَط الخط وسوقٍ السجع، والدرك الأسفل من النظم، عبد الحق بن محمد بن عطية المحاربى، الآتى ذكره. وهو الذى أفرده الله جل جلاله، بالغاية البعيدة من مجال سوء العهد، وقلة الوفاء. وتولى القضاء، أبو جعفر أحمد بن أبى القاسم بن جُزَى أياماً، ثم شَهَّر به قوم من الفقهاء منافسيه، ورشقوه بما أوجب صرفه؛ وَقَدّم للقضاء الشيخ المُسِن(٣)، الطويل السِّباحة فى بحر الأحكام، المفرى الوَدَجَين والحلقوم بسكّين القضاء، المنبور(٤) بالموبقات فيه، تجاوز الله عنه، سَلْمون بن على بن سلمون. وشيخ الغزاة على عهده، يحي بن عُمر بن عبد الله ابن عبد الحق، شيخ الغزاة لأخيه، أصبح يوم الكائنة فى قياده، ونصح له فأمر له؛ وضاعف برّه.

---

(١) جمع خوان وهو المائدة.

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى «ك». وفى «ج» والملكية: أبوه الرتبة.

(٣) وردت فى المخطوطين: الحسن.

(٤) أى المعروف والمشهور.

الملوك على عهده[١]

مولده

في يوم الإثنين الثامن والعشرين لربيع الأول من عام أربعين وسبعمائة .

« وفاته » ؛ حسبما تقرر آنفاً فى يوم الأربعاء [السابع والعشرين][٢] لشعبان من عام أحد وستين وسبعمائة .

أبو بكر بن إبراهيم ، الأمير أبو يحيى المسوفى[٣] الصحراوى

من أمراء المرابطين ، صِهرُ على بن يوسف بن تاشفين ، زوج أخته ، وأبو[٤] ولده منها يحيى ، المشهور بالكرم .

« أوّليته » ؛ معروفة تُستقرأ[٥] عند ذكر ملوكهم .

حاله

كان مثلاً فى الكرم ، وآيةً فى الجود[٦] ، أنسَى أجواد الإسلام والجاهلية إلى الغاية ؛ فى الحياء والشجاعة والتّبريز فى ميدان الفضائل . استوزر الوزير الحكيم الشهير أبا بكر بن الصائغ ، واختصه ؛ فتجمّلت دولته ونَبُـه قدره . وأخباره معه شهيرة .

---

(١) هذا العنوان ثابت فى المخطوطين وفى الملكية . ولكن لم يثبت بعده شىء .

(٢) تاريخ اليوم ساقط فى المخطوطات الأربعة .

(٣) وردت فى المخطوطات الثلاثة : المسيوفى . وهو تحريف لكلمة (المسوفى) نسبة لقبيلة « مسوفة » إحدى بطون صنهاجة .

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : فبنوا .

(٥) وردت فى المخطوطين : تستقر .

(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : (أجود . جود) .

ولايتـــه

وُلِّى غَرناطة سنة خمسمائة . ثم انتقل منها إلى سَرَقُسْطة ، عند خروج المستعين ابن هود [إلى] روطة[١] . فأقام بها مراسم المُلك ، وانهمك فى اللذات ، وعكف على المُعاقرة ، وكان يجعل التَّاج بين ندمائه ، ويتزيا بزى الملوك[٢] إلى أن هلك بها تحت مضايقة طاغية الروم المستولى عليها بعد .

خروجه من الصحراء

قال المؤرخ : كان أبوبكر هذا رئيساً على بعض قَبيلهِ فى الصحراء ، وكان ابن عمه منفرداً بالتدبير ، فاتفق يوماً أن دخل على ابن عمه فى خبائه[٣] ، وزوج ابن عمه تمتشط[٤] فى موضع قريب من الخباء ، فاشتغلت نفسُ أبو بكر بالمرأة لحسنها وجمالها ، فحين دخل قال لابن عمه ، فلانة تريد الوصول إليك ، وإنما قصد الاستئذان لرجل من أصحابه ، فنطق باسم المرأة لشُغْل باله بها : فقال له ابن عمه بعد طول صَمْت وفكرة ، وقد أنكر ذلك ، عهدى بهذا الشخص لا يستأذن علينا . فرجع عقله ، وثاب لبُّه ، وعلم قدر ما من القبيح وقع فيه[٥] ، فخرج من ذلك المجلس ، وركب جمله ، وهان عليه مفارقة وطنه من أجل العار ، واستصحب نفراً قليلا من أصحابه على حال استعجال ، ورحل ليلا ونهاراً ، حتى وصل سِجِلْماسَة[٦] أولى عِمالات على بن يوسف ابن عمه ، واتصل به قدومه ، فأوجب حقَّه ، وعرف قدره ، وعقد له على أخته ، وولاّه على سَرَقُسْطة دار ملك بنى هُود بشرق الأندلس ، بعد ولاية غرناطة .

---

(١) روطة Rueda قاعدة أندلسية قديمة تقع على نهر خالون غربى سرقسطة . وكان يلجأ إليها بنو هود لمناعتها كلما شعروا بالخطر على ملكهم ، وما تزال بها أطلال حصنها الأندلسى .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى الملكية : الملك . (٣) وردت فى المخطوطين : خباء .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : تمشط .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى الملكية (صار إليه) .

(٦) سجلماسة من قواعد المغرب القديمة . وهى تقع جنوبى فاس .

نبذة من أخباره فى الكرم

قالوا ؛ لما حل بظاهر سجلماسة ، مجهول الوفادة ، خافى الأمر ، نزل بظل نخلة بظاهرها ، لا يعرف أحداً ولا يقصده ، فجاء فى ذلك الموضع رجل حدادٌ فقَراه[1] بعَنْز[2] كان عنده ، وتعرف له ، وأبو بكر يستغرب أمره ؛ فلما فرغوا من أكلهم ؛ قال للحداد ألا تصحبنا لموضع أملنا ، وتكون أحد إخواننا ، حتى تحمد لقاءنا ، فأجابه ؛ وصحبه الحداد ، وخدمه ، فلما قرُبوا من مَرَّا كُش ، استأذن أبو بكر ، علىّ بن يوسف بن تاشفين ، وأعلمه بنفسه . فأخرج له علىّ بن يوسف فرساً من عتاق خيله ، وكسوة من ثيابه وألف دينار ، فأمر أبو بكر بدفعها للحداد ، فبُهتَ الحداد ؛ وانصرف الرسول مُوجَّهاً إلى مرسله فأخبره بما عاين من كرمه وفعله ، فأعاده إليه فى الحين بفرسٍ أخرى ، وكسى كثيرة ، وآلاف من المال ، فلما دخل مَرَّا كُش ، ولقى علىّ بن يوسف وأنزله ، أنزل الحداد مع نفسه فى بيت واحد ، وشاركه فى الأموال التى توجَّه بها[3] ، فانصرف يجرّ وراءه دنيا عريضة .

ولما ملك سَرَقُسطة ، اختصَّ الوزير الحكيم أبا بكر بن الصائغ[4] ، ولطُفَ منه محله . ذكر أنه غاب يوماً عنه وعن حضور مجلسه بسرقسطة ، ثم بكر من الغد ؛ فلما دخل قال له أين غِبْت يا حكيم عنا ؟ فقال يا مولاى أصابتنى سوداء واغتممت ، فأشار إلى الفتى الذى كان يقف على رأسه ، وخاطبه بلسان عجمية ، فأحضره طبقاً مملوءاً مثاقيل مُخْشَمة[5] وعليها نوادير ياسمين [فدفعه][6] كله إليه ، فقال ابن باجّة :

---

(١) أى أضافه وأكرمه .

(٢) وردت فى المخطوطين : نعمر . والتصويب من الملكية .

(٣) هكذا وردت فى الملكية . وفى « ج » (توجب بها) والأولى أرجح .

(٤) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٨٩) .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » مخشيمة .

(٦) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

يا مولاى لم يعرف جالينوس من هذا الطّب، فضحك.

وذكر أنه أنشد شعراً فى مدحه، وقد قعد للشراب، فاستفزّه الطرب، وحَلف أن لا يمشى إلا من فوق المال إلى منزله فى طريقه، فالتمس الخُدام بُرْنُسه بأن كانوا يطرحون من المال شيئاً له خطر، على أوعيته حتى يغمرها، فيمشى خَطْواً إلى أن وصل إلى منزله؛ وحسد الحكيم أصحابه، ولم يقدروا على مطالبته. واتفق أن سار الأمير أبو بكر، وأمر أصحابه بالتأهب والاستعداد، فاستعد ابن باجة، واتخذ الأقبية والأخبية، واسْتَفْرَه[1] الجياد من بغال الحمولة، فكانت له منها[2] سبعة صُفر الألوان، حمل عليها الثياب والفرش والمال؛ فلما نزل الأمير بمقره، مرّت عليه البغال المذكورة فى أجمل الهيئات؛ فقال لجلسائه لمن هذه البغال، ومن يكون من رجالنا هذا؛ فأصابوا العزّة. فقالوا هى للحكيم ابن الصائغ صاحب سرقسطة. وليعلم مولانا أن فى وسط كل حِمل منها ألف دينار ذهباً سوى المتاع والعدة؛ فاستحسن ذلك. وقال أهذا حق؟ قالوا نعم، فدعا الخازن على المال، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار لِيُكمل له ذلك اثنى عشر ألفاً، فقد سمعته غير مامرة يتمنى أن يكون له ذلك؛ ثم بعث عنه فى الحين وقال له، ياحكيم ما هذا الاستعداد؛ فقال له يامولاى كل ذلك من هِباتكم وأعْطِياتِكم، ولِما علمتُ أن أظهار ذلك يسركم، فسر بذلك. وأخباره رحمه الله كثيرة.

محنته

قالوا، ولما وُلّى غرناطة سنة خمسمائة، ثار بها، وانبرى على قومه لأمر رابه[3]. فانتبذ عنه قومه[4]، وناصبوه الحرب، حتى استنزلوه عَنْوة، وقبضوا عليه، ووجّهوه

---

(١) وردت فى المخطوطين: واستفر.

(٢) وردت فى المخطوطين: منه.

(٣) فى المخطوطين: أربه.

(٤) هكذا فى «ج». وفى «ك» والملكية أهله. والمؤدى واحد.

إلى على بن يوسف ، فآثر الإبقاء عليه ، وعفا عنه ، واستعمله[١] بسرقسطة ؛ كذا ذكره الملاحى ، وأشار إليه . وعندى أن الأمر ليس[٢] كذلك ، وأن الذى جرى له ذلك ، أبو بكر بن على بن يوسف بن تاشفين فيتحقق .

وفاته

توفى بسرقسطة فى سنة عشر وخمسمائة بعد أن ضاق ذرعه بطاغية الروم ، الذى أناخ عليه بكلكله . وعندما تعرّف[٣] خبر وفاته ، واتصلت بالأمير أبى إسحاق إبراهيم بن تاشفين ، وهو يومئذ والى مُرْسِية ، بادر إلى سرقسطة ، فضبطها ، ونظر فى ساير أمورها ، ثم صدر إلى مرسية .

رثاؤه

ورثاه الحكيم أبو بكر بن الصائغ بمراث اشتهر عنه منها قوله :

سـلام وإلمام ووسمىٌّ مُزْنَةٍ ... على الجدَث[٤] الثانى الذى لا أزوره
أحقٌّ أبو بكر تقضّي فلا ترى ... تردُّ جماهير الوفود ستوره
لئن أُنِسَت تلك اللحود بلَحْده ... لقد أوْحَشَت أقصاره وقصورُه

ومن ذلك قوله :

أيها الملك المُفَدَّى لَعَمْـرى ... نعى المجدُ ناعيك يوم فمنافَنُحْنا[٥]
كما تقارعتَ والخطوبَ إلى أن ... غادرتك الخطوبُ فى التُّرب وهَنَا[٦]

(١) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : واستعملوه .
(٢) وردت هذه الكلمة فى « ك » وأغفلت فى « ج » .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية تقرر .
(٤) فى المخطوطين : الحدث .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » فبحنا .
(٦) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : رهنا .

غير أنى إذا ذكرتك والدهـــر أخال اليقين فى ذاك ظَنَّا[١]
وسألنا متى اللقــاء فقيل الحَشْـ ـر قلنا صبراً إليـــه وحُزْنا

إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين الملقب بالمأمون ، مأمون الموحدين

أوليتـــه

جَدُّه[٢] عبد المؤمن ، جِذْع الشجرة ، ويُنبوع الجداول : هو ابن على بن علوى بن يَعْلَى بن موار بن نصر بن على بن عامر بن موسى بن عَون الله بن يحيى بن ورجايغ بن سطفور بن نفور بن مطاط بن هزرج بن قيس بن عَيلان بن مُضر بن نِزار بن معدّ بن عدنان . وكان طالباً بربرياً ضعيفاً ، خرج مع عمه يؤم المشرق ، وكان رأى رؤيا هالَتْه تدل على مُلْك[٣] ، إذ كان صفحتُه من طعام على رُكبتيه ، يأكل منها الناس ، وكانت أمه رأت وهى حامِلٌ ، كأنّ ناراً خرجت منها أحرقت المشرق والمغرب ، فكانت فى نفسه حركة ، لأجل هذه الرؤيا ، فلما حل بسِجِلْماسة[٤] ، سمع بها عن المهدى ، وكان رجلاً يُعرف بأبى عبد الله السوسى ، ووُصِف له بالعلم ، فتَشَوَّف إلى لقائه ، ليرى ما عنده فى تأويل رؤياه ، فانصرف إليه مع بعض الطلبة ، فلقِى رجلا قد وسمه ، على مايزعم الناس ، حِدْثان من أبى حامد الغزالى ، وعَلَّقت به دعوة منه ، فى إذهاب مُلْكِ أهل الشَّامِ ، لحرق

(١) هكذا فى الملكية . وفى المخطوطين : ضناً .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : جدهم .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « الملكية » الملك .

(٤) سبق التعريف بها (ص ٤٠٥) .

كتابه[١] على أيديهم ، فهو مُغرًى بالخروج عليهم ، مهيأ[٢] فى عالم الغيب إلى تخريب دعوتهم ؛ فوافق شنٌّ طبَقه «وما اجتمع[٣] الدّا آن إلا ليقتتلا»[٤] والله غالب على أمره . فأجلسه ، وسأله عن اسمه ، وبلده ، وسنه ، ونسبه ، بالتعريف ؛ وأمره أن يخفى من أمره ، وعبَّر له رؤياه ، بأنه يملك الأرض ؛ فاهتزّت الآمال وتعاضدت ، ونفذت مشيئةُ الله ؛ بأن دالت الدولة ، وهلك محمد بن تومرت[٥] المهدى ؛ فأفضى الأمر [إلى عبد المؤمن][٦] ، واستولى على مُلْك اللّمْتُونيين ، فأباد خَضْراءهم ، واستأصل شأفتهم ، واستولى على مُلْك المغرب ، فأقام به رسماً عظيماً ، وأمراً جسيماً ، وأورثه بنيه من بعده . والله يُؤتى مُلْكه من يشاء .

حاله

كان رحمه الله شهماً شجاعاً ، جريئاً[٧] ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوىّ الشكيمة ، لبيباً ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أبيًّا ، جواداً ، حازماً . وذكره ابن عسكر المالَقى ، فى تاريخ بلده ؛ قال [دخل][٨] مالقة من قِبَل أخيه ، فوصل إليها فى الحادى عشر من مُحرم ، وهو شاب حَدَث ، فكان منه من نباهة القَدْر وجلالة النفس ، وأُبَّهة المُلْك ، مايعجز عنه كثير من الملوك . ولحين وصوله عقد مجلس مذاكرة ، استظهر[٩] له نبهاء الطلبة ، وكان الشيخ على بن عبد المجيد[١٠]

(١) أهل اللثام أو الملثمون ، هم المرابطون . وكان أمير المرابطين على بن يوسف بن تاشفين قد أمر بإحراق كتاب الإمام الغزالى : «إحياء علوم الدين » ، وتكفير مؤلفه وذلك فى سنة ٥٠٣ هـ

(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : مهيئاً .

(٣) فى المخطوطين والملكية : أجمع . والتصويب يقتضيه السياق .

(٤) هكذا وردتا فى «ج» . وفى «ك» : ليلتقيا ، والأولى أرجح للسياق .

(٥) وردت فى المخطوطين : تامرت . وهو رسم آخر لاسم المهدى .

(٦) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» والملكية : لعبد المؤمن .

(٧) فى المخطوطين والملكية : جريا . (٨) ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٩) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : استحضر .

(١٠) هكذا فى «ج» . وفى «الملكية» عبد الحميد .

يحضره . وكان يبدو منه مع [حداثة سنة][١] ، من الذكاء والنبل والتفَطن ، ما كان يُبهت الحاضرين، وكانوا ينظرون منه إلى بَدْرِيّ الحسن ، وأسَدِيّ الهيبة ، وكهلّ الوقار والتؤدة ؛ واشتغل بما يشتغل به الملوك من تفخيم البناء ، كبنيان رياض السيد الذى على ضفة الوادى[٢] بمالَقَة المعروف باسمه ، لله ورسوله ، وكان عُرفاء البنائين لا يتصرفون إلا بنظره ؛ واستمرت ولايته مفَخَّم الأمر ، عظيم الولاية ، إلى أن نُقل منها إلى قرطبة ، ثم نقل إلى إشبيلية وفيها[٣] بويع الخلافة .

تصيُّر الأمر إليه ، وجوازه إلى العُدوة

قام على أخيه العادل بين يدى مقلعة ، بممالأة أخيه السيد أبى زيد ، أمير بَلَنْسية وتحريكه إياه ، فتم له ذلك ؛ وعُقدت له البيعةُ بمرّاكُش والأندلس . ثم إن الموحدين فى مراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا عنه إلى ابن عمه أبى زكريا ابن الناصر ؛ [واتصل به خبر خلعهم إياه][٤] فهاجت نفسهُ ، وَوَقَدت جَمْرتُه ، واستعدّ لأخذ ثاره ، ورحل من إشْبيلية ، واستصحب جمعاً من فرسان الروم ، واستَجاز البحر سنة ست وعشرين وستمائة ، قاصداً مراكش ؛ وبرز ابن عمه إلى مدافعته ، والتقى الجَمْعان فكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر ، وفر إلى الجبال ، واستولى القتل على جيشه . ودخل المأمون مراكش فأمر بتعليق شُرفاتها بالرءوس فعَمّتها على اتساع السَّاحة ؛ واستحضر النَّاكثين لبيعته وبيعة أخيه ، وهم كبار الدولة ، واستفْتى قاضيه بمرأى[٥] منهم ، واستحضر خطوطهم وبيعاتهم ، فأفتى بقتلهم ، فقتل جماعتهم ، وهم نحو مائة رجل ؛ واتّصل البحث عمن أفْلَت منهم ، وصرف عزمه إلى محو آثار دولة الموحِّدين، وتغيير رسمها ، فأزال اسم مَهْديها من

---

(١) هكذا وردت فى «ج» . وفى «الملكية» حداثته .

(٢) يقصد بالوادى هنا نهر «وادى المدينة» Guadalmedina الذى يخترق ثغر مالقة . وقد أجدبت ضفافه اليوم . (٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» وبها .

(٤) هكذا فى «ج» ووردت فى الملكية كالآتى (واتصل به خبرهم بما أرادوا من إخلاعه) .

(٥) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : برى .

الخطبة والسكة والمآذن ، وقطع النداء عند الصلاة «تاصليت الإسلام» وكذلك «منسوب رب» «وبادرى»[١] وغير ذلك ، مما جرى عليه عمل الموحدين ؛ وأصدر[٢] فى ذلك رساله حسنة ، من إنشائه ، يأتى ذكرها فى موضعه . وعند انصرافه من الأندلس ، خلا للأمير أبى عبد الله بن هُودْ الجو ، بعد وقائع خلت بينهما ، وانتهز النصارى الفرصة ؛ فعظُمت الفتنة ، وجلَّت المحنة .

دخوله غرناطة

لم يصح عندى أنه دخل غرناطة ، مع غَلَبة الظن القريب من العلم بذلك ، إلا طريقه إلى مدافعته المتوكل بن هُود بجهة مرسية ؛ فإنه تحرك لمعالجة أمره فى جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبى زيد والى[٣] بَلَنْسِية ، بعد هزائم جرت بصُقع[٤] الشرق لابن هود ؛ فتحرك المأمون إليه ، واحتل غرناطة ، فى رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة ، وأنفذ منها كتابه إلى أخيه ، يقوِّى بصيرته ، ويعلمه بنفوذه إليه ؛ والتف عليه جيش غرناطة وما والاها ، واتصل سيرُه إلى الشرق ، فبرز ابن هود إلى لقائه ، فكان اللقاء بخارج لُورَقة[٥] ، فانهزم ابن هود ، وفرّ إلى مرسية ، وعساكر الموحدين فى عقبه؛ واستقصاء مثل هذا يخرج عن الغرض .

وخاطب لأول أمره ، وأخذ الناس ببيعته . من بأقطار الأندلس ، صادعاً بالأمر بالمعروف ، والنَّهى عن المنكر ، والحضّ على الصلوات وإيتاء الزكاة ، وإيتاء الصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات[٦] والتحريض على

---

(١) هذه العبارات فيما يبدو ، بربرية الأصل .

(٢) هكذا وردت فى «ك» . وفى «ج» : وأصدل .

(٣) وردت فى «ج» إلى . والتصويب أرجح للسياق .

(٤) وردت فى «ك» كالمعتاد : بسقع .

(٥) لورقة من القواعد الأندلسية القديمة . وهى تقع جنوب غربى مرسيه فى الطريق إلى غرناطة . وبالإسبانية Lorca .

(٦) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : المسكر .

الرعاية(١) فمن كتابه : « الحمد لله الذى جعل الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر أصلين يتفرع منهما مصالحُ الدنيا والدين، وأمر بالعدل والإحسان، إرشاداً إلى الحق المُبين ؛ والصلاة [والسلام](٢) على سيدنا محمد [النبى](٣) الكريم ، المبعوث بالشريعة التى طهرت الجيوب من الأدران، واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان ، طوراً بالشدة ، وتارة باللين ؛ القائل ، ولا عدول عن قوله : « ومن اتَّقى الشُّبُهات استبرأ لدينه وعرضه » تنبيهاً على ترك الشك لليقين ؛ وعلى آله أعلام(٤) الإسلام ، الملقين راية الإسلام باليمين : الذين مكنهم الله فى الأرض، فأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهَوا عن المنكر، وفاء بالواجب لذلك التمكين .

ومن فصلٍ : « وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونُعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهمُّ وأولى ، والتهمُّم [بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها](٥) ، أحقُّ أن يُقَدم(٦) وأحرى ، وعلينا أن نأخذ بحسَب ما يأمر به الشرع ونَدَع ، ونتبع السنن المشروعة ونَذَر البدَع . ولنا أن لا ندخر عنها نصيحة ، ولا نغبنها أداة(٧) من الأدوات مربحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع » .

ومن فصل : « وأول ما يتناول(٨) به الأمر النافذ، الصلاةُ لأوقاتها ، والأداء

---

(١) هكذا وردت فى « ك » والملكية . ووردت فى « ج » الدعاية .

(٢) ساقطة فى المخطوطين والملكية .

(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الأعلام .

(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . ووردت فى « ك » كالآتى : (بإحياء الشريعة وإقامة شعائرها) .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يقوم .

(٧) وردت فى المخطوطين : إدارة .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تناول .

لها على أكمل صفاتها، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان فى جماعتها. فقد قال عليه الصلاة[١] والسلام: أحبُّ الأعمال إلى الصلاة لأوقاتها. وقال: أول ما يُنظر فيه من أعمال العبد الصلاة. وقال عُمر: إن أهمَّ أموركم عندى الصلاةُ فمن حَفِظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيَعُ. وقال: لاحظَّ فى الإسلام لمن ترك الصلاة، وهى الركنُ الأعظمُ من أركان الإيمان، والسور الأوثق لأعمال الإنسان، والمواظبة على حضورها فى المساجد، وإيثارُ ما لصلاة الجماعة من المزية على صلاة الواحد، أمرٌ لا يضيعه المفلحون، ولا يحافظ عليها إلا المؤمنون. قال ابن مسعود رضى الله عنه: لقد رأينا، وما يتخلف عنها إلا المنافق[٢] معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى يتهادى بين الرَّجُلين، حتى يقام[٣] فى الصَّف. وشهود الصبح، وعشاء[٤] الآخرة شاهد بمحضر الإيمان. ولقد جاء: حضور[٥] الصبح فى جماعة يَعْدِل قيام ليلة، وحسبكم بهذا الرُّجحان. ومن الواجب أن يُعتنى بهذه القاعدة الكبرى من قواعد الدين، ويأخذ[٦] بها فى جميع الأمصار الصغيرُ والكبيرُ من المسلمين، ونيط فى إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام: مُرُوا أبناءكم بالصلاة لسَبْع واضربوهم عليها لعَشْر سنين». وهى طويلة فى معانى متعددة.

نثره ونظمه

ولما غيّر رسوم المُوحِّدين، وأوقع بأرباب دولتهم خبرُ النكث ببيعته، وبيعتى أخيه وعمه، كتب إلى الأقطار عن نفسه، ولمْ يكمل إنشاءه بكتابة رسالة بديعة اشتملت على فصول كثيرة تُنظر فى كتاب «المغرب» و«البيان المُغرب» وغير ذلك. وكتابا بخطه إلى أهل أنْدُوجَر[٧]: «إلى الجماعة والكافة من أهل فلانة، وقاهم الله عثرات

(١) واردة فى «ج». وساقطة فى «ك».

(٢) وردت فى «ج»: المنافقون. والتصويب من الملكية. (٣) هكذا فى «ج». وفى «ك»: يقوم.

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية. وفى «ك» العشاء.

(٥) هكذا فى «ج». وفى «ك»: شهود. والمؤدى واحد.

(٦) وردت فى المخطوطين: ويؤخذ. والتصويب لازم للسياق.

(٧) هى بلدة أندلسية تقع شمال شرقى قرطبة على نهر الوادى الكبير. وبالإسبانية Andujar

الألسنة ، وأرشدهم إلى مَحْو السيئة بالحسنة ؛ أما بعد فإنَّه قد وصل من قِبلكم كتابكم الذى[(١)] جدّد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السُّهاد[(٢)] ، بالداهية السّاد ؛ أتعتذرون[(٣)] من المحال بضعف الحال ، وقلّة الرجال . إذاً نُلحقكم[(٤)] بربّات الحِجال . كأنّا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء مُنقَلبكم وأحوالكم ؛ لاجَرَم أنكم سمعتم بالعدوّ قصمه الله ، وقَصْده إلى ذلك الموضع عصمه الله ؛ فطاشت قلوبكم خَوَراً ، وعاد صفوُكم كدراً ، وتَشَمَّمْتم ريح الموت وِرْداً وصدراً ؛ وظننتم أنكم أُحيط بكم من كل جانب ، وأن الفضاء قد غُصّ بالتفاف القنا واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شىء فتخيَّلتموه طلائع الكتائب ؛ تبًّا لهمَّتكم المنحطَّة ، وشيمتكم الرَّاضية بأدْوَن خُطَّة ؛ أحين ندبتم إلى حماية إخوانكم ، والذبِّ عن كلمة إيمانكم ، نسّقتم الأقوال وهى مكذوبة ، ولفَّقتم الأعذار وهى بالباطل مَشوبة ؛ لقد آن لكم أن تتبدلوا جِلَّ الخُرْصان[(٥)] ، إلى مغازل النِّسوان ؛ ومالكم ولصَهَوات الخيول وإنما على الغانيات جرُّ الذيول . أتظْهِرون العناد تخريصاً ، بل تصريحاً وتلويحاً ، ونظنُّ أن لا يجمع لكم شتًّا ، ولا يُدنى منكم نزوحاً . أين المفرُّ وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث [لا][(٦)] يترككم ، فأزيلوا هذه النزعة النِّفاقيَّة من خواطركم ؛ [قبل أن نمحو بالسيف أقوالكم وأفعالكم ، و نستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم . ونحن نقسم بالله لواعتسفتم كل بيداء سملق ، واعتصمتم بأمنع معقل ، وأحفل فيلق ، ما ونينا عنكم زماناً ، ولا ثنينا عن استيصال العزم منكم عناناً][(٧)] فلا يغرنكم الإمهال ، أيُّها الجهّال » . وهى طويلة . وقال عند الإيقاع بالأشياخ

---

(١) ساقطة فى « ك » .

(٢) هذا فى « ج » . وفى « ك » : الساد . وفى البيان المغرب : العناد (ج ٣) .

(٣) فى المخطوطين : أتعتدون ، والتصويب من البيان المعرب .

(٤) فى « ك » : انحقكم .

(٥) أى الرماح الدقيقة المرهفة .

(٦) ساقطة فى المخطوطين والملكية . ولازمة للسياق .

(٧) نقلنا هذه الزيادة من البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٧) .

أولى الفساد على الدول ، وصلبهم فى الأشجار والأسوار[١] ، مما كَلِف السَّلمى بحفظها واستظرافها :

أهلُ الحرابة والفساد من الورى   يعـــزون فى التشبيه بالذُّكّار
ففساده[٢] فيه الصلاح لغيره   بالقَطْع والتَّعليق فى الأشجار
ذُكَّارهم ذِكرى إذا ما أُبصروا   فوق الجُذوعِ وفى ذُرى الأسوار
لو عمَّ عفو الله سائر خَلْقِـه   ما كان أكثرهُمُ من أهل النَّار

توقيعه

قال ابن عسكر ؛ وكانت تصدر منه توقيعات نبيلة . فمنها أن امرأة رفعت[٣] رقعتها بأحد من الأجناد ممن نزل دارها ، وصدر لها أمر يُنْـكر ؛ فوقّع على رقعتها : « يُخرَج هذا النازل ، ولا يُعوَّض بشىء من المنازل » . وغير ذلك مما اختصرناه .

بنوه

أبو محمد عبد الواحد ولىُّ عهده ، وأمير المؤمنين بعد وفاته ، الملقب بالرشيد ؛ وعبد العزيز ، ومان ؛ وأبو الحسن على ، الملقب بالسعيد ، الوالى بعد أخيه الرشيد.

« بناته » : ؛ ابنة العزيز ، وصفية ، ونجمة ، وعائشة ، وفتحونة ؛ وأمهات الجميع روميات ، وسُرِّيات مغربيات .

وزراؤه

وزَرَ له الشيخ أبو زكريا بن أبى الغُمْر وغيره .

---

(١) وردت فى المخطوطين : الصور .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ففاسدة .

(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

«كُتّابه»؛ كتب له جملة من مشاهير الكتاب، منهم[١] أبو زكريا الفازازى، وأبو المطرِّف بن عَميرة، وأبو الحسن الرُّعَينى، وأبو عبدالله بن عيّاش، وأبو العباس ابن عُمران، وغيرهم. وما منهم إلا شهير كبير.

وفاته

توفى رحمه الله بوادى أم الربيع[٢] وقد طوى المراحل من ظاهر سَبْتَة، مُقلعا عن حصارها، مبادراً إلى مَرّاكُش، وقد اتصل به دخول يحيى بن الناصر إياها، فأعدّ السير وقد اشتد حَنَقه[٣] على أهلها، وأقسم أن يُبيح حماها للرّوم، ويُذهب اسمها ومَسَمّاها، فهلك عند دنوه منها فجأة، فكانت عند أهل مراكش من غُرَر الفرج بعد الشدة؛ وكتمت زوجُه حُبابة الرومية، أم الرشيد ولده، خبر وفاته إلا عن الأفراد من قواد[٤] النصارى وبعض الأشياخ، واتفق القول على مبايعة ابنها المذكور، بيعةً خاصّة ثانى يوم وفاته؛ ثم جعل فى هودج وأشيع أنه مريض، وزحفت الجيوش على تَعْبيته؛ وبرز يحيى بن الناصر من مراكش إلى لقائه، والتقى الجمعان فانهزم يحيى، واستولى الرشيد عليه، ودخل مراكش فاستقام الأمر؛ وكانت وفاة المأمون أبى العَلا رحمه الله، ليلة الخامس عشر لمحرم عام ثلاثين وستمائة.

وجرى ذكر المأمون والمهدى وأوّليّتهم فى الرجز المتضمن ذكر بالمسلمة[٥] من نَظْمِى بما نصه بعد ذكر الدولة اللَّمتونية:

ونَجَمَ المهـدى وهو الداهيـة ... فأصبحت تلك المبانى واهيـة
وانحـكَمَ الأمْرُ له وانجمعـا ... فى خبر نذكر منــــه لُمَعَا

(١) فى المخطوطين: من.
(٢) هكذا فى «ج». وفى «ك»: أم ربيع.
(٣) فى «ك»: خنقه.
(٤) وردت فى المخطوطين: عواد. وفى الملكية عوايد. وهو تحريف.
(٥) هو كتاب ابن الخطيب: «رقم الحلل فى نظم الدول» الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة.

لم يأل فيها أن دعا لنفسه وكان فى الحزم فريد جِنْسه
أغرَب فى ناموسه ومذهبه وفى الذى سَطّره من نسبه
وعنده سياسةٌ وعلمٌ وجرأةٌ وكرم وحلمٌ (١)
ووافقت أيامُه فى الناس لدولة المسْترشِد العبَّاسى
ثم انقضت أيامُه المُنيفَة وكان عبدَالمُؤْمن الخليفة
فضاء لونُ سَعْدِه ووضحا ولاح مثل الشمس فى وقت الضُّحى
ثم تِلمْسان وفاساً فتحا ومُلْك أصحاب اللثام(٢) قد محا

ولما انتهى القول إلى المأمون المترجم به ، بعد ذكر من يليه وعبد المؤمن(٣) جده ، قلت :

ثم تولى أمرهم أبو العَلا فسلَّط البيض على بيض الطلَّا
وهو الذى أركب جيش الروم وجدَّ فى إزالة الرسوم

أسباط بن جعفر بن سليمان بن أيوب بن سعد السعدى سعد بن بكر بن عفان الإلبيرى

هذا هو جدُّ سعيد بن جُودى ، بن سَوادة ، بن جُودى ، بن أَسْباط ، أمير المغرب . وقدرهم بهذه المدينة شهير .

حاله

وكان من أهل العلم والفقه ، والدين المتين ، والورع الشديد ، والصلاح الشهير .

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وحزم .
(٢) هم المرابطون أو الملثمون كما تقدم .
(٣) وردت فى « ك » . وعبد الرحمن وهو سهو ناسخ .

نباهتـــه

ولاه الأمير عبد الرحمن قضاء إلبيرة حين بلغه زهده وورعه ، وأنّه لم يَشْرِك إخوته فى شىء من ميراث أبيه ، إذ كان لم يَحْضُر الفَتْح ، فبرئ به إليهم ؛ وابتاع مَوْئلاً بوطنه أنيط به ماء ، وانفرد به للعبادة والتبتّل ؛ فاستَقْدَمه هشامُ ؛ فركب حماره وقدم عليه فى هيئة رثّة بذلة ، فتوسّم فيه الخير ، وقدّمه ووسّع له فى الرّزق ، ووهب له ضياعاً كثيرة ، تُعرف اليوم باسمه ؛ وتُوفى هشام وهو قاض بإلبيرة ، فأقرّه ابنه الحكم ثم ولاّه شُرطته ، إلى أن توفى أسباط ؛ قلت ، انظر حال الشرطة عند الخلفاء مَنْ كان يُختار لها لولايتها[١] .

أسلم بن عبد العزيز بن هشام بن خالد بن عبد الله بن خالد ابن حسين بن جعفر بن أسلم بن أبان

مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ يكْنى أبا الجَعْد .

أوّليته

من أهل شرق الأندلس ، أصلهم من لَوْشة فَتيَّة غَرْناطة[٢] وموضعهم بها معروف ، وإلى جدهم يُنْسب جبل أبى خالد المُطل عليها ، وكان لهم ظهور هنالك ، وفيهم أعلام وفضلاء .

---

(١) وردت فى المخطوطين : لولاية .

(٢) لوشة هى بلد ابن الخطيب . وقد سبق التعريف بها فى المقدمة . وكان ابن الخطيب يسميها « بنت غرناطة » و « فتية غرناطة » اعتزازاً بها .

حـــاله

كان أسلَم من خيار أهل إلبيرة ، شريف البيب ، كريم الأُبُوة ، من كبار أهل العلم ، وكانت فيه دُعابة ، لم يُنسب إليه قط بسببها خِزْية[1] فى دين ولا زَلَّة . قال أبو الفضل عِياض[2] ؛ كان أسلم من خيار أهل إلبيرة ، رفيعُ الدرجة فى العلم ، وعلوُّ الهمة فى الإدراك ، والرواية والدِّيانة ، والصُّحبة ، وبُعد الرِّحلة فى طلب العلم ، معروف النَّصيحة والإخلاص للأُمراء .

مشيختـــه

لقِى بمصر ، المدنى ، ومحمد بن عبد الحَكَم ، ويونس . والربيع بن سليمان المؤذن ، وأحمد بن عبد الرحيم البرْقى . وسمع من على بن عبد العزيز ، وسليمان ابن عمران بالقَيْرُوان .

« من روى عنه » ؛ سمع منه عثمان بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن يونس ، ومحمد بن قاسم ، وغير واحد ؛ وانصرف إلى الأندلس من رحلته ، فنال الوجاهة العظيمة .

ولايتـــه

ولاّه قضاء الجماعة[3] بغرناطة ، الناصرُ لدين الله ، أول ولايته ، وسط[4] سنة ثلاثمائة ، إلى أن استعفى سنة تسع وثلاثمائة فأعفاه ، ثم أعاده . وكان فى قضاء

---

(١) هكذا فى « ح » . وفى « ك » : مرية .

(٢) هو فقيه المغرب الكبير ، الحافظ عياض بن موسى اليحصبى السبتى المتوفى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) . وقد كتب عنه المقرى كتابه الضخم « أزهار الرياض فى أخبار عياض » وسوف يترجم له ابن الخطيب فيما بعد .

(٣) قضاء الجماعة أعنى رياسة القضاء العليا . أو منصب قاضى القضاة .

(٤) هذه الكلمة واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

صارماً لاهوادة عنده . قال المؤرخ ؛ كان الناصر يستخلفه فى سطح القصر إذا خرج إلى مغازيه . وحكى ابن حارث ، أن ابن معاذ وابن صالح أتيا يوماً ، فلمّا أخذا مجلسهما نظر إليهما ، وقال ألقُوا[1] ما أنتم مُلقون فأبْهتهما . ودخل عليه محمد بن وليد يوماً ، فكلمه فى شيء ، فقال أسلم سمعنا وعَصينا ، فقال ابن وليد ونحن قلنا واحتَسْبنا . وأتاه فى بعض مجالسه شهود ، بعضهم من أهل المدينة بقرطبة ، وبعضهم من شُلار من الرَّبَض الشرقى ، يشهدون فى تَرْشيد امرأة من الرَّبض الغربى ، فلما أخذوا مجالسهم ، فتح باب الخوخة التى فى المجلس الذى يجلس بدهليزه ، ونادى من بخارجه فاجتمعوا ؛ اسمعوا عجباً[2] لله دَرُّ الشاعر حيث يقول :

راحت مُشَرِّقة ورُحت مغرِّبا ... شتَّان بين مُشرِّق ومغرِّب

هؤلاء من أهل المدينة وشُلار ، يشهدون فى ترشيد امرأة[3] من ساكنات آخر بلاط مُغيث ، ثم سكت فدهِش القوم وتسللوا[4] . وبلغه عن بعض الشهود المتهمين أنه أُرْشى فى شهادته ببِساط ، فلما أتى ليؤديها ، ودخل على أسلم ، جعل يخلع نعليه عند المشى على بساط القاضى ، فناداه أبا فلان البِساط ، الله الله ، فتنبَّه بأن أمره عند القاضى ، ولم يجسر على أداء شهادته تلك . وخاصم فقيهٌ عند أسلم رجلاً فى خادم أغربها[5] ، وجاء بشاهد أتى به من إشبيلية ؛ فقال ياقاضى هذا شاهدى فاسمع منه ، فصعّد أسلم فى الشاهد وصوّب ، وقال أمحتسبٌ[6] أو مكتسبٌ[7] أصلحك الله ؛ فقال الشاهد أحْسِن الظن أيها القاضى ، فليس هذا إليك ، هذا إلى الله المُطَّلع على

---

(١) وردت فى المخطوطين : أقوا . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين : عجباً .

(٣) وردت فى المخطوطين : امرأتين .

(٤) وردت فى المخطوطين : وتسلا .

(٥) وردت فى المخطوطين : أعربها .

(٦) محتسب أى مدخر أجره عند الله .

(٧) وردت فى المخطوطين : مستكب . وهو تحريف ظاهر .

ما فى القلوب ، ولم تقعد هذا المقعد لتسأل عن هذا وشَبهَه ، وإنما عليك الظاهر ، وتَكِلُ الباطن إلى الله ، فإن شئت ، فاسمع الشهادة كما يلزمنى أداؤها ، ثم اقبلها أو اضرِب بها الحائط . وفى رواية أخرى ، وليس لك أن تكشف السِّتر المُنسَدل بينك وبينى ، فإن هذا التفسير للشهود يوقِف عن الشهادة عندك ، ويعرِّضُ لإهانتك أهلَ لائقةٍ ، وفى ذلك من ضياع الحقوق مالا يخفى ؛ فأخجل أسلم كلامُه ؛ وقال له ، لك ما قلت ، فأدِّ شهادتك يرحمك الله . قال ، فأين الخادم تحضر حتى أشهد على عينها ، قال أسْلَمَ وفقيهٌ أيضاً ؟ هاتوا الخادم ، فجاءت من عند الأمين ، فلما مَثُلَت بين يديه ، نظر منها مليًّا ، ثم قال ، أعرفُ هذه[1] الخادم ملكا لهذا الرجل ، لا أعرِف مِلْكه زال عنها بوجه من الوجوه ، إلى حين شهادتى هذه ، سلامٌ على القاضى ؛ ثم خرج ، فبقى أسلم متعجباً منه .

محنتـــــه

كفَّ بصره فى أخريات أيامه ، فطلب لأجل ذلك الإعفاء فأعفى ، ولزم بيته صابراً مُحْتَسِباً إلى حين وفاته .

مولده : سنة إحدى وثلاثين ومائتين .

أسد بن الفرات بن بشر بن أسد المرّى

من أهل قرية الصِير مورَته من إقليم البساط[2] من قرى غرناطة .

---

(١) وردت فى المخطوطين هذا .

(٢) وردت فى المخطوطين والملكية : الطين مورته . وهو تحريف . وقرية الصير مورته هى قرية Sierra Murada الحديثة وتقع على مقربة من غرناطة . هذا وتوجد فى نسبة أسد بن الفرات ومولده رواية أخرى ، هى أنه أسد بن الفرات بن سنان ، وأنه من أهل نيسابور ، وولد بحران سنة ١٤٢ هـ وقدم مع أبيه طفلا إلى إفريقية (راجع الحلة السيراء لابن الأبار (١٩٦٤) ج ٢ ص ٣٨٠ .

حـاله

كان عظيم القَدْر والشرف والشهرة ، أصيل المعرفة والدين .

مشيخته

خرج إلى المشرق ، ولقى مالك بن أنَس رضى الله عنه ؛ روى عنه سُحنون ابن سعيد .

تآليفـــه

ألف كتاب « المختلطة » ، وولى القضاء بالقيْروان أجمل ما كانت وأكثر علماً ، وولاه زيادة الله[1] غزو صقلية ؛ ففتحها وأبلى بلاء حسناً .

وفاته[2]

توفى رحمه الله محاصراً [سَرَقوسَة][3] منها سنة ثلاث عشر ومائتين . هذا ما وقع فى كتاب أبى القاسم الملاّحى . وذكره عياض فذكر خلافاً فى اسمه وفى أوّليته .

---

(١) زيادة الله بن الأغلب أمير إفريقية (تونس) من سنة ٢٠١ – ٢٢٣ هـ (٨١٦ – ٨٣٨ م)

(٢) ساقطة فى المخطوطين .

(٣) وردت « سرقسطة » فى المخطوطات الأربعة . فإما أن يكون الناسخ قد حرف الاسم الحقيقى وإما أن يكون ابن الخطيب ومن نقل عنهم، قد أخطأوا فى ذكر هذا الاسم . ذلك أن المدينة التى توفى أسد بن الفرات وهو محاصر لها هى ثغر « سرقوسة » Syracusa الواقع جنوب شرق صقلية . أما سرقسطة فهى المدينة الأندلسية المعروفة وقد كانت قاعدة الثغر الأعلى ، وتقع فى شمال اسبانيا وسط ولاية أراجون الحديثة .

أبو بكر المخزومى الأعمى الموروري [المُدوَّرى][1]

حـاله

كان أعمى ، شديد القِحَة والشَّر ، معروفاً بالهجاء ، مُسَلَّطاً على الأعراض ، سريع الجواب ، ذكى الذهن، فطناً للمعاريض ،سابقاً فى ديوان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره .

دخوله غرناطة

وذكر شىء من شعره ، ومهاترته مع[2] نزهون بنت القلاعى .

قال أبو الحسن بن سعيد ، فى كتابه المسمى « بالطالع السعيد » ؛ قدم على غرناطة أيام ولاية أبى بكر بن سعيد عمل[3] غَرْناطة ، ونزل قريباً منه[4] ، وكان يسمع به ؛ فقال صاعقةٌ يرسلها الله عز وجلّ على من يشاء من عباده ، ثم رأى أن يبدأه بالتأنيس والإحسان ، فاستدعاه بهذه الأبيات :

يا ثانيـــا للمَعَرِّى فى حُسن نظمٍ ونَثْرِ
وفَرْط ظَرْف ونُبلٍ وغَوْص فهم وفِـكْرِ

---

(١) وردت هذه الكلمة فى هامش «ج» مضافة إلى « الموروري » . والموروري نسبة إلى مورور وقد سبق التعريف بها (ص ٤٠١) . والمدورى نسبة إلى بلدة المدور . وقد نسب ابن سعيد، أبا بكر المخزومى اليها (راجع المغرب ج ١ ص ٢٢٣). والمدور وبالإسبانية Almodovar بلدة أندلسية تقع شمال شرق قرطبة على مقربة من المدينة الملكية Ciubad Real الحديثة .

(٢) وردت فى المخطوطين كلمة (الأسمه) قبل اسم نزهون . ولم نهتد إلى علة وجودها فحذفناها.

(٣) هكذا فى «ج» وفى «ك» : على . والمقصود هنا « ولاية غرناطة » .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى «ك» والملكية .

صل ثم واصل حفيًّا بكل شكر وبرِّ
وليس إلا حديث كما زها عِقد دُرِّ
وشَادنٌ قد تغنّي على ربابٍ وزَمْرِ
وما يسامح فيه الغفور من كأس خَمْرِ
وبيننا عَقدُ حِلفٍ لِبانُ شِرْكٍ وكُفْر
فَقُم نجدِّده عهداً يطيب شُكر وسُكر
والكأسُ مثلُ رَضاع ومن كمثلك يَدرى[١]

ووجّه له الوزير [أبو بكر بن سعيد][٢] عبداً صغيراً قاده . فلما استقر به المجلس ، وأفعمته روائح الندّ والعود والأزهار ، وهزّت عِطْفه الأوتار ، قال :

دارُ السُّعَيدىّ ذِى أم دارُ رِضوان ما تشتهى النفسُ فيها حاضرٌ دانِ
سقت أبارقها للند سُحب ندًى تحدو برعد لأوتارٍ والحانِ
والبرقُ من كل دَنٍّ ساكبٌ مَطَرا يحي[٣] به مَيْت أفكار وأشجان
هـذا النعيم الذى كنا نحدّثه ولا سبيل له إلا بآذانِ

فقال أبو بكر بن سعيد « ولا سبيل له إلا بآذان » ، فقال [حتى][٤] يبعث [الله][٥] ولَدَ زنا كلما أنشدتُ هذه الأبيات ، قال : وإن قائلها أعمى ، فقال : أما أنا فلا أنطق بحرف فى ذلك . فقال من صَمَت نجا . وكانت نزهون بنت القلاعى الآتى ذكرها[٦] حاضرة ، فقالت ونراك[٧] يا أستاذ قديم النعمة ، بندٍّ وغناء وطيب

---

(١) كتبت هذه الأبيات فى المخطوطين كل منها شطرة واحدة يكملها بيت آخر .
(٢) ما بين الحاصرتين وارد فى « ت » وساقط فى المخطوطين .
(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .
(٤) هذا فى « ج » . وفى « ك » يحدا .
(٥) هاتان الكلمتان أغفلتا فى المخطوطين . والتكملة من « ت » .
(٦) فى المخطوطين : الآتية .
(٧) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : وزيك .

شراب، تتعجب من تأتّيه، وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول ما كان يلم إلأ بالسماع، ولا يُبلغ إليه إلا بالعِيان؛ لكن من يجيء من حصن للمُدَوّر، وينشأ بين تُيوس وبقَر، من أين له معرفةٌ بمجالس النَّغَم. فلما استوفت كلامها تنحنح الأعمى، فقالت له دعه، فقال من هذه الفاعلة؟ فقالت عجوز مقام أمك، فقال كَذَبْتِ ما هذا صوت عجوز، إنما هذه نغمة قَحْبة محترقة تُشَم روائح كذا منها على فرسخ؛ فقال له أبو بكر: يا أستاذ هذه نزهون بنت القلاعى الشاعرة الأديبة، فقال سمعت بها لا أسمَعَها الله خيراً، ولا أراها إلا[1] . . . فقالت له يا شيخَ سوءٍ تناقضْتَ، وأى خير أفضل للمرأة؟ ففكر المخزومى ساعة ثم قال:

على وَجْه نزهون من الحسن مَسْحة وإن كان قد أمسى من الضوء عاريا
قواصدُ نزهون تُدَارك غيرها ومن قَصَد البحر استقل السوّاقيا

فأعملت فكرها وقالت:

قل للوضيع مقالاً يُتلى إلى حين يحشَر
مِنَ المدوّر أُنشئت والخرا منه أعْطَر
حيثُ البداوة أمسَت فى أهلها[2] تتبَخْتر
لذلك أمسيتَ صبّا بكل شىء مدوَّر[3]
خُلقتَ أعمى ولكن تهيمُ فى كل أعوَر
جازيتُ شعراً بشعر[4] فقل لعَمرى من أشْعَر
إن كنتُ فى الخَلق أنثى فإنّ شِعرى مُذَكَّر

---

(١) كلمة نابية وردت فى «ج» والملكية ورأينا حذفها.

(٢) هكذا فى المخطوطين: وفى «النفح»: مشيها. وفى «المغرب»: جهلها.

(٣) هكذا ورد هذا البيت فى المخطوطين. وورد فى المغرب كالآتى (لذلك أمسيت تهوى: حلول كل مدور).

(٤) فى المغرب: «جاوبت هجوا بهجو»

فقال لها اسمعى :

ألا قل لنزهونة ما لها   تجرُّ من التيــه أذيالهـا
ولو أبصرت بَشَّةً[١] شمرت   كما عودتنى سِربالهـا

فحلف أبو بكر بن سعيد ألا[٢] يزيد أحدهما على الآخر فى هَجْوه كلمة ؛ فقال المخزومى أكونُ هجّاء الأندلس وأكفُّ عنها دون شيء ؛ فقال أنا أشترى منك عرضَها فاطلب ، فقال بالعَبْد الذى أرسلته فقادنى إلى منزلك ، فإنه لينُ القدِّ رقيق الملمس . فقال أبو بكر لولا أنه صغير كنت أبلِّغك فيه مرادك ، وأهِبه لك ؛ ففطن لقصده ، وقال أصْبرُ عليه ، حتى يكبرُ ، ولو كان كبيراً ما آثرتنى على نفسك ؛ فضحك أبو بكر وقال قد هَجوتَ نثراً ، وإن لم تَهْجُ نظماً ؛ فقال أيها الوزير ، لاتبديل لخَلْقِ الله ؛ وانْفَصَل المخزومى بالعَبْد بعد ما أصلح بينه وبين نزهون .

وقال يمدح القاضى بغرناطة أبا الحسن بن أضحى رحمهما الله :

عجباً للزمان يطلب هَضْمى   وملاذى منه علىُّ بن أضحى
جاره قد سما على النَّطح عزًّا   ليس يخشى من حادث الدهر نَطْحا
فكأنى [علَوْتُ][٣] قرن [فلان]   أى تَيْس مُطول القرن ألْحَـا

فقال له ابن أضحى ، هلا اقتصرت على ما أنت بسبيله ، فكم تقع فى الناس ؛ فقال أنا أعمى وهم حُفَرٌ فلا أزال أقَعُ فيها ، فقال فأعجبنى كلامه على قُبْحه . وحديث مُقامِه بغرناطة يقتضى طويلا .

وفاته

قال أبو القاسم بن خلف ، كان حيًّا بعد الأربعين وخمسمائة .

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية : وفى المغرب : فيشة .

(٢) فى « ك » : أن لا .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين و« الملكية » . والتكملة من المغرب (ص ٢٢٥) .

أصْبَغ بن محمد بن الشيخ المهدى

يُكنى أبا القاسم ، عالم مشهور ،

حــاله

كان محققاً بعِلْم العَدَد والهندسة ؛ مقدَّماً فى علم الهيئة والفلك وعلم النجوم ، وكانت له مع ذلك عناية بالطِّب .

تواليفه

تواليفه حسان ، وموضوعاته مفيدة ، منها كتاب « المَدْخل إلى الهندسة » فى تفسير كتاب إقليدس . ومنها كتاب ثمار العدد المعروف « بالمعاملات » . ومنها كتابه الكبير فى الهندسة تقصَّى فيه أجزاءها . ومنها كتاب[1] فى الآلة المعروفة بالأسطُرلاب . ومنها تاريخه الذى ألّفه وهو تاريخ كبير .

وفــاته

قال ابن جَماعة فى تاريخه ، أخبرنى أبو مروان[2] ، سليمان بن عيسى الناشى المهندس ، أنه توفى بمدينة غرناطة قاعدة الأمير حبُّوس ليلة الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت لرجب سنة ست وعشرين وأربعمائة ، وهو ابن ست وخمسين سنة[3] شمسية[4] . وعدهُ من مفاخر الأندلس .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : كتابان .

(٢) وردت بعدها فى المخطوطين كلمة : (أن) . ولعلها تحريف تكرار للحرفين الأخيرين من كلمة (مروا ن) . أو لعلها (عن) . وقد رأينا حذفها .

(٣) وردت فى « الملكية » خمس وستين .

(٤) وردت فى المخطوطين : شمية . ونرجح التصويب .

أبو علي بن هدية

من أهل غرناطة .

حـــاله

قال أبو القاسم الملّاحى فيه ؛ من أهل الدين ، والفضل ، والأمانة ، والعدالة ، والمعرفة بالتكسير والأعمال السلطانية ، ووُلّى « المُسْتَخلَص »(١) بغرناطة ، فنقّب وأجاد النظر. قال ابن الصَّيرفى : ولما وُلى الوزير أبو على بن هديةَّ المستخلص، وباشر جلائل الأمور ودقائقها بنفسه ، حَمَى المناصِفين ، ورفع المؤن والكُلَف(٢) عنهم ، ووسعَ بسَليف البذر(٣) عليهم ، وآثرهم بالنَّصَفَة بالتزام حصَّة بيت المال ؛ ولم يكن له حُجّاب ولا بوّاب ، فكان القوىُّ والضعيفُ ، والمشروف والشريف ، والكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، شرعاً سواء فى الوصول إليه ، والتكلم فى مجلسه ، فلم يُهتَضم جانب، ولا دُحِضت حجة ؛ إلا أنه ارتفعت الرَّقْبة ، وزالت الهَيْبة ، وأُمْحِق نور الخُطّة ؛ وخصّ أحباس(٤) جامع غرناطة بنَظَره ، بفضل مال كثير من غلّته(٥) ؛ ونُبه باجتماعه ليزيد به بلاطين فى مَسقفه من شرقه وغربه ، فأكمل الله ذلك بسعيه وعلى يديه ؛ ورام رَبْع المسْتَخلص ، وزاد به فى حَمّاماته ؛ ورَمَّ(٦) حوانيته ، واستحدث منيحة(٧) مَمّاها المُسْتَحدثة. وغرس قضبان الجَوْز فى مواضع

---

(١) أنظر الحاشية فى ص ١١٦ .

(٢) وردت فى المخطوطين : الكف .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الزرع .

(٤) الأحباس هى ما يحبس لأغراض الخير ، وهى الأوقاف .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : خلته .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وردم . والأولى أرجح .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين والملكية .

المياه ، وعوَّض بما ذهب ، وشمَّر فى جمع المال ، ووالى الحَفْز على العمل ، ونصح بمقتضى جُهده ، ومنتهى وُسْعه ، ولم تُمد يدُه فى مصانعة ، ولامالت إلى مُداخلة ، ولـكنه لم يُحمل فى حق ولا نُوقِش فى باطل .

أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطَّنْجالى

من أهل لَوْشَة .

نبيلةٌ حَسِيبةٌ ، تُجيد قراءة القرآن ، وتشارك فى فنون من الطَّلب ، من مبادىء غريبة ، وخلف وإقراء مسائل الطِّب ، وتنظم أبياتاً من الشعر . وذكرتها [فى][1] خاتمة « الإكليل »[2] بما نصه : « ثالثة حَمْدَة وولّادة ، وفاضلة الأدب والمَجادة ، تقلدت المحاسن من قبل ولّادة ، وأولدت أبكار الأفكار قبل سِنِّ الوِلادة . نشأت فى حِجر أبيها ، لايدخر عنها تدريجاً ولا سهماً ، حتى نهض إدراكها وظهر فى المعرفة حِراكها ، ودرّسها الطبَّ ففهمت أغراضه ، وعلمت أسبابه وأعراضه » . وفى ذكر شعرها :

« ولما قَدِم أبوها من المغرب ، وحَدَّث بخبرها المُغرب ، توجه بعض الصدور إلى اختبارها ، ومطالعة أخبارها ، فاستَنبَل أغراضها واستحسنها ، واستطرف[3] لَسَنها ، وسألها عن الخط ، وهو أكسدُ بضاعة جُلِبت ، وأشَحُّ درَّة حُلِبت . فأنشدَته من نظمها :

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) هو كتاب ابن الخطيب المسمى : « الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر » . وقد سبق التعريف به فى المقدمة .

(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : واستطرب . والمؤدى واحد .

الخطُّ ليس له فى العلم فائدة　　وإنما هو تَزْيينٌ بقرطاس
والدرس سؤلى لا أبغى به بدلاً　　بقَدْرِ علمِ الفَتى يَسْمو على الناس

وراجعها بعض المجّان[1] يغفر الله له :

إن فرط الدرس ياأمى[2] سحق[3]　　وهذا هو المشهور فى الناس
فخذ من الدرس شيئاً تافها　　خطا وبالفهم يحيي كل الناس

ومن شعرها فى غرض المدح :

إن قيل من الناس ربُّ فضيلةٍ　　حاز العلا والمجد منه أصيلُ
فأقول رضْوانُ وحيدُ زمانٍ　　إن الزمان بمثـله لَبَخيلُ

بُلُكِّين[4] بن باديس بن حبُّوس بن ماكْسَنْ بن زيرى بن مناد الصَّنْهاجى

الأمير الملقب بسيف الدولة ، صاحب أمر والده والمرشح للولاية بعده .

حـاله

قال المؤرخ : كان زيرى بن مناد ، ممن ظهر فى حرب ابن يزيد بإفريقية ، واتَّسم هو وقومه بطاعة العُبَيْديين أمراء الشيعة ، فكانوا حرباً لأضدادهم من زَناتة

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المجاز .
(٢) فى المخطوطين : يا أملى .
(٣) فى المخطوطين : سحقا .
(٤) ترسم دائما فى المخطوطين بالقاف : (بلقين) . وقد سبق أن أضحنا حكمة التعديل (راجع الحاشية فى ص ٢٦١) .

الموالين لأملاك المَرَاونة[١] لتحقق جدِّهم خَزَر[٢] بولايته عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ فلما صار الأمر إلى بنى مَناد بعد انتقال مُلك الشيعة إلى المشرق ، وولى الأمر باديس بن منصور بن بُلكّين بن زيرى ، ذهب أعمامه وأعمام أبيه إلى استضعافه ، فلم يُعطهم ذلك من نفسه ، ووقعت بينهم الحرب التى قتل فيها عم أبيه ماكْسَن بن زيرى ، فرهب[٣] الباقون منهم صولة باديس ، وخافوا عاديته على أنفسهم ، على صغر سنِّه ؛ فخاطب شيخُ بيته يومئذ زاوى بن زيرى ومعه أبناء أخيه ، المُظَفَّر ابن أبى عامر ليجوز إليه إلى الأندلس رغبة فى الجهاد ، فألفى همَّه بعيدة ، وملكاً شامخاً ، يذهب إلى استخدام الأشراف واصطناع الملوك ، فأذن فى ذلك ؛ فدخل منهم جماعةُ الأندلس مع أميرهم زاوى بن زيرى ، ومعه أبناء أخيه حُباسة وحبُّوس وماكْسَنْ ؛ فأنزلهم المظفّر وأكرمهم ، إلا أنهم كابدوا مشقة من دهرهم الذى أصارهم يخدمون بأبواب الملوك من أعدائهم غيرهم ؛ فلما انهدمت الإمامةُ ، وانشقّت عصا الجماعة ، سعَوا فى الفِتْنة سعَى غيرهم ، من سائر قبائل البرابرة[٤] ، عند تشديد أهل الأندلس للبربر ، وانحازوا عند ظهورهم على أهل الأندلس ، بملوك بنى حمُّود[٥] ، إلى بلاد تضمهم ، فانحازت صَنهاجة مع شيخهم ورئيسهم زاوى بن زيرى إلى مدينة غرناطة. ثم آثر زاوى العودة إلى وطنه إفريقية ، فخرج عن الأندلس حسبما يتفسر فى موضعه . والتفّ قومهُ على ابن أخيه حبُّوس بن ماكْسَن ، فى جماعة عظيمة تحمى حَوْزته ، وأقام بها مُلْكاً ، وغلب على ما اتصل بمدينته من الكور ، فتملّك قَبْرة ، وجيَّان[٦] ، واتسع نظره ، وحَمَى وطنه ورعيَّته ممن جاوره من البرابر ؛ وكان

(١) المراونة أعنى بنى مروان أو الأمويين خلفاء الأندلس. (٢) هكذا فى «ك». وفى «ج» خوز .

(٣) وردت فى المخطوطين : فذهب . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى «ك» وفى «ج» . ويجرى ابن الخطيب على ذكر «البربر» بلفظ البرابرة . والبرابر . (٥) وردت فى المخطوطين : بنى حميد . وهو تحريف .

(٦) جيان Jaen سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٨٨) . وتقع قبرة Cabra جنوب جيان وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١١) .

داهية شجاعاً ، فدامت رياسته ، واتصل ملكه ، إلى أن هلك . فولى بعده ابنه باديس ، وسيأتى التعريف به ؛ وولد له ابنه بُلُكِّين هذا المترجم به، فرشَّحه إلى ملكه ، وأخذ له بيعة قومه ، وأهّله[1] للأمر من بعده .قال المؤرخ : ونشأ لباديس ابن حبّوس ، ولدٌ اسمهُ بُلُكِّين ، وكان عاقلاً نبيلاً ، فرشّحه للأمر من بعده ؛ وسمّاه سيف الدولة ؛ وقال : وُلّى مالَقَة فى حياة أبيه ، وكان نبيلاً جليلاً ؛ ووقفتُ على كتاب بخطه نصه بعد البسملة :

« هذا ما التزمه واعتقد العمل به ، بُلُكِّين بن باديس ، للوزير القاضى أبى عبد الله بن الحسن الُجذامى[2] سلّمه الله . اعتقد به إقراره على خُطّة الوزارة ، والقضاء فى جميع كُوَره ، وأن يجرى من الترفيع والإكرام له ، إلى أقصى غاية ، وأن يُحمل على الجراية فى جميع أملاكه بالكُوَر المذكورة ، حاضرتها وباديتها ، الموروثة منها ، والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ؛ وما ابتاع منها من العالى[3] رحمه الله وغيره ، لا يلزمها وظيفٌ بوجه ، ولا يُكلّف منها كُلْفَة ، على كل حال ، وأن يجرى فى قرابته ، وخوْله وحاشيته وعامرى ضيعه ، على المحافظة والبرّ والُحرية . وأقسم على ذلك كله بُلُكِّين بن باديس بالله العظيم ، والقرآن الحكيم ؛ وأشهد الله على نفسه وعلى التزامه له ، وكفى بالله شهيداً . وكُتب بخط يده مستهل شهر رمضان العظيم سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، والله المُستعان » .

ولا شك أن هذا المقدار يدل على نبل ، ويعرف عن كفاية .

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وملكه . والأولى أرجح .

(٢) هكذا وردت فى « ج » . ووردت محرفة فى « ك » : الحراص .

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المعالى . و« العالى » هو خليفة الأندلس إدريس ابن يحيى المعتلى من بنى حمود ، وقد حكم غرناطة وقرمونة ولقب بالعالى . وخلع سنة ٤٣٨ هـ بعد أربع سنين من حكمه .

سبب وفاته

قال صاحب البيان المغرب وغيره: وأمضى باديسُ كاتب أبيه ووزيرَه إسماعيل ابن نغْرالة[١] اليهودى على وزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفعه فوق كل منزلة، وكان لولده بُلكِّين، خاصة من المسلمين يخدمونه، وكان مُبْغضاً فى اليهودى، فبلغه أنه تكلم فى ذلك لأبيه، فبلغ منه كلَّ مَبْلغ، فدبر[٢] الحيلة، فذكروا أنه دخل عليه يوماً فقَبَّل الأرض بين يديه، فقال له الغلام: ولم ذلك، فقال: يرغب العبد أن تدخل داره مع من أحْبَبْتَ من عبيدك ورجالك، فدخل إليه بعد ذلك، فقدم له ولرجاله طعاماً وشراباً، ثم جعل السُّم فى الكأس لابن باديس، فرام القىء[٣]، فلم يقدر عليه، فحمل إلى قصره وقضى نحبه فى يومه، وبلغ الخبر إلى أبيه ولم يعلم السبب، فقرر اليهودىُّ عنده أن أصحابه وبعض جواريه سَمُّوه. فقتَل باديس جوارى ولده، ومن فتيانه وبنى عمّه [جماعة كبيرة][٤]، وخافه[٥] سائرهم ففرّوا عنه. وكانت وفاته سنة ست وخمسين وأربعمائة. وبعده قتل اليهودى فى سنة [تسع وخمسين][٦].

---

(١) وردت فى المخطوطين: (ابن نعراله). ويسميه ابن بسام فى الذخيرة: ابن النغريلى: (ج ١ – ٢ ص ٢٦٥). وورد فى البيان المغرب: ابن نغزاله (ج ٣ ص ٢٦٤). والتسمية الأولى أرجح.

(٢) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك»: فدفن.

(٣) وردت فى «ك»: القبر. وفى «ج» وردت لفظة غير واضحة: الفلى أو البلى. والتصويب من البيان المغرب.

(٤) هذه الزيادة من البيان المغرب وهى لازمة للسياق.

(٥) وردت فى المخطوطين: وخافوه. وهو رسم خاطىء. وكثيراً ما يرد الفعل بالجمع قبل الفاعل فى المخطوطات المغربية.

(٦) وردت فى «ك» ثمان. وفى «ج» والملكية ثمانين. وهو خطأ اقتضى التصويب وفقاً لما يرد بعد فى الفصل الذى عنوانه: «ذكر مقتل اليهودى يوسف بن إسماعيل ...»

باديس بن حبّوس بن ماكْسَن بن زيرِى
ابن مَناد الصَّنهاجى

كنيته أبو مَناد ، ولقبه الحاجب المُظَفَّر بالله ، الناصر لدين الله .

أوَّليَّتُه

قد تقدم الإلْماع بذلك عند ذكر ابنه بُلُكِّين .

حـــاله

كان رئيساً يَبِساً ، طاغيةً ، جباراً ، شجاعاً ، داهية ، حازماً ، جَلْداً ، شديد الأمر ، سديد الرأى ، بعيد الهمة ، مأثور الإقدام، شَره السيف ، وارى زناد[(١)] الشرِّ ، جمّاعة للمال ؛ ضخُمت به الدولة ، ونبُهت الألقاب ، وأمنت لحمايته[(٢)] الرعايا ، وطمَّ تحت جناح سيفه العُمران ، واتسع بطاعته المُرهبة الجوانب ببأسه النظر ، وانفسخ المُلْك ، وكان ميمون الطائر ، مُطْعَمَ الظفَّر[(٣)] ، مصنوعاً له فى الأعداء ، يقنع أقتاله[(٤)] بسلمه ، ولا يطمع أعداؤه فى حربه . قال ابن عسكر : يكنى أبا مسعود ، وكان من أهل الحزم وحماية الجانب ، وكان يخطب ويدعو للعَلَويِّين بمالقه ، فلما توفى إدريس بن يحيى العالى ، ملك مالقة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة .

---

(١) وردت فى المخطوطين بزناد .
(٢) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : لحميته .
(٣) أعنى كثير الظفر .
(٤) هكذا وردت فى «ج» . وفى «ك» : أمثاله .

وقال الفتح فى قلائده[1] : « كان باديس بن حبوس بغرناطة[2] عاثياً[3] فى فريقه ، عادلاً عن سُنن العدل وطريقه ؛ يجترئ على الله غير مراقب ، ويُسرى إلى ما شاء [غير ملتفت][4] للعواقب ؛ قد حَجَب سنانُه لسانَه ، وسبقت إساءته إحسانَه ؛ [ناهيك][5] من رجل لم يَبتْ من ذنبٍ على نَدَم ، ولم يشرب الماء إلا من قُليب دَم ؛ أحزم[6] من كاد ومكر ، وأجرم[7] من راح وابتكر ؛ وما زال متَّقداً[8] فى مناحيه ، متفقداً لنواحيه ، لا يرام بريْث ولا عَجَل ، ولا يبيت له جار إلا على وَجَل » .

أخباره فى وقائعه

يُنظر إيقاعه بزُهير[9] العامرى ومن معه فى اسم زُهَير ، [فقد ثبت منه هنالك][10] نبذة ، وإيقاعه بجيش ابن عبَّاد بمالقة عندما طرق مالقة وتملَّكها ، واستَصْرخ من استْمسك بقصَبتها من أساودتها ، وغير ذلك مما هو معلوم ، وشهرته مغنية عن الإطالة.

ومن أخباره فى الجبرية والقسوة . قال ابن حيّان ، عندما استَوْعب الفَتْكة بأبى نصر بن أبى نور اليفرنى[11] أمير رُنْدة المنتزى[12] بها وقتله ، ورجوعها إلى ابن عباد ؛

---

(١) هو كتاب : « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان .

(٢) فى المخطوطين : غرناطة . والتصويب من « القلائد » .

(٣) هذا فى القلائد . وفى المخطوطين والملكية عابثاً .

(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : (لا ملتفتا) . والتصويب من القلائد .

(٥) ساقطة فى المخطوطين والملكية . وواردة فى القلائد .

(٦) هكذا فى القلائد . وفى المخطوطين والملكية أجرم .

(٧) هكذا فى القلائد . وفى المخطوطين : أفجر .

(٨) فى المخطوطين : ممتداً . والتصويب من القلائد .

(٩) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » : ابن مقيم . وهو خطأ بين .

(١٠) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية . ووردت فى « ك » : (وثبت فى ذلك منه)

(١١) وردت فى « ج » والملكية السفرى . وفى « ك » الأسفرى . وهو تحريف والصواب ما أثبتناه .

(١٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : المشرى .

حكى أبو بكر الوسنشانى (1) الفقيه عن ثقة عنده من أصادقة التُّجار، أنه حضر مدينة غرناطة، حَضْرَة بادِيس بن حبُّوس الجبار، أيام حدث على أبى نصر صاحب تاكُرُنّا ما حدث، وأن أميرها باديس قام للحادثة (2) وقعد، وهاج من داء عَصَبيّته ما قد سكن، وشقّ أثوابه، وأعلن أعواله، وهجر شرابه الذى لا صبر له عنه، وجفا ملاذّه، وأوهمتهُ نفسُه الخبيثة تمالؤ رعيّته من أهل الأندلس، على الذى دهى أبا نصر، فسوّلت له نفسه حَمْل السيف على أهل حضرته جميعاً، مستحضراً (3) لهم، وكيماً ينبرهم (4)، ويخلص برابرته وعبيده فيريح نفسه، ودبر أن يأتى ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة، من قوة همومه؛ وشاور وزيره اليهودى يوسف بن اسماعيل، مُدبرّ دولته الذى لا يقطع أمراً دونه، مُسْتَخْلياً مُسْتَكْتِماً بسرّه، مصمماً فى عزمه إن هو لم يوافقه عليه؛ فنهاه عن ذلك وخطّأ رأيه فيه، وسأله الأناة ومَحْض الرويّة، وقال له هَبْك وصلت إلى إرادتك ممّن بحضَرتك، على ما فى استباحتهم من الخطار، فأنّي تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حَضْرتك، وبسائط أعمالك؟ أتراهم يطمئنون إلى الذُّهول عن مصائبهم، والاستقرار فى موضعهم؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك فى جموع، يُغرقونك فى لُجَجها أنت وجندك؛ فردّ نصيحته، وأخذ الكتمان عليه، وتقدم إلى عارضه باعتراض الجند فى السلاح، والتّعبية لركوبه يوم الفتكة، يوم تلك الجمعة، فارتجّ البلد. وذُكر أن اليهودى دسّ نسواناً إلى معارف لهنّ من زعماء المسلمين بغرناطة، ينهاهم عن حضور المسجد يومهم، ويأمرهم بإخفاء أنفسهم؛ وفشا الخبر فتخلّف الناس عن شهود الجمعة، ولم يأته إلا نفر من عامّتهم، اقتدوا بمن أتاه (5) من مشيخة البربر

---

(١) هكذا فى «ج». وفى «ك»: الرسنلشانى. والملكية الوساشى.

(٢) وردت فى المخطوطين والملكية: بالحادثة: والتصويب أنسب.

(٣) هكذا وردت فى «ج». وفى «ك» مستعرضاً.

(٤) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج» والملكية ينفدهم.

(٥) هكذا فى «ك». وفى «ج»: أتاهم.

وأغفال القادمين ؛ وجاء إلى باديس الخبر ، والجيش فى السلاح حوالى قصره ، فساءه وفُتّ فى عَضُده، ولم يَشُك فى فشو سرّه، وأحضر وزيره وقلّده البَوْح بسرّه فأنكر ما قرفه[١] به ؛ وقال ومن أين يُنكر على الناس الحذر، وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك فى التعْبية، لا لسَفَرٍ ذكرته، ولا لعَدُو وثب إليك، فمن هناك حدس القوم على أنك تريدهم ، وقد أجمل[٢] الله لك الصنع فى نِفارهم ، وقادك إصارَهم ، فأعِد نظرك يا سيدى ، فسوف تحمد عاقبة رأيى وغِبطة نُصحى . فنصَح وزيرَه شيخٌ من موالى صَنْهاجته ، فانعطَف لذلك بعد لأْى ، وشرح الله صدره . ويجرى[٣] التعريف بشيء من أمور وزيره .

قال ابن عَذَارى المراكُشى فى كتابه المسمى « بالبيان المغْرب » : أمضى باديسُ كاتب أبيه ووزيره ابن نَغْرالة اليهودى، وعمالاً متصرِّفين من أهل مِلَّته، فاكتسبوا الجاه فى أيامه واستطالوا على المسلمين . قال ابن حَيّان ؛ وكان هذا اللعين فى ذاته ، على مازَوى الله عنه من هدايته ، من أكْمَل الرجال علماً وحلماً وفهماً ، وذكاء ، ودماثة ، وركانة ، ودهاء ، ومكرًا ، ومِلْكا لنفسه ، وبَسْطاً من خلقه ، ومعرفةً بزمانه ، ومداراة لعَدُوِّه، واستِسلالاً لحقودهم بحلْمه ؛ [ناهيك][٤] من رجل كتب بالقَلَمين ، واعتنى بالعلْمَين ، وشغف باللسان العربى ، ونظر فيه ، وقرأ كُتُبَه ، وطالع أصوله ؛ فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربى ، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتزكية لدين الإسلام، وذكر فضائله، ما يريده ، ولا يقْصُر فيما يُنْشئه عن أوسط كتَّاب الإسلام ؛ فجمع لذلك « السَّجيج فى علوم الأوائل الرياضية »

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : قربه .
(٢) فى المخطوطين والملكية : أجمع . والتصويب أنسب للسياق .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ويجى .
(٤) أضفنا هذه الكلمة إذ يلوح لنا أنها سقطت فى المخطوطين سهواً .

وتقدم منتحليها(١) بالتدقيق(٢) للمعرفة النجومية ؛ ويشارك فى الهندسة والمنطق ، ويفوق فى الجدل كل مُسْتَول منه على غاية ؛ قليل الكلام مع ذكائه ، ماقتاً للسباب ، (٣) دائمَ التفكر ، جَمّاعةٌ للكتب . هلك فى العَشْر الثانى لمحرم سنة تسع وخمسين وأربعمائة ، فجلل اليهود نعشه ، ونكَّسوا لها أعناقهم خاضعين ، وتعاقدوه جازعين ، وبكوه مُعْلنين ؛ وكان قد حمل ولده يوسف المُكنى بأبى حسين على مطالعة الكتب ، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية ، يُعلّمونه ويدارسونه ، وأعْلَقه بصناعة الكتابة ، ورشحه لأول حركته ، لكتابة ابن مخدومه بُلُكّين برتبة(٤) المترشح لمكانه ، تمهيداً لقواعد خدمته ؛ فلما هلك إسماعيل فى هذا الوقت ، أدناه باديس إليه ، وأظهر الاغتباط به ، والاستعاضة بخدمته عن أبيه .

ذكر مقتل اليهودى يوسف بن إسماعيل ابن نغرالة(٥) الإسرائيلى

قال صاحب البيان ؛ وترك(٦) ابناً له يسمى يوسف لم يعرف [ذلّ الذمّة ، ولا قذر اليهودية](٧) . وكان جميل الوجه ، حادّ الذهن(٨) ، فأخذ فى الاجتهاد فى الأحوال ، وجمع المال ، واستخراج الأموال ، واستعمال اليهود على الأعمال ، فزادت منزلته عند

---

(١) فى المخطوطين : منتجليها .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » بالتدين .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » للاسباب .

(٤) وردت فى المخطوطين : بريه .

(٥) هكذا وردت لأول مرة صواباً فى « ك » . ولكنها على الأغلب ترد محرفة فى المخطوطين .

(٦) فى المخطوطين : وتحرك .

(٧) وردت فى المخطوطين : (ذل اليهودية ولا قدر الذمة) . والتصويب من البيان المغرب . (ج ٣ ص ٢٦٤) .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الزهد .

أميره ؛ وكانت له عليه عيون فى قصره من نساءٍ وفتيانٍ ، يشملهم [١] بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس ،إلا وهو يعلم ذلك . ووقع ماتقدم ذكره ، فى ذِكر بُلكِّين من اتهامه بسَمِّه [٢] ، وتوليه التهمة به عند أبيه ؛ للكثير من جواريه وخدّامه ، وفَتْك هذا بقريب له ، تِلوٍ له فى الخدمة والوجاهة،يدعى بالقائد ،شمر منه بزاحمته إياه فتكة شهيرة ؛ واستَهْدَف للناس فشُغلت به ألسنتهم ، ومُلئت غيظاً عليه صدورهم، وذاعت قصيدة الزاهد أبى إسحاق الإلْبيرى ، فى الإغراء بهم ؛ واتفق أن أغارت على غرناطة بعوثٌ صُمادِحية [٣] تقول إنها باستدعائه ، ليصير الأمر الصَّنْهاجىُّ إلى مجهزها [٤] الأمير بمدينة ألمريَّة . وباديس فى هذه الحال منغمسٌ فى بطالته ، عاكفٌ على شرابه . ونُمى هذا الأمر إلى رهطه من صَنهاجة ، فراحوا [٥] إلى دار اليهودى مع العامة ، فدخلوا عليه ، فاختفى ، زعموا فى بيت فَحم ، وسَوَّد وجهه ، يروم التنكير فقتلوه لمّا عرفوه ، وصلبوه على باب مدينة غرناطة ، وقُتل من اليهود فى يومه ، مقتلةٌ عظيمة ، ونُهبت دورهم ، وذلك سنة تسع وخمسين وأربعمائة . وقبرُه اليوم وقبر أبيه يعرف أصلا من اليهود ينقلونه بتَواتُرٍ عندهم ، أمام باب إلبيرة ، على غَلْوة ، يعترض الطريق ، على لحده [٦] حجارة كدان جافية الجِرْم ؛ ومكانه من الترفُّه والتَّرف والظَّرْف والأدب معروفٌ ؛ وإنما أتينا ببعض أخباره لكونه ممن لايمنع ذكره فى أعلام الأدباء والأفراد إلا نحلته [٧] .

(١) وردت فى المخطوطين : يشغلهم . وفى البيان : شغلهم . ونعتقد أن التصويب أرجح .
(٢) وردت فى المخطوطين : بنسمه . وهو تحريف .
(٣) نسبة إلى المعتصم بن صمادح أمير المرية يومئذ .
(٤) وردت فى المخطوطين : مجهدها .
(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : فوجوا .
(٦) وردت فى المخطوطين الحدة .
(٧) وردت فى المخطوطين : محلة .

مكان باديس من الذكاء وتولعه بالقضايا الآتية

قال ابن الصيرفى ، حدثنى أبو الفضل جعفر الفتى ، وكان له صدق . وفى نفسه عزة وشهامة وكرم ، وأثنى عليه ، وعرف به ، حسبما يأتى فى اسم جعفر المذكور. قال ، خاض باديس مع أصحابه فى المجلس العلى ، من دار الشراب بقصره ، واصطفت الصقاليب [١] والعبيد بالبرطل [٢] المتصل به لتخدم إرادته ، فورد عليه نبأ قام لتعرفه عن مجلسه ، ثم عاد إلى موضعه وقد تجهم وجهه ، وخبثت نفسه ، فحذر ندماؤه على أنفسهم ، وتخيلوا وقوع الشر بهم ؛ ثم قال أعلمتم ما حدث ، قالوا لا والله يطلع على خير ؛ قال : دخل المرابط [٣] الدمنة ؛ فسرى عن القوم . وانطلقت ألسنتهم بالدعاء بنصره [٤] ، وفسحة عمره ، ودوام دولته ؛ ثم وجموا لوجومه . فلما رأى تكدر صفوهم ، قال أقبلوا على شأنكم ، ما نحن وذاك ، اليوم خمر وغداً أمر [٥] ؛ بيننا وبينه أمداد الفجو ، والنشور الجبال وأمواج البحار ؛ ولكن لا بد له أن يتملك بلدى ، ويقعد منه مقعدى ، وهذا أمر لا يلحقه أحد منا ، وإنما يشقى أحفادنا . قال جعفر ، فلما دخل الأمير القصر ، عند خلعه حفيد باديس برحبة مؤمل [٦] ، طاف بكل ركن ومكان منه ، وأنا فى جملته حتى انتهى إلى ذلك المجلس ، فبسط له ما قعد عليه ،

---

(١) هم الصقالبة . وهم المماليك من مختلف الجنسيات الأوربية الذين غصت به قصور الأندلس منذ أواخر القرن الثالث الهجرى . (راجع فى نشأة الصقالبة وأحوالهم وظهورهم فى الأندلس ، كتابى « دولة الإسلام فى الأندلس » الطبعة الرابعة ج ٢ ص ٢٠٥ و ٢٤٩ و ٢٥٠ ؛

(٢) البرطل هو الرسم العربى للكلمة القشتالية Portal وهو البهو ذو الشرفات المعقودة على الأعمدة .

(٣) يريد الإشارة إلى يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وعبوره إلى الأندلس .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فى نصره .

(٥) وردت فى المخطوطين : آخر . وهو تحريف للقول المأثور .

(٦) وردت فى المخطوطين محرفة : (برعبه مؤمل) . و« رحبة مؤمل » اسم مكان بغرناطة الإسلامية . كان يقع فى جنوب غربى الحمراء وجنوب ربض الفخارين ويشتهر برياضه ومنتزهاته ومكانه اليوم الحى الغرناطى المسمى Campo del Principe .

فتذكرت قول باديس، وتعجبت منه تعجباً ظهر علىّ ؛ فالتفت إلىّ أمير المسلمين مُنكراً ، وسألنى مابى ، فأخبرته وصَدَقْتُه ، وقصصت عليه قول باديس ، فتعجَّب ، وقام إلى المسجد بمن معه ، فصلى فيه ركعات ، وأقبل يترحَّم على قبره .

وفـــاته

قال أبو القاسم بن خلف : توفى باديس ليلة الأحد الموفى عشرين من شوال سنة خمس وستين وأربعمائة ، ودفن بمسجد القصر . قلتُ ، وقد ذهب أثر المسجد ، وبقى القبر يحفُّ به حلْقٌ له باب ، كل ذلك على سبيل من الخمول ، وجَدَثُ القبر رخام ، إلى جانب قبر الأمير المجاهد أبى زكريا يحيى بن غانية[1] المدفون فى دولة[2] المُوَحِّدين به .

وقد أدال اعتقاد الخليفة فى باديس بعد وفاته ، قِدمُ العهد بتعرُّف أخبار جَبَرُوته وعتُوِّه على الله سبحانه ، لما جبلهم عليه من الانقياد للأوهام [والانصياع للأضاليل][3] ؛ فعلى حفرته اليوم من الازدحام بطلاب الحوائج والمسْتَشْفين من الأسقام ، حتى أولو الدواب الوجيعة ، ما ليس على قبر معروف الكَرْخى ، وأبى يزيد البسطامى .

ومن أغرب ما وقفت عليه رقعة رفعها إلى السلطان على يدى ، رجل من أهل الخبر مُكَتِّبٌ[4] يؤُمُّ فى مسجد القصبة القدْمى من دار باديس ، يُعرف بابن باق ، وهو يتوسل إلى السلطان ويسأل منه الإذن فى دفنه [مجاوراً لقبره][5] . وعفو الله

(١) سبق التعريف به (تراجع الحاشية فى ص ٩٧) .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بدولة .
(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين والملكية . (وانقطاع الأصاليل) .
(٤) أى يكتب للناس ما يرغبون كتابته .
(٥) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » . وردت فى « ك » : (بجوار القبر) .

أوسع من أن يضيق على مثله ، ممن أسرف على نفسه ، وضيّع حقّ ربّه . ودايره اليوم طلول قد تغيرت أشكالها وقسّم التملّك جنّاتها ، ومع ذلك فمعاهدها إليه منسوبة ، وأخباره متداولة .

وقد ألمعت فى بعض مشاهده بقولى من قصيدة ، غريبة الأغراض ، تشتمل على فنون[1] أثبتها إحماضاً وفكاهة ، لمن يطالع هذا الكتاب ، وإن لم يكن جلبها ضرورياً فيه ، فمنها :

عسى خَطْرة بالرّكب ياحادى العِيس على الهَضْبة الشّماء من قصر باديس

بَكْرون بن أبى بكر بن الأشْقَر الحَضْرمى

يكنى أبا يحيى .

حـــاله

كان من ذوى الأصالة ومشايخ الجند ، فارساً نجِدًا حازماً سديد الرأى ، مسموع القول ، شديد العُضْلة[2] أيّدًا ، فَحْلاً وسيماً ، قائداً عند الجند الأندلسى ، فى أيام السلطان ثانى ملوك بنى نصر ؛ من[3] أحفل ما كان الأمر ، يجرّ وراءه دنيا عريضة ، وجبى الجيش على عهده مغانم كثيرة .

قال شيخنا ابن شِبْرين[4] فى تذكرة ألفيتها بخطه ؛ كان له فى الخدمة مكانٌ

---

(١) وردت فى المخطوطين : فتوق .

(٢) أى الدهاء

(٣) كذا فى «ج» . وفى «ك» : بين .

(٤) هكذا فى «ك» و «الملكية» . وفى «ج» : ابن شيرين . وهو تحريف .

كبير ، وجاهٌ عريض ، ثم صرفه الأمر عن رسمه ، وأنزله الدهر عن حكمه ، تغمدنا الله وإياه برحمته .

وفاته

فى عام أربعة عشر وسبعمائة ، ودفن بمقبرة قومه بباب إلبيرة .

بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل

يُكنى أبا النصر ، رُومى الأصل .

حاله

كان شجاعاً داهية ، حازماً فاضلاً ، مصمماً تقياً ، علماً[١] من أعلام الوفاء . لازم مولاه فى أعقاب النكبة ، وصحبه إلى المغرب الأقصى ، مختصاً به ذابًّا عنه ، مشتملا عليه ، وخطب له الأمر بالأندلس ، فتم له بما هو مذكور .

قال أبو مروان[٢] فى المُقتَبِس : إن عبد الرحمن لما شرّده الخوف إلى قاصية المغرب ، وتنقل بين قبائل البربر ، ودنا من ساحل الأندلس —وكان بها همُّه— يستخبر من قرب ، فعرف أن بلادها مُفترقةٌ بفرقتى المضرية واليمانية ، فزاد ذلك فى أطماعه ، فأدخل إليهم بدراً مولاه يُحسّس[٣] عن خبرهم ، فأتى القوم وبلى ما عندهم ، فداخل اليمانيين منهم ، وقد عَصَفت ريح المضريين بظهور بنى العباس بالمشرق ، فقال لهم ما رأيكم فى رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم ، فيقيم أَوَدكم ويُدرّ كم آمالكم . فقالوا : وَمَنْ لنا به فى هذه الديار ؛ فقال بدرٌ :

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : عالماً . وهو تحريف .

(٢) هو ابن حيان مؤرخ الأندلس . وقد سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يجسس .

ما أدناه منكم ، وأنا الكفيل لكم به ، هذا فلان بمكان كذا وكذا يُقدِّمُ من نفسه [فقالوا : فجىء به أهلا][١] إنّا سُراعٌ إلى طاعته ؛ وأرسلوا بدراً بكتبهم[٢] يستدعونه ، فدخل إليه بأيمن طائر ؛ واستجمع إليه خلق [كثير][٣] من أنصاره قاتل بهم يوسف الفِهرى ، فقهره لأول وقائعه ، وأخذ الأندلس منه وأورثها عقبه .

محنته

قال الراوى : وكان من أكبر من أمضى عليه عبد الرحمن بن معاوية حُكم سياسته وقوّمه معدَلَته[٤] ، مولاهُ بدرُ المعتقُ منه بكل ذمّة محفوظة ، الخائضُ معه لكل غَمْرة مرهوبة ، وكل ذلك لم يُغن عنه نقيراً لما أسلف فى إدلاله عليه ، وكثر من الانبساط لحُرْمته [فجمح مركب تحامله][٥] حتى أورده ألمّاً يضيق[٦] الصدر عنه ، وآسف أميره ومولاه ، حتى كبح عِنانه عن نفسه بعد ذلك كبْحَة أقعى بها أو شارفَ حِمامه ، لولا أن أبقى الأمير على نفسه التى لم يزل مسرفاً عليها . قال ، فانتهى فى عقابه[٧] لمّا سَخِط عليه أن سلب نعمته ، وانتزع دوره وأملاكه وأغْرَمه على ذلك كله أربعين ألفاً من صامته ، ونفاه إلى الثَّغر ، فأقصاه عن قربه ، ولم يُقلْه العَثرة[٨] إلى أن هلك ، فرفع طمع الهوادة عن جميع ثُقله وخدمته ، وصيَّر خبرَه مثلا فى الناس بعده .

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى « ج » ، وفى « ك » : (فقال يجى أهلا به) .
(٢) وردت فى المخطوطين : بكتبكم .
(٣) هذه الزيادة من الملكية .
(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : معتدلة .
(٥) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (فجمع به مركب لحامله) . وبالتصويب يتضح المعنى ويستقيم السياق .
(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يطيق .
(٧) كذا فى « ج » . وفى « ك » أعقابه .
(٨) هكذا فى « ج » . وفى « ك » العشرة .

تاشُفين بن على بن يوسف أمير المسلمين
بعد أبيه بالعُدْوة

صالى[١] حروب الموحدين .

أوَّليته

فيما يختص به التعريف بأولية قومه، ينظر فى اسم أبيه وجده إن شاء الله. قال ابن الورّاق فى كتاب المقياس وغيره : وفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، ولّى [الأمير][٢] على بن يوسف أمير لَمْتُونة، الشهير بالمرابط[٣] ولده الأمير المسمى بسِير عهده من بعده. وجعل له الأمر فى بقية حياته ؛ ورأى أن يولى ابنه تاشُفين الأندلس، فولاه مدينة غرناطة، وألمريّة ثم قرطبة مضافة إلى مابيده. قلت، وفى قولهم رأى أن يولى الأندلس فولاه مدينة غرناطة، شاهد كبير على ماوصفناه[٤] من شرف هذه المدينة؛ فنظر فى مصالحها، وظهر له بركة[٥] فى النصر على العدو، وخدمه الجَدُّ الذى أسلمه، وتبرأ منه فى حروبه مع الموحِّدين حسبما يتقرر فى موضعه، فكانت له على النصارى وقائع عظيمة بَعُد لها الصيتُ، وشاع الذكر حسبما يأتى فى موضعه. قال، فكبُر ذلك على أخيه سِير ولى عهد أبيه، وفاوض أباه فى ذلك وقال له : إن الأمر الذى أهّلتنى إليه لايحسُن لى مع تاشُفين، فإنه قد حمل الذكر والثناء دونى، وغطَّى على اسمى، وأمال إليه جميع أهل المملكة، فليس لى معه اسمٌ ولا ذكرٌ. فأرضاه بأن عزله عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حَضرته، فرحل عن الأندلس فى أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مرّاكش، وصار من جملة[٦] من يتصرف بأمر أخيه سِير ويقف ببابه كأحد حُجّابه؛

---

(١) هكذا فى «ج». وفى «ك». طالى أو كالى . (٢) الزيادة من الملكية .

(٣) وردت فى المخطوطين : بالمرابطين . وهو تحريف ظاهر .

(٤) وردت فى المخطوطين : أوصلنا . والتصويب من مخطوط رواق المغاربة بالأزهر المرموز له بحرف «ر . م». (٥) هكذا وردت فى المخطوطات الثلاثة . وفى «ر . م» : بارقة .

(٦) كذا فى «ج». وفى «ك» والملكية : الجملة .

فقضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر فى اسمه ، وثكله أبوه واشتد جزعه عليه ، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر ، وهى التى تسببت [فى][١] عزل تاشفين وإخماله نظراً إلى ابنها ، فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه .

ولما توفى [الأمير][٢] سير ، أشارت الأم المذكورة على أبيه بتقديم ولده إسحاق ، وكان رؤوماً لها قد تولت تربيته عند هلاك أمه وتبنته ، فقال لها ، هو صغير السن لم يبلغ الحلم ، ولكن [حتى][٣] أجمع الناس فى المسجد خاصة وعامة ، وأخبرهم فإن صرفوا الخيار إلى ، فعلت ما أشرت به . فجمع الناس وعرض عليهم الأمر ، فقالوا كلهم فى صوت واحد : تاشفين ، فلم توسعه السياسة مخالفتهم ، فعقد له الولاية بعده ونقش اسمه فى الدنانير والدراهم مع اسمه ، وقلده النظر فى الأمور السلطانية ، فاستقر بذلك . وكتب إلى العدوة والأندلس وبلاد المغرب ببيعته[٤] ، فوصلت البيعات من كل جهة . ثم رمى به جيوش الموحدين الخارجين عليه ، فنبا جده ومرضت أيامه ، وكان الأمر عليه لا له ، بخلاف ماصنع الله له بالأندلس .

قال أبو مروان الوراق : [وكان أمير المسلمين][٥] على بن يوسف بن تاشفين قد أمل فى ابنه تاشفين مالم تكن الأقدار تساعده به ، فتشاءم به وعزم على خلعه [وصرف عهده][٦] إلى إسحاق ولده الأصغر ، ووجه إلى عامله على إشبيلية أغمار ، أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه ، إلى أن وافاه خبر أمضه وأقلقه ولم يمهله ، فأزعج تاشفين إلى عدوه على غير أهبة بتفويضه إياه ، وصرف المدد فى إثره ، وتوفى لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين [لفعله ذلك][٧] .

---

(١) ساقطة فى المخطوطين والملكية : وإثباتها انسب للسياق .
(٢) ساقطة فى المخطوطين ، وواردة فى « ر . م » والملكية .
(٣) ساقطة فى المخطوطين والملكية ، وواردة فى « ر . م » .
(٤) وردت فى المخطوطين والملكية : فى بيعته .
(٥) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين والملكية : الأمير .
(٦) هكذا فى «ر . م» . وفى المخطوطين والملكية : (وصرفه وعهده) .
(٧) هكذا وردت فى« ج » والملكية . وفى « ك » (تفعله ذلك) . وأغفلها « ر . م » .

مُلكه ووصف حاله

فأفضى إليه ملك أبيه ، بتفويضه إياه فى حياته ، لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، وكان بطلًا شجاعاً حسن الرّكبة والهيئة ، سالكاً ناموس الشريعة ، مائلاً إلى طريقة المستقيمين ، وكُتُب المريدين ؛ قيل إنه لم يشرب قط مُسكراً ولا استمع إلى قينة[١] ، ولا اشتغل بلذة[٢] مما يلهو به الملوك .

الثناء عليه

قال ابن الصيرفى : وكان بطلاً شجاعاً ، أحبَّه الناس ، خواصهم وعوامهم ، وحسنت سياسته فيهم ، وسدَّ الثُغور ، وأذكى على العدو العيون ، وآثر الجند ، ولم يكن منه إلا الجدُّ ، ولم تنل عنده الحظوة[٣] إلا بالعناء والنجدة . وبذلك حمل على الخيل ، وقلد الأسلحة ، وأوسع الأرزاق ، واستكثر من الرماة ، وأركبهم ، وأقام همتهم [للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب ، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو][٤] ولم ينهض إلا ظاهراً[٥] ولا صدر إلا ظافراً[٦] . وملك الملك ومهد بالحزم وتملك نفوس الرعية بالعدل ، وقلوب الجند بالنَّصَفَة . ثم قال : ولولا الاختصار الذى اشترطناه لأوردنا من سَنى[٧] خلاله مايضيق عنه الرّحْب ، ولا يسعه الكُتب .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : (غنية . عينة) .

(٢) هكذا فى «ك» و «ر . م» . وفى «ج» بمرة .

(٣) هكذا فى «ر . م» . وفى المخطوطين : حظوة .

(٤) الزيادة فى ما بين الحاصرتين واردة فى «ر . م» فقط .

(٥) هكذا فى المخطوطين . وفى الملكية و «ر . م» ظهر .

(٦) هكذا فى المخطوطين وفى الملكية و «ر . م» ظفر .

(٧) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : (من سنن خلاله) . والأولى أرجح .

دينه

قال المؤرخ، عكف على زيارة قبر أبى وهب الزاهد بقرطبة، وصاحب أهل الإرادة، وكان وطىء الأكناف[١]، سهل الحجاب، يجالس الأعيان ويذاكرهم؛ قال ابن الصيرفى، ولما قدم غرناطة أقبل على صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وإخفاء الصَّدقة[٢]، [وإنشاء العدل][٣]، وإيثار الحق.

دُعابته

قالوا مر يوماً بمرج القرون، من أحواز قلعة يحصُب[٤]، فقال لزمّال من عبيده كان يمازحه هذا مرجُك؛ فقال الزمّال، ماهو إلا مرجك ومرج أبيك، وأما أنا فمن أنا؟ فضحك وأعرض عنه.

دخوله غرناطة

قالوا، وفى عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة، ولى الأمير أبو محمد تاشُفين بن أمير المسلمين علىّ بن أمير المسلمين يوسف، ووافاها فى السابع عشر لذى حجة؛ فقوّى الحصون وسدَّ الثغور وأذكى العيون، وعمد إلى رحبة القصر، فأقام بها السقائف والبيوت، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال، وضرب السهام[٥]؛ وأنشأ

---

(١) أى النواحى.

(٢) هكذا فى «ر . م». وفى المخطوطين: صدقته.

(٣) هذه الزيادة واردة فقط فى «ر . م».

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين: (يصعب). وقلعة يحصب من حصون غرناطة القديمة. وكانت تعرف بقلعة بنى سعيد. وقد سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١١١).

(٥) هكذا وردت فى «ر . م». وفى المخطوطين: الهام.

السّقى ، وعمل التّراس ، و نسج الدّروع ، وصقل البيضات والسيوف ، وارتبط[١] الخيل ، وأقام المساجد فى الثغور . وبنى لنفسه مسجداً بالقصر ، وواصل الجلوس ، للنظر فى الظُّلامات[٢] ، وقراءة الرّقاع ، وردّ الجواب ؛ وكتب التوقيعات ، وأكرم الفقهاء والطلبة ، وكان له يوم فى كل جمعة ، يتفرغ فيه للمناظرة .

وزراؤه

قال أبو بكر ؛ وقرن الله به ممن ورد معه ، الزبير بن عمر اللّمتونى ، نُدْرة[٣] الزمان كرماً وبسالة ، وحزماً وأصالة ، فكان كما جاء فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى شيئا من أمور المسلمين فأراد الله به خيراً ، جعل الله له بطانة خير ، وجعل له وزيراً صالحاً ، إن نسى شيئاً ذكّره ، وإن ذكَره أعانه » .

عُمّـــاله

الوزير أبو محمد الحسين بن زيد بن أيوب بن حامد بن منحل[٤] [بن يزيد][٥] .

كتّـــابه

الرئيس العالم أبو عبد الله بن أبى الخصال ، والكاتب المؤرخ أبو بكر الصيرفى [وغيرهم][٦] .

---

(١) هكذا وردت فى « ر . م » وفى المخطوطين : ورباط .

(٢) وردت فى المخطوطين : الظلمات . والتصويب من « ر . م » .

(٣) هكذا وردت فى « ك » و « ر . م » . وفى « ج » : نورة .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . و « ر . م » . وفى « ك » : محمد .

(٥) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ر . م » .

(٦) الزيادة واردة فقط فى « ر . م » .

ومن أخبار [جهاده] [١]

خرج الأمير تاشُفين فى رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوعتها، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السِّكة من عمل طُلَيطلة. وقد اتخذه العدو ركاباً لإضراره بالمسلمين، وشحنه وجَمَّ به شوكة حادة بقومِس [٢] مشهور؛ فأحدق به، ونشر الحرب عليه، فافتتحه عنْوة وقتل من كان به؛ وأحيا [٣] قائده « فرِنَند » [٤] ومن معه من الفرسان، وصدر إلى غرناطة ، فبرز له الناس بروزاً لم يعهد مثله . وفى شهر صفر من عام خمسة وعشرين أوقع بالعدو المضيق على أوليته . وفى ربيع الأول من عام ستة وعشرين ، تعرَّف خروج عدو طُلَيطُلَة إلى قرطبة ؛ فبادر الأمير تاشفين إلى قرطبة ، ثم نَهَد [٥] إلى العدو فى خَفٍّ ؛ وترك السيقة والثقْل بأرْجُونة . وقد اكتسح [العدوّ] [٦] بشنت إشطيبن [٧] والوادى الأحمر . وأسْرَى الليل ، وواصل الركض ، وتلاحق بالعدو بقرية براشة . فتراءى الجمعان صُبْحاً ، وافتضح الجيش ، ونشرت الرّماح [٨] والرايات ، وهَدَرت الطبول ، وضاقت المسافة ، وانتبذ العدو عن الغنيمة ؛ والتف الجمعُ ، فتقصرت الرّماح ، ووقعت المسابقة ، ودارت الحرب على العدو ، وأخذ السيف مأخذه ، فأتى القتل على آخرهم ، وصدر إلى غرناطة ظافراً [٩] . وفى آخر هذا العام خرج العدو « للنمط » وقد احتفل فى جيشه

---

(١) الزيادة واردة فقط . فى « ر م » . ووردت فى المخطوطين والملكية : ومن أخباره .

(٢) القومس هنا من ألقاب الشرف ، وهو باللاتينية Comes أو الكونت .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى « ر . م » : واستحى .

(٤) هكذا فى « ر . م » . وفى المخطوطين والملكية : « فرنك » . وفرند هو Fernando .

(٥) أى برز .

(٦) واردة فقط فى « ر . م » .

(٧) هكذا فى « ر . م » ، وهو الرسم الصواب لهذا الاسم . وفى المخطوطين : (بشط اشطن) وهو تحريف . وشنت اشطين وبالإسبانية San Esteban قاعدة حصينة قديمة من قواعد ولاية جيان .

(٨) فى المخطوطين : الريح .

(٩) وردت فى المخطوطين (ظاهراً) . والتصويب أنسب للسياق .

إلى بلاد الإسلام، فصبّح إشبيلية يوم النصف من رجب، وبرز إليه الأمير أبو حفص عمر بن على بن الحاج(١)، فكانت به الدَّبرة فى نفر من المسلمين استشهد جميعهم؛ ونزل العدو على فرسخين من المدينة فجللها(٢) نهباً وغارةً؛ فقتل عظيما، وسبى عظيما؛ وبلغ الخبر الأمير تاشفين، فطوى المراحل، ودخل إشبيلية، وقد أسَرَّها؛ واستؤصلت باديتها، وكثر بها التأديب والتنكيل(٣) فأخذ أعقاب العدو، وقد قصد ناحية بَطَلْيَوْس وباجَة ويابرة(٤) فى ألف عديدة من أنجاد الرجال، ومشهور الأبطال، [فراش جَوْلاً عَهْداً بالرّوع](٥)، فظَفِرَ بما لا يحصيه أحد، ولا يقع عليه عدد؛ وانثنى على رِسْل(٦) انتقل السيقة، وثقته ببعد الصّارخ، وتجشمت بالأمير تاشفين الأدلاء كل ذِرْوة وثنية، وأفضى به الإعداد إلى فَلَاة بقرب الزّلاقة، وهو المهيع الذى يضطر العدو إليه، ولم يكن إلا كلاّ ولا، حتى أقبلت الطلائع منذرةً بإقبال العدوّ، والغنيمة فى يده قد ملأت الأرض، فلما تراءى الجمعان، واضطربت المحلات، ورتبت المراكب، فأخذت مصافَّها، ولزمت الرجال مراكبها، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب الطاعات؛ وعليه البنود الباسقات، مكتّبة بالآيات، وفى المجنّبين(٧) كبار الدوله من أبطال الأندلس، عليهم حُمْر الرايات بالصور الهائلة؛ وفى الجناحين أهل الثغر والأوشاب من أهل الجلادة، عليهم الرايات المرقّعات(٨) بالعَذَبات المجزّعات(٩).

---

(١) هكذا ورد هذا الاسم فى « ج » وورد فى الملكية (أبو جعفر محمد بن الحاج) والدبرة أى الهزيمة.

(٢) هكذا فى « ك ». وفى « ج » فحللها.
(٣) فى المخطوطين: التأكل.

(٤) بطليوس Badajoz من أعظم قواعد الأندلس القديمة، تقع فى جنوب غربى اسبانيا على حدود البرتغال. وباجة Beja من قواعد الأندلس القديمة. وتقع بكورة الغرب Algarve جنوب البرتغال. ويابرة Evora تقع فى البرتغال شمال باجة، وقد كانت من أهم قواعد الأندلس البرتغالية.

(٥) وردت هذه العبارة فى المخطوطين والملكية: (فراس حوالا عهد بالروع). ونعتقد أن التصويب يؤدى معنى يستقيم مع السياق.

(٦) يبدو أن هنا كلمة ساقطة، ولعلها « حتى ».

(٧) وردت فى « ج »: المجتبين. ومكانها بياض فى « ك ». والتصويب من « الملكية ».

(٨) أعنى خرق الألوية.

(٩) هكذا فى (ج » وفى « الملكية » (بالمعذبات المشرعات).

وفى المقدمة مشاهيرُ زَناته(١) ولفيفُ الحشَم بالرايات المُصبغات المُنَبقات(٢) . والتقى الجمعان، ونزل الصبر، وحَمِيت النفوس، واشتدّ الضرب والضّراب وكثرت الحملات ؛ فهزم الله الكافرين ، وأعطوا رقابهم مُدْبِرين ، فوقع القتل، واستلْحَمَ العدوَّ السيفُ ، واستأصله الهلاك والأسار ؛ وكان فتحاً جليلا لا كفاء له ، وصدر الأمير تاشفين ظافراً إلى بلده فى جمادى من هذا العام . ولو ذهبنا لاستقصاء حركات الأمير تاشفين وظهوره لاستدعى ذلك طولا كثيراً .

بعض ما مدح به

فمن ذلك :

أما وبيضُ الهند عنك خصوم ... فالرّوم تبذل ما ظباك تَرُومُ

تَمضى سيوفُك فى العدا ويردها(٣) ... عن نفسه حيث الكلام وخيم

وهذه القصائد قد اشتملت على أغراضها الحماسية . والمُلْك سوقٌ يُجْلب إليها ما يُنْفق عندها .

وفاته

قد تقدم انصرافُه عن الأندلس سنة إحدى وثلاثين وخمسماية ، وقيل سنة اثنين ، واستقرارُه بمرّاكُش مرؤوساً لأخيه سير ، إلى أن أفضى إليه الأمرُ بعد أبيه قال ، واستقبل تاشفين مدافعة جيش [أمير](٤) الموحدين ، أبى محمد عبد المؤمن بن

(١) من أشهر القبائل البربرية ، وموطنها شرقى المغرب الأوسط فى جنوبى منطقتى تلمسان ووهران .

(٢) أى المزركشة .

(٣) وردت فى المخطوطين : وبردها .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

على خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن مُلْك بلغ مداه ، وتمّت أيامه. كتب[١] الله عليه ، فالتاث سَعْدُه ، وفلّ جدّه ، ولم تقم له قائمة إلى أن هزم ، وتبدّد عسكره ، ولجأ إلى وَهْران ، فأحاط به الجيش ، وأخذه الحصار ؛ قالوا فكان من تدبيره أن يلحق ببعض السواحل ، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ، ليرفعه إلى الأندلس ؛ فخرج ليلا فى نفر من خاصّته فرّقهم الليل ، وأضلّهم الروع ، وبدّدتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ؛ وتردّى بتاشفين فرسُه من بعض الحافّات ، ووجُد ميّتاً فى الغد ، وذلك ليلة سبع[٢] وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ؛ وصلبه الموحّدون ، واستولوا على الأمر من بعده ، والبقاء لله تعالى[٣] .

ثابت بن محمد الجرجانى ثم الإستراباذى[٤]

يكنى أبا الفتوح .

حـاله

قال ابن بسّام ؛ كان الغالب على أدواته علمُ اللّسان ، وحفظ الغريب ، والشعر الجاهلى والإسلامى ، إلى المشاركة فى أنواع التعاليم ، والتصرُّف فى حمل السلاح ، والحذق بأنواع الجُنْدية ؛ والنفاذ فى أنواع الفروسيّة ، فكان الـكاملُ فى خلال جمّة . قال أبو مروان ، ولم يدخل الأندلس أكمل من أبى الفتوح فى علمه وأدبه قال ابن زيدون

(١) هكذا وردت فى الملكية . وفى « ج » كتاب .

(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » : تسع . والتاريخ الأول هو الصحيح .

(٣) روجعت هذه الترجمة بأكملها على مخطوط « رواق المغاربة » بالأزهر .

(٤) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الأستريادى) ، وهو تحريف . وصوابه الإستر بادى نسبة إلى إستراباذ . وهى بلد قديمة فارسية من أعمال طبرستان ، وإليها ينتسب كثير من العلماء .

لقيتُه بغرناطة ، فأخذْت عنه أخبار المشارقة ، وحكايات كثيرة ؛ وكان غزير الأدب، قوىّ الحفظ فى اللغة ، نازعاً إلى علم الأوائل من المنطق والنجوم والحكمة ، له بذلك قوة ظاهرة .

طروؤه على الأندلس

قال صاحب الذخيرة ؛ طرأ علي الحاجب منذ صَدْر الفتنة للذائع من كرمه فأكرمه ورفع شأنه، وأصحبه ابنه ، المرشَّحَ لمكانه ، فلم يزل له بهما المكان المكين ، إلى أن تغيرّ عليه يحي لتغير الزمان ، وتقلب الليالى والأيام بالإنسان[1] ؛ ولحق بغرناطة بعسكر البرابرة، فحلّت به من أميرهم باديس الفاقرة[2] .

من روى عنه

قال أبو الوليد ؛ قرأت عليه بالحضرة[3] الحماسة فى اختيار أشعار العرب ، يحملها عن أحمد بن عبد السلام بن الحسين البصرى، ولقيه ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، عن أبى رياش أحمد بن أبى هشام بن شِبْل العَبْسى بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وله[4] فى الفضائل أخبار كثيرة .

محنته ووفاته

لحته عند باديس مع عمه يدّير بن حُباسه تهمةٌ فى التدبير عليه ، والتسوُّر على سلطانه ، دعتهما إلى الفرار عن غرناطة ، واللّحاق بإشبيلية . قال أبو يحي الورّاق ؛ واشتدّ شوق أبى الفتوح إلى أهله عند هربه مع يدّير إلى إشبيلية لما بلغه أن باديس

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : بالأسن .

(٢) الفاقرة أى الداهية .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (بحضرتى . بحضرة) . والحضرة هنا أعنى غرناطة .

(٤) أضفنا هذه الكلمة ليستقيم السياق .

قبض على زوجته وبنيه وحبسهم بالمُنَكَّب عند العبد قدّاح صاحب عذابه وكان لها من نفسه موقعٌ عظيمٌ[١]، وكانت أندلسيَّة جميلة جدًّا لها طفلان ذكرٌ وأنثى، لم يُطِق عنهما صبراً وعمل على الرجوع إلى باديس طمعاً فى أن يصفح عنه، كما عمل مع عمّه أبى ريش؛ فاستأمن إلى باديس يوم نزوله على باب إستِجة إثر انهزام عسكر ابن عباد، وفارق صاحبَه يدّير، ورمى هو[٢] بنفسه إلى باديس من غير توثُّق بأمان أو مراسلة؛ فلما أُدخل[٣] عليه وسلم، قال له ابتدى، بأى وجهٍ جئتنى يانمام[٤] ما أجْرأك على خَلقْك، وأشدّ اغترارك[٥] بسحرك، فرّقت بين بنى ماكْسَن، ثم جئت تخدعُنى كأنك لم تصنع شيئاً؛ فلاطفه، وقال اتّق الله ياسيدى، وارعَ ذمامى، وارحمْ غُربتى وسوء مقامى، ولا تُلزمنى ذنب ابن عمك؛ فما لى سبب فيه، وما حملنى على الفرار معه إلا الخوف على نفسى لسابق خُلطته؛ ولقد لفَظتنى البلاد إليك مُقرًّا بما لم أجنِه رغبة فى صفحك، فافعل أفعال الملوك الذين يَجِلون عن الحقد على مثلى من الصعاليك؛ قالُ بل أفعلُ ماتستحقُّه إن شاء الله؛ أن تنطلق إلى غرناطة، فدُم [على][٦] حالك، والق أهلك إلى [أن][٧] أُقبِل، فأصلح من شأنك. فاطمأن إلى قوله، وخرج إلى غرناطة وقد وُكِّل به فارسان، وقد كتب إلى قدّاح بحبسه؛ فلما شارف إلى غرناطة قبض عليه، وحَلَق رأسه، وأُركب على بعير، وجُعل خلفه أسودُ فَظٌّ ضخم يوالى صَفْعه، فأدخل البلد مُشَهَّراً، ثم أودع حبساً ضيقاً، ومعه رجل من أصحاب يدّير أُسر فى الوقعة من صَنهاجة، فأقاما فى الحبس معاً إلى أن قَفَل باديس.

(١) وردت فى المخطوطين: عظيمة. والتصويب من «الملكية».
(٢) أثبتها «ج». وأغفلها «ك».
(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج». دخل.
(٤) وردت فى المخطوطين: (إتمام). وقد رجحنا هذا التصويب الذى يستقيم به السياق.
(٥) وردت فى المخطوطين: اعتراك. وهو تحريف.
(٦) ساقطة فى المخطوطين. ويستلزمها السياق.
(٧) زيادة يستلزمها السياق.

مقتله

قال أبو مروان فى الكتاب المسمى بالمتين[١] ، واستراح [باديس][٢] أياماً فى غرناطة يهيم[٣] بذكر الجرجانى ، ويعض أنامله ، فيعارضه فيه أخوه بلكين ، ويكذب الظنون وسعى فى تخليصه . فارتبك باديس فى أمره أياماً ، ثم غافض[٤] أخاه بلكين فقتله وقتاً أمن فيه [أمر][٥] معارضته ، لاشتغاله بشراب وآلة[٦] ، وكانت من عادته ؛ فأحضر باديس الجرجانى إلى مجلسه ، وأقبل يشتمه ويسبه ويبكته ، ويطلق الشماتة ويقول ، لم تغن عنك نجومك يا كذاب ، ألم يعد أميرك الجاهل ، يعنى يديَّر ، أنه سوف يظفر بى ويملك بلدى ثلاثين سنة ، لِمَ لم تدقق[٧] النظر لنفسك وتحذر ورطتك ، قد أباح الله لى دمك . فأيقن[٨] أبو الفتوح بالموت ، وأطرق ينظر إلى الأرض ، لا يكلمه ولا ينظر إليه ، فزاد ذلك فى غيظ باديس ، فوثب من مجلسه والسيف فى يده ، فخبط به الجرجانى حتى جدله وأمر بجز رأسه ، قال ، وقدم الصنهاجى الذى كان محبوساً معه إلى السيف ، فاشتد جزعه ، وجعل يعتذر من خطيئته ، ويلح فى ضراعته[٩] ، فقال له باديس أما تستحى يا ابن الفاعلة ، يصبر المعلم الضعيف القلب على الموت مثل هذا الصبر ، ويملك نفسه عن كلامه لى واستعطافى ،

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين : بالتين . والمتين كالمقتبس ، من أشهر مؤلفات أبى مروان إبن حيان التاريخية وأضخمها ، ولكن لم يصل إلينا شىء منه .

(٢) ساقطة فى المخطوطين : وواردة فى « ت » .

(٣) هكذا فى « ك » وفى « ج » : يهم .

(٤) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » وعافص . وغافص أخاه أعنى فاجأه وأخذه على غرة .

(٥) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٦) فى « ك » : والآلة . وفى « ج » : والاه .

(٧) وردت فى « ج » محرفة ، تدقن ، وفى « ك » والملكية : تتقن والأولى أرجح .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين : (فايق) .

(٩) وردت فى المخطوطين : غراصته .

وأنت تجزع مثل هذا الجزع ؛ وطال ما أعددت نفسك فى أشدّاء الرجال ، لا أقال الله مقيلك ؛ فضرب عنقه ، وانقضى المجلس .

ومن تمام الحكاية مما جلبه ابن حيّان . قال ، وكلّم الصنهاجيُّون باديس فى جثّةِ صَنْهاجِيهم[١] المقتول مع أبى الفتوح ، فأمرنى بإسلامها إليهم ، فخرجوا بها من فورهم إلى المقبرة على نعش، فأصابوا قبرا قد احتُفر لمَيْت من أهل البلد ، فصبُّوا صاحبهم الصَّنهاجى فيه ، وواروه من غير غُسل ولا كفن ولا صلاة، فعجب الناس من تَسَحِّيهم[٢] فى الاغتصاب حتى الموتى فى قبورهم .

مولده

سنة خمسين وثلاثمائة .

وفاته

كما ذُكر ليلة السبت لاثنتين بقيتا من محرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ؛ قال برهون من خُدام باديس : أمرنى بمواراة أبى الفتوح إلى جانب [قبر][٣] أحمد بن عباس وزير زُهير العامرى ، فقَبَرْاهُما فى تلك البقعة مُتجاوران[٤] ، وقال اجعل قبرَ عدُوٍّ إلى جانب عدو إلى يوم القِصاص ، فيالها قبران أجّما[٥] أدبا لا كفاء له ، والبقاء لله سبحانه .

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » : صنهاهم .
(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » والملكية : تسحبهم .
(٣) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .
(٤) فى المخطوطين : مجاوراً .
(٥) فى « ج » : أحما . وفى « ك » : أحبا .

جعفر بن أحمد بن على الخزاعى

من أهل غرناطة ؛ ويعسوب الثاغية والراغية[١] من أهل رَبَض البيّازين[٢] يكنى أبا أحمد الشهير ذكره بشرق الأندلس ، المعروف بكرامة الناس ، المقصود الحُفرة ، المحترم التُّربة حتى من العدو ، والرائق بغير هذه الملة . خرج قومه من وطنهم عند تغلب العدو على الشرق ، فنزلوا ربض البيّازين جوفى المدينة ، وارتاشوا ، وتلثّموا[٣] ، وبنوا المسجد العتيق ، وأقاموا رسم الإرادة ، يرون أنهم تمسكوا من طريق الشيخ أبى أحمد بآثاره ، فلا يَغُبُّون بيته ، ولا يقطعون اجتماعاً ؛ على حالهم المعروفة من تلاوة حسنة ، وإيثار ركعات ، ثم ذكر ثم ترجيع أبياتٍ فى طريق التصوف ، مما يُنسب للحسين بن منصور الحلاج[٤] وأمثاله ، يعرفونها منهم مشيخةٌ ، قوالون هم [فحول][٥] الأجمة وضرائك[٦] تلك القطيعة ، يهيجون بلابلهم ، فلا ينشبون أن يحمى وطيسُهم ، ويخلط مَريعُهم بالهَمَل[٧] ، فيرقصون رقصا غير مُساوق للإيقاع الموزون ، دون العجال[٨] الغالبة منهم ، بإفراد كلمات من بعض القول ، ويكرّ بعضهم على بعض ، وقد خلعوا خَشِن ثيابهم ؛ ومرقوعات قَباطيهم ودرانيكهم[٩] ، فيدوم حالهم حتى يتصببوا عرقاً ، وقُوّالُهم يحرّ كون

(١) يعسوب أى رئيس . والثغاء هو صريخ الشاة ، والرغاء هو صوت البعير . والمقصود أهل الشغب .

(٢) هو أحد أحياء غرناطة . وسبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٣٨٧) .

(٣) هكذا فى المخطوطين : وقد يعنى ذلك أنهم كانوا يضعون اللثام على وجوههم وأنهم اتخذوا طريقة الملثمين أى المرابطين الدينية .

(٤) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٢١٩) .

(٥) وردت فى المخطوطين والملكية : فحل . والتصويب لازم للسياق .

(٦) وردت فى المخطوطين صراديك . ونرجح أنها « ضرائك » ومعناها النسور .

(٧) مريعهم أعنى أكابرهم . والهمل ، الأصاغر والرعاع .

(٨) هكذا فى « ك » والملكية . وفى « ج » : الجمال .

(٩) قباطيهم ودرانيكهم . من الواضح أنها أصناف الثياب التى يرتديها أهل هذه الطريقة .

فتورهم ، ويزمرون روحهم ، يخرجون بهم من قول إلى آخر ، ويصلون الشيء بمثله ، فربما أخذت نوبة رقصهم بطرفى الليل التمام ، ولا تزال المشيخة لهم يدعونهم ، ويحاجونهم[1] إلى منازلهم ؛ وربما استدعاهم السلطان إلى قصره محمضاً فى لطايف نعيمه بإخشيشانهم ، مبدياً التبرك بألويتهم[2] ؛ ولهم فى الشيخ أبى أحمد والد نحلتهم ، وشحنة قلوبهم ، عصبية له وتقليد بإيثاره ، أنفجت[3] لعقده أيمانهم ، وشرط فى صحة دينهم ، وارتكبوا فى النفور عن سماع المزمار القصبى المسمى بالشبابة الذى أرخص فى حضور الولائم ، مع نفخ برعه العدد[4] الكثير من الجلة الصلحاء القدوة مرتكباً ، حتى ألحقوه بالكبائر الموبقة ، وتعدوا اجتنابه جبلة وكراهة طباعية ، فتزوى عند ذكره الوجوه ، وتقتحم عند الاتهام به الدور ، وتسقط فيما بينهم بفلتة سماعه أخوة الطريق ؛ وهم أهل سذاجة وسلامة ، أولو اقتصاد فى ملبس وطعمة واقتيات بأدنى بلغة ، ولهم فى التعصب نزعة خارجية[5] ، وأعظمهم ما بين مكتسب[6] متسبب ؛ وبين معالج مدرة ، ومريع حياكة ، وبين أظهرهم من الذعرة[7] والصعاليك كثير ؛ والطرق إلى الله عدد أنفاس الخلايق جعلنا الله ممن قبل سعيه ، وارتضى ما عنده ، ويسره لليسرى .

حـــاله

قام هذا الرجل مقام الشيخ أبى تمام قريبه على هيئة مهالكه ، فسد مسده ، على

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : (ويحاجون بهم) .
(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (بالوميهم . بالوليهم) . وهى ساقطة فى الملكية .
(٣) أعنى أثارت وأخرجت .
(٤) كذا فى «ك» . وفى «ج» : العود .
(٥) نسبة إلى مذهب الخوارج .
(٦) وردت محرفة فى المخطوطين : مكسب .
(٧) هكذا فى «ك» . وفى «ج» : الزرعة .

حال فتور وغرارة[١] حتى لان متنُ الخطة ، وخف عليه بالمران ثُقْلُ الوظيفة ، فأمّ وخطب ، وقاد الجماعة من أهل الإرادة . وقضى فى الأمور الشرعية بالرّبَض ، تحت ضِبْنِ[٢] قاضى الجماعة وهو الآن بعده على حاله ، حسنُ السَجيَّة ، دمِثُ الأخلاق ، ليِّن العريكة ، سهل الجانب ، مقترن الصدق والعفّة ، ظاهر الجِدَة ، محمود الطريقة ، تطأه أقدام الكُلَف ، وتطّرح به المطارحُ القاصية ، حَوًا على الشفاعات ؛ مستور الكفاية فى لَفَق الضعف ، متوالى شعلة الإدراك فى حِجْر الغفلة ؛ وجهٌ من وجوه الحَضْرة فى الجمهورية ، مرعىُّ الجانب ، مخففَّ الوظايف ، مقصوداً من مُنْتامى[٣] أهل طريقه بالهدايا ؛ مُسْتَدعى إلى من بالجهات منهم فى كثير من الفصول ، ظاهرُ الجدوى فى نَفير الجهاد ، رحمه الله ، ونفع بأهل الخير .

مولده

عام تسعة وسبعمائة .

وفاته

[يوم الإثنين التاسع والعشرين لرمضان خمسة وستين وسبعمائة][٤] .

جعفر بن عبد الله بن محمد بن سِيدبُونة الخزاعى

من أهل شرق الأندلس من نظر[٥] دانية ، يكنى أبا أحمد الولى الشهير .

---

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : وعرارة . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٢) تحت ضبنه أى فى كنفه وتحت رعايته .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : متنافى . والمقصود هنا أنصار أهل الطريقة

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط فى « ك » والملكية . وفى « ج » أثبتت « الوفاة » قبل « المولد »

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : سفر . ومعناها من أعمال دانية وقد سبق التعريف بدانية (أنظر الحاشية فى ص ٢٦٣) .

حـــاله

كان أحد الأعلام المنقطِعِي القرين فى [طريق](١) كتاب الله ؛ وأولى الهداية الحقة ، فذ ؛ شهير ، شائع الحلة ، كثير الأتباع ، بعيد الصيت ، توجبُ حقَّه حتى الأمم(٢) الداينة بغير دين الإسلام ، عند التغلب على قرية(٣) مدفنه بما يُقضى منه بالعجب . قال الأستاذ أبو جعفر بن الزُّبير عند ذكره فى الصِّلة : أحد أعلام المشاهير(٤) فضلاً وصلاحاً ؛ قرأ ببلَنْسية ، وكان يحفظ نصف « المدوَّنة »(٥) وأقرأها ، ويؤثر الحديث وَالتفسير والفقه ، على غير ذلك من العلوم .

[مشيخته](٦)

أخذ القراءات السبع عن المقرئ أبى الحسن بن هُذيل ؛ وأبى الحسن بن النِّعمة ؛ ورحل إلى المشرق ، فلقى فى رحلته جِلَّة ، أشهرهم وأكبرهم فى باب الزهد وأنواع سَنى الأحوال ، ورفيع المقامات ، الشيخ الجليل ، الولى لله(٧) تعالى ، العارف(٨) ، أبو مدين شُعيب بن الحسين المقيم ببِجاية ؛ صحبه وانتفع به ، ورجع من عنده بعجايب دينية ، ورفيع أحوال إيمانية ؛ وغلبت عليه العبادة ، فشهر بها حتى رحل إليه الناس للتبرك بدعائه ، والتيمُّن برؤيته وَلقائه ، فظهرت بركته على القليل والكثير منهم(٩) ،

---

(١) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » والملكية .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » الإمام .

(٣) وردت فى المخطوطين : قراءة . والمرجح التصويب . وبه يستقيم المعنى .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » الشهيرة .

(٥) يرجع فى التعريف بهذا المصنف إلى الملحق الخاص بالكتب .

(٦) ساقطة فى المخطوطين وواردة فى الملكية .

(٧) فى المخطوطين : الوالى . وقد سبق التعريف بأبى مدين ولى المغرب الشهير (الحاشية ص ٣٤٤).

(٨) وردت فقط فى « ك » .

(٩) وردت هذه الكلمة فى المخطوطين بعد كلمة بركته . وقد أخرناها ليستقيم السياق .

وارتوروا زُلالا من ذلك العذب النمير ، وحظه من العلم مع عمله الجليل موفور ، وعِلمهُ نورٌ على نور . لقيت قريبه الشيخ أباتمام[1] غالب بن حسين بن سِيدبُونة حين ورد غرناطة ، فكان يحدث عنه بعجائب .

دخوله غرناطة

وذكر المعتنون بأخباره بالحضْرة إلى طريقه ، أنه دخل الحضرة وصلّى فى رابطة الرُّبُط من باب . .[2] وأقام بها أياماً ، فلذلك المسجد المزية عندهم إلى اليوم . وانتقل الكثير من أهله وأذياله عند تغلُّب العدو على الشرق على بلدهم ، إلى هذه الحضرة ، فسكنوا منها رَبَض البيّازين ، على دين وانقباض وصلاح ، فيحجون بكنوز من أسراره ، ومبشراته مضنونٌ[3] بها على الناس . وبالحضرة اليوم منهم بقية تقدّم الإلماع بذكرهم .

وفاته

توفى رحمه الله بالموضع المعروف بزَناتة فى شوال سنة أربع وعشرين وستمائة ، وقد نيِف على الثمانين .

الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحوص
القرشى الفهرى

نشأ بغرناطة ، يكنى أبا على ، ويعرف بابن الناظر .

---

(١) وردت فى المخطوطين : « أبو تمام » . والخطأ فى رسم الأسماء الخمسة شائع فى المخطوطين. ونعتقد أنه سهو من الناسخ .

(٢) بياض فى المخطوطات الأربعة .

(٣) فى المخطوطين وفى الملكية : مظنون .

حـــاله

كان متفنناً فى جملة معارف ، أخذ من كل علم سَنى بحظ وافر ، [حافظاً][١] للحديث والتفسير ، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ ، شديد العناية بالعلم ، مُـكباً على استفادته وإفادته ، حسن اللقاء لطلبة العلم ، حريصاً على نفعهم ، جميل المشاركة لهم . وقال الأستاذ : كان من بقايا أهل الضبط والإتقان لما رواه ، وآخر مُقرِئى القرآن ، ممن يعتبر[٢] فى الأسانيد ومعرفة الطرق والروايات ، متقدماً فى ذلك على أهل وقته ، وهو أوفر من كان بالأندلس فى ذلك ، [أقرأ][٣] القرآن والعربية بغرناطة مدة ، ثم انتقل إلى مالَقَة فأقرأ بها يسيراً ، ثم انقبض عن الإقراء ، وبقى خطيباً بقصبة مالقة نحواً من خمسة وعشرين سنة ، ثم كرَّ منتقلا إلى غرناطة ، فولى قضاء ألْمرِيّة ، ثم قضاء بَسْطة ، ثم قضاء مالقة .

« وصمته » ، قال الأستاذ: إلا أنه كان فيه خُلُق[٤] أخلَّت به ، وحملته على إعداء ما ليس من شأنه ، عفا الله عنه ، فكان ذلك مما يزهِّد فيه .

مشيخته

روى عن الأستاذ المقرئ أبى محمد عبد الله بن حسين الـكوّاب ، أخذ عنه قراءة السبع وغير ذلك ، وعن أبى على وأبى الحسن بن سهل بن مالك الأزْدى ، وأبى عبدالله محمد بن يحيى المعروف بالحلبى ، وجماعة غير هؤلاء ، ورحل إلى إشبيلية فروى بها عن الشيخ الأستاذ أبى على أكثر كتاب سيبويه تفقهاً ، وغير ذلك .

---

(١) وردت فى « ك » والملكية .
(٢) وردت فى المخطوطين : يعبد . وبالتصويب يستقيم المعنى .
(٣) ساقطة فى المخطوطين والملكية . ويستلزمها السياق .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » خلة . ومؤدى واحد .

وأخذ عن جماعة كثيرة من أهلها، وقدم عليها إذ ذاك القاضى أبو القاسم بن بَقِيّ، فلقيه بها وأخذ عنه؛ ورحل إلى بلَنْسِية، فأخذ بها عن الحاج [أبى الحسن][1] ابن خيرة، وأبى الربيع بن سالم؛ وسمع عليه جملةً صالحة، كأبى عامر بن يزيد بن أبى العطاء بن يزيد وغيرهم؛ وبجزيرة شُقْر عن أبى بكر بن وضّاح؛ وبمُرْسِية عن جماعة من أهلها؛ وبأوريُولة عن أبى الحسن بن بقّى؛ وبمالقة عن آخرين، وتحصّل له جماعة نيفوا على الستين.

« تصانيفُه »؛ منها المُسلسلات، والأربعون حديثاً، والترشيد فى صناعة التّجويد، وبرنامج رواياته وهو نبيل.

«شعره»؛ كان يقرض شعراً لا يُرْضى لمثله، ممن برّز تبريزه فى المعارف.

مولده

يوم الخميس لاثنى [عشر][2] ليلة بقيت من شوال سنة خمسين وستمائة.

« وفاته »؛ توفى بغرناطة لأربع عشر ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة [تسع وتسعين][3] وستمائة.

الحسن بن محمد بن الحسن النباهى الُجذامى

من أهل مالقة، يكنى أبا على.

أوليّتــه

قال القاضى المؤرخ أبو عبد الله بن أبى عسكر فيه؛ من حُسّباء مالقة وأعيانها

(١) ساقطة فى «ك». (٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطات الثلاثة. ويقتضى إثباتها السياق.

(٣) وردت فى المخطوطين : ثمانين. والتصويب من كتاب قضاة الأندلس (ص ١٢٧) وهو أرجح.

وقضاتها ، وهو جَدُّ بنى الحسن المالَقيين ، وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة ، لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر ، استَقْضَى جدَّه المنصور بن أبى عامر ، وكانت له ولأصحابه حكاية[1] مع المنصور .

قال القاضى ابن بياض ، أخبرنى أبى ، قال : اجتمعنا يوماً فى متنزَّه لنا بجهة النَّاعُورة بقرطبة مع المنصور بن أبى عامر فى حداثة سنِّه ، وأوان طَلَبه ، وهو مُرَتَّج مُؤمِّل ، ومعنا ابن عمه عمرو بن عبد الله بن عسكلاجة[2] ، والكاتب ابن المَرْعزى ، والفقيه أبو الحسن المالقى ؛ وكانت سفرة فيها طعام ، فقال ابن أبى عامر من ذلك الكلام الذى كان يتكلم به ، لابد أن نملك الأندلس ، ونحن نضحك منه ومن قوله . ثم قال : يتمنَّى كلُّ واحد منكم علىَّ ما شاء أُوَلِّيه ؛ فقال عمرو : أتمنى أن تولينى المدينة ، نضرب ظهور الجنَّات ؛ وقال ابن المرعزى وأنا أشتهى الأسْفَنَج[3] ، القضاء فى أحكام السُّوق ؛ وقال أبو الحسن : وأنا أحب هذه ، أن [تولينى][4] قضاء مالَقَة بلدى . قال موسى بن غَدْرون ، قال لى تمن أنت ، فشَقَقْتُ لحيته بيدى ، واضطربت به وقلت قولا قبيحاً من قول السفهاء . فلما مَلَك ابن أبى عامر الأندلس ، ولّى ابن عمه المدينة ، وولى ابن المَرْعَزى أحكام السوق ، وولى أبا الحسن المالقى قضاء ريُّه[5] ؛ وبلغ كل واحد ماتمنى ، وأخذ منّى مالا عظيماً أفقرَنى لقبح قولى : فبيت بنى الحسن شهير ، وسيأتى من أعلامه ما فيه كفاية .

حــاله

قال ابن الزُّبير ، كان طالباً نبيلاً من أهل الدين والفضل والنُّهى والنباهة .

---

(١) فى المخطوطين جاءت كلمة (ولأصحابه) ، بعد كلمة (حكاية) . ووضعها فى مكانها أنسب.

(٢) وردت فى المخطوطين (عمر بن عبد الله بن عسقلان) وهو تحريف . والصحيح ما أثبتناه

(٣) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الأسفنج . والأسفح ، أعنى الأقل جدوى .

(٤) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

(٥) هو الاسم القديم لولاية مالقة .

[« نباهته » ، قال ابن الزبير فى كتاب نُزهة البصائر والأبصار ، استُقضى بغرناطة][1] .

وفاته

توفى سنة اثنين وسبعين وأربعمائة ، ذكره ابن بَشْكُوال فى الصِّلة ، وعرّف بولايته قضاء غرناطة ، وذكره ابن عسكر ، وتوهَّم فيه الملاَّحى ، فقال ، هو من أهل إلبيرة .

حسن بن محمد بن حسن القيسى

من أهل مالقة ، يكنى أبا على ، ويعرف بالقِلنار .

حـاله

كان رحمه الله بقيَّة شيوخ الأطباء ببلده ، حافظاً للمسائل الطِّبية ، ذاكراً للدواء ، فسيح التَّجربة ، طويل المُزاولة ، متصرفاً فى الأمور التى ترجع إلى صناعة اليدين[2] صدلة وإخراعةً[3] ، محارباً ، مقدوراً عليه فى أخرياته[4] ، ساذجاً ، مخشوشناً ، كثير الصحة والسلامة ، محفوظ العقيدة ، قليل المصانعة ، بريًّا من التشمت ؛ يعالج معيشته بيده فى صُبابة فلاحة . أخذ صناعة الطب عن أبى الحسن الأركشى[5] ،

---

(١) ما بين الحاصرتين وارد فقط فى « ج » .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الدين .

(٣) هكذا فى المخطوطين . وقد تعنى (صيدلة واختراعاً) .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : آخر أيامه .

(٥) نسبة إلى أركش Arcos وهى بلدة أندلسية صغيرة من أعمال شريش تقع على نهر وادى لكه .

ومعرفة أعيان النبات عن المُصْحفى وسَرَح معه ، وارتاد منابت[١] العُشب فى صحبته ، فكان آخر السحَّارين[٢] بالأندلس ؛ وحاول عمل التِّرياق الفارق بالديار السلطانية عام اثنين وخمسين وسبعمائة مبرِّزاً فى اختيار[٣] أجزائه، وإحكام تركيبه، وإقدام على اختبار مرهُوبِ حياته : قتلاً وصَنْجاً وتقريصاً ، بما يعجب من إدلاله فيه ، وفراهته عليه .

حسن بن محمد بن باصَة[٤]

يكنى أبا على ، ويعرف بالصَّعَلْعَل ، رئيس المؤقِّتين بالمسجد الأعظم من غرناطة؛ أصله من شرق الأندلس .

حـاله

كان فقيهاً إماماً فى علم الحساب والهيئة ، أخذ عنه الجِلَّة والنبهاء قائماً على الأطلال والرَّخائم والآلات الشعاعية[٥] ، ماهراً فى التعديل ، مع التزام السُّنَّة ، والوقوف عندما حدَّ العلماء فى ذلك ، مداوم النظر ، ذا مُسْتَنْبَطات ومُسْتدركات وتواليف ، نسيج وحده ورَحْمَة وقته .

وفاته

توفى بغرناطة عام ستة عشر وسبعمائة .

---

(١) فى المخطوطين : مناقب . والتصويب أرجح .

(٢) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : السحارير .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : اختبار .

(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» ماصه .

(٥) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : الشاعية .

الحسن بن محمد بن على الأنصارى

من أهل . . .(١) يكنى أبا على ويعرف بابن كِسرى .

حـاله

كان متقدماً فى حفظ الأدب واللغة ؛ مبرِّزاً فى علم النحو ، شاعراً مُجيداً ، ممتع المؤانسة ، كثير المواساة ، حسن الخُلُق ، كريم النفس ، مُثرِّاً(٢) فى نظم الشعر [فى غير فن](٣) ؛ مدح الملوك والرؤساء ، مؤثراً للخُمول على الظهور ، وفى تخامُله يقول شعراً ثبت فى موضعه .

مشيخته

روى عن أبى بكر بن عبد الله بن ميمون الكِندى ، وأبى عبد الله الكندى ، وأبى الحكم بن هرودس (٤) ، وأبى عبد الله بن غالب الرُّصافى .

« ممن روى عنه » ؛ روى عنه أبو الطاهر أحمد بن على الهوارى السَّبْتى ، وأبو عبد الله إبراهيم بن سالم بن صالح بن سالم .

نباهته وإدراكه

من كتاب نُزهة البصائر والأبصار ؛ قال القاضى أبو عبد الله بن عسكر ، نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى رحمه الله ما معناه :

---

(١) مكانها بياض فى المخطوطين .
(٢) اعنى خصباً مكثراً .
(٣) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » : (فى فن غير) .
(٤) وردت فى المخطوطين : ابن هردوس . والتصويب من صلة ابن الزبير (رقم ١٨٤) .

قال ، حدثنى الفقيه الأديب أبو على ، قال كنت بإشبيلية ، وقد قصدتها لبعض الملوك ، فبينما أنا أسير فى بعض طرقها ، لقيتُ الشيخ أبا العباس ، فسلَّمتُ عليه ، ووقفت معه ، وكنت قد ذُكر لى أن بها رجلا من الصالحين ، زاهداً ، فاضلاً ينتقد من الشعر فى الزهد والرقائق ، ببدائع تعجب [وكان بالمغرب قد قصّد الهربىّ والنادر](١) ؛ فسألنى أبو العباس عن مصيرى ، فأعلمته بقصدى ، فرغب أن يصحبنى إليه ، حتى أتيناه ، فرأيناه رجلاً عاقلاً ، قاعداً فى موضع قذر ، فسلمنا عليه ، فرد علينا ؛ وسألناه عن قعوده فى ذلك الموضع ، فقال أتذكَّرُ الدُّنيا وسيرتها ، فزِدْنا به غِبطة ؛ ثم استَنْشدناه فى ذلك الغرض من كلامه ، ففكَّر ساعة ثم(٢) أنشدنا كلاماً قبيحاً ، تضمن من القبيح ومن الإقذاع والفواحش ما لا يحلُّ سماعه ؛ فقمنا نَلْعنه ، وخجلت من أبى العباس ، واعتذرت له . ثم اتفق أن اجتمعنا فى مجلس الأمير الذى كنت قد قصدته ؛ فقال أبو العباس ، إن أبا على قد حفظ لبعض الحاضرين شعراً فى الزهد ، من أعذب الكلام وأحسنه ؛ فسألنى الأمير وطلب منى إنشاده ، فخجلت ثم ثاب إلىّ عقلى ، فنظمت بيتين فأنشدتهما إياه وهما:

أشهد ألا إلٓه إلا الله ... محمد المصطفى رسول الله
لا حَوْلَ للخَلْق فى أمورهم ... إنما الحَوْلُ كلُّه لله

قال ، فأعجب الأمير ذلك واستحسنه .

ومن مقاماته بين يدى الملوك وبعض حاله ؛ نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضى أبى الحسن بن أبى الحسن ، قال ، المروى منسوب إلى قرية بقرب مالقة ، وهو الذى قال فيه الشيخ أبو الحجاج بن الشيخ رضى الله عنه :

---

(١) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفقط أدخلنا الباء على كلمة « المغرب » فصارت تؤدى معنى يستقيم مع السياق . وهو أن هذا الزاهد كان أثناء مقامه بالمغرب ينظم القصائد المعضلة النادرة

(٢) وردت فى المخطوطين كلمة (قال) بعد (ثم) فلم نر موضعاً لإثباتها .

إذا سمعت مَنْ أسرى ومن إلى المسجد أسرَى
فقُلْ ولا تَتَوَقَّف أبا على[1] بن كِسْرى

قال وهو قريب الأستاذ الأديب أبى على[2] الإسْتِجى[3] ومعلِّمه، وأحدطلبة الأستاذ أبى القاسم السُّهيلى، وممن نبع[4] صغيراً ، وارتحل إلى غَرْناطة ومُرسية ، وهو الذى أنشد فى طفولته السيد أبا إسحاق بإشبيلية :

قسماً بِحِمْص[5] وإنّه لعظيم وهى المقـامُ وأنت إبراهيم

وكان بالحَضْرة أبو القاسم السُّهيلى ، فقام عند إتمامه القصيدة ، وقال لمثل هذا أُحْسِيك الحسا ، وأواصل فى تعليمك الإصباح والإمْسا ، وكان يوماً مشهوداً[6] .

وأنشد الأميرَ أبا يعقوب حين حلّها :

أمَعْشَر أهل الأرض فى الطول والعرض بهذا استنادى[7] فى القيامة والعرض
لقد قال فيك الله ما أنت أهـــلُه فيقضى بحكم الله فيــك بلا نَقْضِ
وإياك يُعْنى ذو الجـــلال بقوله كذلك مَــكَّنَّا ليوسُف فى الأرض

وذكره ابن الزُّبير ، وابن عبد الملك ، وابن عسكر ، وغيرهم .

---

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » : أبوعلى.
(٢) فى المخطوطين : أبو على . وهو تحريف كثيراً ما يقع أمثاله فى المخطوطين .
(٣) نسبة إلى مدينة إستجه Ecija من قواعد الأندلس القديمة ، وتقع جنوبى غربى قرطبة على على مقربة منها .
(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » تبع . وقد تكون : نبغ . والمعنى قائم بدون تصويب .
(٥) كان اسم حمص يطلق على مدينة إشبينيه لما كان بينها وبين حمص الشام من وجوه الشبه فى الموقع والمناخ . قال أبو البقاء الرندى فى مرثيته الشهيرة مشيراً إلى إشبيلية :

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن

(٦) وردت فى المخطوطين : مشهوراً . والتصويب أنسب .
(٧) وردت فى « ك »: أستاذى . وفى « ج » : السادى . والتصويب من « ت » .

ومن شعره فى معنى الانقطاع والتسليم إلى الله تعالى ، وهى لزوميّة ، ولنختتم بها ، ختم الله لنا بالحسنى :

إلهى أنت [الله](١) رُكنى وملجئى ... ومالى إلى خَلْق سواك رُكون
رأيتُ بَني الأيام عُقبى سكونهم ... حِراكٌ وفى عُقبى الحِراك سكون
رِضًى بالذى قَدَّرتَ تسليم عالِم ... بأن الذى لا بدَّ منه يكون

وفــاته

توفى بمدينة مالَقَة فى حدود ثلاث وستمائة .

الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبى

يكنى أبا على ، مُرْسِىٌّ [الأصل](٢) سَبْتِىُّ الاستيطان ، مُنْتَمٍ إلى صاحب الثورة على المعتمد .

حـاله

كان نسيج وحده ، وفريد دهره ، إتقاناً ومعرفة ، ومشاركة فى كثير من الفنون اللسانية والتعالميّة ، متبحراً فى التاريخ ، ريّاناً من الأدب ، شاعراً مُفْلِقاً ، عجيب الإستنباط ، قادراً على الإختراع والأوضاع ، جَهْم المحيا ، موحش الشكل ، يضم بُرْداه طوياً لا كفاء له ؛ تحرّف بالعدالة ، وبرّز بمدينة سَبْتَة ، وكتب عن أميرها ، وجرت بينه وبين الأديب أبى الحَكَم مالك بن المُرحِّل من المُلاحات

---

(١) ساقطة فى المخطوطين .

(٢) وردت فى « ك » . وأغفلت فى « ج » . والملكية

والمهاترات أشد ما يَجرى بين متناقضين ، آلت به إلى الحكاية الشهيرة ، وذلك أنه نظم قصيدة نصها :

لكلاب سَبْتَة فى النباح مدارِكُ ... وأشدها [دَرَ كاً لذلك](١) مالِكُ
شيخ تفانى فى البطالة عُمْره ... وأحال فكَّيه الكلامُ الآفك
كَلْبٌ له فى كل عِرْض عضةً ... وبكل مُحْصَنَة لسانٌ آفك
مُتْهِم بذوى الخنا مُتَزَمِّعٌ(٢) ... متهازلٌ بذوى التُّقى متضاحكُ
أحلى شمائله السِّبابُ المُفْترى ... وأعفُّه سيرتِه الهجاء الماعك
وألذُّ شىء عنده فى محفلٍ ... لَمزٌ لأستار المحافل هاتك
يَغْشَى(٣) مخاطرَه اللئيمُ تفكُّها ... ويَعاف(٤) رؤيته الحليمُ النَّاسك
لو أن شخصاً يستحيلُ كلامُهُ ... خِرْءا لَلَاكَ الخرء منه لائك(٥)
فكأنه التِّمساح يقذف جوفُه ... مِن فِيه ما فيه ولا يتماسك
أنفاسُه وفُساؤه من عنصر ... وسُعالُه وضُراطُه متشارك
[ما ضرفا من معدٌ الله ... لو أسلَمته نواجذٌ وضَواحك](٦)
فى شعره من جاهلية طَبْعه ... أثقالُ أرضٍ لم ينلها فاتك
صدر وقافية [تعارضتا معاً](٧) ... فى بيت عَنْسٍ أو بعُرْسٍ فارك
قد عَمَّ أهل الإرض بِلَعنه ... فللأعنية فى السماء ملائكُ
ولأعْجَبُ المعجبين أنَّ كلامه ... لخلاله مِسكٌ يروح ورامَك

(١) وردت مكانها فى « ج » : رأس — وفى « ك » : وشن . والتصويب من « ت » (الزيتونة)
(٢) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : متدمع .
(٣) وردت فى « ج » والملكية (تخشى) والتصويب أرجح .
(٤) فى المخطوطين : ويعافر .
(٥) وردت هذه العبارة فى « ج » والملكية (للاك الحرومية لائك) . وفى « ك » : (الملاك الحروسه) .
(٦) هكذا ورد هذا البيت فى المخطوطين وفى الملكية .
(٧) فى المخطوطين والملكية : تعارض فى بيت .

إن سام[١] مكرُمةً جثا متثاقلا | يَرْغو كما يرغو البعير البارك
ويدبُّ فى جُنْح الظلام إلى الخنا | عَدْواً كما يعدو الظَّليم الراتك
نَبَذ الوقار لصبْيةٍ يَهْجُونة | فسياله فرشٌ لهم[٢] وأرائكُ
يُبْدى لهم سوآته ليسوءهم | بمسالك لا يرتضيها سالك
والدهر باكٍ لانقلاب صروفه | ظَهراً لبَطن وهُو لاه ضاحك
واللسْنُ تَنصحهُ بأفصَح منطق | لو كان ينجو بالنصيحة هالك
تُبْ يا ابن تسعين فقد جُزْتَ المدَا | وارتاح لُّلقْيا بسنِّك مالك
[أوَما ترى من حافديك][٣] تشابها | ابنٌ يضاجع جَدَّه ويُناسك
هيهات أيّة عِشْرة لَهَجَتْ به | هَنَوات مملوك وطيِّع مالك
يا ابن المُرحَّل لو شهدت مُرحَّلا | وقد انحنى بالرَّحل منه الحارك
وطريدُ لومٍ لا يحل بمَعْشَر | الا أمال قَفَاه صفعٌ دالك
[مركوب لهوجاجة وركاكة][٤] | وأراك من ذاك اللجاج البارك
لرأيت لِلعَين اللئيمة سحنة | وعلا بصَفْع عَرْكِ أُذْنك عاركُ
وشغُلتَ عن ذم الأنام بشاغل | وثَناك خصمٌ من أبيك مُماحك
قسماً بمن سَمَك السماء مكانها | ولديه نفس رداءِ نفسِك شائك
لأقول للمغرور منك بشيبةٍ | بيضاء طىُّ الصُّحفِ منها حالك
لا تأمَنَنْ للذئب دفع مضَرَّة | فالذئبُ إن أعفيتَه بك فاتك[٥]
عارٌ على الملِكِ المنزة أن يرى | فى مثل هذا للملوك مسالك
فكلامُه للدِّين سمٌّ قاتل | ودنوُّه للعِرض داءٌ ناهك

---

(١) فى «ج» و «ت» (ان سم). (٢) هكذا فى «ج». وفى «ت» (كلهم).
(٣) هكذا فى «ت». وفى «ك»: (لو ما ترى حنفد). وورد البيت كله فى «ج» كالآتى: (لو اما ترى حفيدا من ابن يضاجع جده ويناسك) وفى الزيتونة (أو ما ترى حفيد ابن إلخ).
(٤) فى «ك» و «ت» (مركوب لهو المحجة ركاكة) (٥) فى «ك» أشارك.

فعليه ثم على الذى يُصغى له ويلٌ يعاجُله وحتْفٌ واشك
وأتاه من مثواه آت مُجْهِزٍ لِدَم الخناجر بالخناجر سافك

وهى طويلة تشتمل من التعريض والصريح على كل غريب ، واتخذ لها كِنانة خشبية كأوعية الكتب ، وكتب عليها : «رقاص مُعَجَّل، إلى مالك بن المُرحَّل». وعمد إلى كلب ، وجعلها فى عنقه ، وأوْجَعه خبطاً حتى لا يأوى إلى أحد ، ولا يستقر ، وطرده بالزقاق متكتما بذلك . وذهب الكلب وخلفه من الناس أمَّة ، وقرىء مكتوب الكِنانة[١] ، واحتُمِل إلى أبى الحكم ، و نُزِعت من عنق الكلب ، ودُفعت إليه ، فوقف منها على كل فاقِرةٍ[٢] كفَّت من طِماحه ، وغضَّت عن عِنان مجارانه ، وتُحدِّث بها مدة ، ولم يَغِب عنه أنها من حيل ابن رشيق ؛ ففوّق سهام المُراجعة ، ثم أقصر مكبُوحا ، وفى أجوبته عن ذلك يقول :

كلاب المزابل آذينى[٣] بأبوالهن على باب دارى
وقد كنتُ أوجِعُها بالعصا ولـكن عَوَت من وراء الجدار

واستدعاه بآخرةٍ أمير المغرب السلطان أبو يعقوب ، فاستكتبه ، واستكتب أبا الحكم صدَقَةً ، فيقال أن جرَّ عليه خَجْلَةً كانت سبب وفاة أبى على . ودخل الأندلس ، وحَطَّ بها بألمريَّة ، وقد أصيب بأسر عياله ، فتوسل إلى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله ، بشعر مدحه فيه من قصيدة أولها :

مُلْقِى النوى ملقٍ لبعض نوالـكا فاشفِ المُحبَّ ولو بِطَيْفِ خيالـكا

ومنها :

لا تحسَبَـنِّي من فلانٍ أو فلا[٤] أنا من رجال الله ثم رجالِـكا

---

(١) فى «ك» : الكتابة .
(٢) أى داهية .
(٣) فى «ك» والملكية : أدبتنى .
(٤) فى «ك» : فل .

ومنها :

نصب العدو حبائلا لحبـــائبى وعَلِقْتُ فى استخلاصها بحبالــكا

وفى خاتمها :

وكفاك شرَّ العين عيبٌ واحد لا عيب فيه سوى فلول نصالــكا

ولحق بغرناطة ، ومدح السلطان بها ، ونجحت لديه مشاركة الرئيس بالمريّة. فجبر الله حاله ، وخلَّص أسره .

ومما جمع فيه بين نثره ونظمه [ما كتبه][1] لمّا كتب إليه الأديب الطبيب صالح بن شريف بهاتين القصيدتين ، اللتين تَنازع فيهما الأقوامُ ، واتفقوا[2] على أن يحكم بينهما الأحلام ، وعبّر عن ذلك الأقلام ، ولينظرها من تشوّق إليهما بغير هذا الموضع .

تواليفه

وأوضاعه غريبة ، واختراعاته عجيبة ، تعرَّفت أنه اخترع فى سفرة الشطرنج شكلا مستديراً . وله الكتاب الكبير فى التاريخ ، والتلخيص المسمى « بميزان العمل » وهو من أظرف الموضوعات ، وأحسنها شهرة[3] .

وفاته

كان حيا عام أربعة وسبعين وستمائة[4] .

---

(١) ساقطة فى « ك » وفى الملكية .

(٢) فى « ك » وانتفوا .

(٣) وردت فى المخطوطين : شهير .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وسبعمائة . وهو تحريف .

حبُّوس بن ماكْسَن بن زِيرى بن مَناد الصَّنهاجى

يكنى أبا مسعود ، ملك إلبيرة وغرناطة ، وما والاها .

حاله وأوّليته

أما أوّليّته فقد مر ذلك بما فيه كفاية عند ذكر بُلكِّين . ولما دخل زاوى ابن زيرى على الأندلس غبّ إيقاعه بالمرتضى ، الذى نصَبَته الجماعة ، واستيلائه على محلّته بظاهر غرناطة ، وخاف تمالؤ الأندلس عليه ، ونظر للعاقبة ، فأسند الأمر إلى ابن أخيه ، حبّوس بن ماكْسَنْ ، وكان بحصن أشتر[1] ، فلما ركب البحر من المُنَكَّب ، وودّعه به زعيم البلدة وكبير فقهائها أبو عبد الله بن أبى زَمَنين ، ذهب إلى ابن أخيه المذكور واستقدمه ، وجرت بينه وبين ابن عمه المُتخلِّف على غرناطة من قبل والده ، محاورة أنجلت عن رحيله تبعاً لأبيه ، وانفرد[2] حبُّوس ، فاستبد بالملك ، ورأب الصَّدْع سنة أحد عشر وأربعمائة ؛ قال ابن عَذارِى فى تاريخه : فانحازت صَنهاجة مع شيخهم ورئيسهم حبُّوس بن ماكْسَن ، وقد كان أخوه حُباسة هلك فى الفتنة ، وبقى منهم معه بعد انصراف زاوى إلى إفريقية ، جماعة عظيمة ، فانحازوا إلى مدينة[3] غرناطة ، وأقام حبُّوس بها مُلْكاً عظيماً ، وحامى رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة المنتشرين حوله ، فدامت[4] رياسته .

وفاته

توفى بغرناطة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

---

(١) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : أشد . وأشتر من حصون غرناطة القديمة .

(٢) فى المخطوطين والملكية : وأنفد .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المدنية .

(٤) كذا فى « ج » . وفى « ك » : فرامت .

الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

صفته وحاله

كان أَصْهَبَ العين، أسمر، أقنى، مُعسَّل اللحية، جهير الصوت، طويل الصُّلب، قصير الساقين، عظيم الساعد، أفصم[١]؛ وكان ملكاً جليلًا، عظيم الصِّيت، رفيع القدر، عالى الهمة، فقيهاً بالمذهب، عالماً بالأَنساب، حافظاً للتاريخ، جمّاعاً للكتب، محبًّا فى العلم والعلماء، مشيراً[٢] للرجال من كل بلد؛ جمع العلماء من كل قطر؛ ولم يكن فى بنى أمية أعظم همة، ولا أجلّ رتبة فى العلم، وغوامض الفنون منه. واشتهر بهمته بالجهاد، وتُحدثٌ بصدقاته فى المحْلول، وأملته الجبابرة والملوك.

دخوله إلبيرة

قال ابن الفيّاض؛ كُتب إليه من الثغر الجنوبى[٣] أن عظيم الفِرَنجة من النصارى حشدوا إليه [وسألوه المرة][٤] بطول المحاصرة[٥]؛ فاحتسب شخوصه بنفسه إلى ألْمرية[٦] فى رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، فى جحفل لجِبٍ من

---

(١) كذا فى «ج». وفى «ك»: أفضم. وساقطة فى الملكية.

(٢) كذا فى «ج» والملكية. وفى «ك»: مشاراً.

(٣) وردت فى المخطوطين: الحنوى وهو تحريف. وما يرد بعد ذلك يؤيد صحة التصويب.

(٤) هكذا فى «ك». وفى «ج» والملكية (وسأله المبرة) والمقصود هنا: وسألوه الاستمرار.

(٥) وردت فى المخطوطين: مطول المحاضرة.

(٦) وردت فى «ج»: المريبة. وفى «ك»: المرتلة. وقد رجحنا أن يكون الثغر المقصود «ألمرية». وهو قريب ما رسمه «ج». وقد يكون هذا الثغر أيضاً هو ثغر «مربلة» وهو قريب من الرسم الذى أورده «ك».

مُجدة[1] الأولياء وأهل المراتب . ولما أحَلّ إلبيرة ورد عليه كتاب أحمد بن يَعْلى من طرطوشة بنصر الله العزيز وصنعه الكريم على الرّوم ؛ ووافى ألمريَّة ، وأشرف على أمورها ، و نظر إلى أسطولها وجدّده ، وعُدَّته يومئذ ثلاثمائة قطعة ، وانصرف إلى قرطبة .

مولده

لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثمائة .

وفاتـه

لأربع خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعمره نحوٌ من ثلاث وستين سنة ، وهو خاتمة العظماء من بنى أمية .

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن أَمية

كنيته أبو العاصى .

« صفته » ؛ آدَمُ ، شديد الأُدْمة[2] ، طويل ، أشَمُّ ، نحيف ، لم يخْضِب .
بنُوه تسعة عشر من الذكور ، منهم عبد الرحمن ولى عهده .

« بناته » ؛ إحدى وعشرون ؛ أمه أمُّ ولَد اسمها زُخْرُف .

---

(١) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : صفحة . وفى الملكية (صفوة) والمؤدى واحد .
(٢) الأدمة : أى السمرة .

« وزراؤه وقواده » ؛ خمسة منهم إسحاق بن المنذر ، والعباس بن عبد الله ، وعبد الكريم بن عبد الواحد ، وفُطَيس بن سليمان ، وسعيد بن حسّان .

« قضاته » ؛ مُصْعَب بن عمران ، وعمر بن بشر، والفرج بن كنانة[1] ، وبشر ابن قَطَن ، وعبد الله بن موسى ، ومحمد بن تَليد ، وحامد بن محمد بن يحيي .

« كتابه » ؛ فُطَيس بن سليمان . وعِطَاف بن زيد ، وحجّاج بن العقيلى .

« حاجبه » ؛ عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث .

حـــاله

كان الحكم شديد الحزم ، ماضى العزم ، ذا صولة تتقى ؛ وكان حسن التدبير فى سلطانه ، وتولية أهل الفضل، والعدل فى رعيته ، مبسوط اليد بالعطاء الكثير ، وكان فصيحاً ، بليغاً ، شاعراً مُجيدا ، أديباً ، نحويا .

قال ابن عذارى ؛ كانت فيه بطالة ، ، إلا أنه كان شجاعاً ، مبسوط اليد[2] عظيم العفو ، وكان يسلط قضاته وحكّامه على نفسه ، فضلا عن ولَدِه وخاصته ، وهو الذى جرَتْ على يده الفَتْكةُ العظيمةُ بأهل رَبض قُرْطُبة[3] . الذين هاجوا به وهتفوا بخُلعانه ، فأظهره الله عليهم ، فى خَبَر شهير ؛ وهو الذى أوقع بأهل طُلَيطلة أيضاً ، فأبادهم بحيلة الدُّعاء إلى الطعام بما هو معلوم .

---

(١) وردت فى المخطوطين : قتامه ، وهو تحريف والصواب ما أثبتناه . وقد كان الفرج بن كنانة ، قاضى الجماعة بقرطبة أيام الحكم بن هشام (أنظر قضاة الأندلس ص ٣٥ . وقضاة قرطبة – القاهرة – رقم ٢٣) .

(٢) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى البيان المغرب : باسط الكف (ج ٢ ص ٨١) .

(٣) الربض : ضاحية قرطبة . وقد حدثت هذه الواقعة التى نكل فيها الحكم بثوار ضاحية الربض سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) .

دخوله غرناطة

قالوا، وبإلبيرة وأحوازها تلاقى مع عمه أبى أيوب سليمان بن عبد الرحمن، فهزمه وقتله حسبما ثبت فى اسم أبى أيوب .

شــعره

قالوا ؛ وكان له خمس جَوارٍ قد استخلَصَهُنَّ لنفسه ، وملَّكهُنَّ أمره ؛ فذهب يوماً إلى الدخول عليهن ، فتأبَّين عليه ، وأعرضْنَ عنه،وكان لايصبرعنهن، فقال :

قُضُبٌ من البان ماسَتْ فوق كُثْبان ولَّين عنى وقد أزْمَعن هِجْرانى
ناشدتُهُنَّ بحقِّى فاعتزَمْنَ على الـ ـعصيان حتى خلا منهن هِمْيانى[1]
مَلَكْننى مِلْكَ من ذَلّت عزيمتُــه للحُبِّ ذُلَّ أسيرٍ مُوثَقٍ عانِ
من لى بِمُغْتَصِباتِ الرُّوح من بَدَنى يَغْصِبْنَنى[2] فى الهوى عِزِّى وسُلْطانى

ثم عَطَفْن عليه بالوصال فقال :

نلتُ الوصال بعــــد البُعـاد فكأنِّي مَلَكْتُ كلَّ العِباد
وتناهى السرورُ إذ نلت مالم يُغْنِ عنه تكاثُفُ الأجنـاد

مناقبه

أنهى إليه عباس بن ناصح[3] وقد عاد [من][4] الثغر[5] أن امرأة من ناحية

---

(١) فى الملكية و « ج » (هيان) .
(٢) وردت فى المخطوطين : عصبتنى . وهو تحريف .
(٣) وردت فى المخطوطات الأربعة : صالح . والتصويب من البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٥)
(٤) ساقطة فى المخطوطين . ولازمة للسياق .
(٥) كلمة الثغر يقصد بها هنا : « الثغر الأدنى » الذى يشمل طليطلة وأعمالها . وهو يقابل اليوم ولاية قشتالة القديمة . وأما الثغر الأعلى فقدكان يشمل سرقسطة وأعمالها . ويقابل اليوم ولاية أراجون (راجع الحاشية فى ص ١٨٢) .

وادى الحجارة[١] سمعها تقول ، واغوثاه ، ياحكم ضيَّعتنا ، وأسلمتَنا ، واشتغلت عنا حتى استأسد[٢] العدو علينا ؛ ورُفع إليه شعر فى هذا المعنى والغرض ، فخرج من قُرْطُبة كاتماً وُجْهته ، وأوْغَل فى بلاد الشرك ، ففتح الحصون ، وهدَّم المنازل ، وقتل وسبى ، وقفل بالغنائم على الناحية التى فيها تلك المرأة ؛ فأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم يفْدُون به أسْراهم ، ويصلحون به أحوالهم ؛ وخصَّ المرأة وآثرها ، وأعطاها عدداً من الأسرى ، وقال لها ، هل أغاثكِ الحكَم ؟ قالت أى والله أغاثنا وما غَفَل عنا ، أعانه الله وأعز نصره .

وفاته

توفى لأربع بقين لذى الحجة سنة ست ومائتين ، وكان عمره اثنين وخمسين سنة . وجرى ذكره فى الرجز من نظمى فى تاريخ دول الإسلام[٣] بما نصه :

حتى إذا الدهر عليه احتكما قام بها ابنه المسمَّى حَكَما
واسْتَشْعَرَ الثورة فيها وانْقَبَض مستوحِشاً كالليْثِ أقْعَى وَرَبَض
حتى إذا فُرصُته لاحَتْ تَفِض فأفحش الوقعة فى أهل الرَّبَض
[وكان جَبَّارا بعيدَ الهِمّة لم يَرْعَ من آلٍ بها أو ذِمَّة][٤]

---

(١) وادى الحجارة هى مدينة من مدن الأندلس القديمة ما تزال قائمة حتى اليوم . وهى تقع شمال غربى مدريد على مقربة منها . وبالإسبانية Guadalajara .

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : أست أسر .

(٣) هو كتاب رقم الحلل الذى سبقت الإشارة إليه غير مرة .

(٤) هذا البيت وارد فى المخطوطين والملكية ، وساقط فى « ت » .

حكم بن أحمد بن رجا[١] الأنصارى

من أهل غرناطة ، يُكنى أبا العاصى .

حـــاله

كان من قرائها[٢] ، ونبهائها ؛ وكان من أهل الفضل والطلَب ، وإليه يُنسب مسجدُ أبى العاصى ، وحمام أبى العاصى ودربُه بغرناطة ، وكفى بذلك دليلا على الأصالة والتأثل ؛ ذكره أبو القاسم ولم يذكر [من][٣] أمره مزيداً على ذلك .

حاتم بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله ابن سعيد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عمار بن ياسر

« أوليَّته » ، قد مرّ بعض[٤] ذلك وسيأتى بحول الله .

حـاله

قال أبو الحسن بن سعيد فى كتابه الموضوع فى مآثر القلعة[٥] : كان صاحب

(١) هكذا فى « ت » . وفى « ك » : وجا . وفى « ج » : رجلا .

(٢) فى « ج » : قراريها . وهو تحريف . وفى « ك » وزرائها ، وفى « الملكية » غررها . والأولى أرجح . وتؤيده سيرة المترجم له .

(٣) ساقطة فى المخطوطين .

(٤) فى المخطوطين : بعين . وهو تحريف .

(٥) هو كتاب « الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد » والقلعة هى قلعة يحصب .

سيف وقلم وعلم ، ودخل فى الفتنة المَرْدَنيشيَّة[١] حسبما مر ذلك عند ذكر أخيه أبى جعفر ، فصار من جُلَساء الأمير أبى عبد الله [محمد][٢] بن سعد بن مَرْدَنيش بمرسية ، وأرباب آرائه ، وذوى الخاصَّة من وزرائه ، وكان مشهوراً بالفروسية والشجاعة [والرأى][٣] .

حكاياته ونوادره

قال، كان التَّنْدِير والهزل قد غلبا عليه، وعُرِف بذلك فصار يُحمل منه مالا يحمل من غيره ؛ قالوا ، فحضر يوماً مع الأمير محمد بن سعد، يوم الجلاب[٤] من حروبه، وقد صبر الأمير صبراً جميلاً[٥] ، ووالى الكَرَّ المرَّة بعد المرة ، وذلك برأى من حاتم ؛ فرد رأسه إليه، وقال ياقائداً أبا الكرم كيف رأيت ، فقال له حاتم، لو رآك السُّلطان اليوم لزاد فى مرتَّبك، فضحك ابن مَرْدَنيش، وعلم أنه أراد بذلك: لا تليق به المُخاطرة، وإنما هو للثَّبات والتدبير . وقال له يوماً وقد جرى ذكر الجَنَّات، جُنَّ اليوم ياأبا الكرم على بستانك بالزَّنقات ، وأردت أن أكون من ضيافتك ؛ فقال عبد الرحمن بن عبد الملك وهو إذ ذاك وزير الأمير، وبيده المجابى والأعمال، لعل الأمير اغتر بسماع اسمه حاتم ، مافيه من الكرم إلا الاسم ؛ فقال الحاتم[٦]، ولعل الأمير اغتر[٧] بسماع [أمانة][٨] عبد الرحمن ، فقدمة على وزرائه ، وما عنده من

---

(١) نبسة إلى ابن مردنيش . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٢١٨) .

(٢) الزيادة من عندنا إكمالا للاسم . (٣) الزيادة من « ت » .

(٤) وردت فى « ج » يوم الحلاب . وهو تحريف والصواب (الجلاب) . والجلاب أو فحص الجلاب هو اسم لمكان يقع على مقربة منغربى مرسية . وقد نشبت فيه الموقعة التى تسمى بهذا الاسم بين قوات ابن مردنيش والموحدين ، وهزم فيها ابن مردنيش هزيمة ساحقة، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٦٤ م) .

(٥) كذا فى « ج » . وفى « ك » : عظيما . (٦) هكذا فى المخطوطين .

(٧) ساقطة فى المخطوطين . ويحتمها السياق .

(٨) واردة فى « ك » . وساقطة فى « ج » .

الأمانة إلا الاسم؛ فقال ابن مَرْدنيش وقد ضحك ، الأولى فهمتُ ، ولم أفهم الثانية ؛ فقال له كاتبه أبو محمد السلمى ، إنما أشار إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه : أمير هذه الأمة ، وأمين فى أهل السماء ، وأمين فى أهل الأرض[١]؛ فطرب ابن مردنيش ، وجعل يقول : أحسنتما .

شعره

قال أبو الحسن ، ولم أحفظ[٢] من شعر حاتم ما أورِدُه فى هذا المكان إلا قوله يخاطب حفصة الرَّكّونية الشاعرة ، التى يأتى ذكرها ، حين فرّ إلى مرسية ، وتركها بغرناطة :

أحنُّ إلى ديارك ياحيــاتى [وأبصرذو وهد سيل الظبات][٣]
وأهوى أن أعود إليك لـكن [خفوق البند عاق عن القنات][٤]
وكيف إلى جَنابك[٥] من سبيل وليس يُحِــلُّه إلا عُــداتى

مــولده

فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . وقال أبو القاسم الغافقى فيه عند ذكره : كان طالباً نبيهاً جميلًا سَرِيًّا ، تام المروءة ، جميل العشرة .

وفـاته

قال ، مات بغرناطة سنة أثنتين وتسعين وخمسمائة .

---

(١) وردت فى « ج » (أمير فى أهل السماء وأمير فى أهل الأرض) والتصويب من الملكية .
(٢) كذا فى « ج » . وفى « ك » : حفظت .
(٣) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين .
(٤) وردت هذه الشطرة فى المخطوطين كالآتى : (خفوق البندر عاق القنات) .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : جانبك .

حُباسة [بن ماكْسَن بن زيرى بن مناد الصَّنهاجى] (١)

كان شهماً ، هيِّباً ، بُهْمَةً من البُهم ، كريماً فى قومه ، أبيًّا فى نفسه ، صَدْرًا من صدور صَنْهاجة ؛ وكان أشجع من أخيه حَبُّوس .

وفـــاته

قال أبو مروان عند ذكر وقعة « رمداى » بطرف قرطبة فى حروب البرابرة لأهلها فى شوال عام اثنين وأربعمائة ، قال : واسْتَلْحَم حُباسة بن ماكْسَن الصنهاجى ابن أخى زاوى بن زيرى ، [وهو] (٢) فارس صنهاجة طُرًّا وفَتاها ؛ وكان قد تقدم إلى هذه الناحية . زعموا لما بلغه اشتداد الأمر فيها ، فرمى بنفسه على مُلَّابها . واتفق أن ركب بسرج طَرِى العمل مُنفتح اللِّبْد ، وخانه مقعدُه عند المجاولة ؛ لتقلُّبه على الصَّهوة ؛ وقيل إنه كان مُنتبذًا على ذلك ، فتطارح على من بإزائه ، ومضى قُدُماً بسَكْرَى شجاعته ونشْوَته ، يصافح البيوت بصفحته ، ويستقبل القنا بلَبَّاته ، لا يعرض له شىء إلا حطَّه ، إلى أن مال به سرجُه . فأتيح حِمامُه لاشتغاله بذلك ، بطعنة من يد المسمى النبيه النصرانى . أحد فرسان الموالى العامريين ؛ فسقط لفيه ، وانتظمته رماحُ الموالى فأبادته ؛ وحامى أخوه حَبُّوس ، وبنو عمه . وغيرهم من أنجاد البرابرة على جثته . فلم يقدروا على استنقاذها . بعد جلاد طويل . وغلب عليه الموالى فاحتزُّوا رأسه ، وعجّلوا به إلى قصر السلطان ، وأسْلَمُوا جسده للعامة ؛ فركبوه بكل عظيمة . واجتمعوا إليه اجتماع البُغاث (٣) على كبير الصُّقُورة . فجرُّوه فى الطرق

---

(١) وردت كلمة حباسة فقط فى المخطوطين وفى الملكية . والزيادة ما بين الحاصرتين من عندنا . ويبدو أن هذه الترجمة وردت فى الإحاطة فى غير موضعها من حيث الترتيب الأبجدى .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الملكية .

(٣) فى المخطوطين : النفاث .

وطافوا به الأسواق ، وقطعوا بعض أعضائه، وأبدوا شِواره وكبده بكل مكروه من أنواع الأذى، بأعظم ما رُكب ميت ؛ فلما سئموا تجراره[1]، أوقدوا له ناراً فحرقوه بها جرياً على ذميم عادتهم ، فى قُبْح المثلة. وأوم القُدْرة ؛ وانجلت الحروب فى هذا اليوم لمُصابه ، عن أمر عظيم ، وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله ، ورأت أن دماء أهل قُرْطبة جميعاً لاتعدله . من الكتاب « المتين » .

حبيب بن محمد بن حبيب

من أهل النَّجَش[2] ، من وادى المنصرة[3] أخوه مالك ، النّجشى ، دباب الحَلَقات ، ومراد أذناب المقربين .

حـــاله

كان على على سجيَّة غريبة من الإنقباض المشوب[4] بالاسترسال ، والأمانة مع الحاجة ، بادى الزِّى[5] واللسان ، يحفظ الغريب من اللغة ، ويحرِّك شعراً لاغاية وراءه فى الرَّكاكة ، وله قيامٌ على الفقه وحفظ القرآن ، ونَغَمَةٌ حسنة عند التِّلاوة . قَدِم الحضرة غير ما مرة ، وكان الأستاذ، إمامُ الجماعة ، وسيبويه الصناعة ، أبوعبدالله ابن الفخّار ، المعروف بالبيرى[6] . أبا مثواه ومحطَّ طيَّته ، يطلب منه مشاركته[7] بباب السلطان فى جراية يرغب فى تسميتها ، وحال يروم إصلاحها ، فقصدنى مُصْحباً

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى الملكية .

(٢) هكذا فى « ج » وفى الملكية (النحش) . والأولى أرجح .

(٣) وادى المنصورة هو المنطقة الواقعة على نهر المنصورة الذى يخترق شمال ولاية ألمرية بين برشانة ومدينة المنصورة الواقعة على النهر المذكور .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : المنشوب .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى الملكية (الرأى) واولى أرجح .

(٦) أعنى الإلبيرى نسبة إلى إلبيرة .

(٧) وردت فى المخطوطين محرفة (متاركته . ممارکته) .

منه رقعة تتضمن الشَّفاعة ؛ وعرض عليّ قصيدة من شعره [يروم][(١)] إيصالها إلى السلطان ، فراجعت الأستاذ برقعة أثبتها على جهة الإحماض[(٢)] وهي :

« ياسيدي الذي أتشرَّفُ ، وبالانتماء إلى معارفه أتميَّزُ ، وصل إليَّ عميدُ حصن النجش ، وناهض أفراخ ذلك العُش[(٣)] ، تلوح عليه مخائل أخيه المسمى بمالك ، ويترجَّح به الحكم في الغاية في أمثال تلك المسالك ، أشبه من الغُراب بالغُراب ، وإنها لمن عجائب الماء والتراب ؛ فألقى من ثنائكم الذي أوْجَبَتْه السيادةُ والأبوةُ ، ما يقصر عن طيب الألُوَّة ، وتخجل عند مشاهدته الغرر المَجْلُوَّةُ ؛ وليست بأولى بِرٍّ[(٤)] أسْدَيتمُ ، ومكرُمة أعدْتُم وأبْدَيتم ، والحسنات وإن كانت فهي [إليكم][(٥)] منسوبة ، وفي أياديكم محسوبة ؛ وبلَوتُ من الرجل طلعة نُتفَة ، لم يغادر من صفات النبل صفة ، حاضر بمسائل [من][(٦)] الغريب ، وقعد مقْعَد الذكي[(٧)] الأريب ، وعرض عليّ حاجته وغرضه ، وطلب مني المشاركة ، وهي مني لأمثاله مُفْتَرَضة ، ووعدني بإيقافي على قصيدة حبَّرها ، وأنسى بالخبر خبرها ؛ وباكرني بها اليوم مُباكرة السَّاقي بدِهاقه ، وعرَضها عليّ عرض التاجر نفائسَ أعلاقه ؛ وطلب مني أن أهذب له ما أمكن من معانيها وألفاظها ، وأجلو القذى عن ألحاظها ؛ فنظرت منها إلى روضٍ كثرت أثغابه[(٨)] وجيشٍ من الكلام زاحم خواصَّه أوشابه ، ورُمْتُ الإصلاح مااستطعتُ ، فعجزتُ عن ذلك وانقطعتُ ، ورأيت لاجدوى[(٩)] إلى ذلك الغرض ، مالم تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض . وهذا

---

(١) ساقطة في المخطوطين . (٢) أي على سبيل التفكهة .

(٣) هكذا في « ج » . وفي « ك » : العشر .

(٤) هكذا في « ج » . وفي الملكية (يد) .

(٥) ساقطة في المخطوطين . (٦) الزيادة من الملكية .

(٧) هكذا في « ك » . وفي « ج » : الزكي .

(٨) أغفلت في المخطوطين . والملكية .

(٩) هكذا في « ك » . لك ، وفي « ج » : جدنوا .

الفنّ . أبقى الله سيدى ، ما لم يمتّ إلى الإجادة بسبب وثيق ، وينتمى فى الإحسان إلى مجد عريق ، كان رفضه أحسن وأحمد ، واطراحُه بالفائدة أعوَد ؛ وإذا اعتبره مَن عَدل وقسط ، وجده طريقين لا يقبل الوسط ، فمنهما مالٌ يُقتنى ويُدَّخَر ، وسافلٌ يُهزء به ويُسخَر ، والوسط ثقيل لا يتَلبّس به [نبيل][1] . قيل لبعضهم ألا تقول الشعر ؟ فقال أريد منه ما لا يتأتى لى ، ويتأتّى لى منه ما لا أريدُه . وقال بعضهم ، فلان كمُغَنٍّ وسط لا يجيد فيُطرب ، ولا يُسىء فيُسلى[2] . فاقتضى نظرُكم الذى لا يفارق السَّداد والتَّوْفيق ، وإرشادُكم الذى رافقه[3] الهدى و نعم الرفيق ، أن يشير عليه بالاستغناء عن رفعها ، والامتساك عن دفعها ؛ فهو أقوى لأمْته[4] ، وأبقى على سكنته وسَمْته ، وأستر لما لديه ، قبل أن يمدَّ أبو حنيفة رجليه ؛ [وإنْ][5] أصمّت عن هذا العَذْل مسامعه ، وهفَت به إلى النجاح مطامعه ، فليعتمد على الاختصار ، فذو الإكثار جَمُّ العِثار ، وليَعْدل إلى الجادة عن ثنيات[6] الطُّرُق ، ويجتزىء عن القلادة بما أحاط بالعُنُق ؛ فإذا رتّبها[7] وهذبها ، وأوردها من موارد العبارة أعذَبها ، توليتُ زفافها وإهداءها ، وأمطْتُ بين يدى الكفْوء الكريم رداءها ، والسلام » .

حمدة بنت زياد المُكتِّب

من ساكنى وادى الحمّة بقرية بادى من وادى آش .

---

(١) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فيلهى . والمؤدى واحد .

(٣) فى المخطوطين : أرفقه .

(٤) الأمت هو المكان المرتفع . والمقصود هنا مقامه ومكانه .

(٥) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٦) فى المخطوطين وفى الملكية . نيات . والتصويب أرجح .

(٧) فى المخطوطين وفى الملكية : رهبها . وهو تحريف .

حـالها

قال أبو القاسم ، نبيلةٌ ، شاعرةٌ ، كاتبة ؛ ومن شعرها وهو مشهور :

أباحَ الدمعُ أسراري بوادي ... له في الحُسْن آثارٌ بَوادي
فمن نَهَرٍ[١] يطوفُ بكلِّ روض ... ومن روض يطوف بكل وادي
ومن بين الظِّبا مهات إنس[٢] ... [سبَتْ لبّي][٣] وقد سلبت فؤادي
لها لحظٌ ترقّـده لأمرٍ ... وذاك الأمرُ يمنعُني رُقادي
إذا سَدَلت ذوائبها عليها ... رأيت البدْر في جُنْح السوادي
كأن الصُّبْحَ مات له شقيق ... فمن حزن تسربل في الحدادي

ومن غرائبها :

ولما أبى الواشون إلا قتالنا[٤] ... وما لهم عندى وعندك من ثار
وشَنُّوا على آذاننا[٥] كل غارة ... وقلّت حُماتى عند ذاك وأنصارى
رَمَيْتهمُ[٦] من مُقْلَتيك وأدمُعى ... ومن نفسى [بالسيف والسيل][٧] والنار

وقال أبو الحسن بن سعيد في حَمْدة وأختها زينب : شاعرتان ، أديبتان ، من أهل الجمال، والمال ، والمعارف والصَّون ، إلا أن حُب الأدب ، كان يَحْمِلُهما على مخالطة أهله ، مع صيانة مشهورة ، ونزاهةٍ موثق بها .

---

(١) في المخطوطين وفي الملكية : واد . والتصويب من النفح .
(٢) في المخطوطين وفي الملكية . رمل . والتصويب من النفح .
(٣) هكذا في النفح . وفي « ج » هبت لى . وفي « ك » هبت لبى . وفي المغرب : لها لبى .
(٤) هكذا في المخطوطين وفي الملكية . وفي النفح والمغرب : فراقنا .
(٥) هكذا في المخطوطين . وفي النفح والمغرب : أسماعنا .
(٦) هكذا في المخطوطين . وفي المغرب والنفح : غزوتهم .
(٧) في المخطوطين والملكية : السيل . واليل . والتصويب من النفح .

حفصة بنت الحاج الرَّكُونى(١)

من أهل غرناطة ، فريدة الزمان فى الحسن ، والظرف ، والأدب ، واللَّوْذَعيَّة ؛ قال أبو القاسم ، كانت أديبة ، نبيلة ، جيِّدة البديهة ، سريعة الشعر .

بعض أخبارها

قال الوزير أبو بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهَمْدانى ، رَغبتْ أختى إلى حَفْصة أن تكتب شيئاً بخطها فكتبت .

يارَبَّةَ الحُسْن بل يارَبَّةَ الكَرَم ... غُضِّى جُفُونَك عما خطه القلم
تصفحيه [بِلَحْظ الوُدِّ مُنْعِمة](٢) ... لا تحفلى بقبيح(٣) الخَطِّ والكَلِم

قال أبو الحسن بن سعيد ، وقد ذكر أنهما باتا بحَوْز مُؤَمِّل(٤) فى جَنَّة له هنالك على ما يبيتُ عليه أهل الظرف والأدب ، قال :

رعى الله ليلاً لم يُرَع بمذمم ... [رعانا ووارانا بحَوْز مُؤَمِّل](٥)
وقد نفحت من نحو نجد أريجه(٦) ... إذا نَفَحت هبَّت بريح(٧) القرَنْفَل
وغرّد قمرىٌّ على الدَّوْح وانثنى ... قضيبٌ من ريحان من فوق جدول
يَرَى الرَّوْض مسروراً بما قدبدا له ... عناق وضَمّ وارتشافُ مُقَبَّل

---

(١) نسبة إلى ركانة Requena ، وهى بلدة أندلسية قديمة تقع غربى ثغر بلنسية .
(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى النفح . ووردت محرفة فى المخطوطين : (خط الود سقيه)
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى النفح : بردىء .
(٤) هو بقعة من متنزهات غرناطة الإسلامية اشتهرت بجمالها . (راجع الحاشية فى ص ٤٤١) .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى المخطوطين ووردت فى النفح كالآتى : (عشية دارانا بحوزمؤمل) .
(٦) فى المخطوطين : أريحة . والتصويب من النفح .
(٧) فى النفح : بريا .

فقالت :

[لعمركما سَرَّ الرياض وصالُنا][(١)] ولـكنه أبدى لنا الغِلَّ والحَسَد
ولا صفَّق النهرُ ارتياحاً لقُربنا ولا مَدَح[(٢)] القمرىُّ الأ لما وَجَد
فلا تَحسبنّ الظَّن الذى أنت أهلُه فما هو فى كل المواطن بالرَّشَد
فما خِلْت هذا الأُفق أبدى نجومه لأمرٍ سوى كى ما يكون لنا رَصَد

قال أبو الحسن بن سعيد ، وبالله ما أبدع ما كَتَبت به إليه وقد بلغها[(٣)] أنه عَلِق بجارية سوداء أسعتْ له من بعض القصور ، فاعتكف معها أياماً وليالى ، بظاهر غَرْناطة ، فى ظلٍّ مَمْدود ، وطيب هوى مَقْصور وممدود :

يا أظرف الناس قَبْل حالٍ أوقعه نحـوه القَدَر
عَشِقْتَ سوداء مثل ليل بدائعُ الحُسْن قَدْ سَتر
لا يظهر البِشْرُ فى دُجاها كلاَّ ولا يُبْصَرُ الخَفَرُ
بالله قل لى وأنت أدْرَى بكُلِّ مَنْ هام فى الصور[(٤)]
مَنْ الذى هام فى جِنان لا نُوَّار فيه ولا زَهر

فـكتب إليها[(٥)] بأظرف اعتذار ، وألطف أنوار :

لا حُـكْم إلا لآمر ناهٍ له من ذَنْبه مُعْتَـذر
له مُحيَّـا به حيـاتى أعيـذُ مـداه بالسُّور
كصُحْبة العيد فى ابتهاج وطَلْعةِ الشَّمس والقمـر

(١) هكذا فى المخطوطين والملكية . وفى النفح : (لعمرك ما سر الرياض بوصلنا) .
(٢) فى النفح : غرد .
(٣) فى المخطوطين : بلغنا ، وهو تحريف .
(٤) فى المخطوطين : المسطور .
(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : إليه .

سَعْدُه لم أمِل إليه إلا   اطِّرافاً له خَــبَر
عَدِمت صُبْحى فاسوَدَ عِشْ   ـقِى وانعكس الفِكْرُ والنَّظر
إن لم تَلُح يانعيم رو   حى فكيف لا تَفْسُدُ الفِكَر

قال ، وبلغنا أنه خلا مع حاتم وغيره من أقاربهم ، لهم طربٌ ولهو ، فمرّتْ على الباب مُسْتترة . وأعطت البوّاب بطاقةً فيها مكتوب :

زائر قد أتى بجيد غزال[1]   طامع من مُحبه بالوصال
أتراكم بإذْنكم مُسْعِفيه   أم لكم شاغلٌ من الأشغال

فلما وصلت الرقعة إليه ، قال ورب الكعبة ، ما صاحبُ هذه الرقعة إلا الرُّقيمة حفصة ، ثم طلبت فلم تُوجد . فكتب إليها راغباً فى الوصال والأُنس الموصول :

أىْ شُغْل عن الحبيب يعُوق   يا صاحباً قد آن منه الشُّروق
صِل وواصلْ فأنْتَ أشهى إلينا   من جميع المنى فكم ذا تَشُوق
بحياة الرِّضَى يَطِيبُ صَبوحٌ   عَرْفاً إن جَفَوْتَنا أو غُبُوق
لا وَذُلٌّ الهوى وعزٌّ التلاقى   واجتماع إليــه عَزّ الطريق

وذكرها الأستاذ فى «صِلَته» ، فقال : وكانت أستاذة وقتها ، وانتهت [إلى][2] أن علّمت النساء فى دار المنصور ، وسألها يوماً أن تُنْشده ارتجالاً فقالت :

أمنن علىَّ بصَكٍّ   يكُونُ للدهر عُدَّة
تَخط يمناك فيــه   الحمدُ لله وَحدَه

قال : فَمَنَّ عليها ، وحرَّز لها ما كان لها من مِلْك .

---

(١) فى نفح الطيب : الغزال .

(٢) ناقصة فى المخطوطين ويقتضيها السياق .

وفاتها

قالوا : تُوفيت بحَضْرَة مرّاكُش فى آخر سنة ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمائة .

الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبى العافية

من أهل غرناطة ، يكنى أبا القاسم .

حاله

من كتاب « عائد الصلة » : كان رحمه الله صَدْراً من صدور القضاة، من أهل النظر والتقييد ، والعُكوف على الطَّلب ، مضطَّلعاً بالمسائل ، مسائل الأحكام ؛ مهتدياً لمظنَّات النُّصوص ، نسخ بيده الكثير ، وقيَّد على الكثير من المسائل ، حتى عُرف فضله ، واستشاره الناس فى المشكلات . وكان بصيراً بعَقْد الشروط ، ظريف الخطاب[1] ، بارع الأدب : شاعراً مُكثراً ، مصيباً غرض الإجادة . وتصرَّف فى الكتابة السلطانية ، ثم فى القضاء ، وانتقل فى الولايات[2] الرفيعة النَّبيهة . وجرى ذكرُه فى « التَّاج المُحَلَّى » بما نصه :

« فارس فى ميدان البيان ، وليس الخبرُ كالعِيان ؛ وحاملُ لواء الإحسان ، لأهل هذا الشَّان ؛ رَفَل فى حُلَل البدائع فسحب أذيالها ، وشَعْشَع أكواس العجائب فأدار جرياً لها ، واقتحم على الفحول أغْيالها[3] ، وطَمَح إلى الغاية البعيدة

---

(١) هكذا فى « ج » الملكية . ووردت فى « ك » الخط . والأولى أرجح .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الولاية . والأولى أنسب للسياق .

(٣) أى أجماتها .

فنالها ، وتذوكرت المُعْضلات[1] فقال أنا لها . عكف واجتهد ، وبرز إلى مُقارعة المُشكلات ونَهَد ، فعلِّم وحصّل ، وبلغ الغاية وتوصّل ؛ وتولّى القضاء ، فاضطّلع بأحكام الشّرع ، وبرع فى معرفة الأصل والفرع ، وتميّز فى المسائل بطول الباع ، وسعَة الذراع ؛ فأصبحَ صدْراً فى مِصْره ، وغُرّة فى صفحة عصره . وسيمرُّ من بديع كلامه ، وهثّات[2] أقلامه ، وغُرر إبداعه[3] ودُرَر اختراعه ، ما يستنير لعلم الحليم ، وتُلْقى له البلغاء يد التسليم » .

شعــــره

قال فى غرض الحكمة والأمثال :

عزُّ الهوى نُقْصان والرأىُ الذى ... يُنجيك منه [إذا ارتأيْتَ مَرُوما][4]
فإذا رأيتَ الرأى يتّبعُ الهَوَى ... خالِفْ وفاقَهُما تُعَدَّ حكيما
[وكيف تخاف من الحليم مراجياً][5] ... خِفْ مِنْ نَصيحك ذى السّفاهة شوما[6]
واحذر مُعادات الرجال توقّياً ... منهم ظَلُوماً كنت أو مظلوما
فالناس إما جاهلٌ لا يتّقى ... عاراً ولا يخشى العقوبةَ لُؤما
أو عاقلٌ يُرمى بسَهْمِ مكيدةٍ ... كالقَوْسِ تُرسل سَهْمها مَسْموما
فاحْلَمْ عن القِسْمَين تَسْلَمْ منهما ... وتَسُدْ فتُدْعى سيّداً وحليما
ودَعِ المعادات التى من شأنها ... أن لا تُديم على الصّفاء قديما

---

(١) كذا فى « ج » . وفى « ك » المخترعات .
(٢) هثات أى الكتابة السريعة العابرة .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية براعته . والأولى أرجع وأكثر اتفاقاً مع السياق .
(٤) وفى نص آخر : (إن نأيت خزيما) .
(٥) وفى نص آخر : (فكما تروم من الحليم مراحماً) .
(٦) فى « ك » : شر ما . وفى « ج » : نثر ما .

أبت المغالَبَةُ الودَاد فلا تـكُنْ ممن يُغـالب ماحَييت نَدِيمـا
وإذا مُنِيت[١] بقُرْبه فاخفِضْ له جَنـاح الذُّل واخضَعْ ظاعِناً ومُقيما
إنَّ الغريب لـكالْقَضِيب مُحـاير إن لم يمـِلِ للريح عاد رميما
وارْع[٢] الـكفاف ولا تجاوز حَدَّه ما بعْدَه يَجْنِى عليك هُمُـوما
وابْسُطْ يَدَيْك متى غَنِيت ولا تـكُنْ فيما يـكونُ به المـديحُ ذَميما
وإذا بذَلت فلا تُبذر إنّ ذا التَّبـذير [يومئـذ أخُوه][٣] رجيما
وعِف الورود إذا تزاحم مَوْرِدٌ واحسَبْ ورودَ المـاء منه حميما
واصحَبْ كريم الأصل ذا فَضْلٍ فمن يَصْحَب لئيم الأصْل عُدَّ[٤] لئيما
فالفضلُ من لِبْس الـكرام فمن عرا عنه فليس لمـا يقول كريما
إن المقارَنَ بالمقارَن يقْتَدى مثلٌ [جَرَى جَرْى الرياح][٥] قديما
وجِمـاعُ كلٍّ الخير فى التَّقوى فلا تَعْدَم حُـلَى التَّقوى تُعَدَّ عَديما

وقال يصف الشَّيْب من قصيدة ، وهى طويلة ؛ أولها :

لاح الصباحُ ، صباحُ شَيْب المَفْرِق فاحمـد سُراك نجوتَ ممَّا تَتَّقى
هى شَيْبَةُ الإسلام فاقْدر قَدْرَها قد أعتَقَتْـك وحَقٌّ قدر المُعْتقِ
خَطَّت بفَوْدك أبيضاً فى أسـودٍ بالعكس من معْهُود خطِّ مُهرِق
كالبَرْق راعَ بسَيْفه طَرَف الدُّجا فأعار دُهْمَته شَـتات الأبْلَق
كالفَجْر يُرْسِل فى الدُّجْنَة خيطه ويجُرُّ[٦] ثوب ضـيائه بالمشرِق

(١) فى المخطوطين : منيت .
(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : واربع . والأولى أرجح .
(٣) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » : مثل أخيه .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يعد .
(٥) هكذا فى « ج » وفى الملكية . وفى نص آخر : (جرى بين الأنام) .
(٦) فى المخطوطين : ويحرك .

كالماء يســتُرُه بقعر طحلب ... فتراه بين خـلاله كالزِّئبق
كالحيَّـة الرقشاء إلا أنه ... لا يَبْرَأُ الملسوعُ منه إذا رقى
كالنَّجم عُدَّ لرَجْم شيطان الصِّبا ... يا ليت شيطان الصِّبا لم يُحْرَق
كالزُّهْرِ إلا أنه لم يَسْتَنِم(١) ... إلا بغُصْنٍ ذابلٍ لم يُورق
كَتَبَسُّم الزِّنجى إلا أنـه ... يُبكى العيونَ بدمعه المُتَرَقْرق
وكذا البياض قذى العيون ولا ترى ... للعين(٢) أبكى من بَياض المَفْرق
ما للغوانى وهُو لون خدودها ... يجزعن من لألائه المُتألق
وأخَلْته لمع السُّيوف [ومن يشم ... لمع السُّيوف](٣) على المفارق يَفرق
هو ليس ذاك ولا الذى أنكرتُه ... فكُنْ خائفاً ما خِفْنَ منه واتَّق
داءٌ يَعـزُّ على الطبيب دواؤه ... ويَضيع خُسْرا فيه مالُ المُنْفق
لكنه والحقُّ أصدقُ مِقْوَلٍ ... شَيْنُ المسىء الفعل زينُ المتَّق

ومن مقطوعاته قوله :

أقِلىَّ فما الفقْرُ بالمرء عارٌ ... ولا ذارُ من يألفُ الهَوْن دارا
وما يُكْسبُ العزَّ إلا الغنى ... غنى النَّفْس فاتَّخذه شعارا
وما اجتمع الشَّمْلُ فى غيره ... فيَحسُن إلا وساء انتشارا
فدَهْرُ غيرك لا تَنْظرن ... فيألم قلبُك [منه](٤) انكسارا
وهُزِّى إليك بجذع الرِّضى ... تساقط عليك الأمانى ثمارا

(١) هكذا فى المخطوطين . وفى نص : يبتسم .
(٢) فى المخطوطين : للعيون .
(٣) هذه الكلمات وردت فى «ج» وفى الملكية ، وأغفلت فى «ك» .
(٤) ساقطة فى المخطوطين .

وقال أيضاً :

العلمُ حُسنٌ وزَينُ   والجهلُ قُبْحٌ وشَينُ
والمال عزٌّ وعَيْشٌ   والفقرُ ذُلٌّ وحَينُ
والناسُ أعضاء جِسْمٍ   فمنهم أستٌ وعَيْنُ
هذى مقالةُ حقٍّ   ما فى الذى قلت مَيْنُ

وقال أيضاً :

إن أراكَ الزمانُ وجهاً عَبُوساً[١]   فسَتَلْقاه[٢] من بعد ذاك طَلْقا
لا يهمنْكَ حالُه إنّ فى طرْ   فة عَيْنٍ ترتاح فيه وتَشْقَى[٣]
أى عزٍّ رأيت أو أىُّ ذلٍّ   لذوى الحالتين فى الدهر يَبْقى
سَلْ نجومَ الدجى إذا ما استنارت   ما الذى فى وقت الظَّهيرَة تَلْقى
وتفكَّر وقُلْ بغير ارتيابٍ   كلُّ شىء يَفْنى وربك يَبْقى

وقال أيضاً :

لو أن أيام الشَّباب تعود لى   عَوْد النَّضارة للقَضيب المورق
ما إن بَكَيْتُ على شباب قد ذَوى   وبقيتُ منتظراً لآخر مونق

وقال فى القلم :

لك القلمُ الأعلى الذى طال فخرُه   وإن لم يكن إلا قصيراً مُجَوَّفا
تُعلِّمُ منه [الناس][٤] أبْدَعَ حكمة   فما هو أمضى ما يكونُ مُحَرَّفا

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : حبوسا .
(٢) فى المخطوطين : فستلق .
(٣) فى المخطوطين : ويشق .
(٤) ساقطة فى المخطوطين وفى الملكية .

وقال فى التشبيه :

كأنما السُّوسن الغضُّ الذى افتُتِحــت منه كمائمه المبيُضَّة اللون
بنانُ كفٍّ فتاةٍ قط ماخَضَبَتْ(١) تَلْقى بها مَنْ يراها خيفةَ العَيْن

وقال يُعرِّض بقوم من بنى أرْقم :

إذا ما نَزَلْت بوادى الآشى فقل ربُّ من لَدْغه سَــلِّم
وكيف السلامةُ فى مَوْطِنٍ به عُصْبَةٌ من بنى أرْقم

وقال مورياً بالفقه ، وهو بديع :

لى دَيْنٌ على الليالى قديمٌ ثابتُ الرَّسْم منذُ خمسين حِجَّة
أقاعداً بالحــكم عليها أم لهــا فى تقادُم الدَّهر حُجَّــة

ونختم مقطوعاته بقوله :

نجوْت بفضل الله مِمَّا أخافُه ولِمَ لا وخَيْرُ العَالمينَ شَفيعُ
وما ضِعْتُ فى الدنيا بغير شفاعة فــكيف إذا كان الشفيعُ أضيع

وقال أيضاً :

عليك بتقوى الله فيما تَرُومُه من الأمر تَخْلُص بالمرام وبالأجر
ولا تَرْجُ غيرَ الله فى نَيْل حاجةٍ ولا دَفْع ضُرٍّ فى سِرار ولا جَهْر
فمن أمَّ(٢) غير الله أشْرَك عاجلا وفارقه إيمانُه وهو لا يَدْر

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : خطبت .
(٢) هكذا فى المخطوطين . وفى « ت » رام .

وفاتـه

توفى قاضياً بِبُرجَة [١] ؛ وسيق إلى غرناطة فدفن بباب إلبيرة عصر يوم الأربعاء آخر يوم من ربيع عام خمسة وأربعين وسبعمائة .

خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبى خالد البلوى

من أهل قَنْتُورية [٢] ، من حصون وادى المنصورة .

حـاله

هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة ، كثير التواضع ، منحطّ فى ذمة التخلّق ، نابه الهيئة ، حسن الأخلاق ، جميلُ العشرة ، مُحبّ [٣] فى الأدب ؛ قضى ببلده وبغيره ، وحجّ وقيّد رحلته فى سفْر [٤] ، وصف فيه البلاد ومن لَقِى ، بفصول جلب أكثرها من كلام العماد الأصْبهانى ، وصَفْوان وغيرهما ، من مُلح . وقَفَل إلى الأندلس ، وارتَسَم فى تونس فى الكتابة عن أميرها زماناً يسيراً ؛ وهو الآن قاض ببعض الجهات الشرقية .

وجرى ذكره فى الرحلة [٥] التى صدرت عنى فى صُحْبة الركاب السلطانى عند

---

(١) سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٥٨) .

(٢) قنتورية . وبالإسبانية Cantoria . وهى بلدة صغيرة من أعمال ولاية المرية . تقع على نهر المنصورة على مقربة من بلدة المنصورية . وقد سبق التعريف بهذا النهر وواديه (راجع الحاشية فى ص ٤٨٧) .

(٣) هكذا وردت فى المخطوطين . وفى « ك » محبب .

(٤) وردت فى المخطوطين : سفن . وهو تحريف . وقد قام البلوى برحلته فى المشرق بين سنتى ٧٣٦ و ٧٤٠ هـ . وزار المغرب ومصر والشام والحجاز وأدى فريضة الحج ووضع عن رحلته كتاباً سماه « تاج المفرق فى تحلية أهل المشرق » وهو لايزال مخطوطاً .

(٥) هى رسالة ابن الخطيب المسماه « خطرة الصيف فى رحلة الشتاء والصيف » . وقد عرفنا بها فى المقدمة .

تُفقَدُ البلاد الشرقية ؛ فى فصل حَفِظه الناس ، وأجروه فى فكاهاتهم وهو :

« حتى إذا الفجر تبلّج[١] ،والصُّبح من باب المَشْرق تولَّج، عدْنا[٢] وتوفيق الله قائِدٌ ، وكنفُنا[٣] من عنايته صلةٌ وعائدٌ ، تتلاقَى وكابنا الأفواجُ ، وتحيِّينا الهضاب والفِجاجُ إلى قَمَنْتُورْيَة ، فناهيك من مرحلة قصيرة كأيام الوصال ، قريبةِ البُكَر من الآصال ، كان المُبيتُ بإزاء قلْعتها السّامية الارتفاع ، الشهيرة الامتناع ؛ وقد برَز أهلُها فى العَديد والعُدَّة ؛ والاحتفال الذى قَدِم به العهدُ على طول المُدَّة ، صفوفاً بتلك البُقْعة خيلًا ورجلا كشطرنج الرُّقْعَة ، لم يتخلّف ولدٌ عن والدٍ ، وركِبُ قاضيها ابن أبى خالد ؛ وقد شهرته النَّزْعَةُ ، الحجازِيَّةُ ، وقد لبس من الحجازىّ ، وأرخى من البياض طَيْلَسانا[٤] ، وتشبَّه بالمشارقة شكْلاً ولساناً ، وصبَغ لِحْيَته بالحِنَّاء والكَتَم[٥] ، ولاث عمامته واختتم ،والبداوةُ تَسِمُه على الخُرْطُوم ، وطبْعُ الماء والهواء يقودُه قَوْدَ الجمل المخْطُوم ، فداعبتُه مداعبة الأديب للأديب ؛ والأريب للأريب ، وخيَّرته بين خَصْلَتين ، وقلت نَظَمْتُ مقْطُوعتَين ، إحداهما مَدْحٌ ؛ والأخرى قَدْحٌ ؛ فإن همَتْ دِيمتُك ،وكرُمتْ شيمتُك ، فللذين أحسَنُوا الحُسْنى .وإلا فالمثلُ الأدنى . فقال ، انشِدْنى لأرى على أىِّ أمرى أتيتَ ، وأفرقُ بين ما جَنَّيْتَنى وما جنيتُ ، فقلت :

قالوا وقد عظُمَتْ مبرة خالد ... قارى الضيوف بطارفٍ[٦] وبتالد

ماذا تَمَتَ[٧] به فجئت بحجّة ... قَطَعت بكل مجادل ومُجالد

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تلج .

(٢) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » : زهدنا .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » وكنفه .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : كيطلسان .

(٥) هو نبات يخضب به للسواد .

(٦) فى المخطوطين : بالطارف . وهو لا يستقيم مع الوزن والسياق .

(٧) فى المخطوطين : تمت .

أن يَفْترِقْ نسبٌ يُؤلِّفُ بيننا ... أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وأما الثانية فيكفى من البَرْق شُعاعهُ ، وحَسْبُك من شَرٍّ سَماعهُ . ويَسيرُ التنبيهِ كافٍ للنَّبيه[1] ، فقال ، لستَ إلى قِراى بذى حاجة ، وإذا عزمت[2] فأصالحُك على دجاجة ؛ فقلت ضريبةٌ غريبةٌ ، ومُؤْنَةٌ قريبةٌ ؛ عجِّل ولا تُؤَجل ، وإن انصرم أمدُ النهار فأسْجِل ؛ فلم يكن إلا كَـلَّا ولا ، وأعوانُه من القَلْعة تَنْحدر ، والبِشْرُ منهم بقُدومها يَبْتَدِر ، يَزُفُّونها كالعَروس فوق الرُّؤوس ، فمن قائل يقول أمُّها يمانيَّة ، وآخرُ يقول أخُوها الخِصِىّ المُوَجَّه إلى الحَضْرة العَلِيَّة ، وأدْنَوا مرابِطَها من المَضْرب بعد صلاة المَغْرب ، وألحَفُوا فى السؤال ، وتشطَّطُوا فى طلب النَّوال ؛ فقلتُ يابَـنِى اللَّـكيعة جئتم ببازى ، بماذا كنت أجازى ، فانصرفوا وما كادوا يفعلون ، وأقبل بعضُهم على بعض يتلاوَمُون ؛ حتى إذا سُلَّت لذَبْحها المُدى ، وبلغت من طول[3] أعمارها المَدَى ، قلت ياقوم ظَفِرتم بقُرَّة[4] العين ، وابْشِرُوا باقتراب[5] اللقاء ، فقد ذَبَحْتُ لـكم غُرابَ البَيْن » .

ولقد بلغنى أنه لهذا العهد بعد أن طال المَدَى ، يتظلَّم من ذلك ، ويَنْطوى من أجله على الوَجْدَة ؛ فـكتَبْتُ إليه : وصل الله عِزَّة النقيه النَّبيه ، العديم النظير والتَّشْبيه ؛ وارث العدالة عن عمِّه وابن أبيه ، فى عزَّة تُظلِّله ، وولاية تُتوِّج جاهه وتُـكلِّله .

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : التنبه .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : أعزمت .

(٣) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٤) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .

(٥) هكذا وردت فى « ج » . وورت محرفة فى « ك » . بالعتَراب .

داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر ابن حَوْط الله الأنصارى الحارثى الأُنْدى[١]

يكنى أبا سليمان .

أوليته

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : من بيت علم وعفاف ، أصله من أُنْدَة[٢] ، حصن بشرق الأندلس ، وانتقل أبو سليمان هذا مع أخيه أبى محمد إلى حيث يذكر بعد .

حاله

قال ابن عبد الملك ، كان حافظاً للقراءة ،عارفاً بإقراء القرآن بها ، أتْقَن ذلك عن أبيه ، ثم أخيه كبيره أبى محمد ، محدِّثاً متسع الرواية ، شديد العناية بها ، كثير السماع ، مُكثراً ، عَدْلاً ، ضابطاً لما ينقله ، عارفاً بطرق الحديث ، أطال الرِّحلة فى بلاد الأندلس، شرقها وغربها ، طالبا للعلم بها ، ورحل إلى سَبْتَة وغيرها من بلاد الأندلس العدوية[٣].وعُنِي بلقاء الشيوخ كباراً وصغاراً ، والأخذ منهم ، أتمَّ عناية ؛

---

(١) وردت فى المخطوطات الثلاثة : (الأبدى) نسبة إلى أبدة . وهو تحريف. وصوابه (الأندى) نسبة إلى بلدة « أندة » كما هو مسطور فى سياق الترجمة فى غير موضع .

(٢) أندة بلدة أندلسية صغيرة من بلاد ولاية بلنسية .

(٣) أعنى الجهات التى كانت تابعة للأندلس فى الضفة الأخرى من البحر .

وحصل له بذلك مالم يحصل لغيره ؛ وكان فهِـماً بصيراً بعَقْد الشروط ، حاذقاً في استخراج نُكتها ، تَلَبس بكَتْبها زماناً طويلًا بمسجد الوحيد من مالقة ؛ وكان محبّاً في العلم وأهله ، حريصاً على إفادته أيّاهم ، صَبُوراً على سماع الحديث ، حسن الخُلق طيِّب النفس ، متواضعاً ، ورعاً ، مُنْقبِضاً ، ليِّن الجانب ، مخفوض الجناح ، حسن الهُدى ، نزيه النفس ، كثير الحياء ، رقيق القلب ، تعدّد الثناء عليه من الجِلّة .

قال ابن الزُّبير ؛ كان من أهل العدالة والفضل ، وحسن الخُلق ، وطِيبِ النفس والتواضع ، وكثرة الحياء . وقال ابن عبد المجيد ، كان ممن فضّله الله بحسن الخلق والحياء على كثير من العلماء . وقال أبو عبد الله بن سلمة [مثلَ ذلك][١] . وقال ابن[٢] . . . بمثله .

مشيختــــه

قال الأُستاذ ؛ أقرأ بمُرْسِيه ، وأخذ بها ، وبقُرطبه ، ومالقة ، وإشبِيلية ، وغَرْناطة وسَبتة ، وغيرها من بلاد الأندلس ، وغرب العُدْوه ؛ واعتناؤه يُعينه [وأخاه][٣] بباب الرُّواة ، والأخذ عن الشيوخ ، حتى اجتمع لهما مالم يجتمع لأحد من أهل عَصْرِها ؛ فمن ذلك أبُوهُما أبو داود[٤] ، وأبو الحسن صالح بن يحي بن صالح الأنصارى ، وأبو القاسم بن حسن ، وأبو عبد الله بن حُمَيد ، وأبو زيد السُّهَيلى ، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عراق الغافقى ، وأبو العباس يحي بن عبدالرحمن المَجْرِيطى[٥] ، وعن

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : كذلك .

(٢) لم يرد بعدها باقى الاسم فى المخطوطات الأربعة .

(٣) وردت فى المخطوطين : (أخباره) . وقد رجحنا أن يكون تحريفاً لكلمة (وأخاه) . يؤيد ذلك باقى السياق .

(٤) وردت فى « ج » وأغفلت فى « ك » .

(٥) نسبة إلى مجريط (وبالإسبانية Magerit). وهى القاعدة الإسلامية الحصينة التى كانت تقع شمال مدينة مدريد الحديثة ، والتى حرف اسمها فيما بعد إلى اسم العاصمة الإسبانية .

ابن بَشْكُوال[١]؛ وأخذ عن أبى بكر بن الجد. وأبى عبد الله بن زَرْقون، وأبى محمد ابن عبد الله، وأبى عبد الله بن الفخَّار الحافظ، وأبى العباس بن مضاء، وأبى محمد ابن بُونه[٢]، وأبى محمد بن عبد الصمد بن يعيش الغَسَّانى، وأبى بكر بن أبى حمزة، وأبى جعفر بن حَكَم الزَّاهد، وأبى خالد بن يزيد بن رفاعة، وأبى محمد عبد المنعم ابن الفَرَس، وأبى الحسن بن كَوْثَر، وأبى عبد الله بن عَرُوس، وأبى بكر بن أبى زَمَنِين، وأبى محمد بن جُمْهُور، وأبى بكر بن النيَّار، وأبى الحسن بن محمد بن عبد العزيز الغافِقى الشُّقُورى، وأبى القاسم الُحوفى القاضى، وأبى بكر بن بيبش[٣] بن محمد ابن بيبش[٣] العَبْدَرى، وأبى الوليد بن جابر بن هشام الحَضْرَمى، وأبى بكر ابن مالك الشَّريشى، وأبى عبد اليُسْر الجزيرى، وأبى بكر بن عبد الله السَكْسَكى[٤] وأبى الحجاج ابن الشيخ الفهرى، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

قضاؤه وسيرته فيه

قال ابن أبى الربيع[٥] لازمت ابنَي[٦] حوطِ الله، فكان أبو محمد يفوق أخاه والناسَ فى العلم، وكان أبو سليمان يفوق أخاه والناسَ فى الحِلْم. واسْتُقضى بسَبْتة والْمَرِيَّة والجزيرة الخضراء، وقام قاضياً بها مدة، ثم نقل منها إلى قضاء بَلَنْسِيَة آخر ثمان وستمائة، ثم صُرف بأبى القاسم بن نُوح، وقُدِّم على القضاء بمالقة فى حدود إحدى عشر وستمائة، فشُكرت أحوالُه كلها، وعُرف فى قضائه بالنزاهة. قال

---

(١) وردت فى المخطوطين محرفة: ابن شكوال.

(٢) وردت فى المخطوطين محرفة: بونو. وبونوا. والتصويب من «صلة الصلة» (ص ٧).

(٣) هكذا وردت فى «ك». ووردتا محرفتين فى «ج»: (يبشر. بيش).

(٤) هكذا وردت فى «ك». وفى «ج»، والسكساكى.

(٥) فى المخطوطين: ابن الربيع.

(٦) وردت فى المخطوطين: أبى: والتصويب يستلزمه السياق.

أبو عبد الله بن سَلَمة ؛ كان إذا حضر خصوم[1] ، ظهر منه [من][2] التواضع ، ووطْأةِ الأكْناف ، وتبْيِين المراشد والصبر على المُداراة، والمُلاطفة ، وتَحْبِيب الحق ، وتكْرِيه الباطل ، ما يُعجز عنه . ولقد حضرتُه . وقد أوْجَبَت الأحكامُ عنده[3] الحدود على رجلٍ ، فهاله الأمر ، وذَرَفت عيناهُ ، وأخذ يَعْتِبُ عليه ويؤَنبهُ على أن ساق نَفْسه إلى هذا ؛ وأمر بإخراجه ليُحَدَّ بشهود فى موضع آخر لرقَّة نفسه ، وشدَّة إشفاقه . واستمرت ولايته بمالقة إلى أن توفى .

مولده

ببلدة أُنْدَة سنة ستين وخمسمائة .

وفاته

قال أبو عبد الرحمن بن غالب ؛ توفى إثْر صلاة الصبح من يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ودفن إثْر صلاة العصر يوم وفاته ، بسفح جبل فارَة[4] ، فى الروضة المدفون بها أخوه أبو محمد ، فأتْبعَه الناس ثناء جميلا ؛ ذُكر ، واختلفوا فى جنازته ، وخَرج إليها النساء والصبيان داعين مُتبكِّين .

رِضْوان النَّصْرى الحاجبُ المُعَظّم

حَسَنَةُ الدولة النصرية ، وفخرُ مواليها .

---

(١) هكذا فى الملكية . وردت فى « ج » حضر خصما . وفى « ك » خصوماً .

(٢) ساقطة فى المخطوطين : ولازمة للسياق .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » عند .

(٤) هو الجبل الذى يشرف على مدينة مالقة من ناحية الجنوب الشرق . وهو يقع تجاه قصبة مالقة . ويقع عليه الحصن المسمى بنفس الاسم . وهو بالإسبانية Gibralfaro

أوَّليته

رومىّ الأصل . أخبرنى أنه من أهل القَلْصَادَة(١) ، وأن انتسابه يتجاذبه القَشْتَالِيةُ من طَرَف العمومة ، والبَرْجُلونِيّة(٢) من طرف الخُؤولة ، وكلاهما نبيه فى قومه ، وأن أباه ألجأهُ الخوف بدم ارتكبه فى محل أصالته من داخل قَشْتالة إلى السُّكنى بحيث ذكر ؛ ووقع عليه سِباء(٣) فى سن الطفولية(٤) ، واستقرّ بسببه بالدار السلطانية ، ومَحَضَ(٥) إحراز رِقّه ، السلطان دايل قومه ، أبو الوليد المارّ ذكره ؛ فاختصّ به ، ولازمه قبل تَصْيير المُلْك إليه ، مؤثَراً له مغتبطاً بمخايل فضله ، وتَمَاثُل استقامته ؛ ثم صُيِّر الملك إليه فتدرَّج فى معارج حُظوته ، واختصَّ بتربية ولده ، ورَكَنَ إلى فضل أمانته ، وخلطه فى قُرْب الجوار بنفسه ، واستَجْلى الأمور المُشْكِلة بصِدْقه ، وجعل الجوائز السنيّه لعظماء دولته على يده ؛ وكان يوجب حقّه ، ويعرف فضله ، إلى أن هلك ؛ فتعلّق بكنَف ولده ، وحَفِظ شَمْله ، ودبَّر مُلْكه ، فكان آخر اللَّخْف ، وستراً للحرم ، وشجًى للعِدا وعُدَّة فى الشِّدة ، وزَيْناً فى الرَّخاء ، رحمة الله عليه .

حـــــاله وصفته

كان هذا الرجل مليح الشَّيبة والهيئة ، معتدل القَدّ والسِّحْنة ، مُرهب البدن ،

---

(١) وردت فى المخطوطين : (القلصارة) بالراء . وهو تحريف . وصوابه القلصادة . وهى بلدة La Calzada de Calatrava الواقعة جنوب قشتالة فى شمال مدينة بياسة فى منتصف الطريق بينها وبين طليطلة .

(٢) القشتالية نسبة إلى قشتالة Castile . والبرجلونية نسبة إلى برجلونة أو برشلونة أو بعبارة أخرى إلى أراجون .

(٣) أى أسر .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين .

(٥) فى المخطوطين : محمض .

مُقبل الصورة، حسَن الخلق ، واسع الصدر(١) ، أصيل الرأى ، رصين(٢) العقل ، كثير التجمل ، عظيم الصبر ، قليل الخوف فى الهَيْعات، ثابت القدم فى الأزمات ، ميمون النَّقيبة(٣) ، عزيز النَّفس ، عالى الهمَّة، بادى الحشمة، آية فى العفة، مثلا فى النزاهة ، ملتزماً للسُّنَّة ، دؤوباً على الجماعة ، جليس القِبْلة ؛ شديد الإدراك مع السكون، ثاقب الذهن مع إظهار الغَفْلة ؛ مليح الدُّعابة مع الوقار والسكينة ؛ مستظهراً لعيون التاريخ ؛ ذاكراً للكثير من الفقه والحديث ؛ كثير الدّالة(٤) على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد ، عارفاً للسياسة ، مُكرماً للعلماء ؛ مُتركاً للهوادة(٥)، قليل التصنُّع ؛ نافراً من أهل البِدَع ؛ متساوى الظاهر والباطن ؛ مقتصداً فى المطعم والملبس.

مكانته من الدين

أتُّفق على أنه لم يُعاقر مُسكراً [قط](٦) ولا زُنَّ بَهناة ؛ ولا لُطِخ بريبة ؛ ولا وُصم بخلَّة تَقْدح فى مَنصِب ، ولا باشر عقاب جاز(٧)، ولا أظهر شفاء من غائظ، ولا اكتسب من غير التَّجر والفلاحة مالا .

آثـاره

أحدث المدرسة بغرناطة . ولم تكن بها بعد ، وسبّب إليها الفوائد ، ووقف

(١) وردت بعدها فى المخطوطين هذه العبارة : (متين . سليم الصدر) . ويلوح لنا أنه تكرار وتحريف . ولهذا رأينا حذفها .

(٢) هكذا فى «ج » . وفى « ك » : رصيد .

(٣) أى محمود المخبر .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين : والمقصود بها العلم والإحاطة .

(٥) فى المخطوطين : للهودة .

(٦) الزيادة من الملكية .

(٧) هكذا وردت فى المخطوطين ، والملكية . وقد تعنى عقاب مستحق له .

عليها الرِّباع المُغلّة ، وانفرد بمَنْقبها[1] ؛ فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وظرفاً وفخامة ، وجَلَب الماء [الكثير إليها من النهر][2] ، فأبّد سقْيَه عليها . وأدار السُّور الأعظم على الرَّبَض الكبير المنسوب للبيّازين[3] ؛ فانتظم منه النَّجد والغُور ؛ فى زمان قريب ؛ وشارف التمام إلى هذا العهد ؛ وبنى من الأبراج المنيعة فى مَنالم الثُّغور وروابى[4] مطالعها المُنذِرة ؛ ما يَنيفُ على أربعين بُرْجا ؛ فهى ماثلة كالنجوم مابين البحر الشرقى من ثغر بيرة[5] إلى الأحواز الغربية ؛ وأجرى الماء بجبل مَوْرُور ؛ مُهْتدياً إلى ماخفى على من تقدَّمه ؛ وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشقّ تعداده .

جهـــــاده

غزا فى السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة[6] ؛ وهى ما هى من الشهرة ؛ وكرم البُقعة ، فأخذ بمُخنَّقها ؛ وشدَّ حصارها وعاق الصريخ عنها ؛ فتملَّكها عنْوة ؛ وعمَّرها بالحماة ، ورتَّبها بالمُرابطة ، فكان الفتح فيها عظيما . وفى أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عَدْو المشرق ؛ وطوى المراحل مجتازاً على بلاد قَشْتالة ؛ لُورَقة ومُرْسية ؛ وأمعن فيها ؛ ونازل حصن المُدَوَّر ؛ وهو حصن أمِن غائلة العدو [مكْتَنَفٌ بالبلاد ؛ مُدَّ بالبَيِيني[7] ؛ موضوعٌ على طيَّة التجارة ؛ وناشبه القتال ، فاستولى عنْوة][8] عليه منتصف المحرم من العام المذكور ، وآبَ مملوء الحقائب سَبياً وغُنْماً .

---

(١) أى بفضلها ومأثرتها .
(٢) هذه الزيادة من الملكية . ووردت مكانها فى «ج» كلمة (الموقف) .
(٣) ما تزال ثمة إلى اليوم بقية من هذا السور قائمة وراء ربض البيازين بغرناطة .
(٤) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : ورواق .
(٥) بيرة Vera وقد سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١٠٩) .
(٦) باغة وبالإسبانية Priego هى بلدة حصينة قديمة تقع شمال لوشة فى ولاية جيان .
(٧) الآلات والتجهيزات الضخمة .
(٨) ما بين الحاصرتين وارد فى «ك» . وساقط فى «ج» .

وغزواته كثيرة ، كظاهرة الأمير الشهير أبى مالك على مُنازَلة جبل الفتح ، وما اشتهر عنه فيه من الجد والصبر ؛ وأوثر عنه من المَنْقَبة ، الدّالة على صحة اليقين، وصدق الجهاد ، إذ أصابه سهم فى ذراعه وهو يصلى ، فلم يشغله عن صلاته، ولا حمله توقعُ الإغارة على إبطال عمله .

ترتيب خدمته

وما تخال عن ذلك من محنته

لما استوثق أمرُ الأمير المخصوص بتربيته ، محمد ، ابن أمير المسلمين أبى الوليد نصر ، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق ؛ ووقع بينه وبين المترجم عهدٌ على الوفاء والمُناصحة ، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة ، وبعثه ليلا إلى مَرْسَي المُنَكَّب[١] ، واعتقله فى المُطْبَق من قصبتها بَغْياً عليه ، وارتكب فيه أُشنُوعة أساءت به العامة ، وأنذرت باختلال الحال ؛ ثم أجازه البحر ، فاستقر بتِلِمْسان ؛ ولم يلبث أن قُتل المذكور ؛ وبادر سلطانه الموتور بفرقته[٢] عن سُدَّته ؛ فاستدعاه[٣] فلحق محله من هَضْبة المُلك مُتَمَلِّياً ماشاء من عز وعناية ؛ فصُرفت إليه المقاليد ، ونيطت به الأمور ؛ وأُسْلم إليه المُلْك ؛ وأُطلقت يده فى المال[٤] ؛ واستمرت الأحوال إلى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ؛ والتأث الأمر ؛ وظهر من سلطانه التنكر[٥]

---

(١) المنكب Almunecar هو ثغر صغير يقع على البحر الأبيض المتوسط فى جنوبى ولاية غرناطة . وقد اشتهر فى تاريخ الأندلس بنزول عبد الرحمن الداخل فيه .

(٢) وردت فى المخطوطين : بغرفيه ، وهو تحريف . وبالتصويب يستقيم السياق .

(٣) فى المخطوطين : استدعاه .

(٤) وردت فى المخطوطين : الحال . ونعتقد أن التصويب فى محله .

(٥) فى المخطوطين: المتنكر .

عليه ، فعاجله الحِمام فخلّصه الله منه ؛ وولى أخوه أبو الحجاج من بعده ، فوقع الإجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، فرضى الكلُّ به ، وفرحت العامة والخاصة للخطّة ، لارتفاع المنافسات بمكانه ، ورضى الأضداد بتوسطه ، وطابت النفوس بالأمن من غائلته ؛ فتولى الوزارة وسَحَب أذيال المُلك ، وانفرد بالأمر ، واجتهد فى تنفيذ الأحكام ، وتقدُّم الولاة ، وجواب المخاطبات ، وقُوّاد الجيوش ، إلى ليلة الأحد الثانى والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة ، فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة[1] البرك ، هائلة الفجأة من غير زلة مأثورة ، ولا سَقْطة معروفة ، إلا مالا يُعدم بأبواب الملوك من شرور المنافسات ، ودبيب السِّعايات الكاذبة ؛ وقبض عليه بين يدى محراب الجامع من الحمراء[2] إثر صلاة المغرب ، وقد شهر الرجال سيوفهم فوقه يحفّون به ، ويقودونه إلى بعض دور الحمراء ؛ وكبس ثُقات السلطان منزله ؛ فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة ، وضم إلى المستخلص[3] عقاره ، وسوغ الخبر عظيم غلاته ؛ ثم نقل بعد أيام إلى قصبة المرية محمولا على الظهر ، فشدّ بها اعتقاله ، ورتب الحرس عليه إلى أوائل شهر ربيع الثانى من عام أحد وأربعين وسبعمائة ، فبدا للسلطان فى أمره واضطر إلى إعادته[4] ، ووجد نَقْد نصحه ، وأشفق لما عَدِم من أمانته ، والانتفاع برأيه ، وعرض عليه بما لنوم الكفّ والإقصار عن ضَرّه ؛ فعفا عنه ، وأعاده إلى محله من الكرامة ، وصرف عليه من ماله ، وعرض الوزارة فأباها ، واختار برد العافية ، وأنِس لذة التّخلى ، فقُدم لذلك من سدّ الثغور ، فكان له اللفظ ، ولهذا الرجل المعنى ؛ فلم [يزل][5] مفزعاً للرأى ، محلّى فى العظة على الولاية ، كثير الآمل والغاشى ،

---

(١) فى « ج » بقيلة . و « ك » نفيلة . والتصويب أرجح .

(٢) مسجد الحمراء الكبير ، كان يقوم فوق هضبة الحمراء على مقربة من القصر ، ومكانه اليوم كنيسة سانتا ماريا الواقعة على مقربة من قصر شارلكان القائم تجاه قصر الحمراء .

(٣) المستخلص أى أملاك السلطان .

(٤) وردت فى المخطوطين : إعانته . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٥) ساقطة فى المخطوطين .

إلى أن توفى السلطان المذكور غرة شوال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، فشعب الثأى [١] ، وحفظ البلوى ، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبى عبد الله ، وقام خير قيام بأمره ، وجرى على معهود استبرائه [٢] ، وقد تحكمت التجربة ، وعلت السن ، وزادت أنة الخشية ، وقربت من لقاء الله الشقة ؛ فلا تسأل عما حط من خل ، وأفاض من عدل ، وبذل من مداراة ، وحاول عقد السلم ، وسد أمور الجند على القل ؛ ودامت حاله متصلة على ما ذكر ، وسنه تتوسط عشر التسعين إلى أن لحق بربه . وقد علم الله أنى لم يحملنى على تقرير سيرته ، والإشادة بمنقبته داعية ، وإنما هو قول بالحق ، وتسليم لحجة الفضل ، وعدل فى الوصف ؛ والله عز وجل يقول : « وإذا قلتم فأعدلوا » .

وفاته

فى ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمائة ، طرق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل ، متبذل اللبسة ، خالص الطويه ، مقتضياً للأمن مستشعراً للعافية ، قائماً على المسلمين بالكل ، حاملا للعظيمة ، وقد بادره الغادرون بسلطانه ، فكسروا غلقه بعد طول معالجة ، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده ، وذهبوا إلى الدايل برأسه ، وفجعوا الإسلام ، بالسائس الخصيب المتغاضى [٣] ، راكب متن الصبر ، ومطوق طوق النزاهة والعفاف ، وآخر رجال الكمال والستر ، الضافى على الأندلس ؛ ولوئم من الغدين رأسه وجسده ، ودفن بإزاء لحود [٤] مواليه [٥]

(١) وردت فى « ك » الشائن . وفى « ج » الشانى .

(٢) تقرأ فى المخطوطين : استبراده . وهو تحريف .

(٣) وردت فى « ج » والملكية ، المغاضى . وفى « ك » المقاضى .

(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (لجود . انجود) .

(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مواليفه .

من السبيكة[١] ظهراً . ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس؛ و تُبُرِّك بعد بقبره . وقلت عند الصلاة عليه ، أُخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية :

أرضوان لا تُوحشك فَتْكةُ ظالم ... فلا موردٌ إلا سيتلوه مَصْدَر
ولله سرٌّ فى العباد مُغَيَّبٌ ... يشهد بخافيه[٢] القضاء المقَدَّرُ
مُحَيَّيك مرتاحٌ إليك مُسَلِّمٌ ... عليك ورضْوان من الله أكْبرُ
فحثَّ المَطَا لَيْسَ النعيم مُنَغَّصٌ ... ولا العيشُ فى دار الخلود مُكدَّرُ

زاوى بن زِيري بن مَناد الصَّنهاجى

الحاجب المنصور ، يكنى أبا مُثْنى .

أوليته

قد مر ما حدث بين أبيه زيرى وبين قرابته من ملوك إفريقية ، وباديس بن منصور من المُشاحنة التى أوجبت مخاطبة المُظفر بن أبى عامر فى اللِّحاق بالأندلس ، وإذنه فى ذلك . فدخل الأندلسَ منهم على عهده جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار[٣] الحتُوف ، مع شيخهم هذا وأميرهم ، ودخل منهم معه أبناء أخيه ما كْسَن وحُباسة وحَبّوس . وقاموا فى جُمْلة المظفَّر ، وزاوى مخصوصٌ باسم الحجابة ؛ فلما اختل بناء الخلافة ، بمحمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدى ، أذلّهم وتنكر لهم ، وأشاع بينهم وبين أمثالهم من البرابر ، المُغايرة ، فكان ذلك سبب الفتنة التى يسمّيها أهل الأندلس

(١) سبق التعريف بها (انظر الحاشية فى ص ١١٦) .
(٢) وردت فى المخطوطين : تجافيه .
(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : وأطار .

بالبربرية ؛ فانحاشوا ، ونفروا[١] عهده ، وبايعوا سليمان بن الحكم ، واستعانوا بالنصارى، وحركوا على أهل قرطبة خصوصاً ، وعلى أهل الأندلس عموماً ، ماشاء الله من استباحة[٢] ، وإهلاك النفوس ، وغلبوا على مُلك الأندلس ، وما وراء البَيْضَة ، واقتسموا أمَّهات الأقطار ؛ وانحازوا[٣] إلى بلاد تضمُّهم ، فانحازت صَنْهاجة مع رئيسهم المذكور إلى غرناطة ، فأوُوا إليها ، واتخذوها ملجأً ؛ وحماها زاوى المذكور ، وأقام[٤] بها ملكاً ، وأثَّل بها سلطاناً لذويه ، فهو أوّل من مدّن غرناطة ، وبناها وزادها تشييداً وَمَنَعَة ؛ واتصل ملكه بها ، وارتشحت عروقه ؛ إلى أن كان من ظهوره بها وأحوازها ، على عساكر الموالى ، الراجعين بإمامهم المُرتضى إلى قرطبة ، البادين بقتاله ، والآخذين بكَظَمه ، بما تقرر ويتقرر فى اسم المُرْتضى ، من باب المُحمّدين بحول الله .

وكان زاوى كبش الحروب ، وكاشف الكروب ، خدم قومه شهير الذِّكر أصيل المجد ، المثل المضروب فى الدهاء ، والرأى ، والشجاعة ، والأنفة ، والحزم .

قال بعضهم ، أحكم التدبير ، والدولة تسعده ، والمقادر[٥] تنجده ، وحكيت له فى الحروب حكايات عجيبة .

بعض أخباره فى الرأى

قال أبو مروان ، وقد مرّ ذكر الفتنة البربرية ؛ لما خلص ملأ القوم ، لتشاور أميرهم ، وهم فرض فى خروجهم من قرطبة ، عند ما انتهوا إلى فحص هلال ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : ونفدوا .
(٢) وردت فى « ج » . واستبحه . وفى « ك » استباحات .
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » واجتازوا .
(٤) فى المخطوطين : وقام .
(بمعنى القده) هنا ر .

واجتمعوا على التّأسّى ؛ وضرب لهم زعيمهم زاوى بن زيرى بن مَناد الصّنهاجى ، مثلا بأرماح خمسة جمعها مشدودة ، ودفعها لأشدّ من حضره منهم ، وقال ؛ إجهد نفسك فى كسرها كما هى وأغمزها ، فعالج ذلك فلم يقدر عليه ؛ فقال له حِلها وعالجها رُمحًا رُمحًا ، فلم يبعُد عليه دقُّها ، فأقبلَ على الجماعة ، فقال : هذا مَثَلكم يابرابرة ، إن جُمعتم لم تُطاقوا ، وإن تفرّقتم لم تَبقْوا ، والجماعة فى طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا ، فقالوا نأخذ[1] بالوثيقة ، ولا نُلق[2] بأيدينا [إلى][3] التهلكة ؛ فقال لهم بايعوا لهذا القرشى سليمان ؛ يرفع عنكم الأنَفَة فى الرياسات[4] ، وتستميلون إليه العامة بالجنسية ؛ ففعلوا ، فلما تمّت البيعة ، قال إن مثل هذا الحال لايقوى على أهل الإستطالة ، فيقيّد له رئيس كل قبيله منكم ، قبيلة يتكفلّ السلطان بتقويمهم ، وأنا الكفيلُ بصَنْهاجة ؛ قال ، وامتارت بطون القبائل على أرحامها[5] ، وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها ؛ فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيّده ، فاجتمعت صَنْهاجة على كبيرها زاوى ، ولم تزل[6] تلك القبائل المتألفة بالأندلس لطاعة أميرها ، المنادين[7] [له][8] إلى أن أورثوهم الإمارة .

التــوقيع

قالوا ، ولما نازله المُرْتَضى الذى أجْلَبَ به الموالى العامريين بظاهر غرناطة ، خاطبه

---

(١) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : نأخذوا .

(٢) وردت فى المخطوطين : نلقوا على منوال ما يقع فى مواطن كثيرة من إيراد الفعل بالجمع مكان المفرد . وقد فضلنا التصويب ليستقيم السياق .

(٣) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى الملكية .

(٤) هكذا وردت فى « ج » . وفى « ك » : الرياسة .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : أرحامهم .

(٦) وردت فى المخطوطين : ولم تر الذم . وبالتصويب يستقيم المعنى .

(٧) فى المخطوطين : المغادين .

(٨) ساقطة فى المخطوطين ، ويقتضيها السياق .

بكتاب يدعوه فيه إليه طاعته ، وأجمل موعده فيه ؛ فلما قُرئ على زاوى قال لكاتبه ، اكتب على ظهر رقعته : «قل ياأيها الكافرون» السورة . فلما بلغت[(١)] المرتضى أعاد عليه كتاباً يعده فيه بوعيده ، فلما قُرئ على زاوى ، قال رد عليه : «ألهاكُم التكاثر» إلى آخرها ، فازداد المرْتضى غيظاً ، وناشبه القتال ، فكان الظُّهور لزاوى .

قال المؤرخ ؛ واقتتلت صَنْهاجه مع أميرهم مُسْتميتين لما دَهَمَهم من بحر العساكر ، على انفرادهم وقلة عددهم ، إلى أن انهزم أهل الأندلس ، وطاروا على وجوههم ، مُسْلِمُوهم وإفرنْجُهم ، لايلوون[(٢)] على أحد ، فأوقع[(٣)] البرابر[(٤)] بهم السيف ، ونَهبوا تلك المحلَّات ، واحتووا على مالا كِفاء له اتساعاً وكثرة ؛ ظلّ الفارس يجيء من أتباع المُنْهزمين ومعه العَشرة ، ولا تسل عما دون ذلك من فاخر النَّهب ، وخير الفَساطيط ، ومضارب الأمراء والرؤساء .

قال ابن حيَّان ؛ فحلَّ بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبةٌ أنْسَت ماقبلها ، ولم يجتمع لهم جمعٌ بعدها وفرّوا بإدبار ، وباءوا بالصِّغار .

مُنصرفه عن الأندلس

قال المؤرخ ؛ ولهول ماعاينه زاوى من اقتدار [أهل][(٥)] الأندلس فى أيام تلك الحروب وجَعَاجعهم ، وإشرافهم على التغلُّب عليه ، هان سلطانُه عنده بالأندلس ، وخرج عنها نظراً إلى عاقبة أمره ، ودعا بجماعة من قومه لذلك فعصوه ، وركب البحر

---

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» . أبلغ .
(٢) وردت فى المخطوطين : يلوا . وقد لزم التصويب .
(٣) وردت فى المخطوطين : فوقع .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وهو يستعمل هنا كلمة «البرابر» للتعبير عن البربر . وقد استعمل من قبل كلمة «البرابرة» فى مواطن عدة .
(٥) واردة فى «ك» . وساقطة فى «ج» .

بجيشه وأهله ، فلحق بإفريقية وطنه . قال ، فكان من أغرب الأخبار فى الدولة الحمّودية(١) انزعاجُ ذلك الشيخ زاوى عن سلطانه بعد ذلك الفتح العظيم الذى [ناله](٢) على أهل الأندلس، وعبورُه البحر، بعد أن استأذن ابن عمه المُعز بن باديس، فأذِن له . وحَرِص بنو عمه(٣) بالقَيْرُوان ، على رجوعه لهم [لحال سنِّه](٤) ، وتقريبهم يومئذ مَنْ مِثْلُه من مشيختهم لمهلك جميع إخوتهم ، وحصوله هو [على](٥) مُقَرَّرِ بنى مناد الغريب الشأن ، فى أن لا تُحجب عنهم نساؤهم [وكن](٦) زُهاء ألف امرأة فى ذلك الوقت ، هُن ذوات مَحْرَم من بنات أخوته وبناتهن وبنى بنيهن . وكان رحيل زاوى عن الأندلس سنة ستة عشر وأربعمائة . قال ابن حيّان، وأخبار هذا(٧) الداهية كثيرة ،وأفعاله ونوادره مأثورة .

زهير العامرىّ ، فتى المنصور بن أبى عامر

حـــاله

كان شهماً داهية ، سديد المنهب ، مؤثراً للأناة ؛ ولِى بعد خَيْران صاحب ألمريّة ،وقام بأمره أحمد قيام،سنة تسعة عشر وأربعمائة، يوم الجمعة لثلاث خلون من جمادى الأولى . وكان أميراً بمرسية ، فوجه عنه خيران حين أحسّ بالموت ، فوصل

(١) هكذا فى «ك» . وفى «ج» والملكية : المحمودية .

(٢) ساقطة فى المخطوطين . ويستلزمها السياق .

(٣) فى المخطوطين : بنى عمه . وهو تحريف شائع فى المخطوطين .

(٤) وردت هذه العبارة فى المخطوطين : (بحال سيئة) . ونعتقد أن هذا التصويب الذى نورده من «الذخيرة» ، أرجح وأنسب للمعنى والسياق .

(٥) إضافة يقتضيها السياق .

(٦) إضافة يقتضيها السياق .

(٧) فى المخطوطين : هذه .

إليه ، وكان عنده إلى أن مات . فخرج زُهير مع ابن عباس[١] إلى الناس ، فقال لهم ، أمّا الخليفة خيران فقد مات ،وقد قدّم أخاه زهيراً هذا ، فما تقولون ؛ فرضى الناس به ، فدامت مدة[٢] ولايته عشرة أعوام ونصف عام إلى أن قُتل .

مناقبــة

قال أبو القاسم الغافقى ؛ وكان حسن السيرة جميلها ؛ بنى المسجد فى ألمريّة[٣] ، ودار فيه من جهاته الثلاث ،المشرق والمغرب والجوف ؛ وبنى مسجداً ببجّانة[٤] ، وشاور الفقهاء ، وعمل بقولهم ؛ وملك قرطبة ، ودخل قصرها ، يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، ودام سلطانُه عليها خمسة عشر شهراً ونصف شهر .

قال ابن عذارى ؛ وأما زُهير الفتى فامتدّت أطنابُ مملكته من ألمَرِيَّة إلى قرْطُبة ونواحيها ، وإلى بَيَّاسة[٥] ، وإلى الفَجِّ من أول طليطلة . وقالوا[٦] : قرّمابينه وبين باديس [فأرسل باديس][٧] ؛ إلى زهير رسوله مكاتباً مسْتدعياً تجديد المحالفة[٨] ، فسارع زهير ،وأقبل نحوه ، وضيّع الحزم ، واغترَّ بالعُجْب ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ابن العباس وهو تحريف . وابن عباس هو أحمد بن عباس ابن زكريا الأنصارى وزير خيران العامرى . وقد سبقت ترجمته (ص ٢٥٩ – ٢٦٢) .

(٢) أغفلت هذه الكلمة فى « ك » .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » بالمرية .

(٤) وردت فى « ج » مجاية وهو تحريف . وبجانة وبالإسبانية Pechina بلدة صغيرة تقع شمال شرق ألمرية .

(٥) وردت فى المخطوطين : بيانه . والتصويب من «البيان المغرب» . والواقع أن بيانه كانت داخل المملكة الإسلامية جنوبى قرطبة والاستيلاء عليها لا يعتبر توسعاً ذو شأن . أما بياسة (وبالإسبانية Baeza) فقد كانت فى الشمال ، فى أطراف المملكة الإسلامية .

(٦) ما سيلى من كلام ابن حيان فى « المقتبس » نقله ابن بسام فى « الذخيرة » . وقد رجعنا فى تحقيق بعض ما ورد فيه إلى الذخيرة (القسم الثانى من المجلد الأول ص ١٦٦ وما بعدها) .

(٧) أغفلت هذه العبارة فى المخطوطين : ونقلناها عن الذخيرة .

(٨) فى المخطوطين : المخالفة . والتصويب من الذخيرة .

ووثق بالكثرة ، أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى عامل من عُمّاله ، قد ترك رسم الالتقاء بالنُّظراء وغير ذلك من وجوه الحزم ، وأعرض عن ذلك كله ؛ وأقبل ضارباً بسوطه[1] ، حتى تجاوز الحدّ الذى جرت العادة بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه ، وصيّر الأوعار والمضايق خَلْف ظهره ، فلا يفكر فيها ، واقتحم البلد ، حتى صار[2] إلى باب غرناطة . ولما وصل خرج باديس فى جَمْعه ، وقد أنكر اقتحامه عليه ، وعدّه حاصلاً فى قَبْضته ؛ [فبدأه بالجميل][3] والتّكريم ، وأوسع عليه وعلى رجاله فى العطاء والقِرى ، والتعظيم بما مكّن اغترارهم ، وثبّت طُمأنينتهم ؛ ووقعت المناظرة بين زهير وباديس ، ومن حضرهما من رجال دولتهما ، فنشأ بينهما عارض الخلاف[4] لأول وهلة ، وحمل زهير أمره على التّشطُّط ؛ فعزم باديس على اللقاء ووافقه عليه قوم من خُدّامه ، فأقام المراتب ، و نصب الكتائب ، وقطع قنطرة لا محيد عنها لزُهير ، والحائن[5] لا يشعر ، وغاداه عن تعبية مُحكمة ، فلم يرُعه إلا رجة[6] القوم راجعين ، فدهش زُهير وأصحابه ، إلا أنه أحسن تدبير الثبات لواستتمه ؛ وقام فنصب الحرب ، وثبت فى قلب العسكر ، وقدم خليفته هُذيلا فى وجوه أصحابه إلى الموالى ، فلما رأتهم[7] صنهاجة ، علموا أنهم الحُماة والشّوكة ، ومتى حُصِدوا[8] لم يثْبت مَنْ وراءهم ، فاختلطوا بهم ، واشتد القتال ، فحكم الله لأقلّ الطائفتين من صنهاجة ليُرى قدْرَته ، فانهزم زهير وأصحابه وتقطّعوا ،

---

(١) هكذا فى الذخيرة . وفى المخطوطين : سوطه .

(٢) فى المخطوطين : طار .

(٣) وردت هذه العبارة محرفة فى المخطوطين : (فبدا له بالجيل . فبدا له بالحيل) . والتصويب من الذخيرة .

(٤) ساقطة فى «ك» . وواردة فى الملكية (خلاف) .

(٥) هكذا فى الذخيرة . وفى المخطوطين ، وفى البيان المغرب : الخائن .

(٦) فى المخطوطين : وجوه . والتصويب من البيان المغرب .

(٧) وردت فى المخطوطين رأوهم . والتصويب أنسب .

(٨) فى المخطوطين : حضروا . والتصويب من الذخيرة .

وعمل السيف فيهم فمزّقوا ، وقتل زهير ، وجُهل مصرعه، وغنم[١] رجال باديس من المال والمرافق والأسلحة والحِلية والعُدّة والغلمان والخيام ، مالا يُحاط بوصفه . وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال ، سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية ألفُنْت[٢] خارج غرناطة .

طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسى
وأخواه أبو بكر وأبو الحسن بنو القبطرنة[٣]

يكنى أبا محمد .

حالهم

كانوا عيوناً من عُيُون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف ، والسّرو[٤] والجلالة . وقال أبو الحسن بن بسّام وقد ذكر أبا بكر منهم ؛ فقال ، أحد فرسان الكلام ، وحَمَلة السيوف والأقلام ، من أسرة أصالة ، وبيت جلالة ؛ أخذوا العلم أولا عن آخر، وورثوه كابراً عن كابر ؛ ثلاثة[٥] كهقْعة الجَوْزاء[٦] ، وإن أربوا

(١) وردت فى المخطوطين : وختم .

(٢) ألفنت . وبالإسبانية Daifontes . بلدة صغيرة تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمالى غرناطة .

(٣) وفى هامش « ج » : (الوزراء بنو القبطرنة) . وقد وردت التسمية فى « قلائد العقيان » (بنو القبطرنية) . ووردت فى كتاب المغرب لابن سعيد (ح ١ ص ٣٦٧) : (بنوالقبطورنة) . وواضح أن هذه التسمية ليست عربية . والراجح فى شأنها أنها ترجع إلى أصل إسبانى ، وأن أصحابها هم على الأغلب من الأندلسيين المولدين .

(٤) وردت فى « ج » . والملكية (والسر) وفى « ك » : والسرور .

(٥) فى « ك » : كلاثمة .

(٦) ثلاثة كهقعة الجوزاء . أعنى ثلاثة نجوم فوق منكب الجوزاء ، وهى الشاة التى يشق البياض ظهرها .

عن الشهر فى السنا والسناء . كتب أبو محمد عبد العزيز وأخواه عن ملك لمتُونة، ودخلوا معه غرناطة . ذكر ذلك غير واحد . واجتزأت[١] بذكر أبى محمد ، وأتبعه أخويه اختصاراً .

شعره

من شعر أبى محمد ، قوله فى الاستدعاء :

هلم إلى رَوْضنا[٢] يا زُهـــيرُ ولُحْ فى سماء المُنَى يا قمر
وفوِّق إلى الأُنس سَهْمَ الإخا ء فقد عُطِّلت قوسُه والوتر
إذا لم تكن عندنا حاضراً فما بغصون الأمانى ثمر
وقعتَ من القلب وقْعَ المنى وحُزْتَ من العين حُسْنَ الحَوَر

قال أبو نصر[٣] ؛ بات مع أخويه فى أيام صباه، واستطابة جنوب الشَّباب[٤] وصَباه، بالمُنية المسماة بالبديع؛ وهو روض كان المتوكل يَـكْلف بموافاته ، ويبتهج بحسن صفاته ، ويقطف رَيحانه وزهره ، ويقف عليه إغفاءه وسهره ، ويستفزُّه الطرب متى ذكره ، وينتهز فرص الأنس فيه روحاته وبُكَره ، ويدير حمياه على ضفة نهره[٥] ، ويخلع سرَّه فيه لطاعة جَهْره ، ومعه أخواه ؛ فطاردوا اللذات حتى أنضَوها[٦] ؛ ولبسوا بُرُود السرور فما نَضَوها ؛ حتى صرعتهم العقار ،

(١) فى «ج» : وفى «ك» : واجتزت . وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين : أرضنا . والتصويب من « قلائد العقيان » .
(٣) هو أبو نصر الفتح بن خاقان مؤلف « قلائد العقيان » .
(٤) فى المخطوطين والملكية . الشمال . والتصويب من القلائد .
(٥) هكذا فى «ج» وفى القلائد . وفى «ك» : قصره .
(٦) هكذا فى «ج» والقلائد والملكية : وفى «ك» (قضوها) .

وطلحتهم[١] تلك الأوقار ؛ فلما همَّ رداء الفجر أن يَنْدى ، وجبين الصبح أن يَبْتَدى ، قام الوزير أبو محمد فقال :

يا شقيقيَّ وافى الصَّباح بوجهٍ ستَرَ الليلَ نورُه وبهاؤه
فاصطبح واغتنم مَسَرَّةَ يومٍ لَستَ تَدْرى بما يجىء مساؤه

ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال :

يا أخى قم ترَ النَّسيم عليلا باكرَ الرَّوضَ والمُدَام شَمُولا
[فى رياض تعانقَ الزهرُ فيها مثلُ ما عانق الخليلُ خليلا][٢]
لا تنم واغتــنم مَسرَّةَ يوم إنَّ تحتَ التُّراب نوماً طويلا

ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن [وقد ذهب من عقله الوسن][٣] ، فقال :

يا صاحبيَّ ذَرَا لَوْمى ومعْتَبَتى قم نصطبح قهوة[٤] من خيرما ذخروا
وبادرا غفْــلَةَ الأيَّام واغتنما فاليوم خمرٌ و يبدو فى غد خبرُ[٥]

وقال أبو بكر فى بقرة أخذها له الرنق[٦] صاحب قُلُمُورية[٧] ، وقد أعاد أرضه :

وأفقدنيها الرنق أمًّا حَفِيَّة إذا هى حَفَّت ألفت بين وفدين

---

(١) هكذا فى « ك » ، والقلائد . وفى « ج » : طرحتم .
(٢) هذا البيت ساقط فى المخطوطين والملكية . ونقلناه عن « القلائد » .
(٣) ما بين الحاصرتين من القلائد .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : نهوة . والمقصود بالقهوة هنا معناها القديم وهو الخمر .
(٥) هكذا وردت هذه الشطرة فى « ج » والقلائد . ووردت فى « ك » كما يلى : (فاليوم خمر وليل وفى غد خبر) .
(٦) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : (الرتو) وهو تحريف لكلمة (ابن الرنق) ، (أو ابن الريق) وهو الاسم الذى تطلقه الرواية الإسلامية على ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال (١١٢٨ – ١١٨٥ م) وصاحب مدينة قلمرية التى كانت يومئذ عاصمة للبرتغال . وقد عاش أبو بكر فى هذا العصر وتوفى بعد سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) فى عهد الملك المشار إليه .
(٧) هكذا رسمت فى المخطوطين ، والرسم الأصح : قلمرية . وهى مدينة أندلسية قديمة تقع فى شمالى البرتغال . وبالإفرنجية Coimbra .

تعنفنى أمِّى على أنْ رثَيْتُهَا وأن أتبعتُهَــا الدَّم من عين
لهـا الفَضْلُ عندى أرْضَعتنى [وبالرغم مابلّغتنى وأمى حولين][١]

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر

الرئيس المتوثّب على المُلْك ، وحِيُّ كرسى الإمارة ، وعاقدُ صفقة الخُسْران المُبين ، يكنى أبا عبد الله .

أوَّليَّته ، معروفة .

حــــاله

« من نُفاضة الجِراب » وغيره ؛ كان شيطاناً ، ذميم الخُلُق ، حَرْفوشاً ، على عُرْف المشارقة ، مُتراميا للخسائس ، مَأْلَفاً للدّعرة والأجلاف والسوّار[٢] وأولى الريب ، خبيثاً كثير النُّكر ، منغمساً فى العِهْن ، كَلِفاً بالأحداث ، مُتقلباً عليهم فى الطرق ، خليع الرَّسَن ، ساقط الحشمة ، كثير التَبَذُّل ، [قوّاد عُصْبَة كِلاب][٣] ، معالجاً لأمراضها ، مباشراً للصَّيد بها ، راجلًا فى ثياب مُنْتاب الشعر من الجلود والسوابل والأسمال ؛ عقَد له السلطان على بنته لوقوع القحط فى رجال بيتهم ، ونوّهه[٤] بالولاية ، وأركبه ، وأغضى له عن مُوبِقات تَقصُر به ، إلى أن هلك ؛ وحاد الأمر عن شقيق زوجه ، واستقرّ فى أخيه ، وثَقُل على الدولة ،

---

(١) هكذا رسمت فى المخطوطين : وتوجد نصوص أخرى .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : السرار . والسوار أى الناقمون .

(٣) فى المخطوطين والملكية : (قواداً عصبة كلاباً) . وهو تحريف .

(٤) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : وتوجهه .

لـكراهة طلعته ، وسوء الأحدوثة به ، فأمر بترك المباشرة ، والدخول للقلعة[١] ، وأذن له فى التصرف فى البلد والفَحْص ، وأُبقيت عليه النعمة ؛ فداخل أم زوجه ، وضمن لها تمام الأمر لولدها ، وأمدَّته[٢] بالمال ، فنظر من المساعير شيعةً ، من كَثَرة الأغلاق ، وقَتَلَة الزقاق ، ومختلسى البضائع ، ومُخِيفى السَّابلة ، واستضاف[٣] من أسافلة الدولة ، من آسَفَتْه بإقصار قصد ، أو مَطْل وعد ، أو حَطٍّ رُتْبَة ، أو عَزل عن ولاية ، فاستظهر منهم بعدد ولا ، كالشَّقى الدَّليل المَوْرُورى ، الغريب الطَّور ، وإبراهيم بن أبى الفتح المنبوذ بالإصْليع ، قريع الجهل ، ومستور العظيمة ، وارتادوا عَوْرة القلعة فاهتدوا منها إلى ماشاءوا وتألفوا[٤] بخارج ؛ ثم تسلَّلوا ببطن الوادى المعروف « بهَدَارُه »[٥] ، إلى أن لَصِقوا بجناح السُّور الصَّاعد ، الراكبة قومُه جَرْية النهر ، وصعدوا مُساوقين جناحه المتَّصل بسور القلعة ، وقد نقص كثير من ارتفاعه ، لحِدْثان إصلاح فيه ، فتسوَّروه عن سُلَّم ، ودافع بعض محاربيهم بعضاً ، فى استباق أُدراجه ، فدخلوا البلد فى الثُّلْث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان ، [عام ستين وسبعمائة][٦] ثم استغلظوا بالمشاعل[٧] ، وقتلوا نائب الملك رضواناً النَّصرى ، سايس الأمر ، وبقيَّة المَشْيخة ، واستخرجوا السلطان الذى هو يزيفه[٨] ، فنَصبوه للناس ، وتم الأمر ،

---

(١) هكذا فى « ج » وفى « ك » والملكية .

(٢) فى المخطوطين : وأمرته . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى الملكية : واستظهر .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وتابعوا .

(٥) هداره أو حداره ، وبالإسبانية El Darro هو اسم النهر الذى يخترق غرناطة ، وهو فرع صغير من نهر شنيل .

(٦) هذه الزيادة من اللمحة البدرية .

(٧) فى المخطوطين : بالمشاغيل . والتصويب من اللمحة .

هذا وقد وردت فى « ك » وفى « ج » بعد كلمة المشاغيل هذه العبارة (واسموا الناس ومور) ولم نوفق إلى تصويبها أو استقرائها فتركناها . وهى بالفعل ساقطة فى الملكية .

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : يفه .

بما دلّ على احتقار الدنيا عند الله ؛ وانخرط هذا الخَبّ(١) فى طور غريب من التنزّل للسلطان ، والاستخدام لأمه ، والتهالُك فى نُصحه ، وخلط نفسه فيه ، وتبذل فى خدمته ؛ يتولى له الأمور ، ويمشى فى زىّ الأشراط بين يديه ، ويتأتى لشهواته ، ويتظاهر بحراسته . ولما علم أن الأمر يشُق تصيُّره إليه من غير واسطة ، بغير انقياد الناس إليه ، من غير [تَدْريج كاده](٢) ، فألطف الحيلة فى مساعدته على اللذّات ، وإغرائه بالخبائث ، وشغْله بالعَهَر ، وقَتْله بالشّهوات المنحرفة ، وجعل يتبرأ من دَنّيته وينفق بين الناس من سلع اغتيابه ، ويرى الجماهير الإنكار لصَنيعه ، ويزين لهم الاستعاضة منه بعد ما غَلُظَت(٣) شوكته ، وضمّ الرجال إلى نفسه مُورياً بحفظِه ، والاستظهار على صَوْنه . وفى الرابع من شعبان [عام] أحد وستين وسبعماية ، ثار به فى محل سكناه فى جواره ، واستجاش أولياء غدره ؛ وكبس منزله ، مداخلا للوزير المشئوم ، عاقداً معه صفقة الغدر . وامتنع السلطان بالبُرْج الأعظم ، فاستنزله وقتله ، كما مر فى اسم المذكور قبل ، واستولى على المُلْك ، فلم يختلف عليه اثنان . واشتغل طاغية الروم بحرب ، كان بينه وبين القطالنيّين(٤) . فمالأ لمسالمته ، فاغتبط الصنيع وتهنّا المنحة ؛ وتشطط على الروم فى شروط غير معتادة ، سامحوه بها مكيدةً واستدراجاً ، واجتاز أميرُ المسلمين المصابُ بغدره إلى الأندلس ، طالباً لحقّه ، ومبادراً إلى ردّ أمره ، فسُقِط فى يده ، ووجّه الجيش إليه بمثواه من بلد رُنْدَة ، فانصرف عنها خائباً ، ورجع أدراجه ، يشُكّ فى النجاة ، وتفرغ إليه الطاغية ، [ففضّ عليه جَمّه](٥) ؛ وقد أجرت عليه شوكته وقيعةً ، نصر الله

---

(١) فى المخطوطين : الحب .

(٢) وردت هذه العبارة فى المخطوطين والملكية ، وفيها بعض الغموض . وكاده من الكده وهو الغلبة ، وقد تعنى الإخضاع القهرى .

(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ح » : غلظ .

(٤) أعنى القطلان سكان قطلونية .

(٥) هذا ما أثبته « ك » . وفى « ج » والملكية : (ففغر عليه فه) . والمؤدى واحد .

فيها الدّين ، وأملى لهذا الوغد[1] ، فلم يُقْله[2] العَثْرة بعدها ، ونازل حصونه المهْتضمة ، واستولى على كثير منها ، وحام فلم يُصْحر غَلْوة ، وأكذب ماموّه به من البسالة ، وظهر[3] للناس بلبس الصوف ، وأظهر التّوبة على سريرة دَخِلة ، وفسق مبين ؛ وقل ما بيده ، ونفد بيت ماله ، فلم يجد شيئاً يرجع إليه ، من بعد ما سبك الآنية والحلْية ، وباع العقار لتبذيره ، وسَحّه المال سحًّا ، فى أبواب الأراجيف والاختلاف ، والبهج بالغنا ، فشرف الإنقاب إلى الفرار ، وأزمع إلى الانسلال . وعندما تحرك السلطان إلى غربى مالقة ، ونجَعَ أهلها بطاعته ودخلوا فى أمره ، وسقط عليه الخبر ، اشتمل على الذخيرة جمعاء ، وهى التى لم تشتمل خزائن الملوك مطلقاً على مثلها ، من الأحجار واللؤلؤ والقَصَب ، والتفّ عليه الجمع المستميت ، جمعُ الضلال ومَرَدُ الغىّ ، وخرج عن المدينة ليلة الأربعاء السابع عشر من جمادى الآخرة ، وصوب وجهه إلى سلطان قَشْتالة ، مكْظومٌ تجنيه ، وموتُورٌ سوء جواره ، من غير عهد ، إلا ما أمل من التبقى عنده من التّذْميم به ، وضمان إتلاف الإسلام ، واستباحة البلاد والعباد بنُكْرته[4] .

ولما استقر لديه نزْله ، تقبَّض عليه ، وعلى شرذمته المُنيفة على ثلاثمائة فارس من البغاة[5] ، كشيخ جنده الغربى إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق ، ومن سواه ؛ تحصّل بسببهم بيد الطّاغية ، كلّ ما تسمو إليه الآمال ، من جواد فاره ، أو منْطقة ثقيلة ، وسلاح مُحَلّى ، وجوْشَن رفيع ، ودِرْع حصينة ، وبُلْبُلة[6] منيعة ، وبيضة مذهبة ، وبِزَّة فاخرة ، وصامت عتيد ، وذخيرة

(١) فى المخطوطين : الوعد .
(٢) فى المخطوطين : يلقه : وهو تحريف .
(٣) فى المخطوطين : وطور .
(٤) وردت محرفة فى المخطوطين : (بكرته . فكرته) .
(٥) وردت فى المخطوطين : (البغاوة . البغارة) .
(٦) وردت فى المخطوطين : وبلبة .

شريفة ، فتنخَّل[١] منهم مُتولى التسوُّر ، فجعلهم أُسْوة رأسهم فى القتل ، خرَّ بعضهم يومئذ على بعض ، فى القتل ، وأخذتهم السيوف ، فخلَّوا بعد الشُّهرة ، والتمثيل فى أزقة المدينة ، وإشاعة النداء فى الجزيرة ، ثانى رجب من العام المؤرخ به ، وركب أسْوق سايرهم الأداهم ، واستَخْلَصهم الإسار ، وبادر بتوجيه رؤسهم ، فنَصُبت من فوق العَوْرة التى كان منها تسوُّرهم القلعة ، فمكثت بها إلى أن استُنْزِلت وووريت ؛ وانقضى أمرُه على هذه الوتيرة[٢] مشئوماً دَبيراً ، لم يُمتِّعه الله[٣] بالنعيم ، ولا هنَّأه سكنى المحل الكريم ، ولا سوَّغه راحة ، ولا ملأه مَوْهبة ، ولا أقام على فضله حجَّة ، ولا أعانه على زُلْفة . إنما كان رئيس السرَّاق وعريف الخراب ، وإمام الشُّرار ، نَدَر يوماً فى نفسه ، وقد رفعت إليه امرأة من البدو تدعى أنها سُرقت دارها ، قال : إن كان ليلا بعد ماسُدَّ باب الحمراء علىَّ وعلى ناسى ، فهى والله كاذبة ، إذ لم يبق سارق فى الدنيا ، أو فى البلاد[٤] ، إلا وقد تحصل خلفه ، وقانا الله المحن ، وثبَّتنا على مستقر الرُّشد ، ولا عاقنا عن جادة الاستقامة .

وزراء دولته

استوزر الوزير المشئوم مُمدَّه فى الغىِّ ، الوغد ، الجهول ، المرتاش من السرقة ، الحقود على عباد الله لغير علَّة عن سوء العاقبة ، المخالف فى الأدب سُنن الشريعة ، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة ، دودة القزِّ ، وبَغْل طاحونة الغدر ، وزقّ القَطْران[٥] ، محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى ؛ فانطلقت يدُه على الإبشار ،

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فتتخذ .
(٢) وردت فى المخطوطين : الوثيرة .
(٣) هذه الكلمة أغفلها « ك » .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » . البلد .
(٥) هكذا فى المخطوطين والملكية .

ولسانه على الأعراض ، وعينه على النظر الشَّزْر ، وصدره على التأوه والرّين ؛ يَلقى الرجل كأنه قاتل أبيه ، مُحدقاً إلى كفّيه ، يحتَرِسُ بهما خبيئة ، أو يظن بهما رشوة ؛ فأجاب الله دعاء[1] المضطَرين ، ورغبات السَّائلين ، وعاجله بالأخْذَة الرَّابية ، والبَطْشة القاضية ؛ فقبض عليه فى ليلة السبت العاشر لرمضان من العام المذكور ، وعلى ابن عمه العصرفوط[2] وعلى الخيرا من نواهض بيتهما[3] وأنفذ الأمر بتعريضهم[4] ، فمضى حكم الله بهذه المنيّة الفرعونية فيهم [لا تبديل لكلمات الله][5] ، قاهر الجبابرة ، وغالب الغلاب ، وجاعل العاقبة للمتقين .

واستوزر بعده ، أولى الناس وأنسبهم إلى دولته ، وأحقهم بمظاهرته ، المسوس الجبَّار اليأس والفطرة ، المختْبل الفكرة ، القِيل ، المُرَجَّس ، الحُول ، الشهير[6] ، الضَّجر ، محمد بن على بن مسعود ؛ فيما بُلِى الناس على طول الخُمرة ، وانفساح زمان التجربة ، أسوأ تدبيراً ، ولا أشرَّ معاملة ، ولا أبذأ لساناً ، ولا أكثر شكوى ومعاتبة ، ولا أشحَّ يداً ، ولا أجْدَب خِواناً ، من ذلك المشئوم ، [بنَعق البُوم][7] ، ينعُق بما لا يسمع ، ويسرد الأكاذيب ، ويسيء السَّمع ، فيسوء الإجابة ، ويقود الجيش فيعود بالخيبة ، إلى أن كان الفرار ، فصَحبه إلى مصرعه ؛ وكان ممن استؤثر به القيدُ الثقيل ، والأسر الشديد ، والعذاب الأليم ، عادة بذلك عبد « المالاخوينا »[8] ، التى كان يَحْجب سِمَتَها ، زمان ترفيهه ، فقضت عليه سيِّء المَيْتة ، مُطّرح الجثة. سترنا الله بستره ولا سَلَبنا فى الحياة ، ولا فى الممات ثوب عنايته .

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : دعوة .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » والملكية : العصربوط .

(٣) فى المخطوطين : بينهما .

(٤) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » بتفريطهم .

(٥) هكذا وردت فى « ج » والملكية . وفى « ك » (لا مبدل لكلمته) .

(٦) هذه الكلمة ساقطة فى « ج » .

(٧) ساقطة فى الملكية وردت فى المخطوطين : (ينعق اليوم) ، والمرجح ما أثبتناه .

(٨) هكذا فى المخطوطين والملكية . والظاهر أنه يعنى بذلك مرضاً نفسيا معينا .

كاتب سره

صاحبُنا الفقيه الأهْوَج ، قصب الريح ، وشجرة الخَوَر ، وصوت الصَّدى ، أبو محمد عبد الحق بن عَطية ، المستبد بتدبير الدَّبير ، خُطاً فوق الرِّقاع الجاهلة ، ومسارَّةً فى الخلوات الفاسقة ، وصَدْعاً فوق المنابر الكَئِيبة ، بحُلة لثٍّ الراية ، ويذُبُّ عنه ذبَّ الوالدة ، ينتهى فى الاعتذار عن هَناته إلى الغايات القاصرة .

قضاته

شيخنا أبو البركات ، قيسُ لَيْلى القضاء، المخدوعُ بزخرُف الدنيا على الكَبْرة والعناء ، لطف الله به ، وألهمه رشده .

شيخ الغزاة على عهده

إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق بن مَحْيو[1] ، بقية بيت الدَّبْرة ، ووشيجة الشجرة المجْتَثَّة ، عُذِّب فى الجُمْلة من أهل بيته عند القبض عليهم، واستقرَّ فى القبض الأشهب من قَبِيله بالمغرب ، مُطْلق الإقطاع ، مرموقاً بعين التجِلة ، مكنوفاً بشهرة الأب ، إلى أن سُعى به إلى السلطان ، نسيج وحده فارس بن على ، واستشعر البَثَّ فطار به الذُّعر لايلوى عِناناً ، حتى سقط بإفريقيَّة ، وعبر البحر إلى ملك بَرْجِلونة[2] ؛ ثم اتَّصل بالدولة النصرية ، بين إدالة الغدر[3] ، وإيالة الشر ، فقلَّده الدائلُ مشيخة الغُزاة ، ونوَّه به ، فاسترابَ مُعْزُله يحي بن عمر ، ففرَّ إلى

---

(١) وردت فى المخطوطين : فحو . وهو تحريف .

(٢) أعنى برشلونة . يريد ملك أراجون .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين : (العذر . العدد) .

أرض الروم حسبما يذكر فى اسمه ؛ فقام له بهذا الوظيف ، ظاهر الشهرة والأُبَّهة ، مخصوصاً منه بالتجلَّة ، إلى أن كان ما كان من إزمانه وفراره ؛ فوفَّى له وصَحِبه وكا به؛ وقاسمه المَنْسجة شقَّ الأبلة ، واستقرَّ بعد قتله أسيراً عانياً علق الدهر[(١)] ، لضنانة العدو بمثله ، إلى أن أفلت من دون الأغْلاق ، وشدِّ الوثاق ، ولحِق بالمسلمين فى خبر لم يشتمل كتابُ الفرَج بعد الشدَّة على مِثله ، والإغْراب منه ، يستقرُّ فى اسمه إلماعُ[(٢)] به ؛ ثم استقر بالمغرب مُعْتقلا ، ثم مات رحمه الله .

من كان على عهده من الملوك

وأولاً بمدينة فاس دار مُلْك المغرب ، السلطانُ ، الخيِّرُ ، الكريم الأبوَّة ، الودود قبل الولاية ، اللِّين العريكة ، الشهير الفضل فى الحياة ، آية الله فى إغراب الصُّنع ، وإغراب الإدبار[(٣)] ، أبو سالم إبراهيم بن على بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ، أمير المسلمين ، المترجم به فى حرف [الألف][(٤)] . ولما قُتل يوم الحادى والعشرين لذى قعدة من عام اثنين وستين ، قام بالأمر بعده أخوه المُتَحَيِّل أبو عامر تاشفين بن على إلى أواخر صفر عام ثلاثة وستين ؛ ولحق بالبلد الجديد ، الأميرُ أبو محمد زيان بن الأمير أبى عبد الرحمن بن على بن عثمان المترجم به فى بابه ، ثم المتولى من عام ثمانية وستين وسبعمائة السلطان أبو فارس[(٥)] عمُّه المؤمَّل لِلَمِّ الشَّعَث ، وضَمِّ النَّشْر ، وتجديد الأمر بحول الله ، ابن السلطان الكبير المُقَدَّس ، أبى الحسن بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق ، وهو بعد متَّصل الحال إلى اليوم .

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية . وفى « ك » . الذهن

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : الأمام .

(٣) هكذا فى المخطوطين .

(٤) مكانها بياض فى المخطوطين . وقد ترجم ابن الخطيب لهذا الأمير فيما تقدم فى حرف الألف . (ص ٣٠٢ – ٣١٠) .

(٥) هو الملك أبو فارس عبد العزيز المرينى . وقد حكم المغرب من سنة ٧٦٨ هـ إلى وفاته فى ربيع الثانى سنة ٧٧٤ هـ .

وبتلِمْسان الأمير أبو حَمّو ، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيي ابن يَغْمُراسن(١) بن زيان .

وبإفريقية الأمير الخليفة على عُرفهم ، إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي يحيي ابن حفص .

وبقَشتالة ، بِطره بن ألهنشة(٢) بن هراندة بن شانجه المصنوع له ، وليّ النعمة منه ، ومستوجبُ الشكر من المسلمين لأجله ، بإراحته منهم .

وبرَغُون ، بِطْرُه بن شانجه(٣) .

وبرُندة ، مزاحمه بالمُلك(٤) الفخم ، أمير المسلمين حقيقة ، المرتب الحق ، المعقود البَيْعة ، وصاحب الكرّة ، وولىّ حسن العاقبة ، مجتثّ شجرته الخبيثة ، وصارخُ إيالته الدّنيّة ، أبو عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج ، بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر .

مولده

مولد هذه النَّسَمة المشئومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة .

وفاته

توفى قتيلاً ممثلا به بطيلاطة(٥) ، من ظاهر إشبيلية ، فى ثانى من رجب عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وسيقَت رؤوس أشياعه(٦) ، الغادرين مع رأسه إلى الحَضْرة فصُلبت بها . وفى ذلك قلت :

---

(١) وردت محرفة فى المخطوصين : (بغراسان) .

(٢) هو بيدرو الثالث بن ألفونسو الحادى عشر . وقد حكم قشتالة من سنة ١٣٥٠ إلى سنة ١٣٦٨ م

(٣) هو بيدرو الرابع ملك أراجون وقد حكم من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٨٧ م .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » بالمنكب .

(٥) طيلاطة أو طلياطة هى بلدة أندلسية تقع على مقربة من جنوب غربى إشبيلية وجنوب شرق لبلة .

(٦) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : أتباعه .

في غير حِفظ الله من هامَةٍ هام بها الشَّيطان في كل واد
لا خلَّفَتْ ذكراً ولا رَحْمَةً في فَم إنسانٍ ولا في فؤاد

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد ابن أحمد بن خميس بن نصر الخَزْرَجي

أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه رحمه الله .

أوَّليَّتــه

معروفة .

حــاله

كان معدوداً في نُبَلاء الملوك ، صيانة ، وعِزًّا وشهامة ، وجمالاً ، وخَصْلاً ؛ عَذْب الشمائل، حُلْوًا لبِقاً ، لَوْذَعِيًّا هشًّا ، سخيًّا ، المثلَ المضروب به في الشجاعة المقتَحِمة حدَّ التهور(١) ، جِلْسَ(٢) ظهور الخيل ، وأفرسَ من جال على ظهورها(٣) ، لا تقع العين ، وإن غُصَّت الميادين على أدْرَب بركض الجياد منه ، مغرماً بالصَّيد ، عارفاً بِسمات السُّقار(٤) وشِيَات الخيل ؛ يحب الأدب ، ويرتاح إلى الشعر وينبِّه على العُيون ، ويلِمُّ بالنادرة الحارّة . أخذت له البيعة يوم مهلك أبيه ، وهو يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، وناله الحَجْب ، واشتملت

(١) في المخطوطين : الهور .
(٢) هكذا في «ك» . وفي «ج» ، جلس . وكلتاهما صالحة للمعنى المقصود .
(٣) في المخطوطين : ظهوره .
(٤) السقار أي الصقورة .

عليه الكفالة إلى أن شبّ وظهر ، وفتك بوزيره ، المتغلب على ملكه ، وهو غلام لم يَبْقِل خَدُّه ، فهيب شأنُه[١] ، ورُهبت سطوته ، وبرز لمباشرة الميادين، وارتياد المطارد ، واجتلاء الوجوه[٢] ، فكان ملء العيون والصدور .

ذكاؤه

حدّثني القائد أبو القاسم بن الوزير عبد الله بن عيسى وزير جدّه ، قال ؛ تُذُوكر يوماً بحضرته تباينُ قول المتنبي :

ألا خَدَّد[٣] الله وَرْد الخدود ... وقد قُدُودَ الحسان القُدود[٤]

وقول امرئ القيس :

وإن كنتِ قد سَاءتْكِ مني خَلِيقة ... فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسُلِ

وقول إبراهيم بن سَهل :

أَنَّي له من دَمِي المَسْفُوك مُعْتَذراً ... أقولُ حَمّلْتُه في سفكه تعَبا

فقال رحمه الله ، بديهةً : بينهما مابين نَفْس مَلِكٍ عربي وشاعِر ، ونَفْسٍ يهودي تحت الذمّة ، وإنما تتنفّس بقَدْر همّتها ، أو كلاماً هذا معناه . ولما نازل مدينة قَبْرَة[٥] ودخل جَفْنَها عَنْوَة ، ونال قصبتها ، ورماها بالنَّفْط ، وتغلّب عليها ، وهي ما هي عند المسلمين ، وعند النصارى ، من الشهرة والجلالة ، بادرناه نُهنيه بما نُسق له ، فزَوَى وجهه عنا ، وقال ، ماذا تهنونني[٦] به ، كأنكم رأيتم تلك الخِرْقة

(١) وردت محرفة في المخطوطين : شاه .

(٢) هكذا في « ج » . وفي « ك » : الوجدة .

(٣) وفي نص (أياخدد) .

(٤) هكذا في « ج » . وفي « ك » القدور .

(٥) سبق التعريف بها (انظر الحاشية في ص ١١١) .

(٦) وردت محرفة في المخطوطين : هونني . تهمونني .

بكذا يعنى العلَم الكبير فى منار إشبيلية(١)، فعجبنا من بُعد همّته، ومرمى عزمه.

شجاعته

أقسم أن يغير على باب مدينة بيّانَة(٢) فى عدّة قليلة عيّنها المَيْمنُ، فوقع البَهْت وتوقّعت النافِرةُ، لقرب الصَّريخ، ومَنَعة الحَوْزة، وكثرة الحامية، واتصال(٣) تُخوم البلاد، ووفور الفرسان بذلك الصُّقْع، وتنخّل أهل الحفاظ، وهجم على باب الكفار نهاراً، وانتهى إلى باب المدينة، وقد برزت الحامية، وتوقع فرسان الرُّوم الكُمَناء، فأقْصَرُوا عن الإحصار، وحَمِى المسلمون فشُدَّ عليهم، فأعطوهم الضُّمّة ودخلوا أمامهم المدينة؛ ورمى السلطان أحد الرجال النّاشبة بمزراق كان بيده مُحَلى السنان رفيع القيمة، وتحامل يريد الباب فمنع الإجهاز عليه، وانتزاع الرُّمح الذى كان يجرُّه خلفه، وقال اتركوه يُعالج به رُمْحَه أن كان أخطأته المنِيَّة، وقد أفلت من أُنْشُوطة خطر عظيم.

جهـاده ومناقبه

كان له وقائع فى الكفار، على قلة أيامه، وتحرك ونال البلاد، وفتح قَبْرة، ومُقَدّم جيش العدو الذى بَيَّت بظاهرها وأثخن فيه، وفتح الله على يده مدينة

---

(١) المقصود به منار جامع إشبيلية الأعظم الذى شيده الخليفة يعقوب المنصور الموحدى. وقد حول أعلاه فيما بعد إلى برج الأجراس لكنسية إشبيلية العظمى. وما يزال قائماً حتى اليوم ويعرف باسم «الخيرالدا» La Giralda وهو من أجل الآثار الأندلسية.

(٢) بيانة سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ٢٠٣).

(٣) فى المخطوطين: واتصل.

باغوة(١) ، وتغلب المسلمون على حصن قَشْتالة ، ونازل حصن قَشْرة(٢) بنفسه لدى قُرْطبة ، فكاد أن يتغلب عليه ، لولا مددٌ اتّصل للنصارى به . وأعظم مناقبه تخليص جَبَل الفَتْح(٣) ، وقد أخذ الطاغيةُ بكَظَمه ، ونازله على قرب العهد من تملك المسلمين إياه ، وناخ بكَلْكله ، وهدّ بالمجانيق أسواره ، فدارى(٤) الطّاغية ، واستَنْزل عزمَه وتَحَنّه ، ولحق فى موضع اختلاله ، إلى أن صرفه عنه ، وعقد له له صلحاً ، ففازت به قِداح الإسلام ، وتخَلّصه من بين ناب العدو وظُفْره ؛ فكان الفتح عظيما لا كُفاء له .

بعض الأحداث فى دولته

وفى شهر المحرم من عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، نشأت بين المتغلّب على دولته ، وزيره ، وبين شيخ الغزاة وأمير القبائل العُدْوية(٥) ، عثمان بن أبى العلاء ، الوَحْشة وألقحت ريحها السعايات ، فصبّت على المسلمين شؤبوب فتنة عظُم فيهم أثرها معاطباً ، وسمُّ الانصراف عن الأندلس ، فلحق بساحل المريّة ، وأحْوَزته المذاهب ، وتحامت جواره الملوك ، فداخل أهل حصن أنْدَرَش(٦) ، فدخل فى طاعته ؛ ثم استضاف إليه مايجاوره ، فأعضل الداء(٧) ، وتفاقمت اللأْواء(٨) ، وغامت سماء الفتنة ، واستنفد(٩)

---

(١) هكذا وردت فى المخطوطين . ونرجح أنها مدينة باغة Priego التى سبق التعريف بها ، وهى قريبة من قبرة .

(٢) حصن قشرة ونرجح أنه حصن Castro الواقع بين بيانة وقبرة .

(٣) أعنى جبل طارق .

(٤) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : فدار .

(٥) أعنى القبائل المغربية .

(٦) سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ١٥٨) .

(٧) وردت فى المخطوطين : الدواء . وهو تحريف .

(٨) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : الألواء . واللأْواء أعنى الشدة .

(٩) هكذا فى « ك » . وفى « ج » والملكية : واستفز .

خزائن الأموال المستعدة لدفاع العدو ، واستلحق الشيخ أبو سعيد عم السلطان ، وقد استقر بتلمسان، فلحق به ، وقام بدعوته فى أخريات صفر عام سبعة وعشرين وسبعمائة ؛ واغتنم الطاغية فتنة المسلمين فنزل ثغر بيرة[1] ، وكاب الجهاد ، وشجى العدو ، فتغلب عليه ، واستولى على جملة من الحصون التى تجاوره ، فاتسع نطاق الخوف ، وأعي داء الشر ، وصرف إلى [نظر][2] ملك المغرب ، فى أخريات العام ، رُندة ومَرْبلّة[3] وما يليهما[4] ، وترددت الرسائل بين السلطان وبين شيخ الغزاة ، فأجلت الحال عن مهادنة ، ومُعاودة للطاعة ، فصرف أميرهم أدراجه إلى العُدوة ، وانتقلوا إلى سكنى وادى آش على رَسْم الخدمة والحماية على على شروط مقررة[5] ، وأوقع السلطان بوزيره ، وأعاد الشيخ إلى محلّه من حَضْرته ؛ أوائل عام ثمانية وعشرين بعده ، واستقدم القائد الحاجب أبا النعيم رضوان من أعاصم حباليه[6] قتيله ، فقام بأمره أحسن قيام . وعبر البحر بنفسه بعد استقرار ملكه فى الرابع والعشرين من شهر ذى حجة من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ، فاجتمع مع ملك المغرب السلطان الكبير أبى الحسن بن عثمان ، فأكرم نزله ، وأصحبه إلى الأندلس ، وحباه بما لم يُحب به ملك تقدّمه ، من مقرَبيّات الخيل ، وخطير الذخيرة ، ومستجاد العُدّة ؛ ونزل الجيش على أثره جبل الفتح ؛ وتوجه الحاجب أبو النعيم بأكبر إخوة السلطان ، مُظاهراً على سبيل

---

(١) وردت فى المخطوطين : ويده – ويره . ويلوح لنا أن المقصود هنا هو ثغر بيرة Vera الواقع شمال شرقى ألمرية على مقربة من البحر الأبيض المتوسط ، وكان يومئذ أقصى ثغور الأندلس الشرقية (أنظر الحاشية فى ص ١٠٩) .

(٢) هذه الكلمة الزائدة من اللمحة البدرية .

(٣) رندة من أهم وأمنع قواعد الأندلس القديمة . وتقع غربى مالقة . وقد لعبت أدوارا هامة فى تاريخ مملكة غرناطة . ومربلة سبق التعريف بها (أنظر الحاشية فى ص ١٩٧) .

(٤) هكذا فى « ك » . ووردت محرفة فى « ج » : وما آل إليها .

(٥) هذه الكلمة ساقطة فى « ك » .

(٦) هكذا وردت فى المخطوطين .

النيابة ، وهيّأ[1] الله فتحه . ثم استنقاذه[2] بلحاق السلطان ، ومحاولة أمره كما تقدم، فتمّ ذلك يوم الثلاثاء الثانى عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة .

وزراء دولته

وزَرَ له وزير أبيه ، وأخذ له البيعة ، وهو مُثخن[3] بالجراحات ، التى أصابته يوم الفَتْك بأبيه السلطان أبى الوليد ، ولم ينشب[4] أن أجهز جُرْح تجاوز عَظْم الدماغ ، بعد مُصابرة ألم العلاج الشديد ، حسبما يأتى فى اسمه ؛ وهو أبو الحسن على بن مسعود بن يحيى بن مسعود المحاربى ؛ وترقى إلى الوزارة والحجابة وكيل أبيه محمد بن أحمد المحروق ؛ من أهل غرناطة ؛ يوم الإثنين غرة شهر رمضان من عام خمسة وعشرين وسبعمائة ؛ ويأتى التعريف بهم . ثم اغتيل بأمره ، عشىّ ثانى يوم من محرم فاتح تسعة وعشرين وسبعمائة . ثم وزر له ؛ القائد أبو عبد الله بن القائد أبى بكر عتيق بن يحيى بن المَوْل من وجوه الدولة ؛ وصدور من يَمُتّ بوصْلِه ؛ إلى السابع عشر من رجب من العام ؛ ثم صُرف إلى العُدْوة ؛ وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة ، أبو النعيم مولى أبيه ، إلى آخر مدته ، بعد أن التأث[5] أمرُه لديه ، وزاحمه بأحد المماليك المسمى بعصام حسبما يأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله.

رئيس كتابه

كتب له كاتب أبيه قبله ، وأخيه بعده ، شيخُنا نسيجُ وحده ، أبو الحسن على بن الجَيّاب الآتى ذكره فى موضعه إن شاء الله .

---

(١) فى المخطوطين والملكية : هنا . وهو تحريف .

(٢) فى المخطوطين والملكية : استقاده .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ثخن .

(٤) فى المخطوطين : يتشبث . والتصويب من اللمحة البدرية .

(٥) أى التبس .

قضاته

استمرت الأحكام لقاضي أبيه ، أخي وزيره ، الشيخ الفقيه أبي بكر بن مسعود رحمه الله إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة ، ووجّهه رسولاً عنه إلى ملك المغرب، فأدركته وفاته بمدينة سَلا ، فدفن بمقبرة سلا . رأيت قبرَه بها رحمه الله . وتخلّف ابنه أبا يحيي مسعود عام أحد وثلاثين وسبعمائة ؛ وتولى الأحكام الشرعية القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيي بن بكر الأشعرى ، خاتمة الفقهاء ، وصدر العلماء ، رحمه الله ، فاستمرت [له](١) الأحكام إلى تمام مدة أخيه بعده .

أمـــه

رومية اسمها « عَلْوَة » ، وكانت أحظى لدّاتها(٢) عند أبيه ، وأمّ بِكره ، إلى أن نَزَع عنها في أخريات أمره ، لأمر جرّته الدّالّة ، وتأخرت وفاتها عنه إلى مدة أخيه .

من كان على عهده من الملوك بأقطار المسلمين والنصارى

فبفاس ، السلطان الكبير ، الشهير ، الجواد ، خِدْنُ(٣) العافية ، وحِلْفُ السعادة ، وبحر الجود ، وهَضْبة الحلم ، أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى بذل(٤) المعروف ، وقرّب الصلحاء والعلماء ، وأدنى مكانهم ، وأعمل

---

(١) الزيادة من الملكية .

(٢) وردت في المخطوطين : لذاتها .

(٣) هكذا في « ج » والملكية . وفي « ك » : حون . وهو تحريف .

(٤) هكذا في « ك » . وفي « ج » . بدا .

إشارتهم ، وأوْسَع بأعطيته المؤمنين المُستَرْفِدين ،وعظُم قدره ، واشتهر فى الأقطار صيته ، وفشا معروفه ، وعرُفت بالكف عن الدماء والحرمات عفّته ، إلى أن توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة عام أحد وثلاثين وسبعمائة ؛ ثم صار الأمر إلى ولده السلطان ، مُقتفى سُنَنه فى الفضل والمجد ، وضخامة السلطان ، مبرّاً عليه ، بالبأس المرهوب ، والعزم الغالب ، والجدّ الذى لا يشوبه هزل ، والاجتهاد الذى لا يتخلله راحة ؛ الذى بَعُد مداه ، وأذعن لصولته عُداه ، واتصلت [ولايته](1) مدته ، ومعظم مدة أخيه الوالى بعده .

وبتِلِمْسان الأمير عبد الرحمن بن موسى بن يَغْمُراسِن ، من بنى عبد الواد ، مُشَيِّد القصور ، ومُرَوِّض الغروس(2) ، ومُتبنِّك(3) الترف ، واتّصل إلى تمام مدته ، وصدرا من مدة أخيه بعده .

وبتونس الأمير أبو يحيى ، أبو بكر بن الأمير أبى زكريا بن الأمير أبى اسحاق لَبِنة تمام قومه ، وصَقْرُ الجوارح من عُشِّه ، وسابق الجياد من حَلْبته ، إلى تمام المدة ، وصدراً كبيراً من دولة أخيه بعده .

ومن ملوك النصارى ، ملك على عهده الجفْرتين(4) القنيطية والتاكرونية(5) ، الطاغية المرهوب الشّبا ، المسلط على دين الهدى ، ألهنشة(6) بن هِراندة بن شانجه بن ألفُنْش بن هراندة ، الذى احتوى على كثير من بلاد المسلمين حتى الجفرتين(7)

---

(١) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٢) فى المخطوطين : العروس .

(٣) فى المخطوطين : متبك . وهو تحريف . والتصويب من اللمحة . وتبنك أى أقام فى ظله .

(٤) هكذا وردت فى « ك » . وفى « ج » الخفرتين .

(٥) وردت فى المخطوطين والملكية : التاركونيه . وهو فيما يبدو تحريف لكلمة : التاكرونية .

(٦) هو ألفونسو الحادى عشر ملك قشتالة الذى حكم من سنة ١٣١٢ إلى سنة ١٣٥٠ م .

(٧) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : الخفرتين . ويلوح لنا أن المقصود هنا هو افتتاح النصارى لثغرى الجزيرة الخضراء وطريف . وهما المتقابلان للمثلث الإسبانى . والجفر صفة لما اتسع جنباه .

واتصلت أيامه إلى أُخريات أيام أخيه ، وأوقع بالمسلمين على عهده ، وتملك الجزيرة الخضراء وغيرها .

وبرّغُون ، ألفنش[١] بن جايمش بن ألفنش[٢] بن بِطْرُه بن جايمش الذى استولى على بَلَنْسِية ، ودام إلى آخر مدته ، وصدراً من مدة أخيه . وقد استقصينا من العيون أقصى ما سَحّ به الاستقصاء ، وما أغفلناه أكثر ، ولله الإحاطة .

مولده

فى الثامن من شهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعمائة .

وفاته

وإلى هذا العهد مات ؛ وغِرت عليه من رؤوس الجند ، من قبائل العُدْوة ، الصُّدُور ، وشُحنت عليه القلوب غيظاً ؛ وكان شَرِهاً لسانُه ، غير جزوع ولاهيَّاب، فربما يتكلم بملء فيه[٣] من الوعيد الذى لايخفى على المُعْتَمد به ؛ وفى ثانى يوم من إقلاع الطاغية من الجَبَل ، وهو يوم الأربعاء الثانى عشر من ذى حجة، وقد عزم على ركوب البحر من ساحل مربلة[٤]، فهو مع وادى ياروا من ظاهر جبل الفتح ، تخفيفاً للمؤنة ، واستعجالا للصُّدور ، وقد أُخذت على حركته المراصد ؛ فلما توسط كمين القوم ، ثاروا إليه وهو راكب بَغْلا أثابه به ملك الروم ، فشرعوا فى عَتْبه بكلام غليظ ، وتأنيب قبيح ، وبدأوا بوكيله فقتلوه ، وعجّل بعضهم بطَعْنه ، وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه ، زَنَمة[٥] من أخابيث العلوج يسمى زِياناً ، صُونع على

(١) هذا خطأ من المؤلف . فقد كان الجالس على عرش أراجون يومئذ هو بيدرو الرابع بن خايمى (جايمش) وقد حكم سنة ١٣٣٦-١٣٨٧م . أما بلنسية فقد سقطت فى يد النصارى سنة ١٢٣٨م

(٢) وردت محرفة فى المخطوطين : (القتيل . الفنيل) .

(٣) وردت فى المخطوطين والملكية : بما فيه .

(٤) وردت فى «ج» والملكية (منزله) . وبالتصويب يستقيم المعنى والسياق .

(٥) أى وغد زنيم .

مباشرة الإجهاز عليه ، فقضى لحينه بسَفح الربوة المائلة ، يسرة العابر[١] للوادى ممن يقصد جبل الفتح ، وتركوه بالعراء بادى البوار ، مسلوب البِزّة ، سيء المصرع ، قد عَدَت عليه نعمُه ، وأَوْبقَه[٢] سلاحه ، وأسْلمه[٣] أنصاره وحُماته .

ولما فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان أبى الحجاج ، صُرِفت الوجوه يومئذ إلى دار الملك ، ونُقِل القتيل إلى مالقة ، فدُفن على حاله تلك برياضٍ تجاور مُنْية السَّيد ، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاث وثلاثين وسبعمائة ، وأقيمت على قبره بعد حين قُبة ، ونُوِّه بقبره ، وهو اليوم ماثلٌ رَهْن غرْبة ؛ وجالب عِبرة ؛ جعلنا الله للقائه على حذر وأُهبة ؛ وبِلَوْح الرخام المائل عند رأسه مكتوب :

« هذا قبرُ السلطان الأجلّ ، الملك الهمام ، الأمضى الباسل ، الجواد ذى المجد الأثيل ، والملك الأصيل ، المقدس ، المرحوم ، أبى عبد الله محمد بن السلطان الجليل ، الكبير ، الرفيع ، الأوحد ، المجاهد ، الهمام ، صاحب الفتوح المسطورة ، والمغازى المشهورة ، سلالة أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ، أمير المؤمنين[٤] ، وناصر الدين ، الشهيد ، المقدس ، المرحوم أبى الوليد [بن فرج][٥] بن نصر ، قدَّس الله روحه وبرَّد ضريحه . كان مولده فى الثانى لمحرم عام خمسة عشر وسبعمائة ، وبويع فى اليوم الذى استُشْهد فيه والدُه رضى الله عنه السادس والعشرين [لرجب عام خمسة وعشرين][٦] وسبعمائة ، وتوفى رحمه الله فى الثالث عشر لذى حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، فسبحان من لا يموت » .

---

(١) فى المخطوطين : العابرة . والتصويب من اللمحة .
(٢) فى المخطوطين : وأوافقه . والتصويب من اللمحة .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وأسلموه .
(٤) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : المسلمين .
(٥) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .
(٦) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطين ووارد فى اللمحة .

ياقبرَ سلطانِ الشجاعة والنَّدى | فرعِ الملوكِ الصيدِ أعلامِ الهدى
وسلالةِ السلفِ الذى آثارُه | وضّاحَةٌ[1] لمن اقتدى ومن اهتدى
سلفٌ لأنصار النبي نجارُه | قد حلَّ منه فى المكارم مَحْتِدا
متوسِّطُ البيت قد أسسته سادة الأملاك[2] أوحد أوحدا
بيتٌ بناه مُحَمَّدُون ثلاثةٌ | من آل نصر أورثوه مُحَمَّدا
أودعتَ وجهاً قد تهلل حسنه | بدراً بآفاق الجلالة [قد بدا][3]
ونداً يَسُحُّ على العفاة مواهباً | مُثنى الأيادى السابغات وموحدا
يَبْكيك مذعورٌ بك استَعْدى على | أعدائه فسقَيْتَهم كاس الردى
[يبكيك محتاجٌ أتاك مُؤَمِّلا | فغدا وقد شَفَعَتْ يداك له اليدا][4]
أما سماحُك فهو أسنى ديَةً | أما جلالُك فهو أسمَى مصعدا
جادت ثَرَاك من الإلـهِ سحابةٌ | لرضاه عنك تجودُ هذا المَعْهدا

وشرُّ ماتبع هذا السلطان تواطؤ قتلته من بنى أبى العلاء وأصهارهم وسواهم من شيوخ خدّامه، كالوكيل فى مدة أخيه بعد، الشيخ الذهول مسافر بن حركات[5] وسواه، على اكتتاب عقْد بعد[6] وفاته، بأمور من القول تقْدح فى أصل الديانة، وأغراض تقتضى إلى الوهن فى الدِّين، وهَنَات تسوِّغ إراقة دمه الذى توفَّرت الدواعى على حِياطته، والذَّب عنه، تولى كُبْرها شيخنا أبو الحسن بن الجَيَّاب، مرتكباً منها وصمة[7] نَحَتْ على غُرر فضله إلى كثير من خُدَّامه ومماليكه، وبعثوا

(١) فى المخطوطين والملكية : واضحة ؛ والتصويب من اللمحة .
(٢) فى المخطوطين : أملاك . والتصويب من اللمحة .
(٣) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين : مر بدا . وفى الملكية مبر دا .
(٤) هذا البيت وارد فى اللمحة . وساقط فى المخطوطين .
(٥) هكذا فى « ج » والملكية : وفى « ك » حرطات .
(٦) وردت فى « ج » . وأغفلت فى « ك » .
(٧) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وصمته .

بها إلى ملك المغرب ، فاقتطعت جانب التمهيل والتأخير واللبث عن الحكم ، والتعليل عن السماع ، وبُروز(١) الأغراض ، واتباع السيئة أمثالها . وقد كان رحمه الله من الجهاد(٢) وإقامة رسم الدين ، بحيث تَزَل عن هذه الهنَات صفاته ، وتُنْكر هذه المذمّات(٣) صفاته ، وكان بمكانٍ من العز ، وإرسال السَّجية ، وربما عذَله الشيخ فى بعض الأمر ، فيَسجُم إضجاراً وتمليحاً بإخراجه ؛ ولم يمر إلا الزمان اليسير ؛ وأوقع الله بالعُصْبة المتمالئة عليه من أولاد عبد الله ، فسَفَتْهُم رياح النَّكبات ، واستأصلت نعمَهم أيدى النَّقمات ، ولم تقم لهم من [بعد](٤) ذلك قائمة ، والله غالب على أمره .

وتَبِعت(٥) هذا السلطان نفوس أهل الحرية ، ممن له طبع رقيق ، وحسّ(٦) لطيف ؛ ووفاء كريم ، ممن كان بينه وبين سطوته دفاعٌ ؛ وفى جو اعتقاده له صفاء ؛ فصدرت مراثٍ(٧) مؤثرة ، وأقاويل للشجون مهيجة ، نثبت(٨) منها يسيراً على العادة . فمن ذلك مانظمه الشيخ الكاتب القاضى أبو بكر بن شِبرين ؛ وكان على فصاحة ظرفه ؛ وجمال روايته ، غُراب قُرْبه ؛ ونائحة مأتمه ، يرثيه ويُعرِّض ببعض من حمل عليه من ناسه وخدامه :

استقلّا ودعانى ... طائفاً بين المغانى
وانعما(٩) بالصبر إنى ... لا أرى ما تريان

---

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : وبدو .
(٢) فى المخطوطين : الجياد . وهو تحريف .
(٣) هكذا فى « ك » . وفى « ج » . المهمات .
(٤) ساقطة فى المخطوطين .
(٥) وردت فى المخطوطين : وتبعث .
(٦) وردت فى المخطوطين : وحسن .
(٧) فى المخطوطين : مداثر .
(٨) واردة فى « ك » وساقطة فى « ج » .
(٩) هكذا فى اللمحة . وفى المخطوطين والملكية : واقسما . والأولى أرجح بالنسبة للمعنى .

ومن قوله :

عينُ بكى لَميْت غادروه ... فى ثراه مُلْقىً وقد غدروه
دفنوه ولم يُصَلِّ عليه ... أحدٌ منهم ولا غسّلوه
إنما مات يوم مات شهيداً ... فأقاموا رسماً ولم يَقْصِدوه

محمد بن محمد [بن محمد][1] بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن نصر بن قيْس الخزْرَجى

ثالثُ الملوك من بنى نصر ، يكنى أبا عبد الله .

« أوّليّته » ؛ معروفة .

حــاله

كان من أعاظم أهل بيته ، صيتاً وهمَّة ، أصيل المجد ، مليح الصورة ، عريق الإمارة ، ميمون النَّقيبة ، سعيد [النَّصَبة][2] عظيم الإدراك ؛ تهنَّأ العيش مدة أبيه ، وتملّى[3] السياسة [فى][4] حياته ، وباشر الأمور بين يديه ، فجاء نسيج وحده إدراكاً ، ونُبْلا ، وفخاراً ، وشأواً . ثم تولى الأمر بعد أبيه فأجراه على ديدنه ؛ وتقبل سيرته ؛ ونسج على منواله ؛ وقد كان الدهر ضايقه فى حصَّته[5] ؛ ونغَّصه

---

(١) ساقطة فى المخطوطين : وإثباتها ضرورى لصحة الاسم .

(٢) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين والملكية . والإضافة من اللمحة .

(٣) فى المخطوطين : وتملأ . وهو رسم آخر لنفس الكلمة .

(٤) زيادة يستلزمها السياق .

(٥) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : عصته .

ملاذّ الملك بزمانةٍ(١)، سَدِكت(٢) بعينيه لمداخلة السَّهر، ومباشرة [أنوار](٣) ضخام الشمع، إذ كانت تُتخذ له منها جذوع فى أجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل، ومضى الرُّبع(٤)؛ وعلى التزامه لسكِنِّه وغيبوبته فى كِسْر بيته، فقد خدمته السُّعود، وأمات بابه الفتوح، وسالمته الملوك، وكانت أيامُه أعياداً. وكان يَقْرِض الشعر، ويُصغى إليه، ويثيب عليه، فيجيز(٥) الشعراء، ويرضخ للندماء(٦)، ويعرف مقادرالعلماء، ويُوا كل(٧) الأشراف والرؤساء، [ضاربا](٨) فى كل إصلاح بسهم(٩)، مالئا من كل تجربة وحُنكة، حارّ النادرة، حسن التوقيع، مليح الخط، تغلب عليه الفظاظة والقسوة.

شعره

كان له شعر مُسْتَظرف من مثله، لا بل يَفْضُل به الكثير ممن ينتحل الشعر من الملوك. ووقَفْتُ على مجموع له، ألّفه بعض خدّامه، فنقلت من مطولاته:

واعَدَنى وعدًا وقد أخْلَفَا أقلُّ شىء فى المليح(١٠) الوفا
وحال عن عَهْدى ولم يَرْعَه ما ضَرَّه لو أنّه أنْصَفا

(١) أعنى بمرض مزمن.
(٢) سدكت أى لزمت.
(٣) الزيادة من اللمحة.
(٤) هكذا فى المخطوطين. وفى اللمحة: المزيع.
(٥) هكذا فى اللمحة. وفى «ج»: ويحسن. وفى «ك»: يحرز.
(٦) فى المخطوطين: (النداد. الند). والتصويب من اللمحة.
(٧) فى المخطوطين ويوكل.
(٨) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين. والإضافة من اللمحة.
(٩) هكذا فى اللمحة. وفى المخطوطين: سباهم.
(١٠) هكذا فى المخطوطين والملكية. وفى اللمحة: الملاح.

ما بالُها لم تتعطّف على صاحبٍ لها ما زال مُسْتَعْطفا
يَسْتَطْلع الأنباء من نحــوها ويرقُبُ البَرْق إذا ماهَفا
خَفِيتُ سُقْماً عن عيون الوَرَى وبان حُبى بعد ما قد خَفا
لله كم [من] لَيلةٍ بتُّها أُدِير من ذاك اللمىِّ قَرْقَفا
متّعنى بالوَصْل منها وما أَخْلَفَتْ وعداً خِلت أن يُخلفَا

ومنهــا :

مَلَّـكْـتُكِ [القلب](1) وانى امروٌ علىّ مُلك الأرض قد وُقفا
أوامرى فى الناس مسموعةٌ وليس مِنّى فى الوَرَى أشْرفا(2)
يُرهف سيفى فى الوغى مسلطاً ويُتَقى عزمى إذا ما أُرْهِفا
وتُرْتجى يُمناى يوم الندى تخالُها السُّحب غدت وُكفا
نحنُ ملوك الأرض مَنْ مثلنا حُزْنا تَليد الفَخر والمُطْرَفا
نُخَاف إقداماً ونُرجى ندًا لله ما أُرْجَى وما أَخْوَفا
لى رايةٌ فى الحرب كم غادَرتْ رَبْعَ العِدا قاعاً بها صفْصَفا
ياليت شعرى والمُنى جمة والدهرُ يوماً هل يُرَى مُنْصِفا
هل يَرْتَجِى العبدُ(3) تداينــكم أو يُصْبِح الدهر له مُسْعِفا(4)

مناقبه

وأعظم مناقبه المسجدُ الجامع بالحمراء(5)، على ما هو عليه، من الظرف والتنجيد،

---

(1) ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

(2) فى المخطوطين : أسرفا . والتصويب من اللمحة .

(3) هكذا وردت هذه العبارة فى المخطوطين . وفى اللمحة : (هل نرتجى اليوم) .

(4) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : مضعفاً .

(5) سبق التعريف بموقعه . (أنظر الحاشية فى ص ٥١١) .

والترقيش ، وفخامة العُمُد ، وإحكام أنوار الفضة ، وإبداع ثُراها ، ووقف عليه الحمّام بإزائه ، وأنفق فيه مال الجزْية ، وأغرَمها لمن يليه من الكفار ، فدَوا به زرعاً ، نَهَد إليه صائفتهُ[1] لانتسافه ، وقد أهمتهم فتنة ، فطار بها منْقَبة يتيمة ، ومعلوّة[2] فذّة ، فاق بها من تقدمه ، ومن تأخره من قومه .

جهـــاده

أغزى الجيش لأول أمره مدينة المنظر[3] ، فاستولى عليها عَنْوة ، وملك من احتوت عليه المدينة ، ومن جملتهم الزّعيمة صاحبة المدينة ، من أفراد عقائل الروم ، فقَدِمت الحضْرة فى جملة السّبى ، نبيهة المَرْكَب ، ظاهرة الملبس ، رائقة الجمال ، خُص بها ملك المغرب ، فاتّخذها لنفسه ، وكان هذا الفتح عظيما ، والصيت بمزايه عظيما بعيداً [أنشدنى][4] .

ما نقل عنه من الفظاظة والقسوة

هجم لأول أمره على طائفة من مماليك أبيه ، وكان سيِّئ الرأى فيهم ، فسجنهم فى مُطْبَق الأرىّ من حمرائه ، وأمسك مفتاح قفله عنده ، وتوعَّد من يُرْمِقُهم بقوت بالقتل ، فمكثوا أياما ، وصارت أصواتهم تعلو بشكوى الجوع ، حتى خَفَتَتْ ضعفاً[5]

(١) أعنى قوات الجيش التى تخرج صيفاً للغزو .

(٢) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : معلومة .

(٣) يفهم من كلام ابن الخطيب فى مناسبة سابقة (راجع ص ٣٤٢) أن هذه البلدة كانت من أعمال وادى آش . ولكن يبدو من ذكرها مع بلدة شوذر (شوذر) Jodar أنها ربما كانت من أعمال جنوبى ولاية جيان ، وعلى مقربة من البلدة المذكورة . وعلى أى حال فإنا لم نستدل بالبحث على وجودها ، أو مقابلها الإسبانى . وأغلب الظن أنها دثرت .

(٤) هكذا وردت فى المخطوطين . ولم يرد بعدها شعر .

(٥) فى المخطوطين : خفضت . وفى الملكية خففت . وبالتصويب يستقيم المعنى .

بعد أن اقتات آخرُهم موتاً من لحم من سبقه ؛ وحملت الشفقة حارساً كان برأس المُطْبق ،على أن طرح لهم خُبْزاً يسيراً ، تنقص أكله ، مع مباشرة بَلْواهم. ونمى إليه ذلك ، فأمر بذبحه على حافة الجُبّ ، فسالت عليهم دماؤه ؛ وقانا الله مصارع السُّوء ؛ ومازالت المقالة(١) عنها شنيعة ، والله أعلم بجريرتهم لديه .

وزراؤه

بقى على خطة الوزارة وزير أبيه أبو سلطان عزيزُ بن على بن عبد المنعم الدانى ، الجارى ذكره بحول الله فى محله ، مُتَبَرماً بحياته إلى أن توفى ، فأنشد عند موته :

مات أبو زيد فواحسرتا إن لم يكن مات من جمعة
مصيبة لا غفر الله لى أن كنت أجريتُ لها دمعة

وتمادى بها أمره ، يقوم بها حاشيته . وقد ارتاح إليها مُتوليها بعده، المترفّع (٢) بدولته ، القائد الشهير ، البُهْمة أبو بكر بن المول . حدّث قارىء العَشْر من القرآن بين يدى السلطان ، ويعرف بابن بَكْرُون ، وكان شيخاً مُتَصَاوناً ظريفاً ، قال : عزم السلطان على تقديم هذا الرجل وزيراً ، وكان السلطان يؤثر الفَأل ، وله فى هذا المعنى وساوسُ مُلازمة ، فوجّه إلىّ الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يومئذ ، أبو عبد الله بن الحكيم المستأثر بها دونه ، والمُتَقِّف لكُرتها قبله ، وخرج لى عن الأمر ، وطلب منى أن أقرأ آياً يخرج فألها عن الغرض ؛ قال فلما غدوت(٣) لشأنى تلوتُ بعد التعوُّذ قوله عزَّ وجلَّ : « ياأيها الذين آمنوا لاتَتَّخِذوا بِطانَةً من دُونِكم لا يألونكم خَبالاً ، ودوا ماعنتّم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، إلى قوله لنا»(٤)

(١) وردت فى المخطوطين والملكية : المالقة وهو تحريف .
(٢) فى المخطوطين والملكية : المتوقع .
(٣) فى المخطوطين : عدوت .
(٤) واردة فى « ج » . وساقطة فى « ك » .

فلما فرَغت الآيةُ ، سمعتُه حاد عن رأيه الذى كان أزمعه ، وتقدَّم للوزارة كاتبه أبا عبد الله بن الحكيم فى ذى قعدة من عام ثلاثة وسبعمائة ، وصرَف إليه تدبير مُلْكه ، فلم يلبث أن تغلَّب على أمره ، وتقلَّد جميع شئونه ، حسبما يأتى فى موضعه إن شاء الله .

كتَّابه

استقل برياسته وزيره المذكور ، وكان ببابه من كُتَّابه[1] جملةٌ تباهى بهم دسوت الملوك ، أدباً وتفنناً وفضلاً وظَرْفاً ، كشيخنا تِلْوه وولى الرُّتبة الكتابية من بعده ، وفاصل الخُطبة على أثره ، وغيره ممن يشار إليه فى تضاعيف الأسماء ، كالشيخ الفقيه القاضى أبى بكر بن شِبرين[2] . والوزير الكاتب أبى عبد الله بن عاصم ، والفقيه الأديب أبى إسحاق بن جابر ، والوزير الشاعر المُفلِق أبى عبد الله اللَّوْشى ، من كبار القادمين عليه ، والفقيه الرئيس أبى محمد الحضرمى ، والقاضى الكاتب أبى الحجاج الطرْطُوشى ، والشاعر المُكْثِر أبى العباس القرَّاق[3] وغيرهم .

قضاته

استمرت ولاية قاضى [أبيه][4] الشيخ الفقيه أبى عبد الله محمد بن هشام الألْشِى[5] قاضى العدل ، وخاتمة أولى الفضل ، إلى أن توفى عام أربع وسبعمائة .

---

(١) فى المخطوطين : كتاب .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : بشرين . وهو تحريف .

(٣) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : العراق . وفى الملكية . الفراق .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . وواردة فى اللمحة .

(٥) نسبة إلى ألش Elche وهى بلدة أندلسية قديمة تقع على مقربة من أوريولة فى شرق الأندلس . وهى اليوم مصيف جميل وتشتهر بغابات النخيل التى تمتد بجانبها لمسافة طويلة .

وتولى له القضاء ، القاضى أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد [بن محمد بن أحمد](١) القُرَشى المنبور(٢) بابن فركون ، وتقدم التعريف به ، والتنبيه على فضله ، إلى آخر أيامه .

مَنْ كان على عهده من الملوك بالأقطار

وأول ذلك بفاس ؛ كان على عهده بها ، السلطان الرفيع القدر ، السامى الخطر ، المرهوب الشَّبا ، المستولى فى العز وبعد الصيت على المدى ، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور ، بن عبد الحق ، وهو الذى وطّد الدولة المَرِينيَّة ، وجبا الأموال العريقة ، واستأصل من تُتَّقى شوكته من القرابة وغيرهم ، وجاز إلى الأندلس فى أيام أبيه و بعده ، غازياً ، ثم حاصر تِلِمْسان ، وهلك عليها فى أوائل ذى قعدة عام ستة وسبعمائة ، فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهراً . ثم صار الأمر إلى حافده أبى ثابت عامر بن الأمير أبى عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بعد اختلاف وقع ، ونزاع انجلى عن قتل جماعة من كِبارهم ، منهم(٣) الأمير أبو يحيى بن السلطان أبى يوسف ، والأمير أبو سالم بن السلطان أبى يعقوب ، واستمر الأمر للسلطان أبى ثابت إلى صفر من عام ثمانية وسبعمائة ، وصار الأمر إلى أخيه أبى الربيع سليمان تمام مدة مُلكه وصدرا من دولة أخيه نصر ، حسبما يذكر فى موضعه إن شاء الله .

وبتِلِمْسان الأمير أبو سعيد عثمان [من يَغْمُراسن](٤) ، ثم أخوه أبو عمران(٥) موسى ، ثم ولده أبو تاشفين عبد الرحمن إلى [آخر](٦) مدة أخيه(٧) .

(١) ما بين الحاصرتين وارد فى « ج » . وساقط فى « ك » .

(٢) وردت فى المخطوطين : المنبوز . وهو تحريف . وفى الملكية الملقب . والمنبور أى المعروف أو الشهير .

(٣) وردت محرفة فى المخطوطين والملكية : سلم . بلم .

(٤) واردة فى « ك » وفى اللمحة . ومكانها فى « ج » : (ثم يغمر أخيه) .

(٥) فى « ج » أبو عمر ، وفى « ك » أبو محمد . وهو تحريف .

(٦) هذه الكلمة واردة فى اللمحة . وساقطة فى المخطوطين .

(٧) وردت فى « ج » واللمحة مدته . والتصويب من الملكية .

وبتونس ؛ السلطان الفاضل ، الميمون النَّقِيبة ، المشهور الفضيلة ، أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيي بن المستنصر أبى عبد الله بن الأمير أبى زكريا بن أبى حفص ، من أولى العفَّة ، والنزاهة ، والتؤدة ، والحشمة ، والعقل ؛ عنى بالصالحين ، واختص بأبى محمد المرجانى ، فأشار بتمويه ، وظهرت عليه بركته ، وكان يرتبط إليه ، ويقف فى الأمور عنده ، فلم تعدم الرعية بركةً ولا صلاحاً فى أيامه ، إلى أن هلك فى ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة ، ووقعت بينه وبين هذا الأمير المترجم به المراسلة والمهاداة .

وبقَشْتَالَة ؛ هراندة بن شانجه بن أدفونش بن هرانده[١] ، المستولى على إشبيلِيَّة وقرْطبة ، ومرْسية ، وجَيَّان ، ولا حول ولا قوة الا بالله ؛ هلك أبوه وتركه صغيراً ، مكفولا على عادتهم ، فتنفس المُخَنَّق ، وانعقدت السلم . واتصل الأمان مدة أيامه ، وهلك فى دولة أخيه .

وبرغون ؛ جايمش بن ألفنش بن بِطْرُه[٢] .

الأحداث

فى عام ثلاثة وسبعمائة ، نَقِم على قريبه الرئيس أبى الحجاج بن نصر الوالى بمدينة وادى آش[٣] ، أمراً أوجب عزله عنها ، وكان مقيما بحضرته فاتخذ [الليل] جملا[٤] وكان أملك بأمرها ؛ وذاع الخبر ، فاستركب الجيش ، وقد حدَّ ماينزل فى استدلابه ، وجدَّد الصكوك بولايته خوفاً من اشتعال الفتنة ، وقد أخذ على يديه ، وأغرى أهل

(١) هو الملك فرناندو الثالث المسمى بالقديس فرناندو San Fernando . وقد سبق التعريف به (أنظر الحاشية فى ص ٣٨٣) .

(٢) وردت فى المخطوطين : نصره . وهو تحريف .

(٣) فى المخطوطين : واداش : وهو تحريف .

(٤) أضفنا كلمة (الليل) ليستقيم المعنى . والظاهر أنها سقطت من المخطوطين سهواً . وهذا التعبير يستعمله ابن الخطيب فى غير مناسبة . ومعناه « سار تحت جنح الليل » .

المدينة بحربه ، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به ، فدهموه وعاجلوه ، فتغلبوا عليه، وقيد إلى بابه أسيراً مُصَفَّداً، فأمر أحد أبناء عمه فقتله صَبراً ، وتملأ فتحاً كبيراً ، وأمِن فتنة عظيمة . وفى شهر شوال من عام خمسة وسبعمائة قرع الأسماع النبأ العظم، الغريب ، من تَمَلك سَبْتَة وحصولها فى قبضته ، وانتزاعها من يد رئيسها أبى طالب عبد الله بن أبى القاسم ، الرئيس الفقيه ، ابن الإمام المحدث أبى العباس العَزَفى حسبما يتقرر فى اسم الرئيس الفقيه أبى طالب إن بلَّغنا الله ذلك ؛ واستأصَل ما كان لأهلها من الذخائر والأموال، ونقل رؤساءها ، وهم عدَّة ، إلى حَضْرَته غرناطة فى غرة المحرم من العام ، فدخلوا عليه ، وقد احتفل بالمُلْك ، واستركب فى الأبَّهة الجندُ ، فلثموا أطرافه ، واستعطفه شعراؤهم بالمنظوم من القول ، وخطباؤهم بالمنثور منه ، فطمأن روعهم[1] وسكَّن جأشهم ، وأسكنهم فى جواره ، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية ، وتقدم فى الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم.

اختـــلاعه

فى يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة أُحيط بهذا السلطان ، وأتت الحيلة عليه ، وهو مصاب بعينيه ، مقعدٌ فى كِنّه ، فداخلت طائفة من وجوه الدولة أخاه، وفتكت بوزيره الفقيه أبى عبد الله بن الحكيم ، ونَصَبَتْ للناس الأمير أبا الجيوش نصراً أخاه ، وكبست منزل السلطان ، فأُحيط به ، وجُعل الحرس [عليه][2] ، وتُسُومِع بالكائنة فكان البَهْت ، وسال من الغوغاء البحر ، فتعلقوا بالحمراء ، يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بانتهاب[3] دار الوزير ، وبها من مال الله ما يفوت الوصف .وكان الفَجع فى إضاعته على المسلمين ، وإطلاق الأيدى الخبيثة عليه

---

(١) فى المخطوطين : روحهم . (٢) ناقصة فى المخطوطين . ويقتضيها السياق .

(٣) هكذا فى «ج» . وفى «ك» : بإنهاب .

عظيما ؛ وفى آخر اليوم عند الفراغ من الأمر ، دخل على السلطان المخلوع ، الشهداء عليه بخلعه ، بعد نقله من دار مُلكه إلى دار أُخرى ، فأملَى رحمه الله ، زعموا ، وثيقة خلعه ، مع شَغْب الفكر ، وعِظَم الداهية ، وانتقل رحمه الله بعد ، إلى القصر المنسوب إلى السيد[1] بخارج الحضرة ، أقام به يسيراً ، ثم نقل إلى مدينة المُنَكَّب ، وكان من أمره مايذكر إن شاء الله .

ومما يؤثر من ظَرْفه ، حدّث من كان منوطاً به من خاصته ، مدة أيام إقامته بقصر نَجْد ، قبل خلعه ، قال : أرسل الله[2] الأغْرِبة على سقف القصر ، وكان شديد التطيُّر والقلق لذلك حسبما تقدم من الإشارة إلى ذلك بحديث العَشر ، وكان من جملتها[3] غُرابٌ[4] ، شديد الإلحاح ، حادُّ النَّعيب والصياح ، فأغرى به الرماة من مماليكه بأنواع القِسِيّ ، فأبادوا من الغِرْبان[5] أمّة ، وتخطّأ الحَتْفُ ذلك الغراب الخبيث [العِبقّان][6] ؛ فلما انتقل إلى سكنى الحمراء ، ظهر ذلك الغراب على سقفه ؛ ثم لما أُهبِط مخلوعاً إلى قصر شَنيل[7] تبعه ، وقام فى بعض السّقف أمامه ، فقال[8] يخاطبه رحمه الله : يامشئوم ، يامحروم بين الغربان ، قد خَلّصت أمرنا ، ولم يبق لك علينا طلب ، ولا بيننا وبينك كلام ؛ إرجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغِل بهم ؛ قال ، فأضحكنا على حال الكآبة بعذوبة منطقه ، وخفّة روحه .

---

(١) سبق التعريف به وبموقعه خارج غرناطة (أنظر الحاشية فى ص ١١٩) .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : تعالى .

(٣) وردت فى المخطوطين : جملتهم .

(٤) فى المخطوطين : غريب .

(٥) فى المخطوطين : غربان .

(٦) وردت هذه الكلمة محرفة فى «ج» : (العبتاق) . ولم ترد فى « ك » والصواب : العبقان . وهو السيئ الخلق .

(٧) هو قصر السيد الذى سبق التعريف به . وتعرف بقاياه حتى اليوم فى غرناطة بقصر شنيل Alcazar Xenil

(٨) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : فقام .

وفاته

قد تقدم ذكرُ استقراره بالمُنَكَّب . وفى أخريات شهر جمادى الآخرة عام عشرة وسبعمائة ، أصابت السلطان نصراً سكتةٌ ، تُوقِّع منها موته ، بل شُكَّ فى حياته ؛ فوقع التفاوض الذى تمحض(١) إلى التوجيه عن السلطان المخلوع الذى بالمنكَّب ليعود إلى الأمر ، فكان ذلك وأُسرع إلى إيصاله(٢) إلى غرناطة فى مِحَفَّة ، فكان حلوله بها فى رجب من العام المذكور . وكان من قَدَر الله ، أن أفاق أخوه من مرضه ، ولم يتم للمخلوع الأمر ، فنقل من الدار التى كان بها إلى دار أخيه الكبرى ، فكان آخر العهد به . ثم شاعت وفاته أوائل شوال من العام المذكور ، فذُكر أنه اغتيل غريقاً فى البركة فى الدار المذكورة لما تُوقع من عادية(٣) جواره ؛ ودفن بمقبرة السَّبيكة ، مدفن قومه ، بجوار الغالب بالله جده ، ونُوِّه بجَدَثه وعليه مكتوب ما نصه :

« هذا قبر السلطان الفاضل ، الإمام العادل ، علم الأتقياء ، أحد الملوك الصلحاء ، المُخْبت(٤) الأوَّاه ، المجاهد فى سبيل الله ، الزّكى الأوْرَع ، الأخْشى الله الأخْشَع ، المراقِب فى السرِّ والإعلان ، المعمور الجَنان بذكره واللسان ، السالك فى سياسة الخَلْق وإقامة الحقِّ ، مِنهاج التقوى والرِّضوان ، كافلُ الأمة بالرأفة والحنان ، الفاتح لها بفضل سيرته ، وصِدْق سريرته ، ونور بصيرته ، أبواب اليُمْن والأمان ، المُنيب الأوَّاب ، العامل ما يجدُه نوراً مُبيناً يوم الحساب ، ذى الآثار السَّنِيَّة ، والأعمال الطاهرة ، القائم فى جهاد الكفار بماضى العَزْم وخالص النيَّة ،

---

(١) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : تخمص وهو تحريف .

(٢) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : أصانة .

(٣) وردت فى المخطوطين : علاديته .

(٤) هكذا فى « ج » وفى اللمحة . وفى « ك » المبخت .

المقيمِ قسطاس العدل ، المنير مِنهاج الحلم والفضل ، حامى الذِّمار ، وناصر دين المصطفى المختار ، المُقْتدى بأجداده الأنصار ، المتوسِّل بفضل ما أسْلَفوه من أعمال البر والجهاد ، ورعاية العباد والبلاد ، إلى الملك القهَّار ؛ أمير المسلمين ، وقامع المعتدين ، المنصور بفضل الله ، أبي عبد الله ، ابن أمير المسلمين الغالب بالله ؛ السلطان الأعلى ، إمام الهُدى ، وغمام النَّدى ، مُحيي السُّنَّة ، حسن الأُمَّة ، المجاهد فى سبيل الله ، الناصر لدين الله ، أبى عبد الله ، ابن أمير المسلمين الغالب بالله ، أبي عبد الله ، بن يوسف بن نصر ، كَرَّم الله وجهه ومَثْواه ، ونعَّمه برضاه . وُلد رضى الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم [من عام خمسة وخمسين وستمائة . وتوفى قدس الله روحه ، وبرّد ضريحه ، ضحوة يوم الإثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر](١) وسبعمائة ، رفعَه الله إلى منازل أوليائه الأبرار ، وألْحَقَه بأئمة الدين ، لهُم عُقْبى الدّار ، وصلى الله على سيدنا محمد المختار ، وعلى آله ، وسلم تسليما » .

ومن الجانب الآخر :

رِضَى المَلِكِ الأعلى يرُوح ويَغْتَدى ... على قَبْر مـــولانا الإمام المُؤَيَّد
مقرٌّ(٢) العُلى والمُلْك والبأس والنَّدى ... فقَدِّس من مَغْنى كريم ومشهـــد
ومثوى الهُدى والفضل والعدل والتُّقى ... فبُورك من مثْوى زكى ومَلْحد
فيا عجباً طَـــودُ الوقار جـــلالةً ... ثوى تحت أطباق الصفيح المُنَضَّد
وواسِطَةُ العقـــد الكريم الذى له ... مآثر فخرٍ(٣) بين مثنى وموحـــد
محمـــد الرِّضىُّ سليل محمـــد ... إمامُ النَّدى نجلُ الإمام محمـــد
فيا نُخْبَةَ الأمـــلاك غير منـــازَعٍ ... ويا علمَ الأعـــلام غير مُفَنَّد

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط فى المخطوطات الثلاثة ووارد فى اللمحة .
(٢) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » : قصر .
(٣) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : مجد .

بكَتْكَ بلادٌ كنت تحمى(١) ذِمارها(٢) بعَزْمٍ أصيلٍ أو برأى مُسدّد
وكم مَعْلَم للدين أوْضَحت رَسْمه [بَنَى](٣) لك فى الفردوس أرفع مصعد
كأنَّك ما سُست البلاد وأهلها بسيرة مَيْمُون النَّقيبة مُهْتد
كأنك ما قُدت الجيوش إلى العِدا فصيَّرتهم نَهْبَ القنا المُتقصِّد
وفَتَحْتَ من أقطارهم كلَّ مُبهم فتحتَ به باب النَّعيم المُخلَّد
كأنك ما أنفقت عُمرك فى الرِّضى بتجديد غَزْوات وتشييد مَسْجد
وإنصاف مظلومٍ وتأمين خائفٍ وإصراخ مذعورٍ وإسعاف مُجْتد
كأنّك ما أحيَيْت للخَلْق(٤) سُنَّة تجادل عنها باللسان وباليد
كأنّك ما أمضَيْت فى الله عَزْمَةً تُدافع فيها بالحُسام المُهنَّد
فإن تَجْهل الدنيا عليك وأهلُها بذاك ثوبُ الله يَلقاك فى غَدِ
تعَوَّضْتَ ذُخراً من مقام خلافة مقيمٍ منيبٍ خاشع متعبِّدِ
وكل الورى مَنْ كان أو هو كائنٌ صريعُ الرَّدى إن يَكُن فكأن قَدِ
فلا زال جاراً للرسول محمد بدارِ نعيمٍ فى رِضَى الله سَرْمد
وهذى القوافى قد وَفَيْتُ بنظمها فياليتَ شعرى هل يَصيحُ(٥) لمُنْشد

محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر الأنصارى الخزرجى

ثانى الملوك الغالبين من بنى نصر ، وأساس أمرهم ، وفَحْلُ جماعتهم .

(١) هكذا فى « ج » . والملكية واللمحة .
(٢) فى اللمحة قصورها
(٣) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين ووارد فى اللمحة . وفى الملكية . يكن .
(٤) هكذا فى « ج » . وفى اللمحة : للحق .
(٥) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : يصح .

أوّليّته

تُقرر بحول الله فى اسم أبيه الآتى بعد حسب الترتيب المشترط .

حاله

من كتاب « طُرْفة[١] العصر » من تأليفنا ؛ كان هذا السلطان أوْحَد الملوك جلالة ، وصرامة ، وحزماً[٢] . مهّد الدولة ، ووضع ألقاب خدمتها . وقرّر مراتبها ، واستجاد أبطالها ، وأقام رسوم المُلْك فيها ، واستَدرّ جباياتها ، مستظهراً على ذلك بسعة الذّرع ، وأصالة السياسة ، ورصانة[٣] العقل ، وشدة الأسر[٤] ووفور الدهاء ، وطول الحُنْكة ، وتملؤ[٥] التجربة ؛ مليح الصورة ، تام الخَلْق ، بعيد الهمّة ، كريم[٦] الخُلُق ، كثير الأناة . قام بالأمر بعد أبيه ، وباشره مباشرة الوزير أيام حياته ، فجرى على سُنن أبيه ، من اصطناع أجناسه ، ومداراة عدوه ، وأجرى صدقاته ، وأرْبَى[٧] عليه بخلال ، منها براعة الخط ، وحسن التوقيع ، وإيثار العلماء ، والأطباء ، والعدلين[٨] ، والحكماء ، والكتاب ، والشعراء ، وقَرْض الأبيات الحسنة ، وكثرة المُلَح ، وحرارة النّادرة . وطما بحرٌ من الفتنة لأول استقرار أمره ، وكثُر عليه المُنتَزون والثُّوار ، وارتجّت الأندلس ، وسط أكلُب[٩] الكفار ، فصبر لزلزالها ، رابط الجأش ، ثابت المركز ، وبذل من الاحتيال ، والدّهاء ،

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » : ظرف .

(٢) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » جزما .

(٣) هكذا فى « ج » . واللمحة . وفى الملكية (ورزانة) .

(٤) وردت فى « ج » الأمور . والتصويب من اللمحة

(٥) فى المخطوطين والملكية : وتلو . والتصويب من اللمحة .

(٦) هكذا فى « ك » . وفى « ج » : كثير .

(٧) هكذا فى « ج » . وفى الملكية . وأوفى .

(٨) هكذا فى المخطوطين . وفى اللمحة : المنجمين .

(٩) فى المخطوطين : كلب . وهو تحريف .

المكفوفين بجميل الصبر، [ما أظفره][1] بخلوِّ الجوِّ. وطال عمره، وجدَّ صيتُه[2]، واشتهر فى البلاد ذكره، وعظمت غزواته. وسيمر من ذكره مايدل على أجل من ذلك إن شاء الله.

شعره وتوقيعه

وقفتُ على كثير من شعره، وهو نمطٌ منحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء[3]، ومُسْتظرفٌ من الملوك والأمراء. من ذلك، يخاطب وزيره:

تذكر عزيزَ ليالٍ مَضَتْ وإعطاءنا المال بالرَّاحتين
وقد قَصَدَتْنا ملوكُ الجها ت ومالوا إلينا من العُدْوتين
وإذا سأل السَّلْمَ منَّا اللَّعيـ نُ[4] فلم يَحْظَ إلا بِخُفَّى حُنين

وتوقيعه يشذُّ عن الإحصاء، وبأيدى الناس إلى هذا العهد كثير من ذلك؛ فما كتب به على رقعة كان رافعها يسأل التصرُّف فى بعض الشهادات ويلح عليها:

يموتُ على الشَّهادة وهو حىٌّ إلهى لا تمته على الشهادة

وأطال الخطَّ عند إلهى إشعاراً بالضَّراعة عند الدعاء والجد. ويُذكر أنه وقع بظهر رقعة لآخر اشتكى ضرر أحد الجند المُنْزلين فى الدُّور، و نَبَزَه[5] بالتَّعرُّض لزَوْجه: «يُخرج هذا النَّازل ولا يُعوَّضُ بشىْء من المنازل»[6].

---

(١) وردت فى المخطوطين وفى الملكية: وما أظهره. والتصويب من اللمحة.
(٢) وردت محرفة فى المخطوطين: (صمتته. صننة).
(٣) هكذا فى «ك». وفى «ج»: الشعر.
(٤) وردت فى المخطوطين: لمعين. والتصويب من اللمحة.
(٥) أى اتهمه.
(٦) يلاحظ أن هذه القصة وردت قبل ذلك منسوبة للمأمون خليفة الموحدين (راجع ص ٤١٦).

بنـــوه

ثلاثة ، ولىُّ عهده أبو عبد الله المتقدم الذكر ، وفرج المُغتال أيام أخيه ، ونصر الأمير بعد أخيه .

بنـــاته

أربع ، عقَد لهن ، جمع أبرزهن إلى أزواجهن ، من قرابتهن ، تحت أحوال ملوكية ، ودُنيا عريضة ، وهن : فاطمة ، ومؤمنة ، وشمس ، وعائشة . وفاطمة منهن أمُّ حفيده إسماعيل الذى ابتزَّ ملك بنيه عام ثلاثة عشر وسبعمائة .

وزيره

كان وزيره ، الوزير الجليل الفاضل ، أبو سلطان ، لتقارب الشَّبه ، زعموا فى السّن والصورة ، وفضل الذَّات ، ومتانة الدين ، وصحَّة الطبع ، وجمال الرُّواء ، أغنى وحسُنَت واسطتهُ ، ورُفعت إليه الوسائل ، وطُرِّزت باسمه الأوضاع ، واتصلت إلى أيامه أيام مُستوزره ، ثم صدراً من أيام ولى عهده .

كتَّـابه

ولى له خُطّة الـكتابة والرياسة العليا فى الإنشاء جملةٌ ، منهم كاتب أبيه أبو بكر ابن أبى عمرو اللَّوشى ، ثم الأخَوان أبو على الحسن والحسين ، إبنا محمد بن يوسف ابن سعيد اللَّوشى ؛ سَبَق الحسنُ وتلاه الحسين ، وكانا [توأمين] (١) ، ووفاتهما متقاربة . ثم كتب له الفقيه أبو القاسم محمد بن محمد بن العابد الأنصارى ، آخرُ

---

(١) وردت فى المخطوطين وفى الملكية : راميين . والتصويب من اللمحة .

الشيوخ ، وبقيةُ الصُّدور والأدباء ؛ أقام كاتباً [مدة][1] إلى أن أبْرَمه انحطاطه في هوى نفسه ، وإيثاره المعاقَرَة ، حتى زعموا أنه قاء ذات يوم بين يديه . فأخَّره عن الرُّتبة ، وأقامه في عداد[2] كُتّابه إلى أن توفي تحت رِفْده[3]. وتولى الكتابة الوزير أبو عبد الله بن الحكيم ، فاضطلع بها إلى آخر دولته .

قضـــاته

تولى له خُطَّة القضاء ، قاضي أبيه ، الفقيه العدل ، أبو بكر بن محمد بن فتح الإشبيلي الملقب بالأشبرون . تولى قبل ذلك خُطة السُّوق ، فلقي سكران[4] أفرط في قحته[5] ، واشتد في عربدته ، وحمل على الناس ، فأفرجوا عنه ؛ فاعترضه واشتدّ عليه حتى تمكن منه بنفسه ، واستنصر[6] في حدِّه ، وبالغ في نكاله ؛ واشتهر ذلك عنه ، فجُمع له أمرُ الشرطة وخُطَّة السوق ؛ ثم ولي القضاء ، فذهب أقصى مذاهب الصَّرامة ، إلى أن هلك ؛ فولي خطّة القضاء بعده الفقيه العدل أبو عبد الله محمد بن هشام من أهل ألْش[7] ، لحكاية غَبَطت السلطان بدينه ، ودلَّته على محله من العدل والفضل ؛ فاتَّصلت أيام قضائه إلى أيام مُسْتَقْضِيه ، رحمه الله .

---

(١) ساقطة في المخطوطين . والإضافة من اللمحة.

(٢) هكذا في اللمحة . وفي المخطوطين : إعداد .

(٣) أي تحت كنفه وعطائه .

(٤) في المخطوطين والملكية . سكراناً .

(٥) وردت محرفة في المخطوطين : (محنه . محنته) .

(٦) هكذا في المخطوطين والملكية . وفي اللمحة البدرية : استبصر .

(٧) هكذا وردت في اللمحة . وفي المخطوطين : الشر . وهو تحريف ظاهر . وقد سبق التعريف بمدينة ألشر (نظر الحاشية في ص ٥٤٩) .

جهـــاده

وباشر هذا السلطان الوقائع ، فانجلت ظلماتها ، عن صُبح نَصْره ، وطُرِّزت مواقعها بطراز جلادته وصبره ؛ فمنها وقيعة المطران وغيرها ، مما يضيق التأليف عن استقصائه . وفى شهر المحرم من عام خمسة وتسعين وستمائة[1] ، على تَفِئة[2] هلاك طاغية الروم ، شانجه بن أدفونش[3] ، عاجل الكفار لحين دَهْشهم ، فحشد أهل الأندلس ، واستنفر المسلمين ، [فاغتنم][4] الداعية ، وتحرك فى جيش يجرُّ الشَّوك والشجر ، ونازل مدينة قِيجَاطَة[5] وأخذ بكَظَمها ، ففتحها الله على يديه ، وتملك بسببها جملة من الحصون التى ترجع إليها ؛ وكان الفتح فى ذلك عظيما ، وأسكنها جيشاً من المسلمين ، وطائفة من الحامية ، فأشْرَقت العدُوُّ بريقِهِ . وفى صائفة عام تسعة وتسعين وستمائة ، نازل مدينة القبذاق[6] فدخل جَفْنها ، واعتصم من تأخَّر أجله بقصبتها ، ذات القاهرة العظيمة الشأن ، الشهيرة فى البلدان ، فأحيط بهم ، فخُذلُوا وزلزل الله أقدامهم ؛ فألقَوا باليد ، وكانوا أمنع من عُقاب الجو ؛ وتَملَّكها على حكمه ، وهى من جلالة الوضع ، وشهرة المنعة ، وخِصْب السَّاحة ، وطيبِ الماء ، والوصول إلى أفلاذ الكفر ، والاطِّلاع على عَوْراته ، بحيث شهر . فكان تيسُّر فتحها من غرائب الوجود ، وشواهد اللُّطف ، وذلك فى صلاة الظهر من يوم الأحد

---

(١) هكذا فى اللمحة وهو الصواب . وفى « ك » سبعمائة صححت إلى ستمائة . وفى « ج » سبعمائة وهو تحريف .

(٢) أى على أثره وعلى حينه .

(٣) هكذا رسمت فى « ك » . وفى « ج » : دفونش .

(٤) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوطين . والإضافة من اللمحة .

(٥) هى مدينة أندلسية قديمة من أعمال ولاية جيان تقع على مقربة من أبدة . ومكانها اليوم المدينة الإسبانية الحديثة Quesada .

(٦) هكذا فى « ج » واللمحة . وفى « ك » : النبذان . والقبذاق Alcaudete مدينة أندلسية قديمة من أعمال ولاية قرطبة .

الثامن لشهر شوال عام تسعة وتسعين[1] وستمائة ؛ وأسكن بها رابطة المسلمين ، وباشر العمل فى خندقها بيده رحمه الله ، فتساقط الناس ، من ظهور دوابهم إلى العمل ، فتم ما أريد* منه سريعاً .

وأنشدنى شيخُنا أبو الحسن الجيّاب يهنئه بهذا الفتح :

عدوُّك مقهورٌ وحِزبك غالبُ ... وأمرُك منصور وسَهمُك صائبُ
وشخصُك مهما لاح للخلْق أذْعَنَت ... لهيْبَتِه عجم الوَرَى والأعاربُ

وهى طويلة .

من كان على عهده من الملوك

كان على عهده بالمغرب ، السلطان الجليل ، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، الملقب بالمنصور ؛ وكان ملكاً صالحاً ، ظاهر السذاجة ، سليم الصدر ، مخفوض الجناح ، شارعاً أبواب الدَّالة عليه منهم ، أشبه بالشيوخ منه بالملوك ، فى إجمال اللَّفظ ، والإغضاء عن الجَفْوة ، والنداء بالكُنْية[2] . وهو الذى استولى على مُلك ، الموحدين ، واجتَثَّ شجرتهم من فوق الأرض ، وورث سلطانهم ، واجتاز إلى الأندلس ، كما تقدَّم مرَّات ثلاث أو أزيد منها ، وغزا العدوَّ ، وجرت بينه وبين السلطان المُترجم به أمور ، من سَلْم ومُناقضة ، وإعتاب ، وعَتْب[3] ، حسبما تدلُّ على ذلك القصائد الشَّهيرة المُتَداولة ؛ وأولها ما كتب به على عهده ، الفقيه الكاتب الصّدر ، أبو عمرو بن المُرابط ، فى غرض استنفاد للجهاد :

هل من مُعيني فى الهوى أو مُنْجدى ... من مُتْهم فى الأرض أو مُنْجد

(١) هكذا فى « ج » . وفى « ك » وسبعين . وهو تحريف .
* وهنا ينتهى مخطوط دار الكتب المصرية المرموز له فيما تقدم بحرف « ك » . وقد قطع الكلام قطعا فى لوحته الأخيرة رقم ١٢٢ مما يدل على أنه لم يكن سوى قطعة كبيرة من كتاب « الإحاطة » حسبما أوضحنا ذلك فى مقدمة الكتاب .
(٢) وردت فى « ج » : والكينة . والتصويب من اللمحة .
(٣) هكذا فى « ج » . وفى اللمحة ، وعتب وإعتاب .

وتوفى السلطان المذكور بالجزيرة الخضراء فى عُنْفوان وَحْشة بينه وبين هذا السلطان فى محرم خمسة وثمانين وستمائة ؛ وولى بعده ولده ، العظيم الهمّة ، القوى العزيمة ، أبو يعقوب يوسف ، وجاز إلى الأندلس على عهده ، واجتمع به بظاهر[١] مَرْبلّة ، وتجدّد العهد ، وتأكد الودّ ؛ ثم عادت[٢] الوَحْشة المُفْضية إلى تغلب العدو على مدينة طريف ، فُرْضَة[٣] المجاز الأدنى ، واستمرت أيام السلطان أبى يعقوب إلى آخر مدة السلطان المترجم به ، ومدة ولده بعده .

وبوطن تِلِمْسان ، أبو يحيى يغمور ، وهو يَغْمُراسِن بن زَيَّان بن ثابت بن محمد ابن بندوسن[٤] بن طاع الله بن على بن يمل ، وهو أوحدُ أهل زمانه جرأة وشهامة ، ودهاء ، وجزالة ، وحزماً . مواقفه فى الحروب شهيرة ، وكانت بينه وبين بنى مَرين وقائع ، كان عليه[٥] فيها الظهور ، وربما نَدَرت الممانعة ؛ وعلى ذلك فقوى الشكيمة ، ظاهر المنعة . ثم ولى بعده ولده عثمان إلى تمام مدة السلطان المترجم به ، [وبعضاً من دولة ولده][٦] .

وبوطن إفريقية ، الأمير الخليفة ، أبو عبد الله بن أبى زكريا بن أبى حَفْص ، الملقب بالمستنصر ، المثل المضروب ، فى البأس والأنفة ، وعِظَم الجَبَروت ، وبُعد الصيت ، إلى أن هلك سنة أربعة وسبعين وستمائة ؛ ثم ولده الواثق بعده ، ثم الأمير أبو إسحاق[٧] وقد تقدم ذكره . ثم كانت دولة الدَّعِيّ ابن أبى عمارة[٨] المتوثّب على مُلْكهم ؛ ثم دولة أبى حفص مُسْتَنْقِذها من يده ، وهو عمر بن أبى زكريا ابن عبد الواحد ؛ ثم السلطانُ الخليفةُ الفاضل ، الميمون النَّقيبة ، أبو عبد الله

---

(١) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : على ظاهر .
(٢) فى « ج » عاهد . والتصويب من اللمحة . (٣) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : فرصة .
(٤) هكذا فى اللمحة . وفى « ج » : بندوهن . والأولى أرجح .
(٥) فى « ج » عليها . والتصويب من اللمحة .
(٦) هذه الزيادة من اللمحة . (٧) هكذا فى اللمحة وفى « ج » إسحاق .
(٨) سبق أن عرف ابن الخطيب بأخباره (أنظر ص ٣١٦ – ٣١٨) .

[محمد][1] بن الواثق يحيي بن المستنصر أبي عبد الله ، بن الأمير زكريا .

وبوطن النَّصارى ، بقَشتالة ، ألفُنش بن هِراندة ، إلى أن ثار عليه ولده شانجُه ، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب ، واستجار به ؛ وكان من لقائه بأحواز الصَّخرة من كورة تا كُرُنّا ما هو معلوم . ثم ملك[2] بعده ولده شانجُه ، واتّصلت ولايته مدة أيام السلطان ، وجرت بينهما خُطوب إلى أن هلك عام أربع وسبعين وستمائة . وولى بعده ولده هِراندة سبعة عشر عاماً ، وصار المُلك إليه ، وهو صبيٌّ صغير ، فتنفَّس مُخنَّق [أهل][3] الأندلس ، وغزا سلطانهم [وظهر][4] إلى آخر مدته.

وبرَغُون ، ألفُنْش بن جايمش بن بِطره بن جايمش المستولى على بلنسية. ثم هلك وولى بعده جايمش ولده ، وهو الذى نازل مدينة ألمرية على عهد نصرٍ ولده ، واستمرت أيام حياته إلى آخر مدته . وكان لانظير له فى الدَّهاء ، والحزم ؛ والقوة.

ومن الأحداث فى أيامه

على عهده تفاقم الشَّر ؛ وأعيا داء الفتنة ؛ ولقَحَت حرب الرؤساء ؛ الأصهار من بنى إشْقيلولة ؛ فمن دونهم ؛ وطَنَب سُرادِق الخلاف ؛ وأصاب الأُسَر وخول الثروة الرؤساء ؛ فكان بوادى آش الرئيسان أبو محمد وأبو الحسن ؛ وبمالَقَة وقارِش الرئيس أبو محمد عبد الله ؛ وبقُمارش ؛ رئيس آخر [هو][5] الرئيس أبو إسحاق . فأما الرئيس أبو محمد فهلك ؛ وقام بأمره بمالقة ، ولده ؛ وابن أخت السلطان المترجم به . ثم خرج عنها فى سبيل الانحراف والمُنابذة إلى ملك المغرب ؛ ثم تصيّر أمرها إلى السلطان ؛ على يد واليها من بنى على . وأما الرئيسان فصابرا[6]

---

(١) الزيادة من الملكية .

(٢) وردت فى « ج » والملكية : هلك ، وهو تحريف ، والتصويب من اللمحة .

(٣) هذه الكلمة الزائدة واردة فى اللمحة . (٤) هذه الزيادة من اللمحة .

(٥) ساقطة فى « ج » . ويقتضيها السياق . (٦) فى « ج » : فصار و التصويب من اللمحة.

المضايقة ، وعزماً على النطاق والمقاطعة بوادى آش زماناً طويلا ؛ وكان آخر أمرها الخروج عن وادى آش إلى ملك المغرب ، مُعَوَّضين[1] بقصر كتامة ؛ حسبما يذكر فى أسمائهم ؛ إن بلَّغنا الله إليه .

وفى أيامه ، كان جواز السلطان المجاهد أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ؛ إلى الأندلس ، مُغازياً ومجاهداً فى سبيل الله ؛ فى أوائل عام اثنين وسبعين وستمائة، وقد فسد مابين سلطان النصارى وبين ابنه[2] . واغتنم المسلمون الغرّة، واستُدعى سلطان المغرب إلى الجواز؛ ولحق به السلطان المترجم به؛ وجمع مجلسه بين المُنْتَزين عليه وبينه؛ وأجلت الحال عن وَحْشَة، وقُضِيت الغُزاة؛ وآب السلطان إلى مستقرّه.

وفى العام بعده ، كان إيقاع السلطان ملك المغرب بالزعيم « ذُنُونَه » (٣) ؛ واستئصال شأفته ، وحصْدُ شوكته . ثم عبر البحر ثانية بعد رجوعه إلى العُدْوة؛ واحتلّ بمدينة طريف فى أوائل ربيع الأول عام سبعة وسبعين وستمائة ؛ ونازل إشبيلية ، وكان اجتماع السلطانين[4] بظاهر قُرطبة ؛ فاتصلت اليد ؛ وصلُحت الضمائر؛ ثم لم تلبث الحال أن استحالت إلى فساد ، فاستولى ملك المغرب على مالقة؛ بخروج[5] المنتزى بها إليه ؛ إلى يوم الأربعاء التاسع والعشرين لرمضان عام سبعة وسبعين وستمائة . ثم رجعت إلى مَلِك الأندلس بُمداخلة من كانت بيده ولنظره[6]، حسبما يأتى بعد إن شاء الله .

---

(١) فى « ج » : معرضين . وهو تحريف .

(٢) وردت فى « ج » (وابنه) والتصويب من الملكية .

(٣) هو دون نونيو دى لارا Nuno de Lara صهرملك قشتالة ألفونسو العاشر ، وكان يقود الجيش القشتالى فى هذه المعركة الشهيرة التى التق فيها النصارى بالجيوش المغربية والأندلسية المتحدة بقيادة السلطان أبى يوسف يعقوب على مقربة من مدينة إستجة ، والتى أحرز فيها المسلمون نصراً باهراً وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٧٤ هـ . (سبتمبر سنة ١٢٧٥ م) .

(٤) هكذا فى اللمحة : ووردت فى « ج » السلاطين .

(٥) فى « ج » : وخروج . والتصويب من اللمحة .

(٦) وردت فى « ج » قبلها كلمة (وقائع) . والظاهر أنها وضعت هنا سهواً .

وعلى عهده نازل طاغية الروم الجزيرة الخضراء، وأخذ بمُخَنَّقِها ؛ وأشرف على افتتاحها ؛ فدافع الله عنها ؛ ونفّس حصارها ؛ وأجاز الرُّوم بحرها ؛ على يد الفئة القليلة من المسلمين ؛ فعظم المَنْحُ ؛ وأسفر الليل ؛ وانجلت الشدّة ؛ فى وسط ربيع الأول من عام ثمانية وسبعة وسبعين وستمائة.

مــــولده

بغرناطة عام ثلاثة وثلاثين وستمائة. وأيام دولته ثلاثون سنة ؛ وشهر واحد، وستة أيام.

وفـــــاته

من كتاب « طُرْفة العصر » من تأليفنا فى التاريخ ؛ قال ؛ واستمرت الحال إلى أحد وسبعمائة ؛ فكانت فى ليلة الأحد الثامن من شهر شعبان فى صلاة العصر ؛ وكان السلطان رحمه الله فى مصلاه ؛ متوجهاً إلى القِبْلة لأداء فريضته ؛ على أتم ما يكون عليه المُسْلم من الخَشْية والتأهب ؛ زعموا أن شَرَقاً كان يعتاده[1] لمادة كانت تنزل من دماغه ؛ وقد رَجَمَت الظنون فى غير ذلك لتناوله عشيّة يومه كعكا اتخذت له بدار ولى عهده ؛ والله أعلم بحقيقة ذلك. ودفن منفرداً ؛ عن مدفن سلفه ؛ شرقىّ[2] المسجد الأعظم ؛ فى الجِنان المتّصل بداره. ثم ثُنى بمحافده السلطان أبى الوليد ، وعُزِّز بثالث كريم من سُلالته ؛ وهو السلطان أبو الحجاج ابن أبى الوليد ؛ تغمد الله جميعهم برحمته[3] ؛ وشَمَلهم بواسع مغفرته وفضله.

تم المجلد الأول

من كتاب « الإحاطة »

---

(١) هكذا فى « ج » والملكية ، واللمحة . (٢) فى الزيتونة (بشرق). (٣) فى الزيتونة (بعفوه).

الملاحـق والفهارس

صفحة

إستدراكات

— ١ —

سقطت فى صفحة ١٠٤ هذه الحاشية الخاصة بالتعريف بأحمد بن موسى (الوارد إسمه فى أول السطر الثالث من الصفحة المذكورة) . ونصها ما يأتى :

« وهو أحمد بن موسى العروى من مؤرخى الأندلس . ألف كتابا عنوانه « تاريخ الأندلس » ذكره حاجى خليفة فى معجمه «كشف الظنون» . ولكنه لم يصل إلينا . . وتوفى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨م) »

— ٢ —

وردت فى صفحة ١٧٦ (السطر الرابع) فى ترجمة (أحمد بن محمد بن على ابن أحمد بن على الأموى) ما يأتى : « وولى قضاء مدينة الأرش » . وعلقنا نحن على اسم هذه المدينة فى الحاشية رقم ٢ من الصفحة المذكورة بقولنا « والظاهر أن هذا الاسم محرف » .

وقد تحققنا أن صحة الاسم هو مدينة الأربس (بضم الباء) . ومدينة الأربس هذه ذكرها الشريف الإدريسى فى معجمه الجغرافى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (طبع رومة — نابولى ١٩٧٢ ص ٢٩١) . وذكر أنها تقع بين باجة والقيروان ، وبينها وبين باجة مرحلتان ، وبينها وبين القيروان ثلاث مراحل ، وأنها تقع فى وطأة من الأرض عليها سور تراب جيد ، وفى وسطها أعين ماء جارية ، لا تجف ، ولها معدن الحديد .

وكذلك ذكرها ياقوت فى معجمه الجغرافى فى فقرة طويلة ، وذكر أنها « مدينة وكورة بإفريقية . وأكثر غلتها الزعفران ، وبها معدن الحديد . وبينها وبين القيروان ثلاثة أيام من جهة المغرب . وينتسب إليها بعض أكابر العلماء » (القاهرة ج ١ ص ١٧٠ , ١٧١) .

والظاهر أن هذه المدينة قد دثرت لأنها لا تظهر اليوم فى خرائط تونس .

ثبت المراجع

— ١ —

هذه طائفة من أهم المراجع التى رجعنا إليها فى البحث والتحقيق :

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأبى العباس المقرى (القاهرة ١٣٠٢ﻫ).
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض (القاهرة ١٩٤٠ — ١٩٤٢) .
تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر) — طبعة بولاق .
التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (الأجزاء الثلاثة المنشورة بعناية جامعة القاهرة) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (القاهرة ١٩٥٥) .
تكملة الصلة لابن الأبار القضاعى (المكتبة الأندلسية والقاهرة ١٩٥٦) .
صلة الصلة لابن الزبير (المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال — الرباط ١٩٣٧).
الحلة السيراء لابن الأبار (المنشور بعناية العلامة دوزى (ليدن ١٨٥١) . والمنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٤) .
الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشى (الأقسام ١و٢ والسفران الرابع والخامس بقسميه (بيروت ١٩٦٥) .
اللمحة البدرية فى الدولة النصرية لابن الخطيب (القاهرة ١٩٢٨) .
الكتيبة الكامنة فى أهل المائة الثامنة لابن الخطيب (بيروت ١٩٦٣) .
كناسة الدكان بعد انتقال السكان لابن الخطيب (القاهرة ١٩٦٦) .
روضة التعريف بالحب الشريف لابن الخطيب (القاهرة ١٩٦٨) .
نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب (السفر الثانى المنشور بعناية الدكتور مختار العبادى ، والسفر الثالث المخطوط المحفوظ بخزانة الرباط العامة) .
تاريخ اسبانيا الإسلامية (قسم من كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب بيروت ١٩٥٦).
تاريخ قضاة الأندلس لأبى الحسن النباهى (المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال القاهرة ١٩٤٨) .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٤ ﻫ) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى (القاهرة ١٩٥٣و١٩٥٥) .
جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروفنسال (القاهرة ١٩٤٨) .
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى .
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ ﻫ) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢ ﻫ) .
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للشريف الإدريسى (طبع رومة ونابولى سنة ١٩٧٢)
معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٩٠٦) .
ديوان أبى الطيب المتنبى (القاهرة ١٩٤٤) .
ديوان ابن خاتمة (دمشق ١٩٧٢) .
لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكرى . لمحمد عبد الله عنان .
نثير الجمان فى شعر من ضمنى وإياه الزمان للأمير إسماعيل بن الأحمر .

— ٢ —

Brockelmann : Geschichte der Arabischen Literatur.
Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis.
Direnbourg : Les Manuscrits arabes de l'Escurial (V.I. & V. III)
P. Boigues : Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Geograficos Arabigo - Espanoles (Madrid 1898)
D. Pascual Gayangos : Mohamedan Dynasties in Spain.
F. Codera : Mision Historica en Argelia y Tunis (Madrid 1872)
F. J. Simonet : Descripcion del Reino de Granada sacada de los Autores Arabigos (Granada 1872)
F. J. Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897)
Isidro de las Cagigas : Los Mozarabes (Madrid 1947).
G. Remiro : Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino.
M. Asin Palacios : Contribucion a la Toponomia Arabe de Espana.
L. S. de Lucena : Toponomia Granadina (Al-Andalus V. XVII - 2. 1952)
A. Gonzalez Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola.
M. Mûller : Beitrage zur Geschichte der Westlichen Araber (Mûnchen 1866)

فهرست الموضوعات والتراجم

صفحة

القسم الأول

فى حلى المعاهد والأماكن
والمنازل والمساكن

القسم الثانى
فى حلى الزائر والقاطن
والمتحرك والساكن

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست الرســـائل والقطع النثرية

صفحة

فهرست الشعر والشعراء(١)

(١) نورد هنا أسماء الشعراء مرتبة على حروف المعجم ، ونشير الى شعرهم بايراد الشطرة الأولى من البيت الأول من كل قصيدة أو مقطوعة من المنظوم .

فهرست الكتب والرسائل

التى ورد ذكرها خلال الكتاب

— ا —

— ب —

ت ــ ت

ج — خ

د — ذ

ر — ز

س — ش

ص — ع

ف — ق

ك

ل — م

ن — ى

فهرست القبائل والطوائف والدول

فهرست البلدان والأماكن

— ج —

ح — خ

د — ز

— غ —

— ف —

ق — ك

ك — ل

— م —

ن — ى

فهرست الأعـلام

ب — ت

س — ش

ص — ظ

ع — غ

ف — ل

— م —

— ن —

هـ — و

— ى —

« كمل طبع الطبعة الثانية من المجلد الأول من كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » بمطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر بمدينة القاهرة المعزية فى يوم ٢٠ من رمضان المعظم سنة ١٣٩٣ هـ الموافق ليوم ١٦ من أكتوبر سنة ١٩٧٣ »

HISTORY AND BIOGRAPHICAL DICTIONARY OF GRANADA

entitled

AL - IHATA FI AKHBAR GHARNATA

BY

VIZIER LISAN - ud - DIN IBN - ul - KHATIB

Edited with an Intro duction an l Notes

BY

MOHAMED ABDULLA ENAN

Author of : Moorish Empire in Spain. Age of the Almoravides and Almohades. End of the Moorish Empire in Spain. Monumentos Moros en Espana y Portugal, Life and Work of Ibn Khaldun. Life and Work of Ibn - ul - Khatib; etc.

Vol. I

Second and Revised Edition

Publisher : Al-Khanghi Bookshop, Cairo